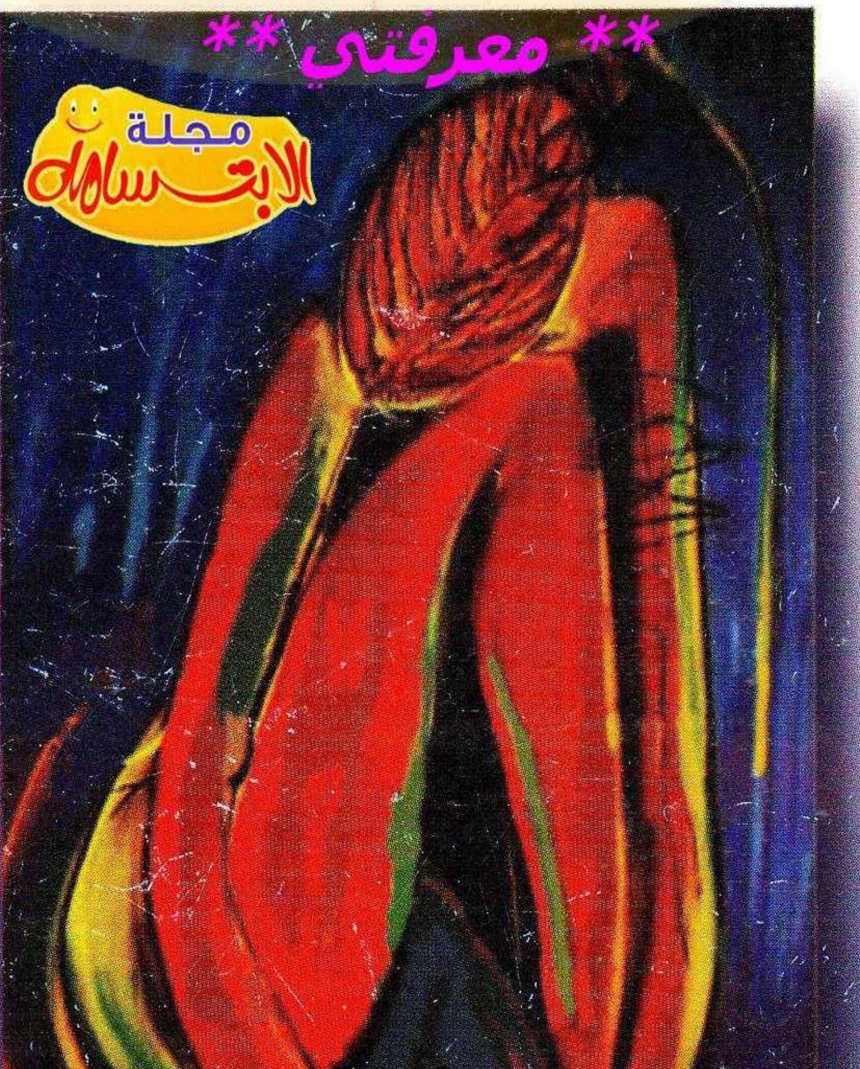
المذنبة

تأليف: مارجريت أتوود

ترجمة: سحر توفيق



المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

786

مجلة الابتسامة

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر إبريل 2017 **
WWW.IBTESAMA.COM

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

المشروع القومى للترجمة

المُذْنِبَــــة

(رواية)

تأليــف: مارجريت أتوود
ترجمـة: ســـحر توفيق

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٥

المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٨٦
- المذنبة (رواية)
- مارجريت أتوود
- سحر توفيق
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة رواية :

Alias Grace

by : Margaret Atwood

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

أيًّا كان ما حدث طوال هذه السنوات
يعلمُ الله أنى أقول الحق، إذ أقول أنك كاذب

ويليام موريس

"The Defence of Guenevere"

ليس لى منبر للقضاء

إميلى ديكنسون

Letters

لا يمكننى أن أخبرك ما هو الضوء، لكن
يمكـــــننى أن أعــرف ما هو ليس بضـــوء ...
ما الذى يحرك الضوء؟ ما هو الضوء؟

أيوجين مارايس

The Soul of The White Ant

المحتويات

مقدمة		9
الفصل الأول	الحافة الصخرية	19
الفصل الثانى	الطريق الصخرى	25
الفصل الثالث	فتاة فى أزمة	37
الفصل الرابع	أحلام طبيب شاب	75
الفصل الخامس	أطباق مكسورة	151
الفصل السادس	درج الأسرار	211
الفصل السابع	سياج الأفاعى	283
الفصل الثامن	الثعلب والإوز	359
الفصل التاسع	قلوب وأحشاء	435
الفصل العاشر	سيدة البحيرة	503
الفصل الحادى عشر	أشجار متهاوية	533
الفصل الثانى عشر	معبد سليمان	565
الفصل الثالث عشر	صندوق باندورا	603
الفصل الرابع عشر	الحرف المجهول	641
الفصل الخامس عشر	شجرة الفردوس	675
كلمة أخيرة		713
شكر وتقدير		721

مقدمة

الكاتبة الكندية مارجريت أتوود، روائية وشاعرة وناقدة أدبية أيضًا، تهتم فى أعمالها بالمرأة، التى تشغل فى رواياتها مكانًا بارزًا، وخاصة ما تتعرض له المرأة من القهر البدنى والنفسى الذى يمارس عليها من أقرب الناس كما من المجتمع بكامله. ولذا كان من الطبيعى أن تهتم بنساء الطبقات الأدنى فى المجتمع، وبتفاصيل حياتهن المليئة بالمشقة والتعاسة.

وعندما تتناول فى هذه الرواية موضوعًا تاريخيًا، فهى لا تخرج عن هذا الخط الذى تعطيه اهتمامها، فالرواية حول امرأة، خادمة. وفى القرن التاسع عشر، ربما كانت النظرة إلى المرأة مختلفة عنها اليوم، إلا أنها كانت أكثر قهرًا، مهما غلفت بأردية ملونة وأزياء بديعة تجعلها فى شكل طائر البجع أو أميرات القصص الخيالية. لكنها نفس هذه الأردية هى "أقفاص" تحبسها. إنها نظرة المجتمع إلى المرأة، طريقة الملبس، طريقة المشى التى يعلمونها للفتيات الصغيرات، إقناع المرأة بأنها كائن ضعيف معرض للإغماء والوقوع لأقل سبب. ولكن هذا بالنسبة للطبقات الأرقى من المجتمع، أما نساء الطبقات الدنيا فهن على العكس يعاملن على أنهن قادرات على تحمل جميع صنوف القهر، العمل ٢٤ ساعة فى اليوم، إن ما ترويه بطلة الرواية عن عملها فى يوم كامل يثير الذعر، ففترة الراحة التى تتمناها هى الجلوس فى الشمس بعد الظهر لرتق الثياب.

تأخذنا مارجريت أتوود فى رحلة عبر الزمن، لندخل إلى دهاليز حياة وعقل واحدة من أشهر نساء القرن التاسع عشر فى القارة الأمريكية. أدينت جريس ماركس بتهمة التورط فى جريمة قتل بشعة، راح ضحيتها مخدومها الثرى، توماس كينير، ومدبرة منزله وعشيقته نانسى مونتجومرى. شغلت هذه الجريمة الصحف والرأى العام طويلاً فى كندا والولايات المتحدة، بل وطارت أخبارها والنقاش حولها إلى أوروبا، خاصة بريطانيا، وظلت الصحف تكتب عنها حتى نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فالفتاة التى شاركت فى ارتكاب الجريمة كانت صغيرة جدًّا، مما أثار نقاشًا طويلاً وانقسامًا كبيرًا فى الرأى حول دورها الحقيقى فى الجريمة، هل كانت شريكًا فعليًّا فى الجريمة؟ هل كانت هى المجرم الحقيقى المحرض على ارتكاب الجريمة؟ وما دلالات ذلك على أنها شيطانة فى صورة آدمية؟ وما هى الدلالات الأخرى الخاصة بجنس المرأة بشكل عام؟ ثم هناك الرأى الآخر الذى رأى أنها كانت مجرد شخصية ساذجة استطاع الخادم القاتل أن يثير فيها الرعب إلى درجة أنها أطاعت أوامره خوفًا على حياتها.

صدر الحكم على جريس فى البداية بالإعدام، ثم تم تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة. وبدلاً من الإعدام، حولوها فى حياة السجن والمصحة العقلية إلى امرأة صامتة، مغلقة، يملؤها الخوف والهواجس، لا تتكلم إلا إذا وجه إليها الكلام، وفى هذه الحالة لا تقول إلا الإجابة المختصرة المهذبة: "نعم يا سيدتى، لا يا سيدتى، نعم ولا يا سيدى!". تعرضت جريس ماركس إلى كل أنواع القهر، القهر البدنى، الجنسى، والقهر النفسى، حتى أصبحت رمزًا صامتًا للقهر البدنى والنفسى.

إن مواجهتها الأولى مع الطبيب الذى يقيس الرؤوس معبرة للغايـــة عمـــا وصلت إليه حالتها النفسية تجاه الأطباء الذين التقت بهم فى حياتها.

ويأتى د. سايمون چوردان، الطبيب النفسى الشاب الواعد الملىء بالآمال الكبيرة فى مستقبل باهر للطب النفسى، والذى يحلـــم بالإنجـــازات العلمية الكبيرة، يأتى د. چوردان ليحاول فتح هذه الصدفة المغلقة. وبعـــد محاولات عديدة، تبدأ فى الانفراج، لتحكى لنا قصة حياتها الأليمـــة علـــى مدى ثلاث أو أربع سنوات قبيل هجرتها مع عائلتها إلى كندا حتى دخولها السجن. وتلفت الكاتبة النظر فى ثنايا الرواية بشكل صريح إلى أن القصة التى تحكيها جريس للطبيب هى صورة من رواية شهرزاد إلى شـــهريار. والواقع أن المؤلفة تغزل قصة جريس مع قصة هذا الطبيب بطريقة تجعلنا نرى نظرة المجتمع إلى المرأة بشكل أوضح، من ناحية، والســـجن الـــذى يمكن أن يعيش فيه الإنسان، السجن الحقيقى والسجن الافتراضى المصنوع من نظرة المجتمع إلى تصرفات الآخرين، من ناحية أخرى. وفى مقابلـــة بين قصة جريس وقصة سايمون، فإن الكاتبـــة تضع القـــارئ فى موقـــف لا يمكن معه أن يتغاضى عن المقارنة بينهما، فكلاهما وحيد، كلاهما يعيش فى سجن، هى تتعرض لمضايقات المساجين والسجناء على السواء، وهـــو يتعرض لمضايقات صاحبة البيت التى تؤثر عليه حتى "تأسره" فلا يستطيع منها فكاكًا، وتتحول قصته مع صاحبة البيت إلى صورة هزلية مما يفترض الكثيرون أنه حدث مع جريس، امرأة تحاول حث عشيقها على قتل زوجها، وتدفعه إلى ذلك بالجنس، فهل كانت جريس محرضة لعشـــيقها (!!) علـــى ارتكاب جريمة القتل؟ إن كُلاً منهما يبحث عن الحقيقة من وجهة نظـــره،

والتى نكتشف فى النهاية إنها حقيقة شبحية، غامضة، أشبه بحالة التنويم المغناطيسى، أو الحق أنها نوع من تحضير الأرواح.

أما مسألة هل ارتكبت جريس ماركس الفعل المجرم حقًّا أم أنها بريئة منه، فقد وضعتها الكاتبة فى غموض شديد، فالمسألة ليست ارتكابها للفعل أو براءتها منه، فالواقع أنها كانت أقرب إلى طفلة فى ذلك الوقت. كما أن الهدف الرئيسى من الرواية لم يكن عملية كشف هذا الغموض، فهى ليست رواية بوليسية وإنما كان كشف ما أدى إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة من أوضاع اجتماعية وظلم طبقى وحياة قاسية، وكشف ما كان يمارس ضد المرأة فى زمان آخر غير زماننا، وكذا عرض بانوراما نرى فيها تفاصيل الحياة اليومية للقرن التاسع عشر، لكل من طبقة السادة وطبقة الخدم، والبون الشاسع بينهما. إن الطبيب وهو يسمع من جريس حكايتها تتراءى له مقاطع منها فى حياته نفسها، كواحد من أبناء الطبقة "الأخرى"، يرى نفسه وهو يستكشف حياة الخادمات فى بيت أسرته، ويتذكر اكتشافاته الأولية للمشاعر الجنسية مع هؤلاء الفتيات، وربما يكون قد ظلم واحدة أو أكثر منهن كما ظلمت مارى هويتنى؟

تستخدم الكاتبة اقتباسات من القصائد، وروايات الجرائد، والكتب والرسائل، لتملأ الرواية بالحيوية وتنقل لنا صورة دقيقة للحياة اليومية فى ذلك العصر، حتى يمكنك أن ترى تفاصيل هذه الحياة المليئة بالعمل الشاق من الصباح الباكر حتى الليل بالنسبة للخادمة. أما بالنسبة للطبقات الأرقى من المجتمع، فهى الحياة المليئة بالملل والرتابة وعدم القدرة على الرؤية الواضحة إلى درجة البحث عن شاغل يدعى الالتصاق بعلوم العصر، لكنه

ينتهى إلى الدخول فى الدجل والشعوذة لقضاء الوقت، مع إضفاء صورة علمية، والتعلل بأسباب دينية، للإيحاء بالجدية والصدق.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتناول الأدب فيها هذه القصة الواقعية، بل إن المؤلفة نفسها سبق لها أن قدمتها فى عمل تليفزيونى، ولكن ذلك كان قبل أن تقرأ تفاصيل القصة من أطراف أخرى بحيث يمكنها الحصول على نظرة مختلفة عن النظرة السائدة فى قراءتها الأولى. وفى الخاتمة التى تقدمها الكاتبة، تحدثنا عن تفاصيل النظرتين المختلفتين للرواية.

وفى كتابتها للقصة هذه المرة، تدخل مارجريت أتوود إلى القرن التاسع عشر، لتلقى نظرة على الحياة الاجتماعية للخدم فى ذلك الوقت. لقد كانت التفاصيل الكثيرة للحياة اليومية التى يخوضها أبناء هذه الطبقة من الكثرة والإرهاق لدرجة يصعب تصديقها اليوم بعد أن أصبح كل بيت يحتوى من الأدوات والآلات الكهربائية ما يغنى عن عدد كبير من الخدم، وأحيانًا عن الخدم جميعًا.

إن التغيير الذى طال حياة النساء فى الغرب فى القرن العشرين، خاصة فى أمريكا الشمالية وأوروبا، هو ظهور أدوات الغسيل الكهربائية التى جعلت من غير المهم وجود كثير من الخدم. فهم ليسوا بحاجة إلى تضييع اليوم بكامله فى أعمال البيت. وهذا جعل من الممكن للمرأة أن تقوم بالعمل خارج البيت. وكان التغير الاقتصادى فى ذلك العصر هو الباعث على هذا التغير الجذرى فى حياة المرأة. فكثير من العائلات أصبحت

بحاجة إلى وجود دخل إضافى. بالإضافة إلى حاجة الاقتصاد إلى المزيد من الأيدى العاملة لملاحقة التطورات الجارية فى التصنيع.

وقد استطاعت الكاتبة أن تصور لنا حياة هذه الطبقة العاملة الصعبة بكثير من التفاصيل اليومية البالغة الدقة. لقد كان التمايز الطبقى، والثورة المطالبة بإلغاء العبودية حينذاك، والتى كانت ضمن الأسباب الرئيسية للحرب الأهلية فى الولايات المتحدة، وهو أمر تلمسه الكاتبة بقوة فى خلفية الرواية لأن الغالبية من الخدم كانوا ما يزالون فى نفس الوضع الطبقى المتدنى. لكن جريس عند خروجها من سجنها بعد ٢٨ عامًا تقول أنه لم يعد هناك فرق كبير فى الملبس بين الطبقات المختلفة، دلالة على بداية تغير الأوضاع فى ذلك الوقت.

تستغل الكاتبة خيطًا آخر مثيرًا، التطور العلمى الحادث فى القرن التاسع عشر، على عدة مستويات، فالأم لا تكل من الحديث عن "ماكينة الخياطة المنزلية"، الاختراع الحديث الذى سيوفر الكثير من المجهود، فى نفس الوقت لا تتوقف جريس عن الخياطة اليدوية طوال الجلسات التى تتحدث فيها إلى الطبيب. ومن ناحية أخرى، هناك الأبحاث الطبية النفسية الحديثة فى ذلك الوقت، وفى مقابل ذلك، هناك الهوس المنتشر بالروحانية والروحانيين، والذى يتجلى فى جلسات تحضير الأرواح وغيرها من وسائل الدجل والشعوذة. هناك أيضًا الجدل الدائر بين المذاهب الدينية المسيحية, وخاصة البروتستانتية، والذى كان أيضًا من سمات ذلك العصر. وقد تمكنت الكاتبة من غزل كل ذلك فى روايتها ليكون متسقًا ومعبرًا عن روح العصر.

كان الاعتقاد الشائع فى القرن التاسع عشر أن النساء مخلوقات غامضة ولا يمكن سبر غورها. ومن المؤكد أن هذا الشعور يتضاعف عندما تكون المرأة متهمة فى جريمة قتل. والواقع أن كثيرًا من النساء اللاتى اتهمن بارتكاب جرائم قتل فى ذلك العصر تمت إدانتهن لأنهن فعلن أشياء لم يكن المجتمع يوافق عليها. فإذا تورطت امرأة فى قضية ما، وظهر أن فى الأمر علاقة آثمة، فإن أملها فى النجاة ضعيف مهما كانت بريئة من الجريمة الأصلية. وتقول مارجريت أتوود فى حوار معها حول الرواية إن ما ورط جريس شيئان:

أولهما أنها وجدت فى فندق مع رجل، رغم أنها كانت فى الواقع فى غرفة أخرى، ولكن مجرد وجودها فى الفندق كان معناه تدمير سمعتها. والأمر الثانى أنها كانت ترتدى ملابس نانسى فى المحاكمة، وقد وجه ذلك المشاعر ضدها بشدة، ولكن لماذا ارتدت هذه الملابس؟ لأنها جيدة، وتؤدى الغرض، ولم تعد نانسى بحاجة إليها. والواقع أنها لم يكن لديها خيال الطبقة الوسطى أو العليا، والذى قد يقول: "لا يمكن أن أرتدى هذه الثياب، إنها ثياب الشخصية الميتة.."، ليس لديها هذا النوع من التفكير. فالشال هو شال، والفستان هو فستان. ومثل هذه الأشياء لا تلقى إلى عرض الطريق. عندما تسافر إلى الهند ستجد أن كل شىء يستخدم، كل شىء. لن تجد أكياس بلاستيك فى

الشارع، فلا أحد يلقى بها، لأنها يعاد اســتخدامها مرات ومرات. وعندما لا يمكن أن تستخدم أكثر من ذلك، سوف يتم تقطيعها وتحويلها إلى أنواع مــن الديكورات. ومن هنا تأتى فكرة الأغطية المصنوعة من قطع الأقمشة.

إن صورة المرأة الضعيفة أو الممتنة كانت هى الصورة المثيــرة للمرأة فى نظر الرجال، كانت هى صورة المرأة فى ذلك العصــر، فــى اللوحات، فى الأوبرات، فى الشعر. والحقيقة أن من الأشياء الجذابة جــدًّا للفنان فى تلك الفترة إنقاذ النساء المغمى عليهن، المرأة المجنونة المغشــى عليها. نستطيع أن نرى ذلك فى تراث ذلك العصر. إذن، فــالنظرة إلــى المرأة كمخلوق غامض وضعيف، بالإضافة إلى النظرة المتدنية إلى المرأة كأداة للجنس، ثم ما يحمله المجتمع من تناقض فى هذه النظرة التى نتيجتها أن السادة الأثرياء يرون أن من حقهم الاعتداء على خادمات البيت وكأنهن ملك لهم. هذه النظرة التى عانت منها صديقة جريس معاناة أودت بحياتها، ثم يتردد صداها فى ذكريات سايمون نفسه. وهناك النظرة إلى المرأة التى تنتمى إلى علية القوم بأنها ينبغى أن تكون ضعيفة، حتى أن الجدل العلمى يردد بعض الآراء القائلة بأن بنية عمودها الفقرى ضعيف بطبيعته، وأنهــا لابد أن تربطه حتى تستطيع أن تقف بشكل مستقيم، ولابد أن يعيد ذلك إلى ذاكراتنا الوسائل التى اتبعتها الحضارات الأخرى لقمع المرأة مثــل ربــط القدمين فى الصين، والاختباء تحت خيمة سوداء طوال الوقت عند العرب.

استطاعت مارجريت أتوود رسم شخصياتها ببراعة متناهية، حتى أن الشخصيات تكاد تنطق بالحياة، فى كل تصرفاتها وكلامها ولهجتها. والواقع أن هذا أوجد مشكلة لى فى الترجمة، فمعظم كلام جريس يقترب كثيرًا من العامية، بل إن معظم العبارات هى عامية صريحة، وفى الترجمة يصعب أن ننقل ذلك إلى العامية، لأسباب عديدة، أولها أن اللغة العربية بها عاميات كثيرة ومختلفة، ومن الصعب أن نقرر أية عامية هى الأنسب، لذلك حاولت استخدام لغة عربية مبسطة فى حوار جريس، خصوصًا فى الأجزاء التى تقوم فيها بدور الراوى، وأحيانًا اضطررت لاستخدام بعض الألفاظ العامية حين رأيت أنه من الصعب التعبير بالفصحى عن مثل هذه المعانى. أما سايمون چوردان والمبجل ڤرينجر وزوجة المحافظ ومسز كوينل، وغيرهم من شخصيات الرواية، فيمكن ببساطة أن نرى فى سلوكياتهم وموضوع حديثهم ولغتهم المعقدة، الفصحى فى الغالب، ما يدل على اهتماماتهم الشخصية، وهو ما يزيد من اقتناعى ببراعة المؤلفة فى رسم الشخصيات وفى وضع الحوار على شفاههم.

هناك مشكلة أخرى قابلتنى فى الترجمة، فالكاتبة تستخدم الاستعارات والكنايات بكثرة بالغة، وكذلك تستغل الأمثال الشعبية وأغلبها من الأمثال القديمة المعبرة عن العصر، خاصة فى حوارات جريس، وكان من الصعب ترجمة مثل هذه الأشياء حرفيًا، لأنها قد تكون بلا معنى فى اللغة العربية، وقد حاولت أن أترجمها كما هى مع إضافة كلمة أو عبارة توضح المعنى المقصود، أو تغييرها بما يقابلها فى الأمثال والتعبيرات العربية الكثيرة المعبرة عن نفس المعنى. وفى بعض الأماكن، حين أعيتنى

الحيلة، لجأت إلى كتابة المعنى المقصود مباشرة، وأرجـو ألا أكـون قـد أسأت التقدير.

أما بالنسبة لما استخدمته الكاتبة من نصوص دينية، فقـد بحثـت عن مقابلها فى الكتاب المقدس باللغة العربية، وأشرت إلى أماكنهـا فـى هامش أسفل الصفحة. ومن ناحية أخرى, فـإن جميـع الهـوامش أسـفل الصفحة ترجع للمترجمة، ولذا فلم أجد ما يدعو إلى الإشارة إلى ذلك على كل هامش.

وأخيرًا، تعتبر هذه الرواية أحد النماذج الروائية التى تتخذ مـن التاريخ مادة لها. وقد استطاعت الكاتبة أن تعبر بصدق عن روح العصر، فى وصفها للأزياء، وطرائق الحياة، وطرق العناية بالمنزل، والمواصلات المستخدمة وتطورها على مدى السنوات التى تمثل زمن الرواية، والتطور العلمى الحادث فى ذلك الوقت من الناحيتين النظريـة والماديـة، ونظـرة المجتمع بفئاته المختلفة إلى المرأة، وإلى العلاقات الاجتماعية بشكل عـام، بالإضافة إلى شكل السجون والمصحات العقلية فى ذلك العصر، والأساليب المتبعة فيها، وتضع الكاتبة فى مقدمة الفصل الثانى اقتباسًـا مـن "كتـاب العقوبات" يوضح أنواع العقوبة المستخدمة فى الإصلاحية للمذنبين الـذين يرتكبون، داخل السجن، ما يستحقون عليه التأديب.

سحر توفيق

المعادى، ٢٠٠٥

الفصل الأول

الحافة الصخرية

فى وقت زيارتى للإصلاحية، لم يكن فيـــها إلا أربعون امرأة . وهـذا يفصـح عـن التربيـة الأخلاقية الرفيعة للجنس الضعيف. كـان الهـدف الرئيسى من زيارتى لقسم النساء أن ألقـى نظـرة على القاتلة الشهيرة جريس ماركس، التى سـمعت عنها الكثير، ليس فقط من الصحف العامة، ولكـن أيضا من الرجل المحترم الذى دافع عنهـا أثنـاء محاكمتها، والذى كان دفاعه القدير منقذا لها مـن حبل المشنقة التى أنهىّ شـريكها البـائس حياتـه الإجرامية عليها.

سوزانا مودى

***Life in the Clearings,* 1853**

تعال، انظر

سترى الزهور الحقيقية

لهذا العالم الموجع

باشو

- ١ -

بين الحصى، تنمو بعض أزهـار الفاوانيـا. تنبثـق مـن بـين الحصوات الرمادية المتقلقلة، براعمها تتشمم الهواء كقرون الحلزون، ثـم تنتفخ وتتفتح وردًا حمراء قانية، تتألق وتلمع كالساتان. ثم تنفجر وتتنـاثر على الأرض.

وفى اللحظة التى تسبق انتثارها، تبدو أشبه بأزهار الفاوانيا فـى الحديقة الأمامية لبيت السيد كينير. وفى اليوم الأول، لم تكن هذه الأزهـار إلا باللون الأبيض. كانت نانسى تقطفها وهى ترتدى ثوبا فاتح اللـون بـه براعم وردية وله ثلاث طبقات من الحواشى الهدبية، وتضع على رأسـها قبعة من القش تخفى وجهها. كانت تحمل سلة منبسطة لتضع الزهور فيها؛ وعندما تنحنى كانت تثنى أردافها محتفظة بوسطها مسـتقيما، كمـا تفعـل سيدات الطبقة الراقية. عندما سمعتنا والتفتت لترانا، رفعت يدها نحو عنقها وكأنما فوجئت بنا.

عندما أسير، أخفض رأسى، وأحافظ على خطواتى مع الآخرين، عيناى لأسفل، نسير اثنين اثنين بصمت حول الفناء، داخل المربـع الـذى بُنيت حوله الجدران الحجرية العالية. أضمّ يدىّ أمامى؛ مشـققتان، وقـد احمرت مفاصل الأصابع. لا أذكر أنهما كانتا فى أى وقت على غير هـذه الحال. أرى طرفى حذائى، يظهران ويختفيان بالتبادل تحت حافة ثـوبى،

أبيض وأزرق، صوت خطواتهما يصنع جلبة على الممشى. هــذا الحــذاء يناسبنى أكثر من أى حذاء آخر كان عندى من قبل.

نحن فى العام ١٨٥١. سأبلغ الرابعة والعشرين فى عيد مــيلادى القادم. وأنا سجينة هنا منذ الســادســة عشرة من عمرى. ســجينة مثالية، لا أثير متاعب. هذا ما تقوله زوجة المحافظ، سمعتها خلسةً تقول ذلك، فأنا ماهرة فى استراق السمع. وإذا كنت حسنة السير والسلوك، فقد يفرجــون عنى؛ لكن حسن السير والسلوك ليس سهلاً، إنه أشبه بأن تكون معلقًا بحافة الجسر بعد أن تقع من عليه؛ لا يبدو أنك تتحرك أو تبذل أى مجهود، وإنما تبقى متدليًا منه، ومع ذلك فهذا الوضع يستغرق كل قواك.

أراقب أزهار الفاوانيا بطرف عينىّ. أعرف أن هذا ليس أوانها، فنحن فى أبريل، ولا تزهر الفاوانيا فى أبريل. والآن، توجد ثلاث أخرى، أمامى مباشرة، تنمو على الطريق نفسه. أمد يدى خلسة لألمــس إحــداها. وأحس بها جافة، وأكتشف أنها من القماش.

أمامى مباشرة أرى نانسى، على ركبتيها، شعرها منسدل والــدم يسيل على عينيها. وحول عنقها منديل قطنى أبيض مطبوع بزهور زرقاء، حب فى الضباب، إنه منديلى. ترفع وجهها، تمد يديها إلىّ طلبًا للرحمــة؛ فى أذنيها القرط الذهبى الصغير الذى طالما حسدتها عليه، لكننى لم أعــد أريده الآن، يمكن لنانسى أن تحتفظ به، ففى هذه المرة سيكون كل شــىء مختلفًا، فى هذه المرة سأسرع لنجدتها، سأرفعها وأمسح الدم عنها بأطراف ثوبى، سأمزق تنورتى لأضمد بها جراحها، ولن يحدث مــا حــدث أبــدًا. سوف يعود السيد كينير إلى بيته بعد الظهر، يدخل بالعربة إلى الممشــى، وسوف يمسك مكدرموت الجواد. وسيدخل السيد كينير إلى الردهة وأصنع

له بعض القهوة، وستأخذها نانسى إليه على الصينية كما تحب أن تفعل، وسوف يقول ما أجود هذه القهوة؛ وفى الليل ستخرج اليراعات المضيئة إلى بستان الفاكهة، وسنسمع صوت الموسيقى تحت ضوء المصباح. جيمى وولش، عازف الناى الصغير.

أكاد أصل إلى نانسى، إلى حيث تركع. لكننى لا أخطو، لا أجرى، أظل أسير فى الطابور، اثنين اثنين؛ ثم تبتسم نانسى، فمها فقط يبتسم، أما عيناها فيغطيهما الشعر والدم، ثم تتناثر إلى رُقع من الألوان، إلى ركام من بتلات القماش الحمراء المتناثرة على الحصى.

أضع يدىّ فوق عينى، لأن الدنيا أظلمت فجأة، وثمة رجل يقف هناك حاملاً شمعة، معترضا الدرجات المتجهة لأعلى، وجدران القبو تلتف حولى من كل ناحية، وأعرف أنى لن أخرج أبدًا. هذا ما قلته لدكتور چوردان، عندما وصلنا إلى هذا الجزء من القصة.

الفصل الثانى

الطريق الصخرى

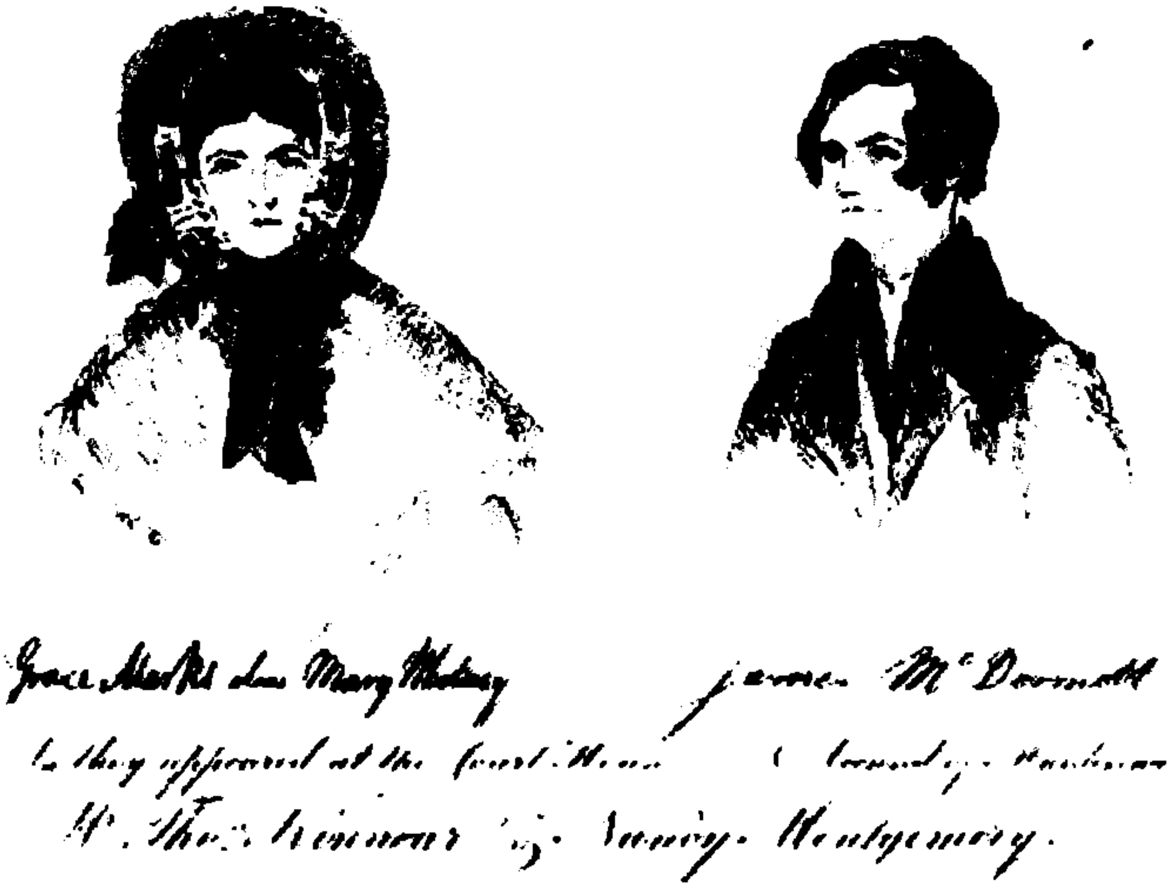
في حوالى الثانية عشرة وعشر دقائق من يوم الثلاثاء، في سجن المدينة الجديد، نُفِّذ حكم الإعدام في چيمس مكدرموت، قاتل مستر كينير. واجتمع حشد هائل من الرجال والنساء والأطفال متلهفين لمشاهدة النزع الأخير لإنسان آثم. ولا نستطيع أن نخمن أى نوع من المشاعر يمكن أن تطويها صدور أولئك النسوة اللاتى تجمهرن من كل حدب وصوب، رغم الأوحال والأمطار، لحضور مثل هذا المشهد المفزع. لكننا نجد الجرأة لنقول أنهن لسن في غاية الرقة أو الدماثة. وفي اللحظة البشعة، بدا المجرم التعيس على نفس حالة البرود والجرأة التي ميّزت سلوكه منذ القبض عليه.

Toronto Mirror

٢٣ نوفمبر ١٨٤٣

الذنب	العقوبة
الضحك والكلام .	٦ جلدات؛ بمجلدة متعددة السياط .
الكلام فى المغسلة .	٦ جلدات؛ بسوط مفرد .
التهديد بكسر دماغ سجين .	٢٤ جلدة، بمجلدة متعددة السياط .
توجيه الحديث إلى الحراس فى مسائل خارجة عن اختصاصهم .	٦ جلدات، بمجلدة متعددة السياط .
ادعاء وجود عيوب فى الجراية عندما يطلب الحراس من السجين الجلوس	٦ جلدات؛ بسوط مفرد، ولا يقدم له سوى خبز وماء
البحلقة فى شرود على مائدة الإفطار .	لا يقدم له سوى خبز وماء .
ترك العمل والذهاب إلى دورة المياه أثناء وجود سجين آخر هناك .	٣٦ ساعة فى زنزانة مظلمة، ولا يقدم له سوى خبز وماء.

كتاب العقوبات
سجن كنجستون، ١٨٤٣



چيمس مكدرموت　　　جريس ماركس

المدعوة مارى هويتنى

كما ظهرا فى قاعة المحكمة متهمين بقتل

توماس كينير　　و　　نانسى مونتجومرى

-٢-

جريمتا قتل توماس كينير، المحترم ومدبرة منزله نانسى مونتجومرى فى ريتشموند هيل ومحاكمة جريس ماركس وچيمس مكدرموت وإعدام چيمس مكدرموت شنقًا فى السجن الجديد بتورنتو، ٢١ نوفمبر ١٨٤٣

كانت جريس ماركس خادمة
عمرها ستة عشر عامًا
وكان مكدرموت سائس الخيل
وكلاهما يعمل فى بيت توماس كينير

كان توماس كينير رجلاً من علية القوم
يعيش حياة مرفهة
وقد أحب مديرة منزله حبًّا حقيقيًّا
وكان اسمها نانسى مونتجومرى

آه، يا نانسى العزيزة، لا تحزنى،
فسوف أذهب إلى المدينة،
لأحضر، من البنك فى تورنتو،
بعض النقود من أجلك

ما كانت نانسى من أصل كريم
وما كانت نانسى ملكة
لكنها ترفل فى الحرير والديباج
أروع ما يمكن أن تراه العين .

لم تولد نانسى سيدة من علية القوم
لكنها تعاملنى كما لو كنت جارية
تلزمنى بالأعمال الشاقة من الفجر حتى الليل،
وستظل تفعل ذلك حتى فى قبرى.

أحبت جريس الرجل الطيب توماس كينير،
أما مكدرموت فقد أحب جريس،
وكان هذا النوع من الحب فى رأيى،
هو ما أدى بهما إلى الهاوية.

أوه يا جريس، كونى حبيبتى المخلصة!
أوه لا، هذا غير ممكن،
إلا إذا قتلت من أجل خاطرى،
نانسى مونتجومرى.

نزل بضربة فأس، بكل قوته،
على رأس نانسى الجميلة،
وجرها إلى باب القبو،
ورماها من فوق سلم القبو.

أرجوك، دعنى أعيش يا مكدرموت.
قالت: دعنى أعيش

نعم، قالت نانسي مونتجومرى: دعنى أعيش،
وسوف أعطيك فساتينى الثلاثة.

دعنى أعيش، ليس لأجل خاطرى أنا،
ولا لخاطر طفلى الذى لم يولد بعد،
بل من أجل حبيبى، توماس كينير،
دعنى أعيش لأرى الصباح.

شدها مكدرموت من شعرها،
وجريس ماركس من رأسها،
هذان المجرمان المتوحشان،
خنقاها حتى الموت.

ماذا فعلت، ضلت روحى،
وأخشى على حياتى!
إذن، ولكى ننقذ أنفسنا،
يجب أن نقتل توماس كينير عندما يعود.

أوه، لا، أتوسل إليك، لا،
أتضرع إليك أن تبقى على حياته!
بل، لابد أن يموت، لأنك أقسمت،
أن تكونى عشيقتى.

عاد توماس كينير إلى البيت راكبًا جواده،
وعلى أرض المطبخ،
قتله مكدرموت، بطلقة اخترقت قلبه،
فوقع مضرجا فى دمه.

جاء البائع المتجول إلى البيت،
هل تشترين ثوبًا منى؟
اذهب عن البيت أيها البائع،
فعندى ثياب تكفى ثلاثة.

جاء الجزار إلى البيت،
كان يأتى كل أسبوع،
اذهب أيها الجزار،
فلدينا ما يكفى من اللحم الطازج!

جردا كينير من أشيائه الفضية،
وجرداه من أشيائه الذهبية،
وسرقا حصانه وعربته،
وانطلقا إلى تورنتو.

عندما هربا إلى تورنتو،
كان ذلك فى منتصف الليل،
وظننا أنهما سيعبران البحيرة،
ويهربان إلى الولايات المتحدة.

يدها فى يد مكدرموت،
بجرأة لا مثيل لها،
ووقفت عند فندق لويستون،
واتخذت اسم مارى هويتنى.

عُثِر على الجثتين فى القبو،
وجهها كلله السواد،
كانت تحت حوض الغسيل،
وكان هو راقدًا على ظهره.

أسرع بيليف كينجسميل للمطاردة،
أخذ مركبًا،
يبحر بأسرع ما يمكن،
إلى لويستون، عبر البحيرة.

لم تكد تمر ست ساعات عليهما فى الفراش،
ست ساعات، أو ربما أكثر،
عندما وصل إلى فندق لويستون،
ودق الباب.

قالت جريس بصوت واضح: من هناك؟
ماذا تريد منى؟
أوه، أنت قتلت السيد توماس كينير،
ونانسى مونتجومرى.

وقفت جريس ماركس فى قفص الاتهام،
وأنكرت كل شىء.
لم أرها مخنوقة،
ولم أسمعه وهو يقع.

هو أرغمنى على صحبته،
وقال إذا أخبرت أحدًا،

سوف يرسلني، بطلقة واحدة،
من بندقيته النافذة، إلى الجحيم.

وقف مكدرموت في قفص الاتهام،
لم أفعل ذلك وحدي،
ولكن من أجل شخص واحد،
جريس ماركس، هي المخطط والمحرض.

وقف الشاب جيمي وولش في قاعة المحكمة،
وأقسم أن يقول الحقيقة،
نعم، جريس ترتدي ثوب نانسي،
وترتدي قبعتها أيضًا!

علقوا مكدرموت من رقبته،
عاليًا على المشنقة،
ووضعوا جريس في سجن كئيب،
حيث ينبغي أن تعاني الحسرة ويصيبها الهزال.

تركوه معلقًا ساعة أو اثنتين
ثم أنزلوا جسده،
وقطعوه إربًا ...
في الجامعة.

على قبر نانسي نمت شجيرة ورد،
وعلى قبر توماس كينير نمت كرمة،
كبرتا وارتفعتا والتفت كل منهما حول الأخرى،
وبهذا تواصل الجسدان معا.

لكن جريس ماركس، ستقضى حياتها التعسة،
كلها، حبيسة فى السجن،
بسبب إثمها وجريمتها البشعة،
فى إصلاحية كينجستون.

لكن، لو تابت جريس ماركس فى النهاية،
وكفرت عن آثامها،
فعندما ستحين ساعتها،
ستقف عند عرش الإله التواب.

سوف تقف عند عرش التواب،
وسوف تبرأ من محنتها،
وسوف تغسل يداها المضرجتان بالدماء،
وتعود بيضاء كالثلج.

ستعود بيضاء كالثلج،
وسوف تعبر إلى السماء،
وتسكن الفردوس،
فى الفردوس أخيرًا.

الفصل الثالث

فتاة فى أزمة

هى امرأة متوسطة الحجم، ولها جسد يميل إلى الجمال. يثير وجهها الأسى العميق بما يشيع فيه من كآبة لا حل لها. بشرتها بيضاء، ولابد أنها كانت شديدة التألق قبل أن تشحب بفعل الأسى واليأس. عيناها زرقاوان لامعتان، وشعرها كستنائى، وكان يمكن أن يكون وجهها جميلاً إلى حد ما لولا تلك الذقن الطويلة المقوسة التى توحى، مثلما هو الحال مع كل من تتميز وجوههم بهذا العيب، بالمكر والقسوة.

وتنظر جريس ماركس إليك نظرة جانبية مختلسة، لا تلتقى عيناها بعينيك أبدًا، وبعد أن تتأملك خفية، تنحنى بنظراتها إلى الأرض ولا تتحول عنها. وهى تبدو شخصية أرقى من حقيقة مكانتها المتواضعة...

سوزانا مودى

Life in the
Clearings, 1853

رفعت الأسيرة وجهها، وكان ناعمًا
ولطيفاً،

كوجه قديس منحوت من المرمر،
أو رضيع نائم،

كان ناعمًا ولطيفًا، كان حلوًا رائقًا،

لم يتمكن الألم من حفر خط،
ولم يتمكن الحزن من إلقاء ظل عليه.

رفعت الأسيرة يدها وضغطت بها
على حاجبها،

وقالت "لقد وقعت فى الأسر، والآن
أعانى،

لكن ذلك لا قيمة له، قد تكون قيودك
وأسلحتك قوية:

وحتى لو كانت من الفولاذ، فلن تقدر
على حبسى طويلاً."

إميلى برونتى

"The Prisoner", 1845

ـ ٣ ـ

١٨٥٩.

أجلس على الأريكة المخملية الأرجوانية، فى قاعة بيت المحافظ، قاعة بيت زوجة المحافظ. لقد كانت دائمًا قاعة زوجة المحافظ رغم أنها لم تكن دائمًا نفس الزوجة، فهم يغيرون المحافظين دائمًا وفقا للسياسات. أضع يدى مضمومتين فى حجرى بالطريقة اللائقة، رغم أننى لا أرتدى قفازًا. القفاز الذى أتمناه سوف يكون ناعمًا وأبيض، ويناسب يدىّ تمامًا دون تجعيدة واحدة.

أنا دائمًا فى هذه القاعة، أرفع أدوات الشاى وأزيل الأتربة عن المناضد الصغيرة والمرآة الطويلة ذات الإطار المزخرف بعناقيد العنب وأوراقه، وعن البيانو، وعن الساعة الطويلة التى جاءت من أوروبا، ولها شمس ذهبية وقمر فضى يخرجان ويدخلان وفق أى ساعة من اليوم تكون، وأى أسبوع من الشهر. هذه الساعة تعجبنى أكثر من أى شىء آخر فى القاعة، رغم أنها تحسب الوقت الذى لدى الكثير منه بالفعل.

لكنى لم أجلس أبدًا على الأريكة من قبل، فهى للضيوف. وقد قالت مسز ألدرمان باركنسون أن السيدة المحترمة يجب ألا تجلس أبدًا فى مقعد قام عنه للتو أحد السادة، رغم أنها لم تذكر السبب؛ لكن مارى هويتنى قالت لى لأنه أيتها الإوزة الغبية، ما يزال دافئًا مطرح عجيزته؛ وكان ذلك

قولاً غير مهذب. ولهذا لا يمكننى الجلوس هنا دون أن أفكر فى أرداف النساء من كل شكل، تلك الأرداف التى جلست على هذه الأريكة، ناعمة وبيضاء، ورجراجة كبيض نصف مسلوق.

ترتدى الزائرات أزياء ما بعد الظهر بصفوف من الأزرار على الصدر، وتحتها بطانة عبارة عن تنورة كرينولين منفوخة بإطار من السلك الصلب. وإنها لأعجوبة أن يستطعن الجلوس أصلاً، وعندما يسرن، لا يلمس أرجلهن تحت التنورات المنفوخة إلا القمصان الداخلية والجوارب. وكأنهن طيور البجع، يتهادين على أقدام خفية، أو هن أشبه بقناديل البحر فى مياه المرفأ الصخرى الذى كان قريبًا من بيتنا عندما كنت صغيرة، وقبل أن أقوم بالرحلة الطويلة الحزينة عبر المحيط. كانت هذه القناديل جميلة، تشبه الأجراس، مكشكشة، تتماوج برقة تحت مياه البحر؛ لكن إذا ألقاها الموج على الشاطئ فجفت تحت الشمس لا يبقى منها شىء. والسيدات كن يشبهنها فى ذلك: منفوخات بالمياه.

عندما أحضرونى هنا لأول مرة لم يكن هناك كرينولين، وإنما كن يستخدمن شعر الخيل فى ذلك الوقت، حيث لم يكن أحد قد فكر بعد فى التنورات ذات السلك. وقد رأيتها معلقة فى الدواليب عندما كنت أدخل لترتيبها وإفراغ صناديق الثياب. وهى أشبه بأقفاص الطيور، لكن ما الذى يحبس فيها؟ السيقان، سيقان السيدات، سيقان محبوسة لكى لا تستطيع الخروج من محبسها والتحرر لتحتك ببنطلونات السادة. ولا تقول زوجة المحافظ كلمة سيقان أبدًا، رغم أن الصحف قالت سيقان عندما تحدثت عن نانسى، وساقيها الميتتين ظاهرتين تحت حوض الغسيل.

لم تكنْ تأتى فقط السيدات الشبيهات بقناديل البحـــر. ففـــى أيـــام الثلاثاء تكون قضية المرأة، وتحرير هذه أو تلك، رجال ونساء ذوو عقليات إصلاحية؛ وفى أيام الخميس تكون الجلسة الروحية، لشرب الشاى وتبـــادل الحوار مع الموتى، وفى ذلك راحة لزوجة المحافظ التى فقدت ابنها طفلاً. ولكن السيدات هن الزائرات الرئيسيات. يجلسن وهن يرتشفن من الكئوس الرقيقة، وتدق زوجة المحافظ جرسًا صغيرًا من الصينى. وهى لا تحـــب كونها زوجة المحافظ، وتفضل أن يكون محافظًا لشىء آخر غير الســـجن. كان للمحافظ أصدقاء قادرون على أن يجعلوه ينال منصب محافظ، لكـــنهم لم يكونوا قادرين على أن يجعلوه محافظًا على أى شىء آخر.

وهكذا فهى هنا، وعليها أن تستفيد لأقصى ما يمكن من وضـــعها الاجتماعى وإنجازاتها، وأنا أيضًا أحد هذه الإنجازات رغم أنـــى موضـــع خشية، كعنكبوت، لكنى فرصة لعمل الخير كذلك. أدخـــل إلـــى الغرفـــة، وأنحنى احترامًا، وأتحرك فى المكان، فمى مغلق، رأسى محنيـــة، وأرفـــع الكئوس أو أضعها حسب الحالة، وهم يحدقون فىّ دون أن يظهـــر ذلـــك عليهم، يحدقون من تحت قبعاتهم.

يرغبون فى رؤيتى لأننى قاتلة مشهورة، أو أن هذا ما كتب عنى. عندما رأيت هذا التعبير لأول مرة دهشت، لأنهم يقولون مغنية مشـــهورة وشاعرة مشهورة ووسيطة روحية مشهورة وممثلة مشهورة، لكن ماذا فى القتل ليكسب الإنسان شهرة؟ وعلى أية حال فكلمة "قاتلة" قويـــة جـــدًا إذا اتصلت بك. إن لها رائحة، تلك الكلمة، رائحة عطريـــة ثقيلـــة الوطـــأة، كرائحة زهور ميتة فى فازة. أحيانًا فى الليل أهمس بها لنفسى مـــرة بعـــد

مرة: قاتلة، قاتلة. إن لها حفيفًا، كصوت احتكاك تنورة من التافتاه بالأرض.

لكن كلمة 'قاتل' ليس فيها إلا القسوة والوحشية. إنها أشبه بمطرقة، أو كتلة معدنية ثقيلة. والحقيقة أننى أفضل أن أكون 'قاتلة' لا 'قاتلاً'، إذا لم يكن أمامى خيار ثالث.

أحيانًا أنظر إلى نفسى فى المرآة المزدانة بزخارف عناقيد الكروم أثناء قيامى بإزالة الأتربة عنها، رغم أننى أعرف أن ذلك عبث. وتبدو بشرتى، فى ضوء ما بعد الظهر فى القاعة، مائلة إلى البنفسجى الباهت، مثل كدمة بدأ لونها يتلاشى، وأرى أسنانى مخضرة. وأفكر فى كل الأشياء التى كتبت عنى — أننى شيطان أنثوى لا آدمى، وأننى ضحية بريئة لوغد أرغمنى على ارتكاب ذلك رغمًا عنى وهدد حياتى نفسها، وأننى على درجة من الجهل تجعلنى لا أعرف كيف أتصرف، وأن شنقى هو نوع من "القتل القانونى"، وأننى مغرمة بالحيوانات، وأننى جميلة متألقة البشرة، وأن لى عينين زرقاوين، وأن لى عينين خضراوين، وأن شعرى كستنائى، وأنه بنى أيضًا، وأننى طويلة وأيضًا لا أزيد عن الطول المتوسط، وأننى أرتدى ثيابًا جيدة ولائقة، وأننى سرقت امرأة ميتة لأظهر بهذا المظهر، وأننى سريعة الحركة ونشيطة فى عملى، وأننى جهمة وأميل للشجار بطبيعتى، وأن لى مظهرًا أعلى من مكانتى المتواضعة، وأننى بنت طيبة ذات طبيعة طيِّعة ولم يتحدث أحد عنى بأى سوء، وأننى لئيمة ومراوغة، وأننى بليدة العقل وأقرب إلى البلاهة. وأتعجب، كيف أكون بكل هذه الصفات المختلفة فى وقت واحد؟

كان المحامى الذى تولى الدفاع عنى، السيد كينيث ماكنزى، المحترم، هو الذى أخبرهم بأننى أقرب إلى البله. وقد أغضبنى قوله هذا، لكنه قال أنها أفضل فرصة لى وأننى لا يجب أن أبدو شديدة الذكاء. وقال أنه سوف يترافع فى قضيتى بأقصى ما يستطيع، لأنه مهما كانت حقيقة الأمر، فقد كنت لا أزيد كثيرًا عن طفلة فى ذلك الوقت. وقد رأى أن الأمر يتعلق بالإرادة الحرة وبكون الإنسان يوافق على الفعل أم لا. كان سيدًا طيبًا رغم أننى لم أفقه حرفًا من أغلب كلامه، لكن لابد أنها كانت مرافعة جيدة. وكتبت الصحف أنه خاض صراعًا بطوليًا ضد التناقضات السائدة. ومع ذلك, فأنا لا أعرف لماذا يسمونها مرافعة، فهو لم يكن يدافع عنى وإنما كان يحاول أن يجعل كل الشهود يظهرون بمظهر فاسدى الأخلاق أو ذوى النوايا الخبيثة، أو على الأقل مخطئين.

وأشك أنه صدق حرفًا مما قلت.

وعندما أخرج بالصينية من الغرفة، تنظر السيدات إلى سجل قصاصات الجرائد الخاص بزوجة المحافظ. وتقول السيدات ياه، تخيلى، إننى أكاد أفقد الوعى، تتركين هذه المرأة تتحرك بحرية تامة فى منزلك، لابد أن أعصابك من حديد، أنا لا يمكن أن أتحمل ذلك. أوه، حسنًا، لابد أن يتعود المرء على مثل هذه الأشياء فى حالتنا، فى الواقع نحن أنفسنا أشبه بالسجناء كما تعلمين، رغم أن المرء لابد أن يشعر بالإشفاق نحو هذه المخلوقات المسكينة المصابة بالجهل. ومع ذلك، فهى مدربة على أعمال الخدمة، ومن الأفضل أن نجعلهم فى حالة شغل، إنها بارعة فى الخياطة، ماهرة وتنجز العمل بسرعة، وهى من هذه الناحية تساعدنى حقًا، خاصة

فى أردية البنات، ولها نظرة فى الزركشة، وفى ظروف أفضل من هـذه كان يمكن أن تصير مساعدة ماهرة لأحد صانعى القبعات النسائية.

ورغم أنها، بطبيعة الحال، لا يمكن أن تكون هنا إلا خلال النهار، إلا أننى لا أرغب فى وجودها فى البيت أثناء الليل. تعلمن أنها قضت بعض الوقت فى مستشفى الأمراض العقلية فى تورنتو، كان ذلك منذ حوالى سبع أو ثمانى سنوات. ورغم أنه يبدو أنها شفيت تمامًا، إلا أن المرء لا يمكن أن يعرف متى يمكن أن تصيبهم النوبة مرة أخرى، وهى أحيانًا تكلم نفسها وتغنى بصوت عال بطريقة غريبة للغاية، لا يمكن للمرء أن يجازف. يأتى الحراس فى المساء لاقتيادها وحبسها كما يجب، وإلا ما غمض لى جفن. إننى لا ألومكن، فلابد أن يكون هناك حد لما يقدر عليه الإنسان من فعل الخير، فلا يمكن للنمر أن يغير جلده، ولكنك تفعل ما تقدر عليه فلا يأخذ أحد عليك أنك لم تؤد واجبك ولو بإظهار مشاعر طيبة.

يوضع سجل قصاصات زوجة المحافظ فوق المائدة المستديرة المغطاة بمفرش حريرى، تتشابك عليه أفرع كأفرع الكروم وزهور وثمار حمراء، وطيور زرقاء، وهى فى الحقيقة شجرة واحدة كبيرة. وإذا دققت النظر، تبدأ الأفرع فى التلوى وكأن الريح تهب عليها. هذا المفرش أرسلته ابنتها الكبرى من الهند، ابنتها التى تزوجت من أحد المبشرين، وهو أمر لا أتمناه لنفسى، فهو يضمن لك موتًا مبكرًا، فإن لم تمت بسبب الأهالى المشاغبين ــ كما حدث فى كاونبور، وارتكبت فظائع فى حق السيدات المحترمات، وكان من رحمة الله بهن أن ذبحوهن ووضعوا نهاية لتعاستهن، فيا له من عارٍ كان يمكن أن يجللهن ــ فإنك ستموت بالملاريا،

التى تحولك إلى مخلوق أصفر اللون وتنتهى حياتك مع نوبـــات الهــذيان المتتالية. وعلى أية حال، فقبل أن تتمكن من التراجع، ربما تصبح مـــدفونًا تحت جذع نخلة فى أرض قصية. وقد رأيت صور هذه المشاهد فى كتاب صور شرقية تخرجه زوجة المحافظ عندما تشعر بميـــل لـــذرف بعــض الدموع.

وعلى نفس المائدة المستديرة، رُصَّـــت أعــداد "كتـــاب جـــودى للسيدات" ــ التى تحتوى خطوط الموضة، والتى تأتى مـــن الولايـــات ــ وأيضًا ألبومان يحتويان تذكارات ابنتيها الصغيرتين. تقول الآنسة ليديا أننى شخصية رومانتيكية، لكنهما صغيرتان جدًّا ولا تعرفان ما تقولان. وأحيانًا تتطفلان علىّ، وتغيـظاننى، تقـــول الواحـــدة منهـــما: يا جـــريس، إنـــك لا تضحكين أو تبتسمين أبدًا، لم نرك تبتسمين أبدًا، وأقول أظن يا آنســـتى أننى نسيت كيفية الابتسام، وما عاد وجهى قادرًا على التعبير بهذه الطريقة. لكننى إذا ضحكت بصوت عال فقد لا أستطيع التوقف، كما أن ذلك سيفسد فكرتهما الرومانتيكية عنى. فالمفترض أن الرومـــانتيكيين لا يضـــحكون، أعرف هذا جيدًا من النظر إلى الصور.

تضع الفتاتان كل شىء ومن أى نوع فى ألبوميهمـــا، قصـــاقيص قماش من أثوابهما، قطعًا صغيرة من الشرائط، صورًا قصت من المجلات ــ أطلال روما القديمة، الأديرة الرائعة فى جبال الألب الفرنسية، كـــوبرى لندن القديم، شلالات نياجرا فى الصيف وفى الشتاء، وهو مشهد أتمنى أن أراه، إذ يقول الجميع أنه رائع جدًّا، وكذلك بورتريهـــات الســـيدة فلانـــة واللورد علان من إنجلترا. وتكتب صديقاتهما كلمات بخط رشـــيق، "إلـــى ليديا العزيزة من صديقتك إلى الأبد، كلارا رينتشـــاردز"؛ "إلـــى العزيـــزة

ماريان لذكرى نزهتنا الرائعة على شواطئ بحيرة أونتاريو الزرقاء".
وقصائد أيضًا:

كما يلتف اللبلاب العاشق

حول جذع السنديانة القوى

عربون محبتى، بكل صدق،

لن يكون لى أبدًا إلا أنت،

المخلصة: لورا.

أو أيضًا:

رغم أننى لابد أن أرحل بعيدًا من حين لآخر

لا تحزنى

فإننا فى الحقيقة لا نفترق أبدًا

لأننا روح واحدة فى جسدين،

صديقتك: لوسى

وهذه السيدة الشابة غرقت بعد فترة قصيرة من كتابة هذه الأبيات فى البحيرة عندما غاصت مركبها فى العاصفة، ولم يجدوا شيئًا إلا صندوقها، وقد ثبتت عليه مسامير من الفضة تحمل الحروف الأولى من اسمها؛ وكان ما يزال مغلقًا، ولذلك احتفظ بكل ما كان فيه رغم تسرب البلل إليه، وقد أعطيت مس ليديا وشاحًا منه كتذكار:

عندما أموت، ويغلق علىّ القبر

وتصاب عظامى كلها بالعفن،

عندما يحدث ذلك، اذكرينى،

وإلا فسوف يطوينى النسيان.

وهذه القصاصة موقعة كالآتى: سوف تكون روحى دائمًا معــك، المحبة: نانسى. وعندما رأيت ذلك لأول مرة، أنا وهانا إدموندز، أصــابنى الرعب، رغم أنها بالطبع "نانسى" أخرى. لكن، العظام المتعفنــة ... لابــد أنها كذلك الآن. كان وجهها كله أسود عندما وجدوها، ولابد أن الرائحــة كانت بشعة، فقد كان الجو حارًا جدًّا فى ذلك الوقت من شهر يوليو، ولذلك فقد فسدت فى وقت سريع جدًّا، وقد يظن المرء أن وجودهــا تحــت فــى مخزن الألبان والجبن كان لابد أن يحفظها لوقت أطول، فالجو فيه بارد فى العادة. ومن المؤكد أننى ارتحت لأننى لم أكن موجودة، فلابد أن الأمر كان مؤلــمًا للغاية.

لا أعرف لماذا يريدون كلهم أن نتذكرهم، فبماذا تنفعهم الذكرى؟ بعض الأشياء يجب أن ينساها الجميع، وألا يذكرها أحد أبدًا.

أما ألبوم زوجة المحافظ فهو مختلف تمامًا. فهى بــالطبع امــرأة ناضجة وليست فتاة شابة، ورغم ذلك فهى مغرمة بالذكريات بنفس القــدر، إلا أن ما ترغــب فى تذكره لــيس الزهـــور والرحــلات. ولــيس فى ألــبومها عزيزتى والمخلــصة والمحــبة، ولا أصــدقاء إلى الأبــــــد، فلا شـــــىء مـــــن ذلك يناســـبها، لكن لديـــها بدلا مــــــن ذلــك

كل المـــــجرمين المشهورين ــ الذين وصـــلوا إلـــى حبــل المشـــنقة أو أحضروا هنا ليتوبوا، فهذه إصلاحية، ويجـــب أن تتـــوب وأنـــــت هنـــا، والأحـــسن أن تـــقـــول أنـــك تـــبت، سواء فعـــلت ما يســـتحق التوبة أم لم تـــفعل.

تقص زوجة المحافظ هذه القصاصات من الجرائد، وتلصقها فـــى الألبوم، وقد ترسل لطلب صحف قديمة تحدثت عن جرائم ارتكبـــت منـــذ زمن. هذه هى "مجموعتها"، فهى سيدة، وكلهن يجمعن أشياء هذه الأيـــام، ومن ثم فهى أيضًا يجب أن تجمع أشياء، وهى تجمع قصاصات الجـــرائم بدلا من أن تقتلع السراخس أو تجفف الزهور، وهى على كل حال تحب أن ترهب معارفها.

ومن ثم فأنا قرأتِ ما وُضع فى هذا الألبوم عنـــى. لقـــد أرتنـــى بنفسها سجل القصاصات، وأظن أنها كانت تريد أن تعرف رد فعلى، لكننى تعلمت أن أحافظ على هدوء تعبيرات وجهى، فتحت عينى على وســعهما، كبومة فى ضوء المصباح، وقلت إننى تبت بدموع مريرة، وأصبحت الآن شخصًا مختلفًا، وسألتها إن كانت تريد منى أن أرفع طقـــم الشـــاى الآن، لكننى منذ ذلك الوقت طالعت صفحات هذا الألبوم مرات عديدة، كلما كنت فى القاعة وحدى.

وأكثر ما فيه كذب. قالوا فى الصحف أننـــى كنـــت لا أعـــرف القراءة، لكننى حتى فى ذلك الوقت كنت أستطيع بعـــض القـــراءة. أمـــى علمتنى فى سن مبكرة، قبل أن ينتابها التعب والمرض ويمنعها عن ذلـــك. وقد طرزت أول نموذج لى فى طفولتى ببقايا الخيوط– أ: أرنب، ب: بطة. مارى هويتنى أيضًا كانت تقرأ معى عندما كنا فى بيـــت مســـز ألـــدرمان باركينسون، عندما كنا نصلح الثياب؛ وتعلمت الكثير منذ جئت هنـــا، فهـــم

يعلمونك عن عمد، لأنهم يريدونك أن تكون قادرًا علـــى قـــراءة الكتـــاب المقدس، وبعض النصوص الأخرى، فالقراءة والجلد بالسوط هما العلاجان الوحيدان لطبائعنا المنحرفة، حيث يجب الالتفات إلـــى عـــلاج أرواحنـــا الأبدية. وقد صدمت لكثرة الجرائم التى يضمها الكتاب المقـــدس، جـــرائم تستحق أن تقصها زوجة المحافظ وتلصقها فى ألبومها.

وقالت الصحف أيضًا بعض الحقائق. قالوا أن لى شخصية قوية، وهذا صحيح، فلم يحدث أن استطاع شـــخص أن يســـتغلنى، رغـــم أنهـــم حاولوا. لكنهم قالوا أن چيمس مكدرموت عشيقى. كتبوا ذلك فى الصحيفة مباشرة. وأعتقد أن كتابة مثل هذه الأشياء فى الصحيفة أمر يثير الغثيان.

هذا هو ما يثير اهتمامهم فى الواقع ــ السادة والســـيدات كلهـــم. فلا يهمهم إن كنت قد قتلت أحدا، وحتى لو قطعت عشرات الرقاب، ألـــيس هذا هو ما يعجبهم فى الجندى؟ لن يطرف لهم جفن. بل إن همهم الرئيسى هو هل كنت عشيقة حقًا، لكنهم حتى لا يعرفون إذا كانوا يرغبون فـــى أن تكون الإجابة بنعم أو لا.

إننى لا أنظر فى ألبوم القصاصات الآن، فقد يأتون فى أية لحظة. أجلس وبداى الخشنتان مطويتان، وعيناى منكستان، أحدق فـــى الزهـــور المرسومة فى السجادة التركية. أو ما يفترض أنه زهور. إن لهـــا بـــتلات أشبه بالديناري على ورق اللعب، مثل أوراق اللعب المتناثرة على المنضدة فى بيت مستر كينير، بعد أن يكون السادة قد قضوا الليلـــة الســـابقة فـــى اللعب. وحدات الديناري مستقيمة الأضلاع، حادة الزوايا، لكنها حمـــراء، حمرة قانية ثقيلة، ألسنة ثقيلة مخنوقة.

نحن لا ننتظر السيدات اليوم، وإنما ننتظر طبيبًا. وهو يؤلف كتابًا؛ وزوجة المحافظ تحب أن تعرف الناس الذين يؤلفون كتبًا، كتبًا ذات أهداف مستقبلية، هذا يعطيها مظهر شخصية ذات عقلية ليبرالية ووجهات نظر متقدمة، والعلم يتقدم هكذا، وما الذى حدث للمجتمع بفضل المخترعات الحديثة والقصور البلورية الأسطورية والمعرفة الواسعة الهائلة، من يعرف أين سنكون بعد مائة عام!

إن وجود الطبيب فى مكان ما علامة سيئة. فرغم أنهم لا يقتلون بأنفسهم إلا أن وجودهم معناه أن الموت قريب، وهم فى هذا أشبه بالغربان. لكن هذا الطبيب لن يؤذينى، هكذا وعدتنى زوجة المحافظ. إن كل ما يريده هو أن يقيس رأسى. وهو يقيس رؤوس كل المجرمين فى السجن، ليعرف إن كان يمكنه ــ من شكل النتوءات فى رؤوسهم ــ تحديد أى نوع من المجرمين هم، نشالون أو نصابون أو مختلسون أو مجانين ذوو نزوع إجرامى، أم قتلة، ولم تقل لى "مثلك يا جريس!"، ومن ثم يمكنهم حبس هؤلاء الناس قبل أن تتاح لهم فرصة لارتكاب أية جريمة، تخيل كيف سيؤدى ذلك إلى تحسين العالم!

بعد شنق چيمس مكدرموت، صنعوا قالبًا جصيًّا على رأسه، قرأت ذلك أيضًا فى ألبوم القصاصات. ولابد أنهم أرادوا هذا القالب لنفس السبب، من أجل تحسين العالم.

كما شرَّحوا جسده أيضًا. عندما قرأت ذلك لأول مرة، لم أكن أعرف معنى 'التشريح'، لكننى سرعان ما فهمت. فالأطباء هم الذين قاموا بذلك. قطعوه إلى أجزاء كالذبيحة لكى يتم تمليحه وحفظه، وربما رأوا

تحويله إلى لحم مدخن أيضًا. ذلك الجسد الذى سمعت تنفسه، ودقات قلبه، يقطعه السكين شرائح، لا أستطيع تحمل الفكرة.

ماذا فعلوا بقميصه يا ترى؟ أكان واحدًا من القمصان الأربعة التى اشتراها من چيرميا، البائع المتجول؟ ربما كانت ثلاثة، أو خمسة، فالأرقام الفردية تجلب الحظ، وكان چيرميا دائمًا يتمنى لى حظًا طيبًا، لكنه لم يكن يتمنى ذلك أبدًا لچيمس مكدرموت.

لم أر الشنق. شنقوه أمام السجن فى تورنتو، ويقول لى الحراس: "كان يجب أن ترى هذا المشهد يا جريس، إذن لكان درسًا لـك". لكننى تخيلت ما حدث مرات عديدة، چيمس المسكين واقف، يداه مقيدتان ورقبته عارية، وهم يضعون القلنسوة على رأسه كقطة يريدون إغراقها. ولابد أنه كان معه قسيس على الأقل، فلم يكن وحده تمامًا. قال لهم لولا جريس ماركس لما حدث شيء من ذلك كله.

كانت تمطر، جمهور غفير من الناس يقفون فى الوحل، بعضهم جاء من على مبعدة أميال. وإذا لم يكن الحكم بإعدامى قد ألغى فى اللحظة الأخيرة، لشاهدونى أشنق بنفس الاستمتاع الشره. كان هناك الكثير من النساء والسيدات، جاء الجميع رغبة فى المشاهدة، أرادوا أن يشموا رائحة الموت كما لو كانت نوعًا من العطر الجيد، وقد فكرت عندما قرأت ذلك، إذا كان درسًا لى، فما الذى يفترض أن أتعلمه من هذا الدرس؟

الآن، يمكننى سماع خطواتهم. أقف بسرعة وأشد مريلتى لتبدو لائقة. كان هناك صوت رجل غريب، هذا عطف كبير منك يا سيدتى،

وتقول زوجة المحافظ إننى أشعر بالسعادة لأننى أستطيع المساعدة. ويقول مرة أخرى، عطف كبير جدًا.

ثم يدخل من الباب، كرش كبير، معطف أسود، صديرى مغلق، أزرار فضية، وملابسه محشوة بجسده مثل مجموعة من أوراق اللعب مربوطة بإحكام، لا أرفع عينى لأعلى من الذقن، وهو يقول إن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلاً، ولكنى سوف أكون شاكرًا يا سيدتى إذا بقيت فى الغرفة، لا يكفى أن يكون المرء فاضلاً، بل يجب أن يتمسك بمظاهر الفضيلة أيضًا. ويضحك كما لو كانت هذه نكتة، وأسمع فى صوته رنة تدل على خوفه منى، فامرأة مثلى دائمًا مصدر للغواية، إن كان ممكنًا تدبير الأمر بعيدًا عن الرقابة، ولن يصدقنا أحد مهما حاولنا أن نقول فيما بعد.

ثم أرى يده التى تشبه قفازًا، قفازًا محشوًا بلحم نيئ، تغوص داخل الفم المفتوح لحقيبته الجلدية، وتخرج متلألئة، وأعرف أنى رأيت يدًا كهذه قبلاً، وهنا، أرفع رأسى وأحملق مباشرة فى عينيه، وينقبض قلبى ويدق بشدة داخلى، ثم أبدأ فى الصراخ.

إنه هو نفس الطبيب، هو بعينه، ذلك الطبيب لابس المعطف الأسود بحقيبته المليئة بالسكاكين اللامعة.

ـ ٤ ـ

أفقت على كوب من الماء البارد يلقى فى وجهى، لكننى واصلت الصراخ رغم أن الطبيب كان قد اختفى، ومن ثم قامت فتاتان من المطبخ بالسيطرة علىّ بمساعدة ابن البستانى الذى جلس على رجلى. وكانت زوجة المحافظ قد أرسلت للمشرفة الصحية بالإصلاحية التى جاءت مع اثنين من الحراس، ووجهت إلى وجهى لطمة سريعة، فتوقفت فورًا. لم يكن هو نفس الطبيب على الإطلاق، وإنما كان يشبهه فقط. نفس النظرة الباردة الجشعة، ونفس الكراهية.

قالت المشرفة الصحية أؤكد لك يا سيدتى أنها الطريقة الوحيدة مع حالات الهيستيريا، فلنا خبرة كبيرة مع هذا النوع من النوبات، وهذه الفتاة كانت عادةً ما تتعرض لها، لكننا لم نهاودها أبدًا بل عملنا على تقويم الحالة وظننا أنها تخلت عنها. ربما تكون هذه علامة على عودة مرضها القديم، لأنه رغم ما قالوه عنها فى تورنتو فقد كانت مصابة بجنون مطبق منذ سبع سنوات، ومن حسن حظك أنه لم يكن فى متناولها مقص أو أية آلة حادة.

ثم جرّنى الحراس إلى مبنى السجن الرئيسى، وحبسونى فى هذه الغرفة، حتى أستعيد سيطرتى على نفسى مرة أخرى كما قالوا، رغم أننى

أخبرتهم أننى أفضل الآن، حيث أن الطبيب رحل بسكاكينه. قلت إننى أشعر بخوف من الأطباء، هذا كل ما فى الأمر، أخشى أن يفتحوا بطنى، مثلما يشعر البعض بالخوف من الثعابين؛ لكنهم قالوا كفاك ألاعيب يا جريس، لم يكن بك إلا الرغبة فى لفت الانتباه، فلم يكن الطبيب سيفتح بطنك، ولم تكن معه سكاكين على الإطلاق، وما رأيته كان مجرد فرجار يستخدمه فى قياس حجم الرأس. لقد أصبت زوجة المحافظ برعب حقيقى، ولكنها تستحق ذلك، فقد كانت تدللك كثيرًا ولم يكن ذلك لمصلحتك، لقد حولتك إلى "دلوعة"، أليس كذلك، ولم تعد صحبتنا تطيب لك. حسنا، ذنبك على جنبك، ستضطرين إلى احتمال هذه الصحبة لأنك منذ الآن ستلقين معاملة من نوع آخر لفترة من الوقت، حتى يقرروا ما الذى يجب فعله معك.

هذه الغرفة ليس بها إلا نافذة واحدة صغيرة مرتفعة ذات قضبان من الداخل، ومَرْتَبة محشوة بالقش. وتوجد كسرة من الخبز فى طبق معدنى، وإناء فخارى للماء، ودلو خشبى فارغ يستخدم للتبول. سبق أن وُضِعت فى غرفة كهذه قبل أن يرسلونى إلى المصحة. قلت لهم إننى لست مجنونة، لست أنا المجنونة، لكنهم لم يستمعوا لى.

وعلى أية حال، لم يكونوا يعرفون المجنون عندما يرونه، فجزء كبير من النساء فى المصحة لسن أكثر جنونًا من ملكة بريطانيا. وكثيرات كن فى غاية العقل عندما يُفقن، إذ كان جنونهن بسبب الثمل، وهو نوع من الجنون أعرفه جيدًا. أحداهن كانت تدخل المصحة هربًا من زوجها، الذى كان يضربها بقسوة، كان هو المجنون، ولكنهم ما كانوا ليحبسوه؛ وقالت أخرى إنها تدعى الجنون فى الخريف لأنها بلا منزل والمصحة دافئة، وإن لم تمثل دور المجنونة جيدًا فسوف تتجمد حتى الموت، وعندما يأتى الربيع

تعود إلى عقلها، فالجو لطيف ويمكنها التجول والتسكع فى الغابات وصيد السمك، وقد كانت خبيرة بهذه الأشياء لأنها نصف هندية. وأنا نفسى أتمنى أن أفعل نفس الشىء لولا أننى لا أعرف كيف، كما أننى أخشى الدببة فى الغابات.

لكن البعض كن مجنونات بالفعل. ومنهن امرأة أيرلندية توفى أفراد أسرتها جميعا، نصفهم ماتوا جوعًا فى المجاعة الكبرى، والنصف الآخر ماتوا بالكوليرا على المركب الذى جاءوا عليه من هناك؛ كانت تسير على غير هدى وتنادى بأسمائهم. وأنا سعيدة لأننى تركت أيرلندا قبل ذلك الوقت العصيب، فالمعاناة التى حكت عنها كانت قاسية، كانت الجثث تتكوم فى كل مكان ولا تجد من يدفنها. وامرأة أخرى قتلت طفلها، وكان يتبعها حيثما تذهب، يشد طرف تنورتها، وأحيانًا كانت تحمله وتحتضنه وتقبله، وفى أحيان أخرى كانت تزعق فيه وتضربه بيديها لتبعده عنها. وكنت أخاف من هذه المرأة.

وكانت امرأة أخرى شديدة التدين، دائمًا تصلى وتردد الترانيم. وعندما اكتشفت ما قالوا أننى فعلته، كانت "تكفر سيئاتى" كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً. وحينئذ كانت تقول اركعى على ركبتيك، يجب ألا تقتلى، لكن رحمة الله واسعة للخاطئين، توبى، توبى الآن وإلا فسوف يضيع أوان التوبة ولا تجدين إلا اللعنة الأبدية. كانت مثل واعظ الكنيسة تمامًا، وذات مرة حاولت أن تعمدنى بالحساء، كان حساء خفيف القوام وبه كرنب، وصبت ملء ملعقة منه فوق رأسى. وعندما شكوت ما حدث نظرت لى المشرفة نظرة قاسية وهى تزم شفتيها فبدا فمها مشدودًا فى خط مستقيم كغطاء صندوق، وقالت ربما يحسن أن تستمعى لها يا جريس، لم أسمع أبدًا

أنك تقومين بما يدل على توبة حقيقية رغم أن قلبك القاسي في أشد الحاجة لذلك؛ حينئذ شعرت فجأة بغضب شديد ورحت أصرخ، لم أفعل شيئًا، لم أفعل شيئًا! إنها هي، هي التي أخطأت!

قالت من تقصدين يا جريس، تمالكي نفسك وإلا فالدش البارد والقيد بالصديري التقويمي، وألقت نظرة إلى المشرفة الأخرى: أرأيت ماذا قلت لك؟ إنها مجنونة جنونًا مطبقًا.

كانت كل المشرفات في المصحة العقلية بدينات وقويات، أذرعهن كبيرة وثقيلة، وذقونهن غارقة في رقابهن الغليظة وياقات معاطفهن البيضاء المحتشمة، وقد رفعن شعورهن المبرومة كالحبال الذاوية. لكي تكون مشرفة، يجب أن تكون قويًا، فقد تقفز أي مجنونة على ظهرك وتأخذ في شد شعرك وتقطيعه، ولكن لا شيء من ذلك يجعلهن أفضل خلقًا. كن يلجأن إلى استفزازنا، خاصة قبيل قدوم الزائرين، بغرض إظهار مدى خطورتنا، ولكن في نفس الوقت إظهار مقدرتهن على التحكم فينا، فهكذا يعرف الزائر أنهن ذوات قيمة ومهارة.

لذلك توقفت عن قول أي شيء لهن. وتوقفت عن قول أي شيء للدكتور بانرلينج، الذي يدخل إلى الغرفة المظلمة ويداي مقيدتان، لا تتحركي، أنا هنا لفحصك، ولا فائدة من الكذب. ولا للأطباء الآخرين الذين قد يأتون للزيارة ويرددون، يا للغرابة، يا لها من حالة عجيبة، كأنني عجل برأسين. وتوقفت في النهاية عن الكلام كله، فيما عدا الرد المهذب جدًا عندما يوجه إليّ الكلام، نعم يا سيدتي، لا يا سيدتي، نعم ولا يا سيدي. ثم أعادوني إلى الإصلاحية بعد أن جلسوا جميعًا في معاطفهم السوداء، احم، آها، في رأيي، وزملائي الأجلاء، واسمح لي يا سيدي أن أختلف

معك. وبالطبع، لا يمكن أن يسمحوا أبدًا بالاعتراف بأنهم كانوا مخطئين منذ البداية بإدخالى المصحة العقلية.

الناس الذين يلبسون نوعًا معينًا من الثياب لا يخطئون أبدًا. وهم أيضًا لا يحدثون ريحًا أبدًا. اعتادت مارى هويتنى أن تقول، إذا حدثت ريح فى غرفة وهم موجودون فتأكدى أنك أنت التى فعلتها. وحتى لو لم تفعليها أبدًا، فالأحسن لك ألا تقولى ذلك وإلا فاللعنة على وقاحتك، وركلة فى مؤخرتك، ويلقى بك إلى الشارع.

كانت عادة تتحدث بطريقة غير مهذبة، كانت تقول أنت فعلت هذا أو ذاك ولا تقول حضرتك، فلم يعلمها أحد آداب الحديث. وكنت أنا الأخرى أتحدث بهذه الطريقة، لكننى تعلمت آداب الحديث بشكل أفضل فى السجن.

أجلس على حشية القش، فتصدر خشخشة كصوت الماء على الشاطئ. أتقلب على جنبى من ناحية لأخرى لأتسمع لهذا الصوت. أستطيع أن أغمض عينى وأتخيل نفسى على شاطئ البحر، فى يوم هدأت فيه الرياح وكف المطر. وبعيدًا، خارج النافذة، هناك شخص يقطع الأخشاب، ينزل بالفأس .. ينبعث بريق لا يُرى .. ثم ذلك الصوت الكئيب، لكن من أين لى أن أعلم أنه خشب؟

البرد شديد فى هذه الغرفة، وليس لدىّ شال، ألف ذراعىّ حول جذعى محتضنة نفسى، فمن هناك ليحتضننى؟ عندما كنت أصغر سنًا، كنت أظن أننى إذا استطعت أن أحتضن نفسى بقوة يمكن أن أجعل نفسى أصغر حجمًا، فلم يكن هناك مكان يكفى لى أبدًا، لا فى البيت ولا فى أى مكان آخر، لكن إذا كنت أصغر حجمًا، لربما وجدت فسحة تناسبنى.

ينسدل شعرى من تحت القلنسوة، شعر أحمـر كشـعر الغـول، حيوان متوحش ... وحش بشرى، كذا قالت الصحيفة. عندما يـأتون لـى بالغذاء سأضع الدلو الخشبى على رأسى وأختبئ خلف البـاب، وسـوف يخيفهم هذا. إذا كانوا يريدون وحشاً، يجب تقديمه لهم.

لكننى لا أفعل مثل هذه الأشياء أبدًا، أفكر فيها فقط. إذا فعلت شيئًا كهذا سيتأكدون أن عقلى قد ذهب مرة أخرى. "ذهب عقلها"، هكذا يقولون، وأحيانًا يقولون "طار عقلها"، وكأن الجنون مكان يذهب إليه العقـل، كـأن الجنون بيت آخر تخطو إليه عقولنا، أو بلد آخر تمامًا تذهب إليـه. لكنـك عندما تجن لا يذهب عقلك إلى أى مكان، يظل حيث هو، بل يـدخل إليـه شخص آخر.

لا أحب أن أظل وحيدة بهذه الغرفـة. الجـدران خاليـة تمامًا، لا صور عليها، ولا ستائر على النافذة الصغيرة المرتفعة، لا شيء يمكنك النظر إليه، ومن ثم تنظر إلى الجدران، وعندما تفعل ذلك لفترة من الوقت تبدأ صور فى الظهور عليها، وتنمو زهور حمراء.

أظن أننى أنام.

إنه الصباح الآن، ولكن أى صباح؟ الثانى أم الثالث. هناك ضوء جديد خارج النافذة، وهذا ما أيقظنى. أجاهد للقيام، أضغط بقبضتى علـى جسدى وأرمش بعينى، أقوم بأعضاء متيبسة من أثر الحشية المخشخشـة. ثم أغنى أغنية، لا لشيء إلا لأسمع صوتًا وأسلى نفسى:

إلهى العظيم القدوس القدوس القدوس

فى البكور نرفع إليك ترنيمتنا

العظيم، الرحيم، القدوس، القدوس، القدوس

الله واحد ثلاثة، الثالوث المقدس

لا يعترضون أبدًا إذا كانت ترنيمة، ترنيمة للصباح، وقد كنت دائمًا مغرمة بشروق الشمس.

ثم أشرب آخر ما لدىّ من ماء، وأسير حول الغرفة، ثم أرفع ملابسى الداخلية وأبول فى الدلو. بعد بضع ساعات سوف تفوح هنا رائحة كريهة كرائحة المجارى.

النوم بنفس ثياب الصحو يشعر الإنسان بالتعب، فالثياب تتكرمش، وكذلك جسدك تحتها. أشعر وكأننى كنت ملفوفة فى ضمادة وألقيت أرضًا.

أتمنى لو كان عندى مريلة نظيفة.

لا أحد يأتى. يتركوننى لكى أعود إلى نفسى، أتأمل خطاياى وذنوبى، وأفضل ما يكون ذلك فى وحدة الإنسان مع نفسه، أو "هذا رأينا القائم على الخبرة والتفكير يا جريس، بعد طول التجربة فى هذه الأمور". فى الحبس الانفرادى، وأحيانًا فى الظلام. توجد سجون يحبسونك فيها وحدك لسنوات، دون نظرة لشجرة أو حصان، أو وجه إنسان، ويقول البعض أن هذا مفيد لبشرة الوجه.

جربت الحبس الانفرادى قبلاً، قال د. بانرلينج: "غير قابلة للتقويم، مخادعة مراوغة. ابقى هادئة، أنا هنا لفحص شكل مخك، وسأبدأ

بقياس ضربات قلبك وتنفسك"، لكننى عرفت ما يهدف إليه. لو كانت مارى هويتنى لقالت أبعد يديك عن ثديى أيها الوغد القذر، لكن كل ما استطعت أن أقوله هو أوه، لا، أوه ... لا، ولا سبيل للاستدارة أو اللف فى القيد الذى قيدونى به، كتفونى على المقعد، أكمامى متقاطعة من الأمام ومقيدة إلى الخلف؛ فلا سبيل إلا أن أغرز أسنانى فى أصابعه، ثم تكرر الأمر، نتراجع على الأرض، نولول معا كقطين داخل زكيبة، كان له طعم سجق نئ وملابس داخلية صوفية رطبة. كان يمكن أن يكون جلده أفضل بالغلى، ثم بالنشر فى الشمس لتبييضه.

لم أتناول عشاء الليلة الماضية، ولا الليلة التى قبلها، لا شىء إلا الخبز، ولا حتى بعض الكرنب، حسناً، هذا هو المتوقع. الجوع يهدِّئ الأعصاب. اليوم أيضًا سيكون خبز وماء، فاللحم يثير المجرمين والمهووسين، إنهم يشعرون برائحته فى أنوفهم مثل الذئاب، ومن ثم فلا تلومن إلا نفسك. لكن ماء الأمس انتهى كله وأشعر بعطش شديد، أكاد أموت من العطش، أشعر بمرارة فى فمى وبتورم فى لسانى. هذا ما يحدث للمنبوذين، وقد قرأت عنهم فى المحاكمات القانونية، يضيعون فى البحر ويشربون دماء بعضهم. وقد رسموا مصاصات تستخدم فى ذلك. فظائع آكلى لحوم البشر ملصقة فى ألبوم القصاصات. إننى واثقة بأنى لن أفعل مثل ذلك أبدًا مهما بلغ بى الجوع.

هل نسوا وجودى هنا؟ لابد أن يحضروا لى مزيدًا من الطعام، أو على الأقل ماء، وإلا سأموت جوعًا، سوف أذبل، ستجف بشرتى، وتصبح صفراء اللون كالقماش القديم، سأتحول إلى هيكل عظمى، وسوف

يجدوننى بعد شهور، سنوات، قرون، وسيقولون من هذه، لابد أننا نسيناها! طيب، اكنسوا كل هذه العظام والبقايا إلى الركن، ولكن احتفظوا بالأزرار، لا معنى لتضييعها، فالأمر خرج من أيدينا.

ما أن تشعر بالرثاء لنفسك، يكونون قد نالوا منك ما يريدون، ثم يرسلون إلى قسيس الإصلاحية.

تعالى بين ذراعى أيتها الروح المسكينة الهائمة، ففى السماء فرح أكثر للضائع المسكين. أريحى عقلك المتعب. اركعى تحت قدمىّ، واعتصرى يديك فى لوعة، وصفى كيف يعذبك ضميرك ليلاً ونهارًا، وكيف تتبعك عيون ضحاياك فى أنحاء الغرفة وهى تتقد كفحم متوهج. اذرفى دموع الندم، اعترفى، اعترفى. دعينى أسامحك واشفق عليك. دعينى أحصل لك على عفو، أخبرينى بكل شىء.

ثم ماذا فعل؟ يا لها من صدمة، ثم ماذا؟

اليد اليسرى أم اليمنى؟

رفعها إلى أى مدى بالضبط؟

أرينى أين!

أظن أننى أسمع همسًا. والآن، هناك عين، تنظر لى من خلال الشق فى الباب. لا أستطيع رؤيتها لكنى أعرف أنها هناك. ثم نقر على الباب.

وأفكر، من يا ترى؟ المشرفة؟ المأمور، جاء ليعطينى "الطريحة"؟ ولكن لا يمكن أن يكون أيًّا منهما، فلا أحد هنا يتعامل معك بالرقة التى تجعله يدق الباب، إنهم ينظرون إليك من خلال الشق الصغير، ثم يدخلون مباشرة. قالت لى مارى هويتنى: "دقى الباب أولاً، دائمًا، ثم انتظرى حتى يأذنوا لك. فلا يمكنك أن تعرفى على أية حال يكونون، وفى الأغلب هو أمر لا يريدونك أن تطلعى عليه. ربما يضعون أصابعهم فى أنوفهم أو فى مكان آخر، فحتى السادة يشعرون برغبة فى الهرش فى أى مكان، وإذا رأيت كعبين بارزين من تحت السرير فكأنك ما رأيت شيئًا. فربما يكونون فى غاية اللطف نهارًا، لكنهم جميعًا آذان خنازير بالليل.

كانت مارى شخصية ذات آراء ديمقراطية.

الطرق على الباب ثانية، وكأنما يمكننى السماح أو عدم السماح بالدخول.

أدفع شعرى إلى الخلف تحت قلنسوتى، وأقوم من فوق حشية القش، وأسوى ثوبى ومريلتى، ثم أتحرك إلى أبعد أركان الغرفة، وأقول، بحزم بالغ، فى محاولة للتمسك بكرامتى إذا كان ذلك ممكنا:

"ادخل من فضلك".

ـ ٥ ـ

ينفتح الباب، ويدخل رجل. إنه شاب في مثل سني أو ربما أكبر قليلاً، وهو سن يعتبر شبابًا للرجال وليس للنساء، فمن تكون في مثل سني من النساء هي عانس، لكن الرجل لا يعتبر كذلك حتى سن الخمسين، وحتى في هذه السن لا يزال ثمة أمل للسيدات، كما كانت تقول ماري هويتني. إنه طويل، يتسم بطول الذراعين والساقين، لكنه ليس بالوسامة التي تعجب ابنتي المأمور؛ فهما تميلان إلى الشباب المتراخين المصورين في المجلات، شديدي الأناقة والمتسمين بالبرود حتى أن الزبد قد لا يذوب في أفواههم، لهم أقدام رفيعة ويرتدون أحذية مدببة. هذا الرجل فيه ما يوحي بالرشاقة وسرعة الحركة، وهو ما لا يتناسب مع الموضة، كما أن قدميه كبيرتان نوعًا، رغم أنه من علية القوم أو أقرب ما يكون إلى علية القوم. ولا أظن أنه إنجليزي، من الصعب أن أجزم بجنسيته.

شعره بني ومتموج بطبيعته ـ يمكن أن نقول أنه شعر صعب المراس، بدا كما لو أنه لا يستقر بتمشيطه بالفرشاة. معطفه جيد، قَصَّة جيدة وإن لم تكن جديدة، فثمة رقع لامعة على الأكمام عند الكوع. وكان يرتدي "صديري" من قماش التارتن الأسكتلندي، التارتن الذي انتشر

استخدامه منذ استأنفت الملكة اهتمامها بإسكتلندا وبنت هناك قلعة مليئة برؤوس الغزلان، أو هكذا يقولون، ولكنى الآن أرى أن الصديرى ليس من التارتن الأصلى، إنه فقط كاروهات أصفر فى بنى. ولديه ساعة بسلسلة ذهبية، وعلى ذلك فهو، رغم ثيابه غير المعتنى بها، ليس فقيرًا.

وليست له سوالف كما هى الموضة فى أيامنا هذه، أنا عن نفسى لا تعجبنى السوالف، فلتكن لحية أو شاربًا، وإلا فلا. كان چيمس مكدرموت ومستر كينير كلاهما حليق الذقن، وكذلك كان چيمى وولش، إلا أنه لم يكن لديه الكثير ليحلقه، ولكن مستر كينير كان له شارب. وعندما كنت أفرغ حوض حلاقته فى الصباح، كنت أحيانًا آخذ بعض رغاوى الصابون ـ كان يستخدم نوعًا جيدًا يأتى به من لندن ـ وكنت أضع الرغوة على بشرة يدى، فتظل رائحتها معى طوال اليوم، على الأقل حتى موعد تنظيف الأرضيات.

يغلق الشاب الباب خلفه، لا يغلقه بالترباس، لكن شخصًا آخر يحكم غلقه من الخارج، فنصبح محبوسين فى الغرفة معا.

يقول لى: صباح الخير يا جريس، أعرف أنك تخشين الأطباء. ولابد أن أخبرك منذ البداية أننى طبيب. اسمى د. چوردان، د. سايمون چوردان.

أنظر إليه بسرعة، ثم أنظر لأسفل. أقول: هل سيعود الطبيب الآخر؟

يقول .. الطبيب الذى أخافك؟ لا، لن يعود.

أقول: إذَن أظن أنك أتيت لقياس رأسى.

يقول باسمًا: هذا شىء لا أحلم به.

لكنه، رغم ذلك، ينظر إلى رأسى بنظرة تقيسها، ولكننى أضع قلنسوتى، فليس هناك ما يمكن أن يراه. وأظن الآن، بعد أن تكلم، أنه أمريكى. له أسنان بيضاء ولا ينقص شىء منها، على الأقل فى مقدمة الفم، ووجهه طويل ونحيف تمامًا. تعجبنى ابتسامته، رغم أن شفتيه ترتفعان من أحد جانبى فمه أكثر من الآخر، مما يوحى بأنه يمزح.

أنظر إلى يديه، إنهما فارغتان. لا شىء فيهما على الإطلاق. لا خواتم فى أصابعه. أقول: هل عندك حقيبة بها سكاكين؟ حقيبة جلدية؟

يقول: لا، فأنا لست طبيبًا عاديًا. أنا لا أجرى جراحات. هل أنت خائفة منى يا جريس؟

لا أستطيع أن أعرف حتى الآن إن كنت أخاف منه. هذا لم يحن أوانه بعد، لم يحن الأوان لمعرفة ما يريد. فلا أحد يأتى ليرانى هنا إلا إن كان يريد شيئًا.

أرجو أن يقول أى نوع من الأطباء هو إذا لم يكن طبيبًا عاديًّا، ولكنه بدلاً من ذلك يقول "أنا من مساتشوستس. أو هذا هو المكان الذى وُلدت فيه. وسافرت كثيرًا منذئذ، تجولت فى أنحاء الأرض، أسير فيها ذهابًا وإيابًا"، وينظر لى ليرى إن كنت أفهم.

أعرف أن هذا أشبه بـ قصة أيوب، قبل أن يلقى الأمرين وتدور عليه الدوائر، قبل أن يبسط الرب يده ويمس كل ما له ليمتحنه. هذا ما يقوله الشيطان للرب. لابد أنه يقصد أنه جاء ليختبرنى، رغم أن أوان ذلك قد فات، كما أن الرب امتحننى كثيرًا فعلاً، ولابد أنه تعب من ذلك الآن.

لكننى لا أقول هذا، وإنما أنظر إليه بغباء، فقد تمرنت جيدًا لأبدو بهذه النظرة الغبية.

أقول: هل ذهبت إلى فرنسا؟ إن كل الموضات تأتى من هناك.

وأرى أنه يشعر بالإحباط. يقول: نعم، وذهبت إلى إنجلترا وأيضًا إلى إيطاليا، وكذلك إلى ألمانيا وسويسرا.

إنه لأمر غريب أن أكون واقفة فى غرفة مغلقة، فى إصلاحية، مع رجل غريب يحادثنى عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا. رحالة. لابد أنه جوّاب، مثل چيرميا البائع المتجول. لكن چيرميا كان يرتحل ليكسب عيشه، وهذه الأصناف من الرجال الآخرين أثرياء بالفعل ولا يحتاجون لذلك. إنهم يرحلون لأنهم فضوليون. فهم يتبخترون حول العالم ويحلقون فى الأشياء، يبحرون فى المحيط وكأن ذلك شيء عادى، وإذا ساءت الأمور معهم فى مكان لا يتجشمون سوى حمل متاعهم والرحيل إلى مكان آخر.

جاء الآن دورى لأقول شيئًا. أقول: لا أعرف كيف تدبر أمورك يا سيدى بين كل هؤلاء الأجانب، فلا تعرف ما يقولون أبدًا. عندما يأتى هؤلاء المساكين هنا فإنهم يرطنون فى البداية كالإوز، هذا رغم أن الأطفال سرعان ما يتمكنون من الكلام بشكل معقول.

هذا صحيح، فالأطفال من أى جنس يتعلمون بسرعة.

يبتسم، ثم يفعل شيئًا غريبًا، يضع يده اليسرى فى جيبه، ويخرج تفاحة. يسير ناحيتى ببطء، حاملاً التفاحة أمامه كما لو كان يحمل عظمة لكلب شرس ليكسب وده.

يقول: هذه لك.

وأنا أشعر بعطش شديد، وتبدو التفاحة لى قطرة ماء كبيرة، باردة وحمراء، يمكننى شربها فى "شفطة" واحدة. أتردد، لكننى أفكر، لا ضرر فى تفاحة، فآخذها. لم أحصل على تفاحة لنفسى منذ وقت طويل. ولابد أن هذه التفاحة، منذ الخريف الماضى، حُفظت فى برميل فى القبو، ولكنها تبدو طازجة تمامًا.

أقول له: أنا لست كلبًا.

أغلب الناس سوف يسألوننى ماذا أقصد بذلك، لكنه يضحك. تخرج ضحكته فى نفس واحد، هاه، كأنه وجد شيئًا فُقد منه، ويقول: لا يا جريس، أعرف أنك لست كلبًا.

ماذا يظن؟ أقف أمسك التفاحة بكلتا يدىّ. أشعر بها غالية، مثل كنز ثقيل. أرفعها وأشمها. إن لها أريج الحياة فى الخارج، وأشعر برغبة فى البكاء.

يقول: ألن تأكليها؟

أقول: لا، ليس الآن.

يسألنى: ولم لا؟

أقول: لأنها ستختفى بعد أن آكلها.

الحقيقة أننى لا أريده أن يرقبنى وأنا آكلها. لا أريـده أن يـرى جوعى. فإن كنت بحاجة لشىء واكتشفوا ذلك فسوف يستخدمونه ضـدك. وأفضل طريقة هى أن تتوقف عن احتياج أى شىء.

يخرج ضحكته الواحدة. يقول: هل يمكنك أن تخبرينى ما هى؟

أنظر إليه، ثم أنظر بعيدًا. أقول: تفاحة. لابد أنه يظننى بلهـاء؛ أو أنها خدعة من نوع ما، أو هو مجنون ولهذا أحكموا غلق الباب ـ لقـد حبسونى هنا مع رجل مجـنون. لكن الرجـال الذين يرتـدون ثيابًا كهذه لا يمكن أن يكونوا مجانين، خاصة مع السـاعة ذات السلسـلة الذهبيـة. فلو كان الأمر كذلك لأخذها منه أقرباؤه فورًا، أو الحراس على الأقل.

يبتسم ابتسامته المائلة، يقول: بأى شىء تذكرك التفاحة؟

أقول: عفوًا يا سيدى، لا, أفهم ماذا تعنى؟

لابد أنه لغز. أفكر فى مارى هويتنى، وقشور التفاح التى رميناها خلفنا فى تلك الليلة، انرى من سنتزوج. لكنى لن أخبره بذلك.

يقول: أظن أنك تفهمين جيدًا.

أقول: نموذج التطريز الخاص بى.

والآن جاء دوره فى عدم الفهم. يقول: ماذا؟

أقول: النموذج الذى قمـت بتـطريزه لأول مـرة فى طفولتى. أ: أرنب، ب: بقرة، ت: تفاحة.

يقول: آه، ولكن ماذا أيضًا؟

أستعير نظرتى الغبية قائلة: فطيرة التفاح.

يقول: آه، شيء تأكلينه.

أقول: طيب، أتمنى لك أن تأكلها يا سيدى، فنحن نصنع فطيرة التفاح من أجل أن تؤكل.

يقول: وهل هناك أى نوع من التفاح لا يجب أكله؟

أقول: أظن التفاح المعطوب.

إنه يلاعبنى لعبة التخمين، مثل د. بانرلينج فى المصحة. هناك دائمًا إجابة صحيحة، وهى صحيحة لأنها الإجابة التى يريدونها، وستعرف من وجوههم هل استطعت أن تخمن ما يريدون، مع د. بانرلينج كل الإجابات كانت خطأ. أو ربما هو دكتور فى علم اللاهوت، إنهم هؤلاء الآخرون الذين يميلون إلى هذا النوع من الاستجواب. وقد نلت منهم ما يكفينى لزمن طويل.

تفاحة شجرة المعرفة، هذا هو ما يقصده. الخير والشر، أى طفل يمكنه الإجابة، لكننى لن أرغم على قولها.

أعود إلى نظرتى الغبية، وأقول: هل أنت واعظ؟

يقول: لا، لست واعظًا. أنا طبيب, لكننى لا أعمل مع الأجساد وإنما مع العقول. الأمراض العقلية والنفسية والعصبية.

أضع يدى والتفاحة خلف ظهرى. إننى لا أثق به إطلاقًا. أقول: لا، لن أعود هناك، لن أعود إلى المصحة. لن أحتمل ذلك أبدًا.

يقول: لا تخشى. أنت لست مجنونة، صحيح، هل أنت مجـــــنونة يا جريس؟

أقول: لا يا سيدى، لست مجنونة.

إذن , فلا سبب لعودتك إلى المصحة، أليس كذلك؟

أقول: إنهم لا يستمعون لصوت الحق يا سيدى.

يقول: طيب، هذا ما جئت من أجله. أنا هنا لأستمع لصوت الحق، ولكن إذا كنت سأستمع إليك فعليك أن تتكلمى معى.

أفهم ما يسعى إليه. إنه "لاقط"، يظن أن كل ما عليه أن يفعل هو أن يعطينى تفاحة، وبهذا يستطيع أن "يلتقطنى". ربما يكـــون مـــن إحـــدى الصحف، أو هو رحالة، يقوم بجولة. إنهم يأتون هنا ويبحلقـــون، وعنـــدما ينظرون إليك تشعر بأنك صغير فى حجم النملة، ثم يلتقطونك بين الأبهـــام والسبابة، ويديرونك ليتأملوك من كل ناحية. ثم يضعونك أرضًا ويذهبون.

أقول: أنت لا تصدقنى يا سيدى، وعلى أى حال فكل شـــىء قـــد تقرر، المحاكمة انتهت منذ زمن طويل وتم الحكم فى القضية، ولن يغـــير ما أقوله شيئًا. الأفضل أن تسأل المحامين والقضاة ورجال الصحافة، فيبدو أنهم يعرفون قصتى أفضل منى أنا شخصيًّا. وعلى أى حال، فأنا لا أتذكر، أستطيع أن أتذكر أشياء أخرى ولكن ذلك الجزء فُقد من ذاكرتـــى تمامًـــا، لابد أنهم أخبروك بذلك.

يقول: إننى أحب أن أساعدك يا جريس.

هذه هى الطريقة التى ينفذون بها من الباب. يعرضون المساعدة، ولكنهم يريدون العرفان بالجميل، يتدحرجون إلى هدفهم كما تتقلب القطة فى السلة التى تنام فيها. إنه يتمنى أن يعود إلى البيت ويقول لنفسه لقد قمت بالأمر بكل جدية، وقطفت الثمرة، يا لى من فتى طيب. لكننى لن أكون ثمرة أى أحد. ولن أقول شيئًا.

يكمل قائلاً: إذا حاولت أن تتكلمى فعلاً، فسوف أحاول أن أسمع. إن اهتمامى ينصب على الناحية العلمية. فلا يجب أن نهتم بالقتلة وحدهم. إنه يستخدم صوتًا رفيقًا، رفيقًا على السطح، ولكن ثمة رغبات أخرى تختفى تحته.

أقول: ربما أخبرك بأكاذيب.

إنه لا يقول: جريس، أى فكرة شريرة هذه، إن لك خيالاً مفعمًا بالخطيئة. بل يقول: نعم، ربما. ربما تقولين أكاذيب دون أن تقصدى. وربما تكذبين عامدة، ربما أنت كذابة.

أنظر إليه قائلة: بعضهم قال عنى ذلك.

يقول: حسنًا، ليس علينا سوى أن نجرب.

أنظر إلى الأرض، وأقول: هل سيعيدوننى إلى المصحة؟ أو يضعوننى فى الحبس الانفرادى دون طعام إلا الخبز؟

يقول: أعدك بأنك طالما تستمرين فى الكلام معـــى، ولا تفقــدين التحكم فى نفسك أو تلجئين إلى العنف، فسوف تظلين كما كنت. لقد وعدنى المحافظ بهذا.

أنظر إليه، ثم أنظر بعيدًا. أنظر إليه مرة أخـــرى. وأنـــا أمســك التفاحة بيدى الاثنتين. ينتظر.

وفى النهاية، أرفع التفاحة وأضغط بها على جبهتى.

الفصل الرابع

أحلام طبيب شاب

بين هؤلاء المجانين المهووسين، تعرفت على الوجه الغريب لجريس ماركس ـ ذلك الوجه الذى لم يعد يحمل تعبيرات الحزن واليأس وإنما يشتعل فيه الجنون ويتوهج بمرح شيطانى عنيد. وعندما أدركت أن ثمة غرباء يراقبونها، هربت وهى تصرخ كشبح إلى إحدى الغرف الجانبية. ويبدو أنها، حتى فى أسوأ حالات مرضها المرعب، تظل ذكرى الماضى تلاحقها. الفتاة التعسة!! متى ينتهى عقابها وطول ندَمها؟ متى ستجلس عند قدمى يسوع، وقد اكتست بكسوة مطهرة من الصفح، وغُسلت يداها من آثار الدماء، وتحررت روحها، وغُفر لها، وعادت إلى صوابها؟ ...

فلنأمل أن تكون أسباب كل ذنوبها السابقة راجعة إلى بدايات ما فعله بها هذا المرض الكريه.

سوزانا مودى
Life in the Clearings, 1853

مما يدعو للأسف الشديد أننا لا نملك المعرفة التى ترشدنا لكيفية علاج هؤلاء المرضى التعساء. فالجرّاح يمكنه فتح الـــبطن وتأمـــل الطحـــال، والعضلات يمكن فصلها وعرضها على الطلبة الصـــغار. لكـــن الـــنفس البشرية لا يمكن تشريحها، ولا يمكن وضع أفعال العقل على المنضـــدة لاستعراضها.

عندما كنت طفلاً، كنت ألعب لعبة أضع فيها غمامة تحجب الرؤية. وأنـــا الآن مثل ذلك الطفل، فثمة غمامة تحجب عنى الرؤية، أتحسس طريقى، لا أعرف إلى أين أذهب، ولا إذا ما كنت فى الاتجاه الصحيح. ويومًا ما، سيرفع عنى شخص ما هذه الغمامة.

د. جوزيف ووركمان

المدير الطبى

المصحة العقلية المحلية، تورنتو،

رســـالة إلى "هنـــرى"، باحث شاب لحوح فى أسئلته ، ١٨٦٦

لا ضرورة لأن يكون المرء غرفة ... لتسكنه الأشباح

لا ضرورة لأن يكون بيتًا ...

فالعقل له ممرات ..

تتجاوز الأماكن المادية.

نفوسنا، خلف نفوسنا، محجوبة

والمفروض أن تباغت بشدة

القاتل المختبئ فى شقتنا

فلتكن، على الأقل... بيتًا للفزع.

إميلى ديكنسون، حوالى ١٨٦٣

- ٦ -

إلى دكتور طبيب سايمون چوردان، بيت لابورنام، لومسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية؛ من د. چوزف ووركمان، المدير الطبى للمصحة النفسية الإقليمية (المحلية)، تورنتو، غرب كندا.

١٥ أبريل ١٨٥٩

عزيزى د. چوردان

أبلغكم بأننى تسلمت رسالتكم المؤرخة فى ٢ الجارى، وأشكركم على رسالة التقديم التى وصلتنى من زميلى الذى أكن له بالغ الاحترام والتقدير، د. بينسوانجر من سويسرا، الذى تابعت باهتمام بالغ إنشاء عيادته الجديدة. واسمح لى أن أقول أنك، نظرًا لكونك من معارف د. بينسوانجر، سوف تلقى غاية الترحيب فى أى وقت إذا حضرت لتفقد المعهد الذى أقوم بإدارته. ولسوف أكون فى غاية السعادة أن أصحبك بنفسى لأريك الدار، وأشرح لك طرقنا العلاجية.

وبما أنك تنوى بناء مؤسسة خاصة بك، فإنه يجب أن أؤكـد أن المرافق الصحية والصرف الجيد لهما أهمية قصوى، فمن العبث محاولـة رعاية عقل مريض بينما الجسد مصاب بصنوف العدوى. وهـذا الجانـب غالبًا ما يهمل. وفى وقت قدومى لهذا المكان، عانينا من تفشى الكـوليرا، والدوسنتاريا، والإسهال الشديد، وكل عائلة التيفوئيد المميتة، وكلها كانـت أوبئة تهاجم المصحة. وأثناء بحثى عن مصدر كل ذلك اكتشـفت شـبكة كاملة للمجارى تمر تحت جميع المخازن والسراديب، وفى بعض الأماكن كان ينز سائل قوى فى كثافة الشاى الأسود، وفى أماكن أخرى كان ينـز سائل مثل حساء لزج ناعم لم يتم تصريفه بسبب فشل البنائين فى وصـل مواسير الصرف بالشبكة؛ وبالإضافة لذلك كان مصدر الماء المستخدم فى الشرب أو الغسيل يأتى من خلال ماسورة تستمد مياهها من خليج راكد فى البحيرة، ومن مكان قريب من مكان الصـرف الرئيسـى العفـن لميـاه المجارى. وليس غريبًا أن النزلاء كانوا دائمى الشكوى من أن مياه الشرب بها طعم منفرٍ حتى أن معظمهم لم يكن يشعر بأى رغبة فى شربها.

ويُقسّم النزلاء هنا حسب النوع، وحسب الأعراض المرضية على السواء. وثمة تنوع كبير، فالهوس الدينى يمكن أن يكون سببًا مثيرًا للجنون مثله مثل الإدمان، لكننى أميل إلى الاعتقاد بأنه لا الدين ولا الإدمان يمكن أن يحمل عقلاً سليمًا على الجنون ــ وأعتقد أن هناك دائمًا سـببًا مُهيِّئًـا يجعل الفرد قابلاً للمرض عنـدما يتعرض لأى عـامل مشـوش عقليًا أو عضويًا.

أما بالنسبة للمعلومات التى طلبتها بخصوص الموضوع الرئيسى لتساؤلاتك، فمع الأسف يجب أن تبحث عنها لدى مصدر آخر. فالسجينة جريس ماركس، والتى كانت مدانة بالقتل، قد أعيدت إلى الإصلاحية فى كينجستون فى أغسطس ١٨٥٣، بعد قضاء خمسة عشر شهرا هنا. وحيث أننى عُيِّنت هنا قبل رحيلها بثلاثة أسابيع فقط، لم تكن لدى فرصة لعمل دراسة متفحصة لحالتها. ومن ثم، فقد وجهت رسالتك إلى د. صمويل بانرلينج الذى كان يعتنى بها تحت إدارة من سبقنى. وليس بمقدورى أن أتحدث عن درجة الانحراف العقلى التى كانت مصابة بها فى الأساس. وكان انطباعى أنها، ولوقت كافٍ قبل ذلك، كانت على درجة من التعقل تكفل لها الخروج من المصحة. وأنا أؤكد على التوصية بوجوب المعاملة الرفيقة معها أثناء فترة عقابها؛ وأعتقد أنها الآن تقضى بعض اليوم كخادمة فى بيت محافظ السجن. وفى أواخر مدة إقامتها بالمصحة كانت تلتزم السلوك اللائق؛ وفى نفس الوقت كانت، فى مثابرتها وعطفها على المرضى، تعتبر نزيلة مفيدة ونافعة. وهى تعانى أحياناً من نوبات عصبية ونشاط زائد مؤلم فى القلب.

إن إحدى المشكلات الرئيسية، التى تواجه مدير مؤسسة تمولها الدولة مثل هذه، هى ميل سلطات السجون إلى توجيه الكثير من المجرمين المثيرين للمشاكل إلينا، ومن بينهم قتلة بشعون ولصوص ونصابون، حالات ليس مكانها بين المجانين الأبرياء غير الفاسدين، وذلك لمجرد أن تخرجهم من السجن. ومن المستحيل أن يكون مبنى أنشئ بهدف راحة وعلاج المجانين مكاناً لائقاً لسجن مجرمين معتوهين؛ ومن المؤكد أنه أقل

لياقة لاستقبال المحتالين الذين يدعون الجنون؛ وأنا أميل بشدة للاشتباه في أن هذه الفئة الأخيرة أكثر عددًا مما يُفترض بشكل عام. وبالإضافة إلى العواقب الوخيمة التي لا مفر من حدوثها للمريض بسبب الخلط بين الأبرياء ومجانين المجرمين، ثمة سبب للخشية من وقوع تأثير يتسبب في إفساد طباع وعادات حراس المصحة وموظفيها، مما يجعلهم غير مناسبين لمعاملة الفئة الأولى معاملة إنسانية ولائقة.

ولكن حيث أنك تعرض إقامة منشأة خاصة، فإنني أثق بأنك لن تكابد الكثير من هذا النوع من المتاعب، ولن تعاني الكثير من التدخل السياسي المقلق الذي كثيرًا ما يمنع تقويم المرضى . وفي هذا الشأن، وبشكل عام، أتمنى كل النجاح لجهودك. ومن سوء الحظ أن الحاجة لمثل هذه المؤسسات في الحاضر أصبحت ملحة، في بلدي وبلدك على السواء، وذلك نتيجة لزيادة القلق في حياتنا المعاصرة، وما يتبعه من ضغوط على الأعصاب، فإن معدلات إنشاء مثل هذه المؤسسة لا تتماشى مع الأعداد التي تتقدم إليها؛ وأتمنى أن أقدم لك أية مساندة ولو صغيرة يكون بمقدوري أن أمنحها.

المخلص

جوزيف وركمان، دكتور طبيب

من حرم ويليام ب. چوردان، لابورنام هاوس، لومسڤيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية؛ إلى د. سايمون چوردان، طرف الميچور س. د. همفرى، شارع لوار يونيون. كينجستون، غرب كندا

ابنى العزيز

وصلتنى اليوم رسالتك القصيرة التى انتظرتها طويلاً، وبها عنوانك الحالى وإرشاداتك باستخدام مرهم الروماتيزم. وقد أسعدنى أن أرى خط يدك الحبيب مرة أخرى، حتى ولو القليل منه، وكان لطيفاً منك أن تهتم بأمك المسكينة، وبحالتها الصحية الضعيفة.

إننى أنتهز هذه الفرصة لأكتب لك بضعة أسطر، وأرفق الرسالة التى وصلت إليك هنا بعد رحيلك بيوم واحد. كانت زيارتك الأخيرة لنا قصيرة للغاية، فمتى نتوقع أن نراك بين أسرتك وأصدقائك مرة أخرى؟ لا يمكن لهذا السفر الكثير أن يكون مفيدًا، لا لسلامك النفسى، ولا لصحتك. إننى أتشوق لليوم الذى تختار فيه الاستقرار بيننا، وتبنى فيه نفسك جيدًا بطريقة لائقة.

لم أستطع أن أتمالك نفسى من ملاحظة أن الرسالة المرفقة من المصحة العقلية فى تورنتو، وأظن أنك تنوى زيارتها، رغم أنك من المؤكد قد رأيت كل منشأة مماثلة فى العالم ولا يمكن أن تفيدك رؤية واحدة أخرى. لقد امتلأت رعبًا من وصفك لمثل هذه المنشآت فى فرنسا وإنجلترا، وحتى فى سويسرا التى هى أكثر نظافة بكثير. ويجب علينا جميعا أن ندعو الله أن يحفظ عقولنا؛ لكننى أشعر بقلق عظيم فيما يخص

احتمالات مستقبلك، إذا واصلت السعى فى هذا المضمار. ولابد أن تسامحنى يا بنى العزيز إذ أننى لم أستطع أبدًا أن أفهم اهتمامك بمثل هذه الأشياء. لم يحدث من قبل أن وجه أحد أفراد العائلة اهتمامه للمجانين، رغم أن جدك كان قسيسًا شديد التدين بل وممن يحضرون جلسات التأمل. إن الرغبة فى محو المعاناة عن البشرية جديرة بالثناء، لكن من المؤكد أن السبب فى حالة فاقدى العقل والبلهاء والمعوقين يرجع إلى إرادة الله، ولا يجب أن يحاول الإنسان تغيير أمر الله لأنه هو العدل ذاته، حتى لو كان غامضا على أفهامنا.

وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن أن أصدق إمكان إقامة مصحة عقلية خاصة يدفع الناس لها، فمن المعروف أن أقارب المجانين يتهاونون ما أن يبتعد المريض عنهم، ولا يريدون رؤيته أو سماع أى شىء عنه، ويمتد التهاون إلى تسوية فواتيره. ثم لديك تكاليف الطعام والوقود وأجور الموظفين الذين سوف يعتنون بهم. وثمة اعتبارات كثيرة يجب مراعاتها، ومن المؤكد أن العشرة اليومية للمجانين لا يمكن أن توصِّل إلى حياة هادئة. كما أنك يجب أن تفكر فى زوجتك المستقبلة، وأطفالك الذين يجب ألا تضعهم على مقربة من زمرة من المجانين الخطرين.

أعلم أنه ليس لى أن أقرر طريقك فى الحياة، لكننى ألح بشدة على أن مصنعًا سيكون أفضل كثيرًا، ورغم أن مصانع النسيج لم تعد كما كانت بسبب سوء إدارة السياسيين للأمور، هؤلاء السياسيون الذين يسيئون استعمال ثقة عامة الناس بلا رحمة، ويزدادون سوءًا كل عام، إلا أن هناك فرصًا كثيرة أخرى فى الوقت الحالى، وبعضهم أمكنه الاستفادة منها جيدًا، فأنت تسمع عن رجال يصنعون ثروات جديدة كل يوم، وأنا واثقة أنك

لا تقل عنهم حيوية وذكاء. ويتحدثون عن ماكينة جديدة للخياطة تستخدم فى المنزل، وسوف تكون رائعة لو أمكن إنتاجها بتكلفة أرخص، فكل امــرأة تتمنى أن تمتلك مثل هذه الآلة، التى ستوفر ساعات كثيرة من العمل الشاق الرتيب والكدح الذى لا يتوقف، وسوف تكون ذات فائدة عظيمة لمســاعدة الخياطات المسكينات. ألا يمكنك استثمار ما بقى لك من ميراث صغير بعد بيع أعمال أبيك رحمه الله فى مثل هــذه المغــامرة المأمونــة والمثيــرة للإعجاب؟ إننى متأكدة أن ماكينة الخياطة سوف تخفف من معاناة البشــر بما يوازى مائة مصحة نفسية، وربما أكثر كثيرًا.

لقد كنت بالطبع مثاليًّا دائمًا، وتملؤك الأحلام المتفائلة، لكن الواقع أحيانًا لابد له أن يبرز للعيان، وقد بلغت الآن الثلاثين من عمرك.

ولا أقول ذلك بدافع من التطفل أو التدخل، وإنما بلهفة الأم علــى مستقبل أفضل لابنها الوحيد الحبيب. فإننى أتمنى أن أراك وقــد أسســت نفسك جيدًا قبل أن أموت ــ ولقد كانت هذه رغبة والدك العزيز أيضًــا ــ وأنت تعرف أن حياتى كلها مكرسة لسعادتك ورفاهيتك.

لقد ساءت صحتى بعد رحيلك ــ فوجودك دائمًا له تأثير يرفع من معنوياتى. وقد أخذت أســعل بشــدة بالأمــس، حتى أن مورين المخلصة لم تستطع إلا بالكاد مساعدتى على صعود السلم ــ فهــى تقريبًــا مثلــى، عجوز واهنة، ولابد أننا بدونا كساحرتين عجوزين تعرجان أثناء صعودهما التل. ورغم ما تعدُّه لى فى المطبخ يوميًّا سامانتا، طباختى الطيبــة، مــن تركيبات ذات طعم كريه ككل الأدوية، وتقسم أن أمها شفيت بهــا ــ فــإن حالتى لا تتحسن، ولكننى كنت اليوم فى حال أحسن حتــى اســتطعت أن

أستقبل الزائرين في قاعة الاستقبال. وقد جاءني عدد من الزائرين ممن سمعوا عن توعك صحتي، وبينهم مسز هنري كارترايت، والتي تتميز بطيبة القلب، رغم أن سلوكياتها ليست دائمًا باللياقة المناسبة، وهذا هو في العادة حال أولئك الذين اكتسبوا ثروات حديثة، لكن سلوكياتهم ستتحسن بمرور الوقت. وكان بصحبتها ابنتها فيث التي قد تذكرها عندما كانت فتاة خرقاء في الثالثة عشرة من عمرها، لكنها الآن كبرت وعادت حديثًا من بوسطن، حيث كانت تقيم مع خالتها لإكمال تعليمها. وقد أصبحت شابة ساحرة يتمناها أي إنسان، وأصبحت تبدي كياسة وعطفًا رقيقًا يعجب بهما الكثيرون، وهي أخلاق تساوي أكثر كثيرًا من المظاهر المبالغ فيها. وقد أحضرتا معهما سلة من الطعام الشهي ـ فقد بالغت مسز كارترايت العزيزة في تدليلي ـ وقد عبرت عن امتناني العميق بهذه الهدية رغم أنني قد لا أتمكن من تذوق أي شيء حيث لا شهية لي في الوقت الحالي.

من المحزن أن يكون المرء مريضًا، وأدعو الله كل ليلة أن يعفيك من ذلك، وأن تأخذ حذرك بألا تتعب نفسك بشدة بالكثير من الدراسة والضغط العصبي، وبالسهر طوال الليل إلى جانب المصباح، فتؤذي عينيك وتشوش عقلك، وأرجو أن ترتدي ملابس داخلية من الصوف حتى يدفأ الجو تمامًا. لقد ظهرت أولى بشائر الخس عندنا، وظهرت البراعم على شجرة التفاح؛ وأظن أن المكان عندك لا يزال مغطى بالثلوج. لا أظن أن كينجستون التي تقع في هذا الشمال القصي وعلى شاطئ البحيرة يمكن أن تكون جيدة للرئتين، فلابد أنها شديدة البرد والرطوبة. هل غرف منزلك بها تدفئة جيدة؟ أرجو أن تأكل طعامًا جيدًا يقويك، وأن يكون عندهم تاجر لحوم جيد.

بنى العزيز، أرسل إليك كل حبى، وترجو مورين وسامانتا أن أذكرهما لديك، وكلنا بانتظار الأخبار - التى نتمنى أن تصلنا سريعا - بموعد زيارتك القادمة، وإلى ذلك الحين سأظل دائمًا ...

والدتك المحبة جدًّا

من د. سايمون چوردان، طرف الميچور س. د. همفرى، شارع لوار يونيون، كينجستون، غرب كندا، إلى د. إدوارد مورشى، دورشستر، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية

عزيزى إدوارد

يؤسفنى أننى لم أقدر على زيارة دورشستر لأرى كيف تمضى بك الأحوال، الآن وقد وضعت الأساس لمكانة جيدة فى عملك، وأصبحت مشغولا بحماية المعوقين والعميان المحليين، فى حين كنت أنا أتسكع فى أوروبا، أبحث عن طريقة لطرد الشياطين. وأنا، بينى وبينك، لم أتعلم هذا السر بعد، ولكن كما ترى، كان الوقت منذ وصولى إلى لوميسقيل حتى رحيلى منها مشغولاً للغاية بالإعدادات، وكنت مضطرًّا لتكريس الأمسيات لوالدتى. لكن, بمجرد عودتى، لابد أن نرتب لقاء، نشرب فيه نخبًا أو اثنين معًا فى صحة أيام الصبا القديمة، ونتحادث عن مغامراتنا الماضية، وأحوالنا الجارية.

بعد رحلة مريحة إلى حد ما عبر البحيرة، وصلت سالمًا إلى مقصدى، لم ألتق بعد بالشخص الذى تراسل معى، والذى يعتبر "صاحب

العمل"، إذا جاز هذا التعبير، المبجل ڤرينجر، فهو في زيارة لتورنتو، ومن ثم لا أزال أتمتع بفضيلة التوقع؛ رغم أنه كما يبدو من رسائله – وككل القساوسة الإنجليكانيين – يفتقر إلى الكياسة بدرجة تدعو للأسى، ويشعر برغبة في معاملتنا جميعا كالشياه السائمة، على أن يكون هو الراعي. ورغم ذلك، فالفضل يرجع إليه، وإلى د. بينسوانجر الطبيب، الذي قدمني له كأفضل رجل للقيام بهذه المهمة في كل الجانب الغربي من المحيط الأطلنطي – في منحى هذا الأجر، رغم أنه ليس مرتفعًا – إذ أن أتباع الإنجليكانيين معروفون بالاقتصاد الشديد. لكنني أدين لهذا الرجل بهذه الفرصة الرائعة، والتي آمل أن أتمكن من استغلالها لصالح تقدم المعرفة، فالعقل وأفعاله لا يزالان من فروع المعرفة التي لم تستكشف بعد رغم التقدم المعتبر في هذا المجال.

وأما بالنسبة لوضعي، فإن كينجستون ليست مدينة تستهوي الألباب، فقد أصيبت بحريق هائل أتى عليها منذ عشرين عامًا، وأعيد بناؤها بسرعة لا اهتمام فيها بالجمال. والأبنية الجديدة من الحجر أو الطوب، وهو ما آمل أن يجعلها أقل عرضة للحرائق. أما الإصلاحية نفسها فهي مبنية على طراز "معبد إغريقي"، وهم فخورون بها هنا للغاية؛ لكن أي إلهٍ وثني تتجه النية لعبادته فيها، ... فهذا ما لم أكتشفه بعد.

وقد استأجرت جناحًا في منزل ميچور يدعى س. د. همفري، ورغم أنه ليس مترفًا، لكنه سوف يفي بحاجتي. إلا أنني أخشى أن صاحب البيت مصاب بتعطش لا يقاوم نحو الكحوليات؛ ففي المرتين اللتين صادفته فيهما كان يجد صعوبة في لبس قفازيه أو خلعهما، وبدا غير متأكد من

الأمر، وحملق فىّ بعينين حمراوين، وكأنه يفكر ماذا أفعل فى منزله بحق الشيطان. وأنا أتنبأ بأنه سينتهى إلى نزيل فى المصحة الخاصة التى ما أزال أحلم بإنشائها؛ رغم أننى يجب أن أكبح جماح نفسى من النظر إلى كل شخص أتعرف عليه كنزيل يدفع أجرًا فى المستقبل لمصحتى. ومما تجدر ملاحظته أن العسكريين المتقاعدين على نصف الراتب كثيرًا ما تسوء أحوالهم، فهم يبدون وكأنهم ــ وقد اعتادوا التعرض للكثير من الإثارة الشديدة والمشاعر القوية ــ ينبغى أن يمارسوا نفس القدر من الإثارة فى الحياة المدنية. ولكن إجراءات السكن تمت، ليس مع الميچور ــ الذى من المؤكد أنه سوف ينسى إجراءها ــ ولكن مع زوجته التى عاشت طويلاً مع المعاناة.

وأنا أتناول وجباتى ــ ما عدا الإفطار الذى أصبح حتى الآن أسوأ كثيرًا من الإفطار الذى كنا نتناوله سويًّا ونحن ندرس الطب فى لندن ــ فى فندق قذر يقع فى الجوار، حيث كل وجبة عبارة عن شىء محترق، ولا يمكن أن تكون أسوأ من ذلك حتى لو أضفنا بعض الوحل والقذارة وتوابل من الحشرات. أما سبب بقائى هنا، رغم هذه الصور الساخرة من فنون الطبخ، فأنا أثق بأنك ستعرف أنه دلالة على صدق إخلاصى فى سبيل العلم والمعرفة.

أما بالنسبة للمجتمع، فلابد أن أخبرك عن وجود فتيات جميلات كما فى كل مكان، لكنهن يلبسن موضة باريسية مرت عليها ثلاث سنوات، وهى نفس الموضة فى نيويورك من سنتين. ورغم الاتجاهات الإصلاحية للحكومة الحالية، فإن المدينة يكثر فيها المعارضون الساخطون، وكذلك المتملقون المحليون التافهون، وأنا أتوقَّع أن صديقك الفظ ذا الملابس

المهملة، بل، ولأوضح ما أعنيه، الديمقراطى الشمالى، سوف ينظـــر إليـــه أهل المدينة الأكثر تحزبًا ببعض الارتياب.

ومع ذلك، فإن المحافظ ــ وأظن أن ذلك بإيعـــاز مـــن المبجـــل ڤرينجر ــ قد خرج عن الخط الذى رسمه لنفسه ليكون مجـــاملاً، ودبـــر مسألة وضع جريس ماركس تحت تصرفى لعدة ساعات بعد الظهر يوميًّا. ويبدو أنها تعمل فى بيته كنوع من الخادمة غير مدفوعة الأجر، أما نظرتها لهذه الخدمة، كمنحة أو عقاب، فهو أمر لم أتحقق منه بعد؛ ولن تكون مهمة سهلة، فجريس الرقيقة قد اخشوشنت بعد خمسة عشر عامًا من المعانـــاة، وسوف يصبح من الصعب التعامل معها. والتساؤلات من النوع الذى أقوم به غير مؤثرة، إلا إذا أمكن الحصول على ثقة الشخص؛ ولكن معرفتـــى بالمؤسسات العقابية تجعلنى أشك أن جريس ماركس لديها سبب واحد للثقة فى أى إنسان لفترة طويلة من الزمن.

ولم تتوفر لى إلا فرصة واحدة لاستعراض موضوع بحثى، ومن ثم فإن من العجلة أن أعبر عن انطباعاتى. ولكن يمكن أن أقول أننى أشعر بالأمل؛ وكما تكرمت وعبرت عن رغبتك فى سماع أخبار عـــن تقـــدمى، فســـوف أبذل كل جهـــدى لأعلمـــك بانتظـــام. وحتى ذلك الحين، سأظل، يا عزيزى إدوارد...

صديقك القديم وزميلك السابق

سايمون

- ٧ -

يجلس سايمون إلى منضدة الكتابة، يقرض طرف قلمه، وينظر من النافذة إلى مياه بحيرة أونتاريو الرمادية المتلاطمة. عبر الخليج تقع بحيرة وولف. وفكر سايمون أنها ربما سميت كذلك على اسم الجنرال الشاعرى الشهير(*). إنه مشهد لا يعجبه، فهو أفقى بلا هوادة، لكن الرتابة البصرية تكون أحياناً قادرة على إثارة الأفكار.

عاصفة من المطر تدمدم على زجاج النافذة، وتسوق الرياح السحب المنخفضة فوق البحيرة. والبحيرة نفسها تجيش وتصطخب بالأمواج، تندفع الأمواج إلى الشاطئ، وترتد، ثم تندفع مرة أخرى، وأشجار الصفصاف تحته تتمايل بشدة كرؤوس ذات شعور طويلة خضراء، وتنحنى، وتنقلب. وشيء باهت يهب عابرًا، يشبه وشاحًا أبيض لامرأة، لكنه يكتشف أنه مجرد طائر سمان يجاهد الريح. ويفكر أنها غضبة الطبيعة المجنونة، الأسنان والمخالب التى تحدث عنها تنيسون.

(*) الجنرال جيمس وولف James Wolfe (١٧٢٧-١٧٥٩)، كان قائدًا إنجليزيًا ساهم فى تأكيد سيطرة الإنجليز على أمريكا الشمالية عندما قاد حملة ضد الفرنسيين الذين كانوا يحاولون تأسيس إمبراطورية لهم فى المنطقة المعروفة الآن باسم كندا، وقد أصيب فى المعركة ثم مات متأثرًا بجراحه. ويقال أنه, فى إحدى مراحل الصراع، كان فى حالة حزن فألف أغنية ينعى فيها على الجنود التصرف بجنون فى القتال مما يؤدى بهم إلى الموت.

وهو لا يشعر بأى مرح متفائل من ذلك الذى عبر عنــه لتــوه. وعلى العكس، فهو يشعر بالقلق. وبما هو أكثر من الشــعور بالكآبــة. إن مبرر وجوده هنا يبدو مشكوكًا فيه، لكنها أفضل فرصة لــه فــى الوقــت الحالى. كان طيش الشباب هو الذى جعله يلتحق بالدراسات الطبية. كــان أبوه حينئذ مالك مصنع ثريًا، وكان يتوقع أن يتولى سايمون أمر المصــنع كاملاً فى الوقت المناسب، حتى سايمون نفسه كان يتوقع نفس الشىء. لكنه فى البداية سوف يتمرد قليلاً، وقد ينحرف بعض الشىء عن الخط المرسوم له، يسافر، يدرس، يختبر الحياة وتختبره، ويجرب أيضًا فى عالم المعرفة والطب، الذى كان دائمًا مغريًا بالنسبة له. ثم سيعود إلى الــوطن بمهنــة يمارسها كهواية، مع تأمين مريح يشعره بأنه ليس مضــطرًا لممارســتها لكسب المال. فهو يعلم أن الغالبية العظمى من أفضل العلماء لهــم دخــول خاصة تسمح لهم بإمكانية البحث النزيه بلا هموم.

لم يكن يتوقع انهيار والده، ولا انهيار مصنع النسيج الخاص به، ولم يستوثق أبدًا أى الانهيارين جاء أولاً. وبدلاً من التجديف بقاربــه فــى مجرى مائى هادئ، بوغت بعاصفة فى البحــر تركتــه متعلقًــا بصــارية مكسورة. وبعبارة أخرى، ألقته العاصفة على شاطئ مصــادره الخاصــة، والتى ادعى أثناء مجادلاته مع والده فى فترة المراهقة أنها هى ما يرغــب فيه أكثر من أى شىء آخر.

بيع المصنع، وكذلك البيت المهيب الذى عاش فيه طفولته، بهــذا العدد الكبير من الخدم ــ الوصيفات، وخادمات المطبخ، وخادمات الردهة، هذه الجوقة دائمة التغير من الفتيات أو النساء الباســمات اللاتــى يحملــن

أسماء من نوع أليس أو إيفى، واللاتى دللنه، وأشرفن وهيمنّ على طفولته وشبابه، واللاتى يفكر دائمًا أنهن بطريقة ما تم بيعهن مع البيت. كانت روائحهن تشبه الفراولة والملح، وكانت لهن شعور طويلة متموجة عندما تترك مسدلة، أو على الأقل إحداهن كان لها هذا الشعر، ربما كانت إيفى. أما ميراثه فهو أقل مما تعتقد والدته؛ وأكثر ما يدخل من هذا الميراث يذهب إليها، وهى ترى أنها تعيش فى ظروف متدنية، وهى الحقيقة بالنسبة لما كانوا عليه. كما أنها تعتقد أنها تبذل تضحيات من أجل سايمون، وهو لا يريد أن يحررها من هذا الوهم. لقد بنى أبوه نفسه بنفسه، لكن أمه بناها الآخرون، ومثل هذه الصروح معروفة بالهشاشة.

وهكذا، فإن المصحة الخاصة بعيدة عن متناوله فى الحاضر، ولكى يجمع نقودًا لها عليه أن يقدم شيئًا جديدًا لم يسبقه إليه أحد، اكتشافًا أو دواءً جديدًا، فى حقل مزدحم بالفعل، هذا بالإضافة إلى أنه مثير للخلاف. ربما، عندما يكتسب شهرة واسعة، يتمكن من بيع أسهم فى مصحته، ولكن دون أن يفقد سيطرته عليها. لابد أن يكون حرًا، حرًا تمامًا، فى اتباع طرائقه الخاصة متى قرر بالضبط ما هى هذه الطرائق. سوف يكتب نشرة تمهيدية لعرض مشروعه؛ غرف واسعة ومبهجة، تهوية جيدة وصرف صحى، حدائق ممتدة، يمر فيها جدول، فصوت الماء يهدئ الأعصاب. ولكنه لن يذهب إلى حد استخدام الآلات والبدع، لن يضع فيها أدوات للعلاج بالكهرباء، ولا علاج بالمغنطيس. صحيح أن عامة الأمريكيين يعجبون بهذه الأفكار إعجابًا شديدًا ـ فهم يفضلون العلاجات التى يمكن أن تتم بجذب ذراع آلى أو ضغط زرار ـ ولكن سايمون

لم يكن يعتقد فى تأثير هذه الطرائق. ورغم الإغراء، لابد أن يرفض القبول باللجوء إلى وسائل تخل بأمانته العلمية.

كل هذا مجرد أوهام فى الوقت الحاضر. لكن ينبغى أن يكون لديه مشروع من نوع ما، يلوح به أمام والدته، فهى بحاجة للاطمئنان على أنه يعمل باتجاه هدف أو آخر، حتى لو كانت لا توافق عليه. وبالطبع يمكنه أن يتزوج الثروة، كما فعلت هى نفسها، فقد باعت اسم عائلتها وعلاقاتها مقابل الثروة التى كان يملكها زوجها الذى كان قد أثرى حديثًا، وهى مصممة بشدة على ترتيب شىء من نفس النوع له: وليس سرًّا الانتشار المتزايد لما سُمى بـ "تجارة الخيل"، وهو التزاوج بين الأرستقراطيين الأوروبيين الذين أصابهم الفقر، والمليونيرات الأمريكيين حديثى النعمة، وحتى على مستوى أضيق كثيرًا فى لوميسفيل – مساتشوستس. لكنه ما أن يتذكر السِّنتين الأماميتين البارزتين للآنسة فيث كارترايت، ورقبتها الشبيهة برقبة البط، حتى يصاب بقشعريرة.

ينظر إلى ساعته. تأخر الإفطار مرة ثانية. كل صباح يأتيه الإفطار ليتناوله فى شقته، تحمله دورا فى صينية خشبية. ودورا هى الخادمة التى تقوم بكل شىء لصاحبة البيت. وهى تضع الصينية، بجلبة وقعقعة وخشخشة، على المنضدة الصغيرة فى الجانب البعيد من غرفة معيشته، حيث يجلس بمجرد ذهابها ليزدرده، أو ليزدرد بعض ما يظنه صالحًا للأكل منه. وقد عوّد نفسه على قضاء بعض الوقت فى الكتابة قبل الإفطار على المنضدة الأخرى والأكبر، لكى ترى أنه مشغول فلا يضطر للنظر إليها.

ودورا امرأة بدينة ذات وجه أشبه بالجيلى، ولها فم صغير مقوس لأسفل كفم طفل خائب الرجاء، ويتلاقى حاجباها الأسودان الكبيران فوق أنفها مما يضفى عليها عبوسًا دائمًا يعبر عن نوع من الرفض الحانق. ومن الواضح أنها تمقت عملها كخادمة تقوم بكل المهام، ولكنه سوف يتعجب إذا كان ثمة شيء آخر تفضله. وقد حاول أن يتخيلها كبغى ـ وهو كثيرًا ما يلعب هذه اللعبة العقلية الخاصة مع نساء كثيرات يلتقى بهن ـ لكنه لم يستطع أن يتصور رجلاً يدفع لها فى مقابل خدماتها. سيكون الأمر كما لو كان المرء يدفع لقاء أن تدوسه عربة، ومثل هذه التجربة قد تكون تهديدًا خطيرًا للصحة. دورا مخلوق ضخم وقوى، وقد تكسر العمود الفقرى لرجل نصفين بفخذيها، اللذين يتخيل سايمون أنهما يميلان إلى اللون الرمادى مثل سجق مسلوق، ولهما شعر خشن كديك مذبوح لم ينظف ريشه جيدًا، وضخمين، كل منهما فى حجم خنزير صغير.

وترد دورا عليه قلة تقديره لها. ويبدو أنها تشعر أنه لم يؤجر هذه الشقة إلا بهدف واحد: خلق المتاعب لها. فهى تفرم مناديله، وتفرط فى تنشية قمصانه، كما تضيع أزرارها، التى من المؤكد أنها تنتزعها بشكل روتينى. حتى أنه يشك أنها تحرق خبزه وتسلق له البيض سلقًا زائدًا عن عمد. وبعد أن "ترزع" الصينية على المنضدة، تخرج صوتًا كالخوار قائلة "إفطارك"، وكأنها تدعو خنزيرًا، ثم تمشى بتثاقل إلى الباب وتغلقه خلفها بعنف أقرب إلى الصفق.

كان سايمون قد لقى تدليلاً بالغًا من الخادمات الأوروبيات اللاتى يعرفن مقامهن بالفطرة؛ فهو لم يتعود بعد على الاستعراض المفعم

بالاستياء للمساواة، والتى كثيرًا ما تستخدم فى هذا الجانب من المحيـــط، فيما عدا فى الجنوب، طبعًا، لكنه لا يذهب هناك.

وهناك أماكن أخرى للسكنى فى كينجستون، لكنه لا يــود دفــع إيجارها المرتفع. وهذا المكان مناسب للفترة القصيرة التى ينوى بقاءهــا. كما أنه لا يوجد مستأجر غيره، وهو يعتبر الخصوصية ذات قيمة كبيــرة، وكذلك الهدوء الذى يمنحه الفرصة للتفكير. البيت مبنى بالحجــارة، بــارد ورطب. وبطبيعته ــ ولابد أنه الشعور القديم لقاطن "نيو إنجلاند" داخله ــ يشعر سايمون بنوع من الازدراء لإطــلاق العنــان للشــهوات الماديــة. وكدارس للطب، أصبح معتادًا على تقشف رهبانى، وعلى العمل ســاعات طويلة فى ظروف صعبة.

يعود ويلتفت إلى مائدته، ويبدأ الكتابة:

أمى الغالية، أشكرك على رسالتك الطويلة والمليئة بالمعلومــات المفيدة. أنا فى خير حال، وأقطع يوميًا تقدمًا معتبرًا فى دراستى للأمراض العصبية والعقلية بين العناصر الإجراميــة، وهو ما يمكن أن يكــون ــ إذا ما استطعت النفاذ إلى دواخلهم ــ طريقًا طويلاً للتخفيف عن ....

لا يستطيع أن يكمل، فهو يشعر بأن هذا احتيال مغالى فيه. لكنــه لابد أن يكتب شيئًا، وإلا افترضت أمه أنه غرق أو أصيب بالســل فجــأة ومات، أو هاجمه قطاع الطرق. الحديث عن الجو موضوع جيــد دائمًــا، ولكنه لا يستطيع أن يكتب عن الجو ومعدته خالية.

من درج مكتبه أخرج كُتيِّبا يرجع إلى زمن ارتكاب الجـريمتين، والذى كان المبجل ڤرينيجر قد أرسله إليه، ويحتوى اعترافــات جــريس ماركس وجيمس مكدرموت، بالإضافة إلى صيغة مختصرة من المحاكمة. فى الصفحة الأولى بورتريه منفذ بطريقة الطباعة اليدوية لجريس، يســهل الظن بأنه لإحدى بطلات الروايات الرومانسية، كانت لا تزيد عن السادسة عشرة فى ذلك الوقت، لكن البورتريه يجعلها تبدو أكبر من ذلــك بخمــس سنوات. يلتف كتفاها بشال موشى، وتحيط برأسها حافة قلنسوة نسوية تبدو كهالة معتمة. أنف مستقيم، وفم وسيم، وتعبير عــاطفى يشــعرك بالألفــة ــ الشجن والتأمل الذى يوحى بمريم المجدلية ــ وعينان كبيرتان تحــدقان إلى لا شىء.

إلى جوار ذلك صورة مماثلة لجيمس مكدرموت، يرتدى قميصــا بياقة منتفخة كأزياء تلك الأيام، وقد سرّح شعره بشــكل يــذكِّر بنــابليون، وبطريقة توحى بأنه فى عاصفة، سكون مكتئب، علــى طريقــة الشــاعر بايرون، لابد أن الفنان الذى رسم الصورة كان معجبا به.

وتحت الرسمين كُتب بلون نحاسى:

جريس ماركس، المعروفــة باســم مــارى هــويتنى؛ جــيمس مكدرموت، عند ظهورهما فى قاعة المحكمة متهمين بقتل مستر تومــاس كينير ونانسى مونتجومرى. والصفحة كلها تتشابه بطريقة مزعجــة مــع بطاقات دعوة الزفاف، أو هى كذلك بدون الصورتين.

تجاهل سايمون تمامًا إيحاءات هذا البورتريه وهو يعد نفسه للقاء جريس. فقد فكر أنها ولابد مختلفة تمامًا الآن، أكثر إهمالاً لمظهرها، وأقل

قدرة على ضبط النفس، ربما تكون فى حالة أقرب إلى الضراعة، ومحتمل جدًا أن تكون فاقِدة العقل. وقد اقتاده إلى زنزانتها المؤقتة حارس سوف يغلق عليه معها، بعد أن حذره من أنها أقوى مما تبدو، ويمكن أن تعضه عضة مؤلمة، ونصحه بأن ينادى بطلب المساعدة إذا تحولت إلى العنف.

. ما أن رآها حتى عرف أن ذلك لن يحدث. وقع ضوء الصباح مائلاً من خلال النافذة الصغيرة فى أعلى الجدار ليضيء الركن الذى وقفت فيه. كانت صورة أقرب لصور القرون الوسطى فى بساطة خطوطها ووضوح زواياها: راهبة فى أحد الأديرة، فتاة فى برج محصّن، تنتظر الحكم بإعدامها فى الصباح حرقًا وهى مقيدة إلى الوتد، أو يصل البطل فى آخر لحظة لإنقاذها. كانت المرأة المنزوية فى الركن، وثوب العقاب الذى ترتديه ينسدل مستقيما ليخفى قدمين حافيتين بالتأكيد، وحشية القش على الأرض. الانحناءة الهيابة للكتفين، الذراعان الملتفان حول الجسد النحيل، خصلات الشعر الكستنائى الطويلة التى تهرب مما بدا فى الوهلة الأولى إكليلاً من الزهور البيضاء ـ والعينان بخاصة كبيرتان فى الوجه الشاحب ومليئتان بالخوف أو بالرجاء الصامت ـ كل شيء على ما يجب أن يكون. لقد رأى كثيرًا من المصابين بالهيستريا فى "سال باتريير" فى باريس بنفس هذه الحالة.

اقترب منها بوجه هادئ باسم، ليقدم لها صورة ودّية ـ والتى كانت صورة حقيقية، رغم كل شيء، فقد شعر بالودّ نحوها. كان من المهم أن تقنع هذا النوع من المرضى بأنك، على الأقل، لم تصدق أنهم مجانين، فهم أنفسهم لم يصدقوا ذلك أبدًا.

لكن جريس، فى تلك اللحظة، تقدمت خطـوة، وخرجـت مـن الضوء، وفجأة لم تعد المرأة التى رآها فى اللحظة الماضية موجودة، وبدلاً منها، كانت امرأة أخرى، أكثر استقامة فى وقفتها، أطول، متمالكة لنفسـها بشكل أوضح، ترتدى ثوب الإصلاحية العقابى، ذا التنورة المخططة أزرق وأبيض، وتحتها قدمان ليستا حافيتين على الإطلاق وإنمـا داخـل حـذاء عادىّ. حتى أن الشعر المنفلت من تحت القلنسوة بدا أقل مما ظنه، وكـان أغلبه معقوصًا تحت غطاء قلنسوة بيضاء.

وصحيح أن عينيها كانتا كبيرتين للغاية، ولكنهما أبعد ما تكونـان عن الجنون. وعلى العكس، كانتا تحاولان بوضوح تقييمه. وبدا الأمر كما لـو كانت تتـأمل موضـوع تجربة جديدة لم تُسـتكشف بعد، وكأنه هـو ــ وليست هى ــ الموضوع تحت الفحص.

أجفل سايمون وهو يتذكر المشهد. وفكر: "لقد ورطت نفسى فـى خيالات وأحلام. لابد أن ألتزم بالملاحظة المدققة، لابد أن أتقدم بحذر. إن التجربة الفعالة لابد لها من نتائج يمكن إثباتها، يجب أن أقاوم الميلودرامـا والانفعال الزائد.

ثمة جلبة خارج الباب، ثم صوت ضـربات مكتومـة. لابـد أن إفطاره وصل. يدير ظهره ويشعر برقبته تنكمش داخـل ياقتـه كسـلحفاة تنسحب داخل درقتها. "أدخل"، ما أن يقولها حتى ينفتح الباب فجأة، وتزعق دورا "ها هو طعامك". ترتطم الصينية بالمنضدة، وتسير دورا خـارجة، ثم ينصفق الباب منغلقًا وراءها. وتمر بخاطر سايمون صورة سريعة لهـا رغمًا عنه، معلقة من كاحليها فى فاترينة جزار، وقد غُرست فيها فصوص

الثوم والقرنفل، ملفوفة كفخد خنزير مجهز. ويفكر أن تـداعى الخـواطر شيء رائع ما أن يبدأ المرء بملاحظة فعلها فى العقل. وعلى سبيل المثال، دورا: خنزير: فخذ خنزير مجهز، فلكى تقفز من التعبير الأول إلى الثالث لابد من المرور بالثانى، فالتعبير الثانى أساسى، رغم أنه ليس ثمـة فـرق كبير بين الأول والثانى، ولا بين الثانى والثالث.

لابد أن يسجل هذه الملحوظة "التعبير الأوسط أساسـى". ربمـا يكون المجنون شخصًا تَعْبُر عنده هذه الحيل العقلية المتصلة ببعضها, الخط الفاصل بين ما هو واقعى وما هو مجرد خيال، كما قد يحدث تحت تـأثير الحميات، أو نوبات السير أثناء النوم، أو تحت تأثير بعض العـقاقير. لكن ما هى الآلية التى يحدث بها ذلك؟ لابد أن ثمة آلية ما. هل يوجد مفتاح هذه الآلية فى الأعصاب أم فى المخ نفسه؟ وما الذى يصاب بالتدمير أولاً لينتج حالة الخروج عن العقل؟ وكيف؟

لابد أن إفطاره يبرد، إن لم تكن دورا قد بردته أصـلاً مقـدمًا، وعن عمد. يرفع نفسه عن مقعده، يهز ساقيه الطـويلتين، ويشـدّ جسـده متثائبًا، ويذهب إلى المنضدة الأخرى التى عليها الصينية. بالأمس كانـت البيضة أشبه بالمطاط الهندى، وقد ذكر ذلك لربة البيت، مسـز همفـرى الشاحبة، ولابد أنها عاتبت دورا، لأن البيضة اليوم أقـل نضـجًا لدرجـة تقترب من السيولة التامة، مع وجود مسحة زرقة فيها أشبه بمقلة العين.

يفكر: "لعنها الله، نكدية حمقاء، منتقمة، عقل ما زال فى مرحـلة ما قبل التفكير، لكنه يتسم بالمكر والمخادعة والمراوغة. لا سبيل لوضعها فى موقف حرج، فهى كالخنزير المشحَّم".

تتكسر قطعة من الخبز أشبه بالحجارة بين أسنانه، ويفكـــر مـــاذا سيكتب لوالدته، والدتى العزيزة، الجو هنا جميل جدًّا، الثلج انتهى تقريبًـــا، وبدأت روائح الربيع تسرى فى الهواء، والشمس تدفئ البحيرة، وقد بـــدأت بالفعل البراعم الخضراء النضرة لـــ....

لأى شىء؟ إنه لم يعرف الأزهار جيدًا أبدًا.

- ٨ -

أجلس فى غرفة الخياطة، الواقعة على رأس السلم فى بيت زوجة المحافظ، فى المقعد المعتاد أمام المنضدة المعتادة، ومع أدوات الخياطة فى السلة كالمعتاد، ما عدا المقص، فهم مصرون على إبعاد هذا عن متناولى، فإذا أردت قص خيط أو تسوية طرف يجب أن أسأل د. چوردان، فيخرج المقص من جيب جاكتته، ثم يستعيده بعد أن أنتهى. وهو يقول أنه لا يشعر بضرورة مثل هذا الهراء، فهو يعتبرنى مسالمة تمامًا وقادرة على التحكم فى نفسى. يبدو أنه أهل للثقة.

رغم أننى أحيانًا لا أفعل أكثر من قطع الخيط بأسنانى.

أخبرهم د. چوردان أن ما يريده هو جو من الاسترخاء والهدوء، وأن هذا هو أفضل ما يساعده على الوصول لأهدافه، أيًّا كانت هذه الأهداف، ومن ثم فقد أوصى بأن أبقى فى نفس الروتين اليومى بقدر الإمكان. وهكذا أستمر فى النوم فى نفس الزنزانة المخصصة لى، أرتدى نفس الملابس، وآكل نفس الطعام، فى هدوء، إن كان يمكن تسمية ذلك هدوءًا، أربعون امرأة، معظمهن هنا لا لذنب يزيد عن السرقة، يجلسن يمضغن الخبز بأفواه مفتوحة، ويشربن الشاى بأصوات من أجل أن يصدرن أى نوع من الضجة حتى لو لم تكن كلامًا، مع فقرة تهذيبية من الإنجيل تقرأ يوميًّا بصوت مرتفع على الجميع.

وهنا يمكنك أن تترك نفسك لأفكارك، لكن إذا ضحكت فيجب أن تتظاهر بأنك تسعل أو أن بك غصة؛ والغصة أفضل، ففي هذه الحالة سوف يضربونك على ظهرك، لكن الكحة تجعلهم يطلبون الطبيب. كتلة من الخبز وكوب من الشاى الخفيف، لحم عند الغداء ولكن القليل منه، لأن أكل الأطعمة المغذية بكثرة يثير الجوارح الإجرامية فى المخ، أو هكذا يقول الأطباء، ويكرر الحراس والسجانون كلامهم علينا. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تثار جوارحهم "هم" الإجرامية وهم يأكلون اللحم والدجاج والضأن والبيض والجبن، يأكلون منها بكثرة قدر ما يستطيعون. ولهذا فهم فى غاية البدانة. وفى رأيى أنهم أحيانًا يأخذون الطعام المخصص لنا، وهو أمر لن يدهشنى على الإطلاق، ففى هذا المكان كلاب تأكل كلابًا، وهم الكلاب الأكبر.

بعد الإفطار يحضروننى إلى بيت المحافظ كالعادة، بصحبة اثنين من الحراس، رجلان، ولا يتورعان عن السخرية فيما بينهما ما أن يبتعدا عن أسماع رؤسائهما. يقول أحدهما: "طيب يا جريس، أرى أن لك حبيبًا جديدًا، ودكتور بحاله، ألم يركع على ركبتيه أمامك بعد؟ أم رفعت أنت ركبتيك له؟ الأفضل له أن يأخذ حذره جيدًا وإلا أرسلتيه ممددًا على ظهره". يقول الآخر: "نعم، ممددًا على ظهره فى القبو وقد خُلع عنه حذاؤه، وطلقة رصاصة فى قلبه". ويضحكان، فهما يعتبران ذلك مضحكًا للغاية.

أحاول أن أفكر ماذا قد تقول مارى هويتنى، وأحيانًا أستطيع أن أقوله، قلت لهما: "لو كان هذا ما تظنان بى، فالأفضل لكما أن تمسكا لسانيكما القذرين، وإلا سوف أنتزعهما ذات ليلة فى الظلام من جذورهما

بالكامل، لن أحتاجَ سكينًا، فلن أفعل سوى القبض عليهما بأسنانى وأشدهما، ولن أتوقف على مجرد أن أشكركما لإبعاد أيديكما السجانة القذرة عنى".

يقول أحدهما: "ألا يمكنك أن تتحملى بعض المداعبة، لو كنت مكانك لرحبت بها. لن تجدى طوال حياتك رجلاً غيرنا يمكن أن يضع يده عليك، فأنت سجينة طوال الحياة كالراهبة، تعالى الآن، اعترفى بأنك تشتاقين لشقلبة، لقد كنت على أتم استعداد مع ذلك القزم الصغير جيمس مكدرموت قبل أن يعلقوه من رقبته، القاتل الشرير". ويقول الأول: "وهذه هى الطريقة يا جريس، هيا اركبى أعلى خيلك كما لو كنت فتاة طاهرة نقية لم يضع رجل ساقيه عليك أبدًا، أنت نقية كملاك، كلام فارغ، كما لو لم تكونى قد رأيت غرفة نوم رجل فى الحانة فى لويستون، لقد سمعنا عن ذلك، عندما اعتقلوك كنت ترتدين جواربك ومشدك، لكننى سعيد بأن أرى أنه ما زالت فيك بعض السخونة، لم يتمكنوا من إطفائها داخلك بعد". ويقول الآخر: "تعجبنى المرأة بعد أن تشرب كأسًا أو اثنتين، أو زجاجة كاملة، الخمر تسوق إلى الخطيئة، باركها الله، ليس أفضل من بعض الوقود لإشعال النار". ويقول الأول: "كلما سكرت أكثر كلما كان ذلك أفضل، وهنا فوق الأرض الباردة أفضل شىء، ولا ينبغى أن تستمعى إليهم، ليس ما هو أسوأ من عاهرة تصرخ". ويقول الآخر: "هل كنت تثيرين ضوضاء يا جريس؟ هل كنت تئنين وتتأوهين؟ هل كنت تتلوين تحت ذلك الفأر الصغير القزم؟". يقول ذلك ناظرًا نحوى ليرى ماذا أقول. أحيانًا أقول أننى لن أقبل مثل هذا النوع من الحديث، وهو ما يجعلهما يضحكان بشدة، ولكنى فى الغالب لا أقول شيئًا.

وهكذا نمضى الوقت، حتى نصل إلى بوابة السجن، من يذهب هناك غيرك، طاب يومك يا جريس، والشابان تأخذينهما معك، مربوطين بشرائط مريلتك، نظرة وإيماءة ثم إلى الشارع، كل منهما يتعلق بأحد ذراعيك، إنهما ليسا بحاجة لإمساكك هكذا لكنهما يحبان ذلك، يميلان عليّ ويقتربان أكثر وأكثر حتى يعتصرانني بينهما، ونحن نخوض فى الوحل، وفوق البرك، وحول روث الجياد المتكوم، وعبر الأشجار المزهرة فى الأراضى المسورة، أشجار شراباتها وأزهارها تتدلى مثل فراشات خضراء مصفرة، والكلاب تنبح، والعربات تمر، تنثر الماء المتراكم فى الطريق حولها، والناس يحدقون، فهم يعلمون من أين جئت، يمكنهم معرفة ذلك من الزى الذى أرتديه. حتى نصل إلى الممشى الطويل المؤدى إلى البيت وتحفه الأعشاب، نلف لنصل إلى مدخل الخدم، ويقول الأول: ها هى لديكم سليمة وصحيحة، لقد حاولت الهرب، أليس كذلك يا جريس؟ حاولت أن "تزحلقنا"، إنها ماكرة وتشهد على ذلك عيناها الزرقاوان الواسعتان، طيِّب يا فتاتى، حظًا سعيدًا فى المرة القادمة. كان يجب أن ترفعى تنورتك أكثر وترينا قدميك وبعضًا من كاحلك لتتمكنى من الجرى، ويقول الآخر: أوه، لا، بل أعلى من ذلك، اجعليها مرفوعة كالشراع حتى رقبتك، هكذا كان يمكنك أن ترحلى كسفينة ترفع أشرعتها كلها أمام الريح، وهكذا كان يمكن أن تفتتينا بسحرك الطاغى، فنصبح وكأن رءوسنا مضروبة كحملان فى المجزر، وكأن البرق ضربنا فتجمدنا، هكذا كان يمكنك الهرب بسهولة. يبتسمان لبعضهما ويضحكان، كان كل ذلك تمثيلاً. كانا يتحدثان إلى بعضهما كل هذا الوقت، وليس إلىّ.

إنهما شخصان من طبقة وضيعة.

ليست لى حرية الحركة فى المنزل كما فــى الســابق، فزوجــة المحافظ لا تزال خائفة منى، تخشى أن أصاب بنوبة أخرى، وهى لا تريد أيًّا من أكواب الشاى الجميلة التى تملكها أن تتكسر؛ حتى أنك قد تظن أنها لم تسمع أحدًا يصرخ من قبل. ومن ثم فأنا لا أقوم بإزالــة الأتربــة هــذه الأيام، ولا أحمل صينية الشــاى لتقــديمه، ولا أفرغ مبــاول غرفة النوم أو أرتِّب الأسِرَّة. وبدلاً من ذلك أعمل فى المطبخ، أغسل الأوانى والمقالى فى غرفة الآنية، أو أعمل فى غسيل الثياب. وهذا لا يضايقنى، بالإضــافة إلى أننى أحب الغسيل منذ زمن. إنه عمل شاق ويسبب خشــونة لليــدين، لكننى أحب رائحة النظافة فى الغسيل بعد الانتهاء منه. وأنا أقوم بمساعدة الغسالة العجوز كلارى. وهى نصف ملونة، وكانت يومًا جاريــة قبــل أن تلغى العبودية هنا. وهى لا تخاف منى، ولا يهمها ولا يعنيها ما قد فعلت، حتى لو كنت قتلت أحد السادة المحترمين؛ إنها لا تفعل ســوى أن تــومئ برأسها، وكأنها تريد أن تقول أحسن، فالآن هم أقل بواحد. وهى تقول أننى عاملة مثابرة أقوم بنصيبى من العمل ولا أبدد الصابون، وأننــى أعــرف كيف أتعامل مع الأقمشة الجيدة، فعندى هذه المهارة، وكيف أزيل الأوساخ حتى من الدانتيلا البيضاء، وهو أمر ليس سهلاً؛ وأننى ماهرة فى التنشــية أيضًا، ويمكن الاطمئنان إلى عدم احتراق أى شيء معى أثناء الكى، وهذا يكفيها.

عند الظهر ندخل إلى المطبخ، وتعطينا الطباخة بقايا الطعام مــن الخزانة، أقل ما يمكن من الخبز والجبن وحساء اللحم، لكن فى العادة ثمــة مزيد، لأن كلارى هى المفضلة لديهــا، ومعروف عنــها أنهــا تغضــب

إذا تجوهلت، كما أن زوجة المحافظ تقسم بها، خاصة من أجل الأقمشة الرقيقة والمكشكشة، وتقول أنها كنز ولا مثيل لها، وسوف يضايقها أن تفقدها، ولهذا فهى لا تبخل عليها ولا علىّ، لأننى معها.

إنه طعام أفضل مما يمكن أن أناله داخل السجن. بالأمس أكلنا هيكل الدجاجة، وكل البقايا العالقة به. هناك جلسنا على المائدة كثعلبين داخل حظيرة الدجاج يقرضان العظام. إنهم يصنعون جلبة لا داعى لها حول المقصات بالطابق العلوى، لكن المطبخ ملىء بالسكاكين والأسياخ من أعلاه لأسفله مثل حيوان الشيهم الملىء بالأشواك، ومن الممكن أن أدس واحدة فى جيب مريلتى بسهولة دحرجة أسطوانة خشبية، لكنهم طبعًا لا يفكرون فى ذلك أبدًا. فشعارهم البعيد عن العين منسى، والطابق الأسفل، حيث يعيش ويعمل الخدم، بعيد عن اهتمامهم، وما أقل ما يعرفون من أن الخدم يحملون بملعقة إلى الخارج من الباب الخلفى أكثر مما يدخله السيد بجاروف من الباب الأمامى؛ والحيلة هنا هى أن يحدث ذلك حبة بحبة. سكين صغيرة واحدة لن ينتبه إليها أحد أبدًا، وأفضل مكان أخبئها فيه هو شعرى، تحت قلنسوتى، ملتصقة جيدًا بالقلنسوة، فقد تكون المفاجأة خطيرة لو سقطت السكين فى وقت غير مناسب.

قطعنا هيكل الدجاجة بإحدى السكاكين، أكلت كلارى البيضتين الصغيرتين اللتين فى القاع، بالقرب من البطن كما يمكن أن تقول، وهى تحب أن تأخذهما إذا تركتا، ولأنها الأكبر سنًا ومقامًا بيننا، فلها حق الاختيار أولا، لم نتبادل كلامًا فيما بيننا، لكننا جميعا كنا نبتسم ابتسامة عريضة، لأن أكل هذه الدجاجة كان أمرًا طيبًا للغاية. وأنا أكلت الجلد

والدهن من الظهر، ومصصت عظام القفص، ثم لعقت أصابعى كالقطـــة، وبعد أن انتهينا أخذت كلارى نفسًا سريعًا من غليونها على العتبة، ثم عدنا إلى العمل. الآنستان ليديا وماريان توسخان كثيرًا من الثيـــاب، رغـــم أن أكثرها لا يمكن أن أقول أنه قذر بالمرة، وأعتقد أنهمـــا تجربـــان بعـــض الملابس فى الصباح ثم تلقيان بها على الأرض بإهمال وتدوسان عليهـــا، ومن ثم لابد أن تعود إلى الغسيل.

بعد أن تمر الساعات، وتتحرك الشمس فى الساعة الموجودة فى الطابق الأعلى لتصبح حوالى العصر، يصـــل د. چـــوردان إلـــى البـــاب الأمامى. أسمع طرقه على الباب، ثم أقدام الخادمة تتحرك بجرس وقعقعة، ثم يأخذوننى لأعلى من السلم الخلفى، يداى مغسولتان وبيضاوان كالثلج من صابون المغسلة، وكل أصابعى مكرمشة بسبب الماء الســـاخن كشـــخص غرق حديثًا، لكنهما حمراوان وخشنتان فى نفس الوقت، وهنا يأتى موعـــد العمل فى الخياطة.

يجلس د. چوردان فى المقعد المقابل لى، ولديه دفتر يضعه على المنضدة. ودائمًا ما يحضر شيئًا لى معه، فى اليوم الأول أحضـــر زهـــرة مجففة من نوع ما، وكانت زرقاء، وفى اليوم الثانى جاء بحبـــة كمثـــرى شتوية، وفى اليوم الثالث بصلة، لا يمكنك أن تخمن أبدًا مـــاذا سيحضـــر، رغم أنه يتمسك بالخضر والفاكهة؛ وفى بداية كل جلسة يسألنى ماذا يدور فى عقلى حول الشيء الذى جاء به، فأقول شـــيئًا فقط لأســـعده، فيكـــتب ما أقول. ولابد أن يظل الباب مفتوحًا فى كل المرات لكى لا يكـــون ثمـــة ريبة، أو شيء غير لائق مما يجرى وراء الأبواب المغلقـــة، كـــم يكـــون مضحكًا لو علموا فقط بما يجرى كل يوم فى طريقى إلى هنا. تمر الآنسة

ليديا والآنسة ماريان على السلم، وتختلسان النظر، تريدان أن تلقيا نظرة على الدكتور، فهما فضوليتان كالطيور. أوه، أظن أننى تركت كستبانى هنا، طاب يومك يا جريس، أرجو أن تكونى قد استعدت نفسك ثانية، نرجو المعذرة يا د. چوردان، إننا لا نقصد إزعاجك. وتمنحانه ابتسامات فاتنة، فقد عُرف أنه غير متزوج، وأنه يملك بعض المال، رغم أننى أعرف أن أيًّا منهما لن تقبل الاستقرار مع طبيب أمريكى شمالى إذا استطاعت الحصول على شخص أفضل؛ لكنهما تحبان تجربة جاذبيتهما وسحرهما عليه. لكنه بعد أن يبتسم لهما تلك الابتسامة المائلة، يعبس. فهو لا يهتم بهما، إنهما مجرد فتاتين سخيفتين، وهو لا يأتى هنا من أجلهما.

هو يأتى من أجلى أنا، ولهذا لا يريد أن يقاطع حديثنا أحد.

فى اليومين الأولين، لم يكن هناك حديث كثير يستحق المقاطعة. ظلت رأسى محنية، ولم أنظر إليه، كنت أعمل فى قطع اللحاف الذى أصنعه لزوجة المحافظ، لم يبق إلا خمس قطع لأنتهى منه. كنت أراقب إبرتى فى دخولها وخروجها، رغم أننى يمكن أن أقوم بهذا العمل وأنا نائمة، فأنا أؤديه منذ كان عمرى أربع سنوات، غرز صغيرة كأنها من صنع فأر، ولابد أن تبدأ صغيرًا لكى تتمكن من فعل ذلك، وإلا فلن تصل أبدًا إلى البراعة. الألوان الرئيسية هى اللون القرنفلى الغامق، مع فرع وزهرة بالقرنفلى الفاتح، وأزرق نيلى به يمامات بيضاء وكروم.

وأحيانًا كنت أتجاوز بنظرتى أعلى رأس د. چوردان، إلى الجدار خلفه، حيث توجد صورة ذات إطار، زهور فى فازة، وفواكه فى طبق، طرزتها زوجة المحافظ بغرزة صليبية غير متقنة، فثمار الخوخ والتفاح تبدو مربعة وخشنة، وكأنما نحتت من الخشب. وليست هذه اللوحة من

أفضل أعمالها، ولابد أن هذا هو السبب فى تعليقها هنا بدلاً من وضعها فى إحدى غرف النوم المخصصة للضيوف. حتى أنا يمكننى صنعها بشكل أفضل بعينين مغمضتين.

كان من الصعب أن أبدأ الكلام، فلم أتحدث كثيرًا طوال الأعوام الخمسة عشر الماضية لم أتحدث حديثًا حقيقيًا كما كنت أفعل مع مارى هويتنى وچيرميا البائع المتجول، ومع چيمى وولش أيضًا قبل غدره بى، كنت أتحدث بطريقة نسيتها الآن. قلت للدكتور چوردان أننى لا أعرف ماذا يريدنى أن أقول، فقال أن المسألة ليست مسألة ما يريدنى أن أقول، لكن ما يهمه هو ماذا أريد أنا نفسى أن أقول. فقلت أنه ليست لدى رغبات من هذا النوع حيث أننى فى وضعية لا تسمح بأن تكون لدى رغبة فى قول أى شىء.

قال: والآن يا جريس، يجب أن تحاولى أكثر من ذلك، لقد اتفقنا.

قلت: نعم يا سيدى. لكننى لا أستطيع التفكير فى شىء.

قال: طيب، فلنتحدث عن الطقس؛ لابد أن لديك بعض الملاحظات عليه، حيث أن هذه هى الطريقة التى يبدأ بها الجميع.

جعلنى ذلك أبتسم، لكننى كنت ما أزال خجولة، فلم أعتد أن يسألنى أحد رأيى فى أى شىء، حتى لو كان الطقس، وخاصة إذا جاء السؤال من رجل معه دفتر. لم أقابل رجالاً من هذا النوع إلا المحامى، مستر كينيث ماكنزى المحترم، وكنت أخاف منه؛ والذين كانوا فى قاعة المحكمة أثناء المحاكمة، وفى السجن؛ وكانوا من رجال الصحافة، وكتبوا أكاذيب عنى.

وإذ لم أستطع الكلام في البداية، تحدث د. چوردان. وأخبرني كيف يمدون خطوط السكك الحديدية في كل مكان الآن، وكيف يضعون القضبان، وكيف تعمل الآلات المحركة، بالغلاية والبخار. وكان تأثير ذلك أن جعلني أشعر بمزيد من الطمأنينة والألفة، فقلت أنني أتمنى أن أستقل قطارًا كذلك الذي يتحدث عنه؛ وقال أنه ربما في يوم ما يحدث ذلك. قلت أنني لا أظن ذلك، لأنني محكوم على بالسجن مدى الحياة، لكن على أية حال لا يمكن أن تعرف ما تخبئه لك الأيام.

ثم حدثني عن المدينة التي يعيش فيها، والتي تسمى لوميسڤيل، في الولايات المتحدة الأمريكية، وقال أنها مدينة صناعية وإن لم تعد مزدهرة كما كانت قبل أن تأتي الثياب الرخيصة من الهند. وقال أن والده كان يملك مصنعًا في يوم من الأيام، وكانت تعمل به فتيات يأتين من الريف، وكن متأنقات وأقمن في بنسيونات وفرتها سيدات حكيمات محترمات، ولم يكن مسموحًا بالشرب فيها، وأحيانًا كان يتوفر بيانو في الردهة، وكان العمل اثنتي عشرة ساعة يوميًّا فقط، وصباح يوم الأحد إجازة للذهاب إلى الكنيسة. كانت عيناه تندى وتتوه في ذكريات، ولن أدهش إذا عرفت يومًا أنه كانت له حبيبة له بين هؤلاء الفتيات.

ثم أخبرني أن هؤلاء الفتيات تم تعليمهن القراءة، وقد أصدرن جريدة خاصة بهن، كانت تقدم مواد أدبية، وسألت ماذا يعني بمواد أدبية؟ فقال أنهن كن يكتبن قصصًا وقصائد وينشرنها فيها، قلت: بأسمائهن؟ قال نعم. قلت تلك جرأة منهن، ألم تبعد الشباب عنهن؟ فمن يرغب في زوجة كهؤلاء تكتب أشياء لكل من يقرأ وتختلق أشياء في كتابتها، وأنني لن أكون

بهذه الوقاحة أبدًا." فابتسم، وقال إن ذلك لم يكن فيما يبدو يضايق الشباب، فقد كانت الفتيات يدخرن أجورهن للدوطة، وكانت الدوطة دائمًا مرضية. وقلت أنه على الأقل بعد الزواج لن تترك مشاغل الأطفال لأى منهن وقتًا لاختلاق القصص.

ثم شعرت بالحزن، فقد تذكرت أننى لن أتزوج أبدًا، ولن أنجب أطفالاً، رغم أنه يمكنك أن تقول أن ثمة أشياء طيبة كثيرة، وأننى لا أحب أن أنجب تسعة أو عشرة أطفال وأموت بسبب ذلك، كما يحدث للكثيرات. ولكن يظل هذا أمرًا مؤسفًا.

وعندما تشعر بالحزن، فمن الأفضل أن تغير الموضوع. سألته إن كانت والدته لا تزال حية فأجاب نعم لكن صحتها ليست على ما يرام، فقلت أنه محظوظ لأنه والدته حية، فأنا والدتى توفيت. ثم غيرت الموضوع مرة أخرى، وقلت أننى مغرمة بالجياد، فحدثنى عن حصانه "بِس"، الذى كان يملكه فى صباه. وبعد قليل، لا أعرف كيف سارت الأمور، لكن شيئًا فشيئًا، وجدت أننى أستطيع الحديث معه بسهولة أكثر، وأفكر فى أشياء أقولها.

ويسير الأمر بهذه الطريقة: يسأل سؤالاً فأجيب عنه، ويكتب ذلك. فى قاعة المحكمة كانت كل كلمة تخرج من فمى وكأنها تحترق على الورق الذى يكتبون عليه، وعرفت أنه ما أن أقول شيئًا فلا يمكننى استعادته أبدًا، إلا أن الكلمات كانت خطأ، فكل ما قلته كان يتم فهمه بشكل معكوس، حتى لو كانت الحقيقة المجردة فى البداية. وحدث نفس الشىء مع د. بانرلينج فى المصحة. أما الآن فأنا أشعر كما لو كان كل ما أقول

صحيحًا. فما دمت أقول شيئًا، أيّ شيء على الإطلاق، يبتسم د. چوردان ويكتبه. ويقول لى أننى أتقدم.

وهو يكتب، أشعر كأنه يرسمنى، أو لا يرسمنى وإنما يرسم علىّ — يرسم على بشرتى — ليس بالقلم الذى يستخدمه، وإنما بريشة إوز تقليدية، وليس بنهايتها المدببة وإنما بالطرف الريشى. فأشعر وكأنما مئات من الفراشات استقرت على وجهى كله، تفتح أجنحتها وتغلقها بنعومة بالغة.

ولكن شعورًا آخر يغمرنى تحت هذا، شعور بأننى متيقظة تمامًا، وقادرة على الملاحظة، كما لو أيقظتك — فجأة فى منتصف الليل — يد تمتد إلى وجهك، فتجلس شاعرًا بقلبك ينبض بسرعة، ولا أحد هناك. وخلف هذا الشعور شعور ثالث، شعور بأنك تتفتح، ليس كما لو كنت جسدًا من لحم، لا، ليس الأمر مؤلمًا هكذا، ولكن كما لو كنت ثمرة خوخ، ولكنها تتفتح لا لأن أحدًا يشقها ليفتحها، وإنما النضج وصل بها لدرجة أنها تتفتح من تلقاء نفسها.

وداخل الخوخة توجد حصوة.

- ٩ -

من دكتور طبيب صمويل بانرلينج، مابلس، فرونت ستريت، تورنتو، غرب كندا؛ إلى دكتور طبيب سايمون چوردان، عناية مسز وليام ب. چوردان، لابورنام هاوس، لوميسڤيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية. يعاد توجيه الرسالة إلى عناية الميچور س. د. همفرى، شارع لوار يونيون، كينجستون، غرب كندا.

٢٠ أبريل ١٨٥٩

عزيزى د. چوردان:

لقد تسلمت طلبكم الموجه إلى د. ووركمان، المؤرخ ٢ أبريل، بخصوص المذنبة جريس ماركس، كما تسلمت مذكرة منه يطلب منى إمدادك بأية معلومات أخرى فى حيازتى.

ويجب أن أعلمك مباشرة أننى لم أكن دائمًا على وفاق فى الرأى مع د. وركمان. وفى تقديرى ـــ وأنا قضيت فى المصحة حتى الآن سنوات أكثر مما قضاه حتى الآن ـــ أن سياساته المتساهلة قد قادته للشروع فــى مهمة متعذرة التحقيق، أشبه بمحاولة تحويل التراب إلى ذهب. إن معظــم من يعــانون من الاضطرابات الشــديدة فى الأعصـــاب أو الخلل المخى لا يمكن علاجهم، وإنما يمكن فقط السيطرة عليهم. وقد أثبتت وسائل الكبح العضوى، والتقويم، وتحديد الوجبات، والحجامة، والفصد ـــ للتقليـــل مـــن الطاقة المفرطة للأرواح الحيوانية ـــ أثبتت هذه الوســائل فاعليتهـــا فـــى الماضى. ورغم أن د. ووركمان يزعم أنه قد توصل لنتائج إيجابيـــة فـــى حالات عديدة كانت تعتبر فى الماضى ميئوسًا منها، فلسوف يثبت بمـــرور الوقت أنها نتائج مزيفة ومؤقتة. إن وصمـــة الجـــنون موجودة فى الـــدم، ولا يمكن محوها بليفة وقليل من الصابون الناعم.

لم تكن لدى د. ووركمان فرصة لفحص جريس ماركس لأكثـــر من أسابيع قليلة، فى حين أنها كانت تحت رعايتى لأكثر من عام، ومن ثم فإن آراءه فى موضوع شخصيتها لا تفيد كثيرًا. ولكنه كان مـــن الفطنـــة بحيث تمكن من اكتشاف حقيقة موضوعية، وهى أن جنون جريس ماركس مفتعل ـــ وهى حقيقة سبق لى التوصل إليها قبله ـــ رغم أن السلطات فى ذلك الوقت رفضت العمل بمقتضاها. فقد قادتنى المراقبة المســـتمرة لهـــا ولحركاتها الاحتيالية المضحكة إلى استنباط أنهـــا فـــى الحقيقـــة تتظـــاهر

بالجنون، وليست مجنونة، وإنما تحاول أن تخدعنى بطريقة مدروسة وفاضحة. وبصراحة، كان جنونها غشًا وتدليسًا اتبعتهما بهدف أن تطلق العنان لنفسها ويتم التساهل معها، فالنظام الصارم فى الإصلاحية التى وضعت فيها كعقاب عادل على جرائمها المروعة لم يكن يناسب أهواءها.

إنها ممثلة بارعة وكذابة ماهرة للغاية. وعندما كانت هنا، كانت تسلى نفسها بمجموعة من النوبات المرضية المفتعلة، وادعاء الهلوسة، ونوبات القفز المرح والغناء وما إلى ذلك. ولا ينقص التمثيل البارع لهذا الدور سوى أن تضفر زهور أوفيليا البرية فى شعرها؛ لكنها كانت تقوم بالدور بمهارة كافية بدونها، فقد استطاعت أن تخدع، ليس فقط مسز مودى الفاضلة، وهى مثل الكثيرات من راجحات العقل من نوعها لديها استعداد لتصديق أى هراء مسرحى يقدم لها بشرط أن يكون باعثًا على الشفقة بما يكفى. ولا شك أنك قرأت روايتها الهستيرية غير الدقيقة للأمر المحزن كله. ولكن جريس استطاعت أيضًا أن تخدع الكثيرين من زملائى، وهو أمر يعتبر مثالاً بارزًا على القاعدة القديمة المعروفة والتى تقول أنه عندما تدخل امرأة جميلة من الباب تهرب القدرة على الحكم الصحيح من النافذة.

فإذا قررت رغم كل ذلك أن تفحص جريس ماركس فى مكان إقامتها الحالى، فتكرَّم باعتبار أنك قد تلقيت تحذيرًا وافرًا. فكثير من العقول الأكبر والأكثر حكمة قد وقعت فى شراك أحابيلها، وسوف يكون من الحكمة أن تسد أذنيك بالشمع، كما جعل أوليس جنوده يفعلون للنجاة من

شراك الجنيات الفاتنات. إن جريس ماركس مجردة من الأخلاقيات كما هى مجردة من الإحساس بوخز الضمير، وسوف تستخدم أية أداة فى متناول يدها.

ومن واجبى أن أنبهك إلي أنه من الممكن ـ بمجرد أن تضطلع بقضيتها ـ أن تجد نفسك محاصرًا بحشد من الرجال والنساء ذوى النوايا الحسنة، ولكنهم بلهاء، وكذلك رجال دين ممن شغلوا أنفسهم بها، وقد أضجروا الحكومة بالتماساتهم للإفراج عنها، وسوف يحاولون باسم فعل الخير أن يترصدوا لك ويجندوك. وقد حاولت مرارًا وتكرارًا طردهم وإبعادهم وأنا أخبرهم أن جريس ماركس محبوسة لسبب وجيه جدًّا ألا وهو الجرائم الشريرة التى ارتكبتها، والتى ألهمتها إياها شخصيتها الخبيثة وخيالها المريض. إن إطلاق سراحها بين الناس الذين لا يعرفون حقيقتها هو عمل غير مسئول إلى أقصى درجة، ولن يفيد إلا فى منحها الفرصة لإرضاء ميولها الدموية.

وإننى لعلى ثقة من أنك، إذا اخترت بحث الأمر أكثر، فسوف تصل إلى نفس النتائج التى توصل إليها بالفعل......

خادمك المطيع

دكتور طبيب/ صمويل بانرلين ج

- ١٠ -

هذا الصباح سيلتقى سايمون بالمبجل ڤرينجر. وهو لقاء لا يتطلع إليه: فالرجل تلقى تعليمه فى إنجلترا، ومن المحتمل أن يتكلف العظمة. ليس ثمة أحمق مثل الأحمق المتعلم، وسيضطر سايمون لاستعراض أوراق اعتماده الأوروبية، وإظهار سعة اطلاعه، وتبرير نفسه. سوف يكون لقاء مضجرًا، وسيجد سايمون نفسه تغويه بالتشدق والتكلف، وبقول "فى ظنى أن ...."، وبالتصرف حسب الطبعة الكولونيالية الإنجليزية للأمريكى الشمالى الأخرق التافه العنيد، لمجرد "جرّ الشَّكَل". ولكنه لابد أن يكبح نفسه، فالكثير يتوقف على سلوكه الطيب. وهو ينسى أنه لم يعد ثريًا، ولذا لم يعد حرًا فى التصرف وفق هواه.

يقف أمام مرآته، محاولاً ربط لفاعه. وهو يكره اللفاعات وأربطة العنق، ويتمنى أن تذهب هذه الأشياء جميعًا إلى الجحيم؛ كما يحتقر البنطلون أيضًا، وكل الملابس الضيقة "الشيك" بشكل عام. لماذا يرى الرجل المتحضر أن من اللائق تعذيب جسده بحشره داخل جاكيت ضيق كما هى الموضة الرجالى؟ ربما يكون الأمر نوعًا من كبح الجسد، كغطاء الشعر. يجب أن يولد الرجال داخل بدلة صوفية تنمو معهم على مر السنوات، ومن ثم يتجنبون الترزية بكل ما لهم من جلبة وحذلقة.

ولكنه على الأقل ليس امرأة، من ثـم فلـيس مضـطرًا للـبس الكورسيهات، وتشويه جسده بالأربطة الضيقة. إن الفكرة الشائعة أن العمود الفقرى للنساء ضعيف، وأن أجسادهن كالجيلى بطبيعتها، وأن المرأة يمكن أن تتهاوى إلى الأرض كالجبن السايح إن لم تُلف جيدًا. وأمام هذه الأفكار، لا يملك إلا الازدراء. عندما كان يدرس الطب، قام بتشريح عدد لا بأس به من أجساد النساء ــ فى غرف المعامل بالطبع ــ وكانت الأعمدة الفقريـة وتشريح العضلات كلها، فى المتوسط، ليست أضعف مـن مثيلتهـا عنـد الرجال، لكن الكثير منها كانت مصابة بالكُساح.

جاهد طويلاً مع لفاعه ليصل إلى ما يشبه القوس، إنه مائل، لكن هذا أفضل ما يستطيعه؛ ولم يعد فى مقدوره أن يدفع أجر "لبِّيس". يسـرح شعره المتمرد، والذى يعود إلى التموج فورًا. يلتقط معطفه الفضفاض، ثم مظلته بعد لحظة من التفكير. هناك ضوء شمس ضعيف يشق طريقه مـن خلال النوافذ، ولكن الأمل فى يوم خال من المطر سيكون تفاؤلاً مبالغًا فيه، فكينجستون بلد ممطر فى الربيع.

يشق طريقه خلسة نازلاً السلم الأمامى، ولكنه لم يسـتطع إتقـان التسلل، فسيدة الدار آتية لتوقفه وتحادثه فى بعض الأمور التافهـة، والآن تنسل من الردهة فى ردائها الحريرى باهت السواد ذى الياقـة الـدانتيلا، تقبض على منديلها المعتاد فى إحدى يديها الهزيلتين، وكأنما الدموع قريبة دائمًا. ومن الواضح أنها كانت جميلة فى يوم غير بعيد، ويمكن أن تكـون جميلة بالفعل لو بذلت بعض الجهد لتبدو كذلك، وأيضًا لو كان المفرق الذى يقسم شعرها الأشقر أقل استقامة ووضوحًا. وجهها يأخـذ شـكل القلـب،

وبشرتها كاللبن، وعيناها واسعتان ولا يمكن مقاومتهما، ولكن وسطها، رغم أنه نحيل، يبدو أشبه بشيء معدنى، وكأنها تستخدم بعض أنابيب المواقد القصيرة بدلاً من الكورسيه. واليوم يبدو على وجهها نفس التعبير المعتاد من القلق المتكلف، وتنبعث منها رائحة البنفسج، والكافور أيضًا ــ ولا شك أنها عرضة للصداع ــ ورائحة أخرى لا يستطيع تحديدها. رائحة جافة دافئة. هل هى رائحة كى ملاءة كتانية بيضاء؟

وبشكل عام، يتجنب سايمون هذا النوع من النساء الواهنات وشديدات الارتباك، رغم أن هذا النوع بالذات ينجذب إلى الأطباء كما لو كان بمغناطيس. ولكن ثمة نوعًا من الجمال البسيط والصعب فى هذه المرأة ــ كما فى بيت اجتماع طائفة الكويكرز الدينية من أجل التأمل والعبادة ــ جمال له جاذبيته، وهى جاذبية خاصة بالذوق الجمالى فيه، والمرء لا يمارس الحب مع صرح دينى صغير للغاية.

تقول: "د. چوردان، أريد أن أسألك..." وتتردد قليلاً. يبتسم سايمون ليشجعها على المضى. "بيضتك، هذا الصباح، هل كانت كما تحب؟ هذه المرة سلقتها بنفسى".

يكذب سايمون، ولو لم يكذب لكان ذلك وقاحة لا تغتفر. يقول: "لذيذة جدًا، أشكرك". والواقع أن البيضة كان لها قوام ورم مستأصل وضعه ذات مرة أحد زملائه فى دراسة الطب خلسة فى جيبه كنوع من المزاح ــ كلاهما جامد وإسفنجى فى نفس الوقت. إن الأمر بحاجة إلى موهبة عنيدة لإساءة معاملة البيضة حتى تصل إلى هذه الحالة.

تقول: "إننى سعيدة جدًّا، إنه لمن الصعب الحصول على مساعدة مفيدة. هل أنت خارج؟"

الأمر واضح جدًّا، لدرجة أن سايمون لا يجيب بأكثر من هز رأسه.

تقول: "توجد رسالة أخرى لك، والخادمة وضعتها فى مكان خطأ، لكنى وجدتها مرة أخرى. وقد وضعتها على منضدة الردهة". تقول ذلك بصوت مرتعش، وكأن أى رسالة لسايمون لابد أن تحتوى على مأساة. شفتاها مليئتان، ولكنهما هشتان كزهرة على وشك الانهيار.

يشكرها سايمون ويقول إلى اللقاء، ويلتقط رسالته ـ إنها من والدته ـ ويغادر البيت. إنه لا يحب تشجيع حوارات طويلة مع مسز همفرى، فهى تشعر بالوحدة كما هو الحال مع زوجة ميچور ثمل ضال ـ وشعور المرأة بالوحدة كشعور الكلب بالجوع، وهو لا يرغب فى أن يكون الشخص الذى يتلقى أسرار الحسرة بعد الظهر خلف الستائر المسدلة فى الردهة.

ورغم ذلك، فهى مثيرة للاهتمام إذا نظر إليها كموضوع للدراسة. ومثلا فكرتها عن نفسها أرقى كثيرًا مما تأذن به ظروفها الحالية. ومن المؤكد أنه كانت لها مربية فى طفولتها: يدل على ذلك وضع كتفيها الذى يدل على التكبر. وعندما كان يجرى الاتفاق معها بخصوص تأجير جناحه، كانت متجهمة وشديدة الحساسية، حتى أنه شعر بأن سؤالها عما إذا كان الغسيل ضمن الاتفاق أمر محرج. وقد أوحى سلوكها بأنها ليست معتادة

على مناقشة الرجال في أشيائهم الشخصية وأحوالها، والأفضل ترك مثل هذه الأمور الشاقة للخدم.

تحدثت بوضوح، وإن بشكل غير مباشر، قالت أنها مرغمة على تأجير جزء من منزلها رغم أن ذلك ضد إرادتها. وهذه هي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك بسبب عبء خاص بالمنزل، ولكنه من المؤكد أمر مؤقت. وفوق ذلك، كان طلبها محددًا: "سيد مهذب، هادئ الطبع، ينوي تناول وجباته في مكان آخر"، هكذا كان إعلانها. وعندما رأى سايمون الغرف التي ينوون تأجيرها وقال أنه يريدها، بدا عليها التردد، ثم طلبت شهرين من الإيجار مقدمًا.

كان سايمون قد رأى الأماكن الأخرى المعروضة للإيجار، والتي كانت إما مرتفعة الثمن بالنسبة له، أو أكثر قذارة، ومن ثم فقد وافق. وكان المبلغ جاهزًا معه. وراقب باهتمام ما ظهر عليها من إحجام وإقبال معًا، والاحمرار العصبي الذي سببه هذا التناقض لوجنتيها. كان الأمر منفرًا بالنسبة لها، بل أقرب إلى الفضيحة، ولم تكن ترغب في لمس النقود مباشرة، كانت تفضل أن تُقدم لها في مظروف، لكنها في نفس الوقت كبحت نفسها عن خطفها من بين يديه.

هذا الموقف نفسه ـ الحياد أمام التبادل المالي، والتظاهر بأنه لم يحدث في الواقع، ادعاء ينطوي على نهم إلى هذا التبادل ـ هو إلى حد بعيد نفس الموقف المميز للطبقة الأحسن من البغايا الفرنسيات، رغم أن البغايا كن أقل خرقًا في تصرفهن. وسايمون لا يعتبر نفسه حجة في هذه المنطقة، ولكنه ربما كان يفشل في واجبه المهني لو كان قد رفض

الاستفادة من الفرص التى قدمتها له أوروبا ـ فرص لم تكن إطلاقًا بهذه الوفرة ولا بهذا التنوع فى نيو إنجلاند. فلكى يساهم فى شفاء جراح البشرية، لابد أن يكون المرء على معرفة بها، ولا يمكن أن يعرفها المرء من بعيد، لابد أن يحتك بها، إذا جاز القول. وهو يعتبر سبر أعمق أغوار الحياة واجبًا على من يمتهن مهنته، وهو لم يسبر الكثير جدًّا من هذه الأغوار بعد، لكنه على الأقل بدأ فى ذلك. وبالطبع فقد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة ضد المرضى.

خارج المنزل، يلتقى بالميچور الذى يبحلق فيه، وكأنما من خلف ضباب كثيف. عيناه ورديتان، ولفاعه معوج، وإحدى يديه عارية من قفازها. يحاول سايمون أن يتخيل نوع حفلة المجون التى كان فيها، وكم ساعة طالت. لابد أن يكون ثمة نوع من الحرية فى اختيار عدم وجود سمعة طيبة يخشى المرء فقدانها. يومئ برأسه، ويرفع قبعته، ولكن رد فعل الميچور يبدو وكأنه تلقى إهانة.

يغذ سايمون السير إلى مقر المبجل ڤرينجر والكائن بشارع سيدنهام. لم يستأجر عربة، ولا حتى جوادًا؛ رغم أن التكلفة لن تكون مبالغًا فيها، فكينجستون ليست بهذا الاتساع. الشوارع طينية ويتراكم فى أنحائها روث الجياد، لكنه يرتدى حذاء عالى الساق من نوع جيد.

فُتح باب المقر الرائع للمبجل ڤرينجر عن امرأة لها وجه يشبه جذع الصنوبر؛ فالمبجل غير متزوج، وبحاجة لمدبرة منزل لا مأخذ عليها. وأُدخل سايمون إلى المكتبة. إنها نوع من المكتبة المفرطة فى التأنق حتى أن سايمون يشعر برغبة فى إحراقها.

يقوم المبجل ڤرينجر من مقعده المكسو بالجلد والمزود بـــذراعين ومتكأ للرأس، ويقدم له يدا للمصافحة. رغم أن شعره وجلده كلاهما خفيف وشاحب بنفس الدرجة، إلا أن يده قوية فى المصـــافحة بدرجـــة مدهشـــة. ورغم فمه غير المناسب ـــ لصغره وتدلى شفتيه ـــ يفكر سايمون أنه يشبه فرخ الضفدع ـــ إلا أن الأنف الرومانى يدل على شخصية قوية، وكذا فإن الجبهة العالية المقببة تدل على الألمعية، وله عينان بهما بعض الجحـــوظ، ولكنهما تنطقان بذكاء ونظر ثاقب. لا يمكن أن يتعدى الخامسة والثلاثـــين، ويفكر سايمون أنه لابد ذو حسب ونسب لكى يتمكن مـــن الصـــعود بهـــذه السرعة فى المجمع الميثودى المقدس، ولكى يتوفر له مثل هذا الجمهـــور الكبير. وإذا أخذنا الكتب فى الاعتبار، فمن المؤكد أن له مصادره الماليـــة الخاصة. كان والد سايمون لديه مثل هذه الكتب.

"يسعدنى أنك استطعت الحضور يا دكتور چوردان"، قـــال ذلـــك بصوت أقل تكلّفًا مما خشى ســـايمون، وأكمـــل: "إننـــى ممـــتن لتكرمـــك بالحضور، لابد أن وقتك ثمين جدًّا". يجلسان، وتظهر القهـــوة، تحضـــرها مدبرة البيت ذات الوجه السميك على صينية بسيطة التصميم، لكنهـــا مـــن الفضة. صينية تنتمى للمجمع المقدس: غير مبهرجة، لكنها تدل جيدًا على قيمتها.

يقول سايمون: "الأمر ذو أهمية مهنية عظيمة بالنسبة لى، فمثـــل هذه الحالة لا تظهر كثيرًا، بكل هذه الخصائص المثيرة للاهتمام". يتكلم كما لو عالج شخصيا مئات الحالات. المهم هو أن يبدو مهتمًا، ولكن بدون لهفة بالغة، وكأنه هو الذى يقدم معروفا. وتمنى أن لا يكون وجهه مضرّجًا.

يقول المبجل ڤرينجر: "إن تقريرًا منك سوف يكون مساعدة كبيرة للجنة، إذا كان هذا التقرير يحبذ نظرية البراءة. سوف نرفقه بالتماسنا، فالسلطات الحكومية أكثر ميلاً هذه الأيام لأخذ آراء المختصين في الاعتبار". ويضيف: "وبالطبع سوف تتلقى المبلغ المتفق عليه، أيًّا كانت استنتاجاتك".

"مفهوم تمامًا". يقول سايمون ذلك، وكل ما يأمل فيه أن تظهر على وجهه ابتسامة مهذبة، "أظن أنك تلقيت دراستك فى إنجلترا!"

يقول المبجل ڤرينجر: "لقد بدأت ممارسة مهنتى كعضو فى الكنيسة الرسمية، لكننى تعرضت لأزمة فى الوعى. من المؤكد أن ضوء كلمة الله ورحمته متاحان لمن هم خارج الكنيسة الإنجليزية، ومن خلال وسائل أكثر مباشرة من الخدمة الكنسية".

يقول سايمون بأدب: "إننى أتمنى ذلك بكل تأكيد".

"لقد اتبع المبجل الشهير إيجرتون رايرسون من تورنتو نفس الطريق تقريبًا. وهو أحد قيادات الحملة المقامة من أجل حرية الدراسة ومن أجل إلغاء المشروبات الكحولية، وأنت طبعًا سمعت عنه".

لم يسمع عنه سايمون، فيصدر همهمة غامضة يأمل أنها تقوم مقام الموافقة.

"أنت نفسك، ما هو مذهبك؟"

يتملص سايمون: "كانت عائلة أبى تنتمى لطائفة الكويكرز، أما أمى فهى من اليونيتاريين". يقول المبجل ڤرينجر: "آه نعم، طبعًا، كل شيء مختلف فى الولايات المتحدة". ويسود الصمت برهة، بينما يفكر كلاهما فى الأمر. "لكنك تؤمن بخلود الروح؟"

هذا سؤال مربك، إنها المصيدة التى ربما تتسبب فى إخفاق كل فرصة له. يقول سايمون: "أوه، نعم، بالطبع، إنه أمر لا شك فيه".

يبدو الارتياح على ڤرينجر: "كثير من رجال العلم يكيلون الشكوك. أنا أقول دائمًا دع الجسد للأطباء، ودع الروح لله. أو كما يمكن أن تقول اعط ما لقيصر لقيصر ...".

"طبعًا، طبعًا".

"دكتور، لقد أثنى بينسوانجر عليك كثيرًا. وكان لى شرف مقابلته أثناء سفرى إلى أوروبا ــ إن سويسرا تشد اهتمامى للغاية لأسباب تاريخية ــ وتحدثت معه عن عمله، ومن ثم كان من الطبيعى أن أستشيره، عند بحثى عن متخصص يعتبر حجة فى هذا الجانب من الأطلنطى. حجة..." يتردد قليلاً، "ولكن فى متناول مصادرنا المالية. وقال أنك ملم إلمامًا كاملاً بأمراض المخ والأعصاب، وأنك بسبيلك لأن تصبح خبيرًا رائدًا فى فقدان الذاكرة. وهو يقول أنك ستصبح من أهم وأشهر الرجال".

يقول سايمون بصوت خافت: "إنه لكرم منه أن يقول هذا، إنها منطقة بحثية محيرة. لكننى نشرت ورقتين أو ثلاث ورقات فى هذا الموضوع".

"فلنأمل أنك، بالوصول إلى نتائج فى هذا البحث، سوف تزيد عدد هذه الأوراق، وسيمكنك أن تلقى ضوءًا على قضية غامضة محيرة؛ وهو أمر أثق أن المجتمع سيعترف لك به، خاصة فى مثل هذه القضية الشهيرة".

يعترف سايمون لنفسه أن المبجل ڤرينجر، رغم فمه الشبيه بفرخ الضفدع، إلا أنه ليس غبيًا، ومن المؤكد أنه يشم رائحة طموحات الآخرين جيدًا. هل يمكن أن يكون تحوله من الكنيسة الإنجليزية إلى المذهب الميثودى قد تصادف أن يكون فى نفس وقت هبوط النجم السياسى للأولى فى بلاده، وصعود نجم الثانى؟

"هل قرأت ما أرسلته لك؟"

يومئ سايمون قائلاً: "أفهم سبب حيرتك. من الصعب أن تعرف أى الروايات صادقة. وقد أدلت جريس فيما يبدو برواية أثناء التحريات، وبرواية أخرى فى المحاكمة، وبعد صدور الحكم بإعدامها أدلت برواية ثالثة. لكنها فى الروايات الثلاث أنكرت مجرد وضع إصبع على نانسى مونتجمرى. ولكن أيضًا، بعد عدة سنوات، لدينا رواية مسز مودى، التى تشير إلى اعتراف جريس بارتكاب الجريمة، وهذه الرواية تتوافق مع الكلمات التى قالها جيمس مكدرموت قبل إعدامه مباشرة. ورغم ذلك، فإنك تقول أنها منذ عودتها من المصحة تنكر ذلك".

يرتشف المبجل ڤرينجر من قهوته، ويقول: "إنها تنكر أنها تتذكرها."

يقول سايمون: "آه، نعم، تنكر أنها تتذكرها! المعنى يختلف."

ويقول المبجل ڤرينجر: "من الممكن أن يكون آخرون قد أقنعوها بأنها فعلت شيئًا هى بريئة منه. وهذا أمر حدث مثله من قبل. لقد جاء ما يسمى بالاعتراف فى الإصلاحية، والذى وصفته مسز مودى وصفًا أضفى عليه واقعية بعد عدة سنوات من السجن، وخلال الفترة الطويلة التى كان فيها سميث هو المحافظ. وكان الرجل مشهورًا بالفساد، وبعدم صلاحيته لموقعه. وقد اتهم بتصرفات صادمة للغاية ومتسمة بالقسوة، وعلى سبيل المثال، سمح لابنه باستخدام المحكوم عليهم كهدف للتدريب على الرماية، وفى إحدى المرات فقأ عين أحدهم بالفعل. وهناك كلام حول مضايقاته للسجينات أيضًا، بطرق يمكنك أن تتخيلها، وأخشى أن لا يكون هناك شك فى هذا الأمر؛ فقد أجرى تحقيق كامل. وأعتقد أن فترة خروج جريس ماركس عن العقل ترجع إلى إساءة معاملتها على يديه."

يقول سايمون: "هناك من ينكر أنها كانت مجنونة جنونًا حقيقيًا."

يبتسم المبجل: "لابد أنك سمعت رأى د. بانرلينج على ما أظن. لقد كان ضدها منذ البداية. لقد ناشدناه نحن أعضاء اللجنة أن يكتب تقريرًا يؤيدنا فيه ــ فمثل هذا التقرير منه كان يمكن أن يكون نفيسًا للغاية بالنسبة لقضيتنا ــ لكنه لا يلين. فهو من مؤيدى حزب المحافظين ــ من أكثرهم تشددًا ــ ولو تُرك لأهوائه لكان ممكنًا أن يسلسل كل المجانين المساكين لأتفه الأسباب، وأن يشنق من ينظر إلى جانبه. يؤسفنى أننى أعتبره جانبًا من النظام الفاسد الذى كان مسئولاً عن تعيين شخص قذ دنس مثل المحافظ سميث. وأعرف أنه أيضًا كانت هناك مخالفات للنظام فى المصحة ــ مخالفات تصل لدرجة أن جريس ماركس عند عودتها منها كان ثمة شك فى أن تكون حاملاً، ثم ثبت أنها إشاعة كاذبة. ولكن، يا له من جبان، يا له

من فظ! أن يحاول استغلال من لا يملكون أمرهم فى يدهم! لقد قضيت وقتا طويلاً فى صلاة مع جريس ماركس، محاولاً شفاء الجراح التى تسبب فيها هؤلاء الملومون غير المؤمنين، هؤلاء الذين خانوا ثقة الناس."

يقول سايمون: "أمر يدعو للرثاء". وخشى أن يعتبره المبجل ڤرينجر شديد التلهف إذا سأل عن معلومات أخرى.

وفجأة تبرق فى ذهنه فكرة أن المبجل ڤرينجر واقع فى حب جريس ماركس! هذا يفسر نقمته وحماسه المتقد، ومثابرته، والتماساته الدءوبة ولجانه المجتهدة؛ وفوق كل ذلك، رغبته فى تصديق براءتها. هل يرغب فى تخليصها من السجن، مع التدليل على براءتها بلا شائبة، ثم يتخذها زوجة لنفسه؟ إنها لا تزال امرأة جذابة، وسوف تكون بلا شك ممتنة لمنقذها. ممتنة لدرجة الذل. والعرفان الذليل فى الزوجة هو، بلا شك، صفة أساسية فى تبادل المشاعر الروحية عند ڤرينجر.

يقول المبجل ڤرينجر: "من حسن الحظ أنه حدث تغيير فى الحكومة، ولكننا، مع ذلك، لا نرغب فى الاستمرار فى التماسنا الحالى حتى نثق بأننا على أرض ثابتة؛ ولهذا اتخذنا هذه الخطوة باستقدامك. ويجب أن أخبرك بصراحة أن أعضاء اللجنة ليسوا جميعًا محبذين لهذه الخطوة، لكننى نجحت فى إقناعهم بحاجتنا لرأى علمى وموضوعى، أو تشخيص بحالة من الجنون المستتر وقت ارتكاب الجريمتين مثلاً ــ ومع ذلك، يجب تحرى غاية الحذر والأمانة المطلقة. الناس ما زال ينتشر بينهم شعور معادٍ لجريس ماركس، وهذا بلد شديد التحزب. ويبدو أن المنتمين لحزب المحافظين يخلطون بين جريس والقضية الأيرلندية، رغم أنها بروتستانتية، ويعتبرون قتل سيد واحد ممن ينتمون إلى المحافظين

ـ بصرف النظر عن قيمة هذا السيد، وبصرف النظر عن مدى بشاعة الجريمة ـ مساويًا لعصيان عرقى مسلح".

يقول سايمون بلباقة: "الصراع الحزبى بلاء فى كل البلدان".

فيقول المبجل ڤرينجر: "حتى بعيدًا عن ذلك، نجد أننا نقع فريسة بين فكرة أن هناك امرأة بريئة يعتقد الكثيرون أنها مذنبة، أو امرأة مذنبة يعتقد البعض أنها بريئة. ونحن لا نريد أن نعطى أعداء الإصلاح فرصة للشماتة بنا. ولكن، كما يقول المسيح: "تعرفون الحق والحق يحرركم".(*)

يقول سايمون: "ربما يظهر أن الحقيقة أغرب مما نظن. وربما نكون أقرب لما اعتدنا على تسميته بالشر، والاختيار الحر للشر هو على العكس مرض يرجع إلى علة فى الجهاز العصبى، وربما يتضح أن الشيطان نفسه هو مجرد تشوه فى المخ".

ويبتسم المبجل ڤرينجر قائلاً: "أوه، أشك أن الأمر يمكن أن يصل إلى هذا الحد، مهما بلغ العلم من تقدم فى المستقبل، فالشيطان عمومًا سيظل موجودًا. أعتقد أنك قد دُعيت إلى منزل المحافظ بعد ظهر الأحد؟"

يقول سايمون بأدب: "لقد نلت هذا الشرف"، وكان يتهيأ للاستئذان.

فيقول المبجل ڤرينجر: "إننى أتطلع لرؤيتك هناك. لقد أعددت بنفسى بطاقة الدعوة لك. إن زوجة المحافظ سيدة ممتازة، وهى عضو ثمين فى لجنتنا."

(*) يوحنا، ٨:٣٢.

- ١١ -

في بيت المحافظ، تم توجيه سايمون إلى الردهة التى كانت كبيرة بما يكفى لتسميتها غرفة استقبال. لم يكن هناك سطح إلا وقد تمت تغطيته بقماش منجد، وبألوان تماثل الألوان الداخلية للجسم ــ الأحمر الداكن بلون الكلى، والأرجوانى الضارب إلى الحمرة كلون القلوب، والأزرق المعتم كلون الأوردة، واللون العاجى كلون الأسنان والعظام. يتخيل سايمون الإحساس الذى قد يثيره إعلان مثل هذه الرؤية على الملأ.

استقبلته زوجة المحافظ بالتحية. إنها سيدة وسيمة فى حوالى الخامسة والأربعين، وواضح أنها جديرة بالاحترام، لكنها تلبس بالطريقة الصاخبة المنتشرة فى الأقاليم، حيث يبدو أن النساء يشعرن بأنه لو كان صف من الدانتيلا والكشكشة جميلاً، فإن ثلاثة صفوف لابد أن تكون أجمل. ولها تلك النظرة الحذرة من عينين بهما بعض الجحوظ، النظرة التى تميز طبيعة عصبية صارمة أو مرضًا فى الغدة الدرقية.

تقول له: "يسعدنى أنك استطعت الحضور". وتخبره بأن المحافظ بكل أسف قد اضطر للخروج إلى عمل، وأنها هى نفسها مهتمة للغاية بالعمل الذى يقوم به. إنها تكن احترامًا عظيمًا للعلم الحديث، وخاصة الطب الحديث الذى حدث فيه تقدم كبير. وخصوصًا مادة الإتير، التى كفت

الناس شرورًا كثيرة. تحدق إليه بنظرة عميقة مليئـــة بالمعـــانى، ويتنهـد سايمون فى سره، فهذا التعبير مألوف لديه: إنها على وشك أن تقدم له هدية لم يسع إليها عن أعراض حالتها.

فى بداية حصوله على شهادته الطبية، لم يكن مُعـدًّا لمواجهـة تأثيرها على النساء، نساء الطبقات الأرقى، خاصة السـيدات المتزوجـات ذوات السمعة الطيبة. فقد بدا أنهن ينجذبن إليه كما لو كان يمتلك كنزًا لعينًا وإن كان لا يقدر بثمن. وكان اهتمامهن بريئًا ــ فلم يكن لدى أى منهن نية التضحية بعفافها له ــ ومع ذلك فقد كن تواقات لجذبه نحو ركـن خافـت الضوء، والحديث إليه بأصوات خفيضـة، وأن يمنحنـه ثقـتهن، بهيبـة وبرعشة، لأنه أيضًا يخلق فيهن خوفًا. فماذا كان سر فتنته؟ إن الوجه الذى يراه فى المرآة ليس قبيحًا ولا جذابًا، ومن الصعب أن يكون هو سبب هذه الفتنة.

بعد مرور وقت خُيِّل إليه أنه يعرف. إنها المعرفة التى يشتهينها، ولكنهن لا يستطعن السماح لأنفسهن باشتهائها، لأنها معرفـة محرمـة ــ معرفة لها وهج صارخ، معرفة لا سبيل إليها إلا بالنزول فى بئر عميـق. إنه فى المكان الذى لا يمكنهن الوصول إليه أبدًا، ورأى مـا لا يمكـنهن رؤيته أبدًا، لقد فتح أجساد نساء، ونظر بداخلها. ويده التى رفع بها حـالاً أيديهن إلى فمه ليقبلها، ربما حملت يوما قلبًا أنثويًّا نابضًا.

وهكذا، فهو واحد من الثالوث الغـامض: الطبيـب، القاضـى، الجلاد. وهو يشترك مع هذا الثالوث فى امتلاكه لقوى الحيـاة والمـوت. الاستسلام بلا وعى، الرقود فى حالة عرى بـلا خجـل، تحـت رحمـة الآخرين. لمس أجسادهن، شقها، سلبها، إعادة تشكيلها ــ هذا هو ما يفكرن

فيه عندما ينظرن إليه، بعيون مفتوحة على آخرها، وشفتين متباعدتين بعض التباعد.

يبدأ صوت زوجة المحافظ يصل إلى سمعه: "إننى أعانى بشدة". وبخجل، وكأنها تكشف له عن كاحلها، تروى له أعراض معاناتها ــ سرعة فى التنفس، وشعور بضيق حول ضلوعها ــ ثم تلمح إلى أعراض أخرى أقوى تلى ذلك، فهى تشعر بألم ــ حسنا، إنها لا تحب أن تقول موضعه بالتحديد. فماذا يمكن أن يكون السبب.

يبتسم سايمون، ويقول أنه لم يعد يمارس الطب العام.

بعد لحظة عبوس محبط، تبتسم زوجة المحافظ أيضًا، وتقول أنها تريد تقديمه إلى مسز كوينل، الروحانية الشهيرة والمدافعة عن قضايا المرأة على نطاق واسع، والضوء الهادئ لدائرة النقاش الأسبوعية كل ثلاثاء، وكذلك للجلسات الروحانية كل خميس، وهى شخصية مهذبة ومتفقة سافرت كثيرًا، إلى بوسطن وغيرها. وتبدو مسز كوينل، والتى ترتدى تنورة ضخمة منفوشة بالكرينولين، أشبه بكريم بافارى بلون اللافندر، وتغطى رأسها بقبعة تشبه كلب كانيش رمادى صغير. وهى بدورها تقدم سايمون إلى د. چيروم دو بونت، من نيويورك، الذى يزور البلدة فى الوقت الحالى، والذى وعد بعمل استعراض لقواه الفريدة. تقول مسز كوينل أنه معروف جيدًا، وأنه كان فى ضيافة العائلة الملكية فى إنجلترا. أو، ليس العائلة الملكية بالضبط، ولكن العائلات الأرستقراطية، ولا فرق.

يتساءل سايمون بأدب: "قوى فريدة؟". إنه يرغب فى معرفة ماهية هذه القوى الفريدة. ربما يدَّعى الرجل أنه قادر على رفع الأشياء فى الهواء، أو أنه يمكنه بعث روح هندى ميت، أو أن يسمعنا طرقات

الأرواح، مثل أخوات فوكس الشهيرات. فالروحانيات هى جنون الطبقات الوسطى، خاصة النساء؛ يجتمعن فى الغرف المظلمة ويلعبن بالورق على مائدة مائلة، بنفس الطريقة التى كانت تفعلها جداتهن، أو يصدرن كتابات آلية بحروف كبيرة الحجم أملاها عليهن موتسارت أو شكسبير. ويفكر سايمون أن الموتى، على أية حال، لهم تأثير موهن للغاية على أسلوب كتابة المرء، وإذا لم يكن هؤلاء الناس موسرين للغاية لاعتبرت سلوكياتهم إدانة. والأسوأ من هذا أنهم يملأون غرف استقبالهم بالدراويش والمشعوذين كلهم ملفوفون فى أردية قذرة تعلن عن شبهة قداسة فى ذاتها، ورغم ذلك فإن آداب المجتمع تملى على المرء أن يكون مهذبًا معهم.

والدكتور چيروم دو بونت لديه عينان صافيتان عميقتان ونظرة حادة كما هو الحال مع دجال محترف؛ لكنه يبتسم بأسى، ويهز كتفيه بلا مبالاة. يقول: "أخشى ألا تكون هذه القوى فريدة جدًّا"، ويحمل صوته أثر لكنة أجنبية "مثل هذه الأشياء هى مجرد لغة أخرى إذا كان المرء على إلمام بها، فهى أمر مسلم به، لكن الآخرين هم الذين يجدونها فريدة".

يسأل سايمون، وشفتاه تختلجان: "هل تتحدث مع الموتى؟"

يبتسم د. دو بونت قائلاً: "لست أنا، أنا شخص يمكنك أن تسميه "ممارس طبى"، أو "باحث علمى"، مثلك أنت. أنا ممارس للتنويم العصبى من مدرسة جيمس بريد."

يقول سايمون: "لقد سمعت به، إنه إسكتلندى، أليس كذلك؟ وأعتقد أنه حجة فى التواء القدم وحَوَل العينين. لكن من المؤكد أن الطب لا يعترف بادعاءاته الأخرى. أليس هذا التنويم العصبى هو مجرد إحياء

الذاكرة الميتة سيئة السمعة الخاصة بالمغناطيسية الحيوانية، أو بعبارة أخرى، التنويم المغناطيسى عند "مِسْمَر"؟(*)

يقول د. دو بونت: "لقد وضع مِسْمَر مجالاً مغناطيسيًّا يحيط بالجسد، وكان ذلك خطأ بالتأكيد. لكن طرق بريد تختص بالجهاز العصبى وحده. ويمكننى أن أضيف أن أولئك الذين يعترضون على طرقه لم يجربوها. وهذه الطرق مقبولة أكثر فى فرنسا، حيث الأطباء أقل عرضة لهجوم المعتقدات الجامدة. وهى طرق أكثر نفعًا فى حالات الهيستريا عن غيرها من الحالات، وبالطبع لن تفيد كثيرًا فى حالة كسر فى الساق، لكن فى حالة فقدان الذاكرة ..." ــ ويبتسم ابتسامة واهنة وهو يواصل ــ "فقد جاء بنتائج مذهلة، بل وسريعة جدًّا".

يشعر سايمون أنه سيخسر النقاش، فيغير الموضوع: "دو بونت ــ هو اسم فرنسى؟"

يقول دو بونت: "العائلة كانت بروتستانتية فرنسية، ولكن هذا من جانب الأب فقط، أبى، الذى كان من هواة الكيمياء. أما أنا نفسى فأمريكى. ولكننى بالطبع زرت فرنسا لدواعٍ مهنية."

تقول مسز كوينل مقاطعة: "ربما يود د. چوردان أن يكون عضوًا فى مجموعتنا، فى جلسات الخميس الروحية. إن زوجة المحافظ العزيزة تجد راحة نفسية كبيرة فى هذه الجلسات، حيث تعرف أن صغيرها،

(*) "مِسْمَر" Mesmer (١٧٣٤-١٨١٥) عالم عاش فى نهاية القرن التاسع عشر، آمن بالتنويم المغناطيسى كطريقة لعلاج الأمراض النفسية، واشتهر بشدة حتى أطلق اسمه على التنويم المغناطيسى فى ذلك الوقت (المسمرية mesmerism)، وكان من المراجع التى استفاد منها فرويد.

الذى فى العـالم الآخـر الآن، سـعيد وفى خير حـال. إننى واثقـة أن د. چوردان ذو فلسفة تميل إلى الشك، لكننا دائمًا نرحب بأصحاب فلسـفة الشك". وتتألق العينان الصغيرتان المرحتان تحت الشعر المـزدان بقبعـة الكلب الكانيش.

يقول سايمون: "لست شكاكًا، أنا فقط طبيب". فليست لديـه النيـة لأن يُجَرّ إلى هراء سخيف كحل وسط. ويتعجب فيم يفكر ڤرينجر عنـدما يقبل مثل تلك المرأة ضمن لجنته. من المؤكد أنها ثرية.

يقول دو بونت: "أيها الطبيب، عالج نفسك". ويبدو كما لـو أنـه يحاول المزاح.

تقول مسز كوينل: "مـا هـو موقفك من قضـية تحرير العـبيد يا د. چوردان؟". تتحول المرأة الآن لتمثيل دور المثقفة، وسوف تصر على خوض مناقشة حامية فى السياسة، ومما لا شك فيه سوف تـأمره بإلغـاء العبودية فى الجنوب حالاً. ويرى سـايمون أن اعتبـاره متهمًـا، بشـكل شخصى، بكل آثام بلاده أمر متعب، خاصة عندما يكون الاتهام موجهًا من هؤلاء المرتدين لعباءة إنجلترا، الذين يبدو أنهم يظنون أن إحساسًا جديـدًا عليهم بصحوة الضمير يعفيهم من انعدام الضمير تمامًا قبل ذلك. فمن أين جاءت ثرواتهم الحالية إلا من تجارة العبيد؛ وعلى أى نحو كان من الممكن أن تصبح مدنهم الكبرى دون قطن الجنوب؟

يقول: "كان جدى ينتمى لجماعة الكويكرز الدينية، وعندما كنـت طفلاً، علمونى ألا أفتح أبواب الدواليب، فلربما يكون أحد الهاربين الفقراء قد لجأ إلى الاختباء بها. وكان يؤمن دائمًا أن الأفضـل لـه أن يجـازف بسلامته الشخصية ولا يكون ككلب يعوى على الآخرين من خلـف سـور يحميه".

تقول مسز كوينل بمرح: "إن جدارًا حجريًّا ليس بالضرورة سجناً".

يقول دو بونت: "لكن يجب على العلماء أن يكونوا ذوى عقلية متحررة." ويبدو أنه عاد إلى المناقشة السابقة.

تقول مسز كوينل: "أنا متأكدة أن عقل د. چوردان منفتح كالكتاب، لقد قيل لنا أنك تفحص فتاتنا جريس، من وجهة نظر روحية."

أدرك سايمون أنه لو حاول شرح الفارق بين الروح، بالمعنى الذى تفهمه هى، والعقل الباطن بمفهومه الشخصى، سوف يتورط تورطاً لا حل له، ولذا فهو يبتسم ويومئ برأسه.

يقول د. دو بونت: "وما السبيل الذى تتخذه لاستعادة ذاكرتها المفقودة؟"

يقول سايمون: "لقد بدأت بطريقة تعتمد على الإيحاء ووصل الأفكار. وأحاول، برقة وعلى درجات صغيرة، أن أعيد ترتيب تسلسل الأفكار الذى حدث به انقطاع وتشوش، ربما بسبب الصدمة الناتجة عن الأحداث العنيفة التى عاشتها."

ثم يقول د. دو بونت بابتسامة متعالية: "آه، البطء مع الثبات يكسب السباق!". ويتمنى سايمون لو يركله.

وتقول مسز كوينل: "إننا جميعًا، أعضاء اللجنة، واثقون من براءتها! إننا مقتنعون بهذه البراءة! ويقدم المبجل ڤرينجر التماسًا، وهو ليس الأول، لكننا نأمل أن ننجح هذه المرة. إن شعارنا هو 'دقة أخرى على الشق ينفتح'". وتهتز بطريقة صبيانية وهى تكمل: "قل أنك فى جانبنا!"

يقول د. دو بونت بوقار: "إذا لم تنجح من البداية..."

فيقول سايمون: "إننى لم أصل إلى نتائج بعد، وعلى كل حال فلست أهتم كثيرًا بكونها مذنبة أو بريئة... بل..."

يقول د. دو بونت: "بل بآليات العمل".

فيقول سايمون: "لا أقصد ذلك بالضبط."

"ليس النغمة التى تخرج من الصندوق الموسيقى بل التروس والعجلات التى بداخله هى ما يهمك."

يقول سايمون، الذى بدأ يجد د. دو بونت مثيرًا للاهتمام: "وأنت؟"

فيقول دو بونت: "آه، بالنسبة لى ليس حتى الصندوق هو المهم، بكل ما تحمله جوانبه من صور جميلة. بالنسبة لى، المهم فقط هو الموسيقى. الموسيقى يصدرها جسم مادى ملموس، ولكنها ليست ملموسة. كما يقول الكتاب المقدس: "الريح تهب حيث تشاء".(*)

تقول مسز كوينل: "ويقول القديس يوحنا 'والمولود من الروح هو روح'"، ويقول دو بونت: "و'المولود من الجسد جسدٌ هو'".(*) يتمعن فيه الاثنان بشعور متدفق من الانتصار وإن كان انتصارًا لا يُرد، ويشعر سايمون كما لو كان يختنق تحت حشية ثقيلة.

(*) يوحنا، ٣:٨.

(*) الأصل فى الكتاب المقدس "المولود من الجسد جسدٌ هو ، والمولود من الروح هو روح" ، يوحنا، ٣ : ٦ .

ويأتى صوت ناعم من تحت إبطه: "د. چوردان...."، إنها الآنسة ليديا، إحدى ابنتى زوجة المحافظ، "ماما أرسلتنى لأسألك إن كنت رأيت دفتر قصاصاتها".

يشكر سايمون مضيفته فى داخله، ويقول أنه لم يحظ بهذه المتعة. إن صور الحفر الداكنة للمناظر الجميلة فى أوروبا، وقد زينت حوافها بورق مزين بأوراق السرخس، ليست شيئًا جذابًا له فى العادة، ولكنها فى اللحظة الراهنة تشير إلى مهرب. يبتسم ويومئ برأسه، وتقوده الفتاة بعيدًا عنهما.

تجلسه الآنسة ليديا على مقعد ذى لسان ملون، ثم تحضر له كتابًا ثقيلاً من فوق المنضدة المجاورة وتجلس بجانبه: "إنها تعتقد أنك ستجده ذا أهمية، بالنسبة لما تفعله مع جريس".

يقول سايمون: "حقًا؟"

تشرح الآنسة ليديا: "إنه يحتوى على كل جرائم القتل الشهيرة، تقصها والدتى من الصحف وتلصقها فيه، وكذلك تنفيذ أحكام الشنق."

يتساءل سايمون: "صحيح؟". لابد أن المرأة غولة، فضلاً عن وساوسها المرضية.

تقول ليديا: "إنه يساعدها على معرفة مَنْ مِنَ السجناء يستحقون أن يكونوا موضع عطفها ... ها هى جريس". تفتح الكتاب على حجريهما وتميل ناحيته، لتمده بالمعلومات الخطيرة "إننى أجدها مثيرة للاهتمام؛ فلديها قدرات فريدة."

فيقول سايمون: "مثل د. دو بونت؟"

تحدق الآنسة ليديا فى دهشة: "أوه، لا، أنا لا أهتم بأى من هذه الأشياء، ولن أسمح لنفسى أبدًا بأن أُنوَّم مغناطيسيًّا، إنه نوع من الادعاء! إننى أقصد أن جريس لديها قدرات فريدة فى صناعة الملابس."

يفكر سايمون: إنها تتصف ببعض الطيش، وعندما تبتسم تبدو أسنانها العلوية والسفلية معًا. ولكنها على الأقل تتميز بعقلية صحية، على عكس أمها. حيوان صغير موفور الصحة. وينتبه سايمون إلى عنقها الأبيض، المحاط بشريط متواضع تزينه جوهرة صغيرة كبرعم ورد بشكل يناسب فتاة غير متزوجة. يضغط ذراعها على ذراعه، من تحت طبقات من الأقمشة الرقيقة، وهو ليس كتلة جامدة بلا مشاعر. ورغم أن الآنسة ليديا تتصف حتمًا بشخصية طفولية ولم تتشكل بعد، مثل قريناتها من الفتيات، فإن لها خصرًا نحيلاً جدًّا. وتفوح منها سحابة عطرية تغلفه بغلالة رقيقة من عطر "زنبق الوادى".

ولكن الآنسة ليديا لا تعى، حتمًا، تأثيرها عليه، فلابد أنها تجهل طبيعة مثل هذا التأثير. يعقد ساقيه.

تقول الآنسة ليديا: "ها هو مشهد إعدام جيمس مكدرموت. لقد نُشر فى جرائد عديدة، وهنا كما نشرته جريدة "ذا إجزامينر".

يقرأ سايمون:

لابد أن المجتمع يتسم بشهية مريضة لمثل هذه المشاهد. عندما يجتمع مثل هذا الحشد الكبير،

والشوارع فى هذه الحالة السيئة، ليشاهد آلام احتضار إنسان سيئ الحظ رغم أنه مجرم! هل يمكننا أن نفترض أن مثل هذه المشاهد قد حسنت من أخلاقيات العامة، أو أنها أخمدت الاتجاه إلى ارتكاب الجرائم البشعة؟

يقول سايمون: "إننى أميل إلى الاتفاق مع هذا الكلام."

وتقول الآنسة ليديا: "لو كنت موجودة لحضرت، ألا تفعل نفس الشيء؟"

بُهت سايمون بهذه الصراحة. إنه لا يوافق على الإعدام العلنى أمام العامة، فهو نوع من الإثارة غير الصحية، وينتج عنه خيالات مريضة متعطشة للدماء فى بعض العامة ذوى العقول الضعيفة. لكنه يعرف نفسه؛ وإذا أتيحت له الفرصة فإن الفضول سيتغلب على وخزات ضميره. ويقول بحذر: "فى نطاق اهتمامى المهنى، ربما أذهب. لكننى إذا كانت لى أخت، فما كنت لأسمح لها بالحضور."

تتسع عينا الآنسة ليديا: "ولم لا؟"

يقول: "يجب ألا تحضر النساء مثل هذه المشاهد المخيفة، فهى تمثل خطرًا على طبائعهن المهذبة الرفيعة". ويشعر بما فى قوله من سخافة.

طالما التقى بنساء فى أسفاره من الصعب إلصاق تهمة "الطبائع المهذبة الرفيعة" بهن. رأى نساء فقدن عقولهن يمزقن ثيابهن ويعرضن أجسادهن عارية؛ ورأى عاهرات وضيعات للغاية يفعلن نفس الشىء. ورأى نساء ثملات يتلفظن بأقبح السباب، ويتعاركن معًا كالمصارعين، تشد

الواحدة شعر الأخرى. تمتلئ شوارع لندن وباريس بهذه النسوة؛ عرف أن الواحدة منهن قد تدمر أطفالها، وتبيع بناتها للرجال الأغنياء الذين يظنــون أن اغتصاب طفلة يجنبهم الأمراض الجنسية. إنه لا يعيش فــي وهــم أن الطبائع المهذبة متأصلة فى النساء، لكنه من باب الحذر يفكر أن يصــون نقاء من لا تزال نقية. وفى هذه الحالة، فإنه يرى الرياء مبررًا: على المرء أن يقدم ما يجب أن يكون على أنه الواقع.

تسأل الآنسة ليديا: "هل تعتقد أن لى طبعًا مهذبًا رفيعًا؟"

يقول سايمون: "أنا واثق من هذا". ويتساءل فى نفسه إن كان هذا فخذها الملتصق به أم هو فقط بعض ثوبها.

وتقول الآنسة ليديا: "أحيانًا لا أشعر بهذه الثقة فى نفسى. وهنــاك من يقولون أن الآنسة فلورنس نايتنجيل لا تتصف بهذه الطبائع المهذبــة، وإلا ما استطاعت أن تنظر إلى مثل هذه المشاهد البشــعة دون أن تــؤذى صحتها، لكنها بطلة".

فيقول سايمون: "ما من شك فى هذا".

ويشعر بالارتياب فى أنها تناغشه، وهو أمر ليس كريهًا بــالمرة، لكنه على عكس المطلوب، يذكره بوالدته. كم من بنات لطيفــات ســاقتهن أمامه بدهاء، كطعوم صيد سمك مغطاة بالريش للتمويه. ودائمًا ما كانــت تعد المكان بحيث تجلس الفتاة المقصودة بجــوار إنــاء ملــيء بــالزهور البيضاء. لا يمكن أن يرى فى أخلاقهن عيبًا، سلوكياتهن تتصف بالإخلاص والبراءة كمياه الينابيع، وتقدم إليه عقولهن كقطع من العجين من حقه وحده صياغتها وتشكيلها. فما أن تتقدم حصيلة موسم واحد مــن الفتيــات إلــى

مرحلة الخطبة والزواج، حتى تبدأ البنات الأصغر بالتبرعم والتفتح مثل زهور التيوليب فى شهر مايو، وهن فى الوقت الراهن صغيرات بالنسبة لسايمون حتى أنه لا يستطيع الحديث معهن؛ فالأمر يبدو وكأنك تتحدث إلى سلة مليئة بالقطيطات.

لكن أمه كانت دائمًا تخلط بين الشباب والقابلية للتطويع، إن ما تريده فى الواقع هو زوجة ابن يمكن أن تشكلها هى بنفسها، وليس سايمون؛ ولهذا تستمر الفتيات فى المرور متهاديات أمامه، ويستمر هو فى التلفت بلا مبالاة، وتستمر أمه، برقة، فى اتهامه بالكسل وعدم العرفان. وهو يؤنب نفسه على هذا، فهو كلب حزين وسمكة باردة ــ ويهتم بأن يشكر أمه على آلامها، وأن يؤكد لها المرة تلو المرة أنه سوف يتزوج فى النهاية، غير أنه ليس مستعدًا بعد. فهو لابد أن يستكمل أبحاثه أولاً، لابد أن يحقق لنفسه قيمة ما، أن يكتشف شيئًا يستحق الذكر، أن يصنع اسمه.

تتنهد أمه لائمة، إن له اسمًا بالفعل، اسم جيد للغاية، وهو ينوى فيما يبدو أن يبدده برفضه الزواج بدلاً من نقله إلى ابن له. وهنا تسعل قليلاً، فى العادة، لتذكره بأن ولادته كانت صعبة، كادت تقتلها، وتسببت فى ضعف شديد لرئتيها ــ وهو أمر غير مقنع طبيًّا، ولكنه أثناء طفولته كان يسبب له شعورًا عميقًا بالذنب. وتستمر قائلة أنه لو أنجب ابنًا واحدًا فحسب ــ بعد أن يتزوج أولاً بالطبع ــ فسوف تموت سعيدة. ولكنه يمزح معها قائلاً أنه فى هذه الحالة سوف يكون مذنبًا لو تزوج فى يوم من الأيام، حيث أن زواجه سيكون نوعًا من القتل لأمه؛ ويضيف ــ ليرقق من فظاظة

تعبيره ــ أن وُجود الأم أفضل كثيرًا بالنسبة له من الزوجة، وخاصة إذا كانت أمًّا كاملة الأوصاف مثلها؛ ولدى هذا القول ترمقه بنظرة حادة يفهم منها أنها تعرف حِيَلاً كثيرة كل منها تساوى ضعف حيلته هذه، فهى لن تنخدع بها. وتقول أنه أذكى كثيرًا من أن يعرفه أحد بمصلحته، ولكنه يتعين عليه ألا يظن أنه يستطيع اللف والدوران عليها. لكنها تلين.

أحيانًا يميل للاستسلام. يمكنه اختيار واحدة من السيدات الشابات المعروضات عليه، أكثرهن ثراء، سوف تصبح حياته اليومية منظمة، وسيكون إفطاره صالحًا للأكل، وسيكون له أطفال محترمون. وسوف يقومان بفعل التناسل فى سرية، مستترًا ومتحفظًا ــ هى، مطيعة ولكن مع التمنع وإظهار عدم الرضا؛ وهو، باعتباره صاحب الحقوق ــ ولكنهما لن يحتاجا لذكر ذلك أبدًا. وسوف يكون فى بيته كل وسائل الرفاهية الحديثة، وهو نفسه سيعيش فى رغد. على أية حال، هناك مصائر أسوأ من ذلك.

وتقول الآنسة ليديا: "هل تظن أن جريس تتمتع بطبائع لطيفة مهذبة؟ إننى واثقة من أنها لم ترتكب جريمتى القتل رغم أنها تشعر بالندم لأنها لم تخبر أحدًا عنهما بعد حدوثهما. لابد أن جيمس مكدرموت كذب بشأنها، لكنهم يقولون أنها كانت عشيقته، هل هذا صحيح؟"

يشعر سايمون بوجهه يحمر. إذا كانت تحاول مغازلته، فهذا عن غير وعى منها. إنها شديدة البراءة حتى أنها لا تفهم ما يفتقد البراءة. ويتمتم قائلاً: "لا أعرف."

تقول الآنسة ليديا: "ربما اختطفها عنوة". يبدو صوتها حالمًا "في الكتب دائمًا ما تختطف امرأة عنوة، لكنني لم أقابل شخصيًا امرأة حدث معها ذلك، هل قابلت أنت؟"

يقول سايمون أنه لم يمر أبدًا بهذه التجربة.

تقول الآنسة ليديا بصوت خفيض: "إنهم يقطعون رأسه، أعني مكدرموت. وهم يحتفظون بها في زجاجة بالجامعة في تورنتو".

يقول سايمون وقد عاد إليه ارتباكه وتحيره: "لا بالتأكيد. ربما يمكنهم حفظ الجمجمة، أما الرأس كله فلا!"

تقول الآنسة ليديا باقتناع: "مثل قطعة كبيرة من المخلل". ثم تضيف "أوه، ماما تريدني أن أذهب وأتحدث مع المبجل ڤرينجر. إنني أفضل الكلام معك، فهو تربوي للغاية. وهي تظن أن الحديث معه أفضل لتربيتي الأخلاقية."

والواقع أن المبجل ڤرينجر قد دخل لتوه إلى الغرفة، ويبتسم لسايمون ابتسامة خيِّرة بشكل يغيظ، وكأنه يتصدق عليه. أو ربما هو يقصد ليديا بابتسامته.

يتأمل سايمون ليديا وهي تنساب عبر الغرفة؛ إن لها تلك المشية الزلقة التي يعلمونها للبنات. وإذ بقي مع نفسه على الأريكة، يجد نفسه يفكر في جريس، كما يراها في كل يوم من أيام الأسبوع جالسة أمامه في غرفة الخياطة. وجهها يبدو أكبر سنًّا من الحقيقة، ولكنها الآن تبدو أصغر. بشرتها شاحبة، ناعمة وخالية من التجاعيد، وتبدو شديدة النعومة، ربما

لأنها ظلت حبيسة لا تخرج، أو ربما كان السبب هو وجبات السجن القليلة. إنها الآن أكثر نحافة، وجهها أقل امتلاء، ورغم أن الصورة تظهرها امرأة جميلة، فهى الآن أكثر جمالاً. أو هو شىء آخر غير الجمال. إن لخطـوط وجنتيها بساطة مرمرية فريدة؛ والنظر إليها يقنع المرء بأن المعاناة تطهر النفس بالفعل.

ولكن، فى تقارب المسافة فى غرفة الخياطة، يمكن لسـايمون أن يشم رائحتها كما ينظر إليها، ويحاول ألا يهتم، لكن الرائحة تسرى فى تيار خفى يربكه. تفوح منها رائحة الدخان، وصابون المغسلة، وعرقها المملح، تفوح منها رائحة البشرة نفسها مع إيحاء بالرطوبة، والاكتمال، والنضج ـ أية روائح؟ نباتات الفوجير والفطر، الفواكه المسحوقة والمتخمرة. ويتسائل فى نفسه كم مرة يُسمح للسجينات بالاستحمام. ورغم أن شعرها مضـفور ومعقوص تحت القلنسوة، فإن له رائحة قوية أيضًا، رائحة مسـك قـوى لفروة رأس. إنه فى حضرة أنثى حيوان، أشبه بأنثى ثعلب متأهبة للخطر. ويشعر بتأهب مقابل يسرى تحت جلده، وكأن شعره يقف، وأحيانًا يشـعر وكأنه يمشى على رمال متحركة.

فى كل مرة كان يضع شيئًا صغيرًا أمامها، ويسألها ماذا يثير ذلك فى خيالها. وفى هذا الأسبوع اقترب منها بعدة أنوع من جذور الخضـر، أملاً فى وجود صلة تؤدى إلى تداعيات: البنجر ـ جذر تحـت الأرض ـ يذكِّر مثلاً بالجثث؛ أو اللفت ـ تحت الأرض ـ بالقبر. فوفقًا لنظرياتـه، من المفترض أن يؤدى الشىء المناسب إلى استثارة سلسلة مـن الأفكـار المتصلة المثيرة للقلق لديها، لكنها حتى الآن تعاملت مـع الأشـياء التـى

يقدمها لها ببساطة وفقًا لقيمتها الظاهرة، وكل ما استطاع استخلاصه منها هو سلسلة من طرائق الطهى.

فى يوم الجمعة، جرب طريقة مباشرة جدًّا، فقال لها: "يمكنك أن تكونى صريحة تمامًا معى يا جريس، لا داعى لحبس أى شىء".

قالت: "ليس لدىّ سبب لأن أكون غير صريحة معك يا سيدى، إن السيدة قد تخفى أشياء، فهى لها سمعة تريد الحفاظ عليها، لكننى تجاوزت ذلك."

قال: "ماذا تقصدين يا جريس؟"

"لا أقصد أكثر من أننى لم أكن أبدًا سيدة يا سيدى، وأننى فقدت بالفعل أية سمعة قد أكون تمتعت بها يومًا. فيمكننى أن أقول ما أرغب، وإذا كنت لا أريد، فلن أقول شيئًا على الإطلاق."

"ألا يهمك أن أكون عنك رأيًا طيبًا يا جريس؟"

ألقت إليه نظرة سريعة حادة، ثم استمرت فى خياطتها: "لقد تم الحكم علىّ بالفعل يا سيدى، وأيًّا كان رأيك عنى، فالأمر سواء."

"حكمًا عادلاً، يا جريس؟". لم يستطع مقاومة السؤال.

قالت: "عادل أو ظالم، لا يهم. الناس يريدون مذنبًا. وإذا حدثت جريمة، يريدون أن يعرفوا من ارتكبها. فهم لا يحبون ألا يعرفوا."

"إذن فقد فقدت الأمل؟"

سألت بأدب: "الأمل فى أى شىء يا سيدى؟"

شعر سايمون بأنه أحمق، وكأنه ألقى موعظة فى الإتيكيت: "حسنًا، الأمل فى الإفراج عنك."

قالت: "ولماذا يفعلون ذلك يا سيدى؟ القاتلة ليست شيئًا يحدث كل يوم. أما عن الأمل فإننى أحتفظ به لأمور أصغر، إننى أعيش بأمل أن يكون إفطارى غدًا أفضل من اليوم". وابتسمت قليلاً "لقد قالوا حينها أنهم يصنعون منى عبرة، ولهذا حكموا علىَّ بالموت، ثم بالسجن مدى الحياة."

وفكر سايمون، ولكن ما فائدة العبرة بعد ذلك؟ لقد انتهت قصتها. القصة الرئيسية، أى الشىء الذى حدد كينونتها كعبرة. فما الدور الذى يفترض أن تؤديه فى باقى الوقت؟ قال: "ألا تشعرين أن المحاكمة كان فيها ظلم لك؟"

"لا أعرف ماذا تعنى يا سيدى."

كانت تلضم الإبرة حينذاك؛ بللت طرف الخيط فى فمها لتجعل اللضم أسهل، وفجأة بدا له ذلك حركة طبيعية للغاية وشديدة الحميمية إلى درجة لا تُحتمل. شعر وكأنه ينظر إليها من ثقب فى الجدار وهى تخلع ملابسها، وكأنها تغسل نفسها بلسانها، كالقطة.

الفصل الخامس

أطباق مكسورة

اسمي جريس ماركس، ابنة جون ماركس الساكن في مدينة تورنتو ، ومهنته البناء بالحجر، جئنا من أيرلندا إلى هذه البلاد منذ ثلاثة أعوام؛ لي أربع أخوات وأربعة إخوة، منهم أخ وأخت أكبر مني، بلغت ١٦ سنة في يوليو الماضي. وعملت خادمة في أماكن مختلفة طوال السنوات الثلاث التي قضيتها في كندا...

اعتراف طوعي لجريس ماركس
إلى السيد جورج والتون، في السجن،
في ١٧ نوفمبر ١٨٤٣،
Star and Transcript ــ تورنتو

طوال الأعوام السبعة عشر
لم يدر بخلدي، مرة واحدة
كم هو جد مختلف، نصيبي ...
.. عن نصيب أية امرأة أخرى في العالم،
لابد أن يكون السبب، أن هذا النصيب أخذ ينمو
خطوة بخطوة، حتى أصبح بهذا القدر من الغرابة والهول
تسللت تلك الويلات الغريبة على أطراف الأصابع،
إذا كان لها أصابع
إلي .. داخل الحي حولي، وداخل خصوصيتي
وجلست حيث أجلس، ورقدت حيث أرقد،
ووجدوا أنني قد ألفت الخوف،

عندما دخل الأصدقاء، حملوا مصباحا وصرخوا
"ماذا؟ أنت يا بومبيليا، فى الكهف هكذا؟
"كيف حدث أن ذراعك هذا .. ذئب؟
"وهذا الطول الناعم ــ فى قدميك، داخلهما، خارجهما
"ويلف من حول الركبتين، ثعبان هو!"
وهكذا...

روبرت براوننج

The Ring and the Book, 1869

ـ ١٢ ـ

هذا تاسع يوم أجلس فيه مع د. چوردان فى هذه الغرفة. لم تكن الأيام متوالية، فهناك أيام الآحاد، ولم يأت فى أيام أخرى. كنت قد اعتدت حساب الأيام بدءا من أعياد ميلادى، ثم بدأت أحسب من أول يوم لى فى هذا البلد، ثم منذ آخر أيام مارى هويتنى على هذه الأرض، وبعد ذلك منذ ذلك اليوم فى يوليو الذى حدثت فيه أسوأ الأمور، ثم أخذت أحسب منذ أول يوم لى فى السجن. ولكنى أحسب الآن منذ أول يوم لى فى غرفة الخياطة مع د. چوردان، فمن الصعب أن تحسب منذ نفس المناسبة، لأن الأمر يصبح مثيرًا للملل ويمتد الوقت أطول وأطول، ويكاد يستحيل احتماله.

يجلس د. چوردان أمامى، تنبعث منه رائحة صابون الحلاقة من النوع الإنجليزى، ورائحة أذنيه، ورائحة حذائه الجلدى ذى الرقبة. إنها رائحة مطمئنة أتطلع دوما إليها، فرائحة الرجال الذين يستحمون أفضل من رائحة الآخرين. أما ما وضعه أمامى اليوم على المائدة، فهو حبة بطاطس، لكنه لم يسألنى بعد عنها، فهى لا تزال فى مكانها بيننا. لا أعرف ماذ يتوقع منى أن أقول عنها، إلا أن أخبره بأننى قشرت كثيرًا جدًّا منها فى الماضى، وأكلتها أيضًا، إن حبة بطاطس جديدة مسلوقة ممتعة مع قليل من الزبد والملح، والبقدونس لو كان متاحًا، وحتى البطاطس القديمة الكبيرة يمكن

سلقها جيدًا؛ لكنها ليست بالشيء الذى يمكن إجراء حوار طويل حوله. بعض حبات البطاطس تشبه وجوه الأطفال، وبعضها يشبه الحيوانات، وقد رأيت واحدة تشبه القطة. لكن هذه لا تبدو إلا كحبة بطاطس، لا أكثر ولا أقل. أحيانًا أفكر أن د. چوردان به نوع من الخبل. لكن إذا كان يحب الحديث عن البطاطس فهذا أفضل عندى من عدم الحديث معه على الإطلاق.

اليوم يرتدى رباط عنق مختلفًا، أحمر وبه نقط زرقاء، أو أزرق وبه نقط حمراء، إنه فاقع إلى حد ما بالنسبة لذوقى، لكننى لا أستطيع النظر إليه بإمعان لأتمكن من التأكد. إننى أحتاج المقص ولذا أطلبه، ثم هو يريدنى أن أبدأ الكلام، فأقول اليوم سأنتهى من آخر قطعة فى هذا اللحاف، بعد ذلك سوف أخيط كل القطع معًا، ثم يُحشى، وهو مخصص لإحدى ابنتى المحافظ ومصمم على نموذج "الكوخ الخشبى".

نموذج "الكوخ الخشبى" فى الأغطية هو شيء لابد أن تحصل عليه كل فتاة قبل الزواج، فهو يعنى البيت، ولابد من وجود مربع أحمر فى الوسط، وهو يمثل نار المدفأة. أخبرتنى مارى هويتنى بذلك، لكننى لا أقول هذا لدكتور چوردان، فلا أظن أنه يمثل أهمية بالنسبة له، لأنه أمر عادى جدًّا، رغم أنه ليس عاديًّا أكثر من البطاطس.

يسألنى: وماذا ستخيطين بعد ذلك؟

أقول: لا أعرف، أظن أنهم سيطلبون منى، إنهم لا يشغلوننى فى حشو اللحاف، فقط فى عمل المربعات لأنها تحتاج لدقة وعناية، وتقول زوجة المحافظ أننى كنت مُهمَلة ملقاة فى الخياطات العادية مثل ما يُصنع فى الإصلاحية، أكياس البريد وأزياء السجن وما إلى ذلك، ولكن على أى

حال حشو اللحاف يكون فى المساء، ويتم بنوع من الاحتفال، وأنا لا أدعى للاحتفالات.

فيقول: إذا أمكنك صنع لحاف لنفسك، فما هو النموذج الذى ستنفذينه؟

أعرف الإجابة، لا شك فيها، سوف أنفذ نموذج شجرة الجنة كذلك المنفذ فى الصندوق ذى الغطاء المبطن عند السيدة ألدرمان پاركينسون. كنت فى العادة – إعجابًا به – أخرجه متظاهرة بأنى أرى إذا ما كان بحاجة إلى إصلاح، كان شيئًا جميلاً، مصنوعًا كله من مثلثات، بألوان داكنة للأوراق وألوان فاتحة للتفاحات، والشغل جميل جدًّا، الغرز صغيرة جدًّا كتلك الغرز التى أستطيع صنعها بنفسى، ولكن فى لحافى سوف أجعل الحواشى مختلفة. هنا الحاشية تمثل مطاردة الإوز البرى، أما لحافى فسوف تكون حواشيه أفرعًا مضفرة، أحدها بلون فاتح والآخر بلون غامق، يسمونها حواشى فروع الكرم، وفروع الكرم تلتف حول بعضها كما فى المرآة الموجودة فى الردهة. سوف يحتاج الكثير من العمل، وربما يستغرق وقتًا طويلاً، لكنه إذا كان لحافى ولن يمتلكه غيرى، فسوف أصنعه بكل سرور.

لكن ما أقوله له يختلف. أقول: لا أعرف يا سيدى، ربما يكون نموذج "دموع العمل"، أو "شجرة الجنة"، أو "سور الأفعى"؛ أو ربما نموذج "حيرة العانس"، لأننى عانس، أليس كذلك يا سيدى؟ ومن المؤكد أننى عانيت الكثير من الحيرة. قلت هذه العبارة الأخيرة كنوع من المداورة. لم أعطه إجابة مباشرة، لأن الكلام عما تتمناه بصوت مسموع يجلب سوء الحظ، ومن ثم لا يحدث ما نتمنى من خير أبدًا. وربما لن يحدث ما نتمناه

على أية حال، ولكن الحذر واجب، يجب أن تحذر إعلان ما تريده أو حتى أنك تريد شيئًا، فهو أمر يمكن أن تعاقب بسببه، وهذا مـــا حـــدث لمـــارى هويتنى.

يكتب أسماء النماذج، ويسألنى: أشجار الجنة أم شجرة الجنة؟

أقول: شجرة يا سيدى. ويمكن أن يكون اللحاف مرســومًا عليــه أكثر من شجرة، رأيت واحدًا عليه أربع شجرات رؤوسها تميل فى اتجـــاه الوسط، ولكن يظل اسمه نموذج "شجرة الجنة".

يقول: لماذا هذا فى رأيك يا جريس؟ أشعر أحيانًا أنه طفل، فدائمًا يسأل لماذا.

أقول: لأن هذا هو اسم النموذج يا سيدى. وهناك أيضًـــا شـــجرة الحياة، ولكنه نموذج مختلف. كما يمكن أيضًا أن تنفذ شجرة الخروج مـــن الجنة، وأيضًا هناك شجرة الصنوبر، وهو نموذج جميل جدًّا أيضًا.

يكتب هذا، ثم يلتقط حبة البطاطس وينظر إليها. ويقول: أليس من المدهش أن تنمو هذه الأشياء تحت الأرض، يمكن أن تقولى لى أنها تنمـــو وهى نائمة، بعيدًا عن الأعين، فى الظلام، مخبأة عن الأنظار.

حسنًا، لا أعرف أين يتوقع أن تنمو البطاطس، فلم أرها أبدًا مدلاة على فروع الأشجار. لا أقول شيئًا. فيـــقول: وماذا أيضًا تحـــــت الأرض يا جريس؟

أقول: البنجر، والجزر أيضًا يا سيدى، إنها طبيعة هذه الأشياء.

تبدو عليه خيبة الأمل من هذه الإجابة، ولا يكتبها. ينظـــر لـــى، ويفكر. ثم يقول: هل ترين أحلامًا يا جريس؟

وأقول: ماذا تقصد يا سيدى؟

أظن أنه يقصد هل أحلم بالمستقبل، هل لدى أية خطط لما يمكن أن أفعله بحياتى، وأظن أنه من القسوة أن يسألنى هذا السؤال وهو يرى أننى حبيسة هنا حتى الموت، ليست لى آمال كثيرة أحلم بها. أو ربما هو يقصد أحلام اليقظة، أو هل لى أحلام تدور حول رجل ما، مثل الفتيات الصغيرات، وهى فكرة بنفس القسوة، أو ربما أشد قسوة؛ وأقول ببعض الغضب واللوم: ماذا أفعل بالأحلام، ليس لطيفًا منك أن تسأل.

ويقول: لا، أرى أنك أسأت فهمى. إننى أريد أن أسألك هل ترين أحلامًا فى منامك؟

أقول، ببعض الحدة لأن هذا السؤال نوع من الكلام الفارغ الذى يتحدث به السادة، ولأنى لا أزال غاضبة: كل الناس تحلم يا سيدى، أو أظن ذلك.

يقول: نعم يا جريس، ولكن أنت، هل ترين أحلامًا؟ لم يلاحظ لهجتى الغاضبة، أو أنه اختار التغاضى عنها. يمكن أن أقول له أى شىء، ولن يجعله يصدم أو يرتبك، أو حتى يندهش بشدة، كل ما سيحدث أنه سيكتبه. وأعتقد أنه يهتم بأحلامى لأن الحلم يمكن أن يكون له معنى، أو هذا ما ورد فى الإنجيل، مثلما فى قصة فرعون والبقرات سمينة اللحم والبقرات رقيقة اللحم، ويعقوب مع الملائكة الصاعدة والنازلة على السلم. ويوجد نموذج لحاف اسمه على هذه القصة، "سلم يعقوب".

وأقول: نعم يا سيدى، أرى أحلامًا.

يقول: فماذا رأيت فى الحلم ليلة أمس؟

رأيت أنني واقفة عند باب المطبخ فى منزل السيد كينيــر. كــان المطبخ الصيفى، وقد انتهيت لتوى من تنظيف الأرض، أعرف هــذا لأن تنورتى كانت لا تزال مبللة وقدميّ لا تزالان مبللتين وحافيتين، لم أكن قد ارتديت نعليّ بعد. كان ثمة رجل، فى الخارج على العتبة، كان أحد الباعة الجائلين، مثل جيرميا البائع الجوال الذى اشتريت منه الأزرار ذات مــرة لفستانى الجديد، واشترى منه مكدرموت القمصان الأربعة.

لكن هذا لم يكن جيرميا، كان شخصًا مختلفًا. كانت الصرّة التــى يحملها مفتوحة، والأشــياء مبعثــرة علــى الأرض، الشــرائط والأزرار والأمشاط وقطع من الأقمشة، كانت زاهية جدًّا في حلمــى هــذا، حرائــر وشيلان من الكشمير وأقمشة قطنية مطبوعة تتألق فى الشمس، لأن الوقت كان فى عز النهار وفى عزّ الصيف.

كنت أشعر أنه شخص عرفته يومًا ما، لكنه كان يبعد وجهه عن ناظرى حتى لا أعرف من هو. وأدركت أنه كان ينظر لأسفل، ينظر إلــى قدميّ الحافيتين، كانتا عاريتين حتى الــركبتين ومتســختين مــن تنظيــف الأرضية، لكن الساق هى الساق، وسخة أو نظيفة، ولم أنــزل تنــورتى. وقلت في نفسى دعيه ينظر، فالمسكين لا يرى شيئًا كهذا فى المكان الــذى جاء منه. لابد أنه أجنبى من نوع ما، وربما قطع مسافة طويلة، وقد بــدت نظرته سوداوية وجائعة، هكذا فكرت فى الحلم.

لكن حينــئذ لم يعد ينظر إلى ساقىّ، وكان يحاول أن يبيــع لــى شيئًا ما. كان لديه شيء يخصنى وكنت أريد استعادته، لكن لم يكن معــى نقود ولذا لم أستطع شراءه منه. قال إذن يمكننا أن نساوم، تعــالى، مــاذا تعطيني؟ قال ذلك بنوع من المزاح.

الشيء الذى كان لديه هو إحدى يدىَ. الآن أراها، كانت بيضاء ومتغضنة، كانت تتدلى من يده كفردة قفاز. لكننى عندما نظرت إلى يدىَ وجدت الاثنتين موجودتين فى مكانهما، خارجتين من كُمَّى ردائى كالعادة، وعرفت أن هذه اليد الثالثة تخص امرأة ما. ولابد أنها ستأتى بحثًا عنها، وإذا كانت موجودة عندى ستقول أننى سرقتها، لكنى لم أعد أريدها، فلابد أنها مقطوعة. والحق أن الدم ظهر الآن، يتساقط ثقيلاً كالحساء؛ لكننى لم أشعر بأى رعب لرؤيته كما يمكن أن يحدث إذا رأيت دمًا حقيقيًّا وأنا مستيقظة، كنت فى غاية القلق، ولكن حول شىء آخر. ومن خلفى، كنت أسمع صوت فلوت جعلنى عصبية للغاية.

قلت للبائع اذهب، لابد أن تذهب من هنا فى الحال، لكنه ظل ورأسه ملتفت إلى الناحية الأخرى ولم يتحرك، وارتبت فى أنه يضحك سخرية منى.

وكان ما فكرت فيه هو أن الدم سوف ينزل على الأرض النظيفة.

أقول: لا أتذكر يا سيدى. لا أستطيع أن أتذكر ما رأيته فى منامى ليلة أمس. كان شيئًا مشوشًا وغير مفهوم. ويكتب هذا.

أحتفظ بالقليل لنفسى، ليس لى ما أمتلكه أو أحوزه ولا لى خصوصية إلا بقدر ضئيل جدًّا، لكنى أريد أن أحتفظ بشىء لنفسى. وعلى أية حال، ماذا يمكن أن يستفيد من أحلامى.

حينئذ يقول: حسنًا، هناك أكثر من طريقة لسلخ القطة.

وأرى أنها طريقة غريبة فى اختيار الكلمات، فأقول: أنا لست قطة يا سيدى!

فيرد قائلا: نعم، أنا أذكر ذلك، ولا أنت كلب، ويبتسم قائلا: المسألة يا جريس هى أى نوع أنت؟ سمك أم لبن أم تمر هندى؟

أقول: عفوًا يا سيدى؟

لا أحب أن يقال لى سمكة، وأفضل أن أغادر الغرفة لولا أننى لا أجرؤ.

يقول: فلنبدأ من البداية.

فأسأل: أى بداية يا سيدى؟

يقول: بداية حياتك.

أقول، وما زلت أشعر بضيق منه: ولدت يا سيدى كأى شخص آخر.

يقول: اعترافك معى هنا، دعينى أقرأ لك ما قلت فيه.

أقول: هذا ليس اعترافى فى الحقيقة، إنه ما طلب منى المحامى أن أقوله، بالإضافة إلى ما اختلقه رجال الصحافة، وربما تصدق أيضًا الصحائف التافهة التى كانوا يدورون ويتجولون لبيعها، كهذه الصحيفة. فى أول مرة وقعت عينى فيها على أحد الصحفيين، خطر ببالى أن أسأله هل يا ترى تعرف أمك أنك خرجت من البيت؟ كان تقريبًا فى مثل سنى، لم يكن له الحق فى أن يعمل بالكتابة للصحف، حيث كان أصغر من أن يحلق ذقنه. كانوا جميعًا هكذا، صغار تنقصهم الخبرة، وربما لا يعرفون الحقيقة حتى فى مواجهتها. كانوا يقولون أننى فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة أو ما لا يزيد عن العشرين، فى حين أننى كنت قد أتممت السادسة

عشرة لتوى، ولم يكونوا قادرين على كتابة الأسماء بطريقة صحيحة، كانوا يكتبون اسم جيمى وولش بثلاث طرق مختلفة، وولش، وويلش، وو الـــش، وأيضًا اسم مكدرموت، أحيانًا مك، وأحيانًا ماك، وكـــانوا يطلقـــون علـــى نانسى اسم آن، وهو اسم لم يطلق عليها أبدًا فى حياتها، فكيف نتوقـــع أن يكتبوا أى شىء آخر صح؟ سوف يختلقون أى شىء يريحهم.

وهنا يقول: "جريس، من هى مارى هويتنى؟"

أوجه إليه نظرة سريعة، وأقول: "مارى هويتنى؟ من أين لك بهذا الاسم يا سيدى؟

يقول: إنه مكتوب تحت البورتريه المرســوم لــك فـــى مقدمـــة اعترافك، "جريس ماركس المدعوة مارى هويتنى".

أقول: آه، نعم. البورتريه لا يشبهنى تمامًا.

ويقول: ومارى هويتنى؟

"إنه فقط الاسم الذى أعطيته لهم يا سيدى، فى الحانة فى لويستون عندما كان جيمس مكدرموت هاربًا معى. قال أننى لا يجب أن أقول اسمى الحقيقى، فقد يأتون باحثين عنا. وكان وهو يقول ذلك يقبض على ذراعـــى بعنف، على ما أذكر، لكى يتأكد أننى سوف أفعل ما يقول.

ويقول: وهل أعطيتهم أى اسم خطر برأسك؟

أقول: لا يا سيدى. كانت مارى هويتنى ذات يوم صديقة مقربـــة لى. وكانت قد ماتت قبل ذلك، وظننت أنها لن تمانع إذا استخدمت اســـمها، فقد كانت أحيانًا تعيرنى ثيابها أيضًا.

أتوقف لدقيقة، لأفكر فى الطريقة الصحيحة لتوضيح ذلك.

أقول: كانت دائمًا كريمة معى، وبدونها، كان يمكـــن أن تكـــون قصتى مختلفة تمامًا.

ــ ١٣ ــ

قصيدة قصيرة أحفظها منذ الطفولة:

الإبر والدبابيس، الإبر والدبابيس

عندما يتزوج الرجل، تبدأ المتاعب

ولا تقول القصيدة متى تبدأ متاعب المرأة. أما متاعبى فيبدو أنها بدأت بمولدى. فهم يقولون يا سيدى ليس بيدك اختيار والديك، وأنا ما كنت لأختار أبدًا بإرادتى الحرة الأبوين اللذين كتب الله لى أن أكون ابنتهما.

إن ما جاء فى بداية "اعترافى" صحيح جدًّا. فأنا بالفعل جئت من شمال أيرلندا؛ رغم أننى أظن أن ما كتبوه ظالم للغاية إذ يقول "كلا المتهمين من أيرلندا باعترافهما". وكأن ذلك جريمة، وأنا لا أعرف أنها جريمة أن يكون المرء من أيرلندا، رغم أننى دائمًا أراه يُعامل على أنه جريمة. لكن عائلتى كانت بالطبع بروتستانتية، وهذا أمر مختلف.

كل ما أذكره عن أيرلندا ميناء صخرى صغير على البحر، الأرض خضراء ورمادية، أشجارها قليلة؛ ولهذا شعرت بالخوف عندما رأيت هذا النوع من الأشجار الضخمة هنا، فلم أكن أعرف كيف يمكن للأشجار أن تكون عالية هكذا. لا أذكر المكان جيدًا، فقد غادرناه وأنا لا أزال طفلة، أتذكر فقط صورًا مقطعة، كما لو كانت على طبق مكسور.

وعندما أحاول جمعها سويًا، أجد أن بعض القطع تبدو وكأنها من طبق آخر تمامًا؛ ثم هناك تلك المساحات الفضاء، حيث لا يمكنك أن تجد ما يمكن أن يناسبها من بين القطع.

كنا نعيش فى كوخ مثقوب السقف، على أطراف قرية تقع بالقرب من مدينة لم أذكر اسمها للصحف، فربما لا تزال خالتى بولين على قيد الحياة، ولا أريد أن أجلب لها العار. كانت دائمًا تحسن الظن بى، رغم أننى سمعتها تقول لأمى ما تتوقعه لى فى الحقيقة، مع دلائل مستقبل لا تبشر بالكثير، ومع أب كهذا. كانت ترى أن أمى تزوجت رجلاً أقل من مستواها؛ وقالت أن عائلتنا سوف تكون هكذا، وافترضت أننى سينتهى بى الحال إلى نفس الشيء، لكنها قالت لى أننى يجب أن أجاهد حتى لا يحدث ذلك، وأن أقدر لنفسى ثمنًا مرتفعًا، وألا أقع فى غرام أول من يبدى الوداد نحوى، كما فعلت أمى، دون أن أنظر لعائلته أو مستواه، وأننى يجب أن أحذر الغرباء. ولم تكن لدى فكرة، وأنا بنت الثامنة، عما تتحدث عنه، رغم أنها كانت نصيحة طيبة على أية حال. قالت أمى أن خالتى بولين تقصد خيرًا ولكن لديها مقاييس جاهزة، وهى مقاييس جيدة جدًا لمن يقدر عليها.

خالتى بولين وزوجها، عم روى، رجل نحيف الكتفين وصريح للغاية، كان لديهما متجر فى المدينة القريبة، يبيعان فيه مع البضائع المعتادة أدوات الحياكة وقطع الدانتيلا، وبعض الأقمشة القطنية من بلفاست، وكانا يكسبان جيدًا. وكانت أمى هى الأخت الصغرى لخالتى بولين، وأجمل منها، فخالتى كانت بشرتها خشنة كالصنفرة، وكانت نحيفة للغاية، حتى بدت جلدًا على عظم، وقد برزت عظام مفاصلها مثل رُكَب الدجاج، لكن أمى كان لها شعر طويل كستنائى، وهو ما ورثته منها، وكان لها عينان

زرقاوان مستديرتان كعيني دمية، وقبل زواجها كانت تعيش مع خالتي بولين وعم روى وتساعدهما في المتجر.

كان والدهما المتوفى قسيسًا إنجليكانيًا ـ ويتبع المذهب الميثودى، وقيل أنه فعل شيئًا غير متوقع بنقود الكنيسة، وبعد ذلك لم يستطع الحصول على وظيفة، وعندما مات كانوا مفلسين، واضطرت البنتان للعمل لإعالة نفسيهما. كانت كلتاهما قد حصلت على قدر من التعليم، وكان يمكنهما التطريز والعزف على البيانو، ولهذا كانت خالتي بولين ترى أنها هي نفسها تزوجت دون المستوى، فالعمل في المتجر ليس هو الطريقة المناسبة للسيدات المحترمات، لكن العم روى كان رجلا طيبًا رغم سلوكه الفظ، وكان يحترمها، وكان هذا أمرًا له قيمته؛ وفي كل مرة تنظر فيها داخل دولاب ثيابها أو تحصى فيها طقمي الأطباق اللذين تملكهما، طقم للاستخدام اليومي، وطقم من الصيني الأصلي للمناسبات، كانت تشكر الله والحظ الطيب لأن المرأة يمكن أن تقع فيما هو أسوأ، وكانت تقصد أن هذا ما حدث لأمي.

ولا أظنها كانت تقول ذلك للإساءة إلى أحاسيس أمي، رغم أن هذا ما كان يحدث، وأحيانًا كانت تبكي بعد ذلك. لقد بدأت حياتها تحت سيطرة الخالة بولين. واستمرت بنفس الحال، لكن أضيفت سيطرة أبي أيضًا عليها. كانت الخالة بولين دائمًا تقول لها أن تقوى في مواجهة أبي، وكان أبي يطلب منها أن تقوى في مواجهة الخالة بولين، كانا يسحقانها بينهما، فقد كانت مخلوقًا هلوعًا خجولاً، مترددة وضعيفة ورقيقة، وكان ذلك يثير غضبي، كنت أريدها أن تكون أقوى حتى لا أضطر لأن أكون قوية هكذا أنا نفسي.

أما أبى فلم يكن أيرلنديًا، كان إنجليزيًا من شمال إنجلترا، ولـــيس معروفًا سبب مقدمه إلى أيرلندا، فكل من لجأوا إلى السفر كانوا يذهبون فى الاتجاه المعاكس. قالت خالتى بولين لابد أنه كان واقعا فى متاعـــب فـــى إنجلترا واضطر للهروب بسرعة فلجأ إلى هذه الناحية. وقالت أنــــه ربمـــا يكون قد انتحل اسم ماركس، الذى ربما لا يكون اسمه الحقيقى، ولابد أنــــه "مارك"، أى العلامة التى وضعها الله على قابيل قاتل هابيل،(*) كمـــا أنــــه كانت له نظرات قاتلة. لكنها لم تقل ذلك إلا فيما بعـــد، عنـــدما أصـــبحت الأمور فى أسوأ حالاتها.

قالت أمى أنه فى البداية بدا شابًا طيبًا، واثقًا، وحتى خالتى بولين اعترفت أنه كان وسيمًا، طويلاً وأصفر الشعر، وأسنانه كلها كانت سليمة. وعندما تزوجا، كان لديه مال فى جيبه، كما كان يوحى بمستقبل مبشر، فقد كان حقًا بناء بالحجر، كما كتبت عنه الصحف. ورغم ذلك، قالت خـــالتى بولين أن أمى لم تكن لتتزوجه إلا لأنها اضطرت، وتم تغطية الأمر، رغم أنه كان هناك كلام حول أن أختى الكبرى مارثا ولدت أكبر كثيـــرًا ممـــا يمكن لطفل ابن سبعة أشهر؛ وذلك لأن أمى كانت طيبة أكثر من الــــلازم، وكثير من النساء الشابات كن يقعن فى هذه المشكلة؛ وكانت تقول لى ذلك لكى لا أفعل نفس الشىء. قالت أن أمى كانت محظوظة للغايـــة لأن أبـــى وافق على الزواج بها، وكانت تعترف له بهذا الفضل، حيث أن الأغلبيـــة كانوا يخرجون من بلفاست على أول قارب بمجرد أن يسمعوا من فتيـــاتهم مثل هذا الخبر، تاركين إياهن على الشاطئ مهجورات وحيدات، وماذا كان باستطاعة خالتى بولين أن تفعله لها حينذاك وعليها أن تنظر بعين الاعتبار لسمعتها ودكانها؟

(*) "وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده". (سفر التكوين، ٤:١٥).

وهكذا، كان أبى وأمى يشعران أن كلاً منهما وقع فى مصيدة الآخر.

وأنا، أولاً وقبل كل شىء، لا أعتقد أن أبى كان رجلاً سيئًا؛ لكنى أعتقد أنه كان رجلاً يسهل تضليله، وأن الظروف كانت ضده. ولأنه كان إنجليزيًّا، لم يكن يلقى ترحيبًا حتى بين البروتستانت، فلم يكونوا يحبون الغرباء. كما أنه اتهم عم روى بأنه قال أنه خدع أمى ليتزوجها ليقضى وقتًا ممتعًا وليعيش حياة سهلة ويبعثر أموالهم التى يكسبونها من الدكان، وكان ذلك صحيحًا إلى حد ما، فلم يكونوا يستطيعون رفضه من أجل أمى والأطفال.

أدركت كل هذا فى سن مبكرة. لم تكن الأبواب فى منزلنا سميكة بما يكفى، وكنت طفلة تتسمع جيدًا لما يقوله الكبار، وكان صوت أبى عاليًا عندما يكون سكران؛ وعندما يبدأ فى الكلام، لم يكن يلاحظ أن ثمة من يقف قريبًا منه عند الركن، أو خارج النافذة، بهدوء فأر صغير.

شىء واحد قاله، أن أطفاله عددهم كبير جدًّا، وأن ذلك يناسب رجلاً أكثر ثراءً. وكما كتبوا فى الصحف، وصل عددنا إلى تسعة، أى تسعة على قيد الحياة. فهم لم يكتبوا من ماتوا، وكانوا ثلاثة، ولم يحصوا الطفل الذى "ضاع قبل أن يولد"، ولم يكن له اسم أبدًا. كانت أمى والخالة بولين يطلقان عليه "الطفل الضائع"، وعندما كنت صغيرة كنت أتساءل أين أضاعوه، لأننى ظننت أن ضياع الطفل يشبه ضياع قطعة نقود؛ وإذا كان قد ضاع، فربما يمكن أن نجده فى يوم من الأيام.

أما الثلاثة الذين ماتوا فقد دفنوا فى فناء الكنيسة. ورغم أن أمى ظلت تصلى وتصلى، فقد قل ذهابنا إلى الكنيسة بمرور الوقت، لأنها قالت

أنها لن تسمح باستعراض أطفالها الفقراء بثيابهم المهلهلة أمام كل من هب ودب، مثل خيالات المآتة، وبدون أحذية. كانت مجرد أبرشية صغيرة، لكن أمي رغم طبيعتها الضعيفة كان لها كبرياؤها، ولأنها كانت ابنة قسيس إنجليكاني، فقد كانت تعرف آداب السلوك في الكنيسة. وكانت تتوق بشدة لأن تعود بمظهر لائق من جديد، ولأن نكون نحن أيضًا في مظهر لائق. لكن من الصعب يا سيدي أن يكون المرء في مظهر مناسب دون أن يكون لديه ثياب لائقة.

ورغم ذلك، كنت أذهب إلى فناء الكنيسة. كانت الكنيسة لا تزيد مساحتها عن حظيرة بقرة، وكان فناؤها قد تزايدت مساحته للغاية. كانت قريتنا أكبر ذات يوم، ولكن الكثيرين غادروها، إلى المصانع في بلفاست، أو عبروا المحيط؛ وغالبًا لم يبقَ من أبناء العائلات من يهتم بالمقابر. كان فناء المقابر أحد الأماكن التي كنت آخذ إخوتي الأصغر إليها عندما كانت أمي تطلب مني إخراجهم من المنزل؛ ومن ثم كنا نذهب لنلقي نظرة على إخوتنا الثلاثة الذين ماتوا، وعلى المقابر الأخرى أيضًا. بعضها كان قديمًا جدًا، وكانت لها شواهد حفرت عليها رؤوس الملائكة، رغم أنها كانت أكثر شبهًا بكعكات مسطحة لها أعين محدقة، ويخرج من كل ناحية منها جناح مكان الأذنين. ولم أكن أفهم كيف يمكن أن تطير الرأس دون جسد، كما لم أكن أفهم كيف يمكن أن يكون شخص في السماء، وهو في فناء الكنيسة في نفس الوقت؛ لكن الجميع كانوا يجمعون على أن هذه هي الحقيقة.

لم يكن لأطفالنا الثلاثة شواهد حجرية، ولكن مجرد صلبان خشبية. ولو عاشوا لكانوا الآن كبارًا بالغين.

عندما بلغت التاسعة، غادرتنا أختى الكبرى مارثا لتعمل بالخدمة، ومن ثم كان علىّ أن أقوم بكل أعمال المنزل التى كانت تقوم بها مارثا؛ ثم بعد عامين ذهب أخى روبرت إلى البحر على مركب تجارية، ولم نسمع عنه أبدًا بعد ذلك؛ لكن لأننا نحن أيضًا غادرنا بعد ذهابه بقليل، فإنه حتى لو أرسل إلينا، لم يكن من الممكن أن يبلغنا شىء.

وبقى الصغار الخمسة وأنا فى البيت، وكان طفل آخر فى الطريق. لا أذكر أن أمى كانت يومًا فى غير ما يسمونه "حالة مرهفة"؛ رغم أنه لم يكن هناك ما يمكن اعتباره مرهفًا فى رأيى. يسمونها أيضًا حالة غير سعيدة، وهذا أقرب للحقيقة ــ حالة تعسة يتلوها حادث سعيد، رغم أن الحادث ليس دائمًا سعيدًا بأى حال.

كان أبونا فى هذا الوقت قد فاض به. كان يقول لأمى لأى غرض تأتين بشقى آخر إلى هذا العالم، ألم تكتفى بكل هؤلاء، لكنك لا تستطيعين التوقف، فم آخر نطعمه، كان يقول ذلك كأنما هو نفسه ليس مسئولاً عن هذا الحمل على الإطلاق. عندما كنت صغيرة جدًا، فى السادسة أو السابعة، كنت أضع يدى على بطن أمى، التى كانت مدورة وجامدة، وكنت أقول ماذا يوجد هنا، فم آخر لنطعمه، وكانت أمى تبتسم ابتسامة حزينة وتقول نعم، أخشى ذلك، وأتخيل صورة فم ضخم للغاية، فى رأس يشبه رؤوس الملائكة الطائرة على شواهد القبور، ولكنه ملىء بالأسنان، يأكل أمى من الداخل، وبدأت فى البكاء لأننى ظننت أنه سوف يقتلها.

كان أبى معتادًا على الذهاب بعيدًا، إلى أماكن تبعد مسافات مثل بلفاست، للعمل لدى البنائين الذين يستأجرونه؛ وعندما ينتهى العمل كان يعود إلى البيت أيامًا قليلة، ثم يعود إلى الخروج بحثًا عن عمل آخر.

وعندما كان يعود إلى البيت كان يخرج إلى الحانة ليبتعد عن صراخ الأطفال. كان يقول أن الرجل لا يستطيع أن يفكر مع نفسه وسط كل هذه الجلبة، وأنه مضطر للبحث عن عمل بسبب عائلة كبيرة كهذه، وأنه ليس فى مقدوره أن يحفظ عليهم الروح والجسد معًا. ولكن معظم بحثه عن العمل كان "فى قاع كأس". وكان هناك دائمًا من لديهم الاستعداد لمساعدته فى ذلك، ولكنه عندما كان يسكر، كان يغضب ويسب الأيرلنديين، ويسىء إليهم قائلاً أنهم طغمة من اللصوص الأنذال الوضيعين عديمى الفائدة، وتحدث مشاجرة. وقد كان قوى الذراع، لكنه سرعان ما فقد معظم أصدقائه، فرغم أنهم كانوا سعداء بالشرب معه، إلا أنهم لم يكونوا يريدون أن يتعرضوا لقبضته عندما يحين أوانها. وهكذا كان يشرب وحده، أكثر وأكثر، وكلما كان الشراب أقوى، كلما سهر وقتًا أطول وفقد ما لديه من أعمال فى النهار.

وهكذا انتشرت عنه سمعة بأنه لا يعتمد عليه، وأصبحت الأعمال التى تسند إليه أقل وأكثر تباعدًا. وأصبحت الأمور أسوأ وهو فى البيت، ففى تلك الأيام لم تعد حالات غضبه وقفًا على الحانة. كان يقول أنه لا يعرف لماذا أثقل الله كاهله بمثل هذه النفايات، وأن العالم لم يعد بحاجة للمزيد منا، كان ينبغى إغراقنا جميعًا فى شوال كالقطط. وكان الصغار يصابون بالخوف، فكنت آخذ الأربعة الأكبر القادرين على مشى كل هذه المسافة، وكنا نمسك أيدينا سويًا فى صف، ونذهب إلى فناء المقابر ونقطف الأعشاب، أو ننزل إلى الميناء، ونزحف على صخور الشاطئ ونعابث قناديل البحر بالعصى، أو نبحث فى البرك المتجمعة عن مياه المد عن أى شىء يحتمل أن نجده.

وقد نذهب إلى الميناء الصغير حيث ترسو قوارب الصيد. لم يكن من المفترض أن نذهب إلى هناك لأن أمنا كانت تخشى أن ننزلق ونغرق، لكنى كنت آخذ الصغار إلى هناك رغم ذلك، لأن الصيادين أحيانًا كانوا يعطوننا سمكة، رنجة أو ماكريل طازجة، وأى نوع من الطعام كان البيت فى أشد الحاجة إليه؛ فأحيانًا كنا لا نعلم ما إذا كنا سنأكل غدًا. وكانت أمنا تمنعنا من أن نمد أيدينا، ولم نكن نفعل، أو لم نكن نطلب بكلمات كثيرة؛ ولكن مشهد خمسة أطفال صغار بثياب رثة وعيون جائعة من الصعب مقاومته، أو كان الأمر كذلك فى قريتنا. وهكذا كنا نحصل على سمكتنا غالبًا، ونذهب إلى البيت بها فخورين وكأننا اصطدناها بأنفسنا.

سوف أعترف بأننى كانت لى أفكار شريرة، عندما كنت آخذ الصغار معًا إلى الميناء يتعثرون بأرجلهم الحافية. كنت أفكر أننى يمكن أن أدفع واحدًا أو اثنين منهم من فوق الحافة، وهكذا ستكون الأفواه التى يجب إطعامها أقل، وستكون الملابس التى تحتاج للغسيل أقل. ففى ذلك الوقت كنت أنا التى أقوم بمعظم الغسيل. ولكنها كانت مجرد أفكار وضعها الشيطان فى رأسى بلا شك. أو، على الأرجح، وضعها أبى فى رأسى. فقد كنت، فى تلك السن، لا أزال أحاول إرضاءه.

بعد قليل، اعتاد أبى صحبة يحوطها الشك، وشوهد مع بعض أعضاء الجماعات البروتستانتية ذوى السمعة السيئة. وحدث أن احترق منزل على بعد عشرين ميلاً، منزل رجل محترم، بروتستانتى ولكنه أخذ جانب الكاثوليك، ثم وجد رجل آخر مخبوط فى رأسه. وكان هناك كلام عن هذه الأمور بين أمى وأبى، وقال كيف بحق الشيطان تتوقع أن يأتى بنقود، وأن أقل ما يمكن أن تفعله هو أن تحفظ الأمر سرًا، ليس لأن من الممكن بأى حال أن تثق بامرأة بقدر ما يمكنك أن تقذف بها، فالمرأة تخون

أى رجل أسرع من طرفة عين، إن الجحيم قليل على الكثيرات. وعندما سألت أمي ماذا كان السر، أحضرت الإنجيل، وقالت أنني أنا أيضًا لابد أن أقسم عليه على أن أحفظ السر، وأن الله سوف يعاقبني إذا لم أبر بهذا القسم المقدس؛ وكان ما أرعبني بشدة أنني معرضة لخطر أن أفلت السر دون أن أدرى، لأنني لم تكن لدى أية فكرة عن ماهية هذا السر. ولابد أن فكرة عقاب الله كانت شيئًا مريعًا، فهو أكبر كثيرًا من أبي؛ وبعد ذلك كنت دائمًا شديدة الحرص على حفظ أسرار الآخرين، مهما كانوا أو كانت أسرارهم.

كانت هناك نقود لبعض الوقت، لكن الأحوال لم تتحسن، وتحولت الكلمات إلى لكمات، رغم أن أمي المسكينة لم تفعل شيئًا لتستحق ذلك؛ وعندما جاءت خالتي بولين لزيارتنا، كانت أمي تتهامس معها وتريها الكدمات على ذراعيها، وتبكي، وتقول أنه لم يكن هكذا طوال الوقت؛ وتقول خالتي بولين، لكن انظرى إليه الآن، إنه ليس أكثر من حذاء مثقوب، كلما زاد ما تملئينه به من أعلى زاد ما يخرج من القاع، إنه لأمر مهين وفاضح.

كان عمي روى يأتي معها في عربتهما الصغيرة التي يجرها حصان واحد، ويحضر بعض البيض من دجاجاتهما وشريحة لحم، فنحن لم يعد لدينا دجاجات أو خنزير منذ وقت طويل؛ وكانوا يجلسون في الغرفة الأمامية، التي كانت تمتلئ بالملابس المنشورة لتجف، لأنه ما أن تنتهي من الغسيل وتنشره ليجف في يوم مشمس في ذلك الطقس، حتى تتجمع السحب وتبدأ القطرات تنزل؛ وكان العم روى، الذى كان يتحدث ببساطة وغشومية شديدتين، يقول أنه لم يكن يعرف أن هناك رجلاً يمكن أن يحول النقود الطيبة إلى روث أسرع من أبي. وجعلته خالتي بولين

يعتذر بسبب الألفاظ؛ رغم أن أمى سمعت ما هو أسوأ من ذلك، فعندما يشرب أبى كان فمه ينثال بالسباب المتدفق كبالوعة جارية.

وفى ذلك الوقت، لم نكن نعيش على النقود القليلة التى يأتى بها أبى إلى البيت. كانت أمى تقوم بخياطة القمصان، وكنت أساعدها فى ذلك، وكذلك أختى الأصغر كاتى؛ وكانت خالتى بولين هى التى أرشدتها إلى هذا العمل، وكانت تحضر لها الأقمشة وتأخذها قمصانًا مرة أخرى. ولابد أن ذلك كان أمرًا مكلفًا لها بسبب الحصان وضياع الوقت وتجشم مشقة الذهاب والإياب. كما أنها كانت دائمًا تأتى معها ببعض الطعام. ورغم أنه كان لدينا قطعة أرض صغيرة نزرعها بالبطاطس والكرنب، إلا أنها لم تكن كافية على الإطلاق؛ ولذلك فقد كانت تحضر قطعًا من بقايا الأقمشة من الدكان، وكانت ثيابنا تصنع من هذه القطع كما هى.

كان أبونا قد توقف عن التساؤل من أين تأتى هذه الأشياء. ففى تلك الأيام يا سيدى، كان الرجل يتفاخر بقدرته على إعالة عائلته، مهما كان رأيه فى هذه العائلة؛ ورغم أن أمى كانت ضعيفة الشخصية، إلا أنها كانت من الحكمة بحيث أنها لم تخبره بأى شىء عن ذلك. والشخص الآخر الذى لم يكن يعرف عن ذلك إلا أقل القليل كان العم روى، رغم أنه لابد قد حدس الأمر، ورأى أن أشياء معينة اختفت من منزله لتظهر فى منزلنا. لكن خالتى بولين كانت امرأة قوية الشخصية.

جاء الطفل الجديد، وأصبح الغسيل الملقى على عاتقى أكثر، كما هو الحال دائمًا عندما يأتى طفل، وظلت أمى مريضة وقتا أطول من المعتاد؛ وكان علىّ أن أقوم بإعداد وجبات الغداء إلى جانب الإفطار الذى كنت أعده عادة؛ وقال أبونا أننا يجب أن نخبط الطفل الجديد على رأسه

ونلقيه فى حفرة فى حقل الكرنب، فسوف يكون أكثر سعادة بكثير تحت الأرض مما لو كان فوقها. وهنا قال أن مجرد النظر إليه يجعله يشعر بالجوع، وأن منظره سيكون أحلى إذا وضع على طبق كبير وحوله بطاطس مقلية وفى فمه تفاحة. ثم سأل لماذا نحملق فيه كلنا.

فى ذلك الوقت حدث شيء مدهش. كانت خالتى بولين يائسة من إنجاب الأطفال، ولذا كانت تعتبرنا كلنا أطفالها؛ أما الآن، فقد كانت هناك علامات تدل على أنها بسبيلها لإنجاب طفل. وكانت سعيدة جدًّا بهذا، وكانت أمى سعيدة من أجلها. لكن العم روى قال لخالتى بولين أنه يجب أن يحدث تغيير، فهو لا يستطيع أن يعول أسرتنا الآن، ولديه طفل يجب أن يفكر فيه، ولابد من تغيير خطط حياتهما. قالت الخالة بولين أنها لا يمكن أن تتركنا نموت جوعًا، مهما كان أبى سيئًا، فأختها هى لحمها ودمها، والأطفال لا ذنب لهم؛ لكن العم روى لم يكن يتحدث عن الموت جوعًا، لقد كان يفكر فى الهجرة. كان الكثيرون يهاجرون، وكانت كندا بها أراضٍ كثيرة لا يملكها أحد، وكل ما يحتاجه أبى هو أن يبدأ صفحة جديدة. كانت تلك البلاد بحاجة كبيرة إلى بنائى الحجر، بسبب كل أعمال البناء القائمة هناك على قدم وساق، وقد عرف من مصدر موثوق أنه سرعان ما ستبنى محطات سكك حديدية كثيرة، والرجل يستطيع أن يفعل خيرًا كثيرًا إذا كانت لديه صنعة.

قالت خالتى بولين أن هذا جيد جدًّا، ولكن من يدفع تكاليف الرحلة؟ قال العم روى أن لديه بعض المدخرات، وسوف يصرف كل ما فى جيبه، وسوف يدبر ما يكفى لدفع تذاكرنا بالإضافة إلى الطعام الذى نحتاجه طوال الرحلة؛ وكان يضع عينه على رجل سيدبر كل شيء لقاء

أجر. كان العم روى قد خطط لكل شىء قبل أن يفتح المناقشة، فهو يحسب أن يعمل لكل أمر حسابه.

وهكذا تقرر الأمر، وجاءت الخالة بولين خصيصًا في عربتها رغم حملها، لتكرر كل ذلك على مسامع أمى، وقالت أمى أنها يجب أن تتحدث مع ابى وتحصل على موافقته، لكن هذا لم يكن إلا تظاهرًا. فالمحتاجون لا يمكنهم الاختيار، ولم يكن مفتوحًا أمامهما أى طريق آخر؛ وكذلك كان بالقرية بعض الرجال الغرباء يتحدثون عن البيت الذى احترق والرجل الذى قتل؛ ويستفسرون ويسألون؛ وبعد ذلك كان أبى في عجلة للخروج من الطريق.

وهكذا، تظاهر أبى بأن الحكاية جيدة بالنسبة له، وأضاف أنها ستكون بداية جديدة للحياة، وأن هذا كرم من العم روى، وسوف يعتبر نقود الرحلة قرضًا يعيده بمجرد أن تنتعش أعماله؛ وتظاهر العم روى بأنه يصدقه. لم يكن يريد أن يهين أبى، وإنما أراد فقط أن يختفى عن ناظريه. وأما عن كرمه، فأظن أنه فكر أن الأفضل له أن يدفع مرة واحدة مبلغًا كبيرًا، عن أن يظل يُستنزف بنسًا بنسًا على مر السنوات حتى الموت؛ وإذا كنت مكانه لفعلت نفس الشيء.

ومن ثم بدأ التنفيذ. تقرر أننا سوف نبحر فى نهاية أبريل، لنصل إلى كندا فى بداية الصيف، ونستمتع بالجو الدافئ حتى نستقر جيدًا. وأخذت خالتى بولين وأمى تضعان الكثير من الخطط، والكثير من الخزين وحزم الأمتعة؛ وحاولت كلتاهما أن تكون مبتهجة، لكنهما كانتا مكتئبتين. لقد كانتا أختين رغم كل شىء، وخاضتا معًا الحياة بحلوها ومرها، وعرفتا أنهما، بمجرد أن تبحر السفينة، لن تلتقيا على الأرجح مرة أخرى فى هذه الحياة.

وأحضرت خالتى بولين من الدكان ملاءة من قماش قطنى جيد ليس بها إلا عيب صغير، وشالاً ثقيلاً يجلب الدفء، لأنها سمعت أن الجو بارد فى الناحية الأخرى من المحيط؛ وسلة صغيرة من الخوص، وفى داخلها براد شاى من الصينى وفنجانان وطبقان، كلها مزدانة برسوم الورود وملفوفة فى القش. وشكرتها أمى كثيرًا، وقالت أنها دائمًا كانت طيبة معها، وأنها سوف تحتفظ بهذا البراد إلى الأبد ككنز، لأنه تذكار منها.

وكان هناك الكثير من البكاء الصامت.

ـ ١٤ ـ

ذهبنا إلى بلفاست فى عربة استأجرها العم روى، وكانت رحلة طويلة متعبة للغاية، لكنها لم تمطر كثيرًا. كانت بلفاست مدينة كبيرة ذات بيوت حجرية، أكبر مكان رأيته فى حياتى، وتضج بالعربات والخيل. كان بها بعض المبانى الكبيرة، لكن كان بها أيضًا فقراء كثيرون، يعملون فى مصانع النسيج ليلاً ونهارًا. كانت مصابيح الغاز قد أوقدت عندما وصلنا فى بداية المساء، وكانت شيئًا أراه لأول مرة فى حياتى؛ كانت المصابيح تعطى ضوءًا أشبه بضوء القمر ولكن مع اخضرار.

نمنا فى فندق كان مليئًا بالبراغيث حتى تظنه بيتًا للكلاب؛ وأخذنا كل الصناديق داخل الغرفة معنا لكى لا يسرق شىء من أمتعتنا. ولم تكن لدىَّ فرصة لرؤية الكثير، ففى الصباح كان يجب أن نصعد إلى ظهر السفينة فى الحال، وكان على أن أحث الأطفال على الإسراع. لم يكونوا يفهمون إلى أين نذهب، وأقول لك الحق يا سيدى، لا أظن أن أحدًا منا كان يفهم.

كانت السفينة راسية بطول رصيف الميناء؛ كانت وحشًا هائل الحجم قادمًا من ليفربول، وقيل لى فيما بعد أنها كانت تحمل جذوع أشجار ضخمة من كندا فى طريقها شرقًا، ومهاجرين إلى الناحية الأخرى فى طريقها غربًا، وكان الأمران ينظر إليهما فى ضوء واحد، كحمولة شحن.

فقد كان الناس يسافرون بكل أربطتهم وصناديقهم بالفعل، وبعض النساء كن ينتحبن بشدة؛ لكننى لم أفعل، فلم أكن أرى فائدة للبكاء، وكان أبى يبدو متجهمًا وبحاجة للصمت، ولم يكن فى حالة تجعله يمسك عن صفعى بظهر يده.

كانت السفينة تتأرجح أمامًا وخلفًا تحت ضخامة الحمل، ولم أشعر بالثقة فيها على الإطلاق. كان الصغار فى حالة انفعال، خاصة الصبيان، لكن قلبى غاص بين ضلوعى لأننى لم أركب سفينة أبدًا من قبل، ولا حتى قوارب الصيد الصغيرة فى ميناء بلدتنا، وكنت أعرف أننا سنعبر المحيط، بعيدًا عن مشهد أى أرض، وإذا تحطمت السفينة أو وقع أحدنا من فوقها، فليس منا من يستطيع السباحة.

ورأيت ثلاثة غربان تقف صفًا على عارض الصارية، ورأتها أمي أيضًا، وقالت أن هذا فأل سيئ، لأن ثلاثة غربان فى صف واحد تعنى موتًا. وأدهشنى قولها هذا، فلم تكن تعتقد فى الخرافات؛ لكننى أظن أنها كانت فى حالة انقباض، فقد لاحظت أن الذين يشعرون باكتئاب يلتفتون فى الغالب لنذر الشؤم. لكن هذا أخافنى بشدة، رغم أننى لم أظهر ذلك لاهتمامى بالأطفال الصغار: فإذا رأوا رد فعلى فقد يفعلون مثلى، وكان هناك ما يكفى من الضجيج والجلبة بالفعل.

كان والدنا يحاول الظهور بمظهر شجاع، وشق طريقه صاعدًا السقالة، حاملاً أكبر ربطة من الثياب والأمتعة، ويحملق حوله وكأنه يعرف كل شيء ولا يشعر بأدنى خوف؛ لكنى أمى صعدت حزينة، وقد لفت شالها حولها، وانهمرت دموعها غزيرة، وشبكت قبضتيها ألمًا وقالت لى: ما الذى ساقنا إلى هنا. وعندما خطونا على ظهر السفينة قالت: لن تلمس

قدماى الأرض مرة أخرى. قلت: يا أمى، لماذا تقولين ذلك؟ قالت: أشعر بذلك فى قرارة نفسى.

وهذا ما حدث.

دفع والدنا نقودًا لكى تحمل الصناديق الكبيرة فوق السفينة وتشون؛ كان من المعيب إنفاق النقود هكذا فى حالتنا، لكن هذه الطريقة كانت هى الوحيدة الممكنة، فلم يكن يمكنه أن يحمل كل شيء بنفسه، فقد كان الحمالون يلحون بغلظة وفظاظة، وكان من الممكن أن يعطلوه. كان ظهر السفينة شديد الازدحام، والكثيرون فى حالة حركة ذهابًا وإيابًا، وكان الرجال يزعقون لكى نبتعد عن طريقهم. وأخذت الصناديق التى لن نحتاجها فوق السفينة إلى غرفة خاصة تظل مغلقة لمنع السرقة، وكان خزين الطعام الذى أحضرناه معنا للرحلة له مكانه أيضًا؛ لكن الملاءات والأغطية أنزلت إلى أسفل لنغطى بها أسرتنا؛ وأصرت أمى على الاحتفاظ ببراد الخالة بولين معها، فلم تكن تريده أن يغيب عن عينيها؛ وربطت السلة الخوص إلى عمود السرير بحبل من القنب.

كان مكان نومنا تحت السطح، أسفل سلم قذر يؤدى إلى ما يسمونه العنبر، والذى كان يغص كله من الداخل بالأسرَّة، وكانت عبارة عن ألواح خشبية صلبة وخشنة ممسمرة إلى بعضها بشكل سيئ وطول كل منها ستة أقدام وعرضها ستة أقدام، ومخصص لفردين، وثلاثة أو أربعة إذا كانوا أطفالاً؛ وكانت من طابقين، واحد فوق الآخر، وكان بين الواحد والآخر مساحة لا تكفى للمرور إلا بالكاد. وعندما تكون فى السرير السفلى لا تجد مساحة للجلوس بشكل سوى، فإذا حاولت سوف تخبط رأسك فى السرير العلوى، وإذا كنت فى السرير العلوى فإن احتمال الوقوع كبير،

وإذا وقعت فالمسافة كبيرة. كان الجميع معًا، متكدسين كالرنجة في الصندوق، ولم يكن ثمة نوافذ أو أي وسيلة لدخول الهواء، إلا فتحات الأرضية التي تؤدي إلى أسفل. وصحيح أن الهواء كان فاسدًا وخانقًا، ولكن ليس أبدًا مثل الحالة التي أصبح عليها فيما بعد. كان علينا أن نسرع باحتجاز أسرّتنا وأن نضع أشياءنا عليها في الحال، فقد كان الدفع والتزاحم على قدم وساق، ولم أكن أريد أن نفترق عن بعضنا البعض، تاركين الأطفال وحدهم خائفين في مكان غريب بالليل.

أبحرت السفينة في الظهيرة، عندما تم شحن كل شيء. وما أن رفعوا المرساة حتى تيقنت أنه لا عودة إلى الأرض، وتم استدعاؤنا بالجرس ليتحدث القبطان إلى الناس، وكان أسكتلنديًّا جنوبيًّا وذا بشرة أشبه بالجلد. قال لنا أننا يجب أن نطيع قواعد السفينة، وأن أي نار طهي ممنوعة، فكل طعامنا سيطبخه طباخ السفينة إذا جيء به بمجرد سماع الجرس؛ وممنوع تدخين الغليون، خاصة في قاع السفينة، فقد يؤدي ذلك إلى إشعال الحرائق، ومن لا يستطيعون الاستغناء عن الدخان يمكنهم مضغه ثم لفظه. ولن يكون هناك غسيل للثياب إلا في الأيام التي يكون فيها الجو مناسبًا، وهو الذي سوف يحدد ذلك؛ لأنه إذا كان الجو عاصفًا فقد نفقد أشياءنا المنشورة فوق السطح، وإذا أمطرت سيكون العنبر في حالة رطوبة عالية بالليل، وأكد لنا أن هذا سيكون شيئًا غير ممتع إطلاقًا.

كان ممنوعًا أيضًا إحضار فرش النوم إلى ظهر السفينة لتهويته بدون استئذان، وكان على الجميع إطاعة أوامره هو والضابط الأول، وأي من الضباط الآخرين، فسلامة السفينة تتوقف على ذلك، وفي حالة أي خروج عن النظام فسوف يتم حبسنا في حجرة صغيرة، ولذا فهو يأمل ألا يحاول أحد أن يختبر مدى صبره. وفوق ذلك، قال أنه لا تسامح مع

الشرب حتى الثمالة، فهو يؤدى إلى السقوط من فوق ظهر المركب؛ ويمكننا أن نشرب كما نشاء بمجرد أن ننزل إلى البر، ولكن ليس على سفينته؛ ومن أجل سلامتنا، لن يسمح لنا بالصعود إلى ظهر المركب بالليل، فقد نتوه فوق السفينة. وليس بمقدور البحارة أن يقوموا بأمور أخرى فوق واجباتهم، ولا أن تتم رشوتهم من أجل خدمات معينة؛ وأن لديه عينين خلف رأسه، وسوف يعرف أى محاولة لذلك فى الحال. وكما يشهد رجاله، فهو يدير سفينة محكمة القيادة، وفى عرض البحر كلمة الكابتن هى القانون.

وفى حالة المرض، يوجد طبيب على السفينة، لكن من المتوقع أن الأغلبية سوف يشعرون بأنهم ليسوا على مايرام حتى يعتادوا على الحياة فى البحر، ولا يجب إزعاج الطبيب بالتوافه، مثل حالات دوار بحر بسيط؛ وإذا سار كل شىء على ما يرام فسوف نكون على الأرض مرة أخرى فى خلال ستة إلى ثمانية أسابيع. وفى النهاية، تمنى أن يقول أن كل سفينة عائمة فيها فأر أو اثنان على سطحها، وأن هذه علامة حظ، لأن الفئران قادرة على أن تعرف أن سفينة ما سوف تغرق، ومن ثم فهو لا يريد إزعاجًا بهذا الشأن إذا صادف أن امرأة طيبة المنبت وقعت عينها على أحد الفئران. وافترض أن لا أحد منا قد رأى فأرًا من قبل ـ وسرت ضحكات بين الجمع ـ ولكن فى حالة ما إذا كنا نرغب فى الاطلاع عليها، فإن لديه واحدًا قتل حديثا، وهو مثير للشهية إذا كنا نشعر بالجوع. وازداد الضحك، فقد كان يقول نكتة ليشعرنا بمزيد من الألفة.

وعندما توقف الضحك، قال أنه سيلخص المسألة: ليست سفينته قصر باكينجهام، ونحن لسنا ملكة فرنسا، ومثل كل شىء فى الحياة، يأخذ المرء لقاء ما يدفع. وتمنى لنا رحلة سعيدة ثم انسحب إلى كابينته، وتركنا

لنهيئ أنفسنا على أفضل ما نستطيع. والأرجح أنه في نفسه كان يتمنى أن نذهب جميعًا إلى قاع البحر، طالما استطاع أن يحتفظ بنقود الرحلة. ولكن على الأقل كان يبدو أنه يعرف ما هو مقدم عليه، وجعلني ذلك أشعر براحة. ولا أحتاج لأن أخبرك أن كثيرًا من تعليماته لم تتبع، خاصة التعليمات بشأن التدخين والشرب؛ ولكن الذين فعلوا ذلك كانوا يفعلونه على حذر.

في البداية لم تكن الأمور سيئة جدًّا. خفت السحب وكانت الشمس تظهر من حين لآخر، وبقيت على السطح أراقبهم يخرجون بالسفينة من الميناء، ولم أشعر بقلق من الحركة طالما كنا لا نزال في حماية الأرض. لكن بمجرد أن خرجنا إلى البحر الأيرلندي ومدوا أشرعة أكثر، بدأت أشعر بالغثيان وبأني لست على ما يرام، وسرعان ما تقيأت إفطاري داخل بالوعة السفينة، وأنا أمسك اثنين من أخوتي الصغار كلاً في يد، وكانا يفعلان نفس الشيء. ولم أكن وحدي على الإطلاق في ذلك، فقد وقف كثيرون مثل الخنازير أمام المسقاة. واستلقت والدتنا أرضًا، وأبي كان أكثر غثيانًا مني، فلم يكن أحدهما يمكنه فعل شيء للأطفال. ومن حسن الحظ أننا لم نتناول غداء أو أي شيء يمكن أن يجعل الحالة أسوأ. وكان البحارة مستعدين لهذه الحالة، فقد رأوها من قبل، فوقفوا يحملون جرادل من المياه المالحة لغسل كل شيء.

بعد قليل، أحسست بأنني أفضل، ولابد أن هواء البحر المنعش أفادني، أو أنني كنت قد بدأت التعود على الحركة المترنحة المتأرجحة للسفينة. وبالإضافة إلى ذلك، وسامحني أن أصف الأمر بهذه الطريقة يا سيدي، لم يكن لدينا شيء يسبب الغثيان؛ وطوال الفترة التي قضيتها على السفينة لم أشعر بالمرض كهذه المرة. لم تكن هناك إمكانية أي عشاء

لعائلتنا، فقد كان الجميع فى حالة توعك؛ لكن أحد البحارة قال لى إذا استطعنا أن نشرب بعض الماء ونأكل قطعة من بسكويت السفينة فسوف يكون أفضل لنا؛ وحيث أننا كنا نحمل مئونة من البسكويت حسب تعليمات العم روى، فقد فعلنا ذلك بقدر ما استطعنا.

وتحسنت الأمور قليلاً حين دخل الليل، ثم كان علينا أن ننزل إلى أسفل، وساعتها ساءت الأحوال كثيرًا. وكما قلت قبلاً، كان المسافرون جميعًا محشورين معًا، لا جدران تفصل بينهم، وأغلبهم مرضى كالكلاب، وهكذا لم نكن فقط نسمع آهات جيراننا الذين يتجشأون ثم يتقيأون، والتى تصيبنا بالغثيان بمجرد سماعها. ولكن أيضًا لم يكن هناك أى هواء يدخل المكان، ومن ثم ازداد جو العنبر فسادًا ورداءة على مر الوقت، وكانت الرائحة كافية لأن تقلب ما بداخل أمعائنا.

واعذرنى يا سيدى إذ أقول هذا، لم تكن هناك طرق ملائمة لإراحة الأمعاء. كانت هناك جرادل معدة لذلك، ولكن على مشهد من الجميع، أو أنها كانت تصبح كذلك لو كان هناك أى ضوء؛ لكن ما كان هو أننا نسمع أصوات من يتعثرون فى الظلام، ولعنات، وبعض الجرادل تنقلب خطأً، ويندلق ما فيها، وحتى لو لم تنقلب الجرادل فإن ما اندفع من القىء خارجها كان يتساقط على الأرض. وحمدًا لله أنها لم تكن أرضًا شديدة الصلابة، فقد كان كل هذا يمكن أن يتسرب إلى أسفل حيث يوجد خزان السفينة. كان هذا يا سيدى يجعلنى أتأمل، أنه فى بعض الأوقات كانت النساء مع تنوراتهن أفضل حالاً من الرجال ببنطلوناتهم، فعلى الأقل كان يمكننا أن نجعل التنورة حولنا كنوع من الخيمة الطبيعية، بينما كان الرجال المساكين عليهم أن يترنحوا فى الظلام ببنطلوناتهم وقد نزلت حتى كواحلهم. لكن، كما قلت لك، لم يكن هناك ضوء فى الغالب.

ماذا يمكن أن يكون مع تـأرجح السـفينة وانـدفاعها وصـرير أخشابها، وتلاطم الأمواج، والضوضاء والروائح النتنة، والفئران تجـرى ذهابًا وإيابًا بمنتهى الجرأة كالسادة والسيدات، كنا فى حالة أشبه بـالأرواح الشقية فى جهنم. فكرت فى يونس فى بطن الحوت، ولكنه كـان أفضـل حالاً، فلم يبق فيها إلا ثلاثة أيام، وكان أمامنا ثمانية أسـابيع؛ وكـان فـى البطن وحده، ولم يكن مضطرًا للاستماع إلى أنين الآخرين وتقيئهم.

بعد عدة أيام، تحسنت الحال، فقد شفى الكثيرون من دوار البحر؛ لكن الهواء كان دائمًا متقلاً بالليل، ودائمًا كان هناك ضجيج. ومن المؤكـد أن أصوات الغثيان كانت أقل، لكن أصوات الكحة والغطيط كانت أكثـر؛ وكذلك كان هناك كثير من البكاء والصلوات، وهو أمر يمكن فهمه فى هذه الظروف.

أنا لا أقصد الإساءة إلى مشاعرك يا سيدى، لقد كانـت السـفينة رغم كل شىء مجرد بيت حقير متداع فى حالة حركة، ولكن دون خمارات مجاورة، وأنا أسمع أن السفن أصبحت أحسن حالاً الآن.

هل تحب أن تفتح النافذة؟

كان لكل هذه المعاناة تأثير واحد طيب. كان الركاب خليطًا مـن الكاثوليك والبروتستانت، وبعض الإنجليز والإسكتلنديين الذين جاءوا مـن ليفربول فوق البيعة؛ ربما لو كانوا بصحة جيـدة لتشاجروا وتنـاحروا، فلا حب يجمع بينهم. لكن لا يوجد شىء مثل نوبات دوار البحـر القويـة لإزالة أى رغبة فى الشجار. وكثيرًا ما رأيت أولئك الذين كان يمكـن أن يقطعوا رقاب بعضهم على الأرض بكل سرور، وهـم يمسـكون بأيـدى بعضهم فوق البالوعات، مثل أكثر الأمهات حنانًا؛ وقد لاحظت نفس الشىء فى السجن، فالضائقة تجعل الغرباء ينامون سويًا فى فراش واحد. وربمـا

تكون الرحلة البحرية والسجن هي تذكرة من الله لنا بأننا جميعًا لحـــم ودم، وأن كل اللحم والدم كالعود الأخضر، وكل اللحم والدم ضعيف. أو هذا ما أعتقده.

بعد عدة أيام اعتدت على حركة السفينة، وهكذا استطعت أن أنزل على السلم، وأن أصعد إلى السطح وأتولى إعداد الوجبات. كانت كل عائلة تحمل معها مؤنها، وكان الطعام يعطى لطباخ السفينة ويوضع في كيس من الشبك، ويغطس في مرجل من الماء المغلي ويغلى مع وجبـــات الآخـــرين جميعًا؛ ومن ثم فأنت لا تأخذ طعامك وحده، وإنما من طعام كل ما يأكلـــه الآخرون أيضًا. أكلنا لحم الخنزير المملح، ولحم البقر المملح؛ أخذنا بعض البصل وبعض البطاطس، رغم أننا لم نأت معنا إلا بالقليل من ذلك بســـبب الوزن؛ وكذلك بسلة مجففة، والكرنب الذى انتهى بسرعة، لأنني شـــعرت بأنه يجب أن نأكله قبل أن يفسد. أما الشعير فلم يكن من الممكن غليه فـــي المرجل الرئيسي، ولكنه كان يخلط بالماء الساخن ويتـــرك منقوعـــا فيـــه، وكذلك الشاى. وكان معنا بسكويت كما قلت من قبل.

كانت خالتي بولين قد أعطت أمي ثلاث ليمونات تساوى وزنهـــا ذهبًا، قالت أنها معروفة جيدًا بفائدتها في مقاومة الإسقربوط؛ وقد حفظتهـــا جيدًا لتنفع عند الحاجة إليها. وبوجه عام، كنا نأكل ما يكفي للإبقاء علـــى قوانا، وكان هذا يعني أننا نأكل أكثر من بعض أولئك الذين أنفقوا نقـــودهم الأساسية على الرحلة؛ وكان لدينا بعض الفائض، أو هكـــذا شـــعرت، لأن أبوينا لم يكونا في حالة طيبة تجعلهما يأكلان نصيبهما من الطعام. ومن ثم كنت أعطي بعض البسكويت لجارتنا، التي كانت امرأة عجوزًا اسمها مسز فيلان، وقد شكرتني كثيرًا وقالت باركك الله. كانت كاثوليكية، وتسافر مـــع طفـــلي ابنـــتها اللذين بقيا بعـــد أن هـــاجرت العائلـــة؛ والآن كانـــت تأخذهما إلى مونتريال، بعد أن دفع زوج ابنتها تكاليف الرحلة؛ وســـاعدتها

فى العناية بالطفلين. وفيما بعد شعرت بأن ذلك كان شيئًا طيبًا. فالخبز المقسوم فوق المياه يعود إليك عشرة أضعاف، أنا واثقة أنك سمعت ذلك كثيرًا يا سيدى.

وعندما قيل لنا أنه يمكننا أن نغسل ثيابنا، لأن الجو كان صافيًا، والريح جافة وطيبة ــ وكنا فى أشد الحاجة لذلك بسبب كل حالات الغثيان ــ صنعت غطاء لملابسها كما فعلت لملابسنا. لم يكن الأمر غسيلاً حقًا، فكل ما كان يمكننا استخدامه دلاء من مياه البحر قدمت لنا، ولكنها كانت كافية للتخلص من أسوأ القاذورات على الأقل، رغم أن الملابس بعد ذلك كانت لها رائحة الملح.

وبعد عشرة أيام فى عرض البحر، هاجمتنا عاصفة هوجاء، وتقاذفت الأمواج السفينة كما لو كانت سدادة من الفلين فى حوض الغسيل، وأصبحت الصلوات أشد حرارة، والصرخات أشد عنفًا. ولم يكن ثمة مجال لأى طبيخ. وفى الليل كان النوم مستحيلاً، فقد تنجرف من فوق السرير إن لم تتمسك جيدًا. وأرسل الكابتن الضابط الأول ليطلب منا الهدوء، فهى مجرد نوة عادية ولا شيء يمكن فعله، كما أنها تقذف بنا فى الاتجاه الذى نريده. لكن المياه كانت تتسرب إلى فتحات الأرضية، ومن ثم فقد أغلقوها؛ وأصبحنا جميعًا محبوسين فى العنبر المظلم والهواء أقل حتى مما كان لدينا من قبل، وفكرت أننا جميعًا سوف نختنق. ولكن لابد أن الكابتن كان يعرف ذلك، لأن الفتحات كانت تفتح من وقت لآخر. وأصيب الذين يجلسون بقرب الفتحات ببلل شديد، وجاء دورهم ليدفعوا ثمن كمية أفضل من الهواء تمتعوا بها قبل ذلك.

انتهت النوة بعد يومين، وأقام البروتستانت صلاة شكر عامة، وكان هناك كاهن على السفينة تلا صلاة للكاثوليك؛ وكان من المستحيل تجنب حضور الصلاتين، إذا صح هذا، بسبب حالة التكدس؛ ولكن أحدًا لم يعترض على ذلك؛ فكما قلت، تعامل الناس بقدر من التسامح أكثر مما كانوا يفعلون على الأرض. أنا نفسى كنت أتعامل بود شديد مع السيدة فيلان العجوز، وكانت أكثر نشاطًا فى حركتها فى ذلك الوقت من أمى التى استمرت فى حالة ضعف.

بعد النوة، أصبح الجو أكثر برودة. وبدأنا نرى الضباب، ثم قطعًا طافية من الثلج، والتى قيل أنها أكثر من المعتاد فى هذا الوقت من العام، وصرنا نتحرك ببطء خوفًا من أن نصطدم بها؛ فقد ذكر البحارة أن الجزء الأكبر منها يختفى تحت المياه. ومن حسن الحظ أنه لم يكن ثمة رياح شديدة، وإلا اصطدمت المركب بواحد منها، وتحطمت؛ لكننى لم أتعب أبدًا من النظر إليها. كانت جبالاً عظيمة من الجليد، ولها قمم وذُرا، بيضاء لامعة عندما يقع عليها ضوء الشمس، وفى مركزها أضواء زرقاء؛ وفكرت أن هذا لابد أن يكون الشىء الذى صنعت منه جدران السماء، ولكن لابد أنها أكثر دفئًا.

وفى هذا الوقت، والمركب تتهادى وسط قطع الثلج الطافية، وقعت أمى فريسة مرض شديد. كانت ترقد فى فراشها معظم الوقت بسبب دوار البحر، ولم تأكل إلا البسكويت والمياه وقليلاً من العصيدة المصنوعة من الشعير. ولم يكن أبى أفضل كثيرًا، وإذا كنا نحكم على قدر التأوهات، فقد كان أسوأ حالاً؛ وكان كل شىء فى حالة مؤسفة، ففى فترة العاصفة لم نكن نستطيع الغسيل أو تهوية الفرش. ولذا فلم ألاحظ فى البداية الحالة السيئة التى أصبحت عليها أمى. لكنها قالت أنها تعانى من صداع عنيف

حتى أنها لا تستطيع الرؤية تقريبًا، وأحضرت أقمشة مبللة ووضعتها على رأسها، ووجدت أنها تعانى من الحمى. ثم بدأت تشتكى من آلام شديدة فى بطنها. وضعت يدى عليها. كان هناك تورم متحجر. فكرت أنه ربما كان لديها فم صغير آخر لنطعمه رغم أننى لم أعرف كيف حدث ذلك بهذه السرعة.

من ثم، فقد أخبرت السيدة فيلان التى قالت لى أنها قامت بالتوليد ست عشرة مرة، منها تسع مرات لنفسها؛ وجاءت على الفور، وتحسست الشيء، وهى تتخس وتزغد، وصرخت أمى؛ وقالت السيدة فيلان أننى يجب أن أرسل لطبيب السفينة. ولم أكن أحب ذلك، لأن الكابتن قال أنه يجب ألا نزعجه على توافه؛ لكن السيدة فيلان قالت أن هذا لم يكن شيئًا تافهًا، وأنه لا يوجد طفل أيضًا.

سألت أبى، لكنه قال أن لى أن أفعل ما يعجبنى بحق الشيطان، فهو مريض لدرجة أنه لا يستطيع التفكير فى الأمر؛ وأخيرًا أرسلت إلى الطبيب. لكنه لم يأت، وكانت حالة أمى تسوء ساعة بساعة. وفى هذا الوقت، كانت قد أصبحت غير قادرة على الكلام تقريبًا، اللهم إلا كلمات لا معنى لها.

قالت السيدة فيلان أن هذا عار، وأنها لو كانت بقرة لاهتموا بها أكثر من ذلك، وقالت أن أفضل طريقة لإحضار الطبيب هى أن نقول أنه قد يكون التيفوس أو الكوليرا، فلا شيء على الأرض يخافه البحارة أكثر من هذين المرضين. وفعلت ذلك، وجاء الطبيب فورًا.

ولكن ذلك الطبيب لم يكن أكثر فائدة ـــ ومعذرة يا سيدى ـــ من صياح الديك، كما كانت مارى هويتنى تقول، لأنه بعد أن جس الطبيب

نبضها وتحسس جبينها، وسأل أسئلة لم يكن ثمة إجابة عليها، كان كل ما قاله هو أن الحالة ليست كوليرا، ولم أكن بحاجة لمعرفة ذلك، فقد اختلقت الأمر بنفسي. أما ماذا كانت تعاني، فلم يكن يعرف بالضبط؛ الأرجح أنه ورم، أو حويصلة، أو ربما انفجار الزائدة الدودية؛ وأنه سيعطيها شيئًا مخففا للآلام، وقد فعل ذلك فعلاً. وأظن أنه كان مستحضرا قويًّا، من الأفيون، وجرعة كبيرة منه بكل تأكيد، لأن أمي سرعان ما هدأت، ولا شك أن هذا كان هدفه. قال أننا ليس أمامنا إلا الأمل في أن تتخطى الأزمة؛ لكن لم يكن من سبيل لتحديد المرض دون فتح بطنها، وهذا سوف يقتلها بكل تأكيد.

سألت إذا كان يمكن أن نحملها إلى ظهر المركب، للحصول على بعض الهواء، لكنه قال سوف يكون من الخطأ أن نحركها. ثم ذهب بأسرع ما يستطيع، وهو يلقي بملاحظة غير موجهة لشخص معين بأن الهواء ثقيل جدًّا، وأنه كاد يختنق. ولم أكن بحاجة إلى معرفة ذلك أيضًا.

ماتت أمي في تلك الليلة. وأتمنى لو كنت أستطيع أن أقول لك أنها رأت رؤيا ملائكية في النهاية، وأنها قالت لنا كلمات طيبة وهي على فراش الموت، كما يُقال في الكتب؛ لكن إذا كانت قد رأت أي رؤيا فقد احتفظت بها لنفسها، لأنها لم تقل كلمة واحدة عنها أو عن أي شيء آخر. أما أنا فقد وقعت نائمة، رغم أنني كنت أريد أن أظل مستيقظة لأرعاها، وعندما استيقظت في الصباح كانت ميتة كسمكة الماكريل، عيناها مفتوحتان ومحدقتان. ووضعت السيدة فيلان ذراعها حولي، ولفتني بشالها، وأعطتني شرابًا من زجاجة خمر كانت تحتفظ بها كدواء؛ وقالت أن البكاء يمكن أن يفيدني، وأنها على الأقل ارتاحت من المعاناة، وسوف تكون الآن في السماء مع القديسين المباركين، حتى رغم أنها من البروتستانت.

قالت السيدة فيلان أيضًا أننا لم نفتح نافذة لتخرج الروح منها، كما هى العادة؛ لكن ربما لن يؤخذ ذلك على أمى المسكينة، لأنه لا توجد نوافذ أصلاً فى قاع السفينة، ومن ثم لا شىء يمكن فتحه. ولم أسمع فى حياتى عن مثل هذه العادة.

لم أبك. شعرت كما لو كنت أنا من مات وليس أمى؛ وجلست كما لو أصبت بشلل، ولم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل بعد ذلك. لكن السيدة فيلان قالت أننا لا يمكن أن نتركها راقدة هناك، وسألتنى إن كان عندى ملاءة بيضاء لتكفينها. وهنا بدأت أشعر بقلق طاغ، لأنه لم يكن لدينا سوى ثلاث ملاءات. كانت اثنتان منها قديمتين وبليتا من الوسط، فتم قصهما وقلبهما، وهناك الملاءة الجديدة التى أعطتها لنا خالتى بولين؛ ولم أعرف أيها أستخدم. بدا أنه من غير اللائق أن نستخدم ملاءة قديمة، ولكن إذا استخدمنا الجديدة فسوف يكون نوعًا من التبديد بالنسبة للأحياء. وتركز كل حزنى، إذا صح التعبير، على موضوع الملاءات. وأخيرًا سألت نفسى ماذا كانت أمى تفضل، وما دامت عاشت تضع نفسها فى المقام الثانى، قررت أن أستخدم الملاءة القديمة، وقد كانت على الأقل نظيفة نوعًا.

وإذ تم إخطار الكابتن، جاء بحاران لحمل أمى إلى سطح المركب؛ وجاءت السيدة فيلان معى، وأعددناها وأغلقنا عينيها وأسدلنا شعرها الجميل، لأن السيدة فيلان قالت أن الجسد لا يجب أن يدفن بشعر معقوص. وتركتها فى نفس الثياب التى كانت تلبسها، ما عدا الحذاء. احتفظت بحذائها وشالها أيضًا، فلن تكون بحاجة إليهما. كانت تبدو شاحبة وواهنة، مثل زهرة ربيعية، ووقف الأطفال يبكون؛ وجعلت كلاً منهم يقبلها على جبينها، وهو ما كنت لأفعله لو كنت أشك أنها ماتت من مرض معدٍ. وقام أحد البحارة، الذى كان خبيرا بهذه الأشياء، بلف الملاءة حولها جيدًا،

وربطها بقوة فى سلسلة حديدية قديمة عند قدمها؛ لجعلها تغرق. وقد نسيت أن أقص خصلة من شعرها لأحتفظ بها، وهو ما كان يجب أن أفعله، لكننى لم أتذكر ذلك وسط اضطرابى.

وما أن غُطى وجهها بالملاءة، انتابتنى فكرة أنها لم تكن أمى الموجودة تحتها حقًا، بل امرأة أخرى؛ أو أن أمى قد تغيرت، وأننى إذا كشفت الملاءة عنها الآن، فسوف تكون شخصًا آخر تمامًا. ولابد أن صدمة هذه الأحداث هى التى جلبت مثل هذه الأفكار إلى رأسى. ومن حسن الحظ أنه كان هناك قس أنجليكانى على المركب، وكان يقوم بالتصليب فى إحدى الكبائن، وهو نفس القس الذى أقام صلاة الشكر بعد النوة؛ وقرأ صلاة قصيرة، واستطاع أبى أن يصعد السلم من العنبر، ووقف هناك ورأسه محنية، وبدا فى حالة سيئة وغير حليق الذقن، ولكنه كان موجودًا على الأقل. ثم أنزلت أمى المسكينة، وقطع الثلج طافية حولنا، والضباب يلفنا، إلى البحر. لم يكن لدىّ فكرة أين ستذهب حتى هذه اللحظة، وكان إحساسى مريعًا، أن أراها تغوص لأسفل فى ملاءة بيضاء بين كل الأسماك المحدقة. كان هذا أسوأ من الدفن فى الأرض، لأننا، عندما يُدفن الناس فى الأرض، نعرف على الأقل أين ذهبوا.

انتهى كل شىء بهذه السرعة، ومضى اليوم التالى كما مضت الأيام السابقة، ولكن فقط بدون أمى.

فى تلك الليلة، أخذت إحدى الليمونات وقطعتها، وجعلت كل واحد من الأطفال يأكل جزءًا منها، وأكلت قطعة منها أنا أيضًا. كانت شديدة الحمضية حتى أنك تشعر بأنها لابد أن تفيدك بشىء. وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى استطعت أن أفكر فى فعله.

والآن، لم يبق إلا شيء واحد أخبرك به عن هذه الرحلة. عندما هدأ البحر تمامًا، وتوقفت الرياح، ووسط أكثر الضباب كثافة، وقعت السلة الخوص ومعها براد الخالة بولين على الأرض، وانكسر البراد. وقد ظلت السلة مكانها طوال العاصفة، طوال التأرجح والتخبط؛ مربوطة في عمود السرير.

قالت السيدة فيلان أنها ولابد قد فُكّت، وأن أحدًا كان يحاول سرقتها ولكنه توقف عندما وجد نفسه معرضًا لأن يراه أحد، وأنها لم تكن أول شيء يسرق بهذه الطريقة. لكنى لم أفكر فى ذلك. لقد فكرت أنها كانت روح أمى، محبوسة فى قاع السفينة لأننا لم نستطع أن نفتح نافذة، وأنها غاضبة منى بسبب الملاءة. والآن، ربما تظل محبوسة هنا إلى الأبد، أسفل السطح فى محبس، مثل فراشة فى زجاجة، تبحر ذهابًا وإيابًا عبر المحيط المظلم الكئيب، مع المهاجرين فى الذهاب، ومع ألواح الخشب فى العودة. وجعلتنى تلك الفكرة أشعر بتعاسة شديدة.

كما ترى، كم من أفكار غريبة يمكن أن يفكر فيها المرء. لكننى، فى ذلك الوقت، لم أكن إلا فتاة صغيرة، وشديدة الجهل.

ـ ١٥ ـ

كان من حسن الحظ أن الريح لم تهدأ بعد ذلك أبـدًا، وإلا لنفـد الطعام والماء؛ لكن الريح عصفت وانقشع الضباب، وقالوا أننا قد عبرنـا نيوفاوندلاند بسلام، رغم أن هذه لم تمر بناظرى، ولم أكن واثقة هل هـى مدينة أم بلد؛ وسرعان ما وصلنا إلى نهر سان لورنس، رغم أننا لم نر أى أرض قبل وقت طويل. وعندما رأينا الأرض، نحو الجانب الشمالى مـن السفينة، كانت كلها صخورًا وأشجارًا، وبدت معتمة ومنيعـة، ولا تصـلح لسكنى الإنسان على الإطلاق؛ وكانت هناك أعداد هائلة من الطيور تصرخ كأرواح هائمة، وكنت آمل أننا لن نضطر للحياة فى مثل هذا المكان.

لكن، بعد بعض الوقت، بدأت المزارع والبيـوت تظهـر علـى الشاطئ، وبدت الأرض أكثر هدوءًا، أو أكثر ألفة كمـا يقولـون. وكـان مطلوبًا منا أن نقف عند جزيرة وأن يتم فحص الناس ضد الكـوليرا، فقـد حدث من قبل مرات عديدة أن جاءت إلى البلاد على ظهور السـفن؛ لكن ما حدث على سفينتنا من وفيات كان لأسباب أخرى ـ مات أربعة غيـر أمى، اثنان من سل الرئة، وواحد بالسكتة، وواحد قفز من فوق السـطح ـ ومن ثم سمح لنا بالمرور. وقد سنحت لى فرصة لتنظيف الأطفال جيدًا فى

مياه النهر، رغم أنها كانت شديدة البرودة ــ ولكننى على الأقل غسلت لهم وجوههم وأذرعهم، فقد كانوا فى أشد الحاجة لذلك.

وفى اليوم التالى، رأينا مدينة كوبيك، كانت تشرف على النهر من فوق سفح شديد الانحدار. كانت البيوت من الحجر، وكان هناك باعة متجولون عند المرفأ فى الميناء يبيعون بضائعهم، وأمكننى أن أشترى بعض البصل الطازج من بائعة منهم لم تكن تتكلم إلا الفرنسية، لكننا استطعنا أن نتم البيع بالعد على أصابعنا؛ وأعتقد أنها أعطتنى سعرًا أفضل بسبب الأطفال ووجوههم النحيفة. كنا فى أشد الحاجة لهذا البصل لدرجة أننا أكلناه نيئًا، كالتفاح، وهو ما سبب لنا غازات فيما بعد، لكننى لم أكن أعرف أن طعم البصل لذيذ إلى هذه الدرجة.

نزل بعض المسافرين من السفينة فى كوبيك، ليجربوا حظهم هناك، ولكننا واصلنا.

لا أستطيع تذكر شىء آخر يمكن ذكره عن باقى الرحلة. كانت مزيدًا من السفر، وأغلبها متعبًا، وأحيانًا كنا نسير على الأرض لتجنب التيارات النهرية السريعة، ثم ركبنا سفينة أخرى فى بحيرة أونتاريو، التى كانت أقرب إلى أن تكون بحرًا لا بحيرة. كانت هناك أسراب من الذباب الصغير القارص، وبعوض كبير كالفئران؛ وكنت أخشى أن يظل الأطفال يحكون جلودهم حتى الموت. كان والدنا فى حالة من الاكتئاب والحزن، وكثيرًا ما كان يقول أنه لا يعرف كيف سيدبر أموره بعد موت أمى. وفى تلك الأوقات كان أفضل شىء هو السكوت.

أخيرًا وصلنا إلى تورنتو، والتى كانت حيث قيل لنا أننا يمكن أن نحصل على أرض بلا ثمن. لم تكن المدينة فى حالة طيبة، رطبة

ومسطحة؛ وفى ذلك اليوم كانت تمطر، وكان هناك الكثير من العربات والناس يسرعون، وكميات كبيرة من الوحل، إلا فى الشوارع الرئيسية التى كانت معبدة. كان المطر ناعمًا ودافئًا، وكنا نشعر بالهواء كثيفًا كهواء المستنقع، كما لو كان زيتًا يلتصق بالبشرة، وهو ما عرفت فيما بعد أنه كان أمرًا عاديًا فى هذا الفصل من السنة، ويتسبب فى العديد من أمراض الصيف وحمياته. كان هناك بعض الإضاءة الغازية، ولكن ليست كثيرة كما فى بلفاست.

وبدا أن الناس خليط من أنواع كثيرة، كثير من الإسكتلنديين، وبعض الأيرلنديين، وبالطبع الإنجليز، وكثير من الأمريكيين، وقليل من الفرنسيين، والهنود الحمر، رغم أنهم لا يضعون ألبسة الريش؛ وبعض الألمان؛ ناس من جميع الألوان، وكان هذا شيئًا جديدًا تمامًا بالنسبة لى؛ ولا يمكن لك أن تعرف أبدًا أى لهجة أو لغة ستسمعها. كان بالمكان كثير من الحانات، وكثير من السكارى حول الميناء، بسبب البحارة، وكان كل شىء أشبه ببرج بابل.

لكننا لم نرى شيئًا من المدينة فى ذلك اليوم الأول، فقد كنا بحاجة للحصول على سقف يؤوينا بأقل تكلفة ممكنة. وضرب والدنا صحبة مع رجل من السفينة، وكان لديه بعض المعلومات؛ وتركنا مع بعض من مشروب التفاح، متكدسين مع صناديقنا فى غرفة من حانة كانت أكثر قذارة من حظيرة خنازير، وذهب ليحصل على مزيد من المعلومات.

عاد أبى فى الصباح، وقال لنا أنه وجد مكانًا للإيجار، ومن ثم ذهبنا إليه. كان إلى الشرق من الميناء، متفرعًا من شارع لوت، وفى خلفية بيت عاش أيامًا أفضل. كانت صاحبة البيت اسمها مسز بيرت، أرملة

محترمة كان زوجها بحريًّا، أو هكذا قالت لنا، لها وجه يتميز بالحمرة والاستدارة، ولها رائحة السمك المدخن؛ وكانت تكبر أبي ببضع سنوات. كانت تعيش في الجزء الأمامي من البيت الذى كان بحاجة شديدة للدهان. وسكنا في غرفتين تقعان في خلفية المبنى وتبدوان كمبنى خارجي. لم يكن ثمة قبو تحته، وأسعدنى أننا لم نكن في الشتاء، وإلا لعصفت الريح داخله. كانت الأرضيات من ألواح خشب عريضة، قريبة من الأرض للغاية، وكانت الخنافس وغيرها من المخلوقات الصغيرة يمكن أن تنفذ من خلال الشقوق فيما بينها، وبعد المطر كان الحال أسوأ، وفى صباح أحد الأيام وجدت دودة حية.

لم تكن الغرفتان مؤثثتين، لكن السيدة بيرت أعارتنا سريرين عليهما مرتبتان محشوتان بالقش إلى أن يتمكن أبى من الوقوف على قدميه مرة أخرى، كما قالت، بعد الظروف المؤلمة التى عاناها. كانت توجد طلمبة ماء خارج البيت فى الفناء؛ وأما بالنسبة للطعام، فقد كان يمكننا استخدام موقد حديدى، موجود فى الممشى الذى يصل بين جزأى البيت، ولم يكن موقد طهى بالفعل، وإنما كان يستخدم فى التسخين، ولكننى فعلت أقصى ما أستطيع معه، وبعد قليل من الصراع تعلمت كيف يعمل، واستطعت أن أجعله يغلى الأشياء. وكان هذا أول موقد حديدى أتعامل معه، ويمكنك أن تتخيل أنه كانت هناك لحظات من القلق، إذا تغاضينا عن الدخان. ولكن الوقود كان متوفرًا، فقد كانت البلاد كلها مغطاة بالأشجار، والتى كان الناس هناك يبذلون غاية جهدهم لقطعها وإخلاء الأراضى منها. كما كان هناك الكثير من بقايا الألواح المتبقية من الأبنية التى تقام، ويمكنك الحصول على هذه البقايا لقاء ابتسامة ومشقة حملها إلى المنزل.

ولكن يا سيدى، لم يكن هناك، فى الواقع، الكثير مما يمكن طبخه، فقد قال أبى أنه يريد أن يوفر بعض النقود التى معنا، حتى يعد نفسه بشكل لائق بمجرد أن تتوفر له الفرصة للبحث عن عمل؛ ومن ثم فقد كنا فى البداية نعيش غالبًا على العصيدة. لكن السيدة بيرت كان لديها عنزة فى حظيرة فى خلفية فنائها، وكانت تعطينا لبنًا طازجًا منها. وإذ كنا فى أواخر يونيو، كانت تعطينا أيضًا بعض البصل من حديقة مطبخها لقاء أن نلتقط الحشائش الغريبة من الزرع، وكان هناك الكثير من هذه الحشائش؛ وعندما كانت تصنع خبزًا كانت تصنع رغيفًا زائدًا لنا.

كانت تقول أنها تشعر بالأسف من أجلنا لأن أمنا ماتت. لم يكن لديها أطفال، فطفلها الوحيد مات بالكوليرا فى نفس الوقت الذى رحل فيه زوجها العزيز، وكانت تشتاق لصوت الأقدام الصغيرة، أو هكذا قالت لوالدنا. كانت تحدق فينا بحنين حزين، وتقول أننا حملان مساكين يتامى الأم، أو ملائكة صغار، رغم أننا كنا نرتدى أسمالاً، كما لم نكن ننعم بالنظافة التامة. وأعتقد أنها كانت تفكر فى الارتباط بأبى؛ فقد كان يظهر أفضل صفاته، ويعتنى بنفسه إلى حد ما؛ ومثل هذا الرجل، الذى ترمل حديثًا ولديه أطفال كثيرون هكذا، لابد أنه كان يبدو للسيدة بيرت مثل فاكهة على وشك السقوط من الشجرة.

واعتادت أن تدعوه إلى الجزء الأمامى من البيت لتواسيه؛ قالت أنه لا يعرف معنى فقد العزيز إلا أرملة مثلها، فهو أمر يهد الحيل، والمصاب به بحاجة إلى صديق حقيقى عطوف، صديق يمكنه مشاركته فى أحزانه؛ وأوحت أنها أفضل من يقوم بهذه المهمة، وربما كان عندها حق فى ذلك، فلم يكن هناك غيرها يحاول القيام بها.

أما بالنسبة لوالدنا، فقد رأى الإيحاء ولعب دوره فيه، وجعل يعيش كرجل نصف ذاهل، ومنديله على استعداد دائمًا؛ وقال أن قلبه قد تمزق وانتزع من جسده، وأنه لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بدون وجود حبيبته إلى جانبه، فهى الآن فى السماء، لأنها كانت أفضل كثيرًا من أن تعيش على هذه الأرض، وكل هذه الأفواه الصغيرة يجب أن يطعمها. كنت أسمعه يستمر فى هذا الموّال فى ردهة السيدة بيرت، فلم يكن الجدار الفاصل بين جزأى البيت سميكًا جدًّا، وإذا أسندت قدحًا إلى جدار، ووضعت أذنك على فوهته، فسوف تسمع أيضًا بشكل أفضل. وكان لدينا ثلاثة أقداح أعارتها لنا السيدة بيرت، وجربتها جميعًا بالدور، وسرعان ما وجدت أفضلها لهذا الغرض.

كنت أجد المسائل غاية فى الصعوبة عندما ماتت والدتنا، ولكنى حاولت أن أحتفظ برباطة جأشى طوال الوقت، وأن أستمر فى العمل؛ وكان سماع أبى يتباكى بهذه الطريقة كافيًا لقلب معدتى. وأعتقد أننى فى هذا الوقت فقط بدأت أكرهه بالفعل، خاصة عندما أتذكر كيف كان يعامل أمى فى حياتها، فلم يكن يعاملها أفضل مما لو كانت خرقة يمسح بها حذاءه. وكنت أعرف ــ ولكن مسز بيرت لم تكن تعرف ــ أن كل هذا تمثيل، وأنه كان يستغل مشاعرها لأنه كان متأخرًا فى دفع الإيجار، فقد أخذ نقود الإيجار إلى الحانة القريبة؛ ثم باع أكواب الصينى ذات الورود الخاصة بأمى، ورغم أننى رجوته أن يبقى فقط على البراد المكسور، إلا أنه باعه أيضًا، فقد قال أنه كسر شديد ولا يمكن إصلاحه. ولقى حذاء أمى نفس المصير؛ والملاءة الأفضل، ويا ليتنى استخدمتها فى دفن أمى المسكينة، يبدو أن هذا كان هو الفعل الأصوب.

كان يخرج من البيت متبخترًا كالديك، متظاهرًا بأنه ذاهب للبحث عن عمل، ولكنى كنت أعلم أين يقصد، كنت أعرف من رائحتــه عنــدما يعود. وكنت أراقبه يسير بخيلاء عبر الممشى، ويدس منديله فــى جيبــه؛ ولكن سرعان ما يئست السيدة بيرت وتخلت عن خطتها فى المواســـاة، ولم تعد هناك حفلات شاى فى الردهة، وتوقف إمــدادنا بــاللبن والخبــز، وطلبت إعادة أقداحها، ودفع الإيجار، وإلا طردتنا جميعًا، نحن وما نملك.

هنا بدأ أبى يخبرنى بأننى أصبحت الآن امرأة بالغة تقريبًا، وأننى كنت أقضى على ما فى البيت من أكل حتى لا يتبقى للآخرين شىء، وأنه آن الأوان لأن أخرج إلى العالم وأكسب عيشى، كما فعلت أختى قبل ذلك، رغم أنها لم ترسل أبدًا ما يكفى مما تكسبه، تلك القــذرة نــاكرة الجميــل. وعندما سألته من سيعتنى بالصغار، قال أنها أختى كاتى، التى تلينى. كانت فى التاسعة، أو تخطتها بنصف عام. ورأيت أنه لا حيلة لى.

لم تكن لدى أية فكرة عن كيفية العثور على عمل، لكننى ســألت السيدة بيرت، لأنها الوحيدة التى أعرفها فى المدينة. وكانت فى ذلك الوقت تريد التخلص منا، ومن يمكن أن يلومها؛ لكنها رأت بهذا أملاً فى ســرعة حدوث ذلك. كان لها صديقة تعــرف مــدبرة منــزل الســيدة ألــدرمان باركينسون، وسمعت أنهم يحتاجون إلى خادمة، فأخبرتنى أن أهندم نفسى، وأعارتنى غطاء رأس خاص بها، وأخذتنى بنفسها إلى هناك، وقدمتنى إلى مدبرة المنزل. وقالت أننى قوية الإرادة وعاملة مجدة ذات شخصية طيبة، وأنها تضمن ذلك بنفسها. ثم أخبرتها بأن أمى ماتت على السفينة ودفنــت فى البحر، ووافقت مدبرة المنزل على أن ذلك صعب، ونظرت إلى بتدقيق أكبر. ولاحظت أنه ليس هناك ما يساعد على وضع قدمك فى مكان مثــل الحديث عن الموت.

كانت مدبرة المنزل اسمها مسز هنى، لكن حلاوتها لم تزد عن اسمها، فقد كانت امرأة شديدة النحافة وكان أنفها مدببًا مثل مقص فتيلة الشمعة. وكانت تبدو وكأنها عاشت على كسر الخبز البائت وما يتبقى من قلامة الجبن، وهو ما أرجح أنها فعلته فى حياتها، فقد كانت سيدة إنجليزية محترمة، اضطرت للعمل كمدبرة منزل عندما مات زوجها وانقطعت وحدها فى هذا البلد، ولم تكن تملك نقودًا خاصة بها. أخبرتها مسز بيرت أننى فى الثالثة عشرة، ولم أناقضها فى ذلك ــ فقد حذرتنى قبل ذلك بأن هذا سيجعل لى فرصة أكبر فى العمل؛ ولم تكن كذبة بالمعنى، حيث أننى سوف أبلغ الثالثة عشرة فعلاً فى خلال شهر.

نظرت مسز هنى إلى بفم مزموم، وقالت أننى شديدة النحافة والهزال، وأنها تتمنى ألا أكون مصابة بأى مرض، وسألت ماذا كان سبب موت أمى، لكن مسز بيرت قالت أنه لم يكن مرضًا مُعديًا، وأننى فقط صغيرة الحجم بالنسبة لسنى فلم أصل لنموى الكامل بعد، وأننى مع ذلك قوية، وأنها رأتنى أحمل أكياسًا مليئة بالخشب بقوة كما لو كنت رجلاً.

أخذت مسز هنى هذا الكلام على علاته، وتنحنحت، وسألت إذا ما كنت سيئة الطباع، كما يكون أصحاب الشعر الأحمر فى الغالب، وقالت مسز بيرت أننى صاحبة أفضل طبع فى الدنيا، وأننى تحملت كل المشاق برضا مسيحى مثل القديسين. وعلى ذكر ذلك سألت مسز هنى إذا كنت كاثوليكية، كما يكون الأيرلنديون عمومًا؛ وإذا كنت كذلك فلن تتعامل معى، فالكاثوليك يميلون إلى الإيمان بالخرافات، ومتمردون بابويون يدمرون البلاد؛ لكنها ارتاحت عندما عرفت أننى لست كاثوليكية. وسألت مسز هنى هل يمكننى أن أقوم بالحياكة، وقالت مسز بيرت أننى أستطيع الحياكة مثل الريح، وسألتنى مسز هنى مباشرة عن صحة ذلك؛ وتكلمت

عن نفسى، رغم أننى كنت عصبية، وقلت أننى كنت أساعد أمى فى عمل القمصان منذ سن صغيرة، وكان أفضل ما أفعله عراوى الزراير، وإصلاح الجوارب، وتذكرت أن أقول يا سيدتى.

وترددت مسز هنى قليلاً، وكأنما تدير عملية حسابية فى عقلها؛ ثم طلبت أن تنظر إلى يدىّ. ربما أرادت أن تعرف إذا ما كانت ستجد يدين عاملتين؛ ولكنها ما كانت تحتاج أن تتعب نفسها، فقد كانت يداى حمراوين خشنتين كما يجب أن يكون، وبدا عليها الرضا. وربما يتخيل الإنسان أنها تشترى حصانا، وأدهشنى أنها لم تطلب أن ترى أسنانى، ولكنى أظن أنك إذا كنت ستدفع أجرًا، فلابد أن تضمن الحصول على عمل جيد فى مقابله.

وفى النهاية كان لابد لمسز هنى أن تستشير مسز ألدرمان باركينسون، وأرسلت فى اليوم التالى بأن أحضر. وأن أجرى سيكون الإقامة والطعام ودولارًا واحدًا شهريًّا، وهو أقل أجر يمكن دفعه؛ لكن مسز بيرت قالت لى أنه يمكننى أن أطلب زيادة بمجرد أن أحصل على بعض التدريب وأنمو قليلاً. وكان الدولار يشترى فى ذلك الوقت أشياء أكثر مما هو اليوم. وبالنسبة لى، كنت سعيدة لأننى سأكسب نقودًا، وفكرت أنها ثروة.

وفكر أبى أننى يمكن أن أذهب بين البيتين وأنام فى البيت، الذى كان يدعوه حجرتينا الآيلتين للسقوط، وأستمر فى الاستيقاظ مبكرًا وأشعل الموقد المتوحش، وأغلى الماء، وفى نهاية اليوم أقوم بترتيب المنزل، وأغسل الثياب فوق البيعة، أى ثياب كنا نقدر على غسلها، فلم يكن هناك أى غلاية للثياب، كما يئست من مطالبة أبى بإنفاق نقود حتى على أسوأ

أنواع الصابون. لكن فى بيت مسز ألدرمان باركينسون أرادوا منى الإقامة؛ وأن أعود فى بداية الأسبوع.

ورغم أننى كنت آسفة لفراقى عن إخوتى وأخواتى، فقد شكرت الله لأننى مضطرة للابتعاد، لأننى لو لم أفعل، لوصلت الحال بينى وبين أبى إلى أسوأ الأحوال. فكلما كنت أكبر، كلما قلت قدرتى على إرضائه، وأنا نفسى فقدت كل إيمان الطفولة الطبيعى بالآباء، فقد كان يشرب ويحرم أطفاله من الخبز، وسرعان ما سوف يجبرنا على التسول أو السرقة، أو ما هو أسوأ. كما أن حالات غضبه عادت أقوى مما كانت قبل موت أمى. فذراعى بالفعل كانتا مليئتين بالرضوض، ثم في إحدى الليالى ألقى بى إلى الجدار، كما كان يفعل أحيانًا مع أمى، صارخًا بأننى قذرة وعاهرة، وأغمى علىّ؛ وبعد ذلك كنت أخشى أن يكسر عمودى الفقرى يومًا ويجعلنى عاجزة. ولكن بعد حالات الغضب هذه كان يستيقظ فى الصباح ويقول أنه لا يتذكر شيئًا مما حدث، وأنه لم يكن فى حالة طبيعية، وأنه لا يعرف ماذا حدث له.

ورغم أننى كنت أصبح متعبة لأقصى حد فى نهاية كل يوم، فقد كنت أستلقى مستيقظة في الليل، أفكر فى الأمر. كان من المستحيل معرفة متى يفقد أعصابه بهذه الطريقة ويبدأ فى الهياج والشغب، ويهدد بقتل هذا الشخص أو ذاك، وأطفاله أنفسهم من ضمن، لا لسبب واضح فيما عدا الشرب.

بدأت تنتابنى أفكار حول الحلة الحديدية، وكم هى ثقيلة؛ وإذا حدث أنها وقعت عليه وهو نائم، ربما تحطم رأسه، وتقتله، وسوف أقول أن الأمر مجرد حادث؛ ولم أكن أريد أن أنقاد إلى ارتكاب إثم بهذه

البشاعة، رغم أننى كنت أخشى أن يقودنى الغضب العنيف الذى يشتعل فى قلبى منه إلى مثل ذلك.

ومن ثم فقد استعددت للذهاب إلى منزل السيدة ألدرمان باركينسون، وشكرت الله لإخراجى من طريق الغواية، ودعوته أن يحفظنى فيما يأتى من أيام.

ودعتنى مسز بيرت وقبلتنى، وتمنت لى حظًا طيبًا. ورغم وجهها البدين الأبقع، ورائحة السمك المدخن التى تفوح منها، كنت سعيدة بذلك، لأنه فى هذا العالم يجب أن تغتنم فرصة أى مشاعر طيبة يمكنك أن تجدها، فهذه المشاعر لا تنمو على الأشجار. بكى الصغار وأنا ذاهبة، وهم يحملون لفافتى الصغيرة، والتى تحتوى شال أمى. وقلت أننى سوف أعود وأزورهم، وكنت أعنى ما أقول فى ذلك الوقت.

لم يكن أبى فى البيت عندما غادرته. وربما كان هذا أفضل، ويؤسفنى أن أقول أن الأرجح أنه لو كان موجودًا لتبادلنا اللعنات، رغم أنها ستكون فى صمت من جانبى. فمن الخطأ دائمًا أن ترد اللعنات علنًا على من هم أقوى منك، إلا إذا كان هناك سور يفصل بينك وبينهم.

ـ ١٦ ـ

من د. سايمون چوردان، عناية الميچور س. د. همفرى، شارع لوار يونيون، كينجستون، غرب كندا؛ إلى د. إدوارد مورتشى، دورشستر، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية.

١٥ مايو، ١٨٥٩.

عزيزى إدوارد

أكتب هذا على ضوء مصباح زيتى فى منتصف الليل، والذى طالما كنا نستضيء به فى هذا البيت اللعين شديد البرودة، وفى مثل برودة المنزل الذى كنا نستأجره فى لندن. ولكن سرعان ما سوف يصبح شديد الحرارة، وسوف تهاجمنا مشاكل الوخم وأمراض الصيف، وسوف أشتكى من هذه الأشياء عندما يأتى دورها.

أشكرك على رسالتك، وعلى الأخبار اللطيفة التى تحتويها. إذن فقد تقدمت لخطبة كورنيليا الجميلة، وتم قبولك! سوف تسامح صديقك القديم لأن ذلك لا يدهشنى على الإطلاق، فالموضوع كان مكتوبا بحروف كبيرة بين سطور رسائلك، ولم يكن القارئ بحاجة للكثير من الفطنة للتكهن به. أرجو أن تتقبل خالص تهنئتى. ومما أعرفه عن الآنسة رذرفورد، أجد أنك

محظوظ للغاية. وفى مثل هذه اللحظات، أشعر بالحسد لهؤلاء الذين وجدوا سرفأ يودعون قلوبهم لديه، أو ربما أحسدهم لأن لديهم قلوبًا تحتاج إلى مرفأ. فكثيرًا ما أشعر أننى أنا نفس ليس لى قلب، وأن مكانه لا يوجد إلا حجر على شكل القلب، ولهذا فقد قدر على أن "أهيم وحدى مثل سحابة"، على حد تعبير وردزوورث.

ومما لا شك فيه أن أخبار خطبتك ستنعش أمى العزيزة وتستحثها على مزيد من الجهود من أجل تزويجى؛ وليس لدى شك فى أنها ستستخدمك ضدى كلما سنحت الفرصة، كمثال أعلى فى استقامة الخلق، وكعصا تضربنى بها. حسنًا، لا شك فى أنها على حق. وإن عاجلاً أو آجلاً سوف ألقى بوساوسى جانبًا، وأطيع الأمر الإنجيلى "فأثمروا أنتم واكثروا وتوالدوا"(*). لابد أن أضع قلبى الحجرى فى عناية غادة طيبة لا تهتم كثيرًا بأنه ليس قلبًا حقيقيًّا من لحم ودم، وتعرف الطرق الضرورية للعناية به؛ لأن القلوب الحجرية تشتهر بأنها صعبة الإرضاء، كما أن مطالبها أكثر منها عند النوع الآخر من القلوب.

ورغم هذا العيب فى، فإن والدتى لا تتوقف عن تدبير المكائد الزواجية. وهى حاليًّا تتغنى بفضائل الآنسة فيث كارترايت، التى تذكر أنك قابلتها منذ سنوات عديدة أثناء إحدى زياراتك لنا. ومن المفترض أنها تحسنت كثيرًا بعد إقامة فى بوسطن، ووفقًا لمعلوماتى الخاصة — ولمعلوماتك أيضًا، يا عزيزتى إدوار، فأنت كنت معى فى دراستنا بهارفارد — لم يحدث أن كان لبوسطن أى تأثير حسن على أى شخص اخر؛ ومن الطريقة التى تترنم بها أمى أنشودة الفضائل الأخلاقية للسيدة

(*) التكوين، ٩:٧.

الشابة، أخشى أن التعديل لا يتناول نقائصها فى النواحى الأخرى. وبكل أسف، فهى نوع مختلف من الفتيات، لا ترقى إلى فيث النقية والجديرة بكل احترام، والتى يمكن أن تكون لديها المقدرة على تحويل صديقك القديم المستهتر إلى نموذج مثالى للمحب.

ولكن كفانى تذمرًا وتبرمًا. أنا سعيد من قلبى لك يا رفيقى العزيز، وسوف أرقص فى حفل عرسك بأعظم همة فى العالم، طبعا إذا كنت موجودًا بالقرب من المنطقة يوم زواجك.

كان كرمًا كبيرًا منك ــ فى وسط انشغالك بأفراحك ــ أن تسأل عن مدى تقدمى مع جريس ماركس. وليس لدى الكثير من الأخبار، فالطرائق التى أتبعها تدريجية وتراكمية فى تأثيرها، ولا أتوقع نتائج سريعة. إن هدفى هو إيقاظ ذلك الجزء النائم فى عقلها، أن أسبر غور عتبة الوعى لديها، وأن أكتشف الذكريات التى بالضرورة ترقد مدفونة هناك. إننى أقترب من عقلها وكأنه صندوق مغلق علىّ أن أجد له المفتاح الصحيح؛ ولكن يجب أن أعترف أننى حتى الآن لم أقترب كثيرًا من هذا المفتاح.

وكان من الممكن أن يفيدنى كثيرًا أن أجدها مجنونة حقًا، أو على الأقل أكثر جنونًا مما تبدو عليه، ولكنها حتى الآن أظهرت رباطة جأش تحسدها عليها أرقى السيدات. فلم أعرف أبدًا امرأة معتدة بنفسها إلى هذه الدرجة. وفيما عدا الحادث العرضى الذى جرى وقت وصولى إلى هنا ــ والذى تأخرت بكل أسف عن مشاهدته ــ لم يحدث لها أى انفجار عصبى. صوتها خفيض ومنغم، وأكثر تهذيبًا وصقلاً مما هو معتاد مع الخادمات ــ وهو أمر لابد أنها تعلمته من خدمتها الطويلة فى بيوت

السادة؛ وهى تحتفظ بوضوح بأثر من لهجة شمال أيرلندا التى لابد أنها جاءت بها، رغم أنها غير ملحوظة، فقد كانت مجرد طفلة عند قدومها، وقد قضت الآن أكثر من نصف عمرها فى هذه القارة.

إنها: "تجلس على حشية، وتدرز بغرزة جميلة"، هادئة رابطة الجأش، وبفم مزموم كأى حاكمة، وأضطر إلى الانحناء مستندًا على كوعى على المنضدة أمامها، أقدح زناد فكرى، وأحاول بلا فائدة أن أفتح دواخلها النفسية المغلقة كالمحارة. ورغم أنها تتحدث بطريقة تبدو صريحة للغاية، فإنها تقدر على أن تخبرنى أقل ما يمكن، أو أقل ما يمكن مما أريد أن أعرفه؛ رغم أننى تمكنت من التحقق من كثير من المعلومات عن حالة عائلتها فى فترة طفولتها، وعنها وهى تعبر المحيط الأطلنطى كمهاجرة؛ ولكن لا شىء من ذلك بعيد عن العادى ـ ليس إلا الفقر العادى والمصاعب، إلى آخره. إن من يعتقدون فى أن الجنون ينتقل بالوراثة ربما تريحهم حقيقة أن أباها كان سكيرًا، وربما كان مجرمًا ارتكب جريمة حرق أحد البيوت أيضًا؛ ولكن رغم النظريات الكثيرة المناقضة، فأنا لا أقتنع إطلاقًا أن مثل هذه الاتجاهات وراثية بالضرورة.

أما بالنسبة لى، لولا الافتتان بما تقدمه لى حالتها، فإننى يمكن أن أجن أنا نفسى من الملل المطلق؛ فالمجتمع هنا ضيق للغاية، ولا أحد يشاركنى أحلامى واهتماماتى، فيما عدا رجل يسمى د. دو بونت، وهو الاستثناء الوحيد الممكن. وهو زائر هنا مثلى؛ ولكنه شخص متعصب لبريد، الطبيب الأسكتلندى المعتوه غريب الأطوار، وهو نفسه شخص غريب للغاية. أما بالنسبة للمتع والترويح عن النفس، فلا يمكن الحصول إلا على القليل منها، وقد قررت أن أسأل صاحبة البيت إذا كان من الممكن أن أحرث حديقتها الخلفية ـ والتى أهملت ووصلت إلى حالة محزنة ـ

وأزرع بعض الكرنب وما إلى ذلك، لمجرد التسلية والحركة. وها أنت ترى ما أنا منساق إليه، أنا الذى لم أرفع مجرفة فى حياتى من قبل!

الوقت تعدى منتصف الليل الآن، ولابد أن أنهى رسالتى إليك وأذهب وحيدًا إلى فراشى البارد. أرسل لك أحلى أمنياتى، وأتمنى أن تعيش حياة أكثر إثمارًا، وأقل ارتباكًا.

صديقك القديم

سايمون

الفصل السادس

درج الأسرار

الهيستريا: تحدث هذه النوبات، في أغلب الأحوال، للنساء الشابات العصبيات غير المتزوجات ... والنساء الشابات المعرضات لهذه النوبات، عرضة للظن بأنهن يعانين من "كل الأمراض التي يرثها الإنسان"؛ وتتشابه الأعراض الزائفة التي تبدو عليهن مع الأعراض الحقيقية إلى أبعد الحدود، حتى أنه من الصعب للغاية أن نعرف الفرق. والنوبات نفسها غالبًا ما يسبقها هبوط كبير في الروح المعنوية، وبكاء بدموع غزيرة، وغثيان، وخفقان القلب، وما إلى ذلك... ثم تفقد المريضة الوعي ويغمى عليها، ويرتمي الجسد ممددًا في جميع الاتجاهات، ويتدفق الزبد من الفم، وتنطق المريضة بعبارات غير مفهومة، وتحدث نوبات من الضحك، أو البكاء، أو الصراخ. وعندما تبدأ النوبة في الزوال، تبكي المريضة في الغالب بكاء مريرًا، وأحيانًا تكون على علم بكل ما حدث، وأحيانًا أخرى لا تعرف شيئًا مما حدث.

إيزابيلا بيتون،

***Beeton's Book of Household Management,* 1859-61**

سوف يسمعها قلبى وتتعالى دقاته
حتى لو كان ترابًا على فراش من التراب،
سوف يسمعها ترابى، ويخفق،
هل رقدت ميتًا منذ قرن مضى؛
هل يمكن أن أنتفض، وأن أرتعش تحت قدميها،
وأزهر بألوان حمراء وأرجوانية.

ألفريد، لورد تنيسون،
Maud, 1855

ـ ١٧ ـ

في الحلم يرى سايمون ممرًا. إنه ذلك الممشى فى سقيفة منزلـــه، منزله القديم، منزل طفولته؛ ذلك المنزل الكبير الذى كانوا يملكونـــه قبـــل إفلاس أبيه ووفاته. كانت الخادمات ينمن هنا. كان عالمًا سريًّا، عالمًا لـــم يكن من المفترض عليه كصبى أن يستكشفه، لكنه فعل، كان يزحـــف فـــى صمت كجاسوس وقدماه عاريتان إلا من الجورب. يتسمع مـــن الأبـــواب نصف المفتوحة. ماذا كانت تقول الخادمات عنـــدما يســـاورهن الظن بأن لا أحد يستطيع سماعهن؟

عندما كان يشعر أنه فى غاية الشجاعة، كان يتجول فـــى هـــذه الغرفات، وهو يعلم أنهن فى الطابق السفلى. كان يفتش أشياءهن برعشـــة الإثارة، أشياءهن الممنوعة؛ كان يفتح الأدراج، ويلمس المشـــط الخشـــبى الذى كسرت منه سنتان، والشريط الملفوف بعناية؛ ويفتش فـــى الأركـــان، وخلف الباب: التنورة الداخلية المكرمشة، والجوارب القطنية، فردة واحدة. كان يلمسها ويشعر بها دافئة.

أما فى الحلم فكان الممشى هو، ولكنه أكبر. وكانـــت الجـــدران أطول، وأكثر اصفرارًا: تبرق وكأنما الشمس نفسها تسطع مـــن خلالهـــا. ولكن الأبواب كانت مغلقة، بل كانت أقفالها موصدة. حاول بابًا بعد بـــاب، يرفع المقبض ويدفع برفق، ولكن لا باب يستجيب. ورغم ذلك فهو يحـــس بأن ثمة أشخاصًا بالداخل، نساء، خادمات، جالسات على حواف أسِـــرَّتهن

الضيقة، فى قمصانهن الداخلية القطنية البيضاء، شعورهن مسدلة ومتماوجة على أكتافهن، وشفاههن مفترقة، وأعينهن تلمع. إنهن فى انتظاره.

ينفتح الباب الأخير، وداخله البحر. ويندفع إليه قبل أن يستطيع التوقف، وتغلق المياه فوق رأسه، ويخرج خيط من الفقاعات الهوائية منه. ويسمع فى أذنيه رنيناً، ضحكة ناعمة ومرتعشة؛ ثم أياد كثيرة تداعبه. إنهن الخادمات؛ لكنهن يستطعن السباحة. ولكن الآن بدأن يسبحن بعيدًا عنه، يتخلين عنه. يناديهن طالبًا النجدة، لكنهن ذهبن.

يتعلق بشىء، كرسى مكسور. الأمواج ترتفع وتنخفض. ورغم هذا الاضطراب ليس هناك ريح، الهواء فى حالة صفاء تام. وتمر به، ولكن بعيدًا عن متناوله، وهناك أشياء كثيرة طافية: صينية فضية، زوج من الشمعدانات؛ مرآة، صندوق سعوط منقوش؛ ساعة ذهبية، وهى تسبب ضوضاء بصريرها، أشبه بصرير صرصار الليل. أشياء كانت لأبيه، ولكنها بيعت بعد موته. ترتفع من الأعماق وكأنها فقاعات هوائية، ويزداد عددها؛ وعندما تصل إلى السطح تنقلب ببطء على ظهرها، مثل سمك منتفخ. ولا تبدو هذه الأشياء صلبة مثل المعدن، بل ناعمة؛ ويبدو أن لها بشرة زلقة، كجلد ثعبان البحر. يتفرج على كل هذا فى رعب، لأنها الآن تتجمع، وتتجاور مثنى مثنى، وتغير من شكلها، تنمو لها لوامس. يد ميتة. والده، فى عملية معقدة للعودة إلى الحياة. ولديه شعور طاغ بأن حرماته قد انتهكت.

يستيقظ. قلبه يدق بعنف؛ والملاءة والأغطية مبعثرة حوله، والوسائد على الأرض، وهو غارق فى العرق. وبعد أن رقد بهدوء لبعض

الوقت، يتأمل، يفكر أنه يفهم سلسة الصلات التى قادت إلى هذا الحلم. إنها قصة جريس، بما فيها من عبور للأطلنطى، ودفن فى البحـــر، وتفاصـــيل الأمور المنزلية؛ والأب المتغطرس، بالطبع، أب يستدعى أبًا آخر.

يعرف الوقت بالنظر إلى ساعة الجيب الموضوعة على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، لقد تأخر فى الاستيقاظ لأول مرة. ومن حسن الحظ أن إفطاره متأخر؛ لكن دورا الحريصة سوف تصل فى أية لحظـــة، وهو لا يريد أن تفاجئه وهو بثياب النوم، متلبسًا بالبلادة والكسل. أســـرع بلبس ثيابه، وجلس بسرعة إلى منضدة الكتابة، وأعطى ظهره للباب.

سوف يسجل الحلم الذى رآه توًّا فى دفتر اليوميات الذى يخصصه لهذه الأغراض. إحدى المدارس الفكريـــة مـــن الأخصـــائيين النفســـيين الفرنسيين توصى بتسجيل الأحلام كأداة تشخيصية، أحلام الأطباء بالإضافة إلى أحلام المرضى، من أجل المقارنة. وهم يعتبرون الأحلام، مثل المشى أثناء النوم، من تجليات الحياة الحيوانية التى استمرت فى اللاوعى، بعيـــدًا عن الأنظار، وبعيدًا عن متناول الإرادة. ربما تكون المشابك ــ المحاور، أو الأقطاب، إذا جاز التعبير ــ فى سلسلة الذاكرة، ربما تكمن هناك؟

لابد أن يعيد قراءة كتاب توماس براون عن التداعيات والإيحاء، وأيضًا نظرية هربرت عن عتبة الوعى، الخط الذى يفصل الأفكار التـــى تدرك فى ضوء النهار عن تلك الأفكار التى تكمن منسية فى الظلال السفلى من العقل. يعتبر مورو دى تورز أن الحلم هو مفتـــاح معرفـــة المـــرض العقلى، ويعتبر مين دى بيران أن الحياة التى نعيها هى مجرد جزيرة تطفو فوق بحر واسع للغاية من اللاوعى، وتســـتدعى الأفكار من هـــذا البحـــر

كما لو كانت سمكًا تصطاده. إن ما ندركه بصفته "المعروف" هو مجرد جزء ضئيل مما قد يكون مخزونًا في هذا المستودع المظلم. والذكريات الضائعة ترقد هناك مثل الكنز الغارق، وإذا أمكن استعادتها فلابد أن يحدث ذلك تدريجيًا، وفقدان الذاكرة نفسه قد يكون في الواقع نوعًا من الحلم ولكن مع انعكاس الوضع؛ فالتذكر هو الغارق، الغائص تحت ...

ينفتح الباب خلف ظهره: إن إفطاره يتفضل بالدخول. وبدأب، يغمس قلمه وكأنه بسبيله للكتابة. ينتظر ارتطام الصينية، وجلجلة الأواني الخزفية فوق الخشب، لكنه لا يسمع شيئًا.

يقول، دون أن يلتفت: "فقط اتركيه على المنضدة!"

ويسمع صوتًا كأنه هواء يندفع من منفاخ صغير، ويتلوه أصوات تحطم وأشياء تنكسر وتتناثر شظايا. كان أول ما فكر فيه سايمون أن دورا قذفته بالصينية ــ فقد أوحت لخياله دائمًا بأنها تنطوي على غيظ مكبوت وعنف إجرامي كامن. ويصرخ رغمًا عنه، وينتفض قائمًا، ويلتفت بسرعة. وإذا بصاحبة البيت، مسز همفري، ممددة بكامل طولها على الأرض وسط مجزرة من الأواني المكسورة والطعام المبعثر.

يسرع إليها، يركع إلى جوارها، ويقيس نبضها. لم تمت والحمد لله. يقلب أحد جفنيها، ويرى العين تحته بيضاء. يسرع بفك شريطي المريلة غير النظيفة التي تلبسها، والتي يعرف أنها ما كانت ترتديه دورا في هيئتها المهملة، ويفك الأزرار الأمامية لردائها، ملاحظًا أن هناك زرارًا ناقصًا، ومكانه لا تزال بقايا من الخيوط القصيرة. يفتش داخل طبقات ثيابها، وينجح في قطع أربطة المشد بسكين جيبه، فتنبعث رائحة من عطر

البنفسج، وأعشاب الخريف، وجسد ندى. إن هـذه المرأة محـملة بـأكثر مما كان يفترض، رغم أنها أبعد ما تكون عن البدانة أو الامتلاء.

يحملها إلى غرفة نومه ـ فالأريكة فى غرفة الجلوس صـغيرة جدًّا لهذا الغرض ـ ويمددها على فراشه، واضعًا وسـادة تحـت قـدميها ليندفع الدم إلى رأسها. ويفكر فى خلع حذائها ـ الذى لم ينل نظافة اليـوم بعد ـ لكنه يقرر أن هذا يمكن أن يكون نوعًا من الألفـة الزائـدة غيـر المستساغة.

إن لمسز همفرى كاحلين دقيقين، يحول بصره عنهما، ليقع علـى شعرها الذى تبعثر بسبب الوقوع. إنها تبدو فى هـذا الوضع أصغر سـنًا مما ظن؛ وبسبب هذا الإغماء، اختفى تعبير اللهفة المصطنع الذى تتكلفـه، فبدت أكثر جاذبية بكثير. يضع أذنه على صدرها، ويتسمع، القلب ينـبض نبضًا منتظمًا. إذن هى حالة إغماء بسيطة. يبلل طرف منشفة بالماء مـن الدورق ويضعه على وجهها ورقبتها. يختلج جفناها.

يملأ سايمون نصف كوب بالماء من زجاجـة علـى المنضـدة المجاورة لفراشه، ويضيف عشرين نقطة من سال فولاتيل ـ ملح طيار ـ علاج يحمله دائمًا معه فى زياراته بعد الظهر، تحسبًا لأى إغماء واهٍ مشابه من جريس ماركس، التى قيل له أنها معرضة للإغماء ـ ويحمل الكـوب إلى شفتيها وهو يسندها بذراعه الأخرى.

"اشربى هذا."

تزدرد بصعوبة، ثم ترفع يدًا إلى رأسها. يلاحظ الآن فقط وجود علامة حمراء على جانب وجهها. ربما يكون زوجها النذل متوحشًا إلى جانب إدمانه الخمر. رغم أن هذه تبدو أكثر شبهًا بصفعة قوية، ومن المؤكد أن رجلاً مثل الميجور سوف يلجأ لاستخدام قبضته. يشعر سايمون بموجة من الشفقة المفعمة بالرغبة فى الحماية تجاهها، شعور خارج عن مقدرته فى الواقع. فالمرأة هى صاحبة البيت، وفيما عدا ذلك فهى غريبة تمامًا عنه. وليست لديه أية رغبة فى تغيير هذه الحالة رغم الصورة التى تقفز إلى ذهنه ــ والتى بعثها ولا شك منظر السيدة وهى ممددة بلا حول ولا قوة على فراشه المبعثر، والتى لا يمكنها تعديله وهى لا تملك إلا نصف وعيها، ورغم دناءة المنظر الذى يتخيله ــ صورتها وذراعاها تتحركان بيأس، مشدها المخلوع وقميصها المفتوح عنوة، على حين أن قدميها ــ ويا للغرابة لا يزالان داخل الحذاء ــ تتخبطان فى تشنج، وتصدر عنها أصوات أنين خافت وهى تتعرض لهجوم شرس من شخص غليظ لا يشبهه فى أى شىء؛ إلا أن منظر ردائه الليلى المحشو الذى غطاها به، من أعلى ومن ظهره يبدو، من الوجهة التى ينظر منها إلى هذا المشهد، مطابقًا له.

طالما حيرته تجليات التخيل هذه وهو يراقبها فى نفسه. من أين تأتى؟ وإذا كانت تحدث له، فلابد أنها تحدث أيضًا عند معظم الرجال. وهو يعرف أنه طبيعى وعاقل، وقد تمكن من تطوير ملكات عقله إلى درجة عالية؛ لكنه لا يستطيع دائمًا التحكم فى مثل هذه الصور. ربما يكمن الفارق بين الرجل المتحضر والبربرى الغاشم ــ ولنقل شخص مجنون مثلاً ــ فى مجرد قشرة رقيقة من التحكم الإرادى فى كبح جماح النفس.

يقول لها بعطف: "إنك فى أمان تام. لقد وقعت، لابد أن تستريحى حتى تجدى نفسك أفضل حالاً."

تحدق حولها: "ولكن ــ أنا فى سرير."

"هذا سريرى، يا مسز همفرى. لقد اضطررت إلى حملك إليه حيث لا يوجد مكان آخر مناسب."

بدأت بشرة وجهها تحمر الآن. لاحظت أنها تتغطى بردائه الليلى. "لابد أن أرحل فى الحال من هنا."

"أرجو أن تتذكرى أننى طبيب، وأنت فى الوقت الحالى مريضتى. إذا حاولت القيام الآن، ربما يتكرر ما حدث."

"يتكرر؟"

لقد حدث لك انهيار، بينما كنت تحضرين" ــ يبدو أنه من غير اللائق ذكر ذلك ــ "صينية إفطارى. هل لى أن أسأل ماذا حدث لدورا؟"

وفجأة، بدأت تبكى، وهو ما أثار ذعره وإن لم يثر دهشته: "لم أستطع أن أدفع لها. كنت أدين لها بثلاثة أشهر من أجرها؛ وقد استطعت أن أبيع بعض... بعض الأشياء الشخصية، لكن زوجى أخذ النقود منى منذ يومين ولم يرجع من حينها. ولا أعرف أين ذهب". كانت تبذل مجهودًا واضحا للتحكم فى دموعها.

"وماذا حدث اليوم؟"

"لقد تبادلنا... كلمـــات. وأصررت أن أدفـــع لهـــا. قلت لها أننـــى لا أستطيع، وأن هذا من غير الممكن. فقالت أنه فى هذه الحالة سوف تأخذ أجرها بنفسها. وبدأت تفتش فى أدراج المكتب، أظن أنها كانت تبحث عن مجوهرات، ولما لم تجد شيئًا، قالت أنها سوف تأخذ خاتم زواجـــى. وهـــو خاتم ذهب ولكنه بسيط للغاية. حاولت أن أدافع عنه، لكنها قالت أننى غير أمينة. و... ضربتنى. ثم أخذته، وقالت أنها لن تكون جارية غير مدفوعة الأجر لى بعد ذلك أبدًا، وغادرت المنزل. بعد ذلك أعددت إفطارك بنفسى وصعدت به. ماذا يمكن أن أفعل غير ذلك؟"

إذن، لم يكن الزوج، فكر سايمون فى نفسه. إنها تلك الخنزيـــرة دورا. وتبدأ مسز همفرى فى البكاء ثانية، برقة، وبدون جهد، كما لو كانت التنهيدات نوعًا من زقزقة الطيور.

"لابد أن تكون لديك صديقة قريبة يمكنك اللجوء إليهـــا. أو، مـــن يمكن أستدعاؤه؟" يحاول سايمون تحويل حمل مسز همفرى من كتفيه إلـــى كتفى أحد غيره. النساء يساعدن بعضهن البعض، والاهتمام بالمصابين هو دائرتهن. إنهن قادرات على عمل الطعام والشاى والجيلى، وهن يصـــنعن شيلانًا مريحة. إنهن يربتن على الظهور ويطيبن الخواطر.

"ليس لى أصدقاء هنا. لقد جئنا إلى هذه المدينة حـــديثًا، بعـــد أن عانينا ... تعرضنا لبعض المصاعب المالية فى مقامنا الســـابق. وزوجـــى لا يشجع الزيارات. ولم يكن يريدنى أن أخرج."

ويفكر سايمون فى فكرة مفيدة: "لابد أن تـــأكلى شـــيئًا. ســـوف تشعرين بأنك أفضل."

هنا ابتسمت مسز همفرى ابتسامة واهنة. "لا يوجد شيء يؤكل في البيت يا د. چوردان. كان إفطارك هو آخر ما في البيت. أنا لم آكل منذ يومين، منذ ذهب زوجي. كان هنا القليل جدًا من الطعام، ودورا أكلت بعضه. أما أنا فلم أتناول إلا الماء."

وهكذا يجد سايمون نفسه في السوق، يشترى أشياء للعناية الصحية بصاحبة البيت الذى يسكن فيه، بنقوده هو. أصرت مسز همفرى أن يساعدها حتى تنزل السلم إلى قسم المنزل الخاص بها؛ قالت أنها لا تتحمل أن يجدها أحد في غرفة نوم المستأجر في حالة عودة زوجها. ولم يدهشه أن يجد غرفاتها خالية تقريبًا من الأثاث: كان كل ما تبقى في الردهة منضدة وكرسيين. لكن ما زال هناك سرير في غرفة النوم الخلفية، ووضع مسز همفرى عليه وهى في حالة من الإجهاد العصبى والجوع القاتل أيضًا، لا عجب أنها كانت بهذه النحافة. أدار عقله بعيدًا عن الفراش، وعن مشاهد البؤس الزوجى التى لابد أن تكون قد حدثت على مسرحه.

ثم عاد يصعد إلى شقته، يحمل دلوًا استطاع أن يجده بالمطبخ الذى كان في حالة من الفوضى الشديدة. نظف الأرضية من الإفطار المبعثر والأطباق المكسرة، ملاحظًا أن البيضة التى ضاعت الآن كانت مطهوة جيدًا.

ويفكر أن من المفروض أن يبلغ مسز همفرى بأنه مضطر إلى تغيير المسكن، وأن ذلك سيكون أمرًا مزعجًا؛ رغم أنه الإجراء الأفضل لمواجهة التدهور الذى سيصيب حياته وعمله، وهو الأمر الذى يمكن أن

يكون النتيجة الأكيدة إذا استمر فى المكان. فلا شك فى أن تسود الفوضى، والتشوش، وأن يفاجأ بأصحاب الكمبيالات آتين لأخذ الأثاث من الغرف التى يسكنها. ولكنه إذا رحل، فماذا سيحدث للمرأة المحطمة؟ إنه لا يريد تأنيب الضمير الذى سيصيبه إذا ماتت جوعًا على ناصية أحد الشوارع.

يشترى بعض البيض، واللحم والجبن، وبعض الزبد القذر من فلاحة فى أحد أكشاك السوق؛ واشترى من أحد الدكاكين شايًا ملفوفًا فى ورقة، كان يرغب فى شراء خبز، لكنه لم ير خبزًا. والواقع أنه لا يعرف كيف يتصرف فى هذه الأشياء. لقد سبق له زيارة السوق، ولكنها كانت مجرد زيارة عابرة لشراء الخضر التى كان يأمل فى استثارة ذاكرة جريس بها. والآن، هو هنا على أساس مختلف تمامًا. من أين يمكنه شراء لبن؟ لماذا لا يرى أى تفاح؟ هذا عالم لم يستكشفه أبدًا من قبل، فلم يكن به رغبة فى استكشاف المكان الذى يأتى طعامه منه، طالما كان الطعام يأتى على أية حال. كان المشترون الآخرون فى السوق من الخدم، يحملون سلال سيداتهم على أذرعهم؛ وهناك نساء من طبقات فقيرة يرتدين قلنسوات متراخية وشيلانًا متسخة. ويشعر أنهم يضحكون عليه من خلف ظهره.

وعندما يعود، يجد أن مسز همفرى قد قامت من فراشها. تجلس بجوار الموقد ـ من حسن الحظ أن الموقد مشتعل، فهو نفسه ما كان ليعرف كيف يشعله ـ وقد لفت نفسها ببطانية ومشطت شعرها، تفرك يديها معًا وترتعش. ينجح فى صنع بعض الشاى لها، ويقلى بعض البيض واللحم، ويسخن رغيفًا بائتًا وجده فى السوق فى النهاية. يأكلان ذلك سويًّا على المنضدة الوحيدة المتبقية. ويتمنى لو كان هناك بعض المربى.

"هذا كرم كبير منك، يا د. چوردان."

"لا تفكرى فى الأمر. ما كان يمكن أن أتركك تمـوتين جوعًـا".

يقول ذلك بصوت بدا أكثر عطفًا مما كان ينتوى؛ صوت عم بشوش وغير مخلص لا يكاد يصبر على الإنعام بالربع دولار الذى تنتظره ابنة أخ فقيرة ذليلة، يقرصها فى خدها ويسرع إلى سهرته فى الأوبرا. ويتعجب سايمون ماذا يفعل هذا الميچور همفرى الآن، ويلعنه فى سره، ويحسده. أيًّـا كـان الأمر، فلابد أنه الآن فى حال أكثر متعة مما هو فيه.

تتنهد مسز همفرى. "كنت أخشى أن تصل الأمور إلى هذا الحد. لقد وصلت إلى حد الإفلاس". إنها الآن هادئة تمامًا، وتنظـر بموضـوعية إلى حالتها. "لابد من دفع إيجار البيت، وليـس هنـاك نقـود. وسـرعان ما سيأتون كالطيور الجارحة يلتقطون الفتات، وسـوف أطرد من البيـت. بل قد يصل الأمر إلى اعتقالى مقابل الدين. الموت أفضل من هذا."

يقول سايمون: "لابد أن هناك شيئًا يمكنك فعله لتكسـبى بعـض المال". إنه معجب بمحاولتها التعلق بكرامتها.

تحدق فيه. عيناها، فى هذا الضوء، تكتسبان ظـلاً غريبًـا مـن خضرة البحر. "ماذا تقترح يا د. چوردان؟ أعمال إبـرة خياليـة؟ النسـاء اللاتى على شاكلتى ليس لديهن إلا مهارات ضئيلة يمكن أن يتكسبن منها". وثمة تلميح يحمل سخرية مريرة فى صوتها. هل كانت تعرف ما كان يفكر فيه وهى راقدة فاقدة لوعيها فوق فراشه غير المرتب؟

ويجد نفسه يقول: "سوف أعطيك شهرين من الإيجار مقدمًا". إنه غبى، أبله طيب القلب؛ إذا كان لديه أى عقل فإنه لابد أن يخرج من هنـا

وكأن الشيطان فى أعقابه. "أظن هذا سيكون كافيًا لإبعاد الذئاب، على الأقل حتى يكون لديك وقت للتفكير فيما يمكن عمله."

تمتلئ عيناها بالدموع. وبدون كلمة، ترفع يده من فوق المنضدة، وتضغطها برقة على شفتيها. ولم يكن لذلك من تأثير سوى بعض النـــداوة من أثر ما تبقى على فمها من الزبد الذى أكلته.

ـ ١٨ ـ

اليوم يبدو د. چوردان أقل عناية من المعتاد، كما لو كان هناك ما يشغل باله؛ ويبدو أنه لا يعرف بالضبط من أين يبدأ. ولذلك أستمر في تطريزى حتى يكون لديه الوقت لتجميع شتات نفسه؛ ثم إنه يقول لى: هل هذا غطاء جديد يا جريس؟

أقول: نعم يا سيدى، إنه نموذج صندوق باندورا،(*) أصنعه للآنسة ليديا.

ويجعله هذا يدخل فى حالة إرشادية، وأرى أنه بسببه لأن يعلمنى شيئًا، وهو أمر يغرم السادة بفعله. كان مستر كينير هكذا أيضًا. ويقول: وهل تعرفين من هى باندورا يا جريس؟

(*) باندورا، فى الأسطورة اليونانية، هى المرأة الأولى فى الخليقة، صنعها هيفايستوس، بأمر أبيه كبير الآلهة، زيوس، من طين وماء، وأمدتها أثينا بيد تجيد الحياكة، وأعطتها أفروديت الجمال والرقة، وملأها هيرميس بالشر والخداع ثم ساقها ليتزوجها إبيميثيوس رغم تحذير أخيه (بروميثيوس)، الذى كان قد أغضب زيوس بسرقة النار من السماء وإحضارها إلى البشر. وكانت باندورا قد أحضرت معها هدية الآلهة، وهى عبارة عن صندوق مُنعت من فتحه. ولكنها، بسبب فضولها، فتحت الصندوق، فتدافعت منه الأمراض والآثَام لتنتشر بين البشر. وسرعان ما أغلقت الصندوق لتحول دون خروج شىء واحد فقط، هو "الأمل".

أقول: نعم، كانت شخصية إغريقية من أيام زمان، ونظرت في صندوق قيل لها ألا تنظر فيه، وخرج من الصندوق الكثير من الأمراض، والحروب، والبلايا التي أصابت الناس؛ لقد تعلمت هذا منذ زمن، في منزل السيدة پاركينسون. وكان لماري هويتني رأى سيئ في القصة، قالت لماذا تركوا مثل هذا الصندوق عرضةً لأن ينظر فيه أي شخص، إذا كانوا لا يريدون فتحه.

ويدهشه أن يجدني أعرف هذا، ويقول: ولكن هل تعرفين ماذا كان في قاع الصندوق؟

أقول: نعم يا سيدى، كان الأمل. وهذه القصة يمكن أن توحي بنكتة تقول أن الأمل كان هو ما حصلت عليه عندما "'هرشت' قاع البرميل"، كما يقول البعض إذا اضطر شخص للزواج أخيرًا بعد يأس. أو يمكنك أن تقول أنه كان صندوق الأمل. ولكنها على أي حال، كلها حواديت؛ ومع ذلك فإن نموذج الغطاء جميل جدًّا.

يقول: حسناً، أظن أننا كلنا بحاجة لبعض الأمل من حين لآخر.

وكان على طرف لساني أن أقول أنني قد عشت لفترة من الزمن بدون الأمل، لكنني أحجمت عن هذا القول؛ ثم قلت إنك تبدو قلقاً اليوم يا سيدى، أرجو ألا تكون مريضًا.

ويبتسم تلك الابتسامة المائلة، ويقول إنه ليس مريضًا، ولكنه مشغول البال فقط؛ ولكن إذا واصلت حكاية قصتي، فسوف يساعده ذلك، فقد تنتزعه من متاعبه وقلقه؛ ولكنه لا يقول ماذا يمكن أن تكون هذه المتاعب.

وهكذا أستمر فى حكايتى.

أقول، الآن يا سيدى سوف أصل إلى جزء مــن قصــتى أكثــر سعادة؛ وفى هذا الجزء، سأحكى لك عن مارى هويتنى؛ وســوف تــدرك لماذا استعرت اسمها عندما كنت بحاجة إليه؛ لأنها ما كانت أبــدًا لتخــذل صديقًا فى وقت الحاجة، وكنت أتمنى أن أقف بجانبها أيضًا، عندما كانــت بحاجة إلى ذلك.

كان بيت مخدومى الجديد كبيرًا جدًّا، وكان معروفًا أنه من أجمل البيوت فى تورنتو. كان يقع على طريق الشاطئ، ويشرف على البحيــرة، فى منطقة كان يوجد بها العديد من البيوت الكبيرة الأخرى؛ وكان بمدخلــه رواق مقوَّس بأعمدة بيضاء. وكانت غرفة الطعام على شــكل بيضــاوى، وكذلك غرفة الاستقبال، وكان رائعًا للناظرين، رغم أنه معرّض لتيــارات الهواء. وكانت به مكتبة فى اتساع قاعة رقص، بها أرفــف ترتفــع إلــى السقف مليئة بكتب فى أغلفة جلدية، وبها من الكلمات أكثر مما يتمنــى أى إنسان أن يقرأ طوال حياته. وكانت غرف النوم بها أسرة ذات أعمدة يعلق عليها ناموسية للحماية من الذباب والناموس فى الصيف، ومناضد التزيين ذوات المرايا، وخزائن من الماهوجنى، وصناديق بالأدراج، كانت كاملــة من جميعه. وكانوا يتبعون كنيسة إنجلترا، كما كان الحال مع أرقى النــاس فى تلك الأيام، وأيضًا مثل من يريدون أن يكونوا الأرقى، حيث أنها كانت الكنيسة الرسمية.

كانت العائلة تتكون أولاً من مستر ألدرمان پاركينسون، الذى كان نادرًا ما يرى، فقد كان مشغولاً جدًّا بالأعمال والسياسة؛ وكان يبدو علــى

شكل تفاحة ركبت بها عصوان مكان الساقين. وكان لديه الكثير جدًّا من الساعات الذهبية ذوات السلاسل، والدبابيس الذهبية، وصناديق السعوط الذهبية، وغير ذلك من التحف الصغيرة، ولو أمكن أن نصهره لخرجت منه خمس قلائد ذهبية، بالإضافة إلى الأقراط. ثم مسز ألدرمان باركينسون، التى قالت مارى هويتنى أنه كان يجب أن تكون هى السيد، فقد كانت الأفضل. كانت شخصية امرأة تبعث على الاحترام والمهابة، وكان شكلها يختلف تمامًا بدون الكورسيهات التى ترتديها؛ ولكنها عندما كانت تربط نفسها جيدًا، كان صدرها ناتئًا تمامًا مثل رف يمكنها أن تحمل طاقم شاى كامل عليه، دون أن تقع منها قطرة واحدة. كانت من الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت أرملة ثرية قبل أن يستولى مستر ألدرمان باركينسون على عواطفها، كما قالت؛ والذى من المؤكد أنه كان فتى تتمناه جميع الفتيات، وقالت مارى هويتنى أيضًا كانت أعجوبة أن ينجو مستر ألدرمان باركينسون بحياته.

كان لديها صبيان بالغان يدرسان فى الجامعة فى الولايات المتحدة؛ وكلب من نوع الإسبانيل، اسمه بفيلينا، والذى كنت أعتبره أحد أفراد العائلة لأنه كان يعامل على هذا الأساس. وأنا فى العموم مغرمة بالحيوانات، ولكن هذا الكلب كان يأخذ مجهودًا منا.

ثم الخدم، وكانوا كثيرين؛ وبعضهم ذهب وجاء البعض الآخر وأنا هناك، ولذا فلن أذكرهم كلهم. هناك وصيفة مسز ألدرمان باركينسون، والتى كانت تدعى أنها فرنسية ولكننا كنا نشك فى ذلك، وكانت منغلقة على نفسها؛ وهناك مسز هنى مديرة البيت، التى كان لها غرفة كبيرة فى خلفية

الطابق الأرضى، وكذلك كان رئيس الخدم؛ أما الطاهية وعاملة المغسلة فكانتا تسكنان بجوار المطبخ. وكان البستانى وعمال الاسطبل يسكنون فى المبانى الخارجية، وكذلك كانت عاملتا المطبخ، بالقرب من الإسطبل مع الجياد والبقرات الثلاث، وكنت أذهب هناك أحيانًا للمساعدة فى حلب الأبقار.

وكنت أنا أسكن فى السقيفة العلوية، عند أعلى قمة السلم الخلفى، وكنت أشارك مارى هويتنى، التى كانت تعمل فى الغسيل، فى فراش واحد. لم تكن غرفتنا كبيرة، وكانت حارة فى الصيف وباردة فى الشتاء، حيث كانت تحت السقف مباشرة وبدون مدفأة أو موقد؛ وكان السرير مفروشًا بمرتبة محشوة بالقش، وكان يوجد صندوق صغير، وحامل حوض بسيط عليه حوض مكسور طرفه، ومبولة، كما كان يوجد مقعد مستقيم الظهر، مدهون بلون أخضر فاتح، وكنا نطوى ملابسنا ونضعها عليه فى الليل.

وفى الممر الذى أمامنا كانت عاملتا الغرف، أجنس وإيفى. كانت أجنس لها طبع دينى، رغم أنها كانت طيبة وتساعد الآخرين. وكانت فى شبابها قد استخدمت مستحضرًا طبيًّا يزيل اللون الأصفر من الأسنان، لكنه أزال اللون الأبيض أيضًا، وربما لهذا السبب كانت نادرًا ما تبتسم، وإذا ابتسمت، كانت تحرص على أن تظل شفتاها مغلقتين. كانت مارى هويتنى تقول إنها تصلى كثيرًا لأنها تدعو الله أن يعيد إليها بياض أسنانها، لكن لا نتيجة حتى الآن. أما إيفى فقد أصيبت باكتئاب شديد عندما نُفى حبيبها إلى أستراليا لأنه كان مشاركًا فى التمرد قبل ثلاث سنوات؛ وعندما

وصلتها رسالة تقول أنه مات هناك، حاولت أن تشنق نفسها بأربطة مريلتها؛ لكن الأربطة انقطعت، ووجدوها على الأرض نصف مختنقة وفاقدة لعقلها، وكان لابد من إبعادها.

لم أكن أعرف شيئًا عن التمرد، فلم أكن فى البلاد فى ذلك الوقت، لكن مارى هويتنى أخبرتنى بكل شيء عنه. كان هذا التمرد ضد علية القوم، الذين يديرون كل شيء، ويحتفظون بكل الأموال والأرض لأنفسهم؛ وكان بقيادة مستر ويليام ليون ماكنزى، الذى كان راديكاليًا، وبعد فشل التمرد هرب وسط الثلج والجليد متخفيًا فى ثياب امرأة، وعبر البحيرة إلى الولايات المتحدة، وكان من الممكن أن يوشى به عدة مرات، ولكن ذلك لم يحدث، لأنه كان رجلاً صالحًا يقف دائمًا إلى جوار الفلاحين العاديين؛ ولكن الكثير من الراديكاليين قبض عليهم ونفوا خارج البلاد أو شنقوا، وفقدوا أملاكهم؛ أو ذهبوا إلى الجنوب؛ وأغلب الذين بقوا هنا كانوا من المنتمين لحزب المحافظين البريطانى، أو قالوا أنهم كذلك؛ ولهذا كان الأفضل عدم الحديث فى السياسة إلا بين الأصدقاء.

قلت أننى لا أفهم شيئًا فى السياسة، وأن الأحسن ألا أفكر فى ذكرها على أية حال؛ وسألت مارى هل هى راديكالية. وقالت أننى لا يجب أن أخبر آل پاركينسون، الذين سمعوا حكاية مختلفة، والدها فقد مزرعته بهذه الطريقة بعد أن قام بمجهود كبير فى إخلائها من الأشجار وإعدادها للزراعة؛ وأنهم أحرقوا البيت الخشبى الذى بناه بيديه، وهو يطارد الدببة وغيرها من الحيوانات البرية، ثم فقد حياته أيضًا بسبب مرضه وهو يختبئ فى الغابات فى الشتاء، وأن أمها ماتت كمدًا، ولكن الدائرة ستدور عليهم

فى الوقت المناسب، وسيتم الانتقام منهم؛ وكانت تبدو فى حالة غضب عنيف وهى تقول هذا.

أسعدنى أن أكون مع مارى هويتنى، فقد أعجبت بها على الفور. كانت أصغر واحدة بعدى هناك، إذ كان عمرها ستة عشر؛ وكانت جميلة ومرحة، وذات شخصية متأنقة، ولها شعر أسود وعينان سوداوان لامعتان، ووجنتان ورديتان بهما غمازتان، وكانت تنبعث منها رائحة كرائحة جوزة الطيب أو زهور القرنفل. وقد سألتنى عن نفسى، وأخبرتها عن الرحلة على السفينة، وعن موت أمى وإغراقها فى البحر وسط قطع الثلج الطافية. وقالت مارى أن هذا محزن للغاية. ثم أخبرتها عن أبى، رغم أننى أخفيت عنها أسوأ الأشياء، لأنه ليس من الصواب أن يتحدث إنسان بشرٍّ عن أحد الوالدين؛ وقلت لها أننى أخشى أن يأخذ كل راتبى؛ فقالت أننى يجب ألا أعطيه نقودى، فهو لم يعمل من أجلها، وأنها لن تفيد إخوتى وأخواتى، فسوف ينفقها كلها على نفسه وغالبًا على الخمر. وقلت أننى خائفة منه، فقالت أنه لا يستطيع أن يصل إلىّ هنا، وإذا حاول، فسوت تتحدث مع چيم الذى يعمل فى الإسطبل، وكان شخصًا ضخمًا وله أصدقاء. وبدأت أشعر بارتياح أكبر.

قالت مارى أننى ربما أكون صغيرة جدًّا وجاهلة وغشيمة، لكن ذكائى لامع كلمعان قطعة نقد جديدة، وأن الفرق بين الغبى والجاهل هو أن الجاهل يمكن أن يتعلم. وقالت أننى أبدو عاملة جيدة يمكن أن أقوم بكل ما هو مطلوب منى، وأننا سوف نكون على وفاق معًا؛ وأنها عملت من قبل فى مكانين آخرين، وإذا كنت مضطرة لتأجير قوة عملك كخادمة،

فإن الأمر سيان عند آل باركينسون أو عند غيرهم، فهم لا يبخلون بالطعام. وكان هذا صحيحًا، فسرعان ما بدأ جسدى يمتلئ وينمو طولاً. كان الطعام يمكن الحصول عليه فى كندا أسهل مما كان عليه الحال فى الناحية الأخرى من المحيط، وكان هناك تنويعات أكبر منه؛ وحتى الخدم كانوا يأكلون كل يوم لحمًا، حتى ولو مجرد لحم خنزير مقدد أو مدخن؛ وكان يوجد خبز جيد، من القمح وأيضًا من الذرة الهندية؛ وكان للبيت ثلاث بقرات، وحديقة للمطبخ، وأشجار فاكهة، وفراولة، وأعناب، وأحواض زهور أيضًا.

كانت مارى هويتنى فتاة لطيفة وضاحكة، وشقية جدًّا، وجريئة فى ألفاظها عندما نكون وحدنا. أما مع الكبار والسادة فإن سلوكها كان يحمل الاحترام والاحتشام. ولهذا، ولأنها كانت سريعة الحركة فى شغلها، كانت مفضلة بشكل عام. لكنها من خلف ظهورهم كانت تنكت عليهم، وتقلد وجوههم ومشية كل منهم وأسلوبه. ودائمًا ما أصابتنى الدهشة من الكلمات التى تخرج من فمها، فكثير منها كانت كلمات شديدة الفظاظة، وليس السبب أننى لم أسمع أبدًا مثل تلك الألفاظ، فقد كان فى المنزل مخزون وفير منها عندما كان أبى يسكر، وعلى السفينة ونحن قادمون، وعند الميناء بالقرب من الحانات والفنادق الصغيرة؛ لكن ما أدهشنى هو سماعها من بنت، وشابة وجميلة كهذه، فتاة تلبس بهذه الأناقة والنظافة. ولكن سرعان ما اعتدت عليها، وأرجعتها إلى أنها كندية المولد، كما أنها لم تكن تحترم المقامات كثيرًا. وأحيانًا، عندما كنت أبدو مصدومة بكلماتها، كانت تقول أننى سرعان ما سوف أغنى ترانيم جنائزية مثل أجنس، وأسير بفمى وقد

تدلى كآبة فى وجه كالح، وظهر منحن مثل عانس عجوز؛ وكنت أعترض، لكن مثل هذه المناقشة كانت تنتهى ونحن نضحك.

ولكن كان يغضبها أن بعض النـــاس لـــديهم الكثيـــر جـــدًا، وأن الآخرين لديهم القليل جدًا، فلم تكن ترى أية حكمة إلهية فى ذلك. وكانـــت تدعى أن أمها كانت من الهنود الحمر، وأنها لهذا لديها شعر أسود حالـــك؛ وأنها لو كانت لديها أقل فرصة لهربت إلى الغابات، ولهامت حاملة قوسًـــا وسهامًا، ولن تضطر لتدبيس شعرها أو لبس المشدات؛ وأننى يمكننـــى أن آتى معها. وعندئذ نتوه فى تخطيط كيف سوف نختبئ فى الغابـــة، ونقفـــز على المسافرين، ونسلخ رؤوسهم، وهو أمر قرأت عنه فى الكتب؛ وقالـــت أنها تتمنى لو تسلخ رأس مسز الدرمان باركينسون، إلا أن هذا لا يســـتحق التعب، لأن شعرها لم يكن شعرها، فثمة لفائف وخصلات منه محفوظة فى غرفة ملابسها؛ وأنها ذات مرة شاهدت الوصيفة الفرنسية تمشـــط كميـــة كبيرة من هذه الخصلات، وظنت أنها كانت تمشط الكلب الإسبانيل. لكـــن هذا لم يكن إلا الطريقة التى تتكلم بها، ولم تكن تعنى أى ضرر.

أخذتنى مارى تحت جناحها من البداية. وسرعان ما خمنت أننى أصغر من السن الذى قلته، وأقسمت أنها لن تخبر أحدًا؛ ثم أخذت تنظـــر إلى ثيابى، وقالت أن معظمها صغير جدًا على مقاسى، وأفضل مكان له هو سلة النفايات، وأننى لن أتمكن من احتمال الشتاء بشال أمـــى وحـــده، لأن الريح سوف تتخلله كما لو كان غربالاً؛ وأنها ســـوف تســـاعدنى علـــى الحصول على الثياب التى أحتاج إليها، فقد أخبرتها مسز هنى أننى أشـــبه بغلام مهلل الثياب، وأنه لابد من مساعدتى على أن أظهر بمظهر لائـــق،

حيث أن مسز ألدرمان پاركينسون تهتم بسمعتها في المنطقة. ولكن لابد في البداية من فرك جسدى وتنظيفه مثل حبة البطاطس، فقد كنت شديدة القذارة.

وقالت أنها ستقترض من مسز هنى طست استحمام، ولكنى خشيت لأننى لم أستحم بهذه الطريقة من قبل، كما أننى كنت خائفة من مسز هنى؛ ولكن مارى قالت أنها تنبح ولا تعض، وعلى أية حال يمكن أن نسمعها وهى قادمة دائمًا، فهى تقعقع مثل عربة مليئة بالحلل القديمة بسبب ما تحمله من مفاتيح كثيرة؛ وإذا كان هناك أى اعتراض فسوف تهددها بتحميمى فى الخارج، عارية تمامًا، تحت الطلمبة فى الفناء الخلفى. وصدمنى ذلك، وقلت أننى لن أسمح بهذا؛ فقالت أنها بالطبع لن تفعل مثل ذلك أبدًا، لكن مجرد ذكر الأمر سوف يجعل مسز هنى توافق فورًا.

عادت سريعًا، وقالت أننا يمكن أن نحصل على طست الاستحمام بشرط أن نقوم بتنظيفه جيدًا بعد ذلك؛ وأخذناه إلى غرفة الغسيل، وقمنا بضخ الماء ووضعناه فوق الموقد ليدفأ، ثم صببناه فى الطست. وجعلتُ مارى تقف عند الباب وظهرها ناحيتى لتمنع دخول أى شخص، فلم أكن خلعت كل ثيابى مرة واحدة من قبل، رغم أننى احتفظت بقميصى الداخلى خجلاً. لم يكن الماء دافئًا بما يكفى، فعند نهاية حمامى كنت أرتعش بردًا، ومن حسن الحظ أننا كنا فى الصيف، وإلا لمت من البرد. قالت مارى أننى كان يجب أن أغسل شعرى أيضًا؛ وأضافت أنه رغم حقيقة أن كثرة غسل الشعر تسحب كل ما فى الجسد من قوة، وأنها كانت تعرف فتاة أغمى عليها وماتت من كثرة غسل شعرها، إلا أنه بحاجة للغسل كل ثلاثة

أو أربعة أشهر؛ ونظرت إلى رأسى، وقالت أنه على الأقل لا يوجد عندى أى قمل، ولكن إذا ظهر أى قمل فى رأسى لكنت فى حاجة إلـى وضـع كبريت وجاز، وأنها فعلت ذلك مرة وظلت رائحتها كرائحة البيض الفاسـد لأيام عديدة.

وأعارتنى مارى قميص نوم حتى يجف قميصى، لأنها غسلت كل ثيابى؛ ولفتنى فى ملاءة لكى أستطيع الخروج من غرفة الغسيل وأصـعد السلالم إلى الغرفة؛ وقالت أننى أبدو مضحكة، مثل امرأة مجنونة.

وطلبت مارى من مسز هنى أن تعطينى قرضًـا مـن أجـرى، لأشترى به ثوبًا لائقًا؛ وأخذنا إذنا بالخروج إلى المدينة فى اليـوم التـالى. وأعطتنا مسز هنى خطبة من المواعظ قبل أن نخرج، وقالت أننا يجب أن نتصرف بأدب، وأن نذهب ونعود مباشرة، ولا نتكلم مع أى غريب، خاصة الرجال؛ ووعدنا بأن نفعل كما قالت.

غير أننا، فى الواقع، سرنا نتسكع فى الطريق الطويـل، وأخـذنا نتأمل الزهور فى الحدائق المسيجة حول المنازل، وتلكأنا عند المحـلات، التى لم تكن بالكثرة أو الاتساع كما فى بلفـاست، رغم أننى لم أرَ هنـاك إلا القليل. ثم سألتنى مارى إذا ما كنت أود أن أرى الشارع الذى تعيش فيه العاهرات؛ وشعرت بالخوف، لكنها قالت أنه لا خطر هناك. وبالطبع كنت أشعر بفضول لرؤية النساء اللاتى يكسبن من بيع أجسادهن، لأننى كنـت أفكر أنه إذا وصلت الأحوال إلى الأسوأ، وإذا وصلت إلى الموت جوعًـا، ربما يكون لدى شىء لبيعه؛ وأردت أن أرى كيف كان شـكلهن. وهكـذا ذهبنا إلى شارع لومبارد، ولكن الوقت كان فى الصباح فلـم يكـن هنـاك

الكثير مما يستحق الرؤية. وقالت مارى أنه يوجد هناك عدة بيوت دعارة، رغم أنك لا تستطيع أن تعرفها من الخارج؛ لكن من الداخل قيل أنها رائعة، مفروشة بالسجاد التركى والثريات الكريستالية وستائر المخمل، وتعيش فيها العاهرات فى غرف نومهن، ومعهن خادمات لإحضار الإفطار لهن، وتنظيف الأرضيات وترتيب الأسِرَّة، وغسل الثياب، وكل ما عليهن هو لبس ثيابهن ثم خلعها مرة أخرى، والرقاد على ظهورهن، وهو عمل أسهل من العمل فى مناجم الفحم أو المصانع.

كانت العاهرات اللاتى فى هذه البيوت هن الطبقة الأعلى من العاهرات، والأغلى ثمنًا، والرجال كانوا من السادة، أو على الأقل زبائن يدفعون جيدًا. ولكن النوع الأرخص من العاهرات كن يتسكعن بالخارج، ويستخدمن غرفًا مؤجرة بالساعة؛ وكثير منهن يصبن بالأمراض، ويصلن إلى الشيخوخة فى سن العشرين، وبالتالى فهن مضطرات لتغطية وجوههن بالأصباغ، ليخدعن البحارة السكارى. ورغم ما يبدو عليهن من جمال المنظر على البعد، مرتديات الريش والساتان، فإنه يمكنك عن قرب أن ترى أن ثيابهن متسخة ولا تناسبهن، فكل قطعة يرتدينها مؤجرة باليوم، ونادرًا ما يبقى لهن ما يكفى لشراء الخبز؛ فهن يعشن حياة تعسة، وتساءلت لماذا لا يلقين بأنفسهن فى البحيرة؛ وهو أمر فعلته بعضهن، وكانوا يجدونهن طافيات فى الميناء.

وتساءلت كيف عرفت مارى كل هذا؛ لكنها ضحكت، وقالت أننى يمكن أن أسمع الكثير إذا أرهفت أذنى، خاصة فى المطبخ؛ لكن هناك أيضًا

فتاة من الريف كانت تعرفها وصلت بها الحال إلى الأسوأ، وكانت تقابلها في الشارع؛ ولكنها لا تعرف ماذا حدث لها، وتخشى ألا يكون شيئًا طيبًا.

ثم ذهبنا إلى شارع كينج، ودخلنا دكان ملابس تباع فيه بالات الثياب البواقى بسعر رخيص؛ وهناك كانت أقمشة من الحرائر والأقطان والجوخ والفانيلا، والساتان، والتارتن، وكل ما تتمناه؛ لكننا كان يجب أن نضع السعر فى اعتبارنا، والشيء المناسب الذى نضع فيه نقودنا. وفى النهاية، اشترينا نسيجًا قطنيًّا مقلمًا بالأزرق والأبيض، وقالت مارى أنها ستساعدنى فى حياكته؛ رغم أنها دهشت، وقتها، عندما وجدت أننى أستطيع الحياكة بمهارة وبغرز صغيرة للغاية، وقالت أن مهاراتى ضائعة للعمل كخادمة، ويجب أن أعمل بوظيفة صانعة ثياب.

اشترينا الخيط اللازم للثوب، وكذلك الأزرار، من بائع جوال جاء فى اليوم التالى، وكان معروفا جيدًا للجميع. وكانت الطباخة تعامله بود شديد، وصنعت له كوبًا من الشاى وقدمت له قطعة من الكيك، بينما فتح صرته، ونشر أشياءه. كان اسمه چيرميا، وعندما جاء إلى الباب الخلفى كان يتبعه عصابة من خمسة أو ستة من الصبيان المتشردين ذوى الثياب الرثة، كما لو كان فى موكب، وكان أحدهم يضرب إناء بملعقة، وكانوا جميعًا يغنون:

انفخ النار يا چيرميا

بوف، بوف، بوف

انفخ النار برقة

ثم انفخ بقوة!

هذه الأصوات جذبتنا جميعًا إلى النافذة، وعندما وصلوا إلى الباب الخلفى أعطاهم بنسًا لينفقوه، فأخذوه وجروا بعيدًا؛ وعندما سألته الطباخة ما كل هذا، قال أنه يفضل أن يتبعوه وهم تحت إمرته، من أن يقذفوه بقبضات من الطين وروث الخيل، وكانت هذه عاداتهم مع الباعة الجائلين، الذين ما كان بمقدورهم أن يطاردوهم دون أن يتركوا أحمالهم؛ وإذا فعلوا هذا، فمن الممكن أن تنهب فى لمح البصر على يد هؤلاء الأشرار الصغار، ولهذا اختار الطريق الأكثر حكمة، ووظفهم لديه، وعلمهم الأغنية بنفسه.

كان چيرميا هذا رجلاً ماهرًا، رشيق الحركة، وله أنف طويل وساقان طويلتان، وبشرة لوحتها الشمس، ولحية سوداء متموجة، وقالت مارى أنه على الرغم من أنه كان يبدو أشبه باليهود أو الغجر، كمعظم الباعة الجائلين، فقد كان أمريكيًّا شماليًّا، وكان أبوه إيطاليًّا جاء ليعمل فى المصانع فى ماساتشوستس؛ وكان اسمه بونتيللى، ولكنه كان محبوبًا. ويتكلم إنجليزية جيدة، مع لكنة ضعيفة فى صوته؛ وكانت له عينان سوداوان نفاذتان، وابتسامة واسعة وجذابة، وكان يرفع الكلفة مع النساء بلا خجل.

كانت لديه أشياء جميلة كثيرة رغبت فى شرائها، لكنى لم أكن أستطيع دفع ثمنها، حتى رغم أنه قال أنه يمكن أن يأخذ نصف الثمن ويترك الباقى للمرة القادمة التى يأتى فيها؛ ولكنى لا أحب أن أكون مدينة. كانت لديه شرائط ودانتيلا، وكذلك خيط وأزرار، كان منها المعدنية واللؤلؤية، والخشبية والمصنوعة من العظم، واخترت الأزرار العظمية؛

وكان لديه أيضًا جوارب قطنية بيضاء، وكولات وأساور للقمصان، وكرافتات، ومناديل؛ وقمصان داخلية عديدة، وزوجان من المشدات، مستخدمة ولكنها مغسولة وجيدة كما لو كانت جديدة؛ كما كان لديه قفازات صيفية ذات ألوان هادئة، جميلة الصنع جدًّا؛ وأقراط، ذهبية وفضية، لونًا فقط، رغم أن ماري هويتني قالت أنها سوف تذهب منها طبقة اللون؛ وصندوق سعوط من الفضة الحقيقية؛ وزجاجات عطر رائحتها كرائحة الورد، قوية جدًّا. واشترت الطباخة بعضها، وقال چيرميا أنها لا تكاد تحتاج إليها، لأن رائحتها هي نفسها كروائح الأميرات؛ واحمر وجهها وضحكت جذلاً رغم أنها كانت تقارب الخمسين وليست جميلة الشكل، وقالت الأغلب أنها رائحة البصل؛ فقال إن رائحتها جميلة جدًّا حتى أنها تفتح الشهية، وأن الطريق إلى قلب الرجل معدته، ثم ابتسم وظهرت أسنانه الأمامية الكبيرة البيضاء، والتي بدت أكبر وأكثر بياضًا نتيجة اللحية السوداء، ونظر إلى الطباخة نظرة تعبر عن الجوع، ولعق شفتيه، كما لو كانت هي نفسها كعكة لذيذة يتمنى أن يلتهمها؛ وقد جعل ذلك وجهها يزداد احمرارًا.

ثم سألنا إذا كان لدينا شيء لبيعه، لأنه كما نعلم، سوف يعطي أسعارًا جيدة؛ وباعت أجنس قرطًا مرجانيًّا كانت ورثته من إحدى خالاتها، قائلة إنه بهرجة باطلة، لكننا كنا نعرف أنها بحاجة إلى النقود لأختها التي كانت تعاني من مصاعب؛ وجاء چيم من الإسطبل، وقال أنه يريد مبادلة قميص لديه، وكذلك منديل كبير ملون، بقميص آخر أفضل ويعجبه أكثر؛ ومع إضافة سكين جيب خشبية المقبض تمت المبادلة.

وعندما كان چيرميا فى المطبخ، كان الأمر أشبه بالحفل، وجاءت مسز هنى لتعرف ماذا يسبب كل هذا الهرج. وقالت، حسنًا يا چيرميا، أرى أنك عدت إلى مزاحك الغث، وتستغل النساء مرة أخرى. ولكنها ابتسمت وهى تقول ذلك، وهو مشهد نادر. قال نعم، وأن هذا هو ما يفعله، فقد كانت هناك جميلات كثيرات لا يستطيع مقاومتهن، لكن لا توجد واحدة فى جمالها؛ واشترت منه منديلين من القماش الخفيف، ومع ذلك فقد طلبت منه أن يسرع فى الأمر ولا يأخذ اليوم كله، فالبنات لديهن عمل يجب أن يقمن به. ثم راحت تقعقع خارجة من المطبخ.

وأرادت البعض أن يرى لهن الحظ بالنظر فى أكفهن؛ لكن أجنس قالت أن هذا يدخلنا مع الشيطان، وأن مسز ألدرمان پاركينسون لن توافق على كلمة واحدة من أعمال الغجر هذه فى مطبخها. ومن ثم لم يفعل. ولكن بعد الكثير من الرجاء، وافق على تقليد أحد السادة، الصوت والسلوك وكل شىء، وهو الأمر الذى صفقنا له بمرح، فقد كان شديد التماثل مع الواقع؛ وجعل عملة فضية تخرج من أذن الطباخة، وأرانا أنه يستطيع أن يبتلع شوكة طعام، أو بدا كأنه فعل ذلك. وقال أنه تعلم هذه الألعاب السحرية أيام كان شابًا خبيثًا، عندما كان فتى شريرًا يعمل فى الأسواق الموسمية والمعارض، قبل أن يتحول إلى تاجر أمين وتسرق الفتيات الجميلات من مثيلاتنا جيوبه ويحطمن قلبه خمسين مرة؛ وضجت الحاضرات كلهن بالضحك.

ولكن عندما أخفى كل شىء داخل جواله مرة أخرى، وانتهى من شرب كوب الشاى، وأكل شريحة الكيك، قال لا أحد يستطيع عمل كعكات

لذيذة مثل طاهيتنا، وكان بسبيله للذهاب، أشار لى أن أقترب منه، وأعطانى زرارًا عظميًّا زيادة على الأربعة التى اشتريتها. ووضعه فى يدى ولف أصابعى عليه، وكانت أصابعه خشنة وجافة، مثل الرمل؛ لكنه حدق فى يدى بسرعة أولاً ثم قال، خمسة من أجل الحظ؛ فالناس من هذا النوع يعتبرون الرقم أربعة لا يجلب الحظ، والأرقام الفردية أكثر جلبًا للحظ من الأرقام الزوجية. ونظر لى نظرة سريعة وذكية بعينيه السوداوين اللامعتين، وقال بصوت خافت جدًّا حتى لم تسمعه الأخريات، توجد صخور حادة فى الطريق. وهو ما كنت أعرف أنه موجود دائمًا يا سيدى، وكان من المؤكد أن هناك ما يكفى منها خلفى، وقد تمكنت من عبورها؛ ولذا لم يروعنى هذا القول كثيرًا.

لكنه عندئذ قال أغرب شىء سمعته. قال: أنت واحدة منا.

ثم حمل حمله وأخذ أغراضه وسار مبتعدًا؛ وتركنى أتعجب مما قد يعنيه بذلك. ولكن بعد أن تأملت فى الأمر مليًا، اقتنعت أنه كان يعنى أننى أيضًا كنت بلا بيت، مشردة وجوالة، مثل البائعين الجوالين والعاملين فى الأسواق الموسمية؛ لأننى لم أكن أتخيل أنه يمكن أن يفكر فى شىء آخر.

بعد ذهابه، شعرنا كلنا بالتعب والفتور؛ لأنه لم يحدث كثيرًا أننا ساكنات الغرف الخلفية والمكاتب كان يتاح لنا قضاء وقت طيب كهذا، وأن ننظر مليًّا إلى مثل هذه الأشياء الجميلة، وفرصة للضحك والمرح فى وسط اليوم.

ولكن الثوب جاء جيدًا للغاية، ولأن الأزرار كانت خمسة وليست أربعة، استخدمنا ثلاثة عند الرقبة، وواحدًا عند كل أسورة؛ وحتى مسز هنى قالت يا له من فرق أضفاه على مظهرى، وكم أننى بدوت أنيقة ومحترمة، بعد أن لبست ما يليق.

ـ ١٩ ـ

جاء والدى قرب آخر الشهر الأول، وكان يريد كل راتبى؛ لكنى لم أستطع أن أعطيه إلا الربع، حيث أنى كنت قد أنفقت الباقى. فبدأ يسب ويلعن، وأمسكنى من ذراعى؛ لكن مارى أطلقت رجال الإسطبل عليه. وعاد فى آخر الشهر الثانى، وأعطيته الربع مرة أخرى، وقالت له مارى ألا يعود مرة أخرى، فأخذ يسبها، فردت عليه بما هو أسوأ، وصفرت ليأتى الرجال، فطاردوه. كنت منقسمة على نفسى فى هذا الأمر، فقد شعرت بالأسف من أجل إخوتى الصغار؛ وحاولت أن أرسل إليهم بعض النقود بعد ذلك، مع مسز بيرت؛ لكنى لا أظن أنها وصلتهم.

فى البداية كنت أعمل فى الأوفيس، أقوم بتنظيف الأوانى والقدور، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن القدور الحديدية ثقيلة جدًّا على يدى؛ وبعد ذلك رحلت الغاسلة إلى وظيفة أخرى، وجاءت واحدة لم تكن فى سرعتها ونشاطها، وقالت مسز هنى أننى سأقوم بمساعدة مارى فى الشطف والعصر وتعليق الثياب والتطبيق والتجفيف والإصلاح، وقد أسعدنا ذلك نحن الاثنتين. وقالت مارى أنها سوف تعلمنى كل ما أحتاج لتعلمه، وأننى سأتعلم بسرعة لأننى ذكية.

عندما كنت أرتكب خطأ وأقلق على ذلك، كانت مـارى تطيب خاطرى وتقول لا يجب أن تأخذى الأمور بهذه الجدية، وإذا لـم ترتكبى خطأ أبدًا فلن تتعلمى أبدًا؛ وعندما تكلمنى مسز هنى بحدة وأجد نفسى على حافة البكاء، كانت مارى تقول لى أننى لا يجـب أن ألقـى بـالاً، فهـذه طريقتها، والسبب أنها بلعت زجاجة من الخل فأصبح لسانها لاذعًا مثلـه. وأننى يجب أن أتذكر أننا لسنا عبيدًا، وأن العمل كخادمة ليس مكتوبًا علينا ولا ولدنا من أجله؛ وأننا غير مضطرات للاستمرار فيه إلى الأبد وإنما هى وظيفة لنعمل بها. قالت أن العادة فى هذا البلد أن البنات الصغيرات يعملن لكى يكسبن نقودًا تنفعهن فى دوطاتهن؛ ثم يتزوجن، وإذا راجـت أعمـال الأزواج فسرعان ما تستأجر الواحدة منهن الخدم، وعلـى الأقـل خادمـة واحدة لكل المهام؛ وفى مثل هذا اليوم ربما أكون سيدة لمنزل ريفى مـنظم ومرتب، ومستقلة، وسوف أنظر إلى المحن والشدائد التى تحدث على يـد مسز هنى كنكتة لطيفة. إن كل إنسان له نفس القيمة التى لغيره، وفى هـذا الجانب من المحيط يكبر الناس عمومًا بالعمل الشاق ولـيس بنـاء علـى المكانة التى كان عليها أجدادهم، وهكذا يجب أن تكون الأمور.

قالت أن الخادمة مثلها مثل أى شخص آخر، وأن ثمة أسلوبًا لهذا العمل لا تتعلمه الكثيرات أبدًا، وأن المسألة تكمن فى طريقة النظـر إلـى الأمور. ومثلاً، دائمًا ما يقال لنا أن نستخدم السلالم الخلفية لنكون بعيدًا عن طريق العائلة، لكن الواقع أن الأمر بالعكس: فالسلالم الأمامية جعلت هناك لكى تظل العائلة بعيدًا عن طريقنا. يمكنهم أن يتسكعوا من أعلـى لأسـفل وبالعكس على السلالم الأمامية فى ملابسهم الرائعة وحليهم التافهة، بينمـا يسير العمل الحقيقى فى المكان خلف ظهورهم، دون أن يعقدوا سير العمل، ويتدخلوا، ويزعجوا العاملين. فهم مجرد مخلوقات جاهلة وواهيـة، رغـم

ثرائهم، وأغلبهم لا يستطيع إشعال النار حتى لو كادت أرجلهم تتجمد بردًا، لأنهم لا يعرفون كيف، ومن العجيب أنهم يستطيعون أن يتمخطوا ويمسحوا مؤخراتهم، فهم بالطبيعة لا فائدة لهم، كشجرة عقيمة ـ ولا تؤاخذني يا سيدى، فهذا كان تعبيرها ـ وإذا حدث أن فقدوا كل نقودهم غدًا وألقوا إلى الشوارع، لن يمكنهم حتى أن يعيشوا بالعمل بالبغاء، فهم لن يعرفوا ماذا يدخل أين، وسينتهى بهم الحال إلى أن يأخذوا ـ لن أقول الكلمة ـ فى الأذن، ومعظمهم لا يعرف الفرق بين إسته وأى حفرة أخرى فى الأرض. وقالت شيئًا آخر عن النساء، وكان شديد القباحة حتى أننى لن أكرره يا سيدى، لكنه جعلنا نضحك كثيرًا.

وقالت أن اللعبة تكمن فى إنجاز العمل دون أن ينتبه أحد إلى عملية الإنجاز؛ وإذا فاجأك أحد وأنت تعملين، فإن عليك أن تختفى على الفور من المكان، وفى النهاية قالت أن لنا الغلبة عليهم، لأننا نغسل ثيابهم القذرة ومن ثم فنحن نعرف الكثير عنهم؛ لكنهم لا يغسلون ثيابنا، وبالتالى لا يعرفون أى شيء عنا على الإطلاق. وما أقل الأسرار التى يمكنهم إخفاؤها عن الخدم؛ وإذا عملت يومًا خادمة غرف، فسوف أضطر لأن أتعلم كيف أحمل دلوًا مليئًا بالأقذار كما لو كان إصيص زهور، فأشد ما يكرهون هو أن يذكرهم أحد بأن لهم أجساد مثلهم مثل غيرهم، وأن برازهم نتن الرائحة مثل براز أى أحد آخر، وربما أسوأ. ثم أخذت تتلو أبياتًا من الشعر:

عندما كان آدم يعزق الأرض،

وحواء تغزل

فمن حينئذ كان علية القوم؟

وكما قلت يا سيدى، كانت مارى سليطة اللسان، ولم تكن تتكلف فى عباراتها؛ وكانت لها أفكار ديمقراطية جدًّا، وقد استغرق هذا منى بعض الوقت لأتعود عليه.

فى أعلى البيت كانت هناك عِلِّية كبيرة، منقسمة؛ فإذا صعدت السلالم، ثم سرت أمام الغرفة التى كنا ننام فيها، ثم نزلت بضع درجات أخرى، تجد غرفة التجفيف. كانت مزودة بحبال مصفوفة خطوطًا، وكان لها نوافذ صغيرة عديدة تنفتح تحت طُنف السقف. وكانت المدخنة الآتية من المطبخ تمر من خلال هذه الغرفة إلى السطح. وكانت تستخدم لتجفيف الملابس فى الشتاء، وفى أوقات المطر.

وفى الغالب لم نكن نقوم بالغسيل إذا كان الجو منذرًا، ولكن، خاصة فى الصيف، كان اليوم يبدأ صافيًا، ثم تتجمع السحب فجأة، وترعد وتمطر؛ وكانت العواصف الرعدية عنيفة للغاية، ولها رعد قاصف وبرق كومضات النار، برق ورعد كثير حتى نظن أن نهاية العالم قد أزفت. فى أول مرة حدث ذلك أصابنى الرعب، وجريت لأختبئ تحت منضدة وبدأت أبكى، وقالت مارى هذا لا شيء، مجرد عاصفة رعدية؛ لكن بعد ذلك حكت لى حكايات عديدة عن رجال كانوا بالخارج فى حقولهم أو مخازن غلالهم، وضربتهم الصاعقة فقضت عليهم، كما كان من الممكن أن تصيب بقرة واقفة تحت شجرة.

وعندما يكون هناك غسيل منشور بالخارج، كنا نندفع بالسلال عند أول قطرة، ونجمع كل الغسيل بأسرع ما يمكننا، ونسرع به فوق السلالم، ونعيد نشره فى غرفة التجفيف، فلا يمكن تركه فى السلال فترة

طويلة وإلا فإنه يكمكم. كنت أحب رائحة الغسيل المجفف بالخارج، كانت رائحة جميلة منعشة؛ وكانت القمصان وملابس النوم التى ترفرف فى نسيم يوم مشمس تشبه طيورًا بيضاء كبيرة، أو ملائكة مبتهجة، رغم أنها بلا رؤوس.

ولكن، عندما كنا ننشر نفس الثياب بالداخل، فى الإضاءة الخافتة لغرفة التجفيف، كانت تبدو مختلفة، أشبه بأشباح باهتة تحوم وتومض فى العتمة؛ وكان منظرها، وهى ساكنة بلا جسد، يصيبينى بالخوف. وسرعان ما فهمت مارى الأمر، فقد كانت سريعة الفهم، فكانت تختبئ خلف الملاءات، وتلتصق بها حتى يظهر الخط الخارجى لوجهها، وتصدر صوت أنين؛ أو قد تختبئ خلف قميص نوم وتجعل ذراعيه يتحركان. كان قصدها إخافتى، وكانت تنجح أحيانًا، فأصرخ؛ ثم نطارد بعضنا بعضًا ذهابًا وإيابًا بين صفوف الغسيل، ونحن نضحك ونصيح، ولكننا كنا نحاول ألا نرفع أصواتنا كثيرًا، وإذا أمسكت بها كنت أندفع فى دغدغتها، فقد كانت سريعة التأثر بالدغدغة، وأحيانًا كنا نجرب مشدات مسز ألدرمان پاركينسون، فوق ثيابنا، ونسير بصدرينا ناتئين وننظر من طرف أنفينا؛ وقد ننساق بالانفعال فنقع على ظهورنا فى سلال الثياب، ونجلس هناك نلهث مثل سمكتين حتى نستعيد نفسينا مرة أخرى.

ومن المؤكد أنك تلاحظ يا سيدى أن هذا لم يكن إلا لأننا كنا ممتلئتين بالروح المعنوية المرتفعة للشباب، والتى لا تلتف دائمًا بكثير من الرزانة.

كانت مسز ألدرمان پاركينسون تمتلك من الأغطية المصنوعة من قطع الأقمشة المشغولة عددًا أكثر مما رأيت طوال حياتى، فلم تكن هذه الأغطية من الأشياء المألوفة كثيرًا فى الجانب الآخر من المحيط، كما لم يكن القطن المطبوع كثيرًا ورخيصًا هكذا. وقالت مارى أن البنت لا تعتبر نفسها مستعدة للزواج حتى يكون لديها ثلاثة أغطية، صنعتها بيديها؛ وأجمل الأغطية جميعًا أغطية الزواج، التى تصنع على نماذج مثل شجرة الجنة، وسلة الزهور. أما النماذج الأخرى مثل مطاردة الإوز البرى وصندوق باندورا، فيستخدم فى صنعها قطع كثيرة جدًّا من القماش المشغول وتحتاج مهارة كبيرة؛ لكن النماذج من نوع الكوخ الخشبى، والرقع التسع، فهى نماذج للاستخدام اليومى، وأسرع فى صناعتها. لم تكن مارى قد بدأت فى صناعة غطاء زواجها بعد، فلم يكن لديها وقت وهى تعمل كخادمة؛ ولكنها انتهت بالفعل من صناعة واحد على نموذج الرقع التسع.

وفى يوم جميل من أيام أواسط سبتمبر، قالت مسز هنى أن الوقت حان لأخذ الأغطية والبطاطين الشتوية للخارج، لتهويتها، استعدادًا للشتاء؛ وإصلاح ما بها من فتوق وتمزقات؛ وأسندت هذه المهمة لمارى ولى. كانت الأغطية مخزنة فى العلِّية، بعيدًا عن غرفة التجفيف لتفادى الرطوبة، وموضوعة فى صندوق من خشب الأرز، مع ملاءة من الموسلين بين كل غطاء وآخر، وكمية من الكافور تكفى لقتل قطة، وقد دوختنى رائحتها بالفعل. كان علينا أن نحمل هذه الأغطية إلى الأسفل وننشرها بالخارج على الحبال، وننظفها بالفرشاة، ونبحث إذا ما كان يوجد بها عتة؛ فرغم صناديق الأرز والكافور، كانت العتة تتمكن أحيانًا من الوصول إليها،

وأغطية الشتاء تكون محشوة بالصوف، بدلاً من القطن في الأغطية الصيفية.

كانت الأغطية الشتوية مصنوعة من ألوان أغمق من ألوان الأغطية الصيفية، منها الأحمر والبرتقالي والأزرق والبنفسجي؛ وبعضها كان بها قطع حريرية وقطيفة وقطع موشاة بالقصب. وعلى مر السنوات، وأنا في السجن، عندما كنت وحدي، فأنا معظم الوقت وحدي، كنت أغمض عيني وأدير رأسي نحو الشمس، وكنت أرى بريقًا أحمر وبرتقاليًا في مثل بريق تلك الأغطية؛ وعندما كنا نعلق ستة منها على الحبل، كلها في صف واحد، كنت أفكر أنها تبدو مثل الأعلام التي يحملها جيش ذاهب إلى الحرب.

ومنذ ذلك الحين، كنت أفكر لماذا اختارت النساء أن يصنعن مثل هذه الأشياء المضجرة، ثم يفرشنها فوق الأسِرَّة؛ لأنها تجعل السرير أكثر الأشياء بروزًا في الغرفة. ومن ثم فكرت أنه نوع من الإنذار. ربما تظن أن السرير مكان سلام يا سيدي، وبالنسبة لك فإنه ربما يعني الراحة والاسترخاء والنوم اللذيذ. لكنه ليس كذلك بالنسبة للجميع؛ فكثير من الأشياء الخطرة يمكن أن تحدث في السرير. ففي السرير نولد، وهذه أول مخاطرة في الحياة؛ وفي السرير تلد المرأة، وكثيرًا ما يكون في ذلك نهايتها. وفي السرير يحدث ذلك الشيء بين الرجل والمرأة وهو أمر لن أذكره لك، لكنني أظن يا سيدي أنك تعرف ما هو؛ ويسميه البعض الحب، والبعض يسمونه اليأس، أو يسمونه المهانة التي لابد عليهن احتمالها.

وأخيرًا السرير هو مكان النوم، ومكان الحلم، وغالبًا هو المكان الذى نموت فيه.

ولكنى لم أصل لكل هذه التأملات عن الأغطية إلا بعد أن أصبحت فى السجن بالفعل. فالسجن هو المكان الذى يتوفر لك فيه الكثير من الوقت للتفكير، ولا تجد أحدًا لتفضى إليه بأفكارك؛ ومن ثم فأنت تفضى بها لنفسك.

وهنا يطلب منى د. چوردان أن أتوقف قليلاً ليستطيع مجاراتى فى الكتابة، ويقول أنه مهتم جدًّا بما رويته لتوى. وأسعدنى ذلك، فأنا أحب الحكاية عن تلك الأيام، وإذا سئلت ماذا أتمنى لتمنيت أن تستمر هذه الأيام لأقصى ما أستطيع. وهكذا أنتظر، وأراقب يده تتحرك فوق الورق، وأفكر أنه من اللطيف أن تكون للإنسان براعة الكتابة بهذه السرعة، وهو الأمر الذى لا يمكن الحصول عليه إلا بالممارسة، مثل لعب البيانو. وأتساءل إن كان له صوت جميل فى الغناء، وإن كان يغنى أغانى ثنائية مع السيدات الشابات فى الأمسيات عندما أكون محبوسة وحدى فى زنزانتى. والاحتمال الغالب أنه يفعل ذلك، فهو وسيم ولطيف وغير متزوج.

يقول وهو يرفع رأسه: وهكذا يا جريس، تعتبرين أن السرير مكان خطر؟

ثمة نغمة مختلفة فى صوته؛ ربما هو يضحك منى فى داخله. لا يجب أن أتحدث معه بهذه الحرية، وقررت ألا أفعل، إذا كان سيستمر فى هذه النغمة.

وأقول: طبعًا ليس فى كل وقت يا سيدى، فقط فى المناسبات التى ذكرتها. ثم ألوذ بالصمت، وأستمر فى الخياطة.

يقول: هل ضايقتك فى شىء يا جريس؟ أنا لم أقصد.

أستمر فى الخياطة فى صمت لحظات قليلة. ثم أقــول: ســوف أصدقك يا سيدى، وأصدق ما تقوله؛ وأرجو أن هذا يكون له مردود فـــى المستقبل.

يقول بحرارة: بالطبع، بالطبع، من فضلك استمرى فى قصـــتك. لم يكن من المناسب أن أقاطعك.

أقول: من المؤكد أنك لا تريد الاستماع إلى مثل هــذه الأشـــياء العادية وتفاصيل الحياة اليومية.

يقول: أريد أن أسمع أى شىء تقولينه لى يـــا جـــريس. إن أقـــل تفاصيل الحياة اليومية كثيرًا ما تخبئ أشياء غاية فى الأهمية.

لست متأكدة مما يعنيه بذلك، لكنى أستمر.

وأخيرًا، حملنا كل الأغطية إلى أسفل، ونشرناها فـــى الشـــمس، ونظفناها بالفرشاة؛ وعدنا باثنتين منها إلى الداخل لإصلاحهما. وجلسنا فى غرفة الغسيل، فلم يكن هناك غسيل منتظر، وكان المكان ألطف جوًّا مـــن العِلِّية؛ كما كان بها منضدة كبيرة يمكن أن نفرد الأغطية عليها.

كان أحد الغطاءين غريب الشكل جدًّا؛ كان مرسومًا عليه فى كل ركن من أركانه أربع جرار تنمو فيها أربع شجرات صفصـــاف، ويمامـــة

بيضاء، أو أظن أن من قامت بعملها كانت تقصد اليمام، ولكنها كانت أكثر شبها بالدجاج؛ وفي الوسط كان اسم امرأة مطرزًا بلون أسود: فلورا. قالت مارى أن هذا الغطاء صنعته مسز ألدرمان پاركينسون فى ذكرى صديقة لها توفيت، وكانت هذه هى الموضة فى ذلك الوقت.

أما الغطاء الآخر فكان يسمى "شبابيك العلِّية"، وكان مكونًا من قطع كثيرة جدًّا، وإذا نظرت إليه من اتجاه ترى صناديق مغلقة، وإذا نظرت من اتجاه مختلف تراها مفتوحة، وأظن أن الصناديق المغلقة هى العلِّية، والمفتوحة هى النوافذ؛ وكل الأغطية هكذا، يمكنك أن ترى كلاًّ منها بطريقتين مختلفتين، بالنظر إلى القطع ذات الألوان الغامقة، أو القطع ذات الألوان الفاتحة. ولكن مارى قالت الاسم بطريقة لم أسمعها جيدًا، وظننت أنها قالت "أرامل العلِّية"، وقلت: أرامل العلِّية، هذا اسم غريب لمفرش سرير. فأعادت مارى الاسم الصحيح لى، وانتابتنا نوبة من الضحك، لأننا تصورنا علِّية مليئة بالأرامل، فى أثوابهن السوداء، وقلنسواتهن والبكاءات جالسات، وقد اكتست وجوههن بالأسى، ويعتصرن أيديهن، ويكتبن رسائل على أوراق سوداء الحواشى، ويمسحن عيونهن بمناديل سوداء الحواشى أيضًا، وقالت مارى أن الصناديق والعلب فى العلِّية لابد أن تكون محشوة لقمتها بخصلات شعر أزواجهن الأعزاء الراحلون، فقلت: وربما يكون الأزواج الأعزاء الراحلين فى الصناديق أيضًا.

وقد جعلنا هذا نغرق فى الضحك، ولم نستطع التوقف، حتى عندما سمعنا مسز هنى ومفاتيحها تصلصل عبر الردهة. دفنا وجوهنا فى الأغطية، وعندما فتحت الباب، كانت مارى قد تمالكت نفسها تمامًا، لكنى

كنت أخفى وجهى لأسفل وأكتافى تهتز وأنا أحاول أن أكتم ضحكى. قالت مسز هنى: ما الأمر يا بنات، فوقفت مارى وقالت: المعذرة يا مسز هنى، إن جريس تبكى على أمها المتوفاة. فقالت مسز هنى: حسنًا، خذيها إلى المطبخ لتتناول كوبًا من الشاى، ولكن لا تأخذا وقتًا طويلاً، وقالت أن الفتيات الصغيرات يبكين دائمًا لأتفه شىء، وأنه يتعين على مارى ألا تهاودنى وتتركنى أصل إلى حالة يتعذر فيها ضبط النفس. وعندما ذهبت تماسكنا وضحكنا كثيرًا حتى كدت أموت من الضحك.

ربما تظن أن هذا غير لائق منا يا سيدى، أن نتخذ من الأرامل مادة للضحك؛ وأنه مع وجود موتى فى عائلتى، كان يجب أن أعرف أن هذا أمر لا يجب اتخاذه مادة للضحك. وإذا كانت هناك أية أرملة قريبة منا لما فعلنا ذلك أبدًا، فمن الخطأ أن تتندر بآلام الآخرين. ولكن لم تكن هناك أرامل يمكن أن تسمعنا، وكل ما أستطيع قوله يا سيدى هو أننا كنا فتيات صغيرات، والفتيات الصغيرات كثيرًا ما يكُنّ حمقاوات بهذه الطريقة، والأفضل أن نضحك بدلاً من أن ننفجر.

ثم فكرت فى الأرامل ــ وهن منحنيات الظهور، وطريقة سيرهن، وفلس الأرملة فى الإنجيل(*)، وهو ما كانوا يحثوننا دائمًا نحن الخدم على منحه للفقراء من رواتبنا؛ كما فكرت كيف أن الرجال يغمزون بعيونهم ويهزون رؤوسهم عند ذكر أرملة شابة غنية، وكيف أن الأرملة لا تكون محترمة إلا إذا كانت عجوزًا وفقيرة، وهو أمر غريب للغاية إذا فكرت فيه.

(*) "فجاءت أرملة فقيرة وألقت فلسين قيمتهما ربعٌ"، إنجيل مرقص، ١٢:٤٣.

في سبتمبر كان الجو جميلاً، وبعض أيامه كانـــت أشـــبه بأيـــام الصيف، وفي أكتوبر تحولت كثير من الأشجار إلى اللون الأحمر والأصفر والبرتقالي، وكأننا وسط حريق مشتعل، ولم أكن أستطيع أن أتوقـــف عـــن النظر إليها. وفي عصر أحد الأيام كنت بالخارج مع ماري نجمع الملاءات من فوق الحبال، وسمعنا أصواتًا جشة كثيرة وكأنها تتنادى معًـــا. قالـــت ماري: انظري، إنه الأوز البري يطير نحو الجنوب لقضاء الشتاء. كانـــت السماء فوقنا معتمة من كثرة هذه الطيور. وقالت: سوف يخرج الصيادون غدًا صباحًا. وأحزنتني فكرة أن هذه المخلوقات البرية سوف تقتل.

وفي إحدى الليالي، أواخر أكتوبر، حدث شيء مخيف بالنسبة لي. ولكني ما كنت لأخبرك بهذا يا سيدي إلا لأنك طبيب، والأطباء يعرفونـــه بالفعل، ولذا فلن يصدمك. كنت أستخدم مبولة الغرفة، حيث أننـــي كنـــت أرتدي بالفعل قميص النوم وعلى وشك الذهاب إلـــى الفـــراش، ولـــم أرد الخروج إلى دورة المياه في الظلام؛ وتصادف أن نظرت لأسفل، وفوجئت بوجود دم، وببعض الدم على ثوبي أيضًا. وكان هناك دم ينزل مـــن بـــين ساقي، ففكرت أنني على وشك الموت، وانفجرت في البكاء.

وعند عودة ماري وجدتني في هذه الحالة، قالت ماذا حدث؟ قلت أنني مصابة بمرض خطير، ومن المؤكد أنني سأموت؛ وأنني كنت أشـــعر بألم في بطني ولكني تجاهلته متصورة أنه بسبب الخبز الكثير الذي أكلته، فقد كان يوم الخبيز. لكني تذكرت حينذاك أن أمي بدأ معها مرض المـــوت بآلام في البطن، وبكيت بشدة.

نظرت مارى، والحق أنها لم تضحك منى، ولكن شرحت كل شىء. وسيدهشك أننى لم أكن أعلم ذلك، رغم أن أمى ولدت الكثير من الأطفال؛ لكن الحقيقة أننى كنت أعرف الأطفال وكيف يخرجون من أمهاتهم، وحتى كيف يدخلون، فقد رأيت الكلاب فى الطرقات؛ لكن هذا الشىء لم أكن أعرفه. وأظن أنه لو كان لى أصدقاء من سنى لعلمت به.

وقالت مارى، أنت امرأة الآن، وقد جعلنى هذا أبكى مرة أخرى. ولكنها أحاطتنى بذراعيها، وطيبت خاطرى، أفضل مما يمكن أن تفعله أمى لو كانت موجودة، لأنها كانت دائمًا مشغولة بشدة، أو متعبة، أو مريضة. وأعارتنى مارى قميصها التحتى القطنى الأحمر إلى أن أحصل على واحد لنفسى، وأرتنى كيف أطوى القماش وأدبسه، وقالت إن البعض يسميها لعنة حواء، ولكنها تعتقد أن هذا غباء، وأن اللعنة الحقيقية لحواء هى أنها مضطرة لاحتمال تفاهة آدم، هذا الذى ما أن تحدث مشاكل حقيقية حتى يلقى باللوم عليها. وقالت أيضًا إذا أصبح الألم شديدًا فسوف تأتينى ببعض من لحاء الصفصاف لألوكه، فهو يفيد فى هذه الحالة، وأنها سوف تسخن لى قالب طوب على موقد المطبخ، وتلفه بفوطة، ليخفف الألم. وشعرت بالامتنان الشديد لها، فقد كانت حقا صديقة طيبة وعطوفة.

ثم أجلستنى ومشطت لى شعرى، برقة ولطف، وقالت: جريس، سوف تكونين جميلة جدًا، وسرعان ما سوف تديرين رءوس الرجال. وأسوأ الرجال هم رجال الطبقة العليا الذين يظنون أن من حقهم الحصول على ما يريدون، وعندما تذهبين إلى دورة المياه ليلاً يكونون فى حالة سُكْر، يقفون بانتظارك ويكون هناك شد وجذب، ولا يمكن التعقل معهم،

وإذا اضطررت فإن عليك أن تصوبى ركلة بين الساقين حيث يمكن أن تؤلمهم؛ والأفضل أن تغلقى بابك دائمًا بالمزلاج، وأن تستخدمى مبولة الغرفة. لكن أى رجل من أى نوع قد يحاول نفس الشيء، وسوف يبدأون ببذل الوعود، سيقولون أنهم سيفعلون أى شيء تريدين؛ ولكنك يجب أن تكونى حذرة جدًّا فيما تطلبين، فلا تحققى لهم مطالبهم قبل أن يفوا بوعودهم، وإذا كان هناك خاتم فلابد أن يكون معه رجل.

وسألتها ببراءة لماذا كل هذا، فقالت لأن الرجال كذابون بطبيعتهم، وقد يقولون أى شيء ليحصلوا على ما يريدون منك، ثم يفكرون ويتراجعون ويرحلون على أول مركب. هنا وجدت أننا نتحدث عن نفس القصة التى كانت الخالة بولين تقولها عن أمى، فهززت رأسى بحكمة وقلت إن عندها حق، رغم أننى لم أكن أفهم تمامًا ما تعنيه. وضمتنى إلى صدرها وقالت أننى بنت صالحة.

فى ليلة ١٣ أكتوبر، التى هى كما تعلم يا سيدى عشية عيد القديسين، التى يقولون أن أرواح الموتى تعود فيها من القبور ــ رغم أن هذه مجرد خرافة ــ فى تلك الليلة جاءت مارى إلى غرفتنا ومعها شيء تخبئه فى مريلتها، قالت انظرى لقد جئت لنا بأربع تفاحات، لقد رجوت الطباخة أن تعطيها لى. وكان التفاح كثيرًا فى ذلك الوقت من العام، وكان فى القبو براميل مليئة منه. قلت، أوه، أهى لنأكلها نحن، قالت إننا سوف نأكلها فيما بعد، ولكن هذه هى الليلة التى يمكن فيها أن تعرفى من ستتزوجين. وقالت أنها أحضرت أربعة ليكون لكل منا فرصتان.

وأرتنى سكينًا صغيرًا، قالت إنها أخذته من الطباخة أيضًا. والواقع أنها كانت أحيانًا تأخذ أشياء دون أن تستأذن، وكان هذا يضايقنى، رغم أنها قالت أن ذلك ليس سرقة ما دامت تعيدها بعد ذلك. لكنها أحيانًا لم تكن تعيدها أيضًا. فقد أخذت نسخة من رواية "سيدة البحيرة" لسير والتر سكوت من المكتبة، حيث كان يوجد خمس نسخ، وكانت تقرؤها لى بصوت مرتفع؛ وكان لديها كمية من أعقاب الشموع التى كانت تأخذها واحدة واحدة من غرفة الطعام. وكانت تخبئها تحت لوح متقلقل من ألواح الأرضية؛ وإذا كانت قد استأذنت لتحصل عليها لما خبأتها. وكان يُسمح لنا بشمعة لتغيير ثيابنا ليلاً، لكن مسز هنى قالت أننا يجب ألا نستخدمها بإسراف، ويجب أن تكفينا الشمعة الواحدة أسبوعًا، وهذا ضوء أقل مما تريده مارى. وكان لديها بعض الثقاب الذى كانت تخبئه أيضًا، فإذا ما أطفئت شمعتنا المسموح بها لتوفيرها، كان يمكنها أن تشعل غيرها متى أرادت، وهكذا أمكنها أن تشعل اثنتين من أعقاب الشموع حينذاك.

قالت إليك السكين والتفاحة، قشريها قشرة واحدة طويلة، ثم يجب أن تقذفى بها من فوق كتفك الأيسر دون أن تنظرى وراءك، وسوف تقع على شكل الحرف الأول من اسم الرجل الذى سوف تتزوجينه، والليلة سوف تحلمين به.

كنت أصغر من أن أفكر بالزواج، لكن مارى كانت تتحدث طويلاً عنه. وعندما توفر ما يكفى من راتبها، سوف تذهب لتتزوج من فلاح شاب لطيف لديه أرض جاهزة أخليت من الأشجار والنباتات البرية، وبيت جميل مبنى، وإذا لم تستطع أن تحصل على مثل هذا البيت، فسوف ترضى

بمنزل خشبى، وسوف يبنيان بيتًا أفضل فيما بعد. بل إنها كانت تعرف نوع الدجاجات والبقرة التى ستكون لديها ـ كانت تريد دجاجات بيضاء وحمراء، من نوع اللاجهورن، وبقرة حلوب من نوع جرسى لإنتاج الجبن والزبد والتى قالت أنه لا يوجد أفضل منها.

وهكذا أخذت التفاحة وقشرتها، وأخرجت القشرة قطعة واحدة. وألقيتها خلفى، ونظرنا إليها، ولم نعرف أى ناحية هى أعلى الحرف، لكن على الأقل قررنا أنه حرف (چيه). وبدأت مارى تشاكسنى، وتذكر أسماء الرجال الذين تعرفهم وتبدأ أسماؤهم بحرف (چيه)؛ وقالت أننى ربما أتزوج چيم الذى فى الإسطبل، والذى كان أحول العين، ورائحته فظيعة؛ أو چيرميا البائع المتجول، الذى كان أكثر وسامة بكثير، رغم أننى سوف أضطر للصياعة فى البلاد ولن يكون عندى بيت إلا البقجة التى سوف أحملها على ظهرى، مثل الحلزون. وقالت أننى ربما أعبر الماء ثلاث مرات قبل ذلك، وقلت أن كل شيء من اختراعها، وابتسمت لأننى عرفت أنها كانت تحتال علىّ.

ثم كان الدور عليها، فبدأت تقشر التفاحة. لكن قشرة التفاحة الأولى انكسرت، والثانية أيضًا. وأعطيتها تفاحتى الأخرى، لكنها كانت عصبية للغاية، وكسرت قشرتها بمجرد أن بدأت فى تقشيرها. ثم ضحكت وقالت إنها قصص العجائز الغبية، وأكلت التفاحة الثالثة، ووضعت الاثنتين الأخريين على حافة النافذة لتحتفظ بهما حتى الصباح، وأكلت أنا تفاحتى؛ ثم أخذنا نتندر على مشدات مسز ألدرمان پاركينسون، ولكن مارى رغم ضحكها كانت مكتئبة.

ويمكننى أن أقول أنها لم تنم بعد أن ذهبنا إلى الفراش. كانت ترقد على ظهرها بجوارى، تحدق فى السقف. وعندما استغرقت فى النوم، لم أحلم بأى زوج، لكننى حلمت بأمى فى ملاءتها التى كانت تطيرها الرياح، وتغطس فى المياه الباردة، تلك المياه التى كان لونها أزرق مخضرًا؛ وبدأت الملاءة تتكشف من أعلى، وتموجت كما لو كان بفعل الرياح، وطفا شعرها خارجا، يتموج كأعشاب البحر، لكن الشعر كان يغطى وجهها فلم أستطع رؤيته، وبدا الشعر بلون أغمق مما كان عليه شعر أمى؛ وعرفت أن تلك لم تكن أمى على الإطلاق، ولكن امرأة أخرى، ولم تكن ميتة داخل الملاءة، كانت حية.

شعرت بالخوف، واستيقظت وقلبى يدق بشدة، والعرق البارد ينضح منى. لكن مارى كانت فى تلك اللحظة نائمة، تتنفس بعمق، وقد بدا ضوء الفجر الرمادى والوردى، وبدأت الديكة فى الخارج تصيح، وكل شىء على ما يرام، فشعرت بأننى أفضل حالاً.

ـ ٢٠ ـ

وهكذا مضى الحال فى نوفمبر، سقطت الأوراق عن الأشجار، وأصبح الليل يزحف مبكرًا، وأصبح الجو رماديًّا كئيبًا، والأمطار كثيفة مدرارة؛ ثم جاء ديسمبر، وتجمدت الأرض تمامًا كالصخر، وتساقط ثلج خفيف. وكانت غرفتنا فى العِلِّية باردة حينذاك للغاية، خاصة فى الصباح، عندما كنا نضطر للاستيقاظ فى الظلام ونخطو بأرجلنا الحافية على ألواح الأرضية المثلجة؛ قالت مارى أنها عندما يكون عندها بيتها الخاص سوف تضع سجادة من الأقمشة المضفورة بجوار كل سرير، وأنها سيكون لديها خُف منزلى من المخمل الدافئ. كنا نأخذ ثيابنا معنا فى الفراش لتدفئتها قبل أن نرتديها، ونلبس تحت غطاء السرير، وفى الليل كنا نسخن قوالب الطوب على الموقد ونلفها بالأقمشة القطنية ونضعها فى الفراش لكى تحفظ أطراف أقدامنا من التجمد. وكان الماء فى الحوض باردًا جدًّا حتى أن غسيل يدى كان يبعث الألم حتى أعلى ذراعى؛ وكنت سعيدة لأننا ننام نحن الاثنتين فى فراش واحد.

ولكن مارى كانت تقول أن هذا كله لا شيء، حيث أن الشتاء الحقيقى لم يأت بعد، وأن الجو سيصير أكثر برودة؛ وأن الشيء الوحيد

الجيد فى الشتاء أنهم سيضطرون إلى تقوية النيران فى البيت وإبقائها مدة أطول، وأنه من الأفضل أن نكون خدمًا، على الأقل أثناء النهار، حيث يمكننا دائمًا أن نستدفئ فى المطبخ، بينما تكون غرف الاستقبال مليئة بتيارات الهواء كما لو كانت مخزن غلال ولا يمكن الحصول على تدفئة من المدفأة إلا إذا وقفت أمامها مباشرة، وأن مسز ألدرمان باركينسون كانت ترفع تنورتها أمامها عندما تكون وحدها بالغرفة لتدفئ مؤخرتها، وفى الشتاء الماضى أمسكت النار بقميصها الداخلى، وسمعت أجنس الوصيفة الصراخ فاندفعت إلى الغرفة وأصابها ذعر هستيرى، وأسرع چيم فتى الإسطبل بإلقاء بطانية على مسز ألدرمان باركينسون، ودفعها ودحرجها بالبطانية على الأرض. ولحسن الحظ أنها لم تحترق وإنما أصيبت بلفحات خفيفة.

وفى منتصف ديسمبر، أرسل أبى أختى المسكينة كاتى لتطلب منى مزيدًا من أجرى، ولم يُرد أن يأتى بنفسه. شعرت بالأسف من أجل كاتى، فقد انتقل إليها الحمل الذى كنت أنوء به؛ وأدخلتها إلى المطبخ، وأجلستها بجوار الموقد لتتدفأ، وطلبت قطعة خبز من الطباخة التى قالت أنه ليس من عملها أن تطعم كل اليتامى الجائعين فى المدينة، لكنها أعطتنى الخبز رغم ذلك، وبكت كاتى، وقالت أنها تتمنى أن أعود إلى البيت. أعطيتها ربع دولار، وقلت لها أن تخبر أبانا أن هذا هو كل ما معى. وأنا آسفة لأننى كنت أكذب، لكنى شعرت أننى لست مضطرة لإخباره بالحقيقة. وأعطيتها عشرة سنتات لنفسها، وقلت لها أن تحتفظ بها لوقت الحاجة، رغم أنها كانت فى حاجة إليها بالفعل فى ذلك الوقت. وأعطيتها قميصًا داخليًّا كان قد ضاق ولم يعد مناسبا لى.

وأخبرتنى أن والدنا لم يجد عملاً ثابتًا، مجرد أعمال متفرقة بين الحين والآخر، لكنه يأمل فى الذهاب إلى الشمال فى هذا الشتاء لقطع الأشجار، ووصلته أنباء بوجود أراض خالية نحو الغرب، وقد يرحل إلى هناك بمجرد أن يأتى الربيع. وقد فعل ذلك، وفجأة، لأن مسز بيرت جاءت وقالت إن والدى قد رحل إلى مكان لا تعرفه دون أن يدفع أيًا من ديونه. وفى البداية أرادت أن أدفع بدلاً منه، لكن مارى أخبرتها أنه لا يمكن إجبار فتاة فى الثالثة عشرة على دفع ديون رجل بالغ، ولم تكن مسز بيرت سيئة فى داخلها، وفى النهاية قالت إنها ليست غلطتى.

ولا أعرف ماذا حدث لأبى وللأطفال، فلم يرسلوا لى رسالة واحدة، كما لم يصلنى منهم أى شىء أثناء المحاكمة.

وعندما جاء الكريسماس، ارتفعت الحالة المعنوية، وزيدت نيران التدفئة، وكانت السلال تأتى من البقالة، وقطع ضخمة من لحم البقر، وخنزير ذبيح من الجزار، والذى كانوا ينوون شيَّه بكامله، وأقيمت استعدادات كبيرة فى المطبخ، وجىء بمارى وبى من الغسيل للمساعدة، فكنا نقلب ونخلط الأشياء للطباخة، ونقشر التفاح ونقطعه شرائح، ونلتقط حبات الزبيب، ونبشر جوزة الطيب، ونخفق البيض حسبما هو مطلوب، وقد أحببنا ذلك كثيرًا، حيث كانت هناك فرصة لتذوق هذا أو ذاك، وكنا نهرِّب بعض السكر لأنفسنا حينما نستطيع؛ ولم تكن الطباخة تلحظ أو تقول شيئًا، فقد كانت مشغولة للغاية.

وقمت أنا ومارى بعمل شرائح الطبقة التحتية لكل فطائر اللحم المفروم رغم أن الطباخة عملت كل شرائح الطبقة العلوية قائلة أن هذا فن

لا نستطيع معرفته لصغر سننا، وكانت تقطع أشكالاً من النجوم وأشكالاً أخرى رائعة لهذا الغرض. وتركت لنا فك شرائط الموسلين من حول كعكات عيد الميلاد، وأن نسقيها بالبراندى والويسكى ثم نلفها مرة أخرى، وكانت رائحتها من أجمل الروائح التى أتذكرها.

كان مطلوبًا عمل كعكات وفطائر كثيرة، فقد كان هذا هو موسم الزيارات، ودعوات العشاء والحفلات والرقص. وجاء الصبيان ابنا أصحاب المنزل فى إجازة، كانا يدرسان بهارفارد فى بوسطن؛ وكان أحدهما يسمى مستر جورج والآخر مستر ريتشارد، وكلاهما كانا وسيمين وطويلين للغاية. ولم أعرهما اهتمامًا كثيرًا، فبالنسبة لى لم يكن وجودهما يعنى إلا المزيد من الغسيل والمزيد من القمصان للتنشية والكى؛ لكن مارى كانت دائمًا تسترق النظر من نوافذ الطابق الأعلى إلى الفناء، لتلمحهما وهما يركبان الجياد، أو تتسمع فى الممر، وهما يؤديان ثنائيات غنائية مع السيدات المدعوات، وكانت أفضل أغنية لديها هى أغنية "وردة ترالى"، لأن اسمها كان يذكر فيها ــ فى المقطع الذى يقول: *أوه لا، إنها الحقيقة التى كانت تشرق دائمًا فى عينيها، ولهذا أحببت مارى، وردة ترالى*"، وهى نفسها كانت تغنى بصوت جميل أيضًا، وتحفظ الكثير من الأغنيات عن ظهر قلب. وكانا يأتيان إلى المطبخ أحيانًا ويمزحان معها لتغنى. وكانت تدعوهما الوغدين الصغيرين، رغم أنهما كلاهما كانا يكبرانها ببضعة أعوام.

وفى يوم عيد الميلاد، أعطتنى مارى زوجًا من الأكُفّ الصوفية نسجته بيديها، وكنت رأيتها تصنعهما، لكنها كانت ماكرة، قالت لى إنهما

لصديقة صغيرة، ولم أتصور أبدًا أن الصديقة الصغيرة هى أنا. كانا بلون أزرق غامق جميل، وقد طُرزت عليهما زهور حمراء. وأعطيتها كيسًا للإبر صنعته من خمسة مربعات من قماش الفانلة القطنى الأحمر مخيطة معًا عند القمة، ويقفل بشريطين. وشكرتنى مارى، واحتضنتنى وقبلتنى، وقالت أنه أفضل كيس للإبر فى العالم، وأنه شيء لا يمكن شراؤه من المحلات، وأنها لم تر شيئًا مثله أبدًا، وسوف تحتفظ به دائمًا فى أغلى مكان لديها.

وفى هذا اليوم، سقط الثلج بكثافة، وخرج الناس على زحافاتهم، وقد علقت الأجراس على الجياد، وكان صوتها جميلاً للغاية، وبعد أن تناولت العائلة عشاء الكريسماس، تناول الخدم أيضًا عشاءهم، وأكلوا ديكهم الرومى وفطائر اللحم، وغنينا بعض الترانيم معًا، وكنا سعداء.

وكان هذا أسعد عيد ميلاد قضيته فى حياتى، لم أرَ عيدًا مثله لا قبله ولا بعده.

بعد الإجازة عاد مستر ريتشارد إلى المدرسة، لكن مستر جورج بقى فى البيت. فقد أصيب ببرد تسلل إلى رئتيه، وكان يسعل بشدة. وانقلب وجه مستر ومسز ألدرمان پاركينسون، وجاء الطبيب، وهذا جعلنى فى قلق، ولكن قيل أنه لم يكن مصابًا بالسل، وإنما ببرد شديد ولومباجو، ولابد أن يبقى فى الفراش، ويتناول سوائل كثيرة؛ وقد تناول الكثير بالفعل، فقد كان الخدم يحبونه للغاية. وسخنت مارى زرارًا حديديًّا على الموقد قائلة إنه أفضل علاج للومباجو، إذا وُضع فوق الموضع المصاب، وأخذته إليه.

ولم يتحسن قبل أواسط فبراير، وقد فاته الكثير في دراسته هذا الموسم، فقال أنه سينتظر حتى الموسم القادم، ووافقت مسز ألدرمان باركينسون، وقالت إنه بحاجة لاستعادة قوته. ومن ثم فقد بقى، والجميع يدللونه، والوقت متسع لديه، وهو لا يفعل شيئًا، وهذه حالة سيئة لشاب مليء بالحيوية. ولم يكن ثمة نقص في الحفلات التي يذهب إليها أو البنات اللاتي يراقصهن، وأمهاتهن اللاتي يخططن لزواجه من وراء ظهره. وأخشى أنه امتلأ بالغرور، لأنه إذا كان الجميع يعظمون من شأنك يا سيدي، فإنك تصل إلى الاعتقاد بأن هذا هو ما تستحقه.

كانت ماري محقة بشأن الشتاء. فقد كان الثلج في الكريسماس شديد الكثافة، لكنه كان يشبه غطاء من الريش، وبعد سقوطه بدا الهواء أكثر دفئًا. وكان رجال الإسطبل يمزحون ويتقاذفون كرات الثلج التي كانت تتكسر بمجرد ارتطامها.

ولكن سرعان ما جاء الشتاء الحقيقي، وبدأ الثلج يتساقط بجدية. وفي هذه المرة كان صلبًا وليس ناعمًا، مثل كريات الثلج الدقيقة القارصة، وتسوقه رياح عارمة وقاسية، وراح يتكوم متراكمًا في طبقات عالية. وخشيت أن ندفن كلنا أحياء. تكوم الثلج على السقف وتدلت منه أعمدة حتى أنه كان يجب أن تحترس وأنت تمر تحتها، فمن الممكن أن تقع وهي حادة ومدببة، وقد سمعت ماري عن سيدة أصيبت بواحدة منها فقتلتها لأنها اخترقت جسدها مثل السيخ. وذات يوم نزل الثلج بكثافة وغطى كل فروع الأشجار بطبقة ثلجية، وفي اليوم التالي كانت تلمع في الشمس كما لو أنها آلاف من قطع الألماس، لكنها كانت ثقيلة على الأشجار، فانكسر العديد من

فروعها. وأصبح العالم كله أبيض قاسيًا، شروق شمسه يعمي الأبصار، حتى أننا كنا نضطر أن نظلل على أعيننا ولا ننظر إليها طويلاً.

كنا نبقى داخل البيت أطول وقت ممكن، فثمة خطورة من لسعة الصقيع، خاصة في أصابع اليدين والقدمين؛ وكان الرجال يخرجون وقد أحكموا لف لفاعاتهم حول آذانهم وأنوفهم، وكانت أنفاسهم تندفع كأنها سحب صغيرة. كانت العائلة تضع أبسطة الفرو في الزحافة، ويرتدون دثاراتهم ويلتفون بعباءاتهم ويخرجون للزيارات، أما نحن فلم يكن لدينا مثل هذه الأشياء الجالبة للدفء. وفي الليل كنت أنا وماري نضع شيلاننا فوق أغطية الفراش، ونلبس جواربنا وقميصًا داخليًّا آخر للنوم، ورغم ذلك لم نكن نشعر بالدفء. وفي الصباح تكون النيران في المدافئ قد انطفأت، وآجراتنا الساخنة قد بردت، ونصبح مثل الأرانب المرتعشة.

تحسن الجو إلى حد ما في آخر يوم من فبراير، وبدأنا نخرج لأداء بعض المشاوير، بعد أن نلف أقدامنا بأقمشة قطنية ونضعها في أحذية عالية الرقبة أخذناها من عمال الإسطبل بعد رجاء. وكنا نلف أنفسنا في أكبر عدد نقدر عليه من الشيلان التي نملكها أو نستعيرها. ونمضي في سيرنا إلى مسافات بعيدة، وقد نصل إلى الميناء مثلاً. كان البحر متجمدًا تمامًا، وتتكوم على الشاطئ قطع وشرائح ضخمة من الجليد؛ وكان ثمة منطقة خالية من الأكوام الثلجية حيث تتزلج السيدات والسادة. كانت حركة بديعة، بدت السيدات وكأنهن يجرين على عجلات تحت أثوابهن. قلت لماري أن هذا لابد أن يكون ممتعًا للغاية. وكان السيد جورج هناك، ينزلق على الجليد ويده في يد سيدة ترتدي وشاحًا من الفرو، وقد رآنا وشوح لنا بذراعه في مرح، وسألت ماري إن كانت قد تزلجت من قبل، فقالت لا.

في ذلك الوقت تقريبًا بدأت ألاحظ تغيرًا في ماري. كانت تتأخر في المجيء إلى النوم، وحتى عندما تأتي كانت لا ترغب في الكلام. لم تعد تصغي إلى ما أقوله لها، ولكنها كانت تبدو وكأنها تسمع شيئًا آخر، وكانت تنظر باستمرار إلى الممرات خارج الباب، أو من النوافذ، أو من فوق كتفي. وذات ليلة، وربما كانت تظن أنني قد نمت، رأيتها تخبئ شيئًا في منديل، تحت لوح الأرضية حيث تخفي أعقاب الشموع والكبريت؛ وعندما نظرت في اليوم التالي وهي خارج الغرفة، وجدت أنه خاتم ذهبي. في البداية ظننت أنها سرقته، فيكون هذا أكبر من كل ما كانت تسرقه من أشياء صغيرة، ويكون أمرًا سيئًا للغاية إذا أمسكوا بها؛ رغم أن أحدًا في البيت لم يعلن عن فقد خاتم.

لكنها لم تعد تضحك وتمزح كما كانت من قبل، ولم تعد تقوم إلى عملها بهمة كما في السابق. أقلقني ذلك. ولكن عندما سألتها، وسألت إن كان ثمة مشاكل، ضحكت وقالت أنها لا تعرف من أين آتي بمثل هذه الأفكار. لكن رائحتها تغيرت، من رائحة جوز الطيب، إلى رائحة السمك المملح.

بدأ الثلج والجليد في الذوبان، وعادت بعض الطيور وبدأت تغني وتنادي؛ فعرفت أن الربيع على الأبواب. وفي أحد الأيام، في أواخر مارس، ونحن نحمل الغسيل النظيف في السلال صاعدات السلم الخلفي لتعليقه في غرفة التجفيف، قالت ماري أنها مريضة؛ وجرت نازلة السلم وخرجت إلى الفناء الخلفي إلى خلف المباني الخارجية. وضعت السلة وتبعتها، كما أنا، وبدون شال، ووجدتها في هذا البرد راكعة على ركبتيها

فى الثلج المبلل قرب المرحاض، الذى لم تتمكن من الوصول إليه، وهى تتقيأ بشدة وعنف.

ساعدتها على الصعود، وكانت جبهتها باردة ورطبة، قلت أنها يجب أن تبقى فى الفراش، لكن هذا أغضبها، وقالت أن المشكلة فى شىء أكلته، ولابد أنه حساء الضأن الذى تناولناه بالأمس، وقد تخلصت منه الآن. لكنى أكلت نفس الشيء، وأحسست بأننى على ما يرام. وجعلتنى أعدها بعدم الكلام فى هذا الموضوع، ووعدتها. ولكن، عندما حدث نفس الشىء بعد أيام قلائل، ثم مرة أخرى فى الصباح التالى، شعرت بالقلق الشديد، فكثيرًا ما رأيت أمى فى تلك الحالة، وأعرف رائحتها اللبنية، وبدأت أفهم ما هى المشكلة التى تعانى منها مارى.

فكرت فى الأمر كثيرًا، وقلبته جيدًا فى رأسى، وعندما اقترب أبريل من نهايته، واجهتها به، وأقسمت بكل إخلاص أنها إذا وثقت بى فلن أخبر أحدًا، لأننى أعتقد أنها بحاجة لمن تثق به، فقد كانت تقضى الليل فى قلق، وظهرت دوائر سوداء تحت عينيها، وقد أثقل عليها السر الذى تحمله وحدها. فانهارت وبكت، وقالت إن شكوكى فى محلها، وقد وعد الرجل بأن يتزوجها، وأعطاها خاتمًا، فصدقته، لأنها ظنت أنه يختلف عن الآخرين، لكنه تراجع فى وعوده، والآن لا يريد أن يتحدث إليها، وكانت يائسة ولا تعرف ماذا تفعل.

سألتها من هو الرجل، لكنها لم تكن لتخبرنى؛ وقالت أنه ما أن يُعرف نوع الورطة التى وقعت فيها، فسوف تطرد، ذلك أن مسز ألدرمان باركينسون تتمسك بآراء شديدة الصرامة؛ ومن ثم فماذا سوف يحدث لها؟

بعض البنات فى مكانها قد يعدن إلى عائلاتهن، ولكنها ليس لديها عائلـــة؛ والآن لن يقبل رجل محترم أن يتزوجها، وربما تضـــطر للـــذهاب إلـــى الشارع، وتصبح خليلة للبحارة، حيث لن تكون هناك وسيلة أخرى لإطعام نفسها وطفلها. وفى مثل هذه الحياة سوف تلقى نهايتها سريعًا.

شعرت بقلق شديد عليها، وعلى نفسى أيضًا، فقد كانت الصـــديقة التى أثق بها، بل الصديقة الوحيدة لى فى هذا العالم. حاولـــت أن أخفـــف عنها بأفضل طريقة أستطيعها، ولكنى لم أعرف ماذا أقول.

وطوال شهر مـــايو، كنا أنا ومارى نتـــبادل الأحـــاديث كثيـــرًا عما يجب أن تفعله. قلت إنه لابد أن يكون ثمة بيت للعنايـــة بمثـــل هـــذه الحالات أو شيء من هذا النوع يمكن أن يأخذها، فقالت أنها لا تعرف أى بيت بهذا الوصف، ولكن حتى لو كان هناك، فإن البنـــات الصـــغيرات إن ذهبن إلى مثل هذا المكان فإنهن دائمًا ينتهين بالموت، لأنهن يصبن بالحمى بمجرد الولادة؛ كما أنها تعتقد أن الأطفال فى مثل هـــذه الأمـــاكن كـــانوا يُخنقون سرًا لكى لا يكونوا عبئًا على خزانة الدولة؛ وأنهـــا ســـرعان مـــا سوف تلقى نصيبها من الرمى خارجًا لتموت فى مكان آخر. وتحدثنا عـــن طريقة ما لتوليد الطفل بأنفسنا، والاحتفاظ به سرًا ثم التخلى عنه لدار أيتام؛ لكنها قالت أن حالتها سوف تظهر بسرعة؛ وأن مسز هنـــى لهـــا عينـــان حادتان، وقد علقت بالفعل على أن مارى يزداد وزنها، ولن يكون ثمة أمل فى أن يمضى الأمر دون اكتشاف.

قلت أنها لابد أن تحاول لمرة أخيرة أن تتكلم مع الرجل المسئول، وأن تحاول أن تحكِّم الجانب الطيب فيه. وقد فعلت ذلك؛ لكنها عندما عادت

من اللقاء ـ والذى لابد أنه كان فى مكان قريب، حيث لم تتغيب وقتًا طويلاً ـ كانت أكثر غضبًا من أى وقت آخر. قالت أنه أعطاها خمسة دولارات؛ وأنها قالت له أهذا هو كل ما يساويه طفله فى عينيه؟ فقال أنها لا تستطيع أن تصطاده بهذه الطريقة؛ وأنه يرتاب فى أن الطفل طفله بالفعل، حيث أنها كانت شديدة الإلحاح معه، حتى أنه شك فى أنها يمكن أن تكون قد فعلت ذلك مع آخرين؛ وأنه إذا هددته بإثارة فضيحة، أو ذهبت إلى عائلته، فسوف ينكر الأمر ويدمر ما بقى من سمعتها؛ وإذا كانت تريد نهاية سريعة لمتاعبها يمكنها ببساطة أن تغرق نفسها فى البحر.

قالت أنها لم تعد تكن له ذلك الحب الحقيقى الذى شعرت به يومًا نحوه؛ وألقت بالدولارات الخمس على الأرض، وبكت بحرقة لمدة ساعة؛ لكننى لاحظتها وهى تضع النقود بحرص تحت اللوح المقلقل فيما بعد.

فى يوم الأحد التالى، قالت أنها لن تذهب إلى الكنيسة، ولكن ستتمشى وحدها؛ وعندما عادت، قالت أنها ذهبت إلى الميناء وقد سيطرت عليها فكرة إلقاء نفسها فى البحيرة، ووضع نهاية لحياتها. وأخذت أتوسل إليها باكية ألا تفعل مثل هذا الشىء البشع.

وبعد يومين قالت أنها ذهبت إلى شارع لومبارد، وسمعت هناك عن طبيب يمكن أن يساعدها؛ وهو الطبيب الذى تذهب إليه العاهرات حين يحتجن إلى مساعدته. وسألتها بأية طريقة يمكن أن يساعدها، فقالت أننى لا يجب أن أسأل؛ ولم أعرف ماذا تعنى، فلم أسمع بمثل هؤلاء الأطباء من قبل فى حياتى. وسألتنى إذا كان يمكن أن أقرضها مدخراتى، والتى كانت

قد وصلت فى ذلك الوقت إلى ثلاثة دولارات، وكنت أنوى شراء ثوب صيفى بها. قلت أننى سوف أقرضها لها بكل سرور.

وحينئذ أحضرت ورقة من ورق الكتابة، والتى جاءت بها من المكتبة فى الطابق الأسفل، وقلمًا وحبرًا، وكتبت: *إذا مت، تذهب كل أشيائى إلى جريس ماركس*. ثم وقعت باسمها. وبعد ذلك قالت: فى وقت قريب جدًا ربما أكون ميتة. لكنك سوف تظلين على قيد الحياة. ونظرت لى تلك النظرة الباردة والمزدرية، التى كنت أراها تنظر بها إلى الآخرين من وراء ظهورهم، ولكن ليس لى أبدًا من قبل.

أثار ذلك حذرى بشدة، وتشبثت بيديها، وتوسلت إليها ألا تذهب إلى هذا الطبيب مهما كان؛ لكنها قالت أنها يجب أن تذهب، وأننى لا يجب أن أستمر فى مثل هذه التوسلات، وإنما يجب أن أعيد القلم والحبر سرًا إلى منضدة الكتابة فى المكتبة، وأن أستمر فى أداء واجباتى اليومية؛ وغدًا سوف تخرج خلسة بعد وجبة منتصف النهار، وأننى يجب إذا سأل أحد عنها أن أقول أنها ذهبت إلى الحمام، أو أنها فى غرفة التجفيف بالطابق الأعلى، أو أى عذر يمكن أن يرد على ذهنى؛ ثم يجب أن أتسلل وألحق بها، حيث أنها يمكن أن تلقى متاعب فى العودة إلى البيت.

لم تنعم أىّ منا بنوم جيد فى تلك الليلة؛ وفى اليوم التالى فعلت كما قالت، واستطاعت أن تترك البيت دون أن يلحظها أحد، وقد ربطت النقود فى عقدة بمنديلها؛ وبعد قليل تبعتها، ولحقت بها. كان الطبيب يعيش فى بيت كبير نوعًا ما، فى أحد الأحياء الراقية. دخلنا البيت من مدخل الخدم؛ واستقبلنا الطبيب بنفسه. كان أول شىء فعله هو عدّ النقود. كان

رجلاً ضخم الجثة يرتدى معطفًا أسود طويلاً، ونظر إليها بقسوة؛ وطلب منى أن أنتظر فى مكتب الاستقبال، ثم قال أننى إذا بحث بأى شىء عن الأمر فسوف ينكر أنه رآنى فى حياته. ثم خلع معطفه وعلقه على مشجب، وبدأ يشمر أكمامه، كما لو كان يستعد لدخول معركة.

كان يبدو يا سيدى شبيهًا جدًّا بطبيب قياس الرءوس الذى أخافنى حتى جاءتنى نوبة، قبيل مجيئك هنا مباشرة.

ذهبت مارى معه خارج الغرفة، ووجهها أبيض كالملاءة؛ ثم سمعت صراخًا، وبكاء، وبعد بعض الوقت دفعها الطبيب إلى داخل مكتب الاستقبال من الباب. كان ثوبها مبتلاً بالكامل، ويلتصق بها كقماط مبلل، وكانت تسير بصعوبة شديدة؛ ووضعت ذراعى حولها، وساعدتها للخروج من هذا المكان بأفضل ما أستطيع.

عندما وصلنا إلى البيت كانت منحنية تمامًا وتمسك بطنها بيديها؛ وقالت أننى يجب أن أساعدها لصعود السلم. وقد فعلت، وبدت هى فى ضعف شديد. ألبستها ثوب نومها ووضعتها فى السرير، وظلت مرتدية رداءها الداخلى، متغضنًا بين ساقيها. وسألتها ماذا حدث، وقالت أن الطبيب أخذ سكينًا وقطع به شيئًا فى داخلها؛ وقال أنه سوف يكون هناك ألم ونزيف، وقد يستمر ذلك لعدة ساعات، ولكن بعد ذلك سوف تكون على ما يرام مرة أخرى. وقد أعطته اسمًا مستعارًا.

وبدأت أتبين أن ما قطعه الطبيب داخلها كان هو الجنين، وهو أمر فكرت أنه شرير للغاية؛ لكنى أيضًا فكرت أنه إما ميت واحد بهذه

الطريقة، أو اثنان بطريقة أخرى، لأنه إذا لم يحدث ذلك، فمن المؤكد أنها كانت ستغرق نفسها؛ وهكذا لم أجد في نفسي قدرة على معاتبتها.

كانت تعاني من ألم عظيم. وفي المساء، قمت بتسخين قالب طوب وحملته إلى أعلى، لكنها لم تسمح لي بأن أستدعي أحدًا. وقلت أنني سوف أنام على الأرض، حيث أن ذلك سيجعلها أكثر راحة؛ وقالت أنني أفضل صديقة في حياتها كلها، وأنه مهما يحدث فلن تنساني أبدًا. لففت نفسي في شالي، ووضعت مريلتي تحت رأسي، ورقدت على الأرض التي كانت شديدة الصلابة؛ وما هو أشد من ذلك كان أنات ماري المعذبة، فلم أستطع أن أنام في البداية. ولكني بعد مرور بعض الوقت أصبحت أكثر هدوءًا، فاستغرقت في النوم، ولم أستيقظ إلا مع طلوع الصباح. وعندما استيقظت، كانت ماري هناك، ميتة في الفراش، وعيناها مفتوحتان على آخرهما وتحدقان.

لمستها، لكنها كانت باردة. وقفت وقد تجمدت من الخوف؛ لكني استجمعت نفسي، وذهبت إلى الصالة، وأيقظت خادمة الغرف، أجنس، وألقيت نفسي على ذراعيها باكية؛ قالت: ماذا عسى أن يكون الأمر؟ لم أستطع الكلام، لكني أخذتها من يدها، واتجهت بها حتى أدخلتها غرفتنا، إلى حيث كانت ماري. أمسكتها أجنس بيديها، وهزتها من كتفيها، ثم قالت: يا إلهي، لقد ماتت.

وقلت: يا إلهي يا أجنس، ماذا أفعل؟ لم أكن أعرف أنها سوف تموت، والآن سوف يلقون اللوم علي، لأنني لم أخبر أحدًا أنها كانت مريضة؛ لكنها جعلتني أعدها بألا أفعل. وكنت أنشج باكية وأعتصر يدي.

رفعت أجنس أغطية الفرش ونظرت تحتهـا، كـان رداء النـوم وقميصها الداخلي غارقين في الدم، وكانت الملاءة كلهـا حمـراء، وفـي الأماكن التي جفت كان اللون بنيًّا. قالت: هذا أمر شرير، وقالـت لـي أن أبقى حيث أنا، وذهبت فورًا لإحضار مسز هنى. وسمعت خطواتها تذهب بعيدًا، وبدا لي أنها غابت وقتًا طويلاً.

جلست على المقعد في غرفتنا ونظرت إلى وجه مـاري؛ كانـت عيناها مفتوحتان، وشعرت بأنها تبادلني النظر من ركني عينيها. فكـرت أنني رأيتها تتحرك، وقلت: ماري، هل تتظاهرين؟ فأحيانًا كانت تتظـاهر بأنها ميتة، خلف الملاءات في غرفة التجفيف، لتخيفني. ولكنها لـم تكـن تتظاهر هذه المرة.

ثم سمعت أصوات أقدام تسرع عبر الممر. وملأنـي الرعـب. لكنني وقفـت. ودخلـت مسز هنى إلى الغرفـة؛ لم تكن تبدو حزينـة، بل غاضبة، وأيضًا مقروفة، كما لو كانت تشم رائحة سيئة. ومن المؤكـد أنه كانت هناك رائحة في الغرفة؛ كانت رائحة قش مبلل، تتصـاعد مـن الحشية، وكذا الرائحة الملحية للدم؛ يمكنك أن تشم رائحة مشابهة لذلك جدًّا في دكان الجزار.

قالت مسز هنى، يا له من إثم وعار، لابد أن أذهب لإخبار مسز باركينسون. وانتظرنا. وجاءت مسز ألدرمان باركينسون، وقالـت: تحـت سقفي، يا لها من فتاة مخادعة. ونظرت مباشرة نحوي، رغم أنهـا كانـت تتكلم عن ماري. ثم قالت: لماذا لم تخبريني بذلك يا جريس؟ قلت: عفـوك

يا مدام، فقد طلبت مارى منى ألا أفعل. قالت أنها ستكون أفضل في الصباح. وبدأت أبكى، وقلت: لم أكن أعلم أنها ستموت!

قالت أجنس، التى كانت شديدة التقوى كما أخبرتك، قالت: "أجرة الخطية هى موت"(*).

قالت مسز ألدرمان پاركينسون: كان هذا تصرفًا كريهًا منك يا جريس، لكن آجنس قالت: إنها مجرد طفلة، وهى مطيعة جدًا، وكل ما فعلت أنها سمعت الكلام.

ظننت أن مسز ألدرمان پاركينسون سوف توبخها على التدخل، لكنها لم تفعل. أمسكت بذراعى برقة، ونظرت إلى عينى، وقالت: من كان الرجل؟ لابد أن يظهر الوغد ويدفع ثمن جريمته. أظن أنه كان أحد البحارة، هناك فى الميناء، فليس لديهم ضمير يزيد على ما لذبابة. هل تعرفين يا جريس؟

قلت: إن مارى لم تكن تعرف أى بحارة، كانت تقابل أحد السادة، وكانا مخطوبين، إلا أنه حنث بوعده ورفض الزواج بها.

وقالت مسز ألدرمان پاركينسون بحدة: أى سيّد؟

قلت: عفوًا يا مدام، لا أعرف. لم تقل لى إلا أنك لن يرضيك ذلك أبدًا، إذا عرفت من هو.

ولم تكن مارى قالت ذلك، لكنى كانت لدىّ شكوكى.

(*) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ٦:٢٣.

وهنا، بدا على مسز ألدرمان باركينسون التفكير العميق، وأخذت تسير جيئةً وذهابًا بطول الغرفة؛ ثم قالت: أجنس، وجريس، لن نناقش الأمر أكثر من هذا، فلن يؤدى إلا إلى مزيد من التعاسة والشقاء، وليس من العقل البكاء على اللبن المسكوب؛ واحترامًا للموت لن نقول سبب موت مارى. سوف نقول أنها كانت تعانى من حمى خفيفة. سوف يكون ذلك أفضل للجميع.

ونظرت إلى كل منا نظرة قاسية، فانحنينا أمامها. وطوال الوقت كانت مارى فى فراشها، تسمعنا، وتسمع خططنا لقول تلك الأكاذيب عنها؛ وفكرت فى نفسى، إنها لن تشعر بالراحة لذلك.

لم أقل شيئًا عن الطبيب، وهم لم يسألوا. وربما لم يفكروا أصلاً فى مثل هذا الأمر. ولابد أنهم فكروا أن الأمر كان مجرد فقدان طفل، كما يحدث كثيرًا مع النساء؛ وأن مارى ماتت بسبب ذلك كما يحدث كثيرًا للنساء. أنت أول إنسان أخبره بأمر الطبيب يا سيدى؛ أعتقد عن ثقة أن الطبيب هو الذى قتلها بسكينه؛ هو وذلك السيد معًا. لأن القاتل الحقيقى ليس دائمًا هو من يضرب الضربة، وقد وصل الحال بمارى إلى الموت بسبب ذلك السيد المجهول، هذا مؤكد، ويتساوى مع أن يكون هو الذى أمسك بالسكين وأغمدها فى جسدها بنفسه.

غادرت مسز ألدرمان باركينسون الغرفة، وبعد برهة جاءت مسز هنى، وقالت أن علينا أن نأخذ الملاءة من على الفراش، وكذا ثوب نومها وملبسها الداخلى، ونغسل الدم منها؛ ونغسل الجسد، ونأخذ الحشية ليتم حرقها، ونشرف على ذلك بأنفسنا؛ ويوجد غطاء حشية آخر بجانب المكان

الذى تخزن فيه الأغطية، ويمكننا أن نحشوه بالقش؛ وعلينـا أن نحضـر ملاءة نظيفة. وسألت إن كان يوجد رداء نوم آخر لماري لإلباسها إياه، قلت إنه يوجد، لأن ماري كان لديها اثنان؛ لكن الآخر كان في الغسيل. ثم قلت أنني يمكن أن أعطيها رداء من عندي. وقالت علينا ألا نخبر أحـدًا علـى الإطلاق بخبر موت ماري حتى يتم إلباسها بشكل لائق، وتغطيـة وجههـا بالغطاء وإغلاق عينيها، وتمشيط شعرها وترتيبه. ثم خرجت من الغرفـة، وقمت أنا وأجنس بكل ما قالت؛ وكانت ماري خفيفة أثناء رفعهـا، لكنهـا كانت صعبة الإعداد.

قالت أجنس: هذا الأمر به أكثر مما يبدو في الظاهر، وأعجب من كان هذا الرجل. ونظرت لي. قلت: أيًّا كان، فهو لا يزال حيًّـا وبصـحة جيدة، ومن الممكن جدًّا أنه يستمتع بتناول إفطاره في هذه اللحظة، ولا يمر بخاطره أية أفكار عن ماري المسكينة، اللهم إلا أنها لا تزيد عـن مجـرد ذبيحة معلقة في دكان جزار.

قالت أجنس: إنها لعنة حواء التي يجب أن نتحملها جميعًا، وكنت أعرف أن ماري قد يضحكها مثل هذا التفكير. ثم سمعت صوتها، واضحا كأي صوت آخر، في أذني مباشرة، يقـول: دعينـي أدخـل. وأذهلتنـي المفاجأة، ونظرت بحدة إلى ماري، التي كانت في تلك اللحظة راقدة علـى الأرض، حيث كنا نجهز الفراش. لكن لم تبد عليها أية علامة علـى أنهـا قالت أي شيء؛ وكانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، وتحدقان في السقف.

وفكرت وأنا أرتعد خوفًا، لكنني لم أفتح النافذة. وجريـت عبـر الغرفة وفتحتها، فلابد أنني سمعت خطأ وأنها تقول: دعيني أخرج. قالـت

أجنس: ماذا تفعلين، إن البرودة مثل برودة الجليد بالخارج؟ قلت: الرائحة تصيبنى بالغثيان. ووافقت أن الغرفة يجب تهويتها. كنت أتمنى أن تطير روح مارى خارج النافذة الآن، ولا تبقى بالداخل، تهمس بأشياء فى أذنى. لكنى سألت نفسى إذا ما كنت قد تأخرت كثيرًا فى فتح النافذة.

وأخيرًا، تم إعداد كل شيء، وربطت الملاءة ورداء النوم معًا وأخذتهما إلى المغسلة بالطابق الأسفل، وملأت دلوًا من الماء البارد، لأن الماء البارد هو الذى يغسل الدم، والماء الحار يثبته. ولحسن الحظ لم تكن الغسالة موجودة فى المغسلة وإنما كانت فى المطبخ الرئيسى تسخن المكاوى للكى وتثرثر مع الطاهية. وأخذت أحك الثياب، وخرج الكثير من الدم ليحول المياه إلى لون أحمر؛ وألقيت ذلك الماء فى الحوض وملأت دلوًا آخر، ونقعت الثياب فيه مع بعض الخل ليساعد على تغيير الرائحة. وفى هذه اللحظة كانت أسنانى تصطك، سواء بسبب البرد أو الصدمة، وبينما كنت أجرى لأصعد السلالم شعرت بدوخة شديدة.

كانت أجنس تنتظر فى الغرفة مع مارى، وكل شيء قد تم إعداده جيدًا. عيناها مغلقتان كما لو كانت نائمة، ويداها متقاطعتان على صدرها. وأخبرت أجنس بما فعلت، فأرسلتنى لأخبر مسز ألدرمان باركينسون بأن كل شيء قد تم إعداده. فعلت ذلك وعدت إلى الطابق الأعلى، وسرعان ما جاء جميع الخدم إلى الغرفة ليروا. كان بعضهم يبكى، ووجوههم حزينة، كما يناسب الموقف؛ ولكن لا يزال هناك دائمًا بعض الإثارة حول الموت، واستطعت أن أرى أن الدم كان يجرى بقوة أكبر فى عروقهم عما هو فى الأيام العادية.

كانت أجنس هى التى تتكلم. قالت إنها كانت حمى مفاجئة، وقد كذبت جيدًا جدًّا بما لا يتناسب مع امرأة فى تقواها. أما أنا، فقد وقفت بجوار قدمى مارى، صامتة. وقالت إحداهن: مسكينة يا جريس، تستيقظين فى الصباح وتجدينها بجوارك فى الفراش باردة ومحدقة، دون أى انتظار. وقالت أخرى: إن جلدى يرتعش لمجرد التفكير فيها، أعصابى لم تكن لتتحمل هذا أبدًا.

ثم بدا لى أن ذلك هو ما حدث فعلاً؛ استطعت أن أتصوره، أن أستيقظ ومارى فى الفراش بجوارى، ألمسها، وأجد أنها لا تكلمنى، والرعب والحزن الذى يمكن أن أشعر به؛ وفى تلك اللحظة وقعت على الأرض فى إغماءة أشبه بالموت.

قالوا أننى رقدت بهذه الطريقة عشر ساعات، ولم يستطع أحد إيقاظى، رغم أنهم حاولوا بالقرص، والصفع، والماء البارد، والريش المحترق تحت أنفى؛ وأننى عندما استعدت وعيى.لم يكن يبدو أننى أعرف أين أنا، أو ماذا حدث؛ وأننى ظللت أسأل أين ذهبت جريس. وعندما قالوا لى أننى أنا نفسى جريس، لم أصدقهم، ولكنى بكيت، وحاولت أن أهرب من البيت، لأننى، كما قلت، فكرت أن جريس تاهت، وأنها ذهبت إلى البحيرة، وأننى لابد أن أبحث عنها. قالوا لى أخيرًا أنهم خشوا على سلامة عقلى، وأن الصدمة الكبيرة لابد أنها قد أثرت عليه؛ ولا عجب فى هذا، باعتبار ما حدث.

ثم دخلت فى نوم عميق مرة ثانية. وعندما استيقظت، كان قد مر يوم. ومرة أخرى عدت إلى إدراكى بأننى جريس، وأن مارى ماتت.

وتذكرت ليلة كنا نلقى قشر التفاح خلف أكتافنا، وأن مارى كسرت قشرتها ثلاث مرات؛ وقد تحقق كل شيء، فلم تتزوج أى رجل علـــى الإطـــلاق، والآن لن تتزوج أبدًا.

وقد عجزت عن تذكر أى شيء قلته أو فعلته خلال الوقت الـــذى استيقظت فيه، بين الإغماءتين الطويلتين؛ وقد أقلقنى ذلك.

وهكذا، فإن أسعد أيام حياتى قد انتهت وانقضت إلى الأبد.

الفصل السابع

سياج الأفاعى

مكدرموت .. كان كالح الوجه، فظ الطباع. لم يكن في شخصيته ما يبعث على أي إعجاب... شاب نشيط سريع الحركة حتى أنه كان يمكن أن يجرى فوق سور حديقة متعرج مثل سنجاب، أو يقفز فوق بوابة عالية بدلاً من أن يفتحها أو حتى يتسلقها....

وكانت جريس حسنة المعشر لطيفة الطباع، وربما كانت مثارًا لغيرة نانسى... وهناك مجال كبير لفرضية أنها، بدلاً من أن تكون هى المحرضة والمساعدة على تنفيذ هاتين الجريمتين المروعتين، لم تكن فى الواقع إلا ضحية سيئة الحظ فى كل الأحداث البشعة. فمن المؤكد أنه لم يظهر شىء فى شخصية الفتاة يوحى بأنها من الممكن أن تتحول إلى تجسيد للشر المستطير كما حاول مكدرموت أن يصورها، حتى لو لم نأخذ فى اعتبارنا سوى نصف التصريحات المنسوبة إليه فى اعترافه. ومن المعروف جيدًا أنه لم يكن يأبه بالصدق....

ويليام هاريسون،

"Recollectios of the Kinnear Tragedy"

مكتوبة لصحيفة *Newmarket Era*، ١٩٨٠

ولكن لو نسيتنى برهة
ثم تذكرت فيما بعد، فلا تشعر بالأسى
وإذا ترك الظلام والفساد أثرًا
لكل ما خطر ذات يوم ببالى..
فأن تنسى الآن وتبتسم
خير من أن تتذكر وتشعر بالأسى

كريستينا روزيتى،
"Remember," 1849

ـ ٢١ ـ

يتناول سايمون قبعته وعصاه من خادمة زوجة المحافظ، ويتهادى خارجًا. بدا ضوء الشمس شديد التوهج، قاسيًا على عينيه، وكأنه كان جالسًا في غرفة مظلمة مغلقة لمدة طويلة، رغم أن غرفة الخياطة ليست مظلمة بأى حال. لكن قصة جريس هى المظلمة؛ ويشعر كأنه خارج لتوه من مجزر. لماذا أثرت فيه تلك القصة عن الموت كل هذا التأثير؟ كان يعرف أن مثل هذه الأشياء تحدث بالطبع، وأن مثل هؤلاء الأطباء موجودون، الأمر، إذن، ليس أنه لم ير امرأة ميتة فى حياته. لقد رأى كثيرات؛ لكنها كانت أجسادًا ميتة تمامًا. كانت مجرد "عينات" دراسية. لم يضبط واحدة منهن، إذا صح التعبير، "أثناء الحالة". وهذه الفتاة، مارى هويتنى، لم تبلغ بعد ... ماذا؟ السابعة عشرة؟ فتاة صغيرة. يا له من أمر محزن! إنه يشعر بالرغبة فى غسل يديه.

لا شك أن تحول الأحداث جعله يفقد حذره، وعليه أن يعترف أنه كان يتابع قصتها باستمتاع شخصى ـ فقد عاش أيامًا أكثر سعادة فى حياته، ولديه ذكرياته الخاصة، ومنها صور لملاءات نظيفة وعطلات سعيدة، وخادمات شابات مرحات ـ ثم هذه المفاجأة الأليمة فى بؤرة الذكريات. لقد فقدت ذاكرتها أيضًا، ولو أن ذلك لبضع ساعات، وأثناء نوبة

هستيرية طبيعية جدًّا ــ ورغم ذلك فقد تظهر أهميتها. ويبدو، حتـــى الآن، أنها لم تفقد الذاكرة إلا لهذه الساعات؛ وفيما عدا ذلك، فإن كل زرار وكل عقب شمعة موجود فى روايتها. ولكنه أعاد تقليب الأمر، إنه لا يســتطيع التأكد، ولديه شعور غير مريح بأن كثرة التفاصيل قد تكــون نوعًــا مــن التشوش، طريقة لإبعاد العقل عن حقيقةٍ أساسية مخبأة كالزهور النضــرة المزروعة فوق أحد القبور. وأيضًا، يذكّر نفسه، الشاهد الوحيد الذى كــان يمكنه تأكيد شهادتها ــ إذا كان ذلك فى قاعة محكمة ــ لن يكون إلا مارى هويتنى نفسها، وهى غير موجودة لتدلى بهذه الشهادة.

وعلى يساره فى آخر الممشى تأتى جريس بنفسها، تسير ورأسها منكس، وقد أحاط بها رجلان منفران، لابد أنهما حارسا الســجن. يمــيلان عليها بشدة وكأنها ليست قاتلة وإنمــا كنز ثمــين ينبغى الحــفاظ عليــه. ولا تعجبه طريقتهما فى الالتصاق بها، ولكن مــن الطبيعــى أن حياتهمــا ستكون فى غاية التعاسة إذا استطاعت الهرب من قبضتهما. ورغم أنه يعلم حيدًا أنها تؤخذ إلى السجن كل ليلة، ويغلق عليها فى زنزانة ضيقة، إلا أنه يشعر اليوم بشدة كم هو كريه هذا الوضع. كانا يتحادثان معًا طــوال فترة ما بعد الظهر وكأنهما جالسان فى أحد المنتديات، ثم ها هو حــر طليــق كالهواء وله أن يفعل ما يشاء، بينما هى تُساق ليغلق عليها خلف الأسوار، حبيسة فى سجن مقبض وكئيب ــ كئيب عن عمد، فإن لم يكــن الســجن كذلك فكيف يكون العقاب؟

حتى كلمة "العقاب" اليوم يقشعر بدنه لهــا. لا يمكنــه أن ينحــى مارى هويتنى عن عقله. راقدة فى الملاءة ــ الكفن المضمخة بالدم.

لقد بقى معها اليوم فترة أطول من المعتاد. ولديه موعد بعد نصف ساعة على عشاء مبكر عند المبجل ڤرينجر. وليس لديه أى شعور بالجوع. ويقرر أن يتمشى على شاطئ البحيرة، سوف يفيده الهواء، وربما يستعيد شهيته.

ويعود ليتأمل، لقد كان محقًا عندما لم يستكمل دراسته كجراح. كان أكثر أساتذته إثارة للفزع فى مستشفى جاى بلندن الطبيب الشهير برانسبى كوبر، وقد اعتاد أن يقول أن الجراح الجيد، مثل النحات الجيد، يجب أن تكون لديه المقدرة على الفصل بين نفسه وبين العمل الذى يقوم به. فالنحات لا يجب أن يسمح لنفسه بأن ينصرف عن عمله إلى جمال الموديل وسحرها، وإنما يجب أن ينظر إليها بموضوعية كمجرد مادة أولية أو صلصال يشكل منه عمله الفنى. كذلك الجراح هو نحات للحم الحى، يجب أن تكون لديه مقدرة على أن يقطع بسكينه الجسد البشرى بدقة وإصرار كما لو كان ينحت قطعة فنية دقيقة. فالمطلوب هو يدٌ باردة وعين ثابتة. وهؤلاء الذين يشعرون بمعاناة المريض بشدة هم الذين تنزلق السكين من بين أصابعهم. ليس المريض بحاجة إلى تعاطفك، وإنما إلى مهارتك.

حسنًا جدًا، يفكر سايمون، لكن الرجال والنساء ليسوا تماثيل، ليسوا كالرخام بلا حياة، رغم أنهم يصبحون بلا حياة فى الأقسام الجراحية بالمستشفيات، بعد أن يقضوا فترة مرعبة من الشدة والقلق والعذاب. وسرعان ما اكتشف فى مستشفى جاى أنه ليس مغرمًا برؤية الدم.

لكنه تعلم درسًا غاليًا. ما أسهل أن يموت الناس، هذه واحدة، وما أكثر ما يموتون، وتلك أخرى. ما أعجب الروح والجسد فى التصاقهما معًا. زلة سكين، ويتحول الإنسان إلى شخص أبله. فإذا كان الأمر كذلك،

فلماذا لا يحدث العكس؟ هل يمكنك أن تقص وتجمع وتخيط القطع إلى بعضها معيدًا تركيبها فينتج عبقري؟ أى أسرار أخرى أمامنا لنكتشفها في الجهاز العصبي؟ تلك الشبكة المصنوعة من المادة والأثير معًا، شبكة الخيوط التى تجرى فى كل أنحاء الجسد، والمكونة من الكثير جدًّا من المفاتيح العصبية، كلها تقود إلى العقل، ذلك العرين المركزى المظلم الذى ترقد فيه عظام الجسد البشرى متناثرة، وتختبئ الوحوش....

والملائكة أيضًا، يذكِّر نفسه، الملائكة أيضًا.

وعلى مبعدة، يرى امرأة ترتدى السواد، تنورتها تصدر جرسًا خفيفًا ناعمًا أثناء سيرها، ويطير خمارها خلفها كدخان قاتم. تتلفت خلفها فى لمحة؛ إنها مسز همفرى، صاحبة البيت المكتئبة. من حسن الحظ أنها تسير مبتعدة، وربما هى تتجنبه عن عمد. وهذا أفضل جدًّا، فهو لا يشعر بالرغبة فى الحديث، وخاصة التعبير عن الامتنان. ويدهشه إصرارها على ارتداء مسوح الأرملة. ربما تتمنى ذلك. فحتى الآن لم تصل أخبار عن الميجور. ويتمشى سايمون على الشاطئ، وهو يحاول أن يتصور ما يفعله الميجور الآن، لن يخرج عن وجوده فى مكان من ثلاثة: حلبة السباق، أو بيت من بيوت الدعارة، أو حانة.

وتتملكه رغبة غير منطقية بأن يخلع حذاءه ويخوض فى البحيرة. وتفاجئه ذكرى قديمة وهو صبى صغير يلهو فى جدول مائى فى أراضى عائلته، بصحبة مربيته ـ وكانت عاملة شابة فى المصنع وتحولت إلى الخدمة فى منزلهم، كما كان الأمر مع كثير من خادماتهم فى ذلك الوقت ـ ويوسخ نفسه، وتوبخه والدته كما توبخ المربية أيضًا لأنها سمحت له باللعب فى الجدول.

ماذا كان اسمها؟ أليس؟ أم أن أليس كانت فيما بعد، وهو في المدرسة، وكان يرتدي بنطلونًا طويلاً، يومئذ ذهب إلى العلّية في إحدى مغامراته المستترة، وضبطته الفتاة في غرفتها وهو يقلب بيديه الغريرتين في أحد قمصانها الداخلية. كانت غاضبة منه، لكنها لم تعبر عن غضبها بالطبع، فقد كانت تريد أن تحتفظ بعملها، ومن ثم لجأت إلى الطريقة النسائية، وانفجرت في البكاء. وأحاطها بذراعيه ليواسيها، وانتهى الموقف بتبادل القبلات. وقع غطاء رأسها وتهدل شعرها متماوجًا، طويلاً أشقر غامقًا، مثيرًا، ليس نظيفًا جدًّا، تفوح منه رائحة اللبن الرائب. كانت يداها حمراوين، فقد كانت تقطع الفراولة، وكان طعم الفراولة في فمها.

وبعد ذلك كانت هناك بقع حمراء على قميصه حيث بدأت تفك الأزرار؛ نكنها كانت أول مرة يقبل فيها امرأة، أصابه الارتباك، ثم القلق، ولم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك. ربما ضحكت منه.

كم كان ساذجًا، عبيطًا. يبتسم للذكرى. إنها صورة أيام أكثر براءة. وعندما انتهت النصف ساعة شعر بأنه أفضل كثيرًا.

تحييه مديرة منزل المبجل ڤرينجر بإيماءة مستنكرة. لو قدر لها يومًا أن تبتسم، لتهشم وجهها كقشرة بيضة. ويفكر سايمون أنه لابد أن هناك مدرسة للقبح، تتلقى فيها مثل هذه المرأة تدريباتها. تقوده إلى المكتبة، حيث وجد نار التدفئة موقدة، وكأسين من شراب غير معروف الهوية مجهزين. إن ما يتمناه الآن كأس من الويسكي القوي، ولكن لا أمل في أن يجد هذا في بيت أحد الميثوديين الذين يحرمون المسكرات.

يقف المبجل ڤرينجر بين أغلفة كتبه الجلدية، لكنه يتقدم للترحيب بسايمون. يجلسان ويحتسيان المشروب الذي بدا مذاقه أشبه بطعم أعشاب

الماء المطعمة بخنافس التوت. يقول المبجل ڤرينجر: "إنـــه ينقِّـــى الـــدم، ومدبرة منزلى تصنعه بنفسها من وصفة قديمة". لابد أنها قديمة جدًّا، يفكر سايمون، ويستدعى عقله الساحرات.

ويسأل ڤرينجر: "هل هناك أى تقدم فى ... موضوعنا المشترك؟"

كان سايمون يعلم أنه سيُسأل هذا السؤال، ورغم ذلك فهو يتـــردد قليلاً قبل أن يجيب. "لقد كنت أتقدم بحذر شديد، ومن المؤكد أن هناك عدة خيوط تستحق متابعتها. أردت أن أبنى قاعدة من الثقة فى البداية، وأعتقـــد أننى نجحت فى ذلك. ثم حاولت كشف تاريخها العائلى. ويبدو أنها تتـــذكر حياتها قبل أن تعمل لدى مســـتر كينير جيـــدًا، وبكم هائل من التفاصـــيل، مما يشير إلى أن المشكلة عمومًا ليست فى ذاكرتها. وعرفت برحلتها إلى هذا البلد، وكذلك السنة الأولى من عملها كخادمة، والتى لا تتميز بأحـــداث صعبة، باستثناء حدث واحد."

يرفع المبجل ڤرينجر حاجبيه المتباعدين، قائلا: "وما هو؟"

"هل تعرف عائلة پاركينسون، فى تورنتو؟"

"أظن أننى أتذكرهم"، يقول ڤرينجر، ثم يكمل: "فى شبابى، كـــان يسمى ألدرمان على ما أتذكر. لكنه توفى منذ عـــدة ســـنوات، وأعتقـــد أن أرملته عادت إلى وطنها، لقد كانت أمريكية، مثلك، وقد وجـــدت الشـــتاء صعبًا للغاية".

يقول سايمون: "يا لسوء الحظ، كنت آمل أن أتحدث معها للتأكـــد من بعض الحقائق. كانت أول وظيفة لجريس لدى هذه العائلة. كانت لهـــا صديقة ــ وكانت خادمة هناك ــ تسمى مارى هويتنى، والتى كان اسمها،

كما قد تتذكر، هو الاسم المزيف الذى استعارته وهي تهرب إلى الولايات المتحدة مع چيمس مكدرموت، إذا كان ذلك هروبًا حقًا، وليس نوعًا من الهجرة الإجبارية. على أية حال، ماتت هذه الفتاة فى ظروف يمكن القول بأنها مفاجئة. وبينما كانت جريس تجلس فى غرفتها مع الجسد، هيئ لها أنها تسمع صوت صديقتها الميتة تتحدث إليها. وهذه حالة هلوسة سمعية بالطبع."

يقول ڤرينجر: "ليس هذا بالأمر الغريب تمامًا، أنا نفسى كنت موجودًا لدى وفاة الكثيرين، وخاصة بين الحالمين والمؤمنين بالخرافات، ويعتبر عدم سماع المتوفى يتكلم علامة على عدم الأمانة. وإذا كان صوت رفرفة الملائكة أيضًا مسموعًا، يكون ذلك أفضل كثيرًا". كان يتحدث بنغمة مازحة، بل بنغمة تحمل رنة سخرية أيضًا.

يشعر سايمون ببعض الدهشة، من المؤكد أن من واجب رجل الدين أن يشجع الخيالات التى تحث على التقوى. يكمل كلامه: "وقد تبع ذلك نوبة من الإغماء، ثم هستيريا، مختلطة بما يبدو أنه كان حالة سير أثناء النوم؛ وبعدها كان نوم عميق وطويل، ثم فقدان للذاكرة."

ويقول ڤرينجر، وهو يميل للأمام: "إذن لديها تاريخ لحالات مماثلة من فقدان الذاكرة!"

يقول سايمون، بحكمة: "لا يجب أن نقفز إلى النتائج، فهى نفسها فى الوقت الحالى المصدر الوحيد للمعلومات". ويتوقف لحظة، فهو لا يريد أن يظهر بمظهر عدم اللياقة. "سوف يكون من المفيد جدًا لى، لتكوين رأيى المهنى، أن أتحدث مع واحد ممن كانوا يعرفون جريس أيام تلك الأحداث،

ورأى بعد ذلك سلوكها وتصرفاتها فى الإصلاحية، أثناء السنوات الأولى من سجنها، وكذلك فى المصحة."

يقول المبجل ڤرينجر: "أنا نفسى لم أكن موجودًا فى هذه المناسبات".

يقول سايمون: "لقد قرأت رواية مسز مودى، ولديها الكثير مما يهمنى. وطبقا لكلامها، فإن المحامى كينيث ماكنزى، زار جريس فى الإصلاحية بعد سجنها بست أو سبع سنوات، وقالت له جريس أن نانسى مونتجومرى تلاحقها ـ وأن عينيها المتقدتين المحتقنتين بالدم تتبعانها فى كل مكان، وتظهران فى أماكن مثل حجرها وطبق الحساء. وقد رأت مسز مودى جريس فى المصحة ـ وأعتقد أنها كانت فى عنبر الحالات العنيفة ـ وهى تصور امرأة مجنونة تهذى وتصرخ كما لو أنها رأت شبحًا وتجرى على غير هدى كقرد مسته النار. وبالطبع، فقد كتبت روايتها هذه قبل أن تعرف أنه فى أقل من عام سوف يتم إخراج جريس من المصحة، مع تقرير بأنها، إن لم تكن عاقلة تمامًا، فهى عاقلة بما يكفى لإعادتها إلى الإصلاحية."

"لا يحتاج المرء لأن يكون تام التعقل لهذا"، يقول ڤرينجر هذا مع ضحكة صغيرة أشبه بصرير كتاب يغلق.

فيقول سايمون: "لقد فكرت فى زيارة لمسز مودى، لكننى أسألك النصيحة. فلست متأكدًا كيف يمكن أن أسألها، دون أن أطعن فى صدق ما كتبته".

"صدق؟" يقول ڤرينجر، بصوت ساخر، لا تبدو عليه الدهشة.

فيقول سايمون: "هناك تناقضات لا شك فيها. فمـــثلاً، لا توضــح مسز مودى موقع ريتشموند هيل، كما أنها غير دقيقــة بالنســبة للأســماء والتواريخ، فهى تدعو أكثر من واحد من أبطال هذه المأساة بأسماء ليســت أسماءهم، أضف إلى ذلك أنها أنعمت برتبة عسكرية على مستر كينير، من الواضح أنه لم يكن يتمتع بها."

يتمتم ڤرينجر: "ربما تكون وسام الشهادة".

يبتسم سايمون، "وهى أيضًا تجعل المجرمين يقطعان جسد نانسى مونتجومرى إلى أربعة أرباع قبل إخفائه تحت حوض الغســيل، وهو أمر لم يحدث بكل تأكيد. فلو حدث ما كانت الصحف لتغفل ذكــر مثــل هــذه التفصيلة المثيرة. وأخشى أن السيدة الطيبة لم تكن تدرك مــدى صــعوبة تقطيع الجسد، حيث أنها لم تجرب ذلك بنفسها. وبالنسبة لدافع القتل، علــى سبيل المثال ــ فهى تقول إنه الغيرة القاتلة من جانب جريس، التى حسدت نانسى لاستحواذها على مستر كينير، والفسق من جانب مكدرموت، الــذى نال وعدًا بالحصول على الحلوى نظير خدماته كجزار، أى علــى حــب جريس."

"تلك كانت النظرية المنتشرة فى ذلك الوقت."

"لا شك، فالعامة دائمًا يفضلون ميلودراما مثيرة على قصة باردة لمجرد السرقة. ولكن يمكنك أن تجد بعض التحفظات أيضًا حول العينــين المحتقنتين بالدم."

يقول المبجل ڤرينجر: "لقد قررت مسز مودى على المــلأ أنهــا مغرمة بتشارلز ديكنز، خاصة روايته أوليفر تويست. وأظن أننى أتــذكر وصفًا لمثل هاتين العينين فى ذلك العمل، وأيضًا ينتميان لأنثى ميتة تسمى نانسى. كيف أعبر عما أريد قوله؟ مسز مودى معرضة للتأثيرات. وربمــا

تحب أن تقرأ قصيدتها "المجنونة"، إذا كنت تعجب بسير والتر سكوت. فإن قصيدتها تحتوى كل ما هو مطلوب: منحدر صخرى، قمر، بحر غاضب، فتاة مغدور بها تغنى لحنًا حزينًا للغاية، وترتدى أسمالاً رطبة غير صحية. و... كما أتذكر، شعرها يتهدل تحت طوق نباتى يحيط برأسها. وأعتقد أنها تنتهى بالقفز من فوق هذا المنحدر الرائع، الذى يبدو أنه كان موجودًا خصيصًا لأداء هذه الخدمة لها. دعنى أفكر ـ" يدق بأصابعه دقات منتظمة، وهو يتلو مغمض العينين:

عصفت الريح بأسمالها، وتدفقت سيول أبريل

وتعلقت قطرات الماء كاللآلئ بخصلات شعرها الداكنة، المكللة بالزهور البرية،

وتعرى صدرها لعاصفة منتصف الليل الباردة،

التى ضربت بقسوة على عودها الضعيف الهش،

ولمعت عيناها السوداوان عابستين بينما هرب العقل،

وبدت لناظرى كأحد أشباح الموتى،

وهى تغنى لحنًا حاد النغمات للموجة العارمة المندفعة،

رن فى أذنى كترنيمة جنائزية متفجعة.

وأيًا كان من تركها للجنون والعار،

من سرق شرفها، وقضى على سمعتها ـ

أما فكر ساعة فى القلب الذى مزقه،

والقسم الذى حنث به، والكرب الذى سببه؟

وأين كان الطفل الذى عصفت ولادته

بسلام أمه، وسببت لها الجنون؟

يفتح عينيه مرة أخرى، قائلا: "أين هو حقًا؟"

يقول سايمون: "إنك تدهشنى، لابد أن لك ذاكرة غير عادية."

يقول المبجل ڤرينجر: "ذاكرة لأبيات من نوع معين، نعم بكل أسف؛ وهذا بسبب ترديد التراتيل بكثرة، رغم أن الله نفسه اختار أن يُكتب قسم كبير من الإنجيل شعرًا، وهو ما يوضح تأييده لهذا الشكل الأدبى، ولكن ما أسوأ ما يستخدم. ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن ينتقد أخلاقيات مسز مودى. لكنى على ثقة بأنك تفهم ما أقصده. مسز مودى سيدة أديبة، ومثل كل الأديبات، ومثل كل بنات جنسها بشكل عام، فهى تميل إلى ..."

يقول سايمون: "التطريز،"

"تمامًا، كل ما أقوله هنا هو موضع سر، بالطبع. رغم أن آل مودى كانوا يميلون إلى المحافظين أيام التمرد، إلا أنهم منذ ذلك الوقت قد عرفوا خطأ طرائقهم، وهم الآن من المصلحين المخلصين، وهو أمر لاقوا معاناة بسببه على أيدى بعض الحقودين الذين كانوا فى وضع يمكنهم من تعذيبهم بدعاوى قضائية وما أشبه. لن أقول كلمة ضد السيدة. لكنى لا أنصح أيضًا بزيارة. وبالمناسبة، أنا أعرف أن الروحانيين يسيطرون عليها الآن."

يقول سايمون: "حقًا؟"

"هذا ما سمعته. كانت من الشكاكين لفترة طويلة، وكان زوجها أسبق منها فى التحول إلى الروحانيات. لا شك أنها أصبحت متعبة من قضاء الأمسيات وحيدة، وهو يقضى وقته يسمع إلى الأنغام الشجية لشبح ما، ويتحدث مع أرواح جوتة وشكسبير."

"أفهم أنك لا توافق على هذا."

"بعض القسس من طائفتي طردوا من الكنيسة للخوض في هذه المسائل، وبالنسبة لي، أعتبرها طقوسًا آثمة. وصحيح أن بعض أعضاء لجنتنا قد شاركوا رغم إيمانهم، لكني يجب أن أتحملهم، حتى يصل هذا الجنون إلى نهايته، ويعودوا إلى رشدهم. وكما قال مستر ناثانييل هاوثورن، المسألة مجرد دجل. وإن لم تكن، فسوف يكون أسوأ بالنسبة لنا، لأن الأرواح التي تظهر عند دوران المائدة وغيرها من طقوس، لابد أن تكون هي الأرواح التي فشلت في الدخول إلى عالم الخلود، ولا تزال تثير الفوضى في عالمنا، مثل نوع من الغبار الروحي. وليس من المحتمل أنها تريد لنا الخير، وكلما قل اتصالنا بها كلما كان ذلك أفضل."

يقول سايمون: "هاوثورن؟" لقد أدهشه أن يجد رجل دين تقي يقرأ هاوثورن: فهو كاتب متهم بالحسية والانفلات الأخلاقي ـ خاصة بعد روايته "الخطاب الوردي".

"على المرء أن يلحق بالسرب. ولكن بالنسبة لجريس ماركس وسلوكياتها في تلك الفترة، فالأفضل أن تستشير مستر كينيث ماكنزي، الذي دافع عنها أثناء المحاكمة، والذي أعرف أن لديه عقلاً راجحًا بين كتفيه. وهو الآن شريك في مؤسسة قانونية في تورنتو، إذ ارتفع قدره في المهنة بسرعة. وسوف أوجه إليه رسالة للتعريف بك؛ وإنني واثق أنه سوف يستضيفك."

يقول سايمون: "أشكرك".

"إنني سعيد بهذه الفرصة للحديث معك على انفراد، قبل مقدم السيدات. لكنني أسمع اصواتهن، يبدو أنهن وصلن الآن."

يقول سايمون: "السيدات؟"

"زوجة المحافظ وابنتاها سوف يمنحننا شرف صحبتهن هذا المساء، وبكل أسف فإن المحافظ نفسه مسافر فى عمل. ألم أخبرك بذلك؟" وتظهر بقعتان من اللون على وجنتيه. "هل نذهب للترحيب بهن؟"

لم تحضر من البنتين إلا واحدة. فماريان، كما تقول أمها، اضطرت لملازمة الفراش بسبب إصابتها بالبرد. انتبه سايمون: إنه على ألفة بمثل هذه الحيل، ويعرف مؤامرات الأمهات. لقد قررت زوجة المحافظ أن تدفع ليديا ناحيته بلا عائق، ودون أى إرباك أو تشويش من ماريان. ربما كان عليه أن يكشف حقيقة دخله الصغير فورًا، ليحبطها. لكن ليديا رائعة، وهو لا يرغب فى حرمان نفسه من هذه المتعة الجمالية بهذه السرعة. وطالما لم يحدث تصريح بشىء، فلا ضرر؛ وهو يستمتع بتلك العينين المضيئتين تحدقان فيه.

انتهى الشتاء الآن رسميًّا: وها هى ليديا وقد انفجرت بأزهار الربيع. تورق حولها طبقات من الكشكشة المطبوعة بأزهار فاتحة اللون، وتتماوج من كتفيها كأجنحة شفافة. يأكل سايمون سمكته ـ التى طهيت طهيًا زائدًا ـ ولكن لا أحد فى هذه القارة يمكن أن يطهو سمكة جيدًا ـ ويعجب بخطوط عنقها البيضاء الناعمة، وما يظهر من صدرها. وكأنها نحتت من كريمة مخفوقة. كان لابد أن تكون هى فى الطبق، بدلا من السمكة. لقد سمع حكايات عن محظية باريسية شهيرة قدمت نفسها فى مأدبة بهذه الطريقة، وكانت عارية بالطبع. وهو يشغل نفسه بتعرية ليديا ثم تتبيلها وتزيين الطبق حولها: لابد أن تكون مزدانة بالزهور ـ هى بلون العاج، فتضاف إليها قشرة وردية ـ وربما يحيط بها على أطراف الطبق الأعناب وثمار الخوخ.

والدتها ذات العينين الجاحظتين مرسومة جيدًا كعادتهـــا، تمـــس بأصابعها حبات عقد الكهرمان الأسود على جيدها، وتدخل مباشـــرة فـــى حديث جـــاد وعمـــلى. إن جلســـة يوم الثـــلاثاء تأمل بشـــدة فى حضور د. چوردان لإلقاء كلمة فيها. ليس المطلوب كلمة رسمية جدًّا ـــــ وإنمـــا مناقشة حميمة بين أصدقاء ــ أصدقاء له إذا كان لها أن تعتبر نفسها كذلك ــ والذين لهم نفس الاهتمامات الجادة. ربما يمكنه أن يقول بضع كلمـــات فى موضوع إلغاء الرق؟ إنه أمر يهمهم للغاية.

يقول سايمون أنه ليس خبيرًا فى ذلك ــ والواقع أنه ليس لديه أية معلومات بهذا الخصوص، فقد كان فى أوروبا فى السنوات القليلة الماضية. يقترح ڤرينجر أنه فى هذه الحالة، ربما يتكرم د. چوردان بأن يشركهم معه فى آخر النظريات الخاصة بالأمراض العصبية وفقدان العقل؟ هذا أيضًـــا سوف يكون محل ترحيب كبير، كواحد من أهم مشروعاتهم القائمة طويلاً، كمجموعة، بالنسبة لإصلاح المصحات العامة.

تقول زوجة المحافظ: "يقول د. دوپونت أنه مهتم بوجـــه خاص، د. چيروم دوپونت، وقد تعرفت عليه فعلاً. إن لديـــه ســـعة فـــى الأفـــق بخصوص، لديه خبرة واسعة بـــ ... بأشياء تهمه."

تقول ليديا، وهى تنظر إلى سايمون من تحت رموشها الطويلـــة الداكنة: "أوه، سوف أجد هذا رائعا، أتمنى أن تفعل ذلك!" لم تقل الكثير هذا المساء، لكنها رغم ذلك لم يكن لديها فرص كثيرة، إلا لـــرفض عـــروض المزيد من الســـمك المقـــدمة إليها بإلحـــاح من المبـــجل ڤرينجر. "كثيرًا ما تساءلت كيف يكون الأمر، عندما يجن المرء، وجريس لا تحدثنى عـــن ذلك."

يتصور سايمون نفسه فى ركن ظليل مع ليديا. خلف ستارة من جوخ مقصبة بلون بنفسجى قاتم. لو يمكنه أن يحيطها بذراعيه ــ برقة، حتى لا يفزعها ــ هل ستتنهد؟ هل ستستسلم، أم تدفعه بعيدًا؟ أم كلا الأمرين؟

عائدًا إلى مكان إقامته، يصب لنفسه كأسًا كبيرًا من الشيرى، من الزجاجة التى يحتفظ بها فى الدولاب. لم يكن قد تناول مشروبًا طوال المساء ــ فكل المشروبات فى حفل عشاء ڤرينجر لم تزد عن الماء ــ لكنه يشعر بشكل ما بأن رأسه يدور كما لو كان قد شرب. لماذا وافق على حضور دائرة الثلاثاء الشيطانية ؟ ماذا يعنون له، أو ماذا يعنى لهم؟ وما الذى يمكنه أن يقوله لهم ويكون ذا معنى لديهم، وهم الذين تنقصهم المعرفة والخبرة؟ إنها ليديا، إعجابها به، مظهرها. يشعر كأنما هوجم دون أن يأخذ حذره.

إنه متعب لدرجة لا يمكنه معها أن يسهر ليقرأ ويعمل كعادته. يذهب إلى الفراش ويغرق فى النوم فى الحال. ثم يرى حلمًا مفعمًا بالقلق. يرى نفسه فى فناء مسور والغسيل المنشور يرفرف على الحبل. ليس هناك أحد، وهو ما يشعره بلذة خفية. تتحرك الملاءات والثياب مع الريح، كما لو كان بداخلها ردفان ممتلئان خفيان، كما لو كانت حية. وبينما يراقب ــ لابد أنه صبى، فهو قصير لأنه ينظر لأعلى ــ يرى وشاحًا من الموسلين الأبيض يطير من فوق الحبل ويتموج برقة فى الهواء مثل رباط طويل يُحل، أو مثل الألوان فى الماء. يجرى ليمسك به، ويخرج من الفناء إلى الطريق ــ هو فى الريف إذن ــ ثم إلى حقل. بستان فواكه. اشتبك الوشاح فى فروع شجرة صغيرة مغطاة بتفاحات خضراء. يسحبه فينزل على وجهه؛ وفى تلك اللحظة يتضح له أنه ليس وشاحا على الإطلاق، إنه شعر،

شعر ناعم حلو الرائحة لامرأة خفية، يلتف حول رقبتـــه. يقـــاوم، يشـــعر بحضنها يحتويه بقوة، حتى يكاد لا يستطيع التنفس. تتفتح أحاسيس مؤلمة، وإثارة جنسية لا تحتمل، ويستيقظ فجأة وهو يرتج.

- ٢٢ -

أنا اليوم فى غرفة الخياطة قبل أن يصل د. چوردان. ولا فائدة فى التساؤل عما أخره، فالرجال المهذبون يحافظون على مواعيدهم بطريقتهم؛ ومن ثم فأنا أستمر فى الخياطة وأنا أسلى نفسى ببعض الغناء:

يا صخر الدهر، افتح لى شقًا بداخلك
دعنى أخبئ نفسى فيك؛
دع الماء والدم،
الذى يتدفق من جانبك المصدوع.
يكون دواء شافيًا من الخطايا،
اغسلنى من الذنوب والخطايا.

أحب هذه الأغنية، فهى تجعلنى أفكر فى الصخور، والمياه، وشاطئ البحر، والتى هى فى الخارج؛ فالتفكير فى شىء يجعلنا أقرب ما نكون من التواجد بقربه.

"لم أكن أعرف أنك تجيدين الغناء يا جريس"، يقول د. چوردان وهو يدخل الغرفة. "إن لديك صوتًا جميلاً." توجد هالات سوداء حول عينيه، ويبدو أنه لم ينم على الإطلاق.

أقول: أشكرك يا سيدى، كنت فى العادة أجد ما يـدعونى للغنـاء أكثر مما أجد اليوم.

يجلس، ويخرج دفتره وقلمه، وثمرة من الجزر الأبيض، يضعها على المنضدة. ولو كنت مكانه لما اخترت هذه الثمرة، فقـد كـان لونهـا حائلا، مما يدل على أنها لم تكن طازجة.

أقول: آه، جزرة بيضاء.

يسألنى: هل توحى لك بأى شيء؟

أقول، نعم، هناك القول السائر: الكلمات الجيدة لا تضع زبدًا على الجزر الأبيض، والجزر الأبيض صعب التقشير.

ويقول: وأعتقد أيضًا أنه يحفظ فى الأقبية..

"لا يا سيدى، بالخارج، فى حفرة فى الأرض مع القش، فعنـدما تتجمد تصبح أفضل كثيرًا."

ينظر إلى متعبًا، وأعجب ما الذى يسبب له عدم النوم. ربما سيدة صغيرة يفكر فيها، وربما لا تبادله العاطفة؛ أو أنه لا يأكل وجبات منتظمة.

يقول: هل نكمل قصتك من حيث توقفنا؟

أقول: لقد نسيت أين توقفت. والواقع أننى لم أنس، ولكننى أردت أن أتأكد إن كان يستمع إلى حقًا، أم يتظاهر بذلك فقط.

يقول: توقفنا عند موت مارى. صديقتك المسكينة مارى هويتنى.

أقول: نعم. مارى.

طيب، يا سيدى، تم كتمان الطريقة التى ماتت بها مارى بقدر الإمكان، وسواء صدق الناس أنها ماتت بالحمى أو لم يصدقوا، فلم يعترض أحد بصوت مسموع. ولا أنكر أحد أنها تركت أشياءها لى، نظرًا لما كتبته؛ رغم أن البعض رفعوا حواجبهم عند معرفة كتابتها للوصية، وكأنها كانت تعرف مقدمًا أنها سوف تموت. ولكننى قلت أن الأغنياء يكتبون وصاياهم مبكرًا، فلماذا لا تفعل مارى ذلك؛ وقد أسكتهم ذلك. ولم يقل أحد شيئًا عن ورق الكتابة، ولا كيف حصلت عليه.

بعت صندوقها، الذى كان من نوعية جيدة، وكذلك أحسن فساتينها، إلى چيرميا البائع المتجول، الذى جاء مرة أخرى بعد موتها بقليل؛ كما بعته الخاتم الذهبى الذى كان مخبأ تحت الأرضية. وقلت له أنه كان مخصصًا لعمل جنازة لائقة، وأعطانى ثمنًا مناسبًا وزيادة. وقال أنه رأى الموت فى وجه مارى، وأن الرؤيا المتأخرة دائمًا صادقة. وقال أيضًا أنه آسف لموتها، وسوف يصلى من أجلها، رغم أننى لم أستطع أن أتخيل أى نوع من الصلاة يتحدث عنها، فهو لم يكن مؤمنًا، بكل ألاعيبه وتنجيمه. ولكن من المؤكد أن نوع الصلاة لا يهم، والله ينظر إلى نوايانا وحدها؛ أو هذا ما أعتقده.

ساعدتنى آجنس فى الدفن. وضعنا فى التابوت زهورًا من حديقة مسز ألدرمان پاركينسون، بعد أن استأذناها؛ ولأننا كنا فى يونيو، كانت هناك زهور طويلة السيقان وزهور الفاوانيا؛ وقد اخترنا الزهور البيضاء فقط. ونثرت عليها بتلات الزهور أيضًا، ودسست كيس الإبر الذى صنعته من أجلها خلسة، فقد يبدو غريبًا لأن لونه أحمر؛ وقصصت خصلة من أسفل شعرها لأتذكرها بها، وربطتها معًا بخيط.

ودفنت فى أفضل قميص نوم لديها، ولم تكن تبدو ميتة إطلاقًا، وإنما فقط نائمة وشاحبة للغاية؛ وكانت، وسط كل هذا اللون الأبيض، تبدو مثل العروس.

كان النعش من خشب الصنوبر، وشديد البساطة، وأردت شاهد قبر حجرى أيضًا، ولكن ما معى لم يكف إلا لكتابة اسمها. وكنت أتمنى أن أكتب بيتًا من الشعر، مثل "*رغم أنك تهربين من ظلال الأرض المظلمة، عندما تكونين فى السماء، تذكرينى*"، ولكن ذلك كان أكثر كثيرًا من إمكانياتى. ووضعت في مقابر الميثوديين فى شارع أديلايد، فى ركن ملاصق لمدافن الصدقة، ولكن المهم أنها فى فناء الكنيسة، وهكذا شعرت أننى فعلت من أجلها كل ما استطعت. ولم يحضر الدفن سوى أجنس واثنتان أخريان من الخدم، فلابد أن بعض الشكوك ثارت حول أسباب موتها؛ وعندما بدأوا يهيلون التراب فوق النعش وبدأ الكاهن الشاب يقرأ "من التراب وإلى التراب يعود"، بكيت وكأن قلبى ينشق. كنت أفكر أيضًا فى أمى المسكينة، التى لم تحظ بدفن لائق فى التراب كما يجب، ولكن ألقيت فى البحر.

كان من الصعب بالنسبة لى أن أصدق أن مارى ماتت حقًا. ظللت أتوقع أن تأتى إلى الغرفة، وعندما كنت أرقد فى الفراش فى الليل، كنت أشعر أحيانًا أننى أسمعها تتنفس؛ أو أنها ربما تكون واقفة تضحك خارج الباب. وفى كل يوم أحد كنت ألقى زهورًا على قبرها، ليس من حديقة مسز ألدرمان باركينسون، حيث لم يكن ذلك مسموحًا به إلا فى تلك المناسبة الوحيدة، ولكن زهورًا برية، كنت أجدها فى الأراضى البور أو بجوار شاطئ البحيرة أو أينما أجدها تنمو.

وبعد وفاة مارى، سرعان ما تركت منزل ألدرمان باركينسون. لم أرغب فى البقاء، فمنذ وفاة مارى لم تعاملنى مسز ألدرمان باركينسون أو مسز هنى معاملة ودودة أبدًا. ولابد أنهما ظنتا أننى كنت أساعد مارى فى علاقتها بالرجل، والذى كانتا تعتقدان أننى أعرف اسمه؛ ورغم أننى لم أكن أعرف، فإن الشك متى بدأ فى النفوس من الصعب أن يتوقف. وعندما قلت أننى أريد أن أترك وظيفتى، لم تعترض مسز ألدرمان باركينسون، ولكنها طلبتنى فى المكتبة، وسألت مرة أخيرة إذا كنت أعرف الرجل، وعندما قلت أننى لا أعرفه، طلبت منى أن أقسم على الإنجيل أننى حتى لو كنت أعرف، فلن أفشى ذلك أبدًا، وسوف تكتب لى توصية جيدة. ولم أكن أحب ما يدل عليه ذلك من عدم الثقة، ولكنى فعلت كما طلبت منى، وكتبت لى التوصية، وقالت بود أنها لم تجد أى شيء يدعو إلى اللوم فى عملى، وأعطتنى هدية عند ترك العمل دولارين، وهو كرم كبير، ووجدت لى عملاً آخر مع السيد ديكسون، والذى كان ينتمى إلى عائلة ألدرمان.

وفى بيت السيد ديكسون كان أجرى أعلى؛ فقد كنت الآن متمرنة ومعى توصية. وكان الخدم المدربون قليلين، فقد هاجر الكثيرون إلى الولايات بعد التمرد، ورغم أنه كان هناك مهاجرون جدد يصلون طوال الوقت، فلم يكن العجز قد تم سده بعد، وكان الخدم مطلوبين كثيرًا؛ ولهذا السبب عرفت أننى لست مضطرة للبقاء فى أى مكان إذا لم يعجبنى.

ووجدت أننى لم يعجبنى المكان عند مستر ديكسون، فقد شعرت أنهم يعرفون الكثير من القصة، وكانوا يعاملوننى معاملة غريبة؛ ولذا فبعد نصف عام طلبت ترك العمل، وذهبت إلى بيت مستر ماكمانوس؛ ولكنى لم أرتح هناك أيضًا، فلم يكن لديهم سوى خادم آخر إلى جانبى، وكان ذلك الخادم رجلاً يتكلم كثيرًا عن نهاية العالم، وعن صعوبات الحياة، وصرير

الأسنان. ولم تكن صحبته ممتعة عند تناول الطعام. وبقيت لـديهم ثلاثـة أشهر فقط عملت بعدها عند مستر كوتس، وقد بقيت لديـه حتـى مـرور بضعة أشهر بعد عيد ميلادى الخامس عشر، ولكن كانت هناك خادمة تغار منى، فقد كنت أكثر كفاءة فى عملى منها، فلما سمعت بوجود فرصة للعمل ذهبت إلى مستر هراغى، بنفس الأجر الذى كنت أتقاضـاه عنـد مسـتر كوتس.

وسارت الأمور بشكل طيب لبعض الوقت، ثم بدأت أشعر بالقلق، فقد حاول مستر هراغى أن يتجاوز حدوده معى فى الممر الخلفـى بينمـا كنت أحمل الأطباق من غرفة الطعام؛ ورغم أننى تذكرت نصيحة مـارى بالركل بين الساقين، فقد فكرت أنه لن يكون مـن الصـواب أن أضـرب مخدومى، وقد يؤدى ذلك إلى طردى دون توصية. ولكن فى إحدى الليالى سمعته خارج باب غرفتى فى العلية، عرفته من سعاله المتحشـرج. كـان يتحسس أكرة الباب. وكنت دائمًا أغلق على نفسى بالمزلاج فى الليل، لكنى عرفت أنه مزلاج أو لا مزلاج، فإن آجلاً أو عاجلاً سوف يجـد طريقـة للدخول، حتى لو وضع سلمًا، ولم أستطع النوم وأنا أفكر فى ذلك، وكنـت بحاجة إلى النوم، فقد كنت متعبة من العمل طوال اليوم، ولو وجدت خادمة مع رجل فى غرفتها لأصبحت هى المذنبة، مهما كانت طريقة دخوله إليها. وكما كانت مارى تقول، فإن بعض السادة يعتقـدون أن الخادمـة مدينـة بخدمتهم أربع وعشرين ساعة فى اليوم، وعليها أن تؤدى العمل الرئيسـى وهى راقدة على ظهرها.

وأعتقد أن مسز هراغى كانت تشك فى الأمر. كانت من عائلـة طيبة مرت بظروف سيئة، واضطرت أن تأكل "على ما قُسِم" عن طريـق الزواج؛ وكان مستر هراغى قد صنع ثروة من تجارة اللحم. وأشك أنهـا

كانت أول مرة تصرف فيها بهذه الطريقة، لأننى عندما قدمت طلب إنهاء خدمتى لم تسألنى مسز هراغى عن السبب، ولكنها تنهدت وقالت أننى فتاة طيبة، وكتبت لى توصية فورًا على أفضل ورق كتابة لديها.

ذهبت إلى منزل مستر واطسون. كان يمكن أن أذهب إلى مكان أفضل لو كان لدى وقت للبحث، ولكنى شعرت بأن من الضرورى أن أسرع بالخروج من المنزل، حيث جاء مستر هراغى إلى الأوفيس بينما كنت أقوم بتنظيف الأوانى، ويداى تغطيهما الدهون والأوساخ، وحاول أن يمسك بى رغم ذلك، وكانت هذه علامة على رجل يائس. وكان مستر واطسون صانع أحذية، وفى أشد الحاجة للمساعدة، فلديه زوجة وثلاثة أطفال ورابع فى الطريق، ولم يكن لديه سوى خادمة واحدة غير قادرة على القيام بكل الغسيل بأنواعه، رغم أنها طباخة جيدة، وكان مستعدًا أن يدفع لى دولارين ونصف فى الشهر، بالإضافة إلى حذاء ضمن المساومة. وكنت بحاجة إلى حذاء، حيث كان الحذاء الذى أخذته مع أشياء مارى لا يناسبنى، وكان حذائى قد تهرأ، والحذاء الجديد باهظ الثمن.

عملت لديهم فترة قصيرة قبل أن أتعرف على نانسى مونتجومرى، التى جاءت فى زيارة، حيث كانت قد تربت فى الريف مع سالى، طباخة مسز واطسون. جاءت نانسى إلى تورنتو لشراء بعض الأقمشة وما إليها من مزاد البضائع فى محلات كلاركسون؛ وأرتنا بعض الحرير القرمزى الجميل للغاية الذى اشترته لعمل فستان شتوى، وعجبت لماذا ترغب مدبرة منزل رداء كهذا، كما أرتنا بعض القفازات الجميلة، وغطاء مائدة قطنى أيرلندى لمخدومها. وقالت أن الشراء من المزاد أفضل من الشراء من المحلات، فالأسعار أرخص، وأن سيدها أراد أن يفيد من النقود لأقصى حد. وهى لم تأخذ العربة إلى المدينة، ولكن سيدها أوصلها

إلى هنا. وقالت أن ذلك أكثر راحة بكثير، حيث لا تتعرض الواحدة لمضايقات الغرباء.

كانت نانسى مونتجومرى وسيمة جدًا، شعرها أسود، فى حوالى الرابعة والعشرين من العمر؛ كان لها عينان بنيتان جميلتان، وكانت تضحك وتمزح كثيرًا كما كانت تفعل مارى هويتنى، وبدت ذات طبع طيب. جلست فى المطبخ وأخذت كوبًا من الشاى، وأخذت تتحدث هى وسالى عن الأيام الخوالى. فقد كانتا تذهبان إلى المدرسة فى شمال المدينة معًا، فقد كانت أول مدرسة فى المنطقة ويعودها القسيس المحلى فى صباح كل يوم سبت، وكان الأطفال يعفون من واجباتهم فى هذا اليوم. وكانت مقامة فى بيت خشبى، قالت نانسى أنه كان أكثر شبهًا بالإسطبل، وكانوا يضطرون لعبور الغابة للوصول إليها، وكانوا دائمًا خائفين من الدببة، التى كانت أكثر عددًا فى ذلك الوقت، وفى أحد الأيام رأتا دبًّا بالفعل، وجرت نانسى صارخة، وتسلقت شجرة. وقالت سالى أن الدب كان أكثر خوفًا من نانسى، وقالت نانسى ربما كان دبًا مهذبًا، وكان يجرى هاربًا من شىء خطير لم يره من قبل، ولكنه ربما لمحها وهى تتسلق الشجرة. وضحكتا كثيرًا. وحكت كيف كان الصبيان يتدافعون للوصول إلى المرحاض خلف المدرسة إذا كانت إحدى الفتيات بالداخل، ولم تكن البنات الأخريات يحذرنها، وإنما يراقبن مع الآخرين، ثم شعرن فيما بعد بأن ذلك كان خطأ. وقالت سالى أن ذلك كان يحدث دائمًا مع الخجولات، وقالت نانسى نعم، ولكن كان عليك أن تتعلمى كيف تدافعين عن نفسك فى هذه الحياة، وفكرت أن ذلك كان صحيحًا.

وعندما كانت تجمع أشياءها معًا ـ كان لديها مظلة جميلة للغاية، قرنفلية اللون، رغم أنها بحاجة إلى تنظيف ـ أخبرتنى نانسى أنها كانت

مدبرة منزل مستر توماس كينير، الذى يعيش فى ريتشموند هيل، في شارع يونج، بعد مرتفع جالو ومنخفض هوج. وقالت أنها بحاجة إلى خادمة أخرى لتساعدها فى عملها، حيث كان البيت كبيرًا والفتاة التى كانت موجودة تركت العمل لتتزوج. وكان مستر كينير رجلاً من علية القوم ينتمى لعائلة إسكتلندية محترمة، وكان من السهل التعامل مع عاداته، وأنه ليس متزوجًا؛ لذلك كان العمل أقل، كما أنه لم تكن هناك سيدة فى المنزل تنتقد وتعيب، وسألتنى إن كان يهمنى أن أحصل على هذه الوظيفة.

وادعت أنها بحاجة لرفقة امرأة أخرى، حيث أن مزرعة السيد كينير بعيدة عن المدينة، ولذا فهى لا تحب أن تكون هناك وحدها، امرأة وحيدة مع أحد السادة، فقد يثير ذلك الأقاويل. وفكرت أن هذا يدل على مشاعر صادقة. وقالت أن مستر كينير كان سيدًا ليبراليًّا، ويظهر متى يكون مرتاحًا، وإذا قبلت، فسوف أحصل على أجر جيد، وأخطو خطوة جديدة فى العالم. ثم سألتنى عن أجرى الحالى، وقالت أنها ستدفع ثلاثة دولارات فى الشهر؛ ووجدت ذلك مرضيًا للغاية.

قالت نانسى أن لديها عملاً فى المدينة لمدة أسبوع، وسوف تنتظر أن تسمع قرارى فى خلال هذا الوقت؛ وقضيت الأسبوع أدير الأمر في عقلى. كان ما يقلقنى هو الحياة فى الريف، بدلاً من المدينة، فقد أصبحت فى ذلك الوقت معتادة على الحياة فى تورنتو ـ فهناك الكثير مما يُرى أثناء التجول، وأحيانًا كانت هناك أسواق موسمية وعروض، ولكن كان يجب الاحتراس من اللصوص هناك؛ وكان هناك وعاظ فى الأماكن العامة، وكثيرًا ما كان صبى أو امرأة يقف ليغنى فى الشارع طلبًا للبنسات. ورأيت رجلاً يأكل النار، وآخر يمكنه أن يتحدث من بطنه، وخنزيرًا يمكنه العد، ودبًّا يرقص وقد ألبسه صاحبه كمامة، وإن كان رقصه أشبه بالترنح، وكان

الغلام الذى يلبس أسمالاً ينخسه بالعصى. كما أن الريف طرقاتـــه أكثـــر وحلاً، وهى بدون أرصفة جيدة مرتفعة؛ وليس فيه إضاءة بالغـــاز أثنـــاء الليل، ولا محلات كبيرة أو أبراج كنائس كثيرة كما فى المدينة، أو عربات أنيقة، أو بنوك حجرية جديدة لها أعمدة. ولكنى فكرت أننى إذا لم يعجبنى الحال فى الريف، فيمكننى العودة متى شئت.

وعندما سألت سالى عن رأيها، قالت أنها لا تعرف إذا كان ذلـــك عملاً مناسبًا لفتاة صغيرة مثلى، وعندما سألتها لم لا، قالت أن نانسى كانت دائمًا طيبة معها، وأنها لا تحب أن تتكلم، وعلى المرء أن يجرب حظـــه، وأقل ما يقال سرعان ما يُنسى، وأنها لا تعرف شيئًا مؤكدًا ومن ثم فلـــيس من الصواب أن تقول المزيد، لكنها كانت تشعر أن واجبها تجاهى يحتم أن تقول لى بقدر ما تعرف، لأننى ليس لى أم تنصحنى. ولم يكـــن لـــدى أى فكرة عما تتحدث عنه.

سألتها إذا كانت سمعت شيئًا سيئًا عن مستر كينير، فقـــالت ليس ما يمكن أن يعتبر "شيئًا سيئًا" فى عرف الناس بشكل عام.

كان الأمر أشبه بلغز لم أتمكن من تخمين الحل له، وربما كـــان الأفضل لو أنها تحدثت معى بصراحة أكثر. لكن الأجر كان يزيد عما سبق أن تقاضيته فى أى عمل، وهو ما كان يشدنى بشدة؛ وما شدنى أكثر هـــو نانسى مونتجومرى نفسها. كانت شخصيتها أقرب شبهًا بمـــارى هـــويتنى، أو هكذا فكرت؛ وكنت أشعر باكتئاب منذ موت مارى. ولذا فقـــد قـــررت الذهاب.

- ٢٣ -

أعطتنى نانسى أجرة الركوب. وفى اليوم المتفق، أخذت عربة فى الصباح الباكر. كانت رحلة طويلة، فقد كان ريتشموند هيل على بعد ستة عشر ميلاً فى شارع يونج. وكان الطريق شمال المدينة مباشرة شديد السوء، وكان هناك أكثر من مرتفع شديد الانحدار حتى كان علينا أن ننزل من العربة ونسير، وإلا فإن الجياد ما كانت تستطيع أن تشدنا لأعلى. وبجوار الحُفَر، كانت هناك زهور كثيرة تنمو، من الأقحوان ومن أنواع مشابهة، والفراشات تطير حولها، وهذه الأجزاء من الطريق كانت جميلة جدًّا. وفكرت أن أقطف باقة من الزهور، ولكنها بالتأكيد سوف تذبل فى الطريق.

وبعد مسافة، أصبح الطريق أسوأ، كانت الأرض مليئة بالأخاديد والحجارة، والعربة تقفز وتنط حتى تتكسر عظامنا، وأعلى التلال كاد التراب يخنقنا، وفى الأماكن المنخفضة كان الطين، والكتل الخشبية الممددة فوق الأوحال. وقالوا أنه عندما تمطر فإن الطريق يكون أشبه بالمستنقع. وفى الربيع، أثناء ذوبان الجليد، لا يمكنك السفر على الإطلاق. وأفضل الأوقات فى الشتاء، عندما يكون كل شىء متجمدًا بشدة، ويمكن أن تتحرك الزحافة بسرعة؛ ولكن حينئذ، هناك خطر العواصف الثلجية، وخطر التجمد

حتى الموت إذا انقلبت الزحافة، وأحياناً كان الجليد يتراكم حتى يصل إلى ارتفاع البيت، وتكون فرصتك الوحيدة هى القليل من الدعاء والكثير من الويسكى. وقد حكى لى ذلك كله وأكثر منه الرجل الذى كان محشورًا بجوارى، والذى قال أنه كان يعمل فى تجارة أدوات الحقل والبذور، وادعى أنه يعرف الطريق جيدًا.

بعض البيوت التى مررنا عليها فى الطريق كانت كبيرة وجميلة، ولكن كانت هناك بيوت أخرى مجرد أكواخ، منخفضة وسيئة المنظر. وكانت الأسوار حول الحقول من أنواع مختلفة، هناك أسوار الأفاعى المصنوعة من قضبان مشقوقة، وهناك أسوار أخرى من جذور الأشجار المنزوعة من الأرض، والتى كانت تبدو مثل خصلات عملاقة من شعر خشبى. وبين الحين والآخر كنا نمر بمفترق طرق عنده عدة بيوت متقاربة وحانة، حيث كان يمكن أن تستريح الجياد أو يتم تغييرها، كما يمكن تناول كأس من الويسكى. وأحد الرجال كان يتلكأ ويشرب أكثر كثيرًا جدًّا من كأس واحدة، وكان يرتدى ثيابًا حقيرة ويتصرف بوقاحة، وجاء إلى العربة حيث أجلس وحاول أن ينظر تحت حافة قبعتى. وعندما توقفنا فى منتصف اليوم، سألنى تاجر الأدوات الزراعية إذا تكرمت أن أدخل معه وأتناول كأسًا وبعض المرطبات، لكنى قلت لا، فالمرأة محترمة لا تدخل مثل هذه الأماكن مع غريب. وكنت أحمل معى خبزًا وجبناً، ويمكن أن آخذ شربة ماء من البئر الموجود فى الساحة، وكان هذا يكفينى.

وقد لبست ثيابى الصيفية الجيدة للرحلة، وكان عندى قبعة من القش مزينة بشريط أزرق كان فى صندوق مارى، وتحتها لبست قلنسوتى، ورداءً قطنيًا مطبوعًا ذا أكمام ساقطة الأكتاف، وهو نوع كانت مودته بسبيلها إلى الاختفاء فى تلك الأيام، ولكن لم يكن لدى وقت لإصلاحه،

وكان يومًا ما منقطًا بنقط حمراء، لكن لونها استحال إلى البمبي، وقد حصلت عليه كجزء من أجرى فى منزل مستر كوتس. وكنت أرتدى تنورتين داخليتين، إحداهما قديمة مقطوعة ولكنها أصلحت جيدًا، والأخرى كانت قد أصبحت قصيرة جدًا، ولكن من سيراها؟ كما كنت أرتدى قميصًا قطنيًا وصدرية مستعملة اشتريتها من چيرميا البائع المتجول، وكنت ألبس جوارب قطنية بيضاء سبق إصلاحها ولكن لا يزال من الممكن لبسها لفترة لا بأس بها. والحذاء الذى حصلت عليه من مستر واطسون صانع الأحذية، والذى لم يكن من أفضل الأنواع كما لم يكن مناسبًا لمقاس قدمى، فأفضل أحذية كانت تأتى من إنجلترا. وكان هناك شال صيفى من الموسلين الأخضر، ومنديل تركته لى مارى، وكان لأمها قبل ذلك، منديل أبيض وبه ورود صغيرة زرقاء، مطبوعة على نموذج "الحب فى الضباب"، ومطوى على شكل مثلث، وهو يوضع حول الرقبة لإبعاد الشمس وللحماية من البقع الجلدية. كان من المريح أن يكون لدىَّ هذا التذكار منها. لكن لم يكن عندى قفاز، ولم يعطنى أحد قفازات أبدًا، وكانت غالية الثمن بالنسبة لمقدرتى.

أخذت معى أيضًا ملابسى الشتوية، وتنورتى الداخلية الصوفية الحمراء، وثوبى الثقيل، وجواربى الصوفية، وقميص نومى الصوفى، وكذلك قميصين قطنيين للصيف، ورداء العمل الصيفى والقبقاب وقلنسوتين ومريلة، وقميصى الآخر، كل ذلك مربوط فى صرة بشال أمى، وضعت فوق العربة. ومع أنها كانت مربوطة جيدًا إلا أننى كنت قلقة عليها طوال الرحلة، فقد كنت أخشى أن تقع وتضيع فى الطريق، فكنت أنظر إلى الخلف بين الحين والآخر.

لا تنظرى خلفك أبدًا. قال تاجر الأدوات الزراعية. "لماذا لا؟"، قلت أنا. أعرف أنه لا يجب التحدث مع الرجال الغرباء، لكن كان من

الصعب تجنب ذلك ونحن محشورون هكذا معًا. قال: "لأن ما فات قد فات، والندم لا يفيد، دعى ما ذهب حيث هو. أتعرفين ما حدث لزوجة لوط؟ تحولت إلى عمود من الملح، يا له من ضياع لامرأة طيبة، ولا أقصد أنهن لسن أفضل مع رشة ملح!"، وضحك. لم أكن متأكدة مما يقصده، لكننى ارتبت فى أنه ليس شيئًا طيبًا، وفكرت أننى لن أتكلم معه بعد ذلك.

كان الناموس بشعًا، خاصة فى مناطق المستنقعات، وعند أطراف الغابات، لأنه رغم أن بعض الأرض المجاورة للطريق كانت قد أخليت من الأشجار، فقد كانت مجموعات كبيرة من قواعد الأشجار لا تزال قائمة، طويلة جدًّا، ومظلمة. وكان الهواء فى الغابة له رائحة مختلفة تمامًا؛ وكان باردًا ورطبًا، وتفوح منه رائحة الطحالب والتراب وأوراق الأشجار المتعطنة. ولم أكن أثق بالغابة، فهى مليئة بالحيوانات المتوحشة كالدببة والذئاب، وتذكرت ما روته نانسى حول الدب.

قال تاجر الأدوات الزراعية، هل تخافين من الدخول فى الغابة يا آنسة، وأنا قلت لا، لا أخاف، ولكنى لن أذهب إلا مضطرة. وقال أيضًا، النساء الصغيرات لا يجب أن يذهبن إلى الغابة وحدهن، فلا يمكنك أن تعرفى ما قد يحدث لهن؛ فهناك واحدة وجدت بملابسها ممزقة ورأسها على مبعدة من جسدها، وقلت، "ياه، بسبب الدببة؟" قال "الدببة أو الهنود الحمر، كما تعرفين هذه الغابات مليئة بهم، ويمكن أن ينقضوا فى أية دقيقة وتجدين قبعتك طارت فى لمح البصر، ووراءها رأسك، تعرفين أنهم يحبون قص شعر السيدات، فيمكنهم بيعه بسعر طيب فى الولايات". ثم قال: "لابد أن لك شعرًا رائعا على رأسك تحت قبعتك"؛ وكان طوال هذا الوقت يلتصق بى بطريقة ضايقتنى.

وعرفت أنه كان يكذب، إن لم يكن بخصوص الدببة، فمن المؤكد بروايته عن الهنود، وكان فقط يحاول إخافتى. فقلت، بوقاحة تامة، "إن رأسى ستكون أكثر أمانًا لدى الهنود مما يمكن أن تكون معك"، وضحك، ولكنى كنت جادة. كنت قد رأيت الهنود الحمر فى تورنتو، فأحيانًا يذهبون لاستلام نقود المعاهدة معهم؛ وكان آخرون يأتون إلى الباب الخلفى عند مسز ألدرمان پاركينسون يحملون سلالاً وسمكًا للبيع. كانت وجوههم جامدة، ولا يمكنك أن تعرف فيم يفكرون، لكنهم كانوا يبتعدون بمجرد أن يُطلب ذلك منهم. ومع ذلك، فقد كنت أشعر بالراحة عندما نخرج من الغابة، ونرى الأسوار والبيوت، والغسيل المنشور ليجف بالخارج، وأشم دخان نار الطبخ، والأشجار التى تحرق لإيقاد هذه النار.

وبعد بعض الوقت، عبرنا بقايا أحد المبانى، الذى لم يبق منه سوى الأساس وقد اسود كله، وأشار التاجر إليها، وقال لى أن هذه كانت حانة مونتجومرى المشهورة، حيث كان ماكنزى والغوغاء الذين معه يعقدون اجتماعاتهم المتمردة، وخرجوا فى مظاهرة إلى شارع يونج أثناء التمرد. وقد أصيب رجل بطلق نارى أمام الحانة، وكان ذاهبًا لتحذير قوات الحكومة، وأحرقت الحانة بعد ذلك. وقد شنقوا بعض هؤلاء الخونة، لكن كان لابد من شنقهم جميعًا، وأضاف قائلاً "وماكنزى هذا الوغد الجبان، لابد أن يجر من الولايات التى هرب إليها، تاركا أصدقاءه يتأرجحون على حبال المشانق من أجله". كان التاجر يحتفظ بزجاجة خمر صغيرة فى جيبه، وكان فى هذا الوقت قد تناول جرعة قوية من الزجاجة منحته شجاعة الخمر، وهو ما ظهر فى رائحة تنفسه، وعندما يكونون فى هذه الحالة، فأفضل شىء هو عدم استثارتهم، ولذا لم أقل شيئا.

وصلنا إلى ريتشموند هيل قرب نهاية النهار. لم تكن تشبه المدن في كثير؛ بل كانت أقرب إلى القرية، بيوتها مرصوصة فى خط حول شارع يونج. ونزلت عند حانة العربات هناك، وهو ما اتفقت عليه مع نانسى، وأنزل سائق العربة صرتى. ونزل تاجر الأدوات الزراعية أيضًا، وسألنى أين سأقيم، فقلت أن هذا لا يعنيه. وهنا أمسك بذراعى، وقال أننى لابد أن آتى إلى الحانة معه وآخذ كأسًا أو كأسين من الويسكى من أجل الذكرى، حيث أننا تعارفنا جيدًا فى العربة؛ وحاولت أن أشد ذراعى، لكنه لم يتركه، وكان يزداد تبسطًا معى، وحاول أن يحيط وسطى بذراعه، وكان ثمة عدد من الرجال المتسكعين هناك يحثونه على الاستمرار. نظرت حولى بحثًا عن نانسى، لكننى لم أرها فى أى مكان. وقلت فى نفسى، يا له من انطباع سيئ عنى، أن تجدنى فى حانة أحاول التملص من رجل سكير!!

كان باب الحانة مفتوحًا، وخرج منها فى تلك اللحظة چيرميا البائع المتجول، حاملاً صرته على ظهره، وعصاه الطويلة فى يده. وفرحت جدًّا برؤيته وناديت اسمه، فنظر حوله فى حيرة، ثم أسرع نحوى.

قال: ما هذا؟ جريس ماركس، لم أكن أتوقع أن أراك هنا.

قلت مبتسمة: ولا أنا، ولكن باضطراب، فقد كان تاجر الأدوات الزراعية لا يزال يمسك بذراعى.

قال چيرميا: هل هذا الرجل صديق لك؟

قلت: لا، ليس صديقى.

قال چيرميا: السيدة لا ترغب فى صحبتك، بصوته الذى يحـــاول به أن يبدو رجلاً من علية القوم، فقال تاجر الأدوات الزراعية أننى لســـت سيدة، وأضاف أشياء لا تعتبر إطراء، كما أضاف بضع كلمات سيئة عن أم چيرميا.

أمسك چيرميا بعصاه، ونزل بها على ذراع الرجـــل، فتركنـــى، ودفعه چيرميا، فتراجع بظهره نحو حائط الحانة، وجلس على كتلـــة مـــن روث الجياد؛ وهو ما جعل الآخرين يستهزئون به، فهذا النوع من الرجال يسخر ممن يخسرون.

وعندما شكرت چيرميا، سألنى: هل لديك وظيفة فى الجوار؟ قلت نعم، وقال أنه سوف يأتى ويجلب معه ما يمكننى شراؤه منه، وفـــى نفـــس اللحظة جاء رجل ثالث وسأل: هل اسمك جريس ماركس؟ أو شيئًا من هذا القبيل، لا أستطيع أن أتذكر كلماته بالضبط. قلت نعم، فقـــال أنـــه مســـتر توماس كينير، صاحب البيت الذى سأعمل فيه، وأنه جاء لإحضارى. كان معه عربة جميلة بجواد واحد، وعرفت فيما بعد أن اسمه تشـــارلى، كـــان جوادًا مخصيًّا، ووسيمًا، وله عرُف وذيل رائعين، وعينان بنيتان كبيرتان، وقد أحببته من أول نظرة.

أمر مستر كينير السائس بوضع صرتى خلف العربة ــ وكانـــت هناك بعض الأحمال بالفعل ــ وقال: حسنًا، لم يمض عليك خمس دقـــائق فى المدينة والتف حولك سيدان من المعجبين. وقلت أنهما لم يكونا كـــذلك، فقال لم يكونا سيدين، أم لم يكونا معجبين؟ وتحيرت، ولـــم أعـــرف مـــاذا يريدنى أن أقول.

ثم قال: اصعدى يا جريس، فقلت: هل تعنى أن أجلس فى المقدمة؟ فقال، حسنا، لا يمكن طبعًا أن نضعك فى الخلف مثل الأمتعة، وأعطانى يده لأجلس بجانبه. وقد أحرجنى ذلك، فلم أكن معتادة أن أجلس بجوار رجل من علية القوم مثله، وخاصة أنه مخدومى، ولكنه لم يفكر فى الأمر، وصعد من الناحية الأخرى، وفرقع السوط للجواد، وهكذا كنا، نسير بالعربة فى شارع يونج، كما لو كنت سيدة من علية القوم، وفكرت أن أى أحد من هؤلاء الذين ينظرون من نوافذهم علينا سوف يجدون ما يتقولون به. ولكن، كما عرفت فيما بعد، كان مستر كينير رجلاً لا يلقى بالاً إلى الأقاويل، ولم يكن يهتم إطلاقًا بما يقول الناس عنه. كان لديه نقوده الخاصة، ولم يكن يسعى إلى منصب سياسى، وكان يمكنه تجاهل هذه الأشياء.

سأل د. چوردان: ماذا كان شكله؟

"كان لديه مظهر علية القوم يا سيدى، وشارب. "

"هل هذا كل شيء؟ ألم تنظرى إليه جيدًا؟"

"لم أكن أريد أن أحدق فيه، وما أن أصبحنا فى العربة بالطبع لم أنظر إليه. فقد كان ذلك يضطرنى لأن ألف رأسى كلها بسبب القبعة الكبيرة، أظن أنك لم تضع على رأسك قبعة كبيرة أبدًا، أليس كذلك يا سيدى؟"

قال د. چوردان: "لا، لم أفعل". وكان يبتسم تلك الابتسامة المائلة. وقال: "أعتقد أنها تحد من الحركة."

قلت: بالفعل يا سيدى. لكنى كنت أرى قفازه، على يديه وهو يمسك بالزمام، كان قفازًا أصفر باهتًا، من الجلد الناعم وجيد الصنع، حتى

أنه انطبق على يديه تمامًا بحيث تعتقد أنه جلده. وكنت أشعر بالأسف لأننى ليس لدى أية قفازات، وكنت أضع يدى تحت طيات شالى.

قال لى: أظن أنك متعبة جدًا يا جريس، قلت، نعـم يـا سـيدى، وقال: إن الجو دافئ جدًا، وقلت نعم يا سيدى، وهكذا سرنا، وأقـول لـك الحق كان ذلك أصعب من ركوبى فى العربة النطاطة بجوار تاجر الأدوات الزراعية، لا أعرف لماذا، فقد كان مستر كينير أكثر طيبة بكثير. ولكـن ريتشموند هيل لم تكن مكانًا واسعًا، وسرعان ما وصلناها. كان يعيش بعد حافة القرية، بأكثر من ميل نحو الشمال.

وأخيرًا، كنا نعبر بستانه، والممشى، الذى كان منحوتًـا وطولـه حوالى مائة ياردة، ويجرى بين صفين مـن أشـجار القيقـب المتوسـطة الارتفاع. وكان البيت عند نهاية الممر، وبه فراندة كبيرة بطـول المقدمـة وأعمدة بيضاء، بيت كبير، ولكنه ليس كبيرًا مثل بيـت مسـز ألـدرمان باركينسون.

ومن خلف البيت جاء صوت تقطيع الخشب. كان هنـاك صـبى يجلس على السور ـ ربما كان فى الرابعة عشرة من عمـره ـ وعنـدما وصلنا قفز إلى الأرض وجاء ليمسك الجواد؛ كان شعره أحمر مقصوصًـا بغير عناية، وفى وجهه نمش أيضًا. قال مستر كينير له: هالو يا چـيمى، ها هى جريس ماركس جاءت طريقًا طويلاً من تورنتـو، ووجـدتها فـى الحانة، ورفع الصبى وجهه إلى، وابتسم ابتسامة عريضة، كما لو كان يفكر أن بى شيئًا يثير الضحك، ولكنه فى الواقع كان خجولاً وتعوزه اللباقة.

كانت مقدمة الفراندة مزروعة بالزهور، فاوانيـا بيضـاء وورود قرنفلية، وكان ثمة سيدة ترتدى ثيابًا أنيقة ذات حـواف ثلاثيـة تقطفهـا،

وتحمل سلة منبسطة على ذراعها لتضع الزهور فيهــا. وعنــدما ســمعت صوت العجلات وحوافر الجواد على الحصى، استقامت وغطــت عينيهــا بيدها، ورأيت أنها كانت ترتدى قفازًا؛ ثم اكتشفت أن هذه الســيدة كانــت نانسي مونتجومرى. كانت ترتدى قلنسوة من نفس اللون الفــاتح لثيابهــا، وكأنها لبست أفضل ثيابها لتخرج إلى الفراندة وتقطف الأزهــار. لوحــت بيدها برقة نحوى، لكنها لم تتحرك لتأتي إلى، وشعرت بشيء يعصر قلبى بقوة.

كان صعود العربة شيئًا، أما النزول منها فكان شــيئًا آخــر، لأن مستر كينير لم يساعدنى على النزول، فقد نزل قفزًا وأسرع يســير نحــو مقدمة البيت وحنى رأسه نحو قبعة نانسي، تاركًا إياى جالسة فى العربيــة كشوال من البطاطس، أو أزحف نازلة بدون مساعدة، وهو ما فعلته. وجاء رجل من الخلف؛ كان يحمل فأسًا، فلابد أنه هو الذى كان يقطع الأخشاب. كان يرتدى جاكيت من الصوف الثقيل المنسوج على كتفيه، وكانت أكمــام قميصه مشمرة لأعلى، وأزراره مفتوحة عند العنق، وقد ربط منديلاً أحمر حول عنقه، وكان يرتدى بنطلونًا واسعًا أدخلت أطرافه فى عنــق البــوت الذى يرتديه. كان نحيفًا أسود الشعر وغير طويل، ولم يبد أن سنه يزيد عن الواحدة والعشرين. لم يقل شيئًا، لكنه حدق فى، بريبة، وبقدر من العبوس، وكأننى كنت عدوًا له؛ ثم أدركت أنه لا ينظر إلىّ إطلاقًا ولكن إلى شخص آخر خلفى.

قال الصبى چيمى له: هذه جريس ماركس، لكنه ظل بلا كلمة، ثم نادت نانسي: مكدرموت، من فضلك خذ الجــواد إلــى الــداخل، وأشــياء جريس، خذها إلى غرفتها، ويمكن أن تريها أين هى. وهنا احمــر وجهــه كأنه غاضب، وأشار لى برأسه لأذهب معه.

وقفت هناك لحظة وشمس آخر اليوم فى عينى، أنظر إلى نانسى ومستر كينير بجوار زهور الفاوانيا؛ كانت تحيطهما هالة ذهبيـــة، وكأنمـــا سقط غبار ذهبى من السماء عليهما، وسمعتها تضحك. كنت أشعر بـــالحر والتعب والجوع، ويغطينى غبار الطريق، ولم تمنحنى حتى كلمـــة تحيـــة واحدة.

ثم سرت خلف الجواد والعربة نحو خلفية البيت. وســـار الفتـــى چيمى بجوارى، وقـــال بخجل: تورنتو كبيرة، هـــل هى واســـعة جـــدًّا؟ أنا لم أذهب هناك أبدًا، لكنى لم أجبه إلا بأنها واسعة بما يكفى. لم أســـتطع أن أجد فى نفسى مقدرة على الكلام معه عن تورنتو، لأننى فى تلك اللحظة كنت نادمة بشدة على تركى لها.

عندما أغلق عينى، يمكننى أن أتذكر كل تفاصيل ذلـــك المنـــزل بوضوح كما لو كنت أنظر إلى صورة ــ الفرانـــدة والزهـــور، النوافـــذ والأعمدة البيضاء مغمورة بضوء الشمس ــ ويمكننى أن أسير فـــى كـــل غرفة منه وأنا مغماة، رغم أنه فى تلك اللحظة لم يكن لدى أيـــة مشـــاعر خاصة عنه، ولم أكن أرغب إلا فى شربة ماء. ومن الغريب أنه، بعد ستة أشهر من ذلك اليوم، كنت أنا الوحيدة التى بقيت حية بين كل الناس الـــذين كانوا فى ذلك البيت.

ما عدا چيمى وولش، طبعًا؛ لكنه لم يكن يعيش هناك.

- ٢٤ -

أرانى مكدرموت الغرفة المخصصة لى، والتى كانت بعد المطبخ الشتوى. لم يكن متحضرًا فى سلوكه، وكل ما قاله هو "أنت ستنامين هنا". وبينما كنت أفتح صرتى، دخلت نانسى، وكانت الابتسامة تملأ وجهها. قالت إننى سعيدة للغاية أن أراك يا جريس، إننى سعيدة لأنك أتيت. وأجلستنى على المنضدة فى المطبخ الشتوى، الذى كان أكثر برودة من المطبخ الصيفى لأن الموقد كان مطفأ. وأرتنى مكان الحوض حيث يمكننى أن أغسل وجهى ويدى، ثم أعطتنى كأسًا صغيرًا من البيرة، وبعض اللحم البارد من غرفة الخزين، وقالت لابد أنك متعبة بعد رحلتك، إنها رحلة متعبة للغاية، وجلست معى بمنتهى اللطف وأنا أتناول الطعام.

كانت ترتدى قرطًا جميلاً جدًا، وقد عرفت أنه من الذهب الحقيقى، وتعجبت كيف يمكنها أن تدفع ثمنه من راتبها كمدبرة منزل.

وبعد أن انتهيت من الاغتسال، أرتنى المنزل والمبانى الملحقة به. كان المطبخ الصيفى منفصلاً تمامًا عن المنزل، لكى لا تصل حرارته إلى البيت، وهو تدبير جيد لابد أن يتبعه الجميع. كل مطبخ له أرضية عارية وموقد كبير له مقدمة مسطحة لحفظ الأشياء دافئة، وكان هذا هو أحدث موديل فى ذلك الوقت، وكان بكل مطبخ حوض خاص، وأنبوب يجرى إلى

المصرف، وله أوفيس خاص به وغرفة خزين. وكانت طلمبة الماء في الفناء بين المطبخين؛ وقد أسعدني أنها لم تكن بئرًا مفتوحة، فمثل هذه الآبار أكثر خطورة، فالأشياء يمكن أن تقع فيها وغالبًا يعيش فيها الفئران.

وكان الإسطبل يقع خلف المطبخ الصيفي، ويتصل بالمبنى الذي تحفظ فيه العربة. كان مأوى العربة يكفي عربتين، ولكن مستر كينير لم يكن لديه سوى تلك العربة الخفيفة، وأظن أن عربة كبيرة يمكن أن تكون بلا فائدة على مثل هذه الطرقات. وفي الإسطبل كان يوجد أربعة أماكن مخصصة للحيوانات، ولكن مستر كينير لم يكن لديه إلا بقرة واحدة وجوادان، الجواد تشارلى، ومهر صغير سوف يخصص للركوب عندما يكبر. أما الغرفة المخصصة لعدة الدواب فكانت خلف المطبخ الشتوى، وهذا كان أمرًا غريبًا، وغير مناسب إطلاقًا.

وفوق الإسطبل، كانت غرفة علوية، وهى التى كان ينام فيها مكدرموت. قالت لى نانسى أنه لم يأت إلا من أسبوع واحد تقريبًا قبلى، ورغم أنه تم إعلامه بكل شىء عندما كان مستر كينير يعطى الأوامر، فيبدو أنه يحمل ضغينة ضدها، وكان وقحًا، وقلت أنه ربما يحمل ضغينة ضد العالم، فقد كانت تعامله معى سيئًا أيضًا. وقالت نانسى أنه فيما يخصها، لو لم يصلح من طريقته فسوف يخرج من العمل، فهناك الكثيرون يمكن أن يجيئوا من حيث جاء، فالجنود العاطلون يمكن الحصول عليهم بمجرد الطلب.

كنت دائمًا أحب رائحة الإسطبل. ربت على أنف المهر، وقلت لتشارلى طاب يومك، وقمت بتحية البقرة أيضًا، لأنه سوف يكون من ضمن عملى أن أحلبها، وأردت أن نبدأ معًا علاقة طيبة. كان مكدرموت

يضع القش للحيوانات، ولم يوجه إلينا حديثًا إلا أنه أخرج صوتًا يشبه قباع الخنازير، ووجه إلى نانسى نظرة ملؤها الجهامة، ورأيت أن المشاعر متبادلة، وعندما خرجنا من الإسطبل قالت نانسى "إنه أكثر ثقة من قبل، حسنًا، أهلاً ومرحبًا به، إما أن يبتسم فى وجهى أو إلى الطريق، أو الأغلب أن يذهب إلى الجحيم"، وضحكت، وتمنيت ألا يكون يسترق السمع.

بعد ذلك رأينا حظيرة الدجاج والساحة الملحقة بها، والتى كانت محاطة بسور من خشب الصفصاف المجدول لمنع الدجاج من الخروج، رغم أنه لم يكن جيدًا فى منع الثعالب وبنات عرس من الدخول، ولا حيوانات الراكون، التى كان من المعروف أنها سارق كبير للبيض؛ ورأينا حديقة المطبخ، التى كانت مزروعة جيدًا ولكنها بحاجة إلى عزق؛ وبعيدًا على ممر فى الخلفية كان يوجد المرحاض.

كان مستر كينير يمتلك مساحة واسعة من الأرض، مرعى واسعًا مصونًا من البقرة والجوادين، وبستان فواكه صغيرًا يطل على شارع يونج وحقولاً أخرى عديدة كانت تزرع أو ما زال إخلاؤها من الأشجار جاريًا. وقالت نانسى أن والد چيمى وولش هو الذى يقوم على هذه المهمة، وأن لهم كوخًا فى الأرض على بعد ربع ميل تقريبًا. ومن مكان وقوفنا لم يكن يمكننا أن نرى سوى السطح العلوى والمدخنة ترتفع فوق الأشجار. وكان چيمى نفسه صبيًّا ذكيًّا وواعدًا، يقضى المشاوير لمستر كينير، ويستطيع العزف على الفلوت، أو ما كان يسميه "فلوت"، لكنه كان يبدو أقرب إلى الناى. وقالت نانسى أنه قد يأتى فى أمسية ما ويعزف لنا، فهو يحب ذلك، وهى نفسها تستمتع ببعض الموسيقى، وهى تتعلم العزف على البيانو. وقد أدهشنى ذلك، فهو أمر ليس معتادًا بالنسبة لمدبرة المنزل. لكنى لم أقل شيئًا.

فى الفناء، بين المطبخين، كان يوجد ثلاثة حبال معلقة للغسيل. ولم تكن هناك غرفة غسيل منفصلة، ولكن الأدوات المخصصة للغسيل، الأوانى النحاسية والأحواض واللوح الذى نفرك عليه الملابس المتسخة، كانت موجودة حاليًا فى المطبخ الصيفى بجوار الموقد، وكلها من نوع جيد؛ وقد أسعدنى أنهم لم يكونوا يصنعون الصابون بأنفسهم، وإنما كانوا يشترونه؛ فالصابون المشترى أقل تأثيرًا على الأيدى بكثير.

لم يكن لديهم خنزير، وقد أسعدني ذلك أيضًا، فالخنازير لئيمة للغاية، ومغرمة بالهرب من زرائبها، كما أن رائحتها ليست لطيفة على الإطلاق. وفى الإسطبل كانت تعيش قطتان، لاصطياد الفئران وإبعادها، ولكن لم يكن يوجد كلب، فقد مات كلب مستر كينير العجوز الذى كان يسمى فانسى. وقالت نانسى أنها ستشعر بأن الحياة أسهل في وجود كلب فى المكان ينبح على الغرباء، وأن مستر كينير كان يبحث عن كلب جيد ليخرج معه إلى الصيد، ولم يكن شديد الولع بهذه الرياضة، لكنه كان يحب أن يصطاد بطة أو اثنتين فى الخريف، أو إوزة برية، وهى طيور كثيرة جدًّا فى المنطقة، رغم أن لحمها كان متليفًا صعب المضغ.

عدنا إلى المطبخ الشتوى، وسرنا فى الممر الذى كان يؤدى إلى صالة المدخل، والتى كانت كبيرة، وبها موقد للتدفئة علقت فوقه قرون أيل، وجدرانها مغطاة بورق حائط أخضر جيد، وفرشت أرضيتها بسجادة تركية جميلة. وكان الباب السحرى المؤدى إلى القبو فى هذه الصالة، وكان لابد أن ترفع جزءًا من السجادة لتصل إليه، وهو مكان غير مناسب فى نظرى، فالمطبخ هو المكان الأنسب، لكن القبو لم يكن تحت المطبخ. وكانت سلالم القبو شديدة الانحدار وغير مريحة، وكان القبو نفسه مقسمًا إلى جزأين يفصلهما جدار نصفى، ناحية مخصصة لمنتجات الألبان، وكانوا يحفظون

فيها الزبد والجبن، وفى الناحية الأخرى كانوا يحفظون النبيذ والبيرة فـــى براميل، والتفاح والجزر والكرنب والبنجر والبطاطس فى صـــناديق مـــن الرمل فى الشتاء، وكذلك براميل النبيذ الفارغة أيضًا. وكانت هناك نافــذة، لكن نانسى قالت أننى لابد أن آخذ دائمًا شمعة أو مصباحًا حيث أن المكان تحت مظلم تمامًا، ويمكن أن تتعثر وتقع على السلالم وتكسر رقبتك.

ولم ننزل إلى القبو فى تلك المرة.

فى آخر الصالة كان البهو الأمامى، بموقد خـــاص وصـــورتين، واحدة لجمع عائلى، وأظن أنهم كانوا من أسلافه، فقد كانت وجوههم جامدة وملابسهم قديمة الطراز، والصورة الأخرى لثور كبيـــر ســـمين قصـــير الأرجل، وفى البهو أيضًا كان البيانو، ولم يكن آلة بيانوفورت، وإنما مجرد بيانو ردهة مستقيم الظهر، والقنديل الكروى الذى كان يملأ بأفضل زيـــت من زيت الحوت، والذى جيء به من الولايـــات؛ فهـــم إذن لـــيس لـــديهم كيروسين للمصابيح. خلف هذه الصالة غرفة الطعام، وبها مدفأة أيضًا، لها حوامل قنديل فضية، وبها دولاب مغلق تحفظ به الأطباق الصينى الجميلـــة وأدوات المائدة، وصورة لطيور تدرُّج ميتة فوق رف الموقد، وهو ما أظن أنه غير لطيف أثناء تناول الطعام. وهذه الغرفة متصلة بالبهو من خـــلال باب مزدوج كما يمكن الوصول إليها من باب مفرد مـــن الممـــر، لحمـــل الطعام من المطبخ. وفى الجانب الآخر من الممر مكتبة مستر كينير، لكننا لم ندخلها فى تلك المرة لأنه كان يقرأ بالداخل، وخلف المكتبة كانت غرفة مكتب صغيرة بها مكتب، حيث يكتب مستر كينير الرسائل ويؤدى فيها أى من أعمال البيزنس الخاصة به.

وكان يوجد سلم جميل يبدأ فى الصالة الأمامية، ولــه درابــزين مصقول، وصعدنا عليه، وفى الطابق الثانى كانت غرفة نوم مستر كينيــر وبها سرير كبير، وملحق بها غرفة الملابــس، والتســريحة لهــا مــرآة بيضاوية، ودولاب منحوت، وفى غرفة النوم علقت لوحة لامرأة لا ترتدى أية ثياب، جالسة على أريكة وتظهر من ظهرها وهى تنظر من فوق كتفها، ترتدى على رأسها قبعة أشبه بالعمامة، وتمسك بيدها مروحة مــن ريــش الطاووس. وريش الطاووس داخل البيت فأل سيئ، كما يعــرف الجميــع. ولكنه لم يكن موجودًا إلا فى الصــورة، ولكنى ما كنت لأســمح بدخولــه أى بيت لى. وكانت هناك صورة أخرى، لامرأة عاريــة أيضًــا تســتحم، ولكنى لم يكن لدى فرصة للنظر إليها بإمعان. وقد أدهشنى وضع مســتر كينير لصورتى امرأتين عاريتين فى غرفة نومه، فعنــد مســز ألــدرمان باركينسون كانت اللوحات فى الغالب مناظر طبيعية أو زهورًا.

وفى آخر الصالة كانت غرفة نوم نانسى، والتى لم تكن فى مثــل ذلك الاتساع؛ وكانت كل غرفة لها سجادة. ولكن الحق أن هذه الســجاجيد كان يجب أن تنفض وتنظف وتحفظ حتى الشتاء التالى، لكن نانسى لم يكن لديها الوقت لذلك، حيث لم يكن لديها من يساعدها. وتعجبت لوجود غرفتها فى نفس الطابق الذى فيه غرفة مستر كينير، لكن البيت لم يكن له طــابق ثالث، ولا علِية، ليس مثل بيت مسز ألدرمان باركينسون، الذى كان أكبــر كثيرًا. وكانت هناك غرفة للضيوف، إذا كان يأتيهم ضيوف. وفــى نهايــة الممر دولاب تخزن فيه أشياء مثل ملابس الشتاء، ودولاب بياضات مجهز جيدًا، وله أرفف كثيرة؛ وبجوار غرفة نوم نانسى كانــت توجــد غرفــة صغيرة قالت إنها غرفة الخياطة الخاصة بها، وكان بها منضدة ومقعد.

وبعد أن رأينا الطابق الأعلى من البيت، نزلنا وتحدثنا حول واجباتى؛ وقلت لنفسى أنه من حسن الحظ أننا فى الصيف، وإلا لكان على تنظيف كل هذه المدافئ والقناديل وإشعالها، وكذلك تنظيف المواقد وتلميعها؛ وقالت نانسى طبعًا أننى لن أبدأ فى نفس اليوم، ولكن فى اليوم التالى، وبلا شك كنت أتمنى أن أذهب إلى الفراش مبكرًا، فلا بد أننى متعبة للغاية. وكانت هذه هى الحالة بالفعل، وذهبت إلى النوم بمجرد غروب الشمس.

"ثم سار كل شىء هادئًا لمدة أسبوعين"، يقرأ د. چوردان من اعترافى.

أقول: "نعم يا سيدى، كان هادئًا تقريبًا".

"ما هو 'كل شىء' كيف استمر الحال؟"

"معذرة يا سيدي؟"

"ماذا كنت تفعلين كل يوم؟"

"آه، المعتاد يا سيدى، كنت أقوم بواجباتى."

يقول د. چوردان: "معذرة، ما هى تفاصيل هذه الواجبات؟"

أنظر إليه، كان يرتدى رابطة عنق صفراء بها مربعات بيضاء صغيرة. وهو لا يمزح. إنه لا يعرف بالفعل. إن الرجال على شاكلته ليس من واجباتهم إزالة الفوضى التى يسببونها، ولكن نحن الذين نزيل الفوضى التى نسببها والتى يسببونها فوق البيعة. وبهذه الطريقة فهم مثل الأطفال، ليسوا مضطرين للتفكير فيما أمامهم، أو القلق حول عواقب ما يفعلون. ولكن هذا ليس خطأهم، إنما هى الطريقة التى تربوا بها.

- ٢٥ -

في اليوم التالى استيقظت عند الفجر. كانت غرفة نومى الصغيرة مغلقة وحارة، فقد كان الصيف قد بدأ، وكانت مظلمة أيضًا، فقد أغلقت الشيش فى الليل تحسبًا من المتطفلين. وكانت النافذة مغلقة أيضًا، خشية الناموس والذباب؛ وفكرت أننى لابد أن أحصل على قطعة من الموسلين لأضعها فوق النافذة، أو على فراشى كناموسية، سوف أتحدث مع نانسى فى ذلك، وكنت قد نمت فى قميصى الداخلى فقط، بسبب الحرارة.

نهضت من الفراش وفتحت النافذة والشيش ليدخل بعض الضوء، وأدرت أغطية السرير لتهويتها، ثم ارتديت رداء العمل والمريلة، وعقصت شعرى، ووضعت قلنسوتى فوقه. كنت أنوى أن أمشط شعرى بشكل أفضل فيما بعد، عندما أستطيع أن أستخدم المرآة الموجودة فوق حوض المطبخ، حيث لا توجد مرآة فى غرفتى. وشمرت أكمامى، ولبست قبقابى، وفتحت ترباس باب الغرفة، فأنا عادة أغلق الباب بالترباس، فإذا حاول أحد أن يدخل عنوة إلى المنزل، فإن غرفتى ستكون أول غرفة يريدون الوصول إليها.

وشعرت بالرضا للنهوض مبكرًا، فبهذه الطريقة يمكننى أن أوحى لنفسى، ولو لسويعات قليلة، بأن البيت هو بيتى. أول شىء فعلته أن أفرغت مبولتى فى دلو الفضلات؛ ثم حملت الدلو وخرجت من باب المطبخ

الشتوى، وأنا أفكر أن الأرض بحاجة إلى فرك جيد، فقد تركت نانسى الأشياء تصل إلى حالة سيئة وقد تراكمت كمية كبيرة من الطين دون أن يحاول أحد التعامل معها. كان الهواء فى الفناء منعشا؛ وكانت السماء فى الشرق تلمع ببريق قرمزى، ويرتفع من الحقول ندى لؤلؤى. وفى مكان قريب، كان طائر يغنى ــ وفكرت أنه طائر "الصعْو" ــ ومن بعيد سمعت أصوات غربان تتنادى. فكل شىء فى الصباح الباكر يبدو وكأنه يبدأ من جديد.

لابد أن الحصانين سمعا صوت باب المطبخ يفتح، لأنهما صهلا؛ ولكن لم يكن من واجباتى إطعامهما أو إخراجهما إلى المرعى، رغم أننى أرحب بفعل هذا. كذلك سمعت البقرة تخور، فلابد أن ضرعها كان مليئًا، لكنها لا مفر من أن تنتظر، فلا يمكننى فعل كل شىء فى التو واللحظة.

سرت فى الممر، وعبرت حظيرة الدجاج وحديقة المطبخ وذهبت إلى الخلف عبر الحشائش المنداة، وأنا أدفع من حولى شباك العنكبوت الواهية التى نسجت أثناء الليل. وأنا لا أقتل عنكبوتًا أبدًا. قالت مارى هويتنى أن هذا يجلب الحظ السيئ، ولم تكن وحدها التى قالت ذلك. وعندما كنت أجد واحدًا داخل البيت، كنت أحمله على طرف المكنسة وأنفضها فى الخارج، ولكن لابد أننى قتلت بعضها بدون قصد، لأننى عشت سيئة الحظ على أى حال.

وصلت إلى المرحاض، وأفرغت دلو الفضلات، وما إلى ذلك.

يسأل د. چوردان: وما هو "ما إلى ذلك" يا جريس؟

أنظر إليه. حقيقة إذا لم يكن يعرف ماذا يفعل الإنسان فى المرحاض فلا أمل.

كان ما فعلت هو أن رفعت ثوبى، وجلست فوق الذباب الحـــائم، على نفس المقعد الذى يجلس عليه كل من فى البيت، سيدة أو خادمة، كلهم يفعلون نفس الشىء وتصل إلى أنوفهم نفس الرائحة، وهى ليست كرائحـــة الليلاك على أية حال، كما كانت تقول مارى هويتنى. وفوجئت بأن ما كان هناك للمسح هو عدد قديم من مجلة سيداغت جودى؛ فكنـــت أنظـــر إلـــى الصور قبل أن أستخدم الورقة. وكانت معظمها لأحدث الموضات، ولكـــن بعضها كانت لدوقات من إنجلترا وسيدات الطبقة الراقية فـــى نيـــويورك وما أشبه. لا تترك صورك أبدًا تنشر فى مجلة أو جريدة إذا اســـتطعت، فلا تعرف أبدًا ما هى نهاية صورة وجهك وأية خدمة ســـتؤديها للـــبعض، ما أن تخرج عن قدرتك على التحكم.

ولكنى لا أقول شيئًا من ذلك للدكتور چوردان. أقول بصـــرامة: "نعم، وما إلى ذلك"، لأن "ما إلى ذلك" هو كل ما مـــن حقـــه أن يســـمع. فإصراره المزعج على معرفة كل شىء ليس سببًا يضطرنى أن أقول له.

أقول: ثم حملت الدلو إلى الطلمبة فى الفنـــاء، ووضـــعت فـــى الطلمبة بعض الماء من الدلو المتروك هناك لهذا الغرض، فلكـــى تعمـــل الطلمبة لابد أن تضع فيها بعض الماء قبل أن تضخ منها أى شىء، وقـــد كانت مارى هويتنى تقول أن هذه الطريقة هى التى يـــرى بهـــا الرجـــال مغازلة النساء، عندما تكون نظرتهم قاصرة. وما أن عملت الطلمبة، غسلت دلو الفضلات، وغسلت وجهى، ثم وضعت يدى لأشـــرب. كانـــت الميـــاه الخارجة من جوف الأرض عند مســـتر كينير جيدة، ليس لها طعم الحديد أو الكبريت. وفى هذا الوقت كانت الشمس تطلع، والندى يتبدد، وشـــعرت أنه سيكون صباحًا جميلاً.

بعد ذلك ذهبت إلى المطبخ الصيفى، وأشعلت نار الموقد. وقمت بتنظيفه من رماد اليوم السابق، ووضعت الرماد جانبًا لرشه فى المرحاض، أو فى حديقة المطبخ، حيث يمكن أن يساعد فى إبعاد الحلزونات والبزاقات. كان الموقد جديدًا، ولكن له طرقه الخاصة، وعندما يوقد لأول مرة، كان يقذف بدخان أسود علىّ كما لو أن ساحرة تشعل النار. كان لابد أن ألاطفه، فقمت بتزويده بقطع من أوراق الجرائد ـ كان مستر كينير يحب الجرائد، فكان يشترى عدة جرائد ـ كما أطعمته بشظايا من حطب الإشعال؛ وأخذ يطلق أصواتًا أشبه بالسعال، ورحت أنفخ من خلال الشبكة، وأخيرًا أمسكت النار وبدأ اللهب يتصاعد. كان خشب النار مقطعًا إلى قطع كبيرة جدًّا بالنسبة للموقد، وكان لابد أن أقوم بتكويمه بالمحراك. سوف أتحدث إلى نانسى عنه فيما بعد، وسوف تقول هى لمكدرموت، فهو المسئول عن هذا.

ثم خرجت إلى الفناء لأضخ ملء دلو من الماء، وأدخلته إلى المطبخ وملأت الغلاية منه بالمغرفة، ووضعتها على الموقد لتغلى.

ثم أحضرت جزرتين من غرفة عدة الخيل الواقعة خارج المطبخ الشتوى، وكانتا قديمتين، ووضعتهما فى جيبى، واتجهت إلى الزريبة ومعى وعاء الحلب. كانت الجزرتان للحصانين، وأعطيتهما إياهما خفية؛ صحيح أنهما كانتا من الجزر المخصص لهما، لكنى لم أستأذن فى ذلك. وتسمعت خشية أن يستيقظ مكدرموت فى العلية بأعلى، لكن لم تكن هناك أية حركة، كان فى نوم عميق، أو يتظاهر بذلك.

ثم حلبت البقرة. كانت بقرة طيبة، واستجابت لى بسرعة. بعض الأبقار سيئة الطباع جدًّا، حتى أنها يمكن أن تنطحك بقرنيها أو ترفسك،

لكن هذه البقرة لم تكن كذلك، وما أن أسندت رأسى إلى جانبها حتى استعدت للعمل على الفور. جاءت القطتان تموءان طلبًا لبعض اللبن، فأعطيتهما بعضه. ثم حييت الجوادين، ووضع شارلى رأسه عند جيب مريلتى. لقد عرف أين كنت أضع الجزر، هذا حسن.

وفى الطريق سمعت ضوضاء غريبة تأتى من أعلى. كما لو كان شخص يطرق بجنون بمطرقتين، أو يضرب على طبل خشبى. فى البداية لم أفهم إطلاقًا؛ ولكنى استمعت، ثم اكتشفت أنه لابد أن يكون مكدرموت يرقص بقدميه على ألوح الأرضية الخشبية العارية فى العلية. وبدا أنه راقص ماهر؛ ولكن لماذا كان يرقص وحده هناك، وفى مثل هذا الوقت المبكر؟ ربما كان ذلك بسبب فرحة عارمة، وفيض أرواح الحيوانات التى تغمر المكان؛ ولكنى بشكل ما لم أصدق ذلك.

وحملت اللبن إلى المطبخ الصيفى، وأخذت بعض اللبن الطازج للشاى، ثم غطيت وعاء اللبن بقماش لحمايته من الذباب، وتركته حتى ترتفع القشدة. وكنت أرجو أن أصنع زبدًا منه فيما بعد إذا لم تحدث عواصف رعدية، فالزبد لا يخرج عندما تكون هناك رعود. ثم اقتطعت لحظة لترتيب غرفتى.

لم تكن غرفة تستحق الذكر، جدرانها غير مكسوة بالورق، لا صور على الجدران ولا حتى ستائر. كنستها بسرعة، وغسلت النونية ووضعتها تحت السرير. كانت تحت السرير لفائف من فتائل التراب المتراكمة بدت كما لو كانت صوف خروف كامل، وكان من السهل أن تعرف أن الغرفة لم تكنس أرضيتها منذ وقت طويل. قمت بتنفيض الحشية، ورتبت الملاءة، ونفضت المخدة، وشددت اللحاف عليه. كان لحافًا قديمًا

مهلهلاً، رغم أنه كان من نوع جيد يوم صنع، وكان مصنوعًا على نموذج "مطاردة الإوز البرى"؛ وفكرت فى الأغطية التى سوف أصنعها لنفسى، بعد أن أوفر ما يكفى وأتزوج ويكون لى بيتى الخاص بى.

شعرت بالرضا عندما انتهيت من تنظيف غرفتي وترتيبها. فعندما أعود إليها فيما بعد، فى نهاية اليوم، سوف أجدها نظيفة ومرتبة، كما لو أن خادمة قد رتبتها لى.

ثم أخذت سلة البيض، ونصف دلو من الماء، وذهبت إلى حظيرة الدجاج. كان چيمس مكدرموت فى الفناء، يغسل شعره الأسود تحت الطلمبة، ولكن لابد أنه سمعنى من خلفه، فقد أخرج وجهه من تحت المياه، وللحظة بدت على وجهه نظرة ضياع، موحشة ومليئة بالاهتياج، مثل طفل على وشك الغرق، وسألت نفسى ترى من يظن أنه يطارده. ولكنه فى تلك اللحظة عرفنى، وأشار لى بمرح، وكانت هذه على الأقل بادرة طيبة وأول علامة طيبة رأيتها منه. وكانت يداى كلتاهما مشغولتين، فرددت بهزة من رأسى.

صببت الماء للدجاج فى حوض السقاية، وأخرجته من الحظيرة، وبينما كانت الدجاجات تتسابق وتتشاجر على حوض السقاية، دخلت وجمعت البيض ــ كان بيضًا كبيرًا، فهذا الوقت من السنة هو الموسم. ثم نثرت لهم الحبوب وبقايا المطبخ من اليوم السابق. والواقع أننى لم أكن مغرمة بالدجاج، كنت أفضل دائمًا حيوانًا من ذوات الفراء على سرب من الطيور الصائحة كريهة الرائحة التى تنبش فى القذارة والطين، ولكن إذا أردت البيض فلا مفر من التآلف مع طباعها الصعبة.

خربشنى الديك محاولاً إبعادى عن زوجاته، لكنى وجهت إليه ركلة وكدت أفقد قبقابى بسببها. يقولون أن ديكًا واحدًا يسعد سربًا من الدجاجات، لكن ديكًا واحدًا كان كثيرًا فيما يخصنى. قلت له: حسن من سلوكك وإلا كسرت عنقك، رغم أننى فى الحقيقة لا أحتمل أن أفعل شيئًا من هذا القبيل.

فى هذا الوقت، كان مكدرموت يتفرج من على السور، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. كان شكله أفضل عندما يبتسم، يجب أن أعترف بهذا، رغم أنه كان كئيبًا ويلوى فمه بطريقة تنم عن لؤم. ولكن يا سيدى، ربما أننى أتخيله الآن هكذا فى ضوء ما حدث بعد ذلك.

قال مكدرموت: هل توجهين هذا الكلام لى؟ قلت ببرود وأنا أعبره فى طريقى: لا، ليس لك. وظننت أننى فهمت ما يفكر فيه، ولم يكن شيئًا جديدًا. ولم أكن أريد أية مشاكل من هذا النوع، ومن ثم فالأفضل الاحتفاظ بمسافة من الود.

كانت الغلاية تغلى أخيرًا. وضعت وعاء الثريد على الموقد، وفيه الثريد الذى كان منقوعًا بالفعل، ثم قمت بعمل الشاى، وتركته ليخرُط، بينما ذهبت إلى الفناء وقمت بضخ دلو آخر من الماء وحملته إلى الداخل، ورفعت الوعاء النحاسى الكبير على ظهر الموقد وملأته، فقد كنت بحاجة إلى تسخين كمية كبيرة من الماء، لتنظيف الأوانى المتسخة وما إلى ذلك.

وفى هذه اللحظة جاءت نانسى، مرتدية ثوبًا قطنيًّا مقلمًا ومريلة، ولم يكن ثوبًا رائعًا مثل ذلك الذى كانت ترتديه بالأمس. قالت صباح الخير وبادلتها التحية. قالت: هل الشاى جاهز؟ قلت إنه جاهز. قالت: آه، إننى لا أكاد أشعر بأننى استيقظت حتى أشرب الشاى، فصببت الشاى لها.

قالت: مستر كينير سيتناول شايه بالطابق العلوى، ولكننى كنت أعرف هذا من قبل، حيث أنها أعدت صينية الشاى فى الليلة الماضية وعليها براد صغير وكوب وسكرية، لم تستخدم الصينية الفضية المنقوش عليها اسم العائلة، وإنما صينية من الخشب الملون. وأضافت، سوف يحتاج كوبًا آخر عندما ينزل، قبل الإفطار، هذه هى عادته.

وضعت اللبن الطازج فى إبريق صغير، والسكر، وحملت الصينية. قالت نانسى: أنا سأحملها إلى أعلى. وأدهشنى ذلك، وقلت إنه عند مسز ألدرمان پاركينسون، كانت مدبرة المنزل لا يمكن أبدًا أن تحمل أية صينية وتطلع السلم بها، فهذا يقلل من وضعها، وهو عمل للخادمات. حدقت نانسى لحظة، وبدا عليها الضيق، لكنها قالت أنها كانت تفعل ذلك بالطبع لأنه لا أحد يساعدها، ولم يكن هناك من يفعل ذلك، ولذلك اعتادت على أن تفعل ذلك بنفسها. ومن ثم فقد حملت أنا الصينية.

كان باب غرفة نوم مستر كينير أعلى السلم. ولم يكن ثمة مكان قريب منه يمكن أن أضع الصينية عليه، فوازنتها على ذراع واحد بينما نقرت على الباب بيدى الأخرى. قلت: الشاى، يا سيدى. سمعت همهمة من الداخل فدخلت. كانت الغرفة مظلمة، فوضعت الصينية على المنضدة المستديرة المنخفضة بجوار السرير، وذهبت إلى النافذة وفتحت الستائر قليلاً. كانت هذه الستائر بلون بنى داكن لها ملمس الساتان ولها حاشية هدبية، وكان ملمسها ناعمًا؛ ولكنى أرى أنه من الأفضل أن تكون الستائر فى الصيف من القطن أو الموسلين الأبيض، حيث أن الأبيض لا يمتص الحرارة ويدخلها إلى البيت، كما يبدو أكثر جلبًا للبرودة.

لم أستطع رؤية مستر كينير، فقد كان فى أكثر أركـــان الغرفـــة إظلامًا ووجهه فى الظل. لم يكن على فراشه غطاء من القطع المشــغولة، وإنما غطاء داكن اللون يتناسب مع الستائر، وكان الغطـــاء ملقـــى إلـــى الخلف، ولم يكن عليه سوى الملاءة. جاء صوته إلى كما يمكن أن تقـــول من تحتها. قال، شكرًا يا جريس. كان دائمًا معتادًا على أن يقول من فضلك وشكرًا. ولابد أن أقول أنه كان يعرف كيف يتحدث.

قلت: على الرحب والسعة، يا سيدى، والحقيقة أنه كـــان علـــى الرحب والسعة من كل قلبى. فأنا لم أشعر أبدًا بالضيق وأنا أخدمه، ورغم أنه كان يدفع لى مقابل الخدمة، فقد كنت أشعر أننى أفعـــل ذلـــك بـــدافع شخصى. قلت: هناك بيض طازج هذا الصباح يا سيدى، هل تحب واحـــدة منه فى الإفطار؟

قال: نعم، وبدا عليه التردد، ثم استطرد، شكرًا يا جـــريس، أنـــا متأكد أنها ستكون مفيدة لى.

لم تعجبنى الطريقة التى قال بها ذلك، فقد كان يتكلم كما لو كـــان مريضًا. لكن نانسى لم تقل شيئًا عن ذلك.

عندما عدت إلى أسفل قلت لنانسى أن مستر كينير يريـــد بيضـــة على الإفطار. وقالت: وأنا أيضًا سآخذ بيضة. إنه يحب بيضته مقلية، مـــع لحم مدخن، لكنى لا أستطيع أكل البيض المقلى، أحبه مسلوقًا. سوف نتناول الإفطار معًا، فى غرفة الطعام، إنه لا يحب أن يأكل وحده، ولذا يطلب منى أن أكون بصحبته.

ووجدت ذلك غريبًا بعض الشيء، رغم أنه ليس شيئًا لم نسمع به من قبل. ثم قلت: هل مستر كينير مريض؟

ضحكت نانسى قليلاً، وقالت: أحيانًا يتخيل أنه مريض. لكن الأمر كله فى رأسه، إنه يحب أن يشعر بقلق الآخرين عليه.

قلت: من الغريب أن رجلاً حسنًا مثله لم يتزوج أبدًا. كنت أخرج الطاسة لقلى البيض، وكان مجرد تساؤل لا معنى له، لم أقصد شيئًا منه، لكنها ردت بنغمة غاضبة، أو شعرت أنها غاضبة: بعض الرجال من الطبقة الراقية لا يميلون للحياة الزوجية. إنهم مرتاحون فى حياتهم هكذا، ويفكرون أنه يمكنهم أن يعيشوا عيشة راضية دون زواج.

قلت: من هذه الناحية أظن أنه يمكنهم ذلك،

قالت: بكل تأكيد، إذا كانوا أغنياء بما يكفى، فإذا أرادوا شيئًا فإن كل ما عليهم أن يدفعوا ثمنه. فالتكلفة لا تهم بالنسبة لهم.

وإليك الآن أول خلاف بيننا أنا ونانسى. حدث ذلك عندما كنت أرتب غرفة مستر كينير، فى أول يوم، وكنت أرتدى مريلة السراير، لكى لا تتسخ الملاءات من قذارة الموقد وسناجه. كانت نانسى تحوم، وتقول لى أين يجب أن أضع هذا وذاك، وكيف أدس أطراف الملاءات فى الأركان، وكيف أهوى ملابس نوم مستر كينير، وكيف توضع الفُرَش والأشياء الخاصة بالزينة على منضدة الزينة، وكيف ينبغى أن تلمع ظهورها الفضية، وأى الأرفف يجب أن توضع عليها قمصانه الكتانية المطوية، لتكون جاهزة للاستخدام، وكانت تتصرف وكأننى لم أفعل أيًّا من هذه الأشياء من قبل.

وفكرت حينئذ، كما رحت أفكر دائمًا بعد ذلك، أن العمل لدى امرأة كانت يومًا خادمة أصعب من العمل عند غيرها، لأن من سبق أن عملت خادمة لها طرقها الخاصة فى أداء الأشياء، كما أنها سوف تعرف

أوجه النقص، مثل دفس بضع ذبابات ميتة تحت السرير، أو كنس بعض التراب أو الرمل تحت السجادة، وهى أمور لن يلاحظها أحد إلا مع الفحص الدقيق لهذه الأماكن؛ كما أن من كانت خادمة لها عينان أكثر حدة، والاحتمال أكبر أن تكشف مثل هذه الأمور. ولا يعنى ذلك أننى أتصرف بهذه القذارة فى العادة، ولكن أحيانًا تكون الواحدة منا فى عجلة من أمرها.

وعندما أقول عن أى شىء أن هذا لم يكن هو المتبع عند مسز ألدرمان پاركينسون، تجيب نانسى بحدة أن هذا لا يهم، فأنا لست الآن عند مسز ألدرمان پاركنسون. فلم تكن تحب أن تذكر بأننى كنت أشتغل فى مثل هذا البيت الكبير، وأننى اختلطت مع من هم أفضل منها. ولكننى فكرت منذئذ أن السبب فى كل هذا الهرج الذى تفتعله كان أنها لم تكن ترغب فى تركى وحدى فى غرفة مستر كينير، فقد يأتى فى أية لحظة.

ولكى أخفف عنها عصبيتها، سألتها عن اللوحة الموجودة على الجدار؛ ليس اللوحة التى بها مروحة الطاووس، وإنما اللوحة الأخرى للسيدة التى تستحم، فى حديقة، فهو مكان غريب للاستحمام، وشعرها ملموم لأعلى، وخادمة تحمل فوطة كبيرة جاهزة لها، وعدد من الرجال العجائز ذوى اللحى يتلصصون عليها من بين الشجيرات. وكان يمكن أن أقول من نوع الملابس التى يرتدونها أن الصورة تعود لزمن قديم. قالت نانسى أنها منفذة بطريقة الحفر، وأن الألوان قد أضيفت يدويًّا، وأنها نسخة من لوحة مشهورة عن سوزانا والرجال العجائز، وأنه موضوع من موضوعات الإنجيل. وكانت تشعر بالفخر لأنها تعرف كل هذا.

لكنى تضايقت منها بسبب كل ما تعمدته من التعييب والمماحكة، وقلت أننى أعرف الإنجيل من الجلدة للجلدة ــ ولم يكن هذا بعيدًا عن

الحقيقة ــ وأن هذه القصة ليست فى الإنجيل. ومن ثم فهى لا يمكن أن تكون من موضوعات الإنجيل.

قالت إنها كذلك؛ وقلت إنها ليست كذلك. وكنت أنوى أن أضعها فى اختبار؛ فقالت إن دورى ليس أن أتحدث عن اللوحات، وإنما أن أسوى السرير. وفى تلك اللحظة دخل مستر كينير إلى الغرفة، ولابد أنه سمع طرفًا من الحديث وهو فى الممر، فقد بدا عليه الابتسام. قال: ماذا، هل تتناقشان فى علم اللاهوت، وفى هذا الوقت المبكر من الصباح أيضًا؟ وأراد أن نحكى له كل ما تكلمنا بشأنه.

قالت نانسى إنه ليس أمرًا يضايق نفسه به، لكنه أصر أن يعرف، وقال: طيب يا جريس، أرى أن نانسى تريد أن تحفظ الأمر سرًا عنى، ولكنك لابد أن تخبريني؛ وشعرت بالخجل، ولكن فى النهاية سألته إذا ما كانت قصة اللوحة من موضوعات الإنجيل، كما تقول نانسى. وضحك، وقال إذا توخينا الدقة، فلا، إنما هى قصة من كتاب الأبوكريفا. وشعرت بالدهشة، وسألت ما هذا الكتاب، وأظن أن نانسى لم تسمع به أبدًا أيضًا. ولكنها شعرت بأنها خارج المناقشة لأنها كانت على خطأ، وكان وجهها يظهر عليه العبوس والامتعاض.

قال مستر كينير أننى كثيرة الأسئلة بالنسبة لصغرى، وأنه سرعان ما سوف يكون لديه أكثر الخادمات علمًا فى ريتشموند هيل، وأنه سوف يضطر لوضعى فى عرض عام، وأخذ النقود ممن يتفرج، مثل الخنزير الذى يفهم الحساب فى تورنتو. ثم قال إن الأبوكريفا هو كتاب وضعت فيه كل القصص التى رويت أيام الإنجيل، وقرروا أنها لا يجب أن توضع فى الإنجيل. وقد أدهشنى هذا بشدة، وقلت: من الذى قرر؟ لأننى

دائما ظننت أن الله هو الذى كتب الإنجيل، ونحن نقول عنه "كلمة الله"، وكل شخص يعرف أنه كذلك.

فابتسم، وقال أنه رغم أن الإنجيل هو كلمة الله، إلا أن من كتبه على الورق هم الناس، وهو أمر مختلف قليلاً. لكن هؤلاء الذين كتبوا الإنجيل قيل أنهم تلقوا الوحى؛ وهذا يعنى أن الله تكلم إليهم، وأخبرهم بما يجب فعله.

فسألت: هل كانوا يسمعون أصواتًا؟ فقال نعم. وأسعدنى أن أعرف أن آخرين حدث لهم نفس الشيء، رغم أننى لم أذكر شيئًا عن ذلك، وعلى أية حال فإن الصوت الذى سمعته، فى تلك المرة، لم يكن صوت الله، وإنما كان صوت مارى هويتنى.

وسأل إن كنت أعرف قصة سوزانا، فقلت لا، فقال أنها كانت سيدة صغيرة نسب إليها بعض الرجال العجائز زورًا ارتكاب الخطيئة مع شاب؛ لأنها رفضت أن ترتكب الخطيئة معهم، وقد حكم عليها بالرجم حتى الموت. ولكن، لحسن الحظ، تيسر لها محامٍ ذكى للغاية، والذى استطاع إثبات أن الرجال العجائز كانوا يكذبون، عندما دفعهم إلى تقديم دليل مناقض لما قالوه. ثم قال ما هى الحكمة التى تعلمتها من ذلك؟ فقلت أن الحكمة هى أنك لا يجب أن تأخذ حمامًا فى الحديقة بالخارج؛ فضحك، وقال إنه يظن أن الحكمة هى أنك بحاجة إلى محام ذكى. وقال لنانسى، هذه الفتاة ليست ساذجة على أى حال؛ وهو ما فهمت منه أنها كانت تقول له أننى ساذجة. ونظرت لى نانسى شزرًا.

ثم قال أنه وجد قميصًا مكويًا وموضوعًا بزرار ناقص؛ وأنه من المزعج جدًّا أن يلبس قميصًا نظيفًا، ليجد أنه لم يلق إعدادًا لائقًا بسبب

نقص زرار؛ ومن فضلنا أن نهتم بألا يحدث ذلك مـرة أخـرى. وأخـذ صندوق السعوط الذهبى، والذى جاء فى الأصل من أجله، وخـرج مـن الغرفة.

والآن، أصبحت نانسى مخطئة مرتين، لأنها هى التـى غسـلت القميص وكوته، قبل أن أقرب أى شىء هنا؛ ومن ثم فقد أعطتنى قائمة من أعمال البيت فى طول ذراعك، وخرجت مندفعة من الغرفة ونزلت السلم، وخرجت إلى الفناء، وبدأت تكيل الإهانة لمكدرموت لأنه لم ينظف حذاءها كما يجب فى هذا الصباح.

قلت لنفسى يبدو أن هناك مشاكل فى الأفق، وأننى قد أضطر إلى أن أمسك لسانى؛ لأن نانسى لم تكن تحب أن يتجاوزها أحد، وخاصة أنها لم تكن تحب أن يوبخها مستر كينير على خطأ ما.

عندما اتفقت نانسى معى وأنا فى بيت آل واطسون، ظننت أننـا سنكون مثل الأختين، أو على الأقل صديقتين، نعمل معًا جنبًا إلى جنـب، مثلما كنت أفعل أنا ومارى هويتنى. ولكن الآن عرفت أن الأمور لن تكون كما ظننت.

- ٢٦ -

كنت فى هذا الوقت قد أمضيت ثلاث سنوات فى عملى كخادمة، وأصبح يمكننى أن أؤدى دورى جيدًا. لكن نانسى كانت كثيـرة التغيـر، كانت كما يقال هوائية، ولم يكن من السهل أن تعرف ماذا كانت تريد بـين لحظة وأخرى. ففى لحظة، تنفخ شدقيها وتـأمر وتنهـى وتبحـث عـن الأخطاء، وفى الدقيقة التالية، تكون أفضل صديقة، أو تتظاهر بذلك، وتضع ذراعها فى ذراعى، وتقول أننى أبدو متعبة، وأننى يجب أن أجلس معهـا لنتناول كوبًا من الشاى. ومن الصعب العمل مع مثـل هـذه الشخصـية، فبمجرد أن تنحنى احترامًا وتوقيرًا لها، تلتفت وتوبخك علـى كـل هـذا التصرف الرسمى الجاف، وتريد أن تضع ثقتها فيك، وتتوقع أن تضع ثقتك فيها بالمقابل. ولا يمكنك أن تعرف أبدًا التصرف الصحيح الذى يرضيها.

كان اليوم التالى يومًا صافيًا جميلاً عليل النسيم، ومن ثـم قمـت بالغسيل، وكان ذلك هو الوقت المناسب فعلاً لأن الأشياء النظيفة كانت تكاد تنتهى. وكان عملاً حارًّا جدًّا، فقد اضطررت للإبقاء على النار فى المطبخ الصيفى موقدة على أعلى درجة؛ ولم تكن لدى فرصة لتصـنيف الغسـيل ونقعه فى الليلة السابقة، لكنى لم أرد المخاطرة بالانتظار، لأنه فى مثل هذا الوقت من العام يمكن أن يحدث تغير كبير فى الطقس. ومـن ثـم قمـت

بالدعك والتنظيف وأخيرًا نشرته كله. مع وضع مناديل الجيب البيضاء وفوط السفرة مفرودة جيدًا على الحشائش لتبييضها. كان بها بقع من أثر التمخط، وبقع حبر، كما كانت هناك بقع من الحشائش على إحدى تنورات نانسى الداخلية ـ وتعجبت كيف حدث ذلك، ولكنها على الأغلب تعثرت ووقعت ـ وكذلك كان ثمة بقع عديدة من العفونة، على الأشياء التى تركت فى الرطوبة أسفل كومة الثياب؛ وبعض بقع النبيذ على أحد مفارش المائدة، ربما من حفل عشاء، ولم يتم تغطيتها بالملح فى الوقت المناسب، فقد كان يجب ذلك، ولكن بفضل سائل التبييض الجيد المصنوع من محلول قلوى وكلوريد الليمون، وهو أمر تعلمته من الغسالة فى منزل مسز ألدرمان باركينسون، تمكنت من القضاء على معظم البقع وتركت لضوء الشمس باقى العمل.

وقفت لحظة معجبة بعملى اليدوى، فهناك الكثير من السعادة عندما تنظر إلى الغسيل، وقد أصبح نظيفًا كله ويتأرجح بفعل الرياح مثل الأعلام فى السباق، أو مثل أشرعة السفن، وصوته يشبه تصفيق أيد سماوية يأتى من بعيد. ويقولون أن النظافة من الإيمان؛ وأحيانًا، عندما أرى السحب البيضاء النقية تمور فى السماء بعد المطر، أفكر أن الملائكة يقومون بنشر غسيلهم، لأننى فكرت أنه لابد من وجود من يفعل هذا، فكل من فى السماء لابد أن يكون نقيًّا ونظيفًا. ولكن هذه الأفكار كانت خيالات طفولية، فالأطفال يحبون أن يحكوا لأنفسهم حكايات عن الأشياء التى لا يرونها؛ وأنا فى ذلك الوقت لم أكد أزيد كثيرًا عن طفلة، رغم أننى كنت أظن نفسى امرأة كاملة النضج، لأن لى نقودى التى كسبتها بنفسى.

وأنا أقف هناك، جاء چيمى وولش من خلف ركن البيت، وسأل إذا كان هناك أية مشاوير مطلوبة، وقال لى، بخجل شديد، أنه إذا أرسله

مستر كينير أو نانسى إلى القرية؛ وإذا كان ثمة شيء صغير أريده، فسوف يسعده أن يشتريه ويحضره لى إذا كنت سأدفع له النقود. ورغم أنه كـــان يتصرف بصبيانية، كان مهذبًا كما ينبغى، حتى أنه رفع قبعته، والتى كانت قبعة قديمة من القش، وفى الغالب كانت لأبيه من قبل، فقد كانت تبدو كبيرة للغاية عليه. قلت أن ذلك ذوق منه، وأننى لا أريد شيئًا فى الوقت الحالى. ثم تذكرت أنه لا يوجد فى البيت مرارة عجل، لتثبيــت الصــبغات أثنـــاء الغسيل، وأننى سوف أحتاج بعضها للألوان الداكنـــة؛ لأن الأشــياء التـــى غسلتها فى ذلك الصباح كانت كلها بيضاء. فذهبت معه إلى نانسى، وكـــان لديها عدد من المطلوبات ليشتريها، ورسالة لمستر كينير ليقوم بتسليمها إلى صديق من السادة يسكن فى الجوار، وهكذا انطلق چيمى لأداء المطلوب.

قالت له نانسى أن يعود بعد الظهر ويحضر الفلوت معه، وعندما ذهب قالت أنه كان يعزف بشكل رائع والاستماع له ممتــع. وكانـــت قـــد عادت إلى الحالة الطيبة الآن، وساعدتنى فى إعداد الغداء، الذى كان وجبة باردة معدة من لحم فخذ الخنزير والمخللات، وسلاطة من حديقة المطبخ، حيث كان يوجد خس وبصل ناضج يمكن استخدامه. ولكنها أكلت فى غرفة الطعام مع مستر كينير، كما فى اليوم السابق، وكان على أن أكتفى بصحبة مكدرموت على الغداء.

من غير المريح أن تراقب شخصًا آخر يأكل، والاستماع إليـــه أيضًا، خاصة إذا كان لديه ميل إلى الالتهـــام؛ لكـــن لـــم يكـــن يبـــدو أن مكدرموت يحب الحديث، وقد انقلب إلى حالة التجهم؛ ومن ثم فقد سألته إن كان يستمتع بالرقص.

قال بتوجس: ما الذى يجعلك تسألين هذا السؤال؟ ولم أكن أريد أن أبوح بما كنت أسمعه خفية وهو يتمرن، فقلت أنه معروف عنه أنه يجيد الرقص.

فقال من المحتمل أنه يجيده ومن المحتمل أنه ليس كذلك، ولكن بدا عليه السرور، ثم بدأت أسحبه ليتحدث، وسألته عن حياته قبل أن يأتى للعمل عند مستر كينير. فقال، من يمكن أن يهتم بسماع شىء عنها؟ فقلت أننى أحب ذلك، فكل هذه القصص تثير اهتمامى، وسرعان ما بدأ يحكى.

قال أنه من عائلة محترمة، من ووترفورد جنوب أيرلندا، وأن أباه كان يشرف على الشئون المالية لأحد الأثرياء، لكنه هو نفسه كان وغدًا ذميما، ولم يكن أبدًا ممن يلعقون أحذية الأثرياء، ودائمًا ما كان يقع فى المشاكل، وكان يظهر أنه فخور بذلك. وسألته إن كانت أمه حية، وقال أن حياتها أو موتها سواء بالنسبة له، فقد كانت ترى فيه رأيًا سيئًا، وقالت أنه سوف يذهب إلى الجحيم رأسًا، وإذا كانت ميتة فهو لا يعرف ولا يهتم. ولكن صوته لم يكن بمثل ثبات كلماته.

هرب من المنزل فى سن صغيرة، والتحق بالجيش فى إنجلترا، بعد أن ادعى أنه أكبر ببضع سنوات عن سنه الحقيقية، ولكن حياة الجيش كانت صعبة جدًّا عليه، كثير من الضبط والربط والمعاملة القاسية، فهرب، واختفى في سفينة متجهة إلى أمريكا، وعندما اكتشفوه جعلوه يعمل طوال الرحلة بدلاً من الأجر، ولكن السفينة وصلت إلى الشاطئ الكندى بدلاً من الولايات المتحدة. فحصل على عمل فى المراكب التى كانت تبحر ذهابًا وإيابًا فى نهر سان لورنس، ثم عمل فى قوارب البحيرة، ولقى ترحيبًا لأنه كان قويًّا جدًّا ولديه قدرة كبيرة على الاحتمال، وكان يمكنه العمل دون

توقف، مثل الآلة البخارية، وكان ذلك أمرًا طيبًا لبعض الوقت. لكن بعد قليل أصبح الأمر مملاً للغاية، وكان يحب التغيير، فتقدم إلى الجيش مرة أخرى، مع الكتيبة الإسكتلندية الريفية، التى كان لها سمعة سيئة بين الفلاحين، كما عرفت من مارى هويتنى، فقد أحرقوا كثيرًا من بيوت الفلاحين أثناء التمرد، وتركوا النساء والأطفال فى الجليد بلا مأوى، وأرتكبوا ما هو أسوأ من ذلك معهن، وهى أشياء لم تنشر فى الصحف أبدًا. ومن ثم فقد كانوا طغمة من الرجال المتمردين، الذين يميلون إلى المجون، وإلى لعب القمار وشرب الخمر، وهى أشياء تحدث عنها باعتبارها من فضائل الرجال.

لكن التمرد انتهى فى ذلك الوقت، ولم يعد هناك ما يمكن عمله، ولم يكن مكدرموت جنديًّا نظاميًّا، ولكنه كان يعمل كخادم شخصى لكابتن ألكسندر ماكدونالد. وكانت حياة ناعمة بأجر معقول، وقد أسف عندما تم حل الفرقة، ووجد نفسه فى الطريق. فذهب إلى تورنتو، وعاش عاطلا فترة على النقود التى ادخرها، ولكن نقوده تناقصت.وعرف أنه لابد أن يبحث عن عمل، وفى بحثه عن الوظيفة ذهب إلى شارع يونج، واتجه شمالاً، وظل يتنقل حتى وصل إلى رينشموند هيل. وسمع فى إحدى الحانات أن مستر كينير بحاجة إلى رجل، وتقدم وحصل على العمل، وكانت نانسى هى التى استأجرته. وقد كان يظن أنه سوف يعمل فى خدمة الرجل نفسه كما كان يعمل عند الكابتن ماكدونالد، لكن ما ضايقه أن وجد بدلاً من ذلك امرأة تترأس عليه، وامرأة لا تعطيه راحة من لسانها أبدًا، وتبحث عن الأخطاء باستمرار.

صدقت كل ما قاله. ولكن فيما بعد، عندما فكرت فى السنوات التى قضاها فى كل ما ذكر، شعرت أنه لابد أن يكون أكبر من الواحدة

والعشرين كما قال بعدة سنوات؛ إما هذا، أو أنه يكذب. وعندما سمعت فيما بعد من الآخرين فى المنطقة، ومن ضمنهم چيمى وولش، أن مكدرموت معروف بالكذب والتشدق، لم يكن ذلك مفاجأة لى.

ثم بدأت أفكر أننى أخطأت عندما أظهرت اهتمامى بقصته؛ فقد فهم ذلك خطأً بأنه اهتمام بشخصه. وبعد أن تناول عدة كئوس من البيرة، بدأ ينظر لى نظرات تنم عن المغازلة، وسألنى إن كان عندى حبيب، ففتاة جميلة مثلى لابد أن يكون لها حبيب. وكان ينبغى أن أجيب عندئذ بأن حبيبى طوله ستة أقدام وبطل فى الملاكمة، ولكنى كنت أصغر من أن أفهم هذه المسائل، وبدلاً من ذلك قلت الحقيقة. قلت أنه ليس عندى محبوب، وأضفت أننى ليس لدى أية ميول لهذا.

فقال أن ذلك مما يدعو للأسف، لكن كل شيء له بداية ما، وأننى فى حاجة إلى أن أُقتحم، مثل المهر، وبعد ذلك سوف أصبح مثل الأخريات، وأنه الرجل المناسب لذلك. وضايقنى هذا الكلام جدًّا، وقمت فى الحال وبدأت أرفع الأطباق بحدة وعصبية، وقلت أننى سوف أشكره لو احتفظ بمثل هذه الملاحظات البذيئة لنفسه، فأنا لست حيوانًا. فقال أنه لم يقصد ذلك، وأن هذا كله مزاح، وأنه لم يقصد إلا أن يرى أى نوع من البنات أنا. فقلت أنه مهما كان نوعى فهذا ليس من شأنه، وهو ما جعله يكتئب بشدة، وكأننى أنا التى أهنته، وخرج إلى الفناء، وبدأ يقطع الخشب للنار.

وبعد أن غسلت الأطباق، وهو الأمر الذى يجب أن يتم بعناية بسبب وجود الذباب الكثير، والذى يمكن أن يحط على الأطباق النظيفة إن لم يتم تغطيتها بقماش، تاركًا بقعه القذرة؛ خرجت لأرى مدى جفاف

الغسيل، وأعدت رش المناديل ومفارش المائدة بالماء، لتصبح أكثر بياضا؛ ثم أصبح الوقت مناسبًا لنزع قشدة اللبن، وعمل الزبد.

وقمت بذلك فى الهواء بالخارج، وأنا جالسة فى ظل البيت، وكانت آلة خض الزبد من النوع الذى يعمل ببدال القدم، ولذا كان يمكننى أن أجلس فى مقعد وأنا أخض الزبد، وأقوم ببعض الإصلاحات للثياب فى نفس الوقت. بعض الناس لديهم خضاضات يمكن استخدام الكلاب فى إدارتها، ويكون ذلك بربط الكلب فى قفص وجعله يجرى على دواسة تعمل بها المطحنة بوضع فحمة ملتهبة تحت ذيله؛ ولكنى أعتبر ذلك قسوة شديدة. وبينما أجلس بانتظار أن يستخلص الزبد، وأقوم بخياطة زرار فى أحد قمصان مستر كينير، جاء مستر كينير نفسه عابرًا فى طريقه إلى الإسطبل. وحاولت القيام لأقف له، لكنه أمرنى أن أظل حيث أنا، فالحصول على زبد جيد أهم بالنسبة له من الرسميات.

وقال: أراك دائمًا مشغولة يا جريس. قلت نعم يا سيدى، الشيطان يجد عملاً للأيدى العاطلة. ضحك قائلا: سوف أصدق أنك لا تقصديننى، لأن يدى عاطلتان جدًّا، ولكن يبدو أنهما ليستا مغرمتين جدًّا بالشياطين. وأربكنى ذلك، وقلت: أوه، لا يا سيدى، لا أقصدك أبدًا. فابتسم، وقال إن احمرار الوجه جميل على المرأة الصغيرة.

ولم يكن هذا سؤالاً يتطلب ردًّا، فلم أقل شيئًا، واستمر هو فى طريقه، وبعد قليل جاء ممتطيًا تشارلى، واتجه به أعلى الممر. وخرجت نانسى لترى ماذا فعلت مع الزبد، وسألتها أين يذهب مستر كينير. قالت: إلى تورنتو، إنه يذهب إليها كل يوم خميس، ويبقى فيها طوال الليل لبعض العمل فى البنك، وبعض المهام الأخرى؛ ولكن أولاً سوف يذهب إلى

كولونيل بريدجفورد، الذى سافرت زوجته وابنتاه أيضًا، ومن ثم يمكنه زيارته بدون إزعاج، ولكن عندما تكون زوجته موجودة لا يستقبله في بيته.

وأدهشنى ذلك، فسألت لماذا، فقالت نانسى أن مسز بريدجفورد تعتبر تأثير مستر كينير سيئًا، وهى تعتقد أنها ملكة فرنسا، وأن لا أحد يستحق أن يلعق حذاءها؛ وضحكت. لكن لم يكن يبدو عليها السرور.

وسألتها: لماذا، ماذا فعل؟ ولكننى أحسست فى تلك اللحظة بأن القشدة تتحول إلى زبد بالفعل ــ فقوامها يصبح ثقيلاً ــ ومن ثم فلم أستمر فى التساؤل.

ساعدتنى نانسى فى الزبد، فملحنا معظمه، وغطيناه بماء بارد لحفظه، وقمنا بكبس بعضه طازجًا فى القوالب؛ كان هناك قالبان على شكل ورق نباتى، وثالث مصمم على شكل شارة عائلة كينير، والتى تحمل شعار "أعيش بالأمل". قالت نانسى أنه إذا مات الأخ الأكبر لمستر كينير والموجود فى اسكتلندا، والذى كان فى الواقع أخًا غير شقيق، فإن مستر كينير سوف يكون لديه منزل كبير وأراض هناك، ولكنها قالت أنه لا ينتظر ذلك، وأنه يدعى بأنه يعيش حياة سعيدة هكذا، أو أن هذا هو ما يقوله عندما يكون بصحة جيدة. ولكن الواقع أنه ليست هناك مشاعر بينه وبين هذا الأخ غير الشقيق، وهو الأمر المعتاد فى مثل هذه الحالة، وحزرت أن مستر كينير قد أرسل إلى المستعمرات لإبعاده من الطريق.

وعندما انتهينا من الزبد، حملناه تحت إلى القبو ووضعناه فى المكان المخصص للألبان؛ ولكننا تركنا بعض لبن الزبد فوق، لعمل البسكويت منه فيما بعد. وقالت نانسى أنها لا تحب القبو، لأن فيه رائحة

الطين دائمًا، وكذلك روائح الفئران والخضر القديمة، وقلت أنه ربما يمكن تهويته جيدًا فى يوم ما، إذا استطعنا أن نفتح النافذة. وعـدنا إلى أعلـى، وبعد أن جمعت الغسيل جلسنا بالخارج فى الفراندة نصلح معًا ما يحتـاج إلى الإصلاح منه، مثل أفضل صديقتين فى العالم. وفيما بعد لاحظت أنها كانت دائمًا أنيسة دمثة عندما يكون مستر كينير غير موجود، لكنها تصبح شرسة كالقط عندما يكون موجودًا، وعندما أكون فى نفس الغرفـة معـه، لكنى لم أكن أدرك الأمر فى ذلك الوقت.

وبينما نحن جالستان هناك، جاء مكدرموت، يجرى علـى قمـة سياج الأفاعى المقام من قضبان مشقوقة، رشيقًا كالسنجاب، يتلوى ويلـف. تعجبت وقلت: ماذا يفعل بحق الله، وقالت نانسى، لا عليك، إنه يفعل ذلـك أحيانًا، ويقول أن هذا للتدريب، ولكن الحقيقة أنه يريد إثـارة الإعجـاب، يجب ألا تلقى إليه بالاً. وبالفعل تظاهرت بعدم الاهتمام، لكن بينـى وبـين نفسى أخذت أرقبه، فقد كان فى الواقع شديد الرشاقة، وبعد أن أخذ يجرى أمامًا وخلفًا، قفز إلى الأرض، ثم قفز قفزة واحدة فوق السور، واستخدم يدًا واحدة فوقه ليتوازن.

ومن ثم فقد كنت أنا أتظاهر بعدم مراقبته، وهو هناك يتظاهر أن لا أحد يراقبه، ويمكن يا سيدى أن ترى نفس الشىء فى أى تجمع مهـذب من سيدات ورجال المجتمع. فيمكن للمرء أن ينظر إلى كثير من الأشـياء من زاوية مائلة، خاصة السيدات، اللاتى لا يردن أن يضـبطن متلبسـات بالتحديق. ويمكنهن أيضًا أن يرين مـن خـلال الخمـار المسـدل علـى وجوههن، أو من خلال ستائر النوافذ، ومن فوق المراوح الورقية، وإنـه لمن الطيب أن يستطعن النظر بهذه الطريقة، وإلا لفاتهن الكثيـر. ولكـن

المرأة من نوعنا ليست مضطرة لأن تتعب نفسها بالخمار أو المراوح، ومن ثم يمكنها أن ترى أشياء أكثر.

بعد قليل، ظهر چيمى وولش قادمًا من خلال الحقول، وقد أحضر معه الفلوت كما طلبت منه نانسى، والتى حيته بحرارة، وشكرته لقدومه. ثم أرسلتنى لأحضر له كوبًا من البيرة، وبينما كنت أحضره دخل مكدرموت، وقال إنه يريد واحدًا أيضًا. ولم أستطع الرفض، وقلت له: لم أكن أعرف أن دم القرود يجرى فى عروقك، فقد كنت تقفز مثلهم. وبدا عليه الارتباك، فلم يعرف هل يسر لأننى رأيته لم يغضب لأننى دعوته قردًا.

قال أنه عندما يبتعد القط يمكن للفئران أن تلعب، وعندما يكون مستر كينير فى المدينة تحب نانسى أن تقيم حفلاتها الصغيرة، وأنه يظن أن الولد وولش سوف يصدر الآن صريرًا من صفارته الصغيرة؛ وقلت أن هذا صحيح، وأننى سوف أنصرف كلى للاستمتاع بسماعه، فقال أنه بالنسبة لما يفهمه لم يكن ذلك متعة، فقلت أنه وشأنه. وهنا أمسك ذراعى، ونظر لى بمنتهى الصدق، وقال أنه لم يكن يقصد الإساءة لى قبلاً، ولكنه عاش فترة طويلة بين رجال يتصفون بالخشونة، ولم تكن سلوكياتهم هى أفضل ما يمكن أن يتعلمه المرء، ومن ثم فقد اعتاد أن ينسى نفسه، وأصبح لا يعرف كيف يتكلم؛ وأنه يتمنى أن أغفر له، وأن نكون أصدقاء. قلت أننى كنت دائمًا مستعدة لأن أعقد صداقة مع الصادقين والمخلصين؛ أما من ناحية الغفران، أليس مكتوبًا فى الإنجيل؟ ومن المؤكد أننى أتمنى أن أستطيع أن أغفر، فأنا نفسى أتمنى أن يُغفر لى فى المستقبل. وقد قلت ذلك بمنتهى الهدوء.

بعد ذلك أخذت البيرة إلى الفراندة الأمامية، وبعض الخبز والجبن لنتناول عشاءنا معها، وجلست هناك مع نانسى وچيمى وولش بينما كانت الشمس تغرب، وأصبحت الخياطة غير ممكنة فى العتمة. وكان مساء جميلاً لا تفسده الرياح، وكانت الطيور تغرد، ولمعت الأشجار فى بستان الفواكه بلمعة ذهبية فى ضوء الشمس الغاربة، وكانت الزهور القرمزية النامية بجوار الطريق تبعث رائحة زكية، وكذلك زهرات الفاوانيا القليلات الباقيات بجوار الفراندة، والورود المتسلقة، ونزلت برودة لطيفة فى الهواء، بينما جلس چيمى يلعب على الفلوت، وكان عزفه بسيطًا يمس القلب. بعد قليل جاء مكدرموت يتسكع حول البيت مثل ذئب مروض، واستند على جانب البيت، وأخذ يسمع أيضًا. وهكذا قضينا تلك الأمسية الجميلة فى نوع من الانسجام، حتى أننى شعرت بألم فى قلبى، كما يحدث عندما لا يمكنك أن تعرف هل أنت سعيد أم حزين، وفكرت أننى لو كان لى أن أتمنى، فإن ما أتمناه هو ألا يتغير هذا الحال، وأن نبقى فيه إلى الأبد.

ولكن الشمس لن يوقفها عن الاستمرار فى مسارها إلا الله، وهو لم يوقفها إلا مرة واحدة، ولن يوقفها مرة أخرى حتى نهاية العالم؛ وفى تلك الليلة، غربت كما اعتادت، تاركة وراءها لونًا أحمر قانيًا؛ وللحظات، غرقت مقدمة المنزل فى لون قرمزى بتأثير هذا الغروب. ثم فى الغسق، خرجت ذبابات النار، فقد كان موسمها فى ذلك الوقت من السنة، وظهرت تومض بين الشجيرات والحشائش، مثل نجوم تومض من خلال السحب. وأمسك چيمى وولش بواحدة فى كأس زجاجى، وأمسكه وهو يغلق قمته بيده، لأستطيع أن أراها عن قرب، كانت تومض ببطء، بنار باردة مخضرة؛ وفكرت أننى لو استطعت أن يكون عندى ذبابتان من ذبابات

النار فى أذنى، بدلاً من القرط، فسوف تكونان أحلى كثيرًا من قرط نانسى الذهبى، ولن أشغل بالى به بعد الآن.

ودخل الليل علينا، وتصاعدت العتمة من خلف الأشجار والحشائش، ومن الحقول، وطالت الظلال وتلاصقت؛ وفكرت أنها تبدو مثل الماء، يصعد من الأرض ثم يرتفع ببطء مثل البحر؛ وشرد ذهنى فيما يشبه الحلم، فإذا بالذاكرة تعود بى إلى وقت عبورنا المحيط الهائل، وكيف أنه فى مثل هذا الوقت من اليوم كانت السماء والبحر يصطبغان بذلك اللون القاتم المزرق، ويتداخلان حتى لا يمكنك أن تفرق بين نهاية البحر وبداية السماء. وفى بحر الذاكرة، طفت صخرة جليدية بيضاء، كأشد ما يكون البياض، ورغم دفء المساء شعرت برعشة.

فى هذه اللحظة قال چيمى وولش أنه لابد أن يعود إلى البيت، فلابد أن والده يبحث عنه الآن، وتذكرت أننى لم أحلب البقرة أو أغلق على الدجاجات فى الحظيرة، وأسرعت لأقوم بذلك فى آخر بصيص من الضوء. وعندما عدت إلى المطبخ، كانت نانسى لا تزال هناك، وقد أوقدت شمعة. سألت لماذا لم تذهب إلى الفراش، فقالت أنها تخاف النوم وحدها ومستر كينير ليس فى البيت، وسألتنى إذا كان يمكن أن أنام بالطابق الأعلى معها.

قلت لا مانع، ولكنى سألتها مم تخاف.. هل تخاف اللصوص؟ أم تخاف ربما من چيمس مكدرموت؟ ولكنى كنت أمزح حين قلت ذلك.

قالت بمكر أنها لو كان لها أن تحكم بنظرة عينيه، فإن هناك أكثر من سبب يجعلنى أخافه أكثر مما تفعل، إلا إن كنت بحاجة إلى عاشق جديد. فقلت أننى أخاف الديك العجوز فى حظيرة الدجاج أكثر مما أخاف

منه، أما مسألة العشاق، فإن حاجتى إليهم لا تزيد عن حاجتى إلى الرجـل الذى يبدو خياله فى البدر التمام.

وضحكت، وصعدنا معًا للنوم كصديقتين حقيقيتين، لكنـى قمـت أولاً بالتأكد من إغلاق مصاريع الأبواب جيدًا.

الفصل الثامن

الثعلب والإوز

كان كل شيء يسير بهدوء تام لمدة أسبوعين، فيما عدا توبيخ مدبرة البيت لمكدرموت لأنه لا يؤدى عمله كما يجب، وأعطته إنذارًا بالفصل بعد أسبوعين... وبعد ذلك قال لى مرات كثيرة أنه سعيد لأنه سيذهب، حيث لا يريد أن يعيش أكثر من ذلك مع قطعة الـ ....، ولكنه سوف ينتقم لإهانته قبل أن يذهب، وقال لى أنه متأكد أن مستر كينير ومدبرة المنزل، نانسى ينامان معًا. وقد عزمت على معرفة الحقيقة، وبعد ذلك اقتنعت بأن هذا هو ما يحدث، لأن سريرها فى الصباح كان لا يدل على أحدًا نام فيه أبدًا، إلا فى الليالى التى كان فيها مستر كينير غائبًا، وفى هذه الحالة كنت أنا أنام معها.

اعتراف جريس ماركس

Star and Transcript، تورنتو، نوفمبر ١٨٤٣

كانت جريس ماركس... فتاة جميلة، وشديدة الإتقان فى عملها، ولكن لها طبيعة صامتة متجهمة. وكان من الصعب للغاية معرفة ماذا يسرها ... بعد انتهاء العمل اليومى، كنا، أنا وهى، نترك وحدنا فى المطبخ، فمدبرة البيت مشغولة بسيدها تمامًا. كانت جريس تشعر بغيرة شديدة من الفرق بين وضعها ووضع مدبرة المنزل، وكانت تكرهها، وكانت دائمًا وقحة سليطة اللسان معها. كانت تقول: "ماذا بها أفضل منا؟ لكى تعامل مثل السيدات، وتأكل وتشرب أفضل الأشياء؟ كما أنها ليست من أسرة أفضل، ولا تعلمت تعليمًا أفضل..."

"وما تتسم به جريس من شكل جذاب جعلنى أهتم بها وبما تقوله، ورغم أنه كان ثمة شيء فى الفتاة لم أستطع هضمه، فقد كنت شخصًا متمردًا، ماجنًا، وإذا كانت المرأة شابة وجميلة، فإننى كنت لا أعير شخصيتها اهتمامًا. وكانت جريس شخصية متجهمة ومغرورة، ولم يكن من السهل أن أصل إلى غرضى منها؛ ومن ثم فلكى أكسب ودها، إذا كان ذلك ممكنًا، أعطيتها أذنًا صاغية تصب فيها كل تبرماتها وتضجرها".

چيمس مكدرموت،

إلى كينيث ماكنزى، كما روته سوزانا مودى،

Life in the Clearings, 1853

وعندما بدا لى أننى أعرف بعض المعرفة
شيئاً من ألاعيب سوء الحظ الذى صادفنى، يعلم الله متى،
ربما فى كابوس مزعج. انتهى هنا، ليبدأ هناك، وعندما
كنت على وشك الاستسلام لليأس ...
إذا بى أسمع، مرة أخرى، تكة غامضة ...
كما لو كان صوت فخ منصوب يغلق على الضحية ...
... وإذا بك أنت داخل العرين!

روبرت براونينج
"Childe Roland to the Dark Tower Came", 1855

ـ ٢٧ ـ

عندما استيقظت اليوم كان شروق الشمس ورديًّا جميلاً، والندى ينزل على الحقول مثل سحابة بيضاء ناعمة من الموسلين، تتألق الشمس خلال طبقاتها، حتى بدا كل شيء غائمًا ووورديًّا مثل خوخة تنضج على نار هادئة.

فى الواقع ليس عندى فكرة كيف كان شروق الشمس اليوم. ففى السجن تكون النوافذ عالية، وأظن أن ذلك لكى لا تستطيع الهروب منها، لكن أيضًا لكى لا يمكنك أن تنظر منها، أو على الأقل لا يمكنك أن ترى العالم بالخارج. فهم لا يريدونك أن تنظر إلى خارج السجن، ولا يريدونك أن تفكر فى كلمة "خارج"، ولا يريدونك أن تنظر إلى الأفق وتفكر أنه ربما يمكنك يومًا ما أن تتهادى عبره مثل شراع سفينة راحلة، أو فارس على جواد يختفى خلف تل بعيد. ولذا ففى هذا الصباح لم أر سوى الضوء المعتاد، ضوء لا شكل له يأتى من خلال النوافذ المرتفعة ذات اللون الرمادى القذر، كما لو كان يأتى من مصدر لا هو شمس ولا قمر ولا مصباح ولا شمعة. مجرد شُقة من ضوء النهار، تظل هى نفسها لا تختلف منذ تدخل من النافذة حتى تحط على الأشياء، وكأنها دهان لامع.

خلعت منامة السجن، وكانت من نسيجٍ خشن مصفر اللون؛ ولا يجب أن أقول أنها تخصنى، لأننا لا نملك شيئًا هنا، بل نتشارك فى كل

شيء، مثل المسيحيين الأوائل، والثوب الذى ترتديه فى أسبوع ما، ملتصقًا بجلدك وأنت نائم، ربما كان منذ أسبوعين يلتصق بقلب أسوأ أعدائك، وتم غسله وإصلاحه بأيدى آخرين لا يتمنون لك خيرًا.

وبينما أرتدى ثيابى وأمشط شعرى كان فى رأسى نغم، أغنية قصيرة كان يعزفها چيمى وولش أحيانًا على الفلوت:

توم، توم، ابن الزمار،
سرق خنزيرًا وهرب بعيدًا،
وكل الأنغام التى كان يستطيع عزفها
طارت فوق التلال وهربت بعيدًا

كنت أعرف أننى لا أذكرها جيدًا، والأغنية الحقيقية كانت تقول أن الخنزير كان طعامًا وأن توم نال علقة، ثم ذهب يعوى بصوته فى الطريق؛ ولكنى لم أقنع إلا بأن أجعلها تخرج بشكل أفضل؛ وطالما أننى لا أخبر أحدًا بما كان فى عقلى، فلن يطالبنى أحد بالالتزام بالحكاية الأصلية، ولن يصحح لى أحد، كما أنه ليس هناك من يمكنه أن يقول أن الشروق الحقيقى لم يكن يشبه ذلك الذى اخترعته لنفسى، بل مجرد ضوء أبيض مصفرّ، يشبه سمكة ميتة تطفو فى الميناء.

فى مصحة المجانين كان يمكنك على الأقل أن ترى أفضل. وذلك إذا لم تكن تقضى عقابا بالحبس فى غرفة مظلمة.

قبل الإفطار سيقام جلد بالسياط، بالخارج فى الفناء؛ إنهم يفعلونه قبل الإفطار، لأن المعاقبين لو أكلوا أولاً، فمن المحتمل أن يتقيأوا طعامهم، وهذا يسبب فوضى، كما أنه مضيعة للغذاء الجيد؛ ويقول الحراس والحارسات أنهم يحبون أن يمارسوا بعض التمرينات فى هذا الوقت

المبكر، فذلك يفتح شهيتهم. لم يكن هناك شيء غير عادى، فهو مجرد جلد روتينى، ومن ثم لم نؤخذ كلنا لمشاهدته؛ بل أخذوا اثنين أو ثلاثة فقط، وكلهم من الرجال، فالنساء لا يتم ضربهن كثيرًا. كان الأول شابًا، عرفت ذلك من نغمة صراخه؛ أستطيع تمييز هذه الأشياء، فقد تدربت عليها كثيرًا. حاولت ألا أسمع، وفكرت بدلاً من ذلك فى الخنزير الذى سرقه توم الحرامى، وكيف تم أكله؛ ولكن الأغنية لم تقل من الذى أكله، توم نفسه أم من قبضوا عليه. ارسل لصًا ليمسك بلص، كما كانت مارى هويتنى تقول. وتعجبت، أكان خنزيرًا مذبوحًا ليكون أكله ممكنًا؟ فى الغالب أنه لم يكن، وفى الغالب أنه كان هناك حبل حول رقبته، أو حلقة فى أنفه، وأنه جرى مع توم مرغمًا. وهذا يبدو منطقيًا أكثر، فمن الصعب حمله. وفى الأغنية كلها، كان الخنزير المسكين هو الوحيد الذى لم يرتكب خطأ، ولكنه كان الوحيد الذى مات. وقد لاحظت أن كثيرًا من الأغنيات غير منصفة بهذه الطريقة.

أثناء الإفطار، ساد صمت تام إلا من صوت مضغ الخبز وأصوات شرب الشاى، وجرجرة الأقدام، وتنشق الأنوف، وطنطنة قراءة الإنجيل ـــ وكانت اليوم قصة يعقوب وعيسو ـــ والطبيخ الذى طُبخ، والأكاذيب التى قيلت، والبركة، والبكورية التى بيعت، والخديعة والتمويه الذى مورس،(*) كل تلك الأشياء التى لم يهتم الرب بها على الإطلاق. وفى

(*) يعقوب وعيسو توأمان لإسحاق من زوجته رفقة. ويقال أن عيسو (التوأم الأكبر)، وكان صيادًا ماهرًا، عاد ذات يوم من الصيد وهو جائع، ووجد أخاه يعقوب (التوأم الأصغر) يطبخ عدسًا، فباعه يعقوب طبق العدس ببكوريته (أى حقه فى الإرث بصفته البكر). ولما شاخ إسحاق، أراد أن يبارك ابنه المفضل عيسو. لكن رفقة (الأم) ساعدت يعقوب على خداع أبيه (بإلباسه جلد ماعز ليبدو مشعرًا عندما يتحسسه الأب، والذى كان أعمى فى هذا الوقت)، فنال يعقوب البركة. وبهذا، أصبح يعقوب، بدلاً من عيسو، وريثًا للعهد الذى منح لإبراهيم وإسحاق.

اللحظة التى كان إسحق العجوز يتحسس ابنه المشعر، والذى لم يكن ابنه فى الواقع وإنما جلد ماعز، قرصتنى آنى ليتل قرصة مؤلمة فى فخذى من تحت المنضدة بحيث لا يراها أحد. كنت أعرف ما ترمى إليه، لقد أرادتنى أن أصرخ لكى أعاقب أو يظنوا أننى أصبت بنوبة جنون أخرى، ولكننى كنت مستعدة لها، فقد كنت أتوقع شيئًا من هذا النوع.

وبالأمس، فى غرفة الغسيل، ونحن واقفات عند الحوض، مالت علىّ وهمست فى أذنى: "يا محسوبة الطبيب، أيتها المومس الفاسدة"؛ فقد شاع الخبر، وعرف الجميع بزيارات د. چوردان، وظن البعض أننى أحظى بالكثير من العناية، وأن هذا جعلنى مغرورة. وإذا فكرن هنا فى شىء كهذا، فسوف يحرصن على إذلالك؛ ولن تكون المرة الأولى، فهن مغتاظات من خدمتى فى منزل المحافظ أيضًا؛ لكنهن يخشين أن يعلنّ ذلك، اعتقادًا منهن أن بعض من يتولون السلطة يستمعون إلىّ. ليس هناك مكان تنمو فيه حالات الغيرة والحسد من أشياء صغيرة تافهة مثل السجن، وقد رأيت البعض يلجأن إلى العنف، بل كدن يقتلن بعضهن بعضًا، لأسباب لا تزيد عن التنازع على قطعة جبن.

لكن تجاربى تمنعنى أن أشكو إلى الحارسات. ليس فقط لأنهن ينظرن إلى مثل هذه الشكوى باحتقار، ويفضلن حياة أكثر هدوءًا لأنفسهن، ولكن أيضًا لأنهن لن يصدقننى، أو يقلن أنهن لا يصدقننى، فالمأمور يقول أن كلام المذنب ليس دليلاً كافيًا؛ وفى هذه الحالة أيضًا، من المؤكد أن آنى ليتل سوف تحقق انتقامها منى بطريقة أخرى. يجب أن يتحمل الإنسان كل ذلك بصبر، كجزء من التقويم الذى نخضع له؛ إلا لو وجدت طريقة أخرى للإيقاع بغريمك دون أن يُكتشف الأمر. ولا أنصح بشد الشعر، فالجلبة تأتى بالحارسات، ثم يعاقب الجانبان لإثارة الشغب. يمكن دس بعض القذارة فى

الطعام خلسة باستخدام كم الثوب، كما يفعل السحرة، وهو أمر يمكن إنجازه بدون جلبة، ويمكن أن يمنح بعض الرضا. لكن آنى ليتل كانت معى فـــى المصحة، وكانت جريمتها قتل رجل، حيث قتلت صبى الإسطبل بلوح من الخشب؛ وقيل أنها كانت تعانى من الاضطراب العصبى، وأرسلت هنا فى نفس الوقت الذى جئت فيه؛ لكن ما كان يجب ذلك، فأنا لا أظن أن عقلهـــا سليم؛ ومن ثم فقد قررت أن أصفح عنها هذه المرة، إلا إذا فعلـــت شـــيئًا أسوأ. ويبدو أن القرصة قد أراحتها من مشاعر الغيظ.

ثم جاء موعد الحارسين، والسير معهما والخروج من البــــوابة. "آه يا جريس، تخرجين فى نزهتك مع العاشقين، كم أنت محظوظة". يقول أحدهما: "بل نحن المحظوظين، نحن الشابين المحظوظين بالفعل، مع هـــذه اللقمة الشهية معلقة بذراعينا". ويقول الآخر: "ما رأيك يا جـــريس، دعينـــا ننتحى ممرًا جانبيًا، إلى أحد الإسطبلات الخلفية، علـــى الحشـــائش، لـــن يستغرق الأمر وقتًا إذا رقدت ساكنة، بل سيأخذ وقتًا أقل إذا كنت تتلوين". ويقول الأول: "ولماذا الرقاد؟ استندى فقط على الحائط، وارفعى ملابســـك الداخلية، الأمر أسرع وأنت واقفة، طالما لا تخونك ركبتاك؛ هيا يا جريس، فقط اقبلى وسنكون لك، ما الفرق بين رجل وآخر؟ ولماذا تعطـــين نفســـك لرجل واحد وأمامك اثنان؟" يقول الآخر: "على أتم استعداد طوال الوقـــت، هيا، أعطينا يدك وسوف ترين صدق ما نقول. ولن نأخذ منك بنسًا واحدًا، فالمهم بين الأصدقاء هو قضاء أطيب الأوقات!"

أقول لهما: لستما صديقان لي، بكلامكما القذر، إنكما مولودان فى مستنقع قذر، وسوف تموتان فيه أيضًا". يقول الأول "أوه هووو، أنا أحـــب هذا، المرأة التى تتحلى بروح عالية، ببعض الحرارة، يقولون أنها تأتى من احمرار الشعر". يقول الآخر: "لكن هل هـــو أحمر فى ذلك المكان أيضًا؟

إن النار فى قمة الشجرة لا فائدة منها، لابد أن تكون النار فى بيت النار لتبث دفئًا وحرارة، فى موقد صغير، أتعرفين لماذا جعل الله النساء يرتدين تنورات؟ لكى يمكن أن ترفع فوق رؤوسهن وتربط عليها حتى لا تسمع منهن ضوضاء كثيرة، إننى أكره المومس الصياحة، كان لابد أن تولد النساء بلا أفواه، فالشيء الوحيد الذى له قيمة فى المرأة هو نصفها الأسفل".

أقول، ونحن نسير حول بركة موحلة ونعبر الطريق: "عيب عليكما، كيف تقولان ذلك وكل منكما كانت أمه امرأة، أو على الأقل هذا هو المفترض". يقول الأول "يا لها من تعسة، الساحرة العجوز الفاجرة، فالجزء الوحيد الذى كانت تتمنى أن تراه منى هو مؤخرتى العارية وقد احمرت من الضرب، إنها تحترق الآن فى جهنم، ولا يؤسفنى إلا أن هذا لم يحدث بيدى أنا، وإنما بيدى بحار حاولت أن تنشل ما فى جيبه، فضربها ضربة قاتلة بزجاجة على رأسها". يقول الآخر "حسنًا، أمى أنا كانت ملاكًا بكل تأكيد، قديسة على الأرض حسب نظرتها هى نفسها لنفسها، ولن تسمح لى أبدًا بنسيان ذلك، والواقع أننى لا أعرف أيهما الأسوأ."

يقول الأول "أنا فيلسوف، أحب الوسط فى كل شىء، لا أحب النحافة الزائدة، ولا أحب السمنة الزائدة، وأحب ألا أضيع نعمة الله هباء، ومن نعم الله يا جريس، أنك ثمرة ناضجة آن قطافها، فلماذا تبقين على الشجرة دون أن يتذوقك أحد، والنتيجة الوحيدة لذلك هى السقوط على الأرض والعفن". يقول الآخر "عندك حق، لماذا نترك اللبن فى الإناء حتى يفسد، إن البندقة الطيبة يجب كسرها وهى لا تزال طيبة، وليس أسوأ من بندقة قديمة عفنة. تعالى، إن لعابى يسيل عليك بالفعل، إنك قادرة على تحويل الرجل الطيب إلى وحش، إننى أهفو إلى القبض عليك بأسنانى،

يمكن أن تقولي قضمة رفيقة، قضمة صغيرة من طرف الفخذ، لن تخسرى شيئًا، فلديك ما يكفى ويفيض". يقول الأول "هذا صحيح، أنظـــر، إن لهـــا خصرًا كفرع الصفصاف، لكن هذا الخصر محمل تحته بدهون كثيرة، هذا كله من الطعام الطيب فى السجن، فهى تتغذى على الكريمة، ألا تحـــب أن تجرب ملمسها، هذا ورك يصلح لمائدة البابا". وبدأ يتحسس وينخس بيـــده التى تخفيها طيات تنورتى.

قلت وأنا أشد نفسى بعيدًا عن يده: "سوف أكون شاكرة لو التزمت بعدم تخطى حدود السلوك المهذب". يقول الأول "أنـــا مخلـــوق لتخطـــى الحدود، فأنا جمـــهورى حتى النـــخاع، إذ لا أشـــعر نحو ملـــكة إنجلترا إلا بالميل الذى وضعته الطبيعة فى الرجل نحو المرأة. وهى علـــى كـــل حال، لها ثديان جميلان على صدرها، وأنا على أتم استعداد للقيام بواجـــب اعتصارهما بيدى متى تطلب ذلك، وليس لها ذقن إطلاقًا، مثـــل البـــطة؛ ما أريد قوله هو أنه ليس ثمة رجل أفضل ممن سيأتى بعده، والمشـــاركة هى المشاركة، لا أحد أفضل من الآخر؛ وما دمت قدمت نفسك لواحد منـــا نحن الرجال، فلماذا لا يستطيع الآخرون أن يأخـــذوا دورهـــم كمـــا فـــى الديمقراطية الحقيقية، ولماذا يُســـمح لـــذلك القـــزم الصـــغير مكـــدرموت بالاستمتاع بما يُنكر على من هم أفضل منه؟"

يقول الآخر "نعم، لقد سمحت له بتخـــطى كل الحـــدود، وأنـــت بلا شك قضيت وقتًا ممتعًا أيضًا، وقضى هو الليل بطوله يتفصد عرقًا فى الفندق فى لويستون لا يتوقف إلا لينعش نفسه، فهم يقولون أنه كان بطـــلاً رياضيًا، وأنه كان بارعًا فى استخدام الفأس أيضًا، وكان يمكنه تسلق الحبل مثل القرد". قال الآخر "عندك حق، وأخيرًا حاول الماكر أن يتســـلق إلـــى السماء، وانتهى بقفزة عالية فى الهواء حيث بقى معلقًا هنـــاك ســـاعتين،

ولم يتمكن أحد من إقناعه بالنزول طوعًا مهما حاولوا النداء عليه، واضطروا لإنزاله بأنفسهم. وبينما كان معلقًا هناك، كان يرقص رقصة خفيفة مع ابنة صانع الحبل المشنوق به، رقصة حيوية مثل ديك قطعت رقبته، وكان مشهدًا يفرح القلب."

قال الأول "وقالوا أنه كان بعد ذلك جامدًا كلوح الخشب، لكن أليس هذا ما تحبه السيدات". وهنا ضحكا كثيرًا، وظننا أنهما قالا أفضل مزحة فى العالم، لكن هذا كان قسوة منهما، الضحك على رجل لا لشىء إلا لأنه ميت؛ وهو أيضًا فأل سيئ، لأن الموتى لا يحبون أن يصبحوا موضع سخرية؛ وأكدت لنفسى أن لهم طرقهم الخاصة لحماية أنفسهم من جرح كرامتهم، ولابد أنهم سينتقمون من الحارسين فى الوقت المناسب، سواء أثناء حياتهما فوق الأرض أو بعد أن يدفنا تحتها.

قضيت الصباح أصلح بعض الدانتيلا البيضاء الخاصة بميس ليديا، كانت قد تمزقت أثناء إحدى الحفلات؛ إن طباعها أميل لعدم الاكتراث بملابسها، ويجب أن يُقال لها إن ثيابًا جميلة كثيابها لا تنمو على الأشجار. وكان إصلاح الدانتيلا عملاً دقيقًا ومتعبًا للعينين، ولكننى أنجزته أخيرًا.

جاء د. جوردان كالعادة بعد الظهر، وبدا عليه الإرهاق، وكذلك شرود الذهن. لم يحضر لى أى ثمرة معه، ليسألنى بماذا تذكرنى؛ وقد أدهشنى ذلك قليلاً، فقد اعتدت أن ذلك أصبح جزءًا من الأمسية، وكنت أستمتع بمحاولة أن أحزر ماذا سيحضر فى المرة القادمة، وماذا يريدنى أن أقول عنه.

ولذلك قلت له: ليس معك شىء اليوم يا سيدى.

فقال متسائلا: أى شىء، يا جريس؟

قلت: أى حبة بطاطس أو جزر أو بصل أو بنجر.

قال: نعم يا جريس، فقد قررت أن أتبع طريقة مختلفة.

قلت: وما هى يا سيدى؟

قال: قررت أن أسألك، ماذا تحبين أنت أن أحضر لك معى.

قلت: حسنًا يا سيدى. إنها بالفعل طريقة مختلفة. لابد أن أفكر فى الأمر.

قال أنه يرحب بأن أفعل ذلك؛ وأضاف: وفى الأثناء، هل رأيت أية أحلام؟ ولأنه كان يبدو بائسًا ومرتبكًا، ولأننى شعرت بأن الأمور ليست على ما يرام معه، فلم أقل أننى لا أستطيع التذكر. وعلى العكس، قلت أننى بالفعل رأيت حلمًا. فقال وهو يعبث بقلمه وبدا عليه الانتعاش: وماذا رأيت فى هذا الحلم؟ قلت له أنه كان حلمًا عن الزهور؛ وكتب ذلك بانشغال، وسألنى أى نوع من الزهور. قلت أنها كانت زهورًا حمراء، وكبيرة جدًا، بوريقات لامعة مثل زهور الفاوانيا. لكنى لم أقل إنها كانت من القماش، ولا قلت متى رأيتها آخر مرة؛ ولا قلت أنه لم يكن حلمًا.

وقال هو: وأين كانت هذه الزهور؟

قلت: هنا.

قال وقد بدا عليه الانتباه الشديد: هنا، فى هذه الغرفة؟

قلت: لا، بالخارج فى الفناء، حيث نخرج للتمشية. وكتب ذلك أيضًا.

أو أنني أفترض أنه كتب. لا أستطيع أن أتأكد، لأننى لا أرى أبدًا ما يكتبه؛ وأحيانًا أتخـيل أن مـا يكـتبه أيًّا كان، لا يمكن أن يكـون هو ما يخرج من فمى، فهو لا يفهم الكثير مما أقول، رغم أننـى أحـاول أن أوضح كلامى قدر ما أستطيع، وكأنه أصم لم يتعلم بعد قراءة الشفاه. ولكنه فى أوقات أخرى يبدو عليه الفهم التام، رغم أنه، شأن معظم الرجال مـن علية القوم، يريد فى الأغلب أن تدل الأشياء على معان أكثر مما تحتمل.

عندما انتهى من الكتابة، قلت: لقد فكرت فى الشىء الذى أريدك أن تحضره المرة القادمة، يا سيدى.

قال: وما هو يا جريس؟

قلت: فجلة.

أجاب: فجلة، فجلة حمراء؟ ولماذا اخترت الفجل؟ وتجهم وكـأن الأمر يحتاج لتفكير كبير.

قلت: حسنًا يا سيدى، إن الأشياء الأخرى التى أحضرتها لم تكن للأكل، أو هكذا بدا الأمر؛ لأن معظمها يحتاج لأن يُطهـى أولا؛ وكنـت تأخذها معك، إلا التفاحة التى أحضرتها فى أول يوم، وكانت تفاحة جميلـة جدًّا أيضًا. لكنى فكرت أنه إذا أحضرت لى فجلـة، أسـتطيع أكلهـا دون إعداد؛ وهذه الأيام موسم الفجل؛ ونادرًا ما نحظـى بشـىء طـازج فـى الإصلاحية، وحتى عندما آكل في مطبخ هذا المنزل، لا أستطيع أن آخـذ من هذه الأشياء الطازجة، فهى تخصص للعائلة. ومن ثم سوف تكون هدية نادرة، وسوف أعتبر أنه منتهى العطف منك إذا أحضرت لى أيضًا بعض الملح.

خرجت منه تنهيدة، أو ما يشبه التنهيدة، ثم قال: هل كان لـديهم فجل فى منزل مستر كينير؟

قلت: نعم يا سيدى، بالطبع، لكن فى الوقت الذى وصلت فيه إلى ذلك المكان كان الموسم قد قارب نهايته، فأحسن الفجل يكون فـى بدايـة الموسم، لأن الفجل يصبح ناعمًا ويصاب باليرقات عندما يدخل الحر، ثـم يبدأ فى إنتاج البذور.

ولم يكتب هذا.

وقال وهو يستعد للرحيل: أشكرك لإخبارى بحلمك يـا جـريس. ربما تحكين لى حلمًا آخر قريبًا. فقلت: نعم، ربما يا سيدى. ثـم أضـفت: سوف أحاول جهدى أن أتذكر الأحلام يا سيدى، إذا كان ذلك يساعدك فـى التغلب على متاعبك، ذلك أنه بدا منحرف المزاج وشعرت بالشفقة عليـه. قال: ما الذى يجعلك تظنين أنى أعانى من متاعب يا جـريس؟ فقلـت: إن الإنسان الذى جرب المتاعب والمعاناة، يحس بمشـاعر الآخـرين عنـدما يكونون فى حالة معاناة يا سيدى.

قال أن هذا دليل على تفكيرى الطيب، ثم تردد لحظة، كما لو كان يريد أن يقول المزيد، لكنه غير رأيه، وأومأ برأسه محييًا، نفس الإيمـاءة الخفيفة دائمًا عندما يكون بسبيله للخروج.

لم أكن قد انتهيت من قطعة الغطاء التى أصنعها كل يوم، فهـو لم يبق فى الغرفة معى طويلاً كما اعتاد؛ ولذا بقيت فى مكانى، وواصـلت العمل. وبعد برهة قصيرة دخلت مس ليديا.

قالت: هل رحل د. چوردان؟ قلت نعم. كانت ترتدى ثوبًا جديدًا ساعدت فى خياطته، أرضيته بنفسجية، وبه تصميم أبيض يمثل طيورًا وزهورًا صغيرة، كان لائقًا عليها جدًّا، وعليه تنورة تشبه نصف قرعة؛ وفكرت أنها فى الغالب أرادت أن تظهر بمظهر لائق، بالطبع ليس أمامى وحدى.

جلست فى المقعد المواجه لى، حيث كان يجلس د. چوردان، وبدأت تعبث فى سلة أدوات الخياطة قائلة: إننى لا أجد كستبانى، وأعتقد أنى وضعته هنا. ثم قالت: ياه، لقد نسى المقص، كنت أظن المفترض أنه لا يترك المقص بمتناول يدك.

قلت: إننا لا نهتم كثيرًا بذلك، فهو يعرف أننى لن أوذيه أبدًا.

جلست بعض الوقت وسلة الخياطة على حجرها، ثم قالت: هل تعرفين أن لك معجبًا يا جريس؟

فكرت أنه قد يكون أحد صبيان الإسطبل أو فتى ما من هذا النوع، والذى قد يكون قد سمع حكايتى فوجدها رومانتيكية، قلت: أوه، من هذا يا ترى؟

قالت: د. چيروم دوپونت، إنه يقيم حاليًّا عند مسز كوينل. ويقول إنك عشت حياة جديرة بالإعجاب، وأنه يجدك مثيرة للاهتمام بشكل كبير.

لا أعرف شخصًا كهذا، من علية القوم. وأظن أنه يقرأ الجرائد، وأنه يقوم بجولة هنا، وينظر لى كأحد المعالم التى ينبغى مشاهدتها. قلت هذا بنوع من الحدة، فقد ارتبت فى أنها تحاول السخرية منى. لقد كانت محبة للضحك، وأحيانًا تبالغ فى ذلك.

قالت: إنه رجل جاد فى عمله، وهو يدرس التنويم العصبى.

قلت: وما هذا؟

قالت: إنه يشبه التنويم المغناطيسى، ولكنه أكثر التزامًا بالعلم، وهو يختص بالأعصاب. ولابد أنه يعرفك، أو على الأقل رآك، فهو يقول أنك لا تزالين جذابة. ربما يكون قد مر بك فى الطريق وأنت قادمة فى صباح أحد الأيام.

قلت: ربما، وأنا أفكر أى مشهد كنت عليه، مع ابتسامة جانبية مشاكسة.

قالت: إن له عينين سوداوين، تخترقان المرء، كما لو كان يمكنه أن يرى دواخلك. لكننى لا أستطيع تحديد مشاعرى نحوه. وهو بالطبع عجوز، إنه مثل ماما والآخرين، وأظن أنه يذهب إلى جلسات المائدة وتحضير الأرواح التى يقومون بها. فلا أعتقد فى هذا، وكذلك د. جوردان.

قلت: هل قال ذلك؟ إنه رجل يتمسك بالعقل. فمثل هذه الأشياء لا يجب أن نتدخل فيها.

قالت متنهدة: رجل يتمسك بالعقل؟ هذا وصف يوحى ببرود المشاعر. إن التمسك بالعقل من صفات رجال البنوك. ثم قالت: جريس، إنه يتحدث معك أكثر مما يتحدث معنا جميعًا. فأى نوع من الرجال هو؟

قلت: هو رجل من علية القوم.

قالت باقتضاب: حسنًا، أنا أعرف هذا. ولكن كيف هو؟

قلت: أمريكى. وهذا أيضًا كانت تعرفه. ثم قلت متلطفة: إنه يبدو شابًا مثاليًا.

قالت: أوه، أنا لا أريده أن يكون مثاليًا جدًا، فالمبجل ڤرينجر مثالى جدًا.

وبينى وبين نفسى وافقت على هذا، لكن لأن المبجل ڤرينجر يحاول أن يحصل لى على عفو، قلت: المبجل ڤرينجر رجل دين، ومطلوب من رجل الدين أن يكون مثاليًا.

قالت مس ليديا: أظن أن د. چوردان ساخر للغاية، هل هو ساخر أيضًا معك يا جريس؟

قلت: يا آنسة، حتى لو كان كذلك، فلا أظن أننى يمكن أن أعرف.

تنهدت مرة أخرى، وقالت: سوف يحضر إحدى أمسيات الثلاثاء التى تقيمها أمى. وأنا لا أحضر هذه الأمسيات فى العادة، فهى لا تثير إلا الضجر، رغم أن ماما تقول أنه ينبغى أن أكون أكثر اهتمامًا بالأمور الجادة التى تعنى برفاهية المجتمع، ويقول المبجل ڤرينجر نفس الشىء؛ لكننى هذه المرة سوف أذهب، فأنا متأكدة أن الاستماع إلى د. چوردان يتحدث عن المصحات النفسية سيكون أمرًا مثيرًا. رغم أننى أفضل أن يدعونى إلى الشاى فى بيته. مع ماما وماريان، بالطبع، فينبغى أن يكون معى صحبة ممن هم أكبر منى.

قلت: هذا أفضل كثيرًا بالنسبة لفتاة شابة.

قالت: جريس، أحيانًا تبدين مثل عجوز بالية. وأنا لم أعد صغيرة، فقد بلغت التاسعة عشرة. وأظن أن هذا لا أهمية له بالنسبة لك،

فأنت فعلت كل شيء، ولكنى لم أذهب إلى شرب الشاى فى مسكن رجل من قبل.

قلت: يا آنستى، لا يكفى أن يكون الدافع لفعل شيء هو أننا لم نفعله من قبل. ولكن إذا كانت والدتك ستكون معك، فأنا واثقة أن هذا سيكون أمرًا محترمًا جدًّا.

قامت واقفة، وسحبت يدها على طول منضدة الخياطة. وقالت: نعم، سوف يكون أمرًا محترمًا جدًّا. وبدا أن هذه الفكرة تشعرها بالإحباط. ثم قالت: هل يمكن أن تساعدينى فى ثوبى الجديد؟ لأننى سأحضر به جلسة يوم الثلاثاء، وأريد أن أعطى انطباعًا قويًّا.

قلت إنه يسعدنى أن أساعدها؛ وقالت إننى كنز، وعبرت عن أملها فى ألا يخرجونى أبدًا من السجن، حيث أنها تريدنى أن أكون موجودة دائمًا، لأساعدها فى عمل فساتينها. وأظن أنها كانت تقصد نوعًا من الإطراء.

لكن النظرة التائهة فى عينيها أشعرتنى بعدم الراحة، كذلك النغمة الهابطة لصوتها، وفكرت أن هناك متاعب فى الأفق؛ كما هو الحال دائمًا، عندما يقع شخص فى حب من لا يبادله نفس الشعور.

ـ ٢٨ ـ

في اليوم التالي يحضر لي د. چوردان الفجلة التي وعدني بها. إنها مغسولة، وأوراقها قد قطعت، وتبدو ناضرة وطازجة للغاية، وليست مطاطة القوام كما يكون حال الفجل عند تركه طويلاً. وقد نسي الملح، لكني لا أذكر ذلك، فليس من اللائق أن ينتقص الإنسان من قيمة الهدية. آكل الفجلة سريعًا ـ فقد علمني السجن عادة ازدراد الطعام، فلابد أن يؤكل قبل أن يخطفه أحد ـ وأتلذذ بطعمه الحاد، الشبيه بطعم أبو خنجر المفلفل. وأسأله من أين جاء به؛ فيقول من السوق، رغم أنه كان يخطط لعمل حديقة للمطبخ بنفسه في البيت الذي يسكن فيه، فهناك مكان يصلح لها، وقد بدأ بالفعل يقلب الأرض. وهذا أمر أغبطه عليه.

ثم أقول: أشكرك من كل قلبي يا سيدي، هذا الفجل كان كرحيق الآلهة. تبدو عليه الدهشة لاستخدامي مثل هذا التعبير؛ ولكن فقط لأنه لا يتذكر أنني قرأت أشعار سير والتر سكوت.

ولأنني وجدت منه كل هذا الاهتمام بإحضاره هذه الفجلة، انصرفت إلى العمل عاقدة العزم على أن أحكي له قصتي، وأن أبذل غاية جهدي لأجعلها مثيرة للاهتمام وممتعة، وكذلك ثرية بالأحداث، كنوع من رد الهدية إليه؛ لأنني دائمًا أعتقد أن من يفعل خيرًا لابد أن يجد خيرًا مقابله.

أظن يا سيدى أننى توقفت فى المرة السابقة عندما كان مستر كينير قد غادر المنزل متوجهًا إلى تورنتو، وجاء چيمى وولش وعزف على الفلوت، وكان غروب الشمس جميلاً، ثم ذهبت لأنام مع نانسى، لأنها كانت خائفة من اللصوص في حال عدم وجود رجل فى المنزل. ولم تكن تضع مكدرموت فى اعتبارها، حيث أنه لا ينام فى المنزل نفسه؛ أو ربما أنها لم تكن تعتبره رجلاً، أو ربما كانت تفكر أنه من المحتمل أن يقف إلى جانب اللصوص، لا ضدهم. لكنها لم تقل لى ذلك.

وهكذا صعدنا السلم وكل منا تحمل شمعة. وكانت غرفة نوم نانسى، كما قلت، تقع ناحية الخلف، وكانت أكبر وأجمل كثيرًا من غرفتى، لكنها لم يكن لديها غرفة ملابس منفصلة مثلما فى غرفة مستر كينير. كان لديها سرير واسع وعليه غطاء جميل، غطاء صيفى ذو ألوان بدرجات القرمزى الفاتح والأزرق الفاتح على أرضية بيضاء، وكان من نموذج "الحقيبة المكسورة". وكان لديها دولاب ملابس رتبت فيه ملابسها، وتعجبت كيف استطاعت أن توفر نقودًا تكفى لشراء كل هذه الملابس؛ لكنها قالت أن مستر كينير يصبح سيدًا كريمًا عندما يكون فى حالة طيبة. وكان لديها أيضًا منضدة زينة لها غطاء مطرز، ببراعم الورود والليلك، وكذلك صندوق من خشب الصندل تحفظ فيه أقراطها وبروش واحد، ومجموعة من علب الكريمات والمساحيق تحفظها فى هذا الصندوق؛ فقبل أن تذهب إلى السرير كانت تدهن وجهها كما لو أنه حذاء. كان لديها أيضًا زجاجة من ماء الورد، وجعلتنى أجرب بعضها، فوجدت رائحته لذيذة؛ ففى ذلك المساء كانت أكثر توددًا؛ وإناء ملىء بمرهم شعر عطرى، دهنت شعرها منه، وقالت أنه يعطى الشعر لمعة، وطلبت منى أن أمشط لها شعرها بالفرشاة، مثلما تفعل الوصيفة للسيدة، وقد فعلت ذلك بكل سرور. كان لها

شعر طويل جميل ومموج، بلون بنى غامق. قالت: أوه يا جريس، ذلك يشعرنى بالرفاهية، إن لك لمسة طيبة؛ وشعرت بالفخر. لكننى تذكرت مارى هويتنى، وكيف كانت تمشط لى شعرى؛ فأنا فى الواقع لم أنسها لوقت طويل.

وبمجرد أن دخلنا إلى الفراش، قالت بود شديد: ها نحن، ننعم بالدفء مثل حبتين من البازلاء فى غلافهما. لكنها تنهدت وهى تطفئ القنديل، ولم تكن تنهيدة امرأة سعيدة، وإنما تنهيدة امرأة تحاول أن تسعد بما تيسر لها.

عاد مستر كينير فى صباح يوم السبت. كان يريد العودة فى يوم الجمعة، لكن بعض الأعمال أخرته فى تورنتو، أو هكذا قال؛ وتوقف فى منتصف الطريق فى فندق لا يبعد كثيرًا من شمال أول بوابة رسوم على الطريق؛ ولم تكن نانسى سعيدة بسماع ذلك، فهو مكان مشهور بسوء السمعة، وقيل أن به نساء ساقطات، أو هكذا أخبرتنى فى المطبخ.

أجبتها محاولة تهدئتها بأن الرجل من علية القوم يمكنه أن ينزل فى مثل هذه الأماكن دون أن يخاطر بسمعته. كانت مضطربة للغاية، لأن مستر كينير التقى باثنين من معارفه فى طريق عودته، كولونيل بريدجفورد، وكابتن بويد، ودعاهما على الغداء، وكان اليوم هو موعد مجيء الجزار چيفرسون، لكنه لم يأت بعد، ولم يكن فى المنزل لحم طازج.

قالت نانسى: آه يا جريس، سوف نضطر لذبح دجاجة، اخرجى واطلبى من مكدرموت أن يفعل هذا. قلت أننا بالتأكيد سوف نحتاج دجاجتين، لأنه سيكون هناك ستة أشخاص على الغداء، إذا حسبنا السيدات.

لكنها تضايقت وقالت ربما لن تكون هناك سيدات، حيث أن زوجتى هـذين السيدين لم تتنازلا أبدًا بإلقاء ظلهما على باب البيت، وأنها نفسها لن تأكل معهم فى غرفة الطعام، حيث أن كل ما سيفعلونه هو الشرب والتدخين وترديد القصص عن بطولاتهم أثناء التمرد، وربما يبقون طويلاً ويلعبون الورق بعد ذلك، وهو أمر سيئ لصحة مستر كينير، وربما يصاب بكحة، كما يحدث دائمًا عندما يأتى هذان السيدان للزيارة. وهكذا أقرت له بضعف البنية عندما كان ذلك يلائمها.

عندما خرجت لتوصيل الأمر إلى چيمس مكدرموت، لم أجده فى أى مكان. ناديت عليه، حتى أننى صعدت فوق السلم إلى الغرفة العلوية فوق الإسطبل حيث ينام. ولم يكن هناك؛ لكنه قطعًا لم يهرب، حيث كانت أشياؤه على حالها؛ ولا أظن أنه يمكن أن يذهب دون أن يأخذ ما له من أجر. وبينما أنزل على الدرجات وجدت چيمى وولش، ونظر نحوى بفضول، معتقدًا أننى ربما كنت أزور مكدرموت، لكن عندما سألته أين مكدرموت، لأننا بحاجة إليه، ابتسم لى مرة أخرى، وتعامل معى بلطف، وقال أنه لا يعرف، وأنه ربما يكون ذهب إلى هارفى، الذى كان شخصًا جلف الطبع ويسكن فى بيت خشبى، أقرب إلى الكوخ، مع امرأة ليست زوجته. وكنت قد عرفتها عن بعد، كان اسمها هانا أوبتون، وكان لها مظهر فظ ويتجنبها الناس عامة. ولكن هارفى كان من معارف مكدرموت ـ لا أستطيع أن أقول صديق ـ واعتاد الاثنان أن يشربا سويًا؛ وقال چيمى هل هناك أى مهام لينجزها.

عدت إلى المطبخ وأخبرت نانسى أننى لا أجد مكدرموت، فقالت أنها نالت كفايتها من طبعه الكسول، فهو دائمًا يغيب عندما يكون مطلوبًا ويتركها فى حالة حرجة، وأننى سأضطر إلى ذبح الدجاجة بنفسى، قلت

أوه، لا، أنا لا أستطيع فعل ذلك، ولم أفعله من قبل، ولا أعرف كيف؛ كما أننى أشعر بنفور من رؤية دماء أى كائن حى، ولكنى يمكننى أن أنظف الطائر جيدًا بعد ذبحه؛ فقالت لى لا تكونى إوزة غبية، وهذا سهل للغاية، فقط آخذ الفأس وأضرب الدجاجة على رأسها ثم أفصل رقبتها.

لكنى لم أكن لأحتمل مجرد الفكرة، وبدأت أبكى؛ لكنها هزتنى بعنف وصفعتنى، وأنا آسفة أن أقول ذلك لأنه من الخطأ أن نقول كلامًا سيئًا عن الموتى، ثم دفعتنى إلى خارج المطبخ، إلى الفناء، وقالت لى ألا أعود بدون الطائر مذبوحًا، وبسرعة أيضًا، فليس لدينا وقت يكفى للتحضير، ومستر كينير يحب وجباته فى مواعيدها.

ذهبت إلى حظيرة الدجاج، وأمسكت بطير صغير سمين، من النوع الأبيض، وكان يصرخ طوال الوقت، وأمسكت به جيدًا تحت ذراعى، وذهبت نحو كومة الخشب وكتلة تقطيع الخشب، وأنا أمسح دموعى بمريلتى؛ لأننى لم أكن أعرف كيف يمكننى أن أفعل ذلك. لكن چيمى وولش جاء يتبعنى، وسألنى بلطف ما الأمر؛ وقلت هل يمكن أن يقوم عنى بذبح الدجاجة؛ وقال أنه لا يوجد ما هو أسهل من ذلك، وأنه يسعده أن يفعل ذلك ما دمت بهذه المشاعر المرهفة والقلب الطيب. ومن ثم أخذ الطائر منى وقطع رأسه بحرص وإتقان، فجرى لحظة دون رأس، ثم وقع وهو يفرفر فى الوحل؛ وفكرت أن هذا أمر مثير للأسى بشدة. ثم جلسنا ننتف ريشه سويًا، جالسين متجاورين على السور، ونجعل الريش يتطاير، ثم شكرته بصدق على مساعدته، وقلت أننى ليس لدى ما أعطيه له مقابلها، لكننى سوف أتذكر هذا فى المستقبل. فابتسم ابتسامة واسعة مرتبكة، وقال إنه سوف يساعدنى عن طيب خاطر فى أى وقت أحتاج مساعدته.

كانت نانسى قد خرجت ونحن نكاد ننتهى، وكانت تقف عند باب المطبخ وهى تظلل عينيها بيدها، منتظرة بفارغ الصبر إعداد الطائر للطبخ؛ فقمت بتنظيفه بأسرع ما أستطيع، وأنا أحبس أنفاسى من الرائحة، وحافظت على الكبد والقانصة إذ ربما نحتاجها لعمل الصلصة، وشطفتها تحت الطلمبة، ثم جئت بها إلى الداخل. وبينما نحن فى المطبخ نحشو الدجاجة قالت: حسناً، أرى أنك فتحت فتحًا، وقلت ماذا تعنى، فقالت: چيمى وولش، إنه يعانى من حالة سيئة من غرام المراهقة، وهو ظاهر تمامًا على وجهه، وكان دائمًا معجبًا بى لكننى الآن أرى أنه تحول إليك. ورأيت أنها تحاول أن تعاملنى كأصدقاء مرة أخرى، بعد أن فقدت أعصابها، فضحكت، وقلت إنه ليس لُقطة بالنسبة لى، فهو، رغم أنه طويل بالنسبة لسنه، لا يزال صبيًا، وشعره أحمرٍ مثل الجزر كما أن وجهه ملىء بالنمش كقشرة البيضة. قالت: حسناً، الدودة دائمًا ما تتحول إلى فراشة؛ وهو قول كان غامضًا بالنسبة لى؛ لكنى لم أسألها ماذا تعنى، لكى لا تظننى جاهلة.

كان علينا أن نشعل الموقد جيدًا فى المطبخ الصيفى، لشىّ الدجاجة؛ ومن ثم قمنا بباقى العمل فى المطبخ الشتوى. ومع الدجاجة أعددنا طبقًا من البصل والجزر بالكريمة؛ وكان هناك فراولة للتحلية، بالكريمة التى صنعناها بأنفسنا، والجبن الذى صنعناه نحن أيضًا. كان مستر كينير يحفظ النبيذ فى القبو، بعضه فى برميل، وبعضه فى زجاجات؛ وأرسلتنى نانسى تحت لإحضار خمس زجاجات منه. لم تكن تحب النزول إلى القبو أبدًا؛ كانت تقول أنه ملىء بحشرات العنكبوت.

وبينما نحن كذلك فى عجلة من أمرنا، دخل چيمس مكدرموت بخطوة وئيدة، وببرودة بالغة؛ وعندما سألته نانسى أين كان مختفيًا، قال بنبرة دافئة أنه إذ أنهى أعمال الصباح المضجرة قبل أن يذهب، فلا شأن

ملعون لها بأين كان؛ وإذا كانت مصرة أن تعرف، فقد كان في مهمة خاصة بمستر كينير، كلفه بها قبل رحيله إلى تورنتو، وقالت نانسى أنها سوف تتأكد من الأمر، وأنه ليس من حقه أن يأتى ويذهب ويختفى من على وجه الأرض فى اللحظة التى يكون مطلوبًا فيها بشدة؛ وقال كيف له أن يعرف، فليس بمقدوره أن يتنبأ بالمستقبل؛ فقالت أنه إن استطاع ذلك، فسوف يعرف أنه لن يستمر فى هذا البيت طويلاً. ولكنها كانت مشغولة فى هذه اللحظة، وسوف تتحدث إليه فيما بعد، وأما الآن فعليه أن ينصرف للعناية بجواد مستر كينير، الذى يحتاج إلى العناية بعد الرحلة الطويلة، إذا لم يكن يعتبر أن مثل هذا الأمر يتجاوز مكانة جلالته. وانصرف مكدرموت إلى الإسطبل بوجه متجهم.

وصل كولونيل بريدجفورد وكابتن بويد فى موعدهما، وتصرفا بالطريقة التى توقعتها نانسى؛ وتصاعدت الأصوات المرتفعة والضحكات الكثيرة من غرفة الطعام، وجعلتنى نانسى أقوم بالخدمة على المائدة. فلم تكن تريد أن تفعل ذلك بنفسها، ولكنها جلست فى المطبخ، وأخذت كوبًا من النبيذ، وصبت لى واحدًا مثله؛ وفكرت أنها كانت ممتعضة من هؤلاء السادة. قالت إنها لا تعتقد أن كابتن بويد هو كابتن بالفعل، فبعض الناس حصلوا على مثل هذه الألقاب لأنهم احتضنوا حصانًا بين أرجلهم فى يوم التمرد؛ وسألت ماذا بالنسبة لمستر كينير، حيث أن بعض الناس فى المنطقة كانوا يدعونه بالكابتن أيضًا؛ وقالت أنها لا تعرف شيئًا عن ذلك، فهو نفسه لم يضع هذا اللقب أمام اسمه بهذه الطريقة، كما أن بطاقات الدعوة الخاصة به يكتب عليها فقط السيد:، ومع ذلك، فإذا كان حاصلاً على لقب كابتن، فلابد أن ذلك منح له من جانب الحكومة. وكان يبدو أن هذا شيء آخر تمتعض منه.

صبت لنفسها كأسًا أخرى من النبيذ، وقالت أن مستر كينير يضايقها أحيانا بسبب اسمها، وكان يسميها المتمردة الغضوب الصغيرة، لأن لقبها، مونتجومرى، يشبه لقب جون مونتجومرى، الذى كان يملك حانة كان يلتقى فيها المتمردون، وأصبحت الآن حطامًا؛ والذى كان يتباهى بأنه فى الوقت الذى يحترق فيه أعداؤه فى النار، فسوف يكون يدير حانة فى شارع يونج؛ وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد. على الأقل بالنسبة للحانة يا سيدى؛ لكن فى هذا الوقت كان ما يزال فى الولايات المتحدة، إذ هرب بطريقة جريئة من إصلاحية كينجستون. وهكذا يبدو أن الهرب أمر ممكن.

صبت نانسى لنفسها كأسًا ثالثة من النبيذ، وقالت أنها أصبحت تزداد بدانة، مهما تفعل، ووضعت رأسها على ذراعيها؛ لكن كان الوقت قد حان لأحمل القهوة إلى غرفة الطعام، ولذا لم أستطع سؤالها لماذا أصبحت بهذا الاكتئاب فجأة. كان الرجال فى غرفة الطعام فى غاية المرح، فقد شربوا الزجاجات الخمس وطلبوا المزيد؛ وتساءل كابتن بويد أين وجدنى مستر كينير، وهل هناك ثمار أخرى تنمو على الشجرة التى جئت منها، وإذا كان الأمر كذلك، فهل وصلن إلى النضج أم ليس بعد؟ وقال كولونيل بريدجفورد ماذا فعل توم كينير بنانسى، هل أغلق عليها فى الدولاب حيث يخبئ "حريمه التركى"؛ وقال كابتن بويد أننى ينبغى أن أنتبه لعينى الزرقاوين الجميلتين، وإلا فقد تنتزعهما نانسى من محجريهما، إذا كان توم العجوز ينظر لى "من تحت لتحت". كان كل ذلك نوعًا من المزاح المرح، ورغم ذلك فقد كنت أتمنى ألا يكون بمسمع من نانسى.

فى صباح الأحد، طلبت نانسى أن أذهب معها إلى الكنيسة. قلت أننى ليس لدى ثوب مناسب، رغم أن هذا كان مجرد حجة ـ فلم تكن لدى الرغبة فى الذهاب، بين الغرباء، وحيث أكون محط النظرات المحدقة.

لكنها قالت أنها سوف تعيرنى ثوبًا من ثيابها، وقد فعلت، رغم أنها تعمدت ألا يكون من بين أفضل ثيابها، وليس فى جمال الثوب الذى لبسته هى نفسها. وأعارتنى بونيه أيضًا، وقالت أننى أبدو لائقة للغاية، وكذلك جعلتنى ألبس زوجًا من قفازاتها، غير أنهما لم يكونا مناسبين تمامًا، فقد كانت لنانسى يدان كبيرتان. كما ارتدت كل منا شالاً من الحرير المطبوع.

كان مستر كينير يعانى من صداع، وقال أنه لن يذهب — ولم يكن شديد التدين على أية حال — ولكنه قال إن مكدرموت يمكن أن يوصلنا بالعربة، ويعود لإحضارنا فيما بعد، فمن المفهوم أنه لن يحضر القداس، حيث أنه كان كاثوليكيًّا، بينما كانت الكنيسة بروتستانتية مشيخية(*). وكانت هى الكنيسة الوحيدة التى بنيت فى المنطقة حتى ذلك الوقت، وكثيرون لم يكونوا من أعضائها، لكنهم كانوا يحضرون القداس باعتبار أن هذا أفضل من لا شىء؛ كما أنها كانت تحتوى المقبرة الوحيدة فى المدينة، ومن ثم فإنها كانت تحتكر الموتى كما كانت تحتكر الأحياء.

جلسنا فى العربة فى حالة طيبة، وكان يومًا مشرقًا وصافيًا، والطيور تغنى، وشعرت بحالة من السلام مع العالم، كما هو الحال كثيرًا معى، وهو أمر كان مناسبًا لذلك اليوم. وإذ دخلنا إلى الكنيسة، وضعت نانسى ذراعها فى ذراعى، كتعبير عن الصداقة على ما ظننت. استدارت بعض الرؤوس، لكنى فكرت أن ذلك لأننى جديدة عليهم. كان كل أنواع الناس موجودين هناك، المزارعون الفقراء وزوجاتهم، والخدم، وتجار المدينة، وكذلك أولئك الذين بطريقتهم فى التأنق وأوضاعهم فى الصفوف

(*) Presbylerian: صفة لكنيسة بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية.

الأمامية يعتقدون فى أنفسهم أنهم أبناء الطبقة العليا فى المجتمع، أو الأقرب إلى هذه الطبقة. جلسنا على الدكك فى الخلفية، وهو ما كان الأمر المناسب.

كان راعى الكنيسة يبدو كمالك الحزين، بمنقار أنفه المقوس المدبب، وعنقه النحيل الطويل، وخصلة الشعر النائئة من قمة رأسه. وكان القداس يدور حول موضوع الرحمة الإلهية، وكيف نستطيع أن ننال الخلاص بها وحدها، وليس من خلال أى مجهودات نقوم بها، أو أى أعمال طيبة يمكن أن نبذلها. ولكن هذا لا يعنى أننا يجب أن نتوقف عن القيام بالمجهودات أو التوقف عن الأعمال الطيبة. غير أن المجهودات والأعمال الطيبة لا يمكن الاعتماد عليها، ولا يمكن أن نكون واثقين من أننا قد وصلنا إلى الخلاص بمجرد القيام بها، لأن ذلك يجلب لنا الاحترام؛ فالرحمة الإلهية أمر غامض ملغز، ومن يتلقونها لا يعرفهم إلا الله؛ ورغم أن النصوص المقدسة تقول أنكم "من ثمارهم تعرفونهم"(*)، فإن الثمار المعنية هنا هى ثمار روحية، لا يراها إلا الله وحده؛ ورغم أننا يجب، وينبغى أن ندعو طلبًا لرحمة الله، لا يجب أن يركبنا الغرور الزائف ونصدق أن صلواتنا قد يكون لها أى تأثير، لأن الإنسان يطلب لكن الرب يُقدِّر، وأنه ليس لأرواحنا الخاطئة الضعيفة الفانية أن تقرر مسار الأحداث. والأول يمكن أن يكون الأخير والأخير يمكن أن يكون الأول، وبعض من يتدفأون على لهب نيران الدنيا لسنوات كثيرة، سوف يجدون أنفسهم تشويهم نيران أخرى أكثر حرارة بكثير، أكثر مما يتصورون ويطيقون، وأن هناك الكثير من المنافقين يسيرون حولنا وفى وسطنا، يبدو ظاهرهم البراءة

(*) إنجيل متى ٧:١٦.

والطيبة، لكنهم يمتلئون بالعفن والفساد من الداخل؛ وينبغى أن نحذر المرأة الجالسة على باب دارها، والتى يحذرنا منها الإصحاح التاسع فى سفر الأمثال، أو من أى من مثلها يمكن أن يحاول إغراءنا بالقول أن المياه المسروقة حلوة، وخبز الخفية لذيذ؛ لأنه كما جاء فى الكتاب المقدس، أن الموتى هناك "وأن فى أعماق الهاوية ضيوفها"(*)؛ وفوق كل شيء ينبغى الحذر من الإغراق فى الرضا عن الذات، مثل العذارى الجاهلات، ويجب ألا نترك مصابيحنا تنطفئ، لأنه ما من إنسان عرف اليوم والساعة؛ وعلينا أن ننتظر فى خوف ورعشة.

واستمر على هذا المنوال لبعض الوقت، ووجدت نفسى أتأمل بونيهات السيدات الحاضرات، بقدر ما أستطيع أن أرى منها من الخلف؛ وكذلك الزهور على الشيلان التى يرتدينها؛ وقلت لنفسى أنك إذا لم تستطيعى الحصول على الرحمة الإلهية بالصلاة والدعاء، ولا بأية طريقة أخرى، أو إذا لم يمكنك أبدًا أن تعرفى إذا ما كنت حصلت عليها أم لا، فربما كان الأفضل أن تنسى الأمر كله، وتستمرى فى شئون حياتك، لأن الوصول إلى اللعنة أو إلى الخلاص لم يعد أمرًا يتعلق بك. ولم يعد من المفيد البكاء على اللبن المسكوب، ما دمت لا تعرفين إذا كان اللبن قد سُكب أم لا أصلاً، فإذا كان لا يعرف ذلك إلا الله، فالله وحده يرتب الأمور كما يشاء. ولكن التفكير فى مثل هذه الأمور يجعلنى أشعر بالنعاس، كما أن الراعى كان له صوت رتيب يبعث على النوم، وكنت على وشك أن تسقط رأسى، عندما قمنا كلنا واقفين لننشد "كن معى"، والتى لم يؤدها المصلون بشكل ممتاز، ولكن على الأقل كانت فيها موسيقى، وهى دائمًا عزاء.

(*) سفر الأمثال ٩:١٨.

لم نتلق أنا ونانسى أى نوع من التحية الحارة ونحن نخرج، بل على العكس كان هناك نوع من التجنب لنا؛ لكن بعض الناس الأكثر فقرًا هزوا رؤوسهم تحية، وكان هناك تهامس ونحن نمر، وهو أمر وجدته غريبًا، فرغم أنهم لا يعرفونني، فإن نانسى لابد أن تكون مألوفة لهم، ورغم أن أبناء الطبقة العليا أو من يتخيلون أنفسهم هكذا ليسوا بحاجة إلى أن يهتموا بها، إلا أنها لا تستحق مثل هذه المعاملة من الفلاحين وزوجاتهم، ومن الآخرين الذين كانوا يشتغلون فى أعمال الخدمة. احتفظت نانسى برأسها عاليًا، ولم تنظر إلى اليسار أو اليمين؛ وفكرت أنهم أناس باردون ومتكبرون وليسوا جيرة طيبة. إنهم منافقون، يحسبون أن الكنيسة زنزانة يحتفظ فيها بالرب، ومن ثم سيظل محبوسًا داخلها ولن يخرج متجولاً على الأرض أثناء الأسبوع، ويدس أنفه فيما يخصهم، وينظر إلى أعماق قلوبهم وما يملؤها من ظلام ونفاق، وإلى ما يفتقدون إليه من الخير الحقيقى؛ ويعتقدون أنهم لا يحتاجون لأن يشغلوا أنفسهم به إلا فى أيام الآحاد، عندما يلبسون أفضل ثيابهم، ووجوههم متجهمة، وأيديهم مغسولة ومغلفة بالقفازات، وكلامهم مرتب ومعد مسبقًا. لكن الله فى كل مكان، ولا يمكن أن يحبس مثلما يحبس الإنسان.

شكرتنى نانسى للذهاب إلى الكنيسة معها، وقالت أنها سعدت بصحبتى. لكنها أرادت أن أعيد الثوب والقلنسوة فى نفس اليوم، لأنها تخشى أن يتسخا.

فى أواخر ذلك الأسبوع، دخل مكدرموت المطبخ لتناول الغداء بوجه متجهم ومتورم. كانت نانسى قد أبلغته بإنهاء عمله، وكان عليه أن يترك المكان فى نهاية الشهر. قال أنه كان سعيدًا بذلك، فهو لا يحب أن يتلقى أوامر من امرأة، وأنه لم يحدث له ذلك أبدًا عندما كان فى الجيش

أو على المراكب؛ ولكنه عندما اشتكى من ذلك؛ لم يقل مستر كينير إلا أن نانسى هى سيدة المنزل، وأنه يدفع لها لكى تقوم بكل الترتيبات اللازمة، وأن على مكدرموت أن يتلقى أوامره منها، حيث أن مستر كينير لا يستطيع أن يشغل نفسه بالتفاصيل التافهة. وهكذا كان ذلك أمرًا سيئًا؛ لكن الأسوأ أى نوع من النساء هى. وأنه لا يهتم بالبقاء أكثر مع مثل هذه البغى الفاجرة.

صدمنى هذا الكلام؛ وفكرت أنها عادة مكدرموت وطريقته فى الكلام، والمبالغة، والكذب؛ وسألته ساخطة ماذا يعنى بذلك. وقال ألا أعلم أن نانسى ومستر كينير ينامان سويًّا، بمنتهى الجرأة والوقاحة، ويعيشان فى السر كرجل وزوجته، رغم أنهما ليسا متزوجين؛ وأن هذا ليس سرًّا، حيث يعرف كل الجيران ذلك. دهشت كثيرًا، وعبرت عن دهشتى، فقال مكدرموت أننى بلهاء، ورغم حديثى عن مسز باركينسون وما تعلمته هناك، وأفكارى المدنية، فإننى لم أكن بتلك الخبرة كما ظننت نفسى، ولا أكاد أرى أبعد من أنفى؛ وأما بالنسبة إلى فجور نانسى، فأى أحد من البلهاء مثلى يستطيع أن يكتشف الأمر فى الحال، فمن المعلومات العامة أن نانسى حملت فى طفل عندما كانت تعمل عند آل رايت، وكان الأب شابًّا صعلوكًا متشردًا هرب وتركها، لكن الطفل مات. لكن مستر كينير لم يهتم بذلك واستأجرها للعمل لديه، وهو أمر ما كان ليفعله أى رجل محترم؛ وكان واضحًا من البداية ما كان يفكر فيه، لأنه متى ما خرج الجواد من الإسطبل، ما عاد لإغلاق الباب عليه فائدة، والمرأة التى رقدت على ظهرها مثل السلحفاة، لن تتمكن من العودة إلى وضعها المعتدل مرة أخرى، بل تصبح لعبة بأيدى الجميع.

ورغم أننى كنت لا أزال أعترض على ما يقول، فقد خطر لى أنه يقول الحقيقة لأول مرة؛ ورأيت فى لمحة معنى الرؤوس المشيحة عنا فى الكنيسة، والتهامسات، وأشياء كثيرة صغيرة لم ألق بالاً إليها، وكذلك الثياب الجميلة والأقراط الذهبية، والتى يمكن أن تقول أنها كانت أجرة الخطيئة، وحتى التحذير الذى وجهته لى سالى، طباخة مسز واطسون، قبل أن أوافق على العمل. بعد ذلك فتحت عينى وأذنى، وأخذت أسير فى أنحاء المنزل متسمعة كالجواسيس، وتأكدت من أن نانسى لا تنام فى سريرها على الإطلاق أثناء وجود مستر كينير فى البيت. وخجلت من نفسى لأننى خدعت واستخدمت بهذه الطريقة، ولأننى كنت عمياء وغبية إلى هذه الدرجة.

- ٢٩ -

يؤسفنى أن أقول أننى بعد ذلك فقدت الكثير من احترامى لنانسى، والذى كنت أكنه لها باعتبارها أكبر منى، وباعتبارهـا مـدبرة المنـزل؛ وتركت العنان لاحتقارى حتى يظهر، وكنت أرد لهـا الكلمـات بطريقـة جانبتها الحكمة، وحدثت بيننا مشادات وصلت إلى رفع الصـوت، ومـن ناحيتها وصلت إلى أن تصفعنى مرة أو مرتين؛ فقد كانت سريعة الغضب ويدها منفلتة. ولكنى حتى ذلك الوقت كنت أتذكر أن مكانى لا يسمح لـى برد الضرب عليها؛ وأننى إن أمسـكت لسـانى، فإن أذنى لن يرن فيهما إلا القليل من الإهانات. ومن ثم فقد كنت ألقى بعضن اللوم على نفسى.

ولم يبد أن مستر كينير يلاحظ ما يحدث من خلافات. بـل إنـه أصبح أكثر رقة معى، وقد يقف إلى جوارى وأنا أقوم بأعمالى المختلفـة، ويسألنى كيف تسير الأحـوال معى، ودائمًا كنت أقـول له، طيبة للغـاية يا سيدى، لأنه ليس هناك ما يرغب أحد السادة فى التخلص منه بسـرعة مثل الخادم الساخط ـ فهم يدفعون لك لتبتسم، ومن المهم أن تتذكر هـذا. وأحيانًا يقول لى أننى فتاة طيبة، وعاملة مجتهدة. وذات مرة كنت أحمـل دلو ماء فوق السلالم لوضعه فى حمام مستر كينير، وكان قد طلب أن يتم ملؤه، قال متسائلاً لماذا لا يفعل هذا مكدرموت، فالدلو ثقيل بالنسـبة لـى.

قلت أن ذلك من مهامى، وأراد أن يأخذ الدلو منى ويحمله بنفسه، ووضع يده فوق يدى التى تحمل الدلو. قلت: أوه، لا يا سيدى، لا يمكن أن أسمح بهذا، وضحك، وقال إن السماح أو عدم السماح هو من اختصاصه هو، فهو سيد البيت، أليس كذلك؟ وبالطبع قلت نعم. وبينما نحن واقفين هكذا، متقاربين على السلالم، ويده على يدى، دخلت نانسى إلى الردهة أسفل السلم ورأتنا؛ وهو أمر لم يكن ليحسن من موقفها نحوى.

لقد فكرت كثيرًا أن كل شيء كان يمكن أن يكون أفضل إذا كانت توجد سلالم منفصلة للخدم فى خلفية المنزل، كما هو المعتاد، لكن لم تكن هناك سلالم خلفية. ومعنى هذا أننا مضطرون جميعًا للحياة متقاربين للغاية، وكل فى جيب الآخر، وهو أمر غير مريح؛ فمن النادر أن تكح أو تضحك فى ذلك البيت دون أن يسمعك الآخرون، خاصة من الردهة فى الطابق السفلى.

أما بالنسبة لمكدرموت، فقد أصبح فى ذلك الوقت أكثر اكتئابًا وحقدًا، وأكثر رغبة فى الانتقام؛ وقال أن نانسى تخطط لطرده قبل نهاية الشهر، وأن تمنع عنه أجره، ولكنه لن يتحمل ذلك؛ وإذا عاملته بهذه الطريقة، فسرعان ما سوف تعاملنى بنفس الطريقة، وأننا يجب أن نتحد معًا ونطالب بحقوقنا. وعندما كان مستر كينير يسافر، ونانسى تزور أصدقاءها آل رايت ــ فقد كانوا من الجيران الذين ظلوا يتعاملون معها بود ــ كان مكدرموت يغترف وبشكل متزايد من ويسكى السيد كينير، والذى كان يُشترى بالبرميل ومن ثم كان بكميات كبيرة للغاية، ولن يلاحظ أحد إذا نقص منه شيء. وفى هذه الأوقات، كان يقول أنه يكره كل الإنجليز، وأنه رغم أن كينير كان من وديان إسكتلندا، إلا أنه لا يختلف، فكلهم لصوص وعاهرات، وسارقون للأراضى، ويظلمون الفقراء أينما

يذهبون، وأن كلاً من مستر كينير ونانسى يستحقان الضرب على الرأس والرمى فى القبو، وأنه الرجل المناسب لهذا الفعل.

لكنى كنت أحسب أن هذا مجرد طريقة فى الكلام، حيث أنه كان متشدقًا دائمًا، ويتحدث عن الأشياء العظيمة التى سوف يفعلها؛ وأبى نفسه، عندما يسكر، كان كثيرًا ما يهدد بأنه سوف يعامل أمى بنفس هذه الطريقة، ولكنه فى الواقع لم يفعل ذلك أبدًا. وأفضل شيء فى مثل تلك الأوقات هو أن تهز رأسك وتوافقه، وأن لا تلقى بالاً للأمر.

يرفع د. چوردان رأسه عن الملاحظات التى يكتبها، ويقول: فأنت إذن لم تصدقيه فى البداية؟

أقول: إطلاقًا يا سيدى، إذا كنت نفسك تسمعه فلن تصدقه. كنت أظن ذلك كله مجرد تهديدات جوفاء.

يقول د. چوردان: قبل أن يشنق مكدرموت، قال أنك أنت التى دفعته إلى فعل ذلك، وادعى أنك كنت تنوين قتل نانسى ومستر كينير بوضع السم لهما فى العصيدة، وأنك كنت تحثينه بأستمرار على مساعدتك؛ وهو الأمر الذى رفضه بشدة.

أقول: من قال لك مثل هذا الكلام الكاذب؟

يقول د. چوردان: إنه مكتوب فى اعتراف مكدرموت.

وهو أمر كنت أعرفه جيدًا، فقد قرأت الاعتراف بنفسى فى سجل القصاصات الخاص بزوجة المحافظ.

أقول: إن مجرد أن تكون الأشياء مكتوبة، يا سيدى، لا يجعل منها كتابًا منزلاً.

يضحك ضحكته المائلة القصيرة، هاه، ويقول لى أننى على حق تمامًا فى ذلك. ويقول: وعلى أية حال يا جريس، بماذا تردين على ذلك؟

أقول: يا سيدى، أظن أن هذا من أسخف الأشياء التى سمعتها فى حياتى.

يقول: لماذا يا جريس؟

أسمح لنفسى بابتسامة. وأقول: إذا أردت أن أضع السم فى طبق العصيدة، يا سيدى، هل كنت أحتاج أية مساعدة من شخص مثله؟ كان يمكننى أن أفعل ذلك بنفسى، وأضع بعض السم فى طبقه أيضًا، فوق البيعة. وهو أمر لن يكلفنى أية قوة تزيد عما أحتاجه لإضافة ملعقة سكر.

يقول د. چوردان: إنك تتكلمين ببرود تام يا جريس، لماذا تظنين أنه قال ذلك عنك إذا كان كذبًا؟

أقول بتؤدة: أظن أنه أراد أن ينقل الاتهام إلىّ. فقد كان لا يحب أن يُقال له أنه أخطأ أبدًا. وربما أراد أن أكون بصحبته فى رحلته الأخيرة. فالطريق إلى الموت طريق وحيد وسريع، وأطول مما يبدو، حتى عندما يكون عن طريق مشنقة يتدلى المرء منها مباشرة، معلقًا بالحبل؛ وهو طريق معتم، لا قمر يسطع عليه أبدًا لينير الطريق.

يقول، بابتسامته المائلة الساخرة: يبدو أنك تعرفين الكثير عنه يا جريس، أكثر مما يعرف شخص لم يذهب فى هذا الطريق من قبل.

أقول: لم أذهب هناك أبدًا، إلا فى أحلامى؛ ولكنى رأيته بطوله فى ليال كثيرة. فأنا أيضًا كان محكومًا علىّ بالإعدام شنقًا، وكنت أظن أننى سوف أموت؛ وما كان يمكن أن أفلت لولا حسن الحظ ، ومهارة السيد

ماكنزى الذى دافع عن شبابى الغض. وعندما تعتقد أنك سرعان ما سوف ترتاد بنفسك هذا الطريق، فلابد أن يترك أثره فيك.

يقول بصوت ينم عن الاهتمام: صحيح.

أقول: ولا أنا ألوم چيمس مكدرموت التعس. ليس لأنه تمنى ذلك. لكن لأننى لا أود أن ألوم مخلوقًا من البشر لأنه شعر بالوحدة.

كان الأربعاء التالى هو عيد ميلادى. وإذ فترت العلاقة بين نانسى وبينى، لم أكن أتوقع منها أن تتذكره، رغم أنها كانت تعرف التاريخ جيدًا، فقد أخبرتها بتاريخ ميلادى وعمرى عندما تسلمت العمل، وأخبرتها متى سأبلغ السادسة عشرة؛ ولكن ما أدهشنى أنها جاءت إلى المطبخ فى الصباح، وكانت ودودة للغاية، وتمنت لى عيد ميلاد سعيدًا، ودارت إلى مقدمة البيت وقطفت لى باقة من زهور التعريشة التى هناك، ووضعتها فى إناء زجاجى لآخذها إلى غرفتى. وقد شعرت بالامتنان لهذه الرقة، والتى كانت نادرة للغاية فى هذا الوقت، الذى ازداد فيه شجارنا، حتى أننى كدت أبكى.

ثم قالت أننى يمكن أن آخذ فترة راحة بعد الظهر، بمناسبة عيد ميلادى. وشكرتها كثيرًا جدًا. ولكنى قلت أننى لا أعرف ماذا أفعل وحدى، فلا أصدقاء لى فى المنطقة يمكن أن أزورهم، وليس هناك محلات حقيقية، ولا شىء يمكن أن يُرى؛ وربما كان الأفضل أن أبقى فى البيت وخلاص، وأقوم بالخياطة أو بتنظيف الأوانى الفضية، كما كنت أنوى أن أفعل على أية حال. قالت أننى يمكن أن أقوم بجولة فى القرية إذا أحببت، أو أذهب لأتمشى فى الحقول المجاورة؛ وأنه يمكننى أن أقترض قبعتها القش.

ولكنى عرفت فيما بعد أن مستر كينير كان ينوى أن يكون فـــى البيت طوال بعد الظهر، وشعرت بالريبة فى أن نانسى أرادت أن تبعـــدنى عن الطريق لتستطيع قضاء وقت أطول معه وحدهما، دون أن تقلق مـــن دخولى المفاجئ للغرفة أو طلوعى على السلم، أو من عودة مستر كينيـــر إلى التجول ودخول المطبخ حيث أكون، ويبقى هناك، يسأل عن هذا وذاك، كما كان يميل لأن يفعل فى الفترة الأخيرة.

ولكن بعد أن أخذت الغداء لمستر كينير ونانسى، والذى كان مـــن لحم البقر المشوى البارد وسلطة، إذ كان الجو حـــارًا، وبعـــد أن تناولـــت غدائى مع مكدرموت فى المطبخ الشـــتوى، وقمـــت بتنظيـــف الأطبـــاق، وغسلت يدى ووجهى، خلعت مريلتى وعلقتها، ووضعت قبعة نانسى القش ومنديلى الـ "أبيض وأزرق" حول رقبتى احتراسًا من الشـمس؛ وســـألنى مكدرموت، الذى كان لا يزال جالسًا على المنضدة، إلى أين أنـــا ذاهبـــة. فقلت أنه عيد ميلادى، ولذا فقد أعطتنى نانسى إجازة لأتمشى. قـــال أنـــه سوف يأتى معى، حيث أن هناك الكثيـــر مـــن الرجـــال غيـــر المهـــذبين والمتشردين فى الطرقات، وأننى بحاجة لمن يحمينى مـــنهم. كـــان علـــى طرف لسانى أن أقول أن الشخص الوحيد الذى أعرفه بهذا الوصف هـــو الجالس أمامى هناك فى المطبخ، لكن لأنه كان يبذل مجهودًا ليتعامل بشكل متحضر، فقد أمسكت لسانى، وشكرته لنواياه الطيبة، لكنى قلـــت أن هـــذا غير مطلوب.

قال أنه سيأتى على أية حال، فأنا صغيرة وطائشـــة ولا أعـــرف ما هو الصالح لى؛ فقلت أنه ليس عيد ميلاده هو، وأن لديه واجباته التـــى يجب أن يؤديها؛ وقال اللعنة على عيد الميلاد، وأنه لا يهتم إطلاقًا بأعيـــاد الميلاد، وأنه لا يرى سببًا للاحتفال، فهو لا يشعر بأى امتنان نحو والدتـــه

التى ولدته؛ وحتى لو كان عيد ميلاده، فإن نانسى لن تعطيه أبدا أى أجازة. فقلت أنه لا يجب أن يحمل ضغينة ضدى، لأننى لم أطلب ذلك، ولم أكن أرغب فى أية مجاملات خاصة. وتركت المطبخ بأسرع ما استطعت.

لم يكن فى رأسى فكرة معينة عن أين أذهب. ولم أكن أرغب فى السير فى الشوارع الرئيسية للقرية، التى لم يكن فيها أحد أعرفه؛ وفجأة طرأ ببالى أننى كنت فى حالة وحدة شديدة، وأننى لم يكن لى أى أصدقاء هنا إلا نانسى، إذا كان يمكن أن أعتبرها صديقة، وهى بهذه الحال من التقلب، صديقة فى يوم، وفى اليوم التالى تتقلب ضدى تماما؛ وربما چيمى وولش، لكنه مجرد صبى صغير. هناك أيضًا تشارلى، لكنه كان حصانًا، ورغم أنه كان مستمعًا جيدًا ويشعرنى بالراحة، إلا أنه لن يفيد إذا كنت بحاجة لنصيحة.

لم أكن أعرف أين عائلتى، وهو ما يوازى أن أكون بلا عائلة؛ ولم أكن أتمنى أن أرى أبى مرة أخرى، ولكنى كنت سأشعر بالسعادة لو أسمع بعض أخبار إخوتى. هناك أيضًا الخالة بولين، وكان يمكن أن أكتب لها رسالة، لو كنت أستطيع أن أدفع ثمن طابع البريد؛ فقد كان ذلك قبل الإصلاحات، وكان إرسال رسالة عبر البحر مكلفًا للغاية. إذا نظرت إلى الأشياء على ضوء برودة ذلك النهار، لرأيت أننى كنت فى الواقع وحيدة فى هذا العالم، ولا أمل أمامى إلا هذا الكدح الذى أكدحه؛ ورغم أننى كان يمكن دائمًا أن أجد وظيفة أخرى، فسيظل العمل هو نفسه، من الفجر إلى الليل، ودائمًا مع سيدة تلقى على الأوامر.

وأنا مستمرة فى تأملاتى، سرت عبر الطريق، وأنا أحافظ على خطوة سريعة خشية أن يكون مكدرموت يراقبنى؛ والحق أننى استدرت

مرة فوجدته هناك، ينحدر فى طرقة المطبخ. فلو تلكأت، لظن ذلك دعـوة منى له ليلحق بى. لكننى عندما بلغت البستان، ظننت نفسى ابتعـدت عـن ناظريه، وأبطأت فى مشيتى. كنت دائمًا أتحكم جيدًا فى مشـاعرى، لكـن هناك شىء يشعر الإنسان بالاكتئاب فى عيد الميلاد، خاصة عندما يكـون وحيدا؛ ودرت حول البستان، وجلست وظهرى إلى إحـدى بقايـا جـذوع الأشجار التى تبقت بعد إزالة الغابة. كانت الطيور تغنى حولى، ولكن ذلك جعلنى أشعر بأن الطيور نفسها كانت غريبة بالنسبة لى، فأنـا لا أعـرف حتى أسماءها؛ وبدا لى ذلك أشد ما يدعو إلى الحزن، وبدأت الدموع تنزل على خدى؛ ولم أجففها، وإنما تركت نفسى للبكاء لعدة دقائق.

حينئذ قلت لنفسى إن ما لا يمكن شفاؤه يجب احتماله؛ ونظـرت حولى إلى زهور الأقحوان البيضاء والجزر البرى، والكريات البنفسـجية لزهور الحشائش اللبنية، والتى كانت رائحتها جميلة للغاية وتقـف عليهـا فراشات برتقالية؛ ثم نظرت إلى أعلى إلى فروع شجرة التفاح فوقى، حيث كانت التفاحات الخضراء الصغيرة تتشكل، ونظرت إلى الرقع الظاهرة من السماء من بين أوراق الشجرة وفروعها، وحاولت أن أبهج نفسى، بالتفكير فى أن مثل هذا الجمال لا يمكن أن يخلقه إلا إله طيب محب للخير، يضع خير الإنسان فى قلبه، ومهما كانت المتاعب التى يضعها على ظهرى فلابد أنها امتحان منه، ليختبر قوة صبرى وإيمانى، كما فعـل مـع المسـيحيين الأوائل وأيوب والشهداء. ولكن كما قلت، كانت الأفكار حول الرب تجعلنى دائمًا أشعر بالرغبة فى النوم، ونمت بالفعل.

من الأمور الغريبة أننى مهما كنت أغط فى نوم عميق، يمكننـى أن أشعر دائمًا عندما يكون ثمة شخص قريب أو يراقبنى. وكأنمـا هنـاك جزء منى لا ينام أبدًا، وإنما يحتفظ بإحدى عينى مفتوحة قلـيلا؛ وعنـدما

كنت أصغر من ذلك كنت أظن أن هذا هو ملاكى الحارس. ولكـــن ربمـــا جاءت هذه العادة من أيام طفولتى، عندما كنت إذا نمت زيادة على موعـــد الاستيقاظ وأداء أعمال البيت، يبدأ الصياح من جانب أبى، وإلقاء الكلمـــات الفظة القاسية، وربما ينتزعنى من النوم بشدى من ذراعـــى، أو شـــعرى. وعلى أية حال، كنت أحلم بأن دبًّا خرج من الغابة، وأنه واقف ينظر لـــى. ثم استيقظت فجأة، تمامًا كما لو كان ثمة يد وضعت على؛ وهنـــاك رجـــل يقف قريبًا منى، والشمس خلفه فلا أستطيع رؤية وجهـــه. خرجـــت منـــى صيحة صغيرة، وبدأت أقوم متعثرة. ولكنى فى تلك اللحظة اكتشـــفت أنه لم يكن رجلاً، وإنما الصبى، چيمى وولش؛ فبقيت مكانى.

قلت: أوه يا چيمى، لقد أفزعتنى.

قال: لم أكن أقصد. وجلس بجوارى تحت الشجرة. ثم قال: مـــاذا تفعلين هنا فى وسط اليوم؟ ألن تبحث عنك نانسى؟ فقد كان صبيًّا فضـــوليًّا للغاية، ودائمًا يكثر من الأسئلة.

شرحت له أنه عيد ميلادى، وقلت أنه كان لطيفًا من نانســـى أن تعطينى أجازة طوال فترة بعد الظهر. وتمنى لى عيد ميلاد سعيدًا. ثم قال: لقد رأيتك وأنت تبكين!

قلت: أين كنت أنت، هل كنت تتجسس على؟

قال أنه اعتاد أن يأتى إلى البستان، عندما لا يكون مستر كينيـــر يراقبه؛ ففى أواخر الموسم، كان مستر كينير أحيانًا يقـــف فـــى الفرانـــدة ويستخدم التليسكوب ليتأكد أن الأولاد فى الجيرة لا يسرقون بستانه؛ ولكن ثمار التفاح والخوخ كانت لا تزال خضراء وصغيرة لا يخشى عليها مـــن السرقة. ثم قال: لماذا أنت حزينة يا جريس؟

شعرت أننى سوف أبكى ثانية، ولكنى قلت بهدوء: ليس لى أصدقاء هنا.

قال چيمى: أنا صديقك. ثم توقف قليلاً، وقال: هل لك حبيب يا جريس؟ فقلت أنه ليس لى حبيب. فقال: أود أن أكون حبيبك. وبعد سنوات قليلة، عندما أكبر وأوفر نقودًا كافية، سوف نتزوج.

لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام. قلت، محولة الأمر إلى مزحة: ولكن ألست واقعًا فى غرام نانسى. فقال: لا، رغم أنها تعجبنى جدًا. ثم قال: ما رأيك؟

قلت: ولكن يا چيمى، أنا أكبر منك كثيرًا؛ كنت أقول هذا وكأننى أحاول مضايقته. لأننى لم أستطع أن أصدق أنه كان صادقًا.

قال: سنة وبعض السنة. فارق سنة لا يعتبر فارقًا.

قلت: ولكنك، لا تزال صبيًا.

قال: أنا أطول منك. وكان هذا صحيحًا. غير أننى لا أعرف لماذا تعتبر الفتاة فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة امرأة، بينما الصبى من نفس العمر يعتبر صبيًا. ولكنى لم أقل هذا، حيث رأيت أنها ستكون قاسية عليه؛ ومن ثم شكرته بشدة على عرضه، وقلت له أننى سوف أضعه فى اعتبارى، حيث لم أرد أن أجرح مشاعره.

وقال: تعالى، إنه عيد ميلادك، سوف أعزف لك لحنًا. وتناول الناى، وعزف "*ذهب الجندى الشاب إلى ميادين القتال*"، وعزفها جيدًا جدًا بإحساس مرتفع، رغم صدور صرير خفيف عند النغمات العالية. ثم عزف "*صدقينى لو أن كل مفاتن الشباب المحببة هذه*". وتبينت أن هذين اللحنين

كانا قطعتين جديدتين يتدرب عليهما، وكان فخورًا بهما؛ فقلت له أن هـذا كان شيئًا جميلاً جدًا.

بعد ذلك قال أنه سوف يصنع لى تاجًا من زهور الأقحوان، تحية لهذا اليوم؛ وأخذنا كلانا نصنع سلاسل من الأقحوان، وانشغلنا بهما بشـدة، مثل أطفال صغار؛ ولا أظن أننى استمتعت بهذه الطريقة منذ أيام مـارى هويتنى. وعندما انتهينا من ذلك، قام بوقار ومهابة، ووضع سلسـلة مـن الأقحوان حول قبعتى، وأخرى حول رقبتى، لتكون قلادة، وقال أننى كنت ملكة الربيع؛ فقلت إننى أفضل أن أكون ملكة الصيف، حيث أن الصيف قد دخل، وضحكنا. وسألنى إذا كان يمكن أن يقبلنى على وجنتى؛ فقلت نعـم، ولكن قبلة واحدة؛ وقبلنى قبلة واحدة. وقلت له أنه جعل من عيد مـيلادى مناسبة جميلة رغم كل شيء، لأنه استطاع أن يبعدنى عن التفكير فى كـل متاعبى؛ وابتسم لهذا.

لكن الوقت مر سريعًا، وانتهت فترة ما بعد الظهر. وعندما كنت عائدة عبر الممشى، رأيت مستر كينير واقفًا فى الفراندة، وينظـر نحـوى بالتليسكوب؛ وعندما اقتربت من الباب الخلفى، سار حول البيـت، وقـال: مساء الخير يا جريس.

رددت عليه، وقال: من ذلك الرجل الذى كان معك فى البسـتان؟ وماذا كنت تفعلين معه؟

استطعت أن أميز فى صوته أى نوع من الارتياب كان يخايلـه؛ وقلت إن هذا لم يكن إلا الصغير چيمى وولش، وكنا نصنع سلاسـل مـن زهور الأقحوان لأنه كان عيد ميلادى. وقد صدق هذا، لكنه لم يبد عليـه

السرور رغم ذلك. وعندما دخلت المطبخ لأبدأ إعدادات العشـــاء، قالـــت نانسى: ماذا تفعل هذه الزهرة الذابلة فى شعرك؟ إن شكلها سخيف للغاية.

كانت هناك واحدة، علقت عندما كنت أخلع قلادة الأقحوان.

ولكن هذين الأمرين أنهيا بعض ما شعرت به من سعادة بريئة فى ذلك اليوم.

وهكذا بدأت فى إعداد العشاء؛ وعندما دخل مكدرموت فيما بعـــد يحمل حملاً من الخشب للموقد، قال باستهزاء: وهكذا، كنت تتقلبين علـــى الحشائش، وتقبلين صبى المشاوير، كان يجب أن تكسر دماغه لهذا، وكان يمكن أن أكسر دماغه بالفعل بنفسى لو لم يكن مجرد طفل. من الواضـــح أنك تفضلين الصبيان على الرجال، فأنت لا تزيدين عن خاطفة الرضع فى مهادهم. فقلت: لم أكن أفعل شيئًا كهذا. لكنه لم يصدقنى.

شعرت أن هذا المساء لم يكن ملكى على الإطلاق، ولم يكن شيئًا طيبًا وشخصيًّا وخصوصيًّا، وإنما تجسس على كل واحد منهم ـ ومســـتر كينير من ضمنهم، ولم أفكر أنه سوف ينزل إلى هذه الدرجة من الدناءة ـ تمامًا وكأنهم كانوا واقفين صفًّا على باب غرفتى، يأخذ كل منهم دوره فى النظر من ثقب المفتاح؛ وهو أمر أحزننى كثيرًا، وأشعرنى بالغضب أيضًا.

- ٣٠ -

مرت بعد ذلك عدة أيام بدون أحداث تذكر. مضى على وجـودى عند مستر كينير حوالى أسبوعين، لكنهما بدوا أطول كثيرًا، فقد كان الوقت يمر ثقيلاً وبطيئًا، كما هو الحال فى الغالب يا سيدى عندما يكـون المـرء يشعر بالتعاسة. ذهب مستر كينير فى رحلة على جواده، وأعتقد أنه ذهـب إلى ثورن هيل، وذهبت نانسى لزيارة صديقتها مسز رايت. وكان چيمـى وولش لا يأتى إلى البيت فى الفترة الأخيرة، حتى أننى تساءلت إذا ما كان مكدرموت قد هدده وأمره بالابتعاد.

لا أعرف أين كان مكدرموت؛ وأظن أنه كان نائمًا بالحـظيرة. ولم أكن على علاقة طيبة معه، فقد بدأ فى ذلك الصباح بالحديث حول أن لى عينين جميلتين تليقان "بالبصبصة" إلى الفتيان الصغار الذين لا تـزال الأسنان اللبنية فى أفواههم، فقلت له أن يحتفظ بحديثه لنفسه، حيـث لـيس بالغرفة من يستمتع بالاستماع إليه سواه وحده، فقال أن لى لسـانًا خبيثًـا كألسنة الأفاعى، فقلت إذا كان يريد شخصًا لا يرد عليه فلماذا لا يذهب إلى الحظيرة و"يعاشر" البقرة، وهو نوع الرد الذى كانت مارى هويتنى يمكـن أن تقوله، أو هكذا قلت لنفسى.

كنت فى حديقة المطبخ أجمع حبات البازلاء الجديدة، ولا تــزال رأسى مشتعلة بالغيظ ــ فقد كنت لا أزال أشعر بالغيظ مما تعرضت له من شكوك وتطفلات، بالإضافة إلى مضايقات مكدرموت المريــرة ــ عنــدما سمعت صفيرًا منغمًا، ورأيت رجلاً يأتى عبر الممشى حاملاً صُرّة علـــى ظهره، ويضع على رأسه قبعة بالية، وفى يده عصا سير طويلة.

كان هو چيرميا البائع المتجول، وشعرت بفرح شديد لرؤية وجه إنسان ممن عرفتهم فى أيام أفضل حتى أننى انتفضـــت واقفــة ووقعــت البازلاء من مريلتى على الأرض، ولوحت بذراعى، وجريت عبر الممشى لملاقاته. فقد كان صديقًا قديمًا، أو هكذا فكرت حينئذ، عندما يكون المــرء فى بلد جديد، يصبح الأصدقاء أصدقاء قدامى بسرعة كبيرة.

"حسنًا يا جريس، قلت لك إننى سآتى".

قلت: "وأنا فرحانة جدًّا لرؤيتك يا چيرميا".

سرت معه إلى باب المنزل الخلفى، وقلت: "ماذا معك اليوم؟" فقد كنت دائمًا أحب أن أتفرج على محتويات صرته، حتى لو كنت لا أتــوفر على شراء معظم الأشياء.

قال: "ألن تدعينى لأدخل المطبخ يا جريس، إلى بــرودة البيــت بعيدًا عن الشمس؟" وتذكرت أن هذه كانت العادة المتبعة فى بيــت مســز ألدرمان پاركينسون، فأدخلته، وأجلسته إلى مائدة المطبخ، وقدمت إليه قدحًا صغيرًا من البيرة من دولاب الخزين، وكوبًا من الماء البارد؛ وقدمت إليه قطعة خبز وجبن. وشغلت نفسى به تمامًا، إذ شــعرت أنه ضيــف مــن نوع ما، وبذلك كنت أنا المضيفة، وهكذا يجب أن يكون كــرم الضــيافة. وأخذت أنا أيضًا قدحًا من البيرة لأشعره بالصحبة.

قال: "فلنشرب نخب صحتك يا جريس". شكرته، ورددت عليه ردًّا طيبًا. وقال: "هل أنت سعيدة هنا؟"

قلت: "البيت جميل جدًّا، به لوحات وبيانو". فلم أكن أحب أن أتحدث بالسوء عن أى أحد، خاصة عن سيدى وسيدتى.

"لكنك فى حالة هدوء وابتعاد". قال ذلك وهو يتأملنى بعينين لامعتين مضيئتين. كانت له عينان تشبهان التوت البرى الأسود، وتوحيان بالقدرة على رؤية ما لا يستطيع الآخرون رؤيته، وأستطيع أن أقول أنه كان يحاول أن ينظر داخل عقلى، ولكن بطريقة ودودة، لأننى أعتقد أنه كان دائمًا يحمل لى الاحترام والود.

قلت: "إنه مكان هادئ، لكن مستر كينير سيد ليبرالى."

قال وهو ينظر لى نظرة حادة: "وله ذوق السادة أيضًا، يقولون فى الجوار أنه يميل بشدة للخادمات، خاصة المقيمات فى المنزل. أرجو ألا ينتهى بك الحال إلى مثل ما حدث لمارى هويتنى."

فوجئت بهذا، فقد كنت أظن أننى الوحيدة التى تعلم بحقيقة هذه العلاقة الغرامية، ومن هو السيد، ومدى قربه من البيت، ولم أخبر أحدًا أبدًا. قلت: "كيف توصلت إلى ذلك؟"

وضع إصبعه على فمه، فى موازاة أنفه علامة على طلب الصمت والتعقل، وقال: "المستقبل مخبأ فى الحاضر، لا يراه إلا من يستطيعون قراءته". وحيث أنه يعلم بالفعل كل هذا، خففت عما تنوء به نفسى معه، ورويت له كل ما رويته لك يا سيدى، حتى الجزء الخاص بسماعى لصوت مارى، والإغماءة، والجرى حول البيت دون أن أصل

إليه، إلا عن الطبيب، حيث شعرت أن مارى لن تحب أن يُعرف ذلك. لكننى أعتقد أن چيرميا خمّن الأمر، فقد كان بارعًا فى التقاط المعانى المستترة، حتى حين لا تُقال علانية.

عندما انتهيت من روايتى قال: "إنها لقصة محزنة. أما بالنسبة لك يا جريس فإن التقاط غرزة فى الوقت المناسب تمنع فتق الثوب. إنك تعرفين أن نانسى كانت خادمة البيت منذ عهد ليس ببعيد، وكانت تقوم بكل العمل الخشن والوضيع الذى تقومين أنت به الآن."

كان هذا كلامًا مباشرًا، وأحنيت رأسى قائلة: "لم أكن أعلم هذا."

قال: "إذا اعتاد الرجل شيئًا، من الصعب أن يغير عادته. مثل الكلب الذى يَعْوَجُّ حاله، فبمجرد أن تُقتل شاة يذوقها الكلب، ولابد أنه سيقتل غيرها."

قلت لأغير الموضوع: "هل كنت تسافر كثيرا؟"، فلم أكن أحب هذا الكلام عن القتل.

قال: "نعم، إننى دائمًا فى حالة ترحال. وفى الفترة الأخيرة ذهبت إلى الولايات، حيث يمكننى شراء الخردوات رخيصة، وأبيعها هنا بثمن أعلى؛ فهذه هى الطريقة التى نكسب بها قوتنا نحن البائعين. لابد أن نحصل على ثمن جلد أحذيتنا التى نبليها فى التجوال."

قلت: "وكيف الحال هناك؟ البعض يقولون أنه أفضل."

قال: "الحال مماثل للحال هنا من نواحٍ عديدة. يوجد محتالون وأنذال فى كل مكان، لكنهم يستخدمون لغة مختلفة لتبرير أفعالهم؛ وهناك يتشدقون كثيرًا بالكلام عن الديمقراطية، مثلما يتبجحون هنا بالحديث عن

التنظيم الصحيح للمجتمع؛ والولاء للملكة؛ ومع ذلك فالفقير هو الفقير على كل شاطئ. عندما تعبرين الحدود، فإنك لن تعرفى أنك قد عبرت بالفعل، كأنك تعبرين فى الهواء؛ فالأشجار على جانبى الطريق كما هى. وأنا أذهب عادة خلال الأشجار، وبالليل؛ فدفع الرسوم والجمارك على بضاعتى لا يلائمنى"؛ ثم ابتسم قائلا: "كما أن الثمن بالنسبة لزبائن ممتازين مثلك سوف يكون مرتفعًا للغاية!"

قلت: "ولكن ألست بهذا تنتهك القانون؟ وماذا يحدث لك لو أمسكوا بك؟"

قال: "لقد وُضعت القوانين لكى نكسرها، ثم إن هذه القوانين لم أضعها أنا ولا وُضعت من أجلى، وإنما وضعتها سلطات مستفيدة، ولمصالحهم ومنافعهم هم. لكنى لا أوذى أحدًا. والرجل ذو العزيمة يحب التحدى والتفوق على غيره بالدهاء والحيلة، أما بالنسبة لاحتمال القبض علىّ، فأنا ثعلب عجوز، وقد خبرت ذلك لسنوات كثيرة، وأصبح من الصعب أن أقع. كما أننى رجل محظوظ، وهذا يمكن قراءته فى كفى". وأرانى خطين متقاطعين كالصليب فى كفه اليمنى، وكذلك فى اليسرى، كلاهما على شكل حرف X؛ وقال أنه يحظى بالحماية فى النوم واليقظة، فاليد اليسرى هى يد الأحلام. ونظرت إلى كفىّ، فلم أر فى أى منهما مثل هذا التقاطع.

قلت: "يمكن للحظ أن ينفد. أرجو أن تكون حذرًا."

قال مبتسما: "لماذا يا جريس؟ هل تشعرين نحوى بمشاعر رقيقة؟" وخفضت نظرى نحو المنضدة. فقال بجدية أكثر: "الواقع أننى فكرت فى ترك هذا النوع من العمل، فالمنافسة الآن أشد مما كان الحال فى السابق،

ومع تحسن الطرقات، يذهب الكثيرون إلى المدن لشراء لوازمهم، بدلاً من البقاء فى البيت والشراء منى."

وشعرت بخيبة أمل عندما سمعت أنه يمكن أن يترك البيع الجوال، فهذا يعنى أنه لن يأتى بعد ذلك بصرته. قلت: "ولكن ماذا ستفعل حينئذ؟"

قال: "يمكن أن أتجول فى الأسواق، وألعب لعبة "آكل النار"، أو أصبح معالجًا باستخدام القدرة على الاستبصار، وأعمل بالتنويم المغناطيسى والسحر المغناطيسى، والذى يشد الكثيرين حوله ويجذب الأنظار. عندما كنت فى بداية شبابى كنت أشارك امرأة تعرف هذا العمل، فهو عمل يحتاج عادة لرجل وامرأة؛ كان دورى القيام بالحركات الخفيفة لليدين، كما كنت أجمع النقود، وأما هى فكانت تضع على نفسها وشاحًا من الموسلين، وتدخل فى حالة النوم، وتتحدث بصوت أجوف رنان، وتقول للناس مشاكلهم مقابل أجر بالطبع. عمل سهل، حتى الأبله يستطيع أن يفعل هذا. والناس لا يستطيعون رؤية دواخلهم، فمن يمكنه أن يعرف أن ما تقوله صحيح أم لا؟ لكن المرأة أصابها الملل من العمل، وربما منى؛ وارتحلت فى أحد القوارب المبحرة فى المسيسيبى". ثم أكمل قائلا: "أو يمكن أن أصبح واعظًا، فعبر الحدود يوجد طلب كبير على هذا العمل، أكثر من هنا، خصوصًا فى المواسم الصيفية عندما يقومون بالوعظ فى الهواء الطلق، أو فى الخيام؛ الناس هناك مغرمون بالوقوع فى نوبات من التقوى، ينهمكون فى الثرثرة والقيل والقال، ثم يحصلون على الغفران مرة على الأقل فى الصيف، أو أكثر من ذلك إذا أتيح لهم، وهم على استعداد لإظهار عرفانهم بذلك برش النقود بحرية. هذا نوع واعد من العمل، ويمكن القيام به جيدًا، وأرباحه أفضل كثيرًا من عملى هذا."

قلت: "لم أكن أعرف أنك متدين."

قال: "أنا لست متدينا؛ ولكن التدين ليس مطلوبًا حسب علمي، كثير من الوعاظ هناك ليسوا أكثر تدينًا من الحجارة."

قلت إنه شرير إذ يقول هذا، لكنه ضحك وقال: "ما دام الناس يحصلون على ما جاءوا من أجله، فماذا يهم؟ وسوف أعطى الأمر حقه تماما؛ إن واعظًا غير مؤمن لكنه يتمتع بسلوك حسن وصوت جيد يستطيع أن يجذب إلى الدين أكثر مما يستطيع غبى جهم أجوف الرأس، مهما كان ورعه وتقواه." ثم اكتسى فجأة بهيئة وقورة، وقال مرتلاً: إن الذين لديهم إيمان قوى يعرفون، أنه بين يدى الرب، حتى الوعاء المشروخ يمكن استخدامه على أفضل وجه.

قلت: "أرى أنك درست الأمر بالفعل،" فقد بدا مثل الواعظ تمامًا؛ وضحك مرة أخرى. لكنه عاد ليبدو أكثر جدية، وانحنى عبر المنضدة، وقال: "أعتقد أنك يجب أن تأتى معى بعيدًا من هنا يا جريس. الأمور هنا لا تشعرنى بالارتياح."

قلت: "آتى معك؟ ماذا تقصد؟"

قال: "سوف تكونين فى أمان معى أكثر مما أنت هنا".

وهنا شعرت بقشعريرة، فقد كان هذا قريبًا مما كنت أشعر به أنا نفسى، رغم أننى لم أعرف حتى هذه اللحظة. قلت: "ولكن ماذا سوف أفعل؟"

قال: "يمكن أن ترحلى معى، يمكنك أن تكونى وسيطة روحية، سأعلمك كيف تفعلين هذا، وأعطيك المعلومات التى تقولينها، وأضعك فى

حالات النوم المغناطيسى. إن رسم كفك يقول لى أنك موهوبة فى هذا؛ وعندما تتركين شعرك مسدلاً ستكتسبين مظهرًا موحيًا ومناسبًا للغاية. وأعدك أنك ستكسبين فى يومين بهذه الطريقة أكثر مما تكسبين فى أشهر من حك الأرضيات هنا. ربما تحتاجين لاسم مختلف، بالطبع؛ اسم فرنسى، أو اسم يبدو أجنبيًا، لأن الناس هنا، على هذا الجانب من المحيط، يصعب أن يصدقوا أن امرأة لها هذا الاسم البسيط، جريس، يمكن أن تكون لها قوى غامضة. فهم يجدون أن المجهول أكثر روعة وبهاء من المعلوم، بل وأكثر إقناعًا."

قلت: "ألن يكون هذا نوعًا من الخديعة أو الغش؟" فقال چيرميا: "ليس أكثر مما فى المسرح. ذلك أن الناس إذا كانوا يريدون أن يصدقوا أمرًا ما، ويتوقون إليه، ويعتمدون على أن يتحقق، ويشعرون بأنفسهم أفضل معه، وهل من الخديعة أن نساعدهم على ما يعتقدون بمثل هذا الشىء غير الأساسى مثل الاسم؟ ألا يعتبر هذا نوعًا من عمل الخير ومحبة البشر؟" وعندما وضع الأمر بهذه الطريقة، رأيته فى ضوء أفضل.

قلت إن اتخاذ اسم جديد أمر لا يمثل مشكلة بالنسبة لى، فلست شديدة الارتباط باسمى، حيث أنه يمت إلى أبى أكثر منى. وابتسم قائلا: "هيا إذن نتصافح على ذلك!"

ولن أخفى عنك يا سيدى أن الفكرة كانت شديدة الإغراء؛ فقد كان چيرميا رجلاً وسيمًا، بأسنانه البيضاء وعينيه السوداوين، وتذكرت أننى من المفترض أن أتزوج من رجل يبدأ اسمه بحرف "چيه"؛ كما أننى فكرت فى النقود التى يمكن أن أحصل عليها، والثياب التى يمكن أن أشتريها بها، وربما بعض الأقراط الذهبية أيضًا، وسوف أرى أماكن ومدنًا كثيرة،

ولا أظل دائمًا أقوم بنفس الأعمال الشاقة وأعيش مع القذارة. ولكني تذكرت ما حدث مع مارى هويتنى، ورغم أن چيرميا بدا شخصًا طيبًا، فإن المظاهر يمكن أن تكون خادعة، كما اكتشفت هى حين خسرت كل شيء. ماذا يحدث لو سارت الأمور فى طريق خطأ، ووجدت نفسى فى موقف حرج وحدى، فى مكان غريب؟

سألته: "هل سنتزوج إذن؟"

قال: "وما الحاجة إلى ذلك؟ الزواج لا نفع منه أبدًا فى رأيى، لأنه إذا كان شخصان عاقلان وعاشا سويًّا، فسوف يظلان سويًّا، أما إذا لم يكن، فسوف يفر أحدهما هاربًا، وهذه هىَ الخلاصة."

أثار ذلك حذرى. قلت: "أظن أنه من الأفضل لى أن أبقى هنا. وعلى أية حال فأنا صغيرة جدًّا على الزواج."

قال: "فكرى فى الأمر يا جريس. فأنا أريد لك الخير، وعلى استعداد لمساعدتك والاهتمام بك. وأقول لك الحق أنك محاطة بالأخطار هنا."

فى هذه اللحظة دخل مكدرموت إلى المطبخ، وتساءلت فى نفسى هل كان يتسمع خارج الباب، وكم من الوقت؟ فقد بدا فى غضب شديد. وسأل چيرميا بحق الشيطان من هو، وأى شيطان يفعل فى المطبخ.

قلت أن چيرميا بائع متجول، وأننى أعرفه جيدًا من قبل؛ ونظر مكدرموت إلى الصرة ــ التى كانت مفتوحة لأن چيرميا كان قد فتحها ونحن نتكلم، رغم أنه لم يخرج محتوياتها ــ وقال أن هذا طيب جدًّا، لكن مستر كينير قد يتضايق إذا عرف أننى كنت أبدد البيرة الجيدة والجبن

الثمين على بائع متشرد. وقد قال هذا ليس لأنه يهتم قدر قشة بما قد يعتقده مستر كينير وإنما فقط لإهانة چيرميا.

ولكنى رددت بأن مستر كينير كان كبير العقل وكريمًا، ولن يرفض تقديم شراب بارد فى يوم صيفى لرجل شريف. وهنا ازداد مكدرموت عبوسًا، فقد كان يكره أن أثنى على مستر كينير.

ثم قال چيرميا، محاولاً التدخل بيننا لتهدئة الموقف، أن لديه بعض القمصان التى رغم أنها مستعملة، ورخيصة؛ إلا أنها جيدة ومقاسها يناسب مكدرموت تمامًا؛ ومع أن مكدرموت دمدم متذمرًا، إلا أن چيرميا أخرج القمصان، وراح يعرضها متحدثًا عن جودتها ومزاياها، وكنت أعرف أن مكدرموت بحاجة إلى قمصان جديدة، فقد تهرّأ أحد قمصانه التى سبق إصلاحها، وانتهى أمر قميص آخر عندما تركه قذرًا ورطبًا فتسلل إليه العفن. ورأيت أن چيرميا استطاع أن يجذب انتباهه، فأحضر لنفسه كأسًا من البيرة فى صمت.

كانت على القمصان الحروف الأولى هـ. س، وقال چيرميا إنها كانت تخص أحد الجنود، بل محاربًا شجاعًا، ولكن ليس ميتًا، لأن لبس ثياب شخص ميت فأل سيئ، وحدد سعرًا للقمصان الأربعة. وقال مكدرموت إنه بهذا السعر لا يستطيع أن يدفع إلا ثمن ثلاثة، وقال سعرًا أقل. وظلا يتساومان حتى وافق چيرميا، وقال أنه يبيع بهذا، وسيعطيه الأربعة بثمن ثلاثة، ولكن لن ينقص بنسًا واحدًا، رغم أن هذا نوع من قطع الطريق، وأنه سيفلس بسرعة إذا استمرت الأمور بهذه الطريقة. وفرح مكدرموت بنفسه كثيرًا لظنه أنه استطاع أن يفوز بمساومة رابحة. لكنى

استطعت أن أفهم من بريق عينى چيرميا أنه كان يتظاهر بأن مكـــدرموت غلبه، وأنه خرج من المساومة فى أحسن حال.

والآن يا سيدى، كانت هذه هى القمصان نفسها التى تحدثوا عنها طويلاً فى المحاكمة، واضطربت الأقوال كثيــرًا بشــأنها، فــأولاً، قـــال مكدرموت فى البداية أنه حصل عليها من أحد الباعة، ثم غير أقواله وقال أنه حصل عليها من أحد الجنود. لكن كلتا المقولتين كانت صحيحة بمعنى من المعانى، وأعتقد أنه غير أقواله بهذه الطريقة لأنه لــم يــرد أن يقــف چيرميا فى المحكمة ضده، فهو يعرف أنه صديقى، وأنـــه قــد يســاعدنى ويشهد شهادة سيئة على شخصيته؛ أو لابد أنه فكــر هكــذا. وثانيًــا، لأن الصحف لم تستطع أن تصل إلى الرقم الصحيح للقمصان. لكنهــا كانــت أربعة، وليس ثلاثة كما قالوا؛ ذلك أنه كان هناك اثنان فى خُــرج الســفر الخاص بمكدرموت، وواحد وُجد مغطى بالدم خلف باب المطبخ؛ وهو الذى كان يرتديه مكدرموت عندما كان يحاول التخلص من جثة مستر كينيــر. وكان الرابع على جثة مستر كينير نفسها، لأن مكدرموت ألبسه إياه. وإذن، فهى أربعة قمصان لا ثلاثة.

سرت مع چيرميا حتى منتصف الممشى، ومكدرموت ينظر مــن باب المطبخ بعبوس مشئوم؛ لكنى لم أهتم بما قد يظن، فهــو لا يملكنـــى. وعندما كنا على وشك الافتراق، نظر لى چيرميا بجدية شديدة، وقال أنـــه سوف يأتى قريبًا جدًّا ليعرف الرد، وأنه يأمل لأجل خاطرى وخاطره نفسه بالمثل أن يكون الرد بنعم. وشكرته على تمنياته الطيبة، وقلت له أن مجرد معرفتى أننى أستطيع الابتعاد إذا أردت جعلنى أشعر بمزيد مــن الأمـــان ومزيد من السعادة أيضًا.

عندما عدت إلى البيت، قال مكدرموت أنه كان من الطيب التخلص منه، وأنه لم يشعر بمودة تجاه الرجل، حيث أن له مظهرًا يميل لأن يكون أجنبيًا وضيعًا، وأنه يظنه جاء يتشمم المنطقة حولى كما يفعل كلب يبحث عن كلبة أنثى تطلب المعاشرة. لم أرد على هذه الملاحظة، لأننى وجدتها شديدة الدناءة، وأدهشنى عنف التعبير؛ وسألته أن يتكرم بإخلاء المطبخ من وجوده، حيث حان الوقت لأشغل نفسى بإعداد العشاء.

وهنا فقط تذكرت البازلاء التى وقعت منى فى الحديقة، فخرجت لالتقاطها.

- ٣١ -

بعد بضعة أيام زارنا الطبيب. كان اسمه د. ريد، وهو رجل من علية القوم، متقدم فى السن، أو هكذا يبدو؛ لكن الأطباء من الصعب أن تعرف حقيقة أعمارهم، حيث تكتسى وجوههم بالأخاديد ويحملون أنواعًا عديدة من الأمراض معهم، فى حقائبهم الجلدية حيث يحتفظون بالسكاكين، وهو ما يجعلهم يشيخون قبل الأوان؛ وكما هو الأمر مع الغربان، عندما ترى اثنين أو ثلاثة منها مجتمعين سويًا تعرف أن هناك موتًا وشيكًا، وأنهم يناقشونه. الغربان يقررون أية أجزاء سيمزقونها ويهربون بها، ونفس الشيء مع الأطباء.

لا أقصدك يا سيدى، فليس معك حقيبة جلدية، ولا سكاكين.

عندما رأيت الطبيب يأتى عبر الممشى راكبًا عربته الخفيفة التى يجرها حصان واحد، شعرت بقلبى يخفق خفقات مؤلمة، وظننت أننى سيُغمى علىّ، لكن هذا لم يحدث، فقد كنت وحدى أسفل السلم ويجب أن ألبى أية طلبات، فنانسى لن تفيد وهى راقدة فى الأعلى.

فى اليوم السابق كنت أساعدها فى ضبط الثوب الجديد الذى كانت تصنعه، وقضيت حوالى الساعة على ركبتى وفمى ملىء بالدبابيس وهى تلف وتنظر إلى نفسها فى المرآة. وقالت أنها لاحظت أن وزنها يزداد

وجسدها يسمن، فقلت أنه من المستحسن أن تمتلئ ببعض اللحم، فليس من المفيد أن تكون مجرد جلد على عظم، وأن السيدات الشابات فـــى أيامنـــا أصبحن يقمن بتجويع أنفسهن بسبب الموضة، التى كانت تقتضى أن تكون الفتاة شاحبة ومتمارضة، وكن يربطن مشداتهن بشدة لتضييقها جدًّا حتـــى يغمى عليهن من مجرد نظرة. وكانت مارى هويتنى تقول أن لا رجل يريد هيكلاً عظميًّا، بل يحبون أن يكون هناك ما يمسكون به، شىء فى مقدمـــة الجسم وشىء فى خلفيته، وكلما كانت العجيزة أكبر كلما كان ذلك أفضـــل؛ لكنى لم أقل هذا لنانسى. كان الثوب الذى تصنعه من لون كريمى فاتح من قماش أمريكى مطبوع عليه براعم وأغصان صغيرة، ولـــه صـــدرية ذات ثنيات تنزل تحت الوسط بطرف مدبب، ولتنورتـــه ثـــلاث طبقـــات مـــن الحواشى المكشكشة؛ وقلت لها أنه جذاب جدًّا.

عبست نانسى لنفسها فى المرآة، وقالت أن وسطها مع ذلك آخـــذ فى الازدياد بشدة، وإذا استمر الأمر فإنها سوف تحتاج لمشدين جديـــدين، وسرعان ما ستصبح امرأة شديدة البدانة.

عضضت لسانى ولم أقل أنها لو منعت أصابعها من الغوص فى الزبد فقد تقلل من سرعة الزيادة فى وزنها. فقبل الإفطار ابتلعت نصـــف رغيف من الخبز، بعد أن وضعت عليه طبقة سميكة من الزبـــد ومربـــى الخوخ. وفى اليوم السابق، رأيتها تأكل شريحة من الدهن الصافى مقطوعة من فخذ الخنزير المحفوظ فى خزانة الأطعمة الباردة.

وكانت قد طلبت منى أن أشد لها المشد أضيق قليلاً، ثم أحـــاول ضبط الوسط مرة أخرى؛ ولكن وأنا أفعل ذلك قالت إنها تشـــعر بوعكـــة. ولم يكن ذلك مثيرًا للدهشة وهى تأكل كل هذا، رغم أننى كنت أضبطه فى

نفس مستوى ضيق الرباط. ولكنها هذا الصباح تعرضت أيضا لدوخة، أو هذا ما قالته؛ وكان ذلك دون تناول أى إفطار، ودون أن يكون هناك أى تضييق للرباط. وبدأت أعجب فى نفسى ما الأمر، وظننت أنه تم استدعاء الطبيب من أجل نانسى.

عندما رأيت الطبيب آتيًا كنت بالخارج فى الفناء، أملأ دلوًا آخر من الماء للغسيل؛ فقد كان صباحًا جميلاً، وكان الهواء قويًّا والجو صافيًا، والشمس مضيئة حارة، فهو يوم مناسب للتجفيف. خرج مستر كينير للترحيب بالطبيب، الذى ربط الجواد إلى السياج، ثم دخلا البيت من الباب الأمامى. استمررت فى أداء مهمتى وسرعان ما كان الغسيل معلقًا على الحبل، وكان غسيلاً أبيض، مكونًا من قمصان وملابس نوم، وملابس داخلية وما إلى ذلك، ولكن لم تكن هناك ملاءات؛ وكنت أتساءل طوال الوقت ترى ماذا يفعل الطبيب مع مستر كينير.

دخلا كلاهما إلى مكتب مستر كينير الصغير، وأغلقا الباب؛ وبعد أن فكرت لحظة، ذهبت بهدوء إلى المكتبة الملاصقة لإزالة الأتربة عن الكتب؛ لكنى لم أكن قادرة على سماع أى شىء من داخل المكتب، اللهم إلا بعض الهمهمة.

مر بخيالى كل شىء ممكن، كأن يكون مستر كينير يسعل دمًا وأنه يلهث بشدة، وكنت أحاول أن أشغل نفسى بالعمل وأنا فى حالة من التوتر والقلق عليه. ولذلك عندما سمعت أُكرة باب المكتب تدور ذهبت بسرعة من غرفة الطعام إلى الردهة الأمامية وأنا أحمل المنفضة وقماش التنظيف، فمن الأفضل دائمًا أن يعرف المرء أسوأ الأشياء. رافق مستر كينير الطبيب إلى المدخل الأمامى، وقال الطبيب أنه متأكد أنهم سيحظون

بمتعة صحبة مستر كينير سنوات كثيرة قادمة، وأن مستر كينير كان يقرأ كثيرًا من المجلات الطبية، مما أوحى له بأفكار غير صحيحة، وجعله يتخيل أشياء، وأنه ليس ثمة شيء فى صحته لا يشفى بمجرد نظام غذائى وتنظيم ساعات اليوم؛ ولكنه يرجوه، من أجل سلامة كبده، أن يقلل من شرب الكحوليات. هذا الكلام أشعرنى بالارتياح، لكننى فكرت أنه كلام يمكن أن يقوله الطبيب لشخص يموت، لمجرد أن يريحه ويعفيه من القلق.

نظرت بحذر من النافذة الجانبية إلى خارج الردهة. ذهب د. ريد إلى عربته وحصانه، وبعد ذلك مباشرة رأيت نانسى فجأة، وقد لفت نفسها بشال وشعرها نصف مسدل، تتحدث معه. ولابد أنها تسللت على السلم إلى أسفل دون أن أسمعها، وهذا معناه أنها أرادت ألا يسمعها مستر كينير أيضًا. وفكرت أنها ربما كانت تحاول معرفة ما الذى يعانى منه مستر كينير، إذا كان يعانى من أى شيء، لكن حينئذ خطر ببالى إنها قد تكون هى نفسها تستشير الطبيب أيضًا فى مرضها المفاجئ.

رحل د. ريد فى عربته، واستدارت نانسى نحو خلفية البيت. وسمعت مستر كينير يناديها من المكتبة؛ ولأنها كانت لا تزال بالخارج، وربما لم تكن تريد أن يعرف أحد ماذا تفعل، ذهبت إليه بنفسى. ولم يكن يبدو على مستر كينير أنه فى حالة أسوأ من المعتاد، وكان يقرأ فى نسخة من المجلة الطبية "المبضع"، من الكومة الكبيرة المرصوصة منها على أحد الأرفف. كنت أنا نفسى أحيانًا أحدق فى هذه المجلات أثناء تنظيف الغرفة، ولكنى لم أفهم أى شيء من الكثير الذى تمتلئ به، إلا أن بعض ما فيها كان حول وظائف جسدية لا يجب وضعها فى مجلة أو طباعتها، حتى مع كل هذه الأسماء العجيبة.

قال مستر كينير: حسنًا يا جريس، أين سيدتك؟

قلت أنها لم تكن فى حالة طيبة، وأنها راقدة فى الطابق العلوى، وإذا كان يرغب فى أن أحضر له شيئًا فسأفعل ذلك بنفسى. قال أنه يريد بعض القهوة، إذ لم يكن فى ذلك مشقة كبيرة. قلت أنه لا توجد أية مشقة، ولكن الأمر قد يستغرق بعض الوقت لأننى قد أحتاج إلى إيقاد النار من جديد؛ فقال أن أحضرها له عندما أنتهى من إعدادها، وشكرنى كما يفعل دائمًا.

ذهبت إلى المطبخ الصيفى عبر الفناء. وكانت نانسى هناك، جالسة إلى المنضدة وتبدو تعبة وحزينة وشديدة الشحوب. قلت أننى أرجو أن تكون أفضل الآن، فقالت إنها كذلك، وسألتنى ماذا أفعل، وكنت أحرك النار التى كادت تخبو تمامًا، فقلت إن مستر كينير يريدنى أن أصنع له بعض القهوة، وأن آتيه بها.

قالت نانسى: لكننى أنا التى آخذ القهوة إليه دائمًا، فلماذا طلب ذلك منك؟

قلت أننى متأكدة أن ذلك كان بسبب أنها لم تكن موجودة. وأننى كنت فقط أحاول أن أعفيها من العمل، لمعرفتى بأنها مريضة.

قالت: سآخذها إليه. وأريدك يا جريس فى هذا المساء أن تدعكى هذه الأرضية. إنها شديدة القذارة، وقد تعبت من الحياة فى زريبة خنازير.

ولا أظن أن قذارة الأرض كان لها صلة بأى شىء، لكنها كانت تعاقبنى، لدخولى إلى مكتب مستر كينير بنفسى؛ وكان هذا ظلمًا كبيرًا، لأننى ما كنت إلا أحاول مساعدتها.

رغم أن ذلك اليوم بدأ جميلاً وصافيًا، إلا أنه ما أن أقبل الظهر حتى تحول إلى يوم كئيب ثقيل الوطأة. لم تكن ثمة نسمة تتحرك، وكان الهواء رطبًا، واختفت السماء خلف سحب رمادية مصفرة بطيئة الحركة، ولكنها مضيئة من الخلف، مثل المعدن المحمى، وكان لها مظهر عقيم منذر بالشر. وفى مثل هذا الجو غالبًا ما يصبح مجرد التنفس صعبًا. ورغم ذلك، ففي العصر، لو سار كل شيء كالمعتاد، لكنت أجلس ربما بالخارج آخذ نفسًا من الهواء، وأنا أعكف على إصلاح الثياب، لأعطي قدميّ بعض الراحة من الوقوف عليهما أغلب الوقت كل يوم. ولكننى، بدلاً من ذلك، كنت على ركبتى، أدعك الأرض الحجرية فى المطبخ الصيفى. كانت الأرض بحاجة للتنظيف بالفعل، لكننى كنت أرجئها إلى يوم أكثر اعتدالاً، فقد كان الحر كافيًا لقلى البيض؛ وكان العرق يتصبب منى مثلما يتصبب الماء من البطة، ومعذرة يا سيدى إذ أستخدم هذا الوصف. كنت قلقة على اللحم فى خزانته فى غرفة الخزين، فقد كان هناك ذباب أكثر من المعتاد يطن حولها. وإذا كنت مكان نانسى ما كنت طلبت كل هذا القدر من اللحم فى مثل هذا الجو الحار، فمن المؤكد أنه سيفسد، ويعتبر هذا تبديدًا وعيبًا كبيرًا؛ وكان يجب وضعه فى القبو، حيث البرودة. لكنى كنت أعرف أن لا فائدة من أية اقتراحات أقولها لها، لأننى لن أخرج من ذلك إلا بوجع الدماغ.

كانت الأرض فى قذارة الإسطبل، وساءلت نفسى متى تم تنظيفها بشكل جيد لآخر مرة. وقد كنستها أولا طبعًا، والآن كنت أغسلها بالطريقة السليمة، وأنا أرجع بكل ركبة على قطعة قماش قديمة لحمايتها من صلابة الحجر وخشونته، وكنت قد خلعت حذائى وجوربى، لأنه إذا أردت أن تؤدى العمل جيدًا يجب أن تنصرف كلك إليه، وقد طويت كميّ ردائى فوق

الكوعين، وشددت تنورتى وملابسى الداخلية بين ساقى وعلقتها بحزام مريلتى، وهو ما قد تفعله أنت نفسك يا سيدى لتنقذ جوربيك وثيابك كما يعلم أى شخص حاول أن يدعك أرضية. كان لدى فرشاة خشنة جيدة للدعك وقطعة قماش قديمة للمسح، وبدأت العمل من الركن البعيد، متحركة إلى الخلف نحو الباب، فلن تريد أن تحبس نفسك فى أحد الأركان، يا سيدى، عندما تقوم بأداء مثل هذه المهمة.

وسمعت شخصًا يدخل المطبخ من خلفى. فقد كنت تركت الباب مفتوحًا ليدخل أى هواء قد يكون هناك، وبذلك تجف الأرضية أسرع. وفكرت أنه لابد أن يكون مكدرموت.

قلت له وأنا مستمرة فى الدعك: لا تدخل فوق أرضيتى النظيفة بحذائك الملوث بالروث.

لم يرد، لكنه أيضًا لم يذهب. بل ظل واقفًا فى مدخل الباب. وطرأ بذهنى أنه واقف يراقب ساقىّ وكوعىّ العارية، بما هى فيه من القذارة، وإذا غفرت لى يا سيدى، يراقب مؤخرتى وهى تتحرك أمامًا وخلفًا مع قيامى بدعك الأرضية، مثل كلب يهز ذيله.

قلت له: أليس لديك ما تفعله أفضل من ذلك. إنك لا تأخذ أجرًا لتقف هناك متثائبًا. وأدرت رأسى لأنظر إليه من فوق كتفى. لم يكن مكدرموت على الإطلاق، وإنما مستر كينير بنفسه، وعلى وجهه بسمة وكأنه يظن أنها نكتة جيدة. قفزت واقفة، وأنا أشد تنورتى لأنزلها بيد واحدة، والفرشاة بيدى الأخرى، والماء القذر يقطر منها على ثوبى.

قلت: يا إلهى، إننى آسفة يا سيدى، لكننى ساءلت نفسى لماذا لم يتصرف بشكل لائق ويقول من هو؟

قال: لا عليك، "فحتى القطة يمكن أن تنظر إلى الملكة"، وفى تلك اللحظة دخلت نانسى من الباب، ووجهها شاحب كالطباشير، وقد ظهر لون قاتم حول أنفها، لكن عينيها كانتا حادتين كالإبر.

"ما الأمر؟ ماذا تفعلين هنا؟" قالت ذلك لى، لكنها كانت تقصده هو.

قلت: "أدعك الأرضية يا سيدتى، كما أمرتنى أن أفعل". وفكرت: كيف يبدو الأمر لها، هل ترانى أرقص؟

قالت نانسى: "أنت تردين علىّ، لقد سئمت وقاحتك". ولكنى لم أكن وقحة، فلم أفعل إلا أن أجبت سؤالها.

قال مستر كينير وكأنه يعتذر ــ ولكن ماذا فعل ليعتذر عنه؟ ــ قال: كل ما أردت هو كوب آخر من القهوة.

قالت نانسى: سأصنعه لك، جريس، يمكنك الذهاب.

قلت: أذهب إلى أين يا سيدتى، ولم أنجز إلا نصف الأرضية!.

قالت نانسى: إلى أى مكان، اخرجى من هنا. كانت فى غاية الغضب منى، وأضافت: وبحق الله لمِّى شعرك، فشكلك مثل الكلبة السائمة.

قال مستر كينير: سأكون فى المكتبة، وذهب.

أخذت تنخس النار فى الموقد وكأنها تطعنها بسيف. وقالت لى: اغلقى فمك، وإلا امتلأ بالذباب. وعليك أن تصمتى تمامًا فى المستقبل، إذا كنت تعرفين مصلحتك.

فكرت أن أرميها بفرشاة الأرضية، والدلو أيضًا، لتنال عقابًا مناسبًا، والماء القذر وكل شيء، وتصورتها واقفة هناك وشعرها يتدلى مبللاً بالماء القذر على وجهها، كشخص غارق.

ولكن فجأة ظهر لى بوضوح ما هى مشكلتها، لقد رأيت هذا مرات كافية من قبل. أكل أطعمة غريبة فى أوقات غير مناسبة، الدوخة والاخضرار حول الفم، الطريقة التى يزداد بها وزنها، مثلما ينتفخ الزبيب فى الماء الساخن، وتوترها وسخطها. كانت فى حالة حرجة. كانت فى طريقها لإنجاب طفل، كانت فى ورطة.

وقفت هناك أحدق فيها، وكأن شخصًا ركلنى فى بطنى. وفكرت، يا إلهى، لا، يا إلهى، لا. وشعرت بقلبى يدق بشدة كالمطرقة. لا يمكن هذا.

فى تلك الليلة كان مستر كينير فى البيت، وتناول عشاءه مع نانسى فى غرفة الطعام، وحملته إليهما بنفسى. نظرت إلى وجهه أستطلعه، أحاول البحث عن أى وعى أو معرفة بحالة نانسى، لكنه لم يكن يعرف. وتساءلت ترى ماذا سيفعل إذا اكتشف؟ هل يركلها إلى أقرب مصرف قاذورات؟ هل يتزوجها؟ لم تكن لدى أية فكرة، ولم أشعر بأى راحة لأى من الفكرتين عن مستقبل هذا المكان. كنت أتمنى ألا تصاب نانسى بأذى، ولم أكن أريد لها أن تلقى فى الطريق، شريدة فى الطرقات وفريسة للأنذال المتشردين، لكن فى نفس الوقت أيكون من العدل والإنصاف أن ينتهى بها الحال إلى أن تكون سيدة محترمة متزوجة ويوضع الخاتم فى إصبعها، وفوق ذلك أن تصبح ثرية أيضًا! أيكون هذا صوابًا؟! لقد فعلت مارى هويتنى نفس ما فعلته، ولم يكن نصيبها إلا الموت. فلماذا تكافأ واحدة وتعاقب أخرى على ارتكاب نفس الإثم؟

بعد أن خرجا إلى الردهة أخليت السفرة كالعـادة. وفـي ذلـك الوقت، كان الجو قد أصبح في مثل حرارة الفـرن، والسـحب الرماديـة تحجب الضوء، رغم أن الغروب لم يحن بعد، وأصبح الهواء ثقيلاً كهـواء القبور، لا ريح فيه، ولكن البرق الساخن كان يضطرم في الأفـق ويعقبـه صوت رعد ضعيف متردد. وعندما يكون الجو هكذا يمكنك أن تسمع دقات قلبك؛ كما لو كنت مختبئا وتنتظر شخصًا أن يأتي ويجدك، ولا تعرف من يكون هذا الشخص. أشعلت قنديلاً لأرى على ضـوئه عشـائي، والـذى تناولته مع مكدرموت، كان روست بقر بارد، فلم أستطع أن أتحمل طـبخ شيء ساخن لنا. وأكلناه في المطبخ الشتوى، وشربنا بيرة معـه، وبعـض الخبز الذى كان لا يزال طازجًا وجميلاً جدًا، مع شريحة أو اثنتـين مـن الجبن. ثم غسلت أواني العشاء وجففتها ووضعتها في أماكنها.

كان مكدرموت ينظف الأحذية؛ وأثناء العشاء كان متجهمًا وقـال لماذا لا نتناول عشاء مطبوخا لائقًا، مثل شرائح اللحم بالبسلة التـي أكـل منها الآخرون، قلت له أن البسلة الجديدة لا تزال قليلة على الشـجيرات، وعليه أن يعرف من له الأولوية الأولى، فلم يكن الموجود يكفي إلا اثنين؛ وعلى أية حال فإنني كنت خادمة مستر كينير لا خادمته، فقال أنني لو كنت خادمته لما بقيت طويلاً بالخدمة، حيث أنني ساحرة غبية عصبية، وعلاجي الوحيد هو اللسع بالحزام؛ فقلت إن الكلمات السيئة لا تفيد شيئًا.

وصلني صوت نانسي من الردهة، وعرفت أنها لابد تقرأ بصوت مرتفع. كانت تحب أن تفعل ذلك، فقد كانت تعتقد أنه دلالة علـى الرقـي؛ ولكنها كانت دائمًا تتظاهر بأن مستر كينير كان يطلب ذلك منها. كانا قـد تركا نافذة الردهة مفتوحة، رغم أن الحشرات الطائرة قـد تـدخل بهـذه الطريقة، ولذلك استطعت أن أسمعها.

أشعلت شمعة أخرى وقلت لمكدرموت أننى سأذهب للنوم، ولم يرد بأكثر من غمغمة، وأخذ قنديله وخرج. وبعد أن ذهب، فتحت باب الممر ونظرت عبره. كان ضوء المصباح الكروى الكبير يسقط من باب الردهة نصف المفتوح، مشكلاً رقعة من الضوء على أرضية الممر، وكان صوت نانسى يأتى إلى الصالة أيضًا.

سرت بهدوء فى الممشى، تاركة شمعتى على منضدة المطبخ، ووقفت أستند إلى الجدار. كنت أريد أن أسمع القصة التى كانت تقرؤها. كانت تقرأ من قصة "سيدة البحيرة"، التى قرأتها أنا ومارى هويتنى سويًّا ذات مرة، وأحزننى أن أستعيدها. كانت نانسى تقرأ بشكل معقول، رغم أنها بطيئة نوعًا، وتتعثر أحيانًا فى كلمة أو أخرى.

كانت المرأة المجنونة المسكينة قد أصيبت خطأ بالطلق النارى لتوها، وتموت، بينما تتلو عدة أسطر من الشعر؛ وفكرت أنه جزء فى غاية الكآبة؛ لكن مستر كينير لم ير ذلك، لأنه قال أنه من المدهش أن يستطيع أى إنسان أن يتحرك بوصة واحدة فى مثل تلك الطبيعة الرومانتيكية فى إسكتلنده، دون أن يقابل امرأة مجنونة، فقد كانت النساء المجنونات يقفزن أمام السهام والطلقات التى لم تكن موجهة نحوهن، والتى لم يكن لها إلا فضل وضع نهاية لمشاجراتهن وتعاستهن؛ وإلا لألقين بأنفسهن باستمرار فى المحيط، وربما كان من الممكن أن يحدث ذلك بمعدل يصل إلى إغلاق البحر لكثرة أجسادهن الغارقة التى ستصبح عائقًا خطيرًا أمام السفن. وحينئذ قالت نانسى أنه لا يتمتع بمشاعر طيبة؛ وقال مستر كينير إن ذلك غير صحيح، ولكن من المعروف جيدًا أن سير والتر سكوت قد وضع جثثًا كثيرة فى كتبه من أجل خاطر السيدات، لأن السيدات مغرمات بالدم، ولا شيء يشعرهن بالسعادة مثل جثة تتهاوى.

قالت نانسى له بمرح أن عليه أن يسكت ويحسن من سلوكه، وإلا فسوف تعاقبه وتتوقف عن القراءة، وتلعب على البيانو بـــدلاً مـــن ذلـــك، وضحك مستر كينير وقال أنه مستعد لتحمل أى نوع من التعذيب إلا هـــذا. وسمعت صوت صفعة خافتة، وخشخشة ثياب، وقلت لابد أنها جالسة على ركبتيه. وساد الهدوء بعض الوقت، حتى سأل مستر كينير نانسى هل بلعت القطة لسانها فلم تعد تستطيع الكلام؟ ولماذا استغرقت فى التفكير هكذا؟

انحنيت إلى الأمام، فقد ظننت أنها على وشك أن تخبره بحالتهـــا، وحينئذ سأعرف كيف تسير الأمور؛ لكنها لم تفعل. وبدلاً من ذلك قالت له أنها تشعر بالقلق بسبب الخدم.

أى من الخدم؟ كان مستر كينير يريد أن يعرف، فقالت نانســـى: الاثنان، وضحك مستر كينير وقال طبعًا، هناك ثلاثة من الخدم فى البيت، لا اثنان، لأنها هى نفسها خادمة، وقالت نانسى إنه لطيف منه أن يـــذكرها بذلك، وأنها يجب أن تتركه الآن لأن لديها واجباتها فى المطبخ والتى يجب أن تقوم بها، وسمعت صوت الخشخشة مرة أخرى، وصوت مقاومة أيضًا، وكأنما كانت تحاول القيام. ضحك مستر كينير ثانية وقال أنه يجب عليهـــا أن تبقى حيث هى، وأن هذا أمر سيدها، قالت نانسى بمرارة إنها ســـتقوم بما يفترض أنه يدفع لها أجرها من أجله، فأخذ يسترضيها ويهدئها، وسألها ما الذى يقلقها من أمر الخدم، قال: هل العمل يُنجـــز؟ هـــذا هـــو الأمـــر الأساسى، وأنه لا يهتم من ينظف له حذاءه ما دام يجده نظيفًا، وأنه يـــدفع أجورًا طيبة ويتوقع أن يلقى تقديرًا مقابل نقوده.

قالت نانسى: نعم، العمل يُنجز، ولكن فى حالة مكدرموت لا ينجز العمل إلا لأنها تقف على رأسه بكرباج، وأنه عندما وبخته علـــى كســـله

تحدث معها بوقاحة، وقد أعطته مذكرة بإنهاء خدمته. فقال إنه بكل تأكيد وغد قبيح، وإنه لم يعجبه أبدًا، ثم قال: وماذا عن جريس. وأرهفت أذني، فالأفضل أن أسمع ما سوف تقول نانسى.

قالت أننى دقيقة وسريعة فى عملى، ولكننى أصبحت كثيرة الشجار أخيرًا، وأنها تفكر فى إنهاء خدمتى، وعندما سمعت هذا شعرت بحرارة عنيفة تندفع إلى وجهى. ثم قالت أن هناك شيئًا بالنسبة لى يجعلها تشعر بالقلق، وأنها تتساءل إذا ما كنت فى تمام العقل حيث إنها سمعتنى مرات عديدة أكلم نفسى بصوت مرتفع.

ضحك مستر كينير، وقال أن هذا لا شىء، وأنه هو نفسه كثيرًا ما يتحدث إلى نفسه، فهو أفضل متحدث يعرفه. وأننى كنت بلا شك فتاة جذابة، وأن لى سيماء طبيعية مهذبة، وبروفيل إغريقى نقى، وأنه إذا ألبسنى ثيابًا مناسبة وطلب منى أن أرفع رأسى وأن أغلق فمى، يمكن أن يظننى الناس سيدة من علية القوم.

قالت نانسى أنها تتمنى بالتأكيد ألا يذكر أبدًا أيًّا من هذا الإطراء لى، فقد يدير رأسى بمثل هذا الكلام، ويوحى لى بأفكار فوق مكانتى، ولن يكون هذا فى صالحى. ثم قالت أنه لم يرَ أبدًا مثل هذه الأشياء اللطيفة فيها؛ وقال هو شيئًا لم أستطع سماعه، وساد مزيد من الصمت ومزيد من الخشخشة. ثم قال مستر كينير إن الوقت قد حان للذهاب إلى الفراش. فأسرعت عائدة إلى المطبخ، وجلست إلى المنضدة؛ فلم يكن خيرًا أن تمسك بى نانسى أتنصت عليهما.

لكننى عدت أتنصت بعد ذلك، بمجرد أن صعدا إلى أعلى، وسمعت مستر كينير يقول أعرف أنك مختبئة، اخرجى الآن حالاً

أيتها الفتاة القذرة، افعلى ما أقول لك، وإلا سأضطر إلى إمساكك، وإذا أمسكتك ...

ثم ضحكة من نانسى، ثم صرخة خافتة.

كان الرعد يقترب. لطالما كرهت العواصف الرعدية، وكنت أكرهها حينئذ. عندما ذهبت إلى الفراش، أغلقت المصاريع جيدًا حتى لا يستطيع أى رعد أن يصل إلىّ، وشددت الغطاء فوق رأسى، رغم الحر الشديد، وفكرت أننى لن أتمكن من النوم أبدًا. لكننى نمت، وأيقظنى هزيم رعد هائل فى الظلام الحالك، وكأن نهاية العالم قد حانت. كانت عاصفة عنيفة تصطخب بأصوات طبول وزئير، وانتابنى رعب شديد، وانكمشت فى فراشى أدعو الله أن تمر العاصفة، وأنا أغلق عينىّ حتى لا أرى ومضات البرق التى كانت تدخل من الشقوق الموجودة فى الشباك. كان المطر ينهمر كوابل، والبيت يهتز بفعل الريح مثل أسنان تصرّ، وفى كل دقيقة كان يملؤنى الاعتقاد أنه سينقسم نصفين مثل سفينة فى البحر، ويغوص فى الأرض. وحينئذ، بجوار أذنى مباشرة، سمعت صوتًا يهمس: هذا لا يمكن أن يحدث. ولابد أننى أحسست برعب شديد حتى أصبت بالإغماء، فبعد ذلك فقدت الوعى نهائيًا.

ثم رأيت حلمًا شديد الغرابة. حلمت بأن كل شىء ساده الهدوء ثانية، وأننى قمت من فراشى فى قميص النوم، وفتحت رتاج غرفة نومى، وسرت على أرضية المطبخ الشتوى بقدمين حافيتين، وخرجت إلى الفناء. كانت السحب قد انقشعت، والقمر مشرقًا وضاءً، وبدت أوراق الأشجار كريش فضى ناعم؛ وأصبح الهواء أكثر برودة، وبه ملمس ناعم كملمس القطيفة، وانساب صرير الجنادب. كان يمكننى أن أشم رائحة الحديقة

المبللة، والرائحة النافذة لحظيرة الدجاج؛ كما كان يمكنني سماع صهيل تشارلي يأتي ناعمًا من الإسطبل، وهو ما يعني أنه كان يعرف بوجود أحد قريبًا منه. وقفت هناك في الفناء بالقرب من الطلمبة، وضوء القمر يغمرني كالماء؛ وبدا كما لو أنني لا أستطيع الحركة.

ثم انسرقت ذراعان والتفتا حولي من الخلف، وبدأتا تهدهدانني. كانا ذراعي رجل؛ وأحسست بملمس فم هذا الرجل على رقبتي وخدي، يقبلني بحرارة، وجسده يضغط على ظهري؛ وكأنما كنت ألعب "سلطح"، التي يلعبها الأطفال، لم أكن أستطيع تخمين من ذلك، ولا أستطيع أن ألتفت وأنظر. وشعرت برائحة غبار الطريق ورائحة جلدية، وفكرت أنه قد يكون جيرميا البائع المتجول؛ ثم تغيرت إلى رائحة روث الحصان، ومن ثم فكرت أنه مكدرموت. ولكنني لم أستطع أن أنتزع نفسي لأدفعه عني. ثم تغيرت الرائحة مرة أخرى، وشممت عبير التمباك، ورائحة صابون الحلاقة الجيد الخاص بمستر كينير، ولم يدهشني ذلك، فقد كنت أتوقع منه شيئًا من هذا القبيل، وطوال هذا الوقت كان فم الرجل الذي لا أعرفه فوق رقبتي، وكنت أشعر بأنفاسه تحرك شعري. ثم شعرت أنه لم يكن أيًا من هؤلاء الثلاثة، وإنما رجل آخر، شخص عرفته جيدًا، وألفته طويلاً، ربما حتى منذ طفولتي، لكنني نسيته زمنًا طويلاً؛ كما أن هذه لم تكن هي المرّة الأولى التي أجد فيها نفسي معه في هذه الحالة. شعرت بدفء ونعاس واهن يتسلل ليغطيني، ويحثني على الاستسلام، وأن أسلم نفسي؛ فهذا أسهل كثيرًا من المقاومة.

ولكن في هذه اللحظة سمعت صهيل جواد؛ وخطر لي أنه لم يكن صوت تشارلي، ولا صوت المهر الذي في الحظيرة، ولكنه حصان مختلف تمامًا. وغشيني خوف عظيم، وشعرت ببرد شديد يسري في جسدي،

ووقفت وكأنما شلنى الخوف؛ فقد عرفت أن هذا الجواد لم يكن جوادا أرضيًّا؛ بل ذلك الحصان الشاحب الذى سوف يأتى فى يوم الحساب، والفارس الذى يمتطيه هو الموت؛ وكان الموت نفسه هو الواقف خلفى وذراعاه يلتفان حولى بإحكام كرباطين من الحديد، وفمه الخالى من الشفاه يقبل عنقى وكأنما فى حالة حب. ولكن كما فى حالة الرعب، شعرت أيضًا بتوق غريب.

فى هذه اللحظة، أشرقت الشمس، ليس بالتدريج كما يحدث ونحن فى اليقظة يا سيدى، ولكن فجأة، وبضوء عظيم باهر. لو كان لها صوت لكان انطلاق أصوات عدد هائل من آلات الترومبيت؛ وذاب الذراعان اللذان كانا يطوقاننى. وشعرت بدوخة من البريق؛ ولكن عندما نظرت إلى أعلى، رأيت على الأشجار بجوار البيت، وكذلك على أشجار الحديقة، عددًا من الطيور الجاثمة، طيور ضخمة وبيضاء كالثلج. كان مشهدًا منذرًا بالسوء والشؤم، فقد بدت هذه الطيور جاثمة ومستعدة للانقضاض والتدمير؛ وعلى هذه الهيئة كانت أشبه بتجمع من الغربان، لكنها غربان بيضاء. ولكن عندما انجلى بصرى وأصبح المشهد صافيًا، رأيت أنها لم تكن طيورًا على الإطلاق، بل كان لها هيئة بشرية، وكانت هى الملائكة المتسربلة بثياب مغموسة بدم(*)، كما جاء فى آخر الإنجيل؛ وكانت تجلس صامتة كما لو أنها فى محكمة معقودة للحكم على بيت مستر كينير، وعلى كل ما بداخله. ثم حينئذ رأيت أنها كانت بلا رءوس.

(*) "ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض الجالس عليه يدعى أمينًا وصادقًا وبالعدل يحكم ويحارب" [....] "وهو متسربل بثوب مغموس بدم"، رؤيا يوحنا اللاهوتى، ١٩:١١-١٣.

وفى داخل الحلم، فقدت الوعى بعد ذلك من شدة الرعب، وعندما ثبت إلى رشدى، وجدت نفسى فى فراشى، فى غرفتى الصغيرة، والغطاء مسحوب حتى أذنى. ولكن عندما صحوت ــ وقد كان الفجر لا يــزال ــ وجدت طرف قميص نومى مبللاً، وعلـــى قــدمى كانــت آثــار الأرض والحشائش؛ وفكرت أننى لابد كنت أتجول فى نــومى بالخـــارج دون أن أشعر، كما حدث لى مرة من قبل، يوم ماتت مارى هويتنى؛ وغاص قلبى فى جوانبى.

وقمت أرتدى ثيابى كالمعتاد، وأنا أقسم أن أحتفظ بحلمى لنفسى، فمن هناك يمكن أن أثق به فى هذا البيت؟ فإذا حكيته كنوع من التحـــذير مما يوحى به الحلم، لضحكوا علىّ. ولكن، عندما خرجت لأملأ أول دلـــو من الماء، فوجئت بالثياب التى غسلتها فى اليوم السابق وقد دفعتها الرياح على الأشجار نتيجة العاصفة فى الليلة الماضية. كنت قد نسيت أن أدخلها؛ ولم يكن من عادتى إطلاقًا أن أنسى شيئًا كهذا، خاصة غســـيلاً أبــيض، وهو الذى عملت فيه كثيرًا لتنظيفه من البقع، وكان هذا سببًا آخـــر ينـــذر بالشؤم فى نظرى. كما أن ملابس النوم والقمصان التى التصقت بالأشجار كانت تبدو بالفعل كملائكة بلا رءوس؛ وكأنما كانت ثيابنا نفسها تجلس فى محكمة منعقدة فوق رءوسنا.

لم أستطع أن أتخلص من الشعور بأن قدرًا مشئومًا يحوم حــول البيت، وأن بعض من فيه قُدِّر عليهم الموت. ولو أعطيت لى فرصة حقيقية فى هذه اللحظة، لاخترت المخاطرة، وهربت مع چيرميا البائع المتجــول، والواقع أننى أردت أن أجرى خلفه، ويا ليتنى فعلت؛ ولكنى لم أكن أعرف أين ذهب.

يكتب د. چوردان بلهفة، وكأن يده تلاحق الكلمات بصعوبة شديدة، لم أره أبدًا يكتب بمثل هذه الحيوية والسرعة. والحق أن قلبى تغشاه راحة عندما أستطيع أن أدخل بعض البهجة إلى حياة إنسان؛ وأفكر فى نفسى ترى ماذا سيفعل بكل هذا.

الفصل التاسع

قلوب وأحشاء

أثنـــاء المساء دخل چيمى وولش، وجاء معه بالفلوت. قالت نانســـى: يمكن أن نستمتع ببعض اللهو. كان مستر كينير خـــارج البيـــــت. قالت نانــــسى لمكدرموت: "كنت تتشدق دائمًا حول مهارتـــك فـــى الرقص، تعال ولنرقـــص قليلاً"، لكنه كان شديد التجهم طوال المساء، وقال أنه لن يرقص. وفى حوالى الساعة العاشرة قمنا إلـــى النــــوم. ونمت فى تلـــك الليلة مع نانـــسى؛ قبل أن نقـــوم إلى النـــوم، قـــــال لـــى مكدرموت إنه ينوى قتلها فى تلك الليلة، بالفـــأس، وهـــى فـــى فراشها. توسلت إليه ألا يفعل ذلك الليلة، فـــقد يقتـــــلنى بدلاً منهـــا. قال "عليها اللعنـــة، إذن ســــــأقتلها أول شـــــىء فـــى الــــصباح". اســـتيقظت مبكرًا صباح الـــسبت، وعنـــدما دخـــلت إلـــى المــــطبخ كان مكـــدرموت ينـــظف الأحـــــذية، وكـــــانت الــــــنار موقـــــدة، ســـألنى أين نانـــسى، قـــلت أنـــها ترتـــدى ثيابـــها، وقـــلت: هـــل ســـتقتلها هذا الصباح؟ قال أنه سيفعل. قلت: مكدرموت، بحـــق الرب لا تقـــتلها فـــى الـــغرفة، فســـوف تمـــتلئ الأرض كلـــــها بالـــــدم. قـــــال حـــسنًا، لـــن أقـــتلها هناك، ولكنى سأضربها بالفأس بمجـــرد أن تخرج .

اعتراف جريس ماركس

Star and Transcript، تورنتو، نوفمبر ١٨٤٣

كان القبو يمثل مشهدًا بشعًا .. لم تكن نانسى مونتجومرى قد ماتت كما ظننت، فالضربة أفقدتها وعيها فقط. وقد استعادت بعض حواسها، وكانت راكعة على ركبة واحدة ونحن ننزل السلم بالضوء. لا أعرف إذا كانت رأتنا، فلابد أن الدم الذى كان يتدفق على وجهها قد أعمى عينيها؛ ولكن من المؤكد أنها سمعتنا، ورفعت يديها المتشابكتين وكأنما تطلب الرحمة.

التفت إلى جريس، كان التعبير على وجهها المزرق أسوأ حتى من ذلك البادى على وجه المرأة التعسة. ولم تنطق بصرخة واحدة، لكنها وضعت يدها على رأسها وقالت:

"لقد لعننى الرب بسبب هذا."

قلت لها: "إذن ليس لديك شىء آخر تخشين منه. اعطنى هذا المنديل من على رقبتك". أعطته لى دون كلمة. ألقيت نفسى على جسد مدبرة البيت، وارتكزت بركبتى على صدرها، وربطت المنديل حول رقبتها بعقدة واحدة، وأعطيت جريس أحد طرفى العقدة لتمسكه، بينما أخذت أشد الطرف الآخر بقوة لأنهى هذا العمل البشع. خرجت عيناها من رأسها بالفعل، وخرجت منها آهة واحدة، وانتهى كل شىء. ثم قطعت الجسد إلى أربعة أجزاء، وألقيت دلو ماء عليها.

چيمس مكدرموت،

إلى كينيث ماكنزي، كما روته سوزانا مودي،

***Life in the Clearings*، ١٨٥٣**

... إذن، موت امــرأة جميلـــة، هــو بـــلا شـــك، أكثـــر الموضوعات شاعرية فى العالم .....

إدجار آلان بو،

The Philosophy of Composition, 1846

ـ ٣٢ ـ

حلَّ الصيف بحرارته دون إنذار. وكان يومًا لا يزال ربيعيًّا باردًا، بأمطار غزيرة عاصفة وسحب باردة بيضاء بعيدة فوق الصفحة الزرقاء اللامعة للبحيرة؛ ثم فجأة ذبلت أزهار النرجس الصفراء، وانفجرت أزهار التيوليب متفتحة، وقد أخرجت داخلها إلى الخارج وكأنها تتثاءب، ثم سقطت بتلاتها وارتفعت أبخرة البالوعات من الأفنية الخلفية والميازيب، وتكثف ضباب من الناموس حول رأس كل سائر. وفى الظهيرة كان الهواء يومض كما يحدث فى المسافة التى تعلو صفيحة ملتهبة، والبحيرة تسطع وتبعث أطرافها بروائح عفنة خفيفة متصاعدة من السمك الميت وبيض الضفادع. وفى الليل، يُحاصَر مصباح سايمون بالفراشات الليلية التى ترفّ حوله، بأجنحة ناعمة الملمس مثل لمسات شفاه حريرية.

أصابه الدوار بسبب هذا التغيير. فحياته فى فصول السنة الأوروبية التى تتغير بشكل أكثر تدريجية أنساه هذه التغيرات الحادة. ملابسه ثقيلة كالفراء، وبشرته تبدو دائمًا رطبة. ويشعر بانطباع أن رائحته تبدو كرائحة دهن الخنزير واللبن الحامض؛ أو ربما غرفة نومه هى التى تنبعث منها هذه الرائحة. فهى لم تنظف تنظيفًا جيدًا منذ فترة طويلة جدًّا، ولا تم تغيير الملاءات: فرغم أن مسز همفرى تسهب فى سرد تفاصيل جهودها له بعبارات فى طول هذه السطور كل صباح، إلا أنه لم يتم العثور

على خادمة تقوم بكل المهام. ووفقًا لما تقول، فإن الخادمة التـــى تركتهـــا، دورا، كانت تنشر قصصًا فى كل مكان من المدينة ــ على الأقل بين كـــل الخادمات اللاتى يحتمل استخدام إحداهن ــ تتعلق بأن مسز همفرى لم تدفع لها أجرها، وكادت أن تخرج من الأمر برمته على حكاية أنـــه لا توجـــد نقود؛ وبأن الميجور هرب، وهو أمر أكثر مدعاة للخزى. وهكـــذا، فإنهـــا تقول لسايمون أنه من البديهى أن الخادمات لا يرغبن فى تجربة فرصـــة العمل فى مثل هذا البيت. وتبتسم ابتسامة تدعو إلى الرثاء.

وهى تطبخ الإفطار بنفسها، والذى لا يزالان يتناولانه سويًا على مائدتها ــ وكان هذا اقتراحها الذى وافق عليه سايمون، فسوف يكون مـــن المهين لها أن تحمل الصينية إلى الطابق الأعلى. واليوم، يستمع ســـايمون إليها شاردًا مكفهر الوجه، وهو يعبث بشريحته من الخبز الرطب، والبيضة التى يأخذها الآن مقلية، فالبيضة المقلية، على الأقل، صريحة ولا تحمـــل مفاجآت.

الإفطار هو كل ما تقدر على عمله، فهى معرضة لنوبـــات مـــن الانهيار العصبى والصداع، نتيجة رد فعل الصدمة ــ أو هكذا يفتـــرض، وقد أخبرها به ــ وفى فترة بعد الظهر تكون دائمًا ممددة فى فراشها، وقد وضعت على جبهتها قطعة قماش مبللة تفوح منها رائحـــة قويـــة لزيـــت الكافور. وليس بمقدوره أن يتركها تموت جوعًا، ولذا فرغم أنه فى معظـــم الأحيان يتناول غداءه فى ذلك الفندق الحقير، إلا أنه يحاول إطعامها مـــن وقت لآخر.

بالأمس اشترى دجاجة من عجوز شمطاء فى السوق، يبدو عليها الحقد، ولكنه لم يكتشف إلا بعد أن جاء بها إلى البيت أنها رغـــم اقـــتلاع

ريشها لم يتم تنظيفها من الداخل. ولم يستطع مواجهة المهمة – فلم يحدث أن قام بتنظيف دجاجة قبل ذلك في حياته – وفكر في التخلص من جثة الطائر. تمشية على شاطئ البحيرة، وأرجحة جيدة من الذراع ... ولكنه تذكر حينئذ أن المسألة لا تزيد كثيرًا على مهمة التشريح على أية حال، وأنه قام بتشريح ما هو أسوأ من الدجاج، وبمجرد أن يمسك مشرطه في يده – فهو يحتفظ بأدوات مهنته السابقة معه، في حقيبتها الجلدية – سوف يكون على ما يرام مرة أخرى، ويقوم بجراحة دقيقة. وبعد ذلك ساءت الأمور، لكنه استطاع أن ينجزها على الوجه الصحيح بحبس أنفاسه. وقطع الدجاجة إلى أجزاء وطبخها مقلية. جاءت مسز همفرى إلى المائدة وهي تقول أنها تشعر بتحسن، وأكلت كمية منها تعتبر كبيرة بالنسبة لشخص بهذا الضعف؛ ولكن عندما حان الوقت لغسيل الأوانى، ألمّت بها انتكاسة، واضطر سايمون لأداء هذه المهمة أيضًا بنفسه.

المطبخ أكثر قذارة وامتلاءً بالدهون حتى من يوم دخله لأول مرة. تجمعت حلقات الأتربة تحت الموقد، والعناكب في الأركان، وفتات الخبز بجوار الحوض، وانتقلت عائلة من الخنافس لتسكن في دولاب الخزين. والأمر المثير للمخاوف هو أنه ما أسرع ما ينحدر المرء إلى حالة القذارة. لابد من فعل شيء سريع، الحصول على عبد ما أو خادم. فبالإضافة إلى القذارة، هناك مسألة المظاهر. فلا يمكن أن يستمر في الحياة وحده في هذا المنزل مع صاحبته، خاصة إن كانت مثل تلك المرأة المرتجفة، والتي هجرها زوجها. فإذا انتشر خبر بذلك وبدأ الناس يتكلمون – بصرف النظر عما وراء مثل هذا الكلام من حقائق – فإن سمعته وموقفه المهني قد يتأثران. وقد أوضح له فضيلة المبجل ڤرينجر أن أعداء

الإصلاحيين سوف يستخدمون أية وسائل، مهما كانت وضيعة، لهز الثقة في خصومهم، وفي حالة وجود فضيحة فإنه سوف يتم الاستغناء عنه فورًا.

يمكنه على الأقل أن يفعل شيئًا بالنسبة لحالة البيت إذا استطاع أن يستجمع إرادته. بضربة واحدة يمكنه كنس الأرضيات والسلم، وأن ينفض الغبار عن الأثاث في شقته، ولكن سيظل من غير الممكن إخفاء روائح قنبلة موقوتة من التحلل البطيء الكئيب، والذى تتسلل روائحه إلى أنفاسه من الستائر البالية، ويتراكم في الفرش والأثاث. وكان مقدم حرارة الصيف سببًا في ازدياد الأحوال سوءًا. ويتذكر في نوع من الحنين قعقعة المنفضة في يد دورا؛ لقد أصبح يكن احترامًا شديدًا لكل "دورا" في هذا العالم، ولكن رغم توقه إلى أن تجد كل مشاكل هذا البيت حلاً، لم تكن لديه أية فكرة عن كيفية تحقيق ذلك. وقد فكر مرة أو مرتين أن يسأل جريس النصيحة، ما هى الطريقة الصحيحة لاستئجار خادمة، كيف يمكن تنظيف الدجاج جيدًا ــ لكنه غيّر رأيه، فلابد أن يظل محتفظًا في نظرها بموقف الموثوق بأنه العارف بكل شيء.

مرة أخرى، تتحدث إليه مسز همفرى، كما هى عادتها، وهو يأكل الخبز، والموضوع هو عرفانها بفضله. تنتظر حتى يكون فمه مليئًا بالطعام، ثم تشن الهجوم. تتجول نظراته عليها في حيرة ــ وجهها البيضاوى الشاحب، شعرها المشدود الخالى من الحيوية، وسطها المطقطق الملفوف بالحزام الحريرى الأسود، أطراف ثوبها من الدانتيلا ذات الكسرات الحادة، لابد أن هناك ثديين من نوع ما تحت ثوبها المتيبس، وليس مجرد مشد مُنشًى، ثديان من اللحم الناعم، بحلمتين؛ ويجد نفسه يحاول بكسل أن يخمن لون هاتين الحلمتين، في ضوء الشمس أو في ضوء المصباح، وحجمهما. حلمتان ورديتان وصغيرتان كحلمات الحيوانات،

ربما حلمات أثداء الأرانب أو الفئران، أو ربما اللون الأقرب إلى الأحمر كلون العنب الناضج؛ أو اللون البنى القرمزى كلون قشرة جوزة البلوط. ويلاحظ أن تخيلاته تتواصل متصاعدة حتى تصل إلى تفصيلات الخشب فى الغابة البرية، والنتوءات الصلبة أو النافرة. والواقع أن هذه المرأة لا تتمتع بأية جاذبية بالنسبة له: لكن هذه الصور ترد إلى ذهنه دون استدعاء. يشعر بعينيه تعتصران — ليس الصداع بعد وإنما ضغط بطيء. ويسائل نفسه إن كان مقدمًا على حمى خفيفة؛ فى هذا الصباح فحص لسانه أمام المرآة بحثًا عن بياض أو بقعٍ ذات دلالة. فاللسان المريض يبدو مثل لحم العجل المسلوق: أبيض مائلاً للرمادى، ومغطى بالزبد.

الحياة التى يعيشها ليست صحية. إن والدته على حق، فلابد أن يتزوج. "لأن التزوج أصلح من التحرُّق"(*)، كما يقول بولس الرسول، أو ابحث عن العلاجات المعتادة. هناك بيوت سيئة السمعة فى كينجستون، كما فى كل مكان، لكنه لا يستطيع أن يستفيد من هذه البيوت كما يمكن أن يحدث فى لندن أو باريس. فالمدينة صغيرة جدًا، وهو لافت للنظر جدًا، ووضعه حرج جدًا، وزوجة المحافظ نقية جدًا، وأعداء الإصلاح منتشرون فى كل مكان — جدًا. المسألة لا تستحق المخاطرة، خاصة وأن هذه البيوت لابد أن تكون مثيرة للكآبة: حالة من الزيف المحزن، مع أفكار ريفية عن الإغراء تبدو آثارها فى طرز الأثاث والفرش المثير للكآبة. إفراط فى القماش المقصّب والشراريب. ولكنها أيضًا تتعامل بطريقة نفعية بالغة — إنها تجرى على مبدأ المدن الصناعية الأمريكية فى الإنتاج السريع، والتكريس لمبدأ أعظم سعادة لأكبر عدد ممكن من الناس، بصرف النظر

(*)رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ٩:٧.

عن كون هذه السعادة طفيفة للغاية، ومثيرة للاشمئزاز أيضًا. ملابس داخلية قذرة، ولحم العاهرات الذى لا يرى الشمس شاحب كرغيف لم يدخل الفرن بعد، وملطخ بأصابع البحارة الغليظة الملوثة بالقطران، وبأصابع أخرى أكثر أناقة، أصابع موظفى الهيئة التشريعية الحكومية الذين يمرون فى أسفارهم بالمدينة من حين لآخر، ويأتون ببلاهة وجبن مستخفين تحت أسماء مستعارة.

ولابد له أن يتجنب هذه الأماكن أيضًا، لأن مثل هذه التجارب تستنزف الطاقات العقلية.

تسأل مسز همفرى: "هل أنت مريض يا د. چوردان؟" وهى تناوله كوبًا آخر من الشاى صبته دون أن يطلب. عيناها ساكنتان بلا حركة، خضراوان، زرقاوان، حدقتاهما صغيرتان وسوداوان. يستيقظ فجأة، فهل كان نائما؟

تقول: "لقد كنت تضغط بيدك على جبهتك، هل تشعر بألم فيها؟"

لديها عادة الظهور الفجائى على بابه، وهو يحاول أن يركز فى عمله، لتسأله إن كان ثمة ما يحتاج إليه. فهى شديدة الجزع والتدقيق من ناحيته، ربما تكون حساسة تقريبًا، لكن ثمة شيئًا ما فيها يُشعر بالتذلل والانكماش، وكأنما تنتظر صفعة، أو ركلة، أو كفًا ثقيلة تطيح بها، وكأنها تعرف أن هذا قدر محتوم سيأتى إن عاجلاً أو آجلاً. ولكن ليس منه، ليس منه، يعترض فى صمت. إنه رجل معتدل الطباع، لم يكن ميالاً أبدًا إلى انفجارات الغضب، أو الاهتياج العنيف. لا توجد أية أخبار عن الميجور. يفكر فى قدميها الحافيتين النحيفتين كمحارتين، إنهما معرضتان للخدوش والجروح بلا حماية، مربوطتان معًا بـ ... ـ من أين أتته هذه الفكرة؟ ـ

قطعة عادية من القماش المجدول. كما لو كانتا طَردًا أو علبــة. إذا كــان حتمًا أن يتورط وعيه الباطنى فى مثل هذه الوقفات الغريبة، فعلــى هــذا الوعى أن يكون قادرًا على توفير سلسلة فضية على الأقل ...

يشرب الشاى، طعمه كطعم مياه المستنقع، طعم جذور الأعشــاب المائية المتشابكة والقاتمة. كان يشعر ببعض المشاكل المعويــة مــؤخرًا، وجعل يعطى نفسه جرعــات من اللــودانوم(*)، من حسن الحــظ أن معه ما يكفي. ويشعر بالارتياب فى المياه فى هذا البيت؛ ربمــا يكــون حفــره الأرض فى الفناء من حين لآخر قد عكر المياه فى البئر. انتهــت خطتــه لحديقة مطبخ إلى لا شىء، رغم أنه قلّب كمية لا بأس بها من الطمى. فبعد أن أصبح يقضى أيامه فى صراع مع الخيالات، يجد راحة غريبــة فــى وضع يديه فى شىء ملموس، مثل التربة. لكن الجو أصبح شديد الحــرارة على ذلك.

يقول: "لابد أن أذهب"، ويقف، وهو يدفع مقعــده إلــى الخلــف، ويمسح فمه بفظاظة، متظاهرًا بالاستعجال، رغم أنه فى الواقع ليس لديــه موعد حتى بعد الظهر. إلا أن يبقى فى غرفته، أن يحاول العمل؛ لكنه لــن يفعل إلا أن ينعس أمام مكتبه، مع إبقاء أذنيه مرهفتين، كقطة متكاسلة فــى انتظار صوت خطوات أقدام على السلم.

يخرج، ويتجول بشكل عشوائى. يشعر بجسده واهيا ككيس ملىء بالهواء، خاليًا من الإرادة. تجره قدماه إلى شاطئ البحيرة، يحدق بعينــين نصف مغمضتين فى ضوء الصباح الباهر، يمر هنا وهناك صيادو ســمك فرادى وهم يلقون بشباكهم إلى الأمواج المتراخية الكسلى.

(*) علاج مستخلص من الأفيون.

ما أن يكون مع جريس حتى تصبح الأشياء أفضل قليلاً، لا يزال بإمكانه أن يخدع نفسه بإنعاش إحساسه الخاص بالهدف. فجريس على الأقل تمثل بالنسبة له هدفًا أو إنجازًا. لكن الاستماع إلى صوتها الخافت الذى يحمل نبرة مفعمة بالصدق والبراءة ـ مثل صوت إحدى مربيات طفولته تروى قصة محببة ـ يجعله اليوم يكاد يقع نائمًا، ولا ينبهه سوى صوت قلمه يقع على الأرض. كان قد ظن للحظة أنه أصيب بالصمم، أو يعانى من ضربة حمى خفيفة، يمكنه أن يرى شفتيها تتحركان، لكنه لا يستطيع فهم أى من كلماتها. لكن هذه مجرد خدعة من العقل الواعى، لأنه يمكنه أن يتذكر ـ بمجرد أن يركز عقله على ذلك ـ كل شىء كانت تقوله.

على المنضدة بينهما توجد ثمرة لفت، وقد تجاهلها كلاهما حتى الآن.

لابد أن يركز قواه الفكرية؛ فهو لا يملك أن يتراخى أو يفتر الآن، ويستسلم للبلادة، ويفقد الخيط الذى ظل يتتبعه طوال الأسابيع الماضية، فأخيرًا ها هما يقتربان الآن معًا نحو مركز قصة جريس، يقتربان من اللغز القابع فى المنطقة الخالية، الموضع الممحو، يدخلان فى غابة الذاكرة المفقودة، حيث فقدت الأشياء أسماءها. وبعبارة أخرى، إنهما يستعيدان (يومًا بيوم وساعة بساعة) الأحداث التى سبقت جريمتى القتل مباشرة. أى شىء تقوله الآن قد يكون مفتاحًا، أى إيماءة، أى رعشة. إنها تعرف، هى تعرف. ربما لا تعرف أنها تعرف، لكن المعرفة موجودة، مدفونة فى أعماقها.

المشكلة أنها كلما تذكرت أكثر، كلما روت تفاصيل أكثر، وكلما وجد نفسه يعاني من صعوبات أكثر. ويبدو أنه لم يعد قادرًا على ملاحقة التفاصيل المتناثرة. وكأنها تسحب منه طاقته ــ مستخدمة نفس قواه العقلية لتجسيد الشخصيات في قصتها، كما قيل عن طريقة استخدام الوسطاء أثناء تنويمهم مغناطيسيًّا. هذا كلام فارغ، بالطبع. لابد أن يرفض إطلاق العنان لخيالات العقول المريضة هذه. ولكن مع ذلك، كان هناك شيء ما عن رجل، في الليل، هل فاته هذا؟ أحد هذين الرجلين: مكدرموت أو كينير، في دفتره وضع خطًا تحت كلمة "يهمس"، وضع تحتها خطًا ثلاث مرات، فأى شيء أراد أن يذكر نفسه به؟

ابني الغالي، يقلقني أنني لم أتلق منك رسالة منذ فترة طويلة. هل أنت على غير ما يرام؟ في المناطق التي يكثر بها الضباب والغيام يشتد احتمال الإصابات المرضية، وأنا أعرف أن حالة كينجستون متواضعة للغاية، وأن المستنقعات تنتشر بالقرب منها. ولا يستطيع الإنسان أن يكون حذرًا بما يكفي في مدن الحاميات العسكرية، ذلك أن الجنود والبحارة لهم عادات مشوشة ومختلطة. أتمنى أن تأخذ الحذر الواجب بالبقاء داخل البيت بقدر ما تستطيع أثناء هذه الحرارة الشديدة، وألا تخرج في الشمس.

اشترت مسز هنرى كارترايت واحدة من ماكينات الخياطة المنزلية الجديدة، لتستخدمها خادماتها، وقد أُسرت بها الآنسة فيث كارترايت، حتى أنها جربتها بنفسها، واستطاعت أن تخيط حاشية تنورة داخلية بها في وقت قليل جدًّا؛ وقد كانت من الذوق حتى أنها أحضرتها معها بالأمس لكي أرى غُرزَ الخياطة، فهي تعرف أنني مغرمة بالمخترعات الجديدة. الماكينة تعمل بشكل جيد نوعًا، رغم ذلك هناك فرصة لتحسين عملها ــ فثمة تعقدات في الخيط تحدث بشكل أكثر

مما يجب، ولابد من قصها أو تفكيكها ـ لكن مثل هذه الآلات لا تصل إلى الكمال أبدًا في البداية؛ وتقول مسز كارترايت أن زوجها مع الرأى الـــذى يقول أن أسهم الشركة التى تصنع هذه الآلات سوف يثبـــت أنهـــا أقـــوى استثمار معروف بمرور الوقت. وهو أب شديد المحبة والاعتبار، وقد اهتم كثيرًا بتخطيط مستقبل رفاهية ابنته، التى لم يبق له سواها على قيد الحياة.

لكنى لن أثير ضجرك بالحديث عن النقود، لأنى أعرف أنك تجده مملاً؛ ورغم ذلك يا بنى العزيز، فهى التى تحفظ غرفة الخـــزين ممتلئـــة، وهى وسيلة الحصول على مثل هذه الأدوات المريحة، والتى تصنع الفرق بين حياة الكفاف والحياة البسيطة المتواضعة، كما اعتاد والدك العزيـــز أن يقول: إنها الغذاء الذى لا ينمو على الشجر ...

الوقت لا يجرى بسرعته المنتظمة المعهودة: بل أصـــبح يتـــرنح بشكل غريب... وهو الآن فى حالة سرعة زائدة، ودخل المســـاء. يجلـــس سايمون على مكتبه، دفتره مفتوح أمامه، ويحدق بغباء عبر مربع النافـــذة الآخذ فى الإظلام. تلاشى ضوء الغروب الحار تاركًا مسحة قرمزية؛ وفى الخارج، يبعث طنين الناموس وزقزقة البرمائيات بذبذبة يهتز لها الهـــواء متوترًا. يشعر بجسده كله متورمًا، مثل لوح خشب فى المطر. وتأتى مـــن المرجة رائحة سوسنات ذاوية ــــ رائحة شياط، كرائحة بشـــرة أحرقتهـــا الشمس. غدًا هو الثلاثاء، اليوم الذى يجب أن يقصد فيه الصالون الصغير الذى تقيمه زوجة المحافظ، كما وعد. ماذا يمكنه أن يقول؟ يجب أن يسجل بضع ملاحظات، ينظم من خلالهـــا نوعًا من العرض المتماســـك. ولكـــن لا فائدة، لا يستطيع إحراز أى شىء له أهمية، ليس الليلة. فهو لا يستطيع التفكير.

تتخبط الفراشات الليلية فى المصباح. وينحى جانبًا مسألة لقاء الثلاثاء، ويلتفت إلى الرسالة التى لم ينهها: *أمى العزيزة، صحتى لا تزال فى خير حال. أشكرك لإرسال غطاء الساعة المطرز الذى صنعته لك الآنسة كارترايت، ويدهشنى أنك وجدت الإرادة للافتراق عنه، حتى رغم أنك تقولين أنه كبير جدًّا على ساعتك؛ وهو بكل تأكيد رائع وشديد الإتقان، وأنا أتوقع انتهاء عملى هنا قريبًا جدًّا ...*

أكاذيب ومراوغات من جانبه، ومؤامرات وإغراءات من جانبها. ماذا يهمه من شأن الآنسة فيث كارترايت وأعمال إبرتها اللعينة التى لا تنتهى؟ كل رسالة ترسلها أمه له تحتوى مزيدًا من أخبار التطريز والخياطة والكروشيه الفائق الدقة. لابد أن بيت آل كارترايت قد غُطى الآن بأكمله ـ كل منضدة ومقعد ومصباح وبيانو ـ بأمتار من الشراريب والهداديب، وفى كل زاوية منه لابد أنه توجد زهرة من شغل الصوف متفتحة بقوة. هل تعتقد أمه حقًّا أنها يمكن أن تسحره بمثل هذا المشهد الذى تصوره له عن نفسه: متزوجًا من فيث كارترايت ومسجونًا فى مقعد بذراعين إلى جوار المدفأة، متجمدًا فى نوع من الذهول الخدر الأقرب إلى الشلل، وزوجته العزيزة تلف حوله شيئًا فشيئًا خيوطًا حريرية ملونة، كالشرنقة، أو كذبابة وقعت فى شبكة عنكبوت؟

يكور الورقة ويكرمشها بين أصابعه، ويلقيها على الأرض. سوف يكتب رسالة أخرى. *عزيزى إدوارد، أتمنى أن تكون فى صحة طيبة، أما أنا فلا أزال فى كنجستون، حيث أستمر فى .. فى ..* أى شىء؟ ماذا يفعل هنا بالتحديد؟ إنه لا يستطيع أن يستمر فى نغمته المرحة المعتادة. ماذا يستطيع أن يكتب لإدوارد؟ ما هو الإكليل أو الجائزة التى يمكن أن يريها له؟ ما المعلومات التى لديه، على أقل تقدير؟ إن يديه خاويتان،

لم يكتشف شيئاً. كان يتنقل معصوب العينين، ولا يستطيع أن يقول إلى أى اتجاه يتقدم، دون أن يعرف أى شىء فيما عدا أنه لم يعرف أى شىء بعد، إلا إذا استطاع أن يحسب مدى جهله هو نفسه؛ مثل أولئك الذين ظلوا يبحثون عبثًا عن منابع النيل. ومثلهم، يجب أن يأخذ فى حسابه احتمال الهزيمة. رسائل تلغرافية حفرت حروفها على قطع من لحاء الأشجار، مرسلة من مراكز حرجة، لا يمكن الرجوع منها أو التقدم بعدها داخل الغابة الهائلة التى ابتلعتهم. *أعانى من الملاريا*"، "*عضتنى حية*"، *أرسلوا مزيدًا من الأدوية*"، *الخرائط غلط*". ليس لديه أى شىء مؤكد أو حقيقى يستطيع أن يرويه.

فى الصباح سيكون فى حال أفضل. سوف يستجمع نفسه. عندما يكون الجو أكثر برودة. أما فى اللحظة الراهنة، فهو يذهب إلى الفراش. فى أذنيه طنين حشرات. تستقر الحرارة الرطبة على وجهه كيد ثقيلة، ويتوهج وعيه فجأة للحظة ـــ ما الشىء الذى يوشك أن يتذكره؟ ـــ ثم ينطفئ الوهج.

فجأة يجفل مستيقظًا. هناك ضوء فى الغرفة، شمعة، تتهادى عبر الباب. خلفها شخص غامض الملامح؛ إنها صاحبة البيت، فى ثوب نوم أبيض، وتلتف بشال باهت. ويبدو شعرها فى ضوء الشمعة مرسلاً رمادى اللون.

يشد الملاءة عليه؛ فهو لا يرتدى ثوبًا للنوم. يقول: "ما الأمر؟". لابد أن صوته يبدو غاضبًا، لكنه فى الواقع خائف. ليس منها، بكل تأكيد، ولكن ماذا بحق الشيطان تفعل فى غرفة نومه؟ بعد ذلك لابد أن يغلق الرتاج.

تقول: "د. چوردان، إننى آسفة لإزعاجى لــك، ولكنـــى ســمعت ضوضاء، وكأنما هناك من يحاول الدخول عنوة من إحدى النوافــذ. وقــد أثار ذلك قلقى."

ليس فى صوتها أى رجفة أو ارتعاشة. أعصابها بــاردة للغايــة. يقول لها إنه سوف ينزل معها فى غضـــون دقيقــة ليراجــع المصـــاريع والأقفال؛ ويطلب منها الانتظار فى الغرفة الأمامية. يقوم ويــتلمس ثــوب نومه، وما أن يلبسه حتى يلتصق تمامًا ببشرته الرطبة، ويتعثر فى الظلام فى طريقه إلى الباب.

يقول لنفسه: يجب أن يتوقف هذا، لا يمكن أن يســتمر ذلك. لكن لم يكن هناك شيء "مستمر"، ولذا فلم يكن ثمة ما يمكن "إيقافه".

- ٣٣ -

إنه منتصف الليل، لكن الوقت يستمر بلا توقف، كما أنـــه يـــدور ويلف مثل الشمس والقمر فى تلك الســـاعة الكبيرة فى الردهـــة. سرعان ما سينبلج الفجر. سرعان ما سيطلع النهار. لا أستطيع إيقاف اقتحامه بنفس الطريقة دائمًا، ثم من رقدته هناك واهنًا؛ نفس اليوم دائمًا، يعود دائرًا مثل دوران الساعة. يبدأ باليوم قبل اليوم قبل الماضى، ثـــم اليـــوم قبـــل الماضى، ثم هو اليوم نفسه. يوم سبت. اليوم الذى ينبلج مقتحمًا. يوم يأتى الجزار.

ماذا أقول لدكتور چوردان عن هذا اليوم؟ إننا الآن وصلنا إليـــه تقريبًا. أستطيع أن أتذكر ما قلته عندما قبضوا علىّ، ومـــاذا قـــال مســـتر ماكنزى المحامى أننى يجب أن أقول؛ وما لم أقله حتى له؛ وما قلتـــه فـــى المحاكمة؛ وما قلته بعد ذلك؛ والذى كان مختلفًا أيضًا. وما قال مكدرموت أننى قلته؛ وما قال الآخرون أننى لابد قلته؛ فدائمًا كان هناك من يمـــدونك بأحاديث من اختلاقهم، ويحسنون وضعها على شفتيك نيابة عنـــك أيضًـــا؛ وهذا النوع مثل السحرة، أولئك الذين يستطيعون التحدث من بطونهم فـــى الأسواق الموسمية وفى عروض الفرجة، وأنت لست إلا دميتهم الخشـــبية. وهذا شديد الشبه بما كان فى المحاكمة. كنت هناك فى قفص الاتهام، ولكن ربما كنت بالمثل مصنوعة من القماش ومحشوة بالقش، ولـــى رأس مـــن

الصينى، وكنت محبوسة داخل تلك الدمية التى هى نفسى، ولـــم يســـتطع صوتى الحقيقى أن يخرج.

قلت أننى أتذكر بعض الأشياء التى فعلتها. لكـــن هنـــاك أشـــياء أخرى قالوا أننى فعلتها، والتى قلت أننى لا أستطيع أن أتذكرها إطلاقًا.

هل قال: "رأيتك ليلاً بالخارج، فى ثياب نومك، فى ضوء القمر"؟ وهل قال: "عمن كنت تبحثين؟ هل كان هناك رجل"؟ وهل قال: "إننى أدفع أجورًا جيدة ولكنى أريد مقابلها خدمة جيدة"؟ هل قال: "لا تقلقى، لن أخبـــر سيدتك، سوف يكون هذا سرًّا بيننا"؟ وهل قال: "أنت فتاة طيبة!"؟

ربما قال ذلك، أو ربما كنت نائمة.

هل قالت: "لا تظنى أننى لا أعرف ماذا كنت تنوين أن تفعلـــى"؟ هل قالت: "سوف أدفع لك أجرك يوم السبت وبعدها يمكنك الذهاب من هنا، وستكون هذه نهاية الأمر، وإلى حيث ألقت"؟

نعم، هى قالت ذلك فعلاً.

وهل جلست، بعد ذلك، خلف باب المطبخ أبكى؟ وهل أخذنى بين ذراعيه؟ وهل تركته يفعل؟ وهل قال: جريس، لمـــاذا تبكين؟ هل قلـــت: يا ليتها تموت؟

أوه، لا. من المؤكد أننى لم أقل ذلك. أو ليس بصوت مســـموع. فأنا لم أكن أتمنى لها الموت حقًا، وإنما تمنيت أن تكون فى مكـــان آخـــر، وهو نفس الشىء الذى كانت تتمناه لى.

هل دفعته بعيدًا عنى؟ هل قال سوف أجعلك تنظرين لى بشكل أفضل قريبًا جدًّا؟ هل قال سأخبرك بسر لو وعدت بكتمانه؟ وإذا لم تفعلى، فإن حياتك لن تساوى قشة.

ربما يكون هذا قد حدث.

أحاول أن أتذكر كيف كان شكل مستر كينير لكى أستطيع أن أحدث د. جوردان عنه. كان دائمًا طيبًا معى، أو هذا ما سوف أقوله. لكننى لا أستطيع أن أتذكر بالضبط. والحقيقة أنه رغم كل ما كنت أظنه عن شخصه، فإن صورته قد بهتت، ظلت تبهت عامًا بعد عام، مثل ثوب يُغسل مرة بعد مرة، والآن ماذا بقى منه؟ مجرد خطوط باهتة. زرار أو اثنين. أحيانًا صوت، ولكن لا عينين، لا فم. كيف كان يبدو حقًا.. عندما كان من لحم ودم؟ لم يكتب عن هذا أحد، ولا حتى فى الصحف، حكوا كل شىء عن مكدرموت، وكذلك عنى، وكيف نبدو، وماذا نلبس، ولكن لا شىء عن مستر كينير، لأن الأكثر أهمية أن تكون قاتلاً لا مقتولاً، فحينئذ تنظر إليك العيون أكثر؛ والآن، وقد ذهب، أفكر فيه وهو نائم ويحلم فى فراشه، فى الصباح عندما آتيه بالشاى، ووجهه مختبئ فى الملاءة المكومة فى فوضى. فى الظلام هنا أستطيع رؤية أشياء أخرى، لكننى لا أستطيع رؤيته على الإطلاق.

أذكر أشياءه، وأنا أعدها: صندوق السعوط الذهبى، التليسكوب، بوصلة الجيب، المطواة، الساعة الذهبية، الملاعق الفضية التى قمت بتلميعها، الشمعدانان وعليهما شعار العائلة *أعيش بالأمل*"، الصديرى الصوفى. لا أعرف أين ذهبت هذه الأشياء.

أرقد على السرير الضيق المتحجر، على حشية مصنوعة من قماش خشن، وهو ما يسمونه "بُرش"، الحشية محشوة بقش يابس يتكسر مثل الحطب في النار عندما أتقلب، وعندما أرفعها تهمس لي: هش، هش. الظلام شديد وثقيل كحجر في هذه الغرفة، والحرارة كحرارة قلب محترق؛ إذا حدقت في العتمة بعينيك مفتوحتين من المؤكد أن ترى شيئًا بعد قليل. وأتمنى ألا يكون هذا الشيء زهورًا. لكنها تحب أن تنمو في هذا الوقت، الزهور الحمراء، زهور الفاوانيا الحمراء اللامعة، التي تشبه الساتان، التي تشبه لطخات ألوان متناثرة. والتربة التي تنمو فيها هي الفراغ، الفضاء الفارغ والصمت. أهمس: تحدثي معي؛ لأنني أفضل أن أجد كلامًا على الاستمرار في ملاحظة تلك الأشكال الحدائقية المتنامية البطيئة التي تحدث في الصمت، مع تساقط البتلات الساتانية الحمراء على الجدار.

أظن أنني أنام.

أنا في الممر الخلفي، أتحسس طريقي على طول الجدار. لا أكاد أرى ورق الحائط؛ كان لونه في الأصل أخضر. ها هي السلالم تصعد لأعلى، ها هو الدرابزين. غرفة النوم نصف مفتوحة، وأستطيع أن أسمع. قدماي حافيتان على السجادة ذات الزهور الحمراء. أعرف أنك تختبئين مني، تعالي اخرجي حالاً وإلا سأجدك وأمسكك، وعندما أمسك بك، من يعرف ماذا سأفعل.

أنا جالسة بلا حراك خلف الباب، أكاد أسمع دقات قلبي. أوه، لا. أوه، لا. أوه، لا.

ها أنا قادم، أنا قادم الآن، أنت لا تسمعين الكلام أبدًا، أنت لا تنفذين ما أقول لك، أيتها البنت القذرة. والآن، لابد أن تنالي عقابك.

ليس هذا خطئى. ماذا أفعل الآن؟ أين أهرب؟

لابد أن تفتحى رتاج الباب، لابد أن تفتحى النافذة، لابد أن تدعينى أدخل.

أوه، انظرى، انظرى إلى كل هذه البتلات المتناثرة على الأرض، ماذا فعلت؟

أظن أننى أنام.

أنا بالخارج، فى الليل. ها هى الأشجار، ها هو الممشى، وسور الأفاعى، ونصف قمر مضيء، وقدماى حافيتان على الحصى. ولكن عندما أدور إلى مقدمة البيت، أجد الشمس بسبيلها إلى الغروب، وأعمدة البيت البيضاء أصبحت وردية، وزهور الفاوانيا البيضاء تلمع حمراء فى الضوء المتلاشى، يداى مخدرتان، لا أستطيع أن أشعر بأطراف أصابعى. ثمة رائحة لحم طازج تأتى من الأرض حولى فى كل مكان، رغم أننى قلت للجزار أننا لا نريد شيئًا.

على كف يدى رُسمت خطوط كارثة. لابد أننى ولدت أحملها معى أينما أذهب، وعندما لمسنى، انتقل الحظ السيئ إليه.

أظن أننى أنام.

أستيقظ على صياح الديكة، وأعرف أين أنا. أنا فى الردهة. أنا فى حجرة غسيل الأطباق. أنا فى القبو. أنا فى زنزانتى، تحت بطانية السجن الخشنة، التى من المحتمل أننى قمت بثنى أطرافها بنفسى. إننا هنا نصنع كل ما نلبسه أو نستعمله، فى صحونا أو فى نومنا؛ وهكذا صنعت هذا الفراش بنفسى، وها أنا أرقد فيه.

إنه الصباح، حان الوقت للنهوض؛ واليوم لابد أن أستمر في الحكاية. أو لابد أن تستمر الحكاية معي، تحملني إلى داخلها، لابد أن تنطلق على الطريق المحدد، أن تسير مباشرة إلى النهاية، باكية بلا توقف كالقطار، صماء لا تسمع، عوراء وحيدة العين، ومغلقة بإحكام تام؛ رغم أنني أرمي بنفسي على جدرانها وأصرخ وأبكي، وأتضرع إلى الله أن يجد لي مخرجًا.

عندما تكون في وسط الحكاية فهي ليست حكاية أبدًا، وإنما هي فوضى وارتباك، وهدير منتظم، عمى، حطام، زجاج مكسور ومتناثر وخشب متشظي؛ مثل بيت في إعصار عاصف، أو مركب اصطدمت بالجبال الجليدية أو تقاذفتها التيارات المتدفقة، وكل من عليها خارت قواهم، ولا يقدرون على إيقافها. ولا تصبح القصة شيئًا أشبه بالقصة إلا فيما بعد. عندما تجلس لترويها، لنفسك، أو لشخص آخر.

يتقبل سايمون كوبًا من الشاى تقـدمه له زوجة المحـافظ. وهو لا يميل كثيرًا إلى الشاى، لكنه يعتبر شربه واجبًا اجتماعيًّا فى هذا البلـد؛ ومن هذه الواجبات أيضًا تحية كل النكات حول "حفلة شاى بوسطن"(*) ـــ وكان منها الكثير جدًّا ــ بابتسامة متحفظة، ولكن متسامحة.

يبدو أن التوعك الذى كان يشعر به قد زال. واليوم يشـعر بأنـه أفضل، رغم حاجته إلى النوم. وقد استطاع أن ينجز حديثه المـوجز إلـى مجموعة الثلاثاء، ويشعر أنه أبلى بلاء حسناً إلى حدٍّ كبيـر. بـدأ كلمتـه بدعوى لإصلاح المصحات العقلية، التى ما زال الكثير جدًّا منها أوكـارًا للقذارة والفساد والظلم، كما كان حالها فى القرن الماضى. وقد استقبل هذا

(*) فى عام ١٧٧٣، وافق البرلمان الإنجليزى على "قانون الشاى" لإنقـاذ شـركة الهنـد الشرقية (البريطانية) من الإفلاس. لكن هذا القانون كان يؤثر بشدة على مهربى الشاى الأمريكيين، وبالتالى على الاقتصاد الأمريكى فى ذلك الوقت، وقام معارضـوا هـذا القانون بتنظيم حملة اشترك فيها عدد كبير من أبناء مدينة بوسطن فخرجوا فى يـوم ١٦ ديسمبر ١٧٧٣، متنكرين فى زى الهنود الحمر وقد طلـوا وجـوههم بالسـناج، وأغرقوا حمولة ثلاث سفن من الشاى فى مياه البحر.. هذا الحدث أطلق عليه "حفلـة شاى بوسطن"، ويعتبر هو الشرارة الأولى التى فجرت الثورة الأمريكيـة مـن أجـل الاستقلال عن إنجلترا.

استقبالاً حسناً. ثم استمر يعرض بعض الملاحظات حول الجيشان الفكرى الهائل فى هذا الحقل من الدراسة، وحول المدارس الفكرية المتنافسة بين الأطباء العقليين.

فى البداية، تناول المدرسة المادية. والتى يعتقد أطباؤها أن الاضطراب العقلى هو اضطراب وظيفى فى الأصل ــ يرجع، على سبيل المثال، إلى آفة أو خلل يصيب الأعصاب والمخ، أو حالات وراثية من نوع يمكن تحديده، مثل الصرع؛ أو نتيجة الإصابة بأمراض، ومن ضمنها أمراض تنتقل جنسيًا ــ وقد أوجز هنا، اعتبارًا لوجود سيدات، ولكن كل الحاضرين عرفوا ما يعنيه. بعد ذلك وصف ما قدمته المدرسة العقلية، التى تعتقد فى أسباب أكثر صعوبة فى عزلها وتحديدها. على سبيل المثال، كيف يمكن قياس آثار الصدمة العصبية؟ كيف يمكن تشخيص فقدان الذاكرة الذى لا تظهر له أية تجليات عضوية يمكن تمييزها، أو تغيرات جذرية محددة ومتعذرة التفسير فى شخصية المريض؟ ما هو الدور ــ كان يوجه السؤال إليهم ــ الذى تلعبه الإرادة، وما هو الدور الذى تلعبه الروح؟ هنا انحنت مسز كوينل إلى الأمام، لكنها عادت إلى وضعها عندما قال أنه لا يعرف.

ثم تقدم إلى المكتشفات الحديثة الكثيرة التى كان يتم إنجازها ــ علاج د. لايكوك البروميدى لنوبات الصرع، على سبيل المثال، والذى يجب أن يعتبر إجابة عن عدد هائل من المعتقدات والخرافات الخاطئة؛ فحص بنية المخ، استخدام العقاقير فى التأثير على مختلف أنواع الهلاوس، وتسكينها، والتخفيف منها. ويمضى عمل الرواد قدمًا باستمرار؛ وهنا أضاف أنه يود أن يذكر الطبيب الشجاع د. تشاركو، من باريس، الذى كرس نفسه فى الفترة الأخيرة لدراسة أنواع الهستيريا، وفحص الأحلام كمفتاح للتشخيص، وعلاقتها بفقدان الذاكرة، وهو الأمر الذى يأمل هو

نفسه أن يقدم فيه مساهمة متواضعة فى الوقت المناسب. وكل هذه النظريات لا تزال فى المراحل الأولى من تطورها، لكن يمكن توقع الكثير منها فى القريب العاجل. وكما قال الفيلسوف والعالم الفرنسى البارز مين دى بيران، هناك "عالم جديد" داخل النفس بحاجة للاستكشاف، وهو العالم الذى يجب من أجله أن "يغوص المرء فى الكهوف الخفية للروح".

وختم بأن القرن التاسع عشر قد يصبح ـ بالنسبة لدراسة العقل ـ ما كانه القرن الثامن عشر بالنسبة لدراسة المادة ـ عصرًا من التنوير. وبأنه فخور أن يكون جزءًا من مثل هذا التقدم الكبير فى المعرفة، حتى ولو بطريقة صغيرة ومتواضعة للغاية.

كان يتمنى لو لم يكن الجو بهذه الدرجة اللعينة من الحرارة والرطوبة. فعندما وصل إلى الخاتمة كان مبللاً تمامًا، وكان لا يزال يشعر برائحة مستنقعية تأتى من يديه. لابد أن يكون ذلك بسبب حفر الأرض، فقد قضى فيه فترة أخرى هذا الصباح، قبل تصاعد حرارة اليوم.

صفق أعضاء جماعة الثلاثاء بأدب، وشكره المبجل ڤرينجر. وقال أنه يجب تهنئة د. چوردان على الملاحظات التثقيفية التى شرفهم بها اليوم. فقد قدم لهم أشياء كثيرة تستحق التفكير بشأنها. وإن العالم حقًا هو مكان مليء بالألغاز والغموض، لكن الله كرّم الإنسان بالعقل، ليحاول أن يفهم أية غوامض تكون حقًا فى متناول فهمه. كان كلامه يدل ضمنًا على وجود أشياء أخرى، ولم يكن الأمر كذلك. ولكن بدا أن هذا قد سَرَّ الجميع.

بعد ذلك، تلقى سايمون الشكر على انفراد. قالت له مسز كوينل أنه تكلم بواقعية محسوسة من القلب، وهو ما أشعره ببعض الذنب، لأن هدفه الأساسى كان أن ينتهى من المناسبة بأسرع ما يمكن. أما ليديا، التى

كانت فاتنة فى رداء صيفى كثير الكشكشة والخشخشة، فقد كانت لا تكاد تلتقط أنفاسها فى مديحها وإطرائها، وأبدت إعجابًا شديدًا كأحسن ما يتمنى أى رجل؛ لكنه لم يستطع أن يطرد فكرة أنها فى الواقع لم تفهم حرفًا واحدًا مما قال.

"يا له من حديث آسر"، يقول چيروم دو پونت، وهو عند كوع سايمون. "لكنى لاحظت أنك لم تذكر شيئًا عن الدعارة، التى هى بالتأكيد، بالإضافة إلى إدمان الخمر، واحدة من أهم الأمراض الاجتماعية التى أصابت عصرنا".

يقول سايمون: "لم أرد أن أذكرها، اعتبارًا لنوع الجمهور".

"طبيعى جدًّا، كان يهمنى أن أسمع رأيك فى النظرة السائدة بين بعض زملائنا الأوروبيين، بأن الميل إلى الدعارة نوع من الجنون. ويربطونه بالهستيريا والإنهاك العصبى".

قال سايمون مبتسمًا: "أعرف هذا الرأى". فى أيام دراسته، كان عادة يحتج بأن المرأة إذا لم تجد مسارًا مفتوحًا أمامها إلا الموت جوعًا، أو الدعارة، أو إلقاء نفسها من فوق الكوبرى، فإن من المؤكد أن العاهرة، التى تظهر أعلى درجة من التشبث بالبقاء، لابد من اعتبارها أكثر قوة وعقلاً من زميلاتها الأضعف اللاتى فقدن حياتهن. وكان يلفت النظر إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يحصل على الأمرين معًا: إذا كانت النساء يتعرضن للغواية ثم الهجر فإن المفترض أن يصبن بالجنون، ولكن إذا استطعن البقاء ومارسن الغواية بدورهن، يقال أنهن مصابات بالجنون أصلاً. وكان يقول أن هذه الفكرة تبدو له ملتبسة ومشكوكًا فيها، وهو ما تسبب فى أن تنتشر عنه سمعة بأنه إما ينتمى إلى النزعة الكلبية

الساخرة والتى ترى بأن سلوك الإنسان تهيمن عليه المصالح الذاتية؛ أو أنه منافق يميل إلى المذهب البيوريتانى، وكان هذا الرأى أو ذاك يتوقف على نوع الجمهور.

يقول د. دو بونت: "أنا نفسى أميل إلى وضع الدعارة فى نفس مكانة جنون القتل والهوس الدينى؛ ربما يمكن اعتبار كل ذلك نوعًا من الاندفاع إلى لعب دور، اندفاعًا خرج عن التحكم والسيطرة. مثل هذه الأشياء لوحظت فى المسرح، بين الممثلين الذين يدعون أنهم يتقمصون الشخصية أثناء التمثيل. مغنيات الأوبرا بشكل خاص عرضة لذلك، ومن الأشياء المسجلة أن ممثلة كانت تقوم بدور "لوتشيا"(*) قتلت حبيبها بالفعل".

يقول سايمون: "هذا احتمال مثير للاهتمام والتشويق".

"أنت لا تورط نفسك أبدًا"، يقول د. دو بونت وهو يحدق فى سايمون بعينيه الداكنتين اللامعتين، ثم يضيف: "ولكنك سوف تصل إلى درجة أن تعترف بأن النساء بشكل عام لهن نظام عصبى هش، ونتيجة لذلك يسهل تأثرهن بالإيحاء؟"

"ربما". يقول سايمون ذلك، ويكمل: "من المؤكد أن هذا هو الاعتقاد الشائع".

"وهذا، على سبيل المثال، يجعل التنويم المغناطيسى أسهل كثيرًا معهن".

(*) لوتشيا دى لامرمور، أوبرا إيطالية مشهورة، لدونيتسيتى Donizetti (١٧٩٧-١٨٤٨)، عرضت فى نابولى ١٨٣٥، تدور قصتها فى اسكوتلندا حوالى ١٧٠٠، وفيها تقع لوتشيا فى حب إدجار، ولكن أخاها، الذى يريد تزويجها من شخص آخر، يدبر مؤامرة تنتهى بإفساد العلاقة بين المحبين، وتفقد لوتشيا عقلها بعد زواجها، وتقتل زوجها، وتموت، وعندما يسمع إدجار بذلك يقتل نفسه.

آه، يفكر سايمون، كل يغنى على ليلاه .. ها هو الآن يكاد يصل إلى مراده.

يقول د. دو بونت: "كيف حال مريضتك الجميلة، إذا كان لى أن أقول ذلك عنها، هل هناك أى تقدم؟"

يقول سايمون: "لا شيء محدد بعد. هناك عدة خطوط من التساؤلات أتمنى أن أستطيع متابعتها".

"سوف يشرفنى لو سمحت لى أن أجرب طريقتى، فقط كنوع من التجربة، كنوع من العرض لها، إذا أحببت".

يقول سايمون: "إننى الآن عند نقطة حرجة". فهو لا يريد أن يبدو بمظهر الفظ، لكنه لا يريد تدخل هذا الرجل. جريس هى منطقته الخاصة، ولابد أن يصد من يريد انتهاكها. "ربما يسبب ذلك لها اضطرابًا ويفسد أسابيع من الإعداد الدقيق".

يقول د. دو بونت: "كيفما يلائمك. إننى أتوقع أن أبقى هنا شهرًا آخر على الأقل. وسوف يسعدنى لو استطعت المساعدة".

يقول سايمون: "أنت تقيم عند مسز كوينل على ما أعتقد".

"سيدة مضيافة فى غاية الكرم. ولكنها مفتونة بالروحانيين، فهم كثيرون هذه الأيام. وأؤكد لك أنه نظام لا أساس له على الإطلاق، ولكن ما أسهل استغلال الإنسان الذى حُرم من أعزائه".

ويحجم سايمون عن أن يقول أنه لا يحتاج إلى توكيد ذلك. "لقد حضرت بعضًا من ... أمسياتها ــ هل يمكن أن أطلق عليها جلسات تحضير أرواح؟"

"حضرت واحدة أو اثنتين. أنا مجرد ضيف على أية حال؛ وأنواع الخدع المستخدمة مثيرة لقدر كبير من الاهتمام والتشويق بالنسبة للباحث المحلل. لكنها أبعد ما تكون عن إغلاق عقلها أمام العلم، بل إنها مستعدة لتمويل بحث قانونى".

"آه"، يقول سايمون.

"وتريدنى أن أحاول القيام بجلسة من التنويم العصبى، مع مس ماركس". يقول دكتور دو پونت ذلك برقة وبساطة. "بالنيابة عن اللجنة، أرجو ألا يكون لديك مانع؟"

يفكر سايمون، اللعنة عليهم جميعًا: لابد أنهم بدأوا يفقدون صبرهم معى؛ يظنون أننى أخذت وقتًا أطول من اللازم. ولكن إذا تدخلوا تدخلاً زائدًا فسوف يفسدون عربة التفاح كلها، ويدمرون كل شىء. لماذا لا يتركوننى وأدواتى؟

***

اليوم لقاء الثلاثاء. ولأن د. چوردان سوف يتحدث فيه، لم أره فى فترة بعد الظهر، حيث أنه بحاجة للاستعداد. سألت زوجة المحافظ إذا كان يمكن تركى فترة إضافية، لأنهم بحاجة لمساعدة أكثر، وكانت تود منى أن أساعد فى إعداد المرطبات، كما أفعل فى الغالب. بالطبع كان هذا مجرد طلب شكلى، حيث أن السجانة ليس أمامها إلا الموافقة، وقد فعلت؛ وسُمح لى أن أتناول عشائى فى المطبخ بعد ذلك، مثل خادمة حقيقية، حيث أن العشاء فى الإصلاحية سيكون قد انتهى عند عودتى. وكنت أتطلع إلى هذا،

فسوف يكون مثل الأيام الخوالى، عندما كنت حرة فى الـذهاب والإيـاب، وكانت الاختيارات أكثر تنوعًا فى تلك الأيام، وكذلك مثل هذه الاحتفـالات التى يتطلع إليها المرء.

مع ذلك، كنت أعرف أننى سأضطر للتعامل مع بعض الأشـياء التافهة، والنظرات القاسية، والملاحظات الحقودة على شخصى. ليس مـن كلارى، التى كانت دائمًا صديقة لى رغم أنها صديقة صامتة، وليس مـن الطباخة، التى اعتادت علىّ الآن. ولكن واحدة من خادمات الطابق الأعلى مغتاظة منى، لأننى أقدم منها فى خدمة هذا البيت، وأعرف طرق التعامل فيه، وأتمتع بثقة الآنستين ليديا وماريان، وهى أشياء لا تتمتع هى بها؛ من الممكن أن تلقى بعض التلميحات إلى جرائم القتل، أو الخنـق، أو شـىء كريه من هذا النوع. كذلك دورا، التى تأتى للمساعدة فى الغسـيل، لكنهـا ليست دائمة، ويُدفع أجرها بالساعة. وهى امـرأة ضـخمة ذات ذراعـين قويتين، ومفيدة فى حمل السلال الثقيلة من الملاءات المبللة؛ لكنهـا غيـر جديرة بالثقة، فهى دائمًا تروى روايات عن سيدتها وسيدها السابقين، اللذين كما تقول لم يدفعا لها مستحقاتها، بل إن سلوكياتهما أصبحت مزرية أيضًا، فهو انحرف فى الشراب بشدة حتى أصبح لا يزيد عـن المعتـوهين فـى شىء، وضرب زوجته فاسودت عينها أكثر من مرة، وهى تمـرض مـن مجرد وقوع قبعة، ولن تدهش دورا إذا وجدت أن سبب كآبتها وصـداعها الدائم هو أنها تشرب أيضًا.

ولكن، رغم أن دورا تقول كل هذه الأشياء، فقد قبلـت العـودة للعمل هناك، وأن تصبح خادمة تقوم بكل المهام مرة أخرى، والواقع أنهـا بدأت بالفعل، وعندما سألتها الطباخة لماذا تفعل هذا، إذا كانوا بهذه السمعة السيئة، غمزت بعينها وقالت إن النقـود لهـا كلمتهـا، وكلمتهـا العاليـة

المسموعة أيضًا، وأن الطبيب الشاب الذى يؤجر جناحًا فى البيت قد دفع لها أجرها المتأخر، وتوسل إليها، بل كاد يركع لأن تعود، حيث لم يجدوا أحدًا آخر. وهو رجل يميل إلى الهدوء والسلام، ويحب الأشياء نظيفة ومرتبة، وهو مستعد أن يدفع أجر ذلك، لكن سيدة البيت لا تستطيع، فقد هرب زوجها فلم تعد الآن أكثر من أرملة تعيش على الكفاف، بل وعالة أيضًا. وقالت دورا أنها لن تقبل أن تتلقى أوامر منها بعد ذلك، فهى سيدة شكاءة ونكدة دائمًا، ولكن من د. چوردان، فمن يدفع للزمار له أن يطلب اللحن.

وتقول أنه هو أيضًا ليس متوقعًا منه أى خير، فهو يحمل الهواء المسموم حوله، كما هو الحال دائمًا مع الأطباء، بقنانيهم وأدهنتهم وأقراصهم، وهى تشكر الله الرحيم كل يوم أنها ليست عجوزًا ثرية تحت عنايته، وإلا فلن يُكتب لها البقاء طويلاً فى هذا العالم؛ كما أن لديه عادة غريبة بالحفر فى الحديقة، رغم أن الوقت الآن تأخر كثيرًا على زراعة أى شىء، لكنه رغم ذلك يستمر فى الحفر مثل الحيوانات الحفارة، وهكذا قلّب أرض الفناء كلها تقريبًا، ثم عليها أن تكنس الطين الذى يدخل مع خطواته، وتدعك الوحل من قمصانه فى الغسيل، وتسخن المياه من أجل حمامه.

وقد أدهشنى أن اكتشفت أن هذا الدكتور چوردان الذى نتحدث عنه هو نفس د. چوردان الذى يأتى لى، لكنى كنت أشعر أيضًا بالفضول، فلم أكن أعرف كل هذه الأشياء عن صاحبة البيت الذى يقيم فيه، بل إنى فى الواقع لم أكن أعرف أى شىء عنها. ومن ثم سألت دورا أى نوع من النساء هى، فقالت دورا إنها نحيفة مثل البوصة، وشاحبة كما لو كانت جثة، ولها شعر طويل أصفر فاتح جدًا حتى يكاد يكون أبيض، ورغم هذا، ورغم سلوكياتها المهذبة الراقية، ليس أفضل مما يجب، رغم أن دورا ليس

لديها دليل بعد؛ لكن هذه السيدة تدور عيناها بشكل غريب، ولها انتفاضة غريبة، وهذين الأمرين معًا يعنيان سخونة خفية خلف الأبواب المغلقة، وأن مستر جوردان يجب أن يأخذ حذره، لأنها لو كانت رأت فى حياتها امرأة تنوى أن تخلع عن رجل سرواله، فقد رأت ذلك فى عينى مسز همفرى؛ وأنهما الآن يتناولان الإفطار سويًّا كل صباح الآن، وهو أمر ترى أنه غير طبيعي. وقد رأيت أن هذا كلام فاحش، على الأقل الجزء الخاص بالسروال.

وأفكر فى نفسى، إذا كان هذا هو ما تقوله عن الناس الذين تعمل لهم من خلف ظهورهم، فماذا ستقول عنك يا جريس؟ أحيانًا أضبطها تحدجنى كلى بعينيها الصغيرتين الورديتين، وتدبِّر أية قصة مثيرة سوف تحكى لأصدقائها، إن كان لها أصدقاء، عن شرب الشاى مع قاتلة شهيرة كان يجب قانونًا أن تكون مشنوقة منذ زمن طويل، وتقطع إلى شرائح على أيدى الأطباء، كما يفعل الجزارون بالذبيحة، وما يبقى منى بعد أن ينهوا عملهم يلف فى صرة، تمامًا مثل الشحم الذى يلف فى صرة واحدة، ويترك ليتعفن ويذوى فى قبر مهين لا تنمو عليه إلا الأشواك.

ولكننى أتمالك نفسى للحفاظ على حالة السلام، فلا أقول شيئًا. فلو دخلت فى شجار معها، فإننى أعرف جيدًا على من سيُلقى اللوم.

كانت لدينا أوامر بأن تبقى آذاننا مفتوحة حتى نهاية اللقاء، والذى ستكون العلامة عليه تصفيق، ثم خطبة لشكر د. جوردان على ملاحظاته التثقيفية، وهو ما يقولونه لكل من يتكلم فى هذه المناسبات؛ وستكون هذه هى الإشارة لنا لندخل بالمرطبات؛ ومن ثم طُلب من إحدى الخادمات أن تنتظر عند باب القاعة لتسمع، وجاءت بعد بُرهة وقالت أنهم يشكرونه

الآن، ومن ثم عددنا حتى العشرين، ثم أرسلنا أول دور شاى، وأولى صوانى الكعك. وقد ظللت أنا بالأسفل، أقطع الكعكة الكبيرة الدسمة، وأرصها فى طبق كبير مستدير، والذى أعطت زوجة المحافظ تعليماتها بأن توضع وردة أو اثنتان فى منتصفه؛ وكان شكلها جميلاً جدًّا. ثم جاءت كلمة من فوق بأن علىّ أنا أن أحضر هذا الطبق بالذات بنفسى، وهو أمر وجدته غريبًا؛ فرتبت شعرى وحملت الكعكة الكبيرة صعودًا على السلم، ثم دخلت بها من باب القاعة وأنا لا أتوقع شرًا.

هناك، بين الحاضرين، جلست مسز كوينل وقد صففت شعرها على هيئة لفات صغيرة كثيرة، ترتدى ثوبًا من الموسلين الوردى، والذى كان يبدو أليق بشابة أصغر كثيرًا منها، وارتدت زوجة المحافظ ثوبًا رماديًّا؛ و المبجل ڤرينجر ينظر تحت أنفه كالعادة؛ ود. چوردان شاحب ومنهك، وكأن حديثه قد استهلكه تمامًا؛ ومس ليديا فى الثوب الذى ساعدتها فى عمله، وكانت جميلة كما الصورة.

ولكن من أرى؟ ينظر إلى مباشرة بابتسامة خفيفة، من سوى چيرميا البائع المتجول! يقف أنيقًا للغاية، فى شعره وذقنه، كرجل من علية القوم، يرتدى بدلة أنيقة فى لون الرمال، وسلسلة ساعته الذهبية ظاهرة على الصديرى؛ يحمل كوبًا من الشاى بأفضل طريقة يستطيعها أحد السادة، بالضبط كما كان يفعل عندما يقلد هذا المشهد فى مطبخ مسز ألدرمان باركينسون، لكننى كان من الممكن أن أميزه فى أى مكان.

أذهلتنى المفاجأة بشدة حتى صدرت عنى صرخة خافتة، ثم وقفت مصعوقة فى مكانى وفمى مفغور مثل سمكة الحدوق، وكدت أوقع الطبق؛ والحق أن عدة قطع من الكعكة الدسمة انزلقت من الطبق ووقعت على

الأرض، والوردتان أيضًا. ولكن ليس قبل أن يضع چيرميا كوبه، ويضع إصبعه على فمه بموازاة أنفه، وكأنه يحكه، وهى حركة أعتقد أن أحدًا لم يلاحظها، حيث كانوا جميعًا ينظرون نحوى، وكانت إيماءة فهمت منها أننى يجب أن أغلق فمى، وألا أقول شيئًا، أو أشى به.

ولم أفعل، لكننى اعتذرت لسقوط الكعكة منى، ووضعت الطبق على المنضدة الجانبية، وركعت لألم القطع التى وقعت فى مريلتى. لكن زوجة المحافظ قالت: لا تهتمى بذلك الآن يا جريس، فأنا أريد تقديمك إلى أحد الأشخاص. وأخذتنى من ذراعى، وقادتنى إلى الأمام. وقالت: هذا د. چيروم دو پونت، وهو ممارس طبى مشهور، وأومأ چيرميا لى برأسه، وقال: كيف حالك يا مس ماركس؟ كنت ما أزال فى حيرة، لكننى تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشى؛ وزوجة المحافظ تقول له: إنها دائمًا تؤخذ برؤية الغرباء، وتقول لى: د. دو پونت صديق، ولن يؤذيك.

وهنا كدت أضحك بصوت عال، ولكنى بدلاً من ذلك قلت: نعم، يا سيدتى، ونظرت إلى الأرض. لابد أنها خشيت تكرار ما حدث من قبل فى تلك المرة، عندما جاء هنا ذلك الطبيب الذى يقيس الرءوس، وصرخت كثيرًا. ولكن ما كانت بحاجة لأن تخشى شيئًا.

قال چيرميا: لابد أن أنظر إلى عينيها، لأعرف هل سيكون الأمر مؤثرًا أم لا. ورفع ذقنى، وحدق كلانا فى الآخر. وقال: حسنًا جدًّا، كل شىء رصين وجليل، وكأنه تمامًا نفس الشخصية التى يتظاهر بها؛ وشعرت بالإعجاب به. ثم قال: جريس، هل سبق أن تعرضت للتنويم المغناطيسى؟ وظل ممسكًا بذقنى برهة، ليجعلنى أشعر بالثبات، وليعطينى وقتًا لأتحكم فى نفسى.

قلت: من المؤكد أن هذا لم يحدث يا سيدى، قلت هــذا بــبعض السخط، ثم أضفت: إننى حتى لا أعرف ما هو بالضبط.

قال: إنه إجراء علمى تمامًا. هل تحبين أن تجربى؟ إذا كان ذلك يمكن أن يساعد أصدقاءك، واللجنة؟ وإذا هم قرروا أنك يجب أن تفعلــى؟ وضغط على ذقنى ضغطة خفيفة، وحرك عينيه أعلــى وأســفل بســرعة شديدة، ليعطينى إشارة بأن علىّ أن أقول نعم.

قلت: سأفعل كل ما أقدر عليه يا ســيدى، إذا كــان ذلــك هــو المطلوب.

قال: حسنًا، حسنًا ـ بغرور وخيلاء كما لو كان طبيبًا حقيقيًّا ـــــ ولكن لكى ينجح الأمر، يجب أن تضعى ثقتك بى. هل تظنين أنك تقــدرين على ذلك يا جريس؟

كان المبجل فرينجر، والآنسة ليديا، ومســز كوينــل، وزوجــة المحافظ، كلهم يبتسمون لى بابتهاج وتشجيع. قلت: سوف أحاول، يا سيدى.

وهنا خطا د. چوردان نحــوى، وقــال أنه يظن أننى تعرضــت لما يكفى من الانفعال اليوم، ولابد من الاهتمام بأعصابى، لأنهــا رقيقــة ويجب ألا تتعرض للانهيار؛ فقال چيرميا: بــالطبع، بــالطبع. لكنــه بــدا مسرورًا جدًّا من نفسه. ورغم أننى أحمل تقديرًا لدكتور چوردان، ورغــم أنه كان طيبًا معى، فقد رأيته يبدو كسمكة مسكينة إلى جوار چيرميا، مثل رجل فى سوق مزدحم وقد نُشلت جيوبه للتو واللحظة، لكنه لا يعرف بعد.

أما أنا، فكان يمكن أن أضحك بمرح مجلجل، فقد قــام چيرميــا بحيلة استحضار سحرية، كما لو كان بالفعل قد شد قطعة من العملة مــن

أذنى، أو جعلهم يعتقدون أنه بلع شوكة طعام؛ وتمامًا مثلما كان يؤدى مثل هذه الحيل على مرأى من الجميع، وكل شخص ينظر إليه غير قادر علــى كشف الحيلة، فقد فعل نفس الشىء هنا، وعقد معى معاهدة تحت عيــونهم، ولم يكونوا أكثر حكمة من غيرهم.

لكننى حينئذ تذكرت أنه كان فى الماضى يرتحل من مكان لآخر كمنوم مغناطيسى، ومارس الكهانة الطبية فى الأسواق، وأنه كان يعــرف مثل هذه الفنون بالفعل، وربما ينومنى مغناطيسيًا حقًا. وجعلنى هذا أتوقف فجأة، وأعيد التفكير فى الأمر.

"قضية أنك مذنبة أم بريئة ليست هى ما يهمنى"، يقول سايمون: "أنا طبيب، ولست قاضيًا. ولا أريد إلا أن أعرف ما الذى يمكنك أن تتذكريه فعلاً بنفسك".

لقد وصلا أخيرًا إلى الجريمتين. وقد راجع كل الوثائق المتاحة له ــ القصص الخاصة بالمحاكمة، آراء الصحف، الاعترافات، حتى تفسيرات مسز مودى المبالغ فيها للغاية. وهو مستعد تمامًا، ومتوتر أيضًا: فالطريقة التى يتصرف بها اليوم سوف تقرر ما إذا كانت جريس أخيرًا ستفتح دواخلها المغلقة، وتكشف كنوزها المكنونة، أو أنها بدلاً من ذلك سوف تنكمش خوفًا وتختبئ وتغلق على نفسها مثل الصدفة.

لم يكن ما أحضره معه اليوم نوعًا من الخضر، بل أحضر شمعدانًا فضيًّا، قدمه إليه المبجل ڤرينجر، وهو شبيه ــ كما يتمنى ــ بذلك الشمعدان الذى كان موجودًا فى بيت مستر كينير، وسرقه چيمس مكدرموت. لم يضعه أمامها بعد، فهو فى سلة مجدولة ــ سلة مشتريات، اقترضها فى الواقع من دورا ــ ووضعها بإهمال إلى جوار مقعده. فهو ليس واثقًا مما سوف يفعل به.

تستمر جريس فى تطريزها، لا ترفع بصرها. وتقول: "لم يهتم أحد بذلك من قبل يا سيدى، قالوا لى أننى لابد أكذب، واستمروا يريدون أن يعرفوا أكثر. إلا مستر كينيث ماكنزى، المحامى. لكنى واثقة أنه حتى هو لم يصدقنى".

يقول سايمون: "أنا سوف أصدقك". ويكتشف أنها مسئولية كبيرة بالفعل.

تزم جريس فمها قليلاً، ولا تقول شيئًا. يقتحم الصمت. "مستر كينير غادر إلى المدينة يوم الخميس، أليس كذلك؟"

تقول جريس: "نعم، يا سيدى".

"فى الثالثة ظهرا؟ على الحصان؟"

"كان هذا هو الوقت بالضبط يا سيدى، وكان المفروض أن يعود يوم السبت. كنت بالخارج أرش المناديل القطنية المنشورة فى الشمس لتبييضها. لف مكدرموت بالحصان ليحضره إليه. كان مستر كينير راكبًا تشارلى، حيث كانت العربة قد أرسلت إلى القرية لتأخذ طبقة جديدة من الدهان".

"هل قال لك شيئًا فى ذلك الوقت؟"

"قال لى: 'ها هو عزيزك الأثير لديك يا جريس، تعالى وودعيه بقبلة'".

يقول سايمون: "يعنى چيمس مكدرموت؟ لكن مكدرموت لم يكن ذاهبًا إلى أى مكان!"

تنظر جريس شاردة، بنظرة تكاد تنم عن الازدراء. "كان يقصد الحصان يا سيدى. فقد كان يعلم أننى مغرمة جدًّا بتشارلى".

"وماذا فعلت؟"

"ذهبت إليه وربتُّ على تشارلى، على أنفه يا سيدى. لكن نانسى كانت تراقب من باب المطبخ الشتوى، وقد سمعت ما قاله، ولم يعجبها ذلك. ولا مكدرموت أعجبه ذلك أيضًا. لكن لم يكن فى ذلك أى ضير. مستر كينير كان يحب المزاح فقط".

يأخذ سايمون نفسًا عميقًا. "هل حدث أن مستر كينير تصرف معك أى تصرف غير لائق يا جريس؟"

تنظر إليه مرة أخرى؛ بابتسامة خفيفة هذه المرة. "لا أعرف ماذا تقصد بغير لائق يا سيدى. إنه لم يستخدم أبدًا لغة بذيئة معى".

"هل حاول أن يلمسك أبدًا؟ هل حاول أن يتحرر معك؟"

"فقط فيما هو معتاد، يا سيدى".

"معتاد؟" يقول سايمون. لقد شعر بالحيرة. فهو لا يعرف كيف يقول ما يعنيه دون أن يكون مباشرًا جدًّا: وتنتاب جريس موجة من الاحتشام المتكلف.

وتقول باحتشام: "كان سيدًا طيبًا بما يكفى مع خادمة يا سيدى، ومتحررًا عندما يريد."

وتمكن نفاذ الصبر من سايمون، ماذا تعنى جريس؟ هل تقول أنها كانت تتلقى أجرًا على تساهلها معه؟ يقول: "هل حدث أن وضع يده داخل ملابسك؟ هل كنت ترقدين له؟"

تقوم جريس واقفة، وتقول: "لقد سمعت ما يكفى من هذا النوع من الكلام، أنا لست مضطرة للبقاء هنا. إنك لا تختلف عنهم فى المصحة، ولا عن كهنة السجن، ولا عن د. بانرلينج وأفكاره القذرة!"

ووجد سايمون نفسه يعتذر إليها، وأنه لم يتصرف بحكمة علاوة على ذلك. وعندما يهدأ غضبها، يقول: "اجلسى من فضلك، فلنعد إلى سلسلة الأحداث. ركب مستر كينير ورحل فى الساعة الثالثة يوم الثلاثاء. ثم ماذا حدث؟"

"قالت نانسى أن علينا نحن الاثنين أن نرحل فى اليوم بعد التالى، وأن معها رواتبنا التى ستدفعها لنا. وقالت أن مستر كينير قد اتفق معها".

"هل صدقت هذا؟"

"صدقت ذلك بالنسبة لمكدرموت، لكنى بالنسبة لى لم أصدق".

يقول سايمون: "ليس بالنسبة لك؟"

"لقد خشيت أن مستر كينير سوف يعجب بى أكثر منها. كما سبق أن قلت، يا سيدى، كانت فى طريقها لإنجاب طفل، وغالبًا فإن هذا ما يحدث مع الرجال؛ فهم يريدون تغيير المرأة التى فى هذه الحالة إلى امرأة ليست كذلك، وهو نفس الشىء مع البقر والجياد، وإذا حدث هذا، فسوف يكون مصيرها إلى الطريق، هى وابنها غير الشرعى. كان واضحًا

أنها أرادت أن تتخلص من وجودى فى طريقها، وأن أذهب قبل أن يعود مستر كينير إلى البيت. ولا أظن أنه كان يعلم شيئًا عن ذلك."

"ماذا فعلت حينئذ يا جريس؟"

"بكيت يا سيدى. فى المطبخ. لم أكن أريد الذهاب، ولم يكن لدى وظيفة أخرى أذهب إليها. كل شىء كان مفاجئًا، ولم يكن لدى وقت للبحث عن وظيفة. وكنت أخشى ألا تدفع لى أجرى على أية حال، وألا تكتب لى توصية، وماذا أفعل حينئذ؟ وكان مكدرموت يخشى نفس الشىء."

وعندما تتوقف عن المواصلة، يقول سايمون: "ثم..؟"

"كان هذا هو الوقت، يا سيدى، الذى قال فيه مكدرموت أن لديه سرًّا، ووعدته ألا أخبر أحدًا؛ وأنت تعرف يا سيدى أن بذل مثل هذا الوعد، يعنى أننى ملتزمة به. وهنا قال إنه سوف يقتل نانسى بالفأس، وأنه سيخنقها أيضًا، ويقتل مستر كينير بطلقة من البندقية عندما يعود، ويأخذ الأشياء الثمينة؛ وأن علىّ أن أساعده، وأن أذهب معه إذا كنت أعرف مصلحتى، لأننى إذا لم أفعل فسوف تلصق بى تهمة فعل كل هذا. وإذا لم أكن فى مثل هذه الحالة من الكدر لربما كنت ضحكت منه، لكننى لم أفعل؛ وأقول لك الحق، تناولنا أنا وهو كأسًا أو اثنتين من ويسكى مستر كينير، حيث رأينا أنه لا شىء يمنعنا من أن نبر أنفسنا به، حيث أننا على وشك الطرد على أية حال. كانت نانسى قد ذهبت لزيارة آل رايت، ومن ثم كانت لنا حرية فى التصرف".

"هل صدقت أن مكدرموت سوف يفعل ما قال؟"

"ليس تمامًا، يا سيدى. فمن ناحية، ظننت أنه يتشدق بالكلام، ويحاول أن يظهر كم هو رجل ممتاز والأشياء التى يقدر على فعلها. وهو أمر كان غرضة لأن يفعله عندما يكون ثملاً؛ وكذلك كان أبى بنفس الطريقة. ولكن فى نفس الوقت، بدا لى أنه يتحدث بجدية، وشعرت بالخوف منه؛ وكان فى نفسى شعور قوى كما لو كان ذلك قدرًا مقدرًا، وأنه لا يمكن تجنبه، مهما فعلت".

"لماذا لم تحذرى الجميع؟ لماذا لم تحذرى نانسى نفسها عندما رجعت من زيارتها؟"

تقول جريس: "ولماذا كان يمكن أن تصدقنى يا سيدى؟ كان ذلك سيبدو غباء شديدًا، إذا أعلنته على الملأ. ربما كانت تظن أننى أحاول الانتقام منها لأنها طلبت منى ترك المكان؛ أو أن الأمر لا يزيد على خناقة بين الخدم، وأننى كنت أحاول الانتقام من مكدرموت. لم يكن هناك ما يُثبت أى شىء سوى كلامى، وهو ما يمكن أن ينكره ببساطة، ويقول أننى مجرد بنت سخيفة فى حالة هستيريا. وفى نفس الوقت، إذا كان مكدرموت يعنى ما يقول فعلاً، فربما يقتلنا نحن الاثنتين فى نفس المكان واللحظة؛ ولم أكن أريد أن أقتل. وأفضل شىء كان يمكننى أن أفعله هو أن أحاول تأخيره عن تنفيذ ما يقول حتى يعود مستر كينير. وفى البداية قال أنه سوف ينفذ الأمر فى تلك الليلة، وأقنعته ألا يفعل."

يقول سايمون: "كيف استطعت ذلك؟"

"قلت له أنه إذا قُتلت نانسى يوم الخميس، فإن ذلك يعنى يومًا كاملاً ونصف يوم يجب أن نعمل خلالهما حساب الرد على أين تكون لأى

شخص قد يسأل. بينما إذا ترك الأمر لينفذه فيما بعد، فسوف تكون احتمالات إثارة الريبة أقل."

يقول سايمون: "فهمت، معقول جدًّا."

تقول جريس بكرامة: "أرجوك لا تسخر منى يا سيدى، إن الأمر شديد التكدير والأسى بالنسبة لى، وأكثر تكديرًا إذا وضعت فى اعتبارك أننى مطلوب منى أن أتذكر."

يقول سايمون أنه لم يقصد ذلك. ويبدو أنه يقضى الكثير من الوقت فى الاعتذار إليها. ويسألها محاولاً أن يبدو عطوفاً، وليس شديد اللهفة: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

" عادت نانسى من زيارتها، وكانت فى حالة سرور تام. كانت تلك عادتها دائمًا، بعد أن تكون فى حالة غضب، أن تتظاهر كما لو لم يحدث شىء، وأننا كلنا أصدقاء كأحسن ما يكون؛ على الأقل عندما يكون مستر كينير غائبًا. كانت تتصرف كما لو لم تكن قد طلبت منا الرحيل، أو وجهت إلينا أية كلمات قاسية، وسار كل شىء كما هو معتاد. تناولنا عشاءنا نحن الثلاثة سويًّا فى المطبخ، لحم بارد، وبطاطس صنعتها على طريقة سلطة بالثوم من الحديقة، وكانت تضحك وتثرثر. كان مكدرموت متجهمًا وصامتاً، ولكن تلك كانت عادته؛ وذهبت ونانسى إلى النوم سويًّا، كما هو معتاد عندما يكون مستر كينير بعيدًا عن البيت، وتفسير ذلك بأنها تخشى اللصوص؛ ولم تشك فى شىء. ولكنى توثقت من إغلاق باب غرفة النوم بالمزلاج جيدًا."

"لماذا؟"

"كما قلت من قبل، إننى دائمًا أغلق المزلاج عندما أنــام. لكــن أيضًا، كان لمكدرموت فكرة غبية أن يتسلل إلى البيت ليلاً بالفــأس. كــان يريد قتل نانسى وهى نائمة. وقلت أنه لا يجب أن يفعل ذلك، فقــد يقتلنــى خطأ؛ ولكن كان من الصعب إقناعه. قال أنه لا يريد أن تنظر إليــه وهــو يفعل ذلك."

يقول سايمون بطريقة جافة: "يمكن أن أفهم هذا"، ثــم يضــيف: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

بدأ يوم الجمعة وكل شيء يبدو صحيحًا ومضبوطًا لمن يرى من الظاهر، كانت نانسى فى غاية المرح والسرور، ولم توجــه أية انتقــادات أو شتائم، أو ليس بالكثرة المعتادة، وحتى مكدرموت كان أقل تجهمًا فــى الصباح، فقد قلت له أنه إذا ظل بهذا الوجه المروع فمن المؤكد أن نانسى سوف ترتاب فى أنه كان ينوى شرًّا.

وفى منتصف ما بعد الظهر جاء الفتى چيمــى وولــش يحمــل الفلوت، كما طلبت منه نانسى، وقالت حيث أن مستر كينير ليس موجودًا، فإنه يمكننا أن نحتفل كلنا معًا. ولا أعرف أى شيء نحتفل به، ولكن نانسى كانت شديدة الحيوية والمرح عندما ترتفــع معنوياتهــا، وتحــب الغنــاء والرقص. تعشينا عشاء جيدًا، وتناولنا معه دجاجًا مشويًّا بــاردًا، وشــربنا بيرة لنبلِّع بها؛ ثم طلبت نانسى من چيمى أن يعزف لنا، فسألنى إذا كنــت أحب أن أسمع لحنًا معينًا بشكل خاص، وكان شديد الرقة والمجاملة معى، وهو الأمر الذى كان يكرهه مكدرموت، وقال له أن يتوقف عن توجيه تلك النظرات الوالهة لى، لأنها تقلب البطن؛ واشتعل وجــه چيمــى المســكين بحمرة الخجل. ثم قالت نانسى لمكدرموت أن يتوقف عن مضايقة الصبى،

وسألته ألا يتذكر عندما كان هو نفسه صبيًا؛ وقالت لچيمى أنه سوف يكون وسيمًا عندما يكبر ــ كانت دائمًا قادرة على قول هـذه الأشـياء ــ وأنـه سوف يكون أكثر وسامة بكثير من مكدرموت بعبوسه وتبويزه، وعلى أيـة حال فإن الوسامة هى وسامة الطبع؛ ورماها مكدرموت بنظـرة كراهيـة شديدة، وتظاهرت هى بأنها لا تراها. ثم أرسلتنى إلى القبو لإحضار مزيد من الويسكى، فقد أنهينا الموجود منه بمرور الوقت.

ثم رحنا نضحك ونغنى، أو راحت نانسى تضحك وتغنـى، ثـم تابعت معها، غنينا أغنية "زهرة ترالى"، وتذكرت مارى هويتنى، وتمنيـت من كل قلبى لو كانت معنا هناك، فقد كانت ستعرف ما يجب فعله، وكانت ستساعدنى للخروج من أزمتى. أما مكدرموت فقد رفض الغناء، فقد غلبته حالة مزاج عكر؛ كما رفض الرقص عندما حثته نانسـى، وقالـت أنهـا فرصته ليثبت صحة ما يتشدق به من أنه راقص ماهر. كانـت تريـد أن نفترق أصدقاء، لكنه لم يفهم شيئًا من ذلك.

بعد بعض الوقت، بدأت الحفلة تخبو وتفقد الحياة. قال چيمى أنـه تعب من العزف، وقالت نانسى أن وقت النوم قد حان، وقال مكدرموت أنه سيوصل چيمى إلى بيته عبر الحقول، وأظن أنه فعل ذلك ليتأكد من ذهابه بالفعل. ولكن، عندما عاد مكدرموت كنت أنا ونانسى فى الطابق الأعلـى بالفعل، فى غرفة مستر كينير، وقد أغلقنا الباب بالمزلاج.

يقول سايمون: "غرفة مستر كينير؟"

تقول جريس: "كانت هذه فكرة نانسى، قالـت أن سـريره أكبـر وأكثر برودة فى الجو الحار، كذلك كانت لى عادة الرفس بقدمى وأنا نائمة، وعلى أية حال فإن مستر كينير لن يكتشف شيئًا، حيث أننا نحـن اللتـان

نرتب الأسرة، وليس هو؛ وحتى لو اكتشف، فإنه لن يهتم، وإنما سوف تعجبه بلا شك فكرة أن تنام فتاتان من الخدم في فراشه مرة واحدة. كانت قد شربت عدة كئوس من الويسكي، وتتكلم بطيش وتهور.

"وعلى أية حال فقد حذرت نانسي بالفعل يا سيدي، فعندما كانت تمشط شعرها قلت لها إن مكدرموت يريد أن يقتلك. فضحكت وقالت: هذا ما أتوقعه. وأنا أيضًا لن يضايقني لو أقتله، فليس بيننا مودة متبادلة. قلت لها: إنه جاد. قالت بخفة: إنه ليس جادًا أبدًا في أي شيء، فهو دائمًا يقول ويتشدق، وكل هذا مجرد هواء.

"وهكذا عرفت في تلك اللحظة أنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا لإنقاذها.

"وما أن رقدت نانسي في السرير حتى غرقت في النوم لتوها. جلست أمشط شعري، في ضوء شمعة وحيدة، والمرأة العارية في الصورة تنظر لي، تلك التي كانت تأخذ حمامًا في الخارج، والأخرى التي تضع ريش الطاووس، وكانت المرأتان كلتاهما تبتسمان بطريقة لم تعجبني."

"في تلك الليلة رأيت ماري هويتني في الحلم. ولم تكن تلك هي المرة الأولى، فقد رأيتها في الحلم من قبل، ولكنها لم تتكلم أبدًا؛ فقد كنت أراها تنشر الغسيل وتضحك، أو تقشر تفاحة، أو تختبئ خلف الغسيل المنشور على الحبل في العلوية، وكلها أشياء اعتادت أن تعملها قبل بداية متاعبها، وعندما كنت أحلم بها بهذه الطريقة كنت أستيقظ مرتاحة، كما لو كانت لا تزال حية وتعيش سعيدة.

"لكن هذه كانت مشاهد من الماضي. أما هذه المرة فقد كانت في الغرفة معي، نفس الغرفة التي كنت فيها، غرفة نوم مستر كينير. كانت

تقف بجوار السرير فى ردائها الليلى، وشعرها منسدل كما كانت عند دفنها؛ وعلى الجانب الأيسر من جسدها كان يمكننى رؤية قلبها، أحمر يسطع من خلال ردائها الأبيض. ولكن حينئذ رأيت أنه لم يكن قلبًا على الإطلاق، وإنما هو كيس الإبر الأحمر الذى صنعته لها فى ذلك الكريسماس، والذى وضعته معها فى الكفن تحت الزهور والبتلات المنثورة، وأسعدنى أنها لا تزال تحتفظ به معها ولم تنسنى.

"كانت تمسك فى يدها كأسًا زجاجية، وداخلها فراشة النار، محبوسة وتلمع بنار باردة ومخضرة. كان وجهها شديد الشحوب، ولكنها نظرت لى وابتسمت؛ ثم رفعت يدها من فوق الكوب، فطارت الفراشة وحومت فى الغرفة؛ وعرفت أن هذه هى روحها، وأنها كانت تحاول أن تجد طريقها إلى الخارج، لكن النافذة كانت مغلقة؛ ثم لم أستطع أن أعرف أين ذهبت. ثم استيقظت، ودموع الحزن تجرى على وجهى، لأن مارى فقدت منى مرة أخرى.

"رقدت فى الظلام، مع صوت تنفس نانسى؛ وكنت أسمع فى أذنى صوت قلبى يدق بعنف، كما لو كنت أسير فى طريق طويل ومجهد مُقدّر علىّ السير فيه سواء أردت أم لم أرد، ومن يستطيع أن يعرف متى أصل إلى نهايته. كنت أخشى أن أنام ثانية، خوفًا من أن أحلم ثانية مثل هذا الحلم، ولم يكن خوفى بلا أساس، لأن هذا هو ما حدث فى الواقع.

"وفى هذا الحلم الجديد، حلمت أننى أسير فى مكان لم أكن فيه من قبل، له جدران عالية من الحجر تحيط به من كل ناحية، جدران رمادية وجرداء مثل حجارة القرية التى ولدت فيها، هناك فى الجانب الآخر من المحيط. وكانت الأرض مفروشة بحصوات رمادية مقلقلة، ومن بين

الحصى كانت زهور الفاوانيا تنمو. كانت تخرج من الأرض وعليها البراعم، صغيرة وصلبة كالتفاحات غير الناضجة، ثم تفتحت، وإذا بها زهور هائلة الحجم من لون أحمر قاتم، وبتلات مزججة، مثل الساتان؛ ثم انفجرت فى الريح ووقعت على الأرض.

"وفيما عدا لونها الأحمر، كانت تلك الزهور تشبه زهور الفاوانيا فى الحديقة الأمامية فى أول يوم جئت فيه إلى بيت مستر كينير، عندما كانت نانسى تقطف آخر هذه الزهور؛ ورأيتها فى الحلم، بمثل ما رأيتها فى ذلك اليوم، فى ردائها الفاتح اللون، ذى البراعم الحمراء والتنورة ذات الحاشية الثلاثية، والقبعة القش التى كانت تغطى وجهها. كانت تحمل سلة مسطحة لتضع الزهور فيها؛ ثم استدارت ووضعت يدها على رقبتها وكأنما فوجئت.

"ثم وجدت نفسى مرة أخرى فى الفناء الملىء بالحصى، أسير وأطراف حذائى تظهر وتختفى تحت أطراف تنورتى، والتى كانت مخططة بالأبيض والأزرق. وأعرف أننى لم يكن عندى أبدًا تنورة كهذه من قبل، وعند رؤيتها شعرت بثقل عظيم، وأسى هائل. ولكن أزهار الفاوانيا استمرت فى الظهور من بين الحجارة؛ وعرفت أنها فى مكان لا يجب أن تكون فيه. ومددت يدى لألمس واحدة منها، وشعرت بها جافة، وعرفت أنها من القماش.

"ثم أمامى رأيت نانسى، على ركبتيها، وشعرها ينسدل، والدم يجرى نازلاً على عينيها. وحول رقبتها كان يوجد منديل قطنى أبيض به وردات زرقاء من نوع "الحب فى الضباب"، وكان منديلى. كانت ترفع يديها إلى مسترحمة؛ وفى أذنيها الحلق الذهبى الذى كنت أحسدها عليه.

وأردت أن أجرى إليها وأساعدها، لكنى لم أستطع؛ وظلت قدماى تسيران فى نفس الخطوات بسرعة ثابتة، وكأنما لم تكونا قدماى على الإطلاق. وعندما كدت أصل إلى نانسى، إلى حيث كانت تركع، ابتسمت. لكن الابتسامة كانت على فمها وحده، أما عيناها فقد اختفتا خلف الشعر والدم، ثم انفجرت إلى لطخات من الألوان، وتناثرت فى تيار من البتلات القماش البيضاء والحمراء تجرى عبر الحجارة.

"ثم عاد الظلام فجأة، وكان رجل يقف هناك ممسكًا قنديلاً، يسد مدخل السلالم الصاعدة، وجدران القبو حولى من كل ناحية، وعرفت أننى لن أخرج أبدًا."

يقول سايمون وهو يكتب بسرعة هائلة: "هل كان هذا الحلم قبل الحدث؟"

تقول جريس: "نعم يا سيدى، ومرات عديدة بعد ذلك". تدنى صوتها حتى صار همسًا. "ولهذا وضعت هناك."

يقاطعها سايمون: "هناك؟"

"فى المصحة يا سيدى. بسبب الأحلام السيئة." كانت قد وضعت القماش الذى تخيطه جانبًا، وتنظر إلى يديها.

يسألها سايمون برقة: "الأحلام فقط؟"

"قالوا أنها لم تكن أحلامًا على الإطلاق يا سيدى. قالوا أننى كنت مستيقظة. ولكنى لا أريد أن أتكلم أكثر عن ذلك."

- ٣٦ -

"فى صباح السبت، استيقظت فى الفجر. كان الديك يصيح فى الخارج فى حظيرة الدجاج؛ كان صياحه أجش وله صلصلة، وكأنما هناك يد تمسك برقبته وتحاول خنقه بالفعل، وقلت فى نفسى: إنك تعلم أن مصيرك إلى حلة المرق قريبًا. سرعان ما سوف تصبح جثة. ورغم أننى كنت أفكر فى الديك، إلا أننى لا أنكر أننى كنت أفكر فى نانسى أيضًا. ويبدو ذلك نوعًا من البرود، وربما كان الأمر كذلك. شعرت برأسى خفيفة، وأننى منفصلة عن ذاتى، وكأننى لست موجودة بنفسى، وإنما بجسدى وحده.

"أعرف أن هذه أفكار غريبة، والاعتراف بها أغرب يا سيدى، لكننى لن أكذب ولن أخفى شيئًا منها، رغم أن ذلك سهل، لأننى لم أخبر بها أحدًا من قبل. إننى أريد أن أروى كل شىء بالضبط كما حدث لى، وتلك هى الأفكار التى وردت على خاطرى.

"كانت نانسى لا تزال نائمة، وحرصت على ألا أقلقها. شعرت أنها من الأفضل أن تستنفد كل النوم الذى تحتاجه، وكلما طال بقاؤها فى الفراش كلما تأخر حدوث أى شىء، سواء لها أو لى. وبينما أتسلل بحرص

من سرير مستر كينير، زامت نانسى، وتقلبت، وتساءلت فى نفسى مـــا إذا كانت تمر بحلم مزعج.

"كنت فى الليلة الماضية قد ارتديت ثوب النوم فى غرفتى الواقعة عبر المطبخ الشتوى قبل الصعود إلى الطابق الأعلى بشمعتى، ومـــن ثـــم عدت إلى هناك وارتديت ثيابى كالعـــادة. كل شىء كان كالمعـــتاد، إلا أنه لم يكن كالمعتاد، وعندما ذهبت لأغسل وجهى وأمشط شعرى، بـــدا لـــى وجهى فى مرآة حوض المطبخ لا يشبه وجهى على الإطلاق. كان يبـــدو أكثر استدارة وبياضًا، وبدت عيناى كبيرتين محدقتين مروعتين، وأحسست بأننى لا أريد النظر إلى هذا الوجه.

"دخلت إلى المطبخ، وفتحت مصاريع النافـــذة. كانـــت الكئـــوس والأطباق من الليلة الماضية لا تزال على المنضدة، وبـــدت لـــى بائســـة وشديدة التوحد، وكأنما حدثت كارثة عظيمة فجأة قضت على كل من أكلوا وشربوا منها، وها أنا أمر عليها بالمصادفة، بعد سنوات كثيرة؛ وشـــعرت بحزن شديد. جمعتها وحملتها إلى الغسيل.

"وعندما عدت، كان ثمة ضوء غريب فى المطبخ، كأنمـــا هنـــاك طبقة رقيقة من الفضة تغطى كل شىء، أشبه بالصقيع ولكنها أكثر نعومـــة ورقة، مثل الماء الذى يجرى بطبقة رقيقة فوق حجارة منبسطة مســـطحة؛ ثم انفتحت عيناى وعرفت أن هذا لأن الرب جاء إلى البيت وأن هذه هـــى الطبقة الفضية التى تغطى السماء. جاء الرب إلى البيت لأن الرب فى كل مكان، لا يمكنك أن تمنعه من الدخول، فالرب جزء من كل شىء موجود، فكيف يمكنـــك أن تبنى جدارًا أو أربعـــة جـــدران أو بابًا أو نافذة مغلقـــة لا يدخل الرب منها ويعبرها مثل الهواء.

"قلت ماذا تبغى هنا، لكنه لم يجب، وإنما ظل ضوءًا فضيًّا، فذهبت لأحلب البقرة؛ لأن الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفعله في هذه الحالة هو أن تستمر في عملك أيًّا كان الأمر، حيث أنك لن تستطيع أن تمنعه عن شيء أو تعرف منه أسباب أي شيء. فليس هناك إلا "كُنْ"، فيكون، لكن ليس هناك أية أسباب يمكنك أن تعرفها.

"عندما عدت بدلوى اللبن، رأيت مكدرموت في المطبخ. كان ينظف الأحذية. قال: أين نانسى؟

"قلت: إنها ترتدى ثيابها، هل تنوى قتلها هذا الصباح؟

"قال: نعم، عليها اللعنة، سوف آخذ الفأس وأذهب لأضربها على رأسها.

"وضعت يدى على ذراعه، ونظرت في وجهه. قلت: لن تفعل بكل تأكيد، لا يمكنك أن تنزل بنفسك إلى ارتكاب مثل هذا الأمر الشرير. لكنه لم يفهمنى، وظن أننى أسخر منه، ظن أننى كنت أصفه بالجُبن.

قال غاضبًا: دقيقة واحدة وسوف ترين ما يمكننى أن أفعله.

قلت: أرجوك، بالله عليك لا تقتلها في الغرفة، وإلا امتلأت الأرض بالدماء. كان قولاً أحمق سخيفًا لكن هذا ما خطر ببالى، وكما تعلم يا سيدى، كان تنظيف أرضيات ذلك البيت هو عملى، وكانت هناك سجادة في غرفة نانسى. ولم يحدث أبدًا أن حاولت تنظيف سجادة من الدم، ولكنى غسلت دماء من أشياء أخرى، وليس ذلك عملية يستهان بها.

"نظر لي مكدرموت نظرة احتقار، وكأنني كنت حمقاء أو بلهاء، ولابد أنني كنت أبدو كذلك بالفعل. ثم دخل إلى البيت، وتناول الفأس الذي كان بجوار الكتلة الخشبية التي يقطع الأخشاب عليها.

"لم أستطع أن أفكر ماذا أفعل. ذهبت إلى الحديقة، لأجمع بعض الثوم، لأن نانسي كانت قد طلبت أومليت على الإفطار. كانت الحلزونات تقوم بعملها في تخريم أوراق الخس الملتفة. انحنيت وأخذت أراقبها، بعيونها البارزة فوق سيقان قصيرة؛ ومددت يدي لأجمع الثوم، وبدت لي يدي وكأنها لم تكن يدي على الإطلاق، وإنما قشرة يدي أو جلدها وبداخلها تنمو يد أخرى.

"حاولت أن أصلي لكن الكلمات لم تخرج من فمي، وأعتقد أن هذا لأنني تمنيت الشر لنانسي، لقد تمنيت لها الموت بالفعل؛ لكني لم أكن أتمنى ذلك في تلك اللحظة. ولكن لماذا أنا بحاجة للصلاة إذا كان الرب بنفسه هناك، يحوم فوقنا مثلما كان ملاك الموت يحوم فوق المصريين، كنت في داخل قلبي أشعر بأنفاسه الباردة، وأسمع رفرفة جناحيه السوداوين. فكرت أن الرب في كل مكان، فالرب في المطبخ، والرب في نانسي، والرب في مكدرموت، وفي يدي مكدرموت، وفي الفأس أيضًا. ثم سمعت صوتًا غريبًا في داخلي، مثل باب ثقيل يصفق مغلقًا، وبعد ذلك لا أذكر أي شيء لفترة من الوقت."

يقول سايمون: "لا تذكرين القبو؟ ولا رؤية مكدرموت يجر نانسي من شعرها نحو باب الأرضية المؤدي إلى القبو؟ وإلقائها من فوق السلم؟ كان ذلك في اعترافك."

تمسك جريس بجانبى رأسها بيديها. "ذلك ما أرادونى أن أقولـــه. قال لى مستر ماكنزى أننى يجب أن أقول ذلـــك لأنقــذ حيـــاتى". وفجـــأة ترتعش. "قال أنها ليست كذبة، فلابد أن ذلك هو ما حدث، سواء يمكننى أن أتذكره أم لا."

"هل أخذت المنديل من حول رقبتك وأعطيته لمكدرموت؟" يبـــدو سايمون رغمًا عنه أشبه بمحام فى المحكمة، لكنه يستمر.

"المنديل الذى استخدم فى خنق نانسى المسكينة؟ كـــان منـــديلى، أعرف هذا. لكنى لا أتذكر أننى أعطيته له."

يقول سايمون: "ولا وجودك فى القبو؟ ولا مساعدته فى قتلـــــها؟ ولا فى رغبتك فى سرقة القرط من الجثة، كما يقول أنك كنت تريـــدين أن تفعلى؟"

تغطى جريس عينيها بإحدى يديها للحظات، ثم تقول: "كـــل هـــذا الوقت مظلم بالنسبة لى يا سيدى، وعلى أية حال، لم تؤخـــذ أيـــة أقـــراط ذهبية. أنا لا أقول أننى لم أفكر فى الأمر فيما بعد، عندما كنا نجهز متاعنا للرحيل؛ لكن التفكير فى أمر ليس مثل فعله. ولو كنا نحاكم على أفكارنـــا، فلربما نشنق جميعًا."

يجد سايمون أنه يجب أن يعترف بأن هذا صحيح وعادل. يحاول خطًا آخر. "شهد جيفرسون الجزار بأنه تكلم معك فى ذلك الصباح".

"أعرف أنه فعل يا سيدى، لكنى لا أستطيع أن أتذكر ذلك."

"يقول أنه دهش، حيث أنه لم يكن من المعتاد أنك أنت التى تصدرين الأوامر، وإنما نانسى، ولكن زادت دهشته عندما قلت له أنكم لا تريدون لحمًا طازجًا ذلك الأسبوع. فقد وجد أن هذا غريب للغاية".

"يا سيدى، إذا كنت أنا، وفى تمام عقلى، وإذا كانت لدى شجاعتى، لأمرت باللحم كالمعتاد. فهذا سيكون أقل إثارة للشكوك".

ويجد سايمون نفسه يوافق على هذا. يقول: "حسنًا، ما هو الشىء الذى تتذكرينه بعد ذلك؟"

"وجدت نفسى أقف عند مقدمة البيت يا سيدى، فى المكان الذى توجد فيه الزهور. كنت فى حالة دوار شديد، وأشعر بصداع. كنت أفكر أنه لابد أن أفتح الشباك؛ لكن هذا كان تفكيرًا أحمق، لأننى كنت فى الخارج بالفعل. ولابد أن الساعة كانت حوالى الثالثة. كان مستر كينير قادمًا على الممشى، بعربته الخفيفة وقد أعيد طلاؤها باللونين الأصفر والأخضر. جاء مكدرموت من الخلف، وساعدنا فى حمل الحقائب، ونظر لى مكدرموت نظرة تهديد؛ ثم دخل مستر كينير إلى البيت، وعرفت أنه يبحث عن نانسى. ومر بعقلى خاطر ــ لن تجدها هناك، يجب أن تنظر تحت، إنها جثة ــ وشعرت بخوف شديد.

"ثم قال لى مكدرموت، أعرف أنك ستقولين، وإذا فعلت فحياتك لن تساوى قشة. وقد أربكنى هذا. قلت: ماذا فعلت؟ قال ضاحكًا: أنت تعرفين جيدًا. ولم أكن أعرف؛ لكنى الآن ارتبت فى أسوأ ما يمكن. ثم جعلنى أعده بأننى سأساعده فى قتل مستر كينير، قلت له أننى سأفعل؛ فقد رأيت فى عينيه أننى إذا لم أفعل لقتلنى أنا أيضًا. ثم أخذ الحصان والعربة إلى الإسطبل.

"ذهبت إلى المطبخ، لأستمر فى أداء واجباتى وكأنما لا شىء هناك. جاء مستر كينير وسألنى: أين نانسى؟ قلت أنها ذهبت إلى المدينة فى عربة المسافرين. قال إن هذا غريب، حيث أنه مر بهذه العربة فى الطريق ولم يرها. سألته إذا كان يريد شيئًا ليأكله، فقال نعم، وسأل: هل جاء جيفرسون باللحم الطازج؛ فقلت لا. قال ذلك أمر غريب، ثم قال أنه سوف يتناول شايًا مع خبز وبيض.

"صنعت له ما طلب، وذهبت به إليه فى غرفة الطعام، حيث جلس منتظرًا، يقرأ كتابًا أحضره معه من المدينة. كان العدد الجديد من "سيدات جودى"، التى كانت نانسى المسكينة تحب أن تقرأها، من أجل الاطلاع على الموضة؛ ورغم أن مستر كينير كان يتظاهر بأنها مجرد توافه نسائية، فقد كان هو نفسه ينظر فيها عندما تكون نانسى غير موجودة، ففيها أشياء أخرى غير الثياب؛ وكان يحب النظر إلى الطرز الجديدة من الثياب الداخلية، وقراءة المقالات التى تتحدث حول آداب السلوك بالنسبة للسيدات، وكثيرًا ما كنت أجده يضحك بصوت خافت على ما فيها عندما كنت أحضر له القهوة.

"عدت إلى المطبخ، وكان مكدرموت هناك. قال أظن أننى سوف أذهب لقتله الآن. لكننى قلت، يا إلهى يا مكدرموت، هذا استعجال زائد، انتظر حتى الظلام.

"ثم صعد مستر كينير إلى الطابق الأعلى ليأخذ سنة من النوم، وهو لا يزال يرتدى ثيابه، ومن ثم اضطر مكدرموت للانتظار، سواء أراد أم لم يرد. حتى هو لم يكن مستعدًا أن يطلق النار على رجل نائم. ظل مكدرموت يلازمنى طوال فترة ما بعد الظهر، ملاصقًا لى مثل الصمغ،

لأنه كان واثقًا أننى سوف أهرب وأشى به. كانت البندقية معه، وظل يعبث بها. كانت البندقية القديمة ذات الماسورة المزدوجة التى كان مستر كينيـــر يحتفظ بها من أجل صيد البط، لكنها لم تكن محشوة بطلقات صيد البط. قال أن لديه طلقتين رصاصيتين فيها ــ واحدة وجدها، والأخرى صنعها مــن قطعة من الرصاص؛ وأنه جاء بالبارود من على الطريق من عند صـــديقه جون هارفى، رغم أن حنا أبتون، العاهرة ذات الوجه الغليظ ــ وكانت تلك المرأة تعيش مع هارفى ــ قالت له أنه لا يمكنه أن يأخذه. لكنه أخذه على أية حال، وعليها اللعنة. وفى هذا الوقت كان فى حالة اهتيــاج وعصــبية شديدة، وشديد التبجح أيضًا والفخر بجرأته. كان يتلفظ بالكثير من اللعنات، لكننى لم أعترض، خوفًا منه."

"فى حوالى الساعة السابعة نزل مستر كينير، وشرب شايه، وكان فى حالة قلق شديد على نانسى. قال مكدرموت: سوف أفعلها الآن، عليــك أن تدخلى هناك وتطلبى منه أن يأتى إلى المطبخ لأستطيع أن أطلق عليــه النار على الأرض الحجرية. لكنى قلت أننى لن أفعل.

"قال فى هذه الحالة سوف يفعل ذلك بنفسه. سيجعله يأتى بإخباره أنه هناك خطأ ما فى السرج الجديد، وأنه مقطع إلى شرائط.

"لم أكن أريد أن يكون لى أى تدخل فى ذلك. أخذت صينية الشاى عبر الفناء إلى المطبخ الخلفى، إذ أن موقده هو الذى كان مشتعلاً، وكنــت سأقوم بالغسيل هناك؛ وبينما كنت أغسل الصينية سمعت صــوت إطــلاق البندقية.

"جريت إلى المطبخ الأمامى، ورأيت مستر كينير راقــدًا علــى الأرض ميتًا، ومكدرموت واقفًا أمامه. كانت البندقية على الأرض. حاولت

أن أجرى هاربة، فصرخ ولعن، وقال أننى يجب أن أفتح باب القبو الذى فى الصالة. قلت أننى لن أفعل؛ قال: سوف تفعلين. ففعلت، ورمى مكدرموت الجسد على السلالم.

"كنت فى فزع شديد حتى أننى جريت من الباب الأمامى إلى المرجة، وحولها وعبرت الطلمبة حتى وصلت إلى المطبخ الخلفى، ثم جاء مكدرموت خارجًا من باب المطبخ الأمامى ومعه البندقية، وأطلقها علىّ، ووقعت على الأرض فى إغماءة أشبه بالموت. وهذا كل ما أتذكره يا سيدى حتى وقت متأخر فى ذلك المساء."

"شهد چيمى وولش أنه جاء إلى الفناء حوالى الساعة الثامنة، ولابد أن هذا بعد إغماءتك مباشرة. وقال إن مكدرموت كان ما يزال ممسكًا بالبندقية، وادعى أنه كان يصطاد طيورًا".

"أعرف هذا يا سيدى"

"وقال أنك كنت واقفة إلى جوار الطلمبة. قال أنك قلت له أن مستر كينير لم يعد بعد، وأن نانسى ذهبت إلى آل رايت".

"لا يمكننى تفسير ذلك، يا سيدى".

"وقال أنك كنت فى حالة طيبة، وأن روحك المعنوية كانت عالية. قال أنك كنت ترتدين ثيابًا أفضل من المعتاد، وكنت ترتدين جوربًا أبيض. ولمح أنه كان جورب نانسى".

"لقد كنت هناك فى قاعة المحكمة يا سيدى. وسمعته يقول هذا؛ رغم أن الجورب كان يخصنى. ولكن فى ذلك الوقت كان چيمى قد نسى كل مشاعر الحب السابقة تجاهى، ولم يكن لديه إلا الرغبة فى تدميرى،

وفى شنقى لو كان ذلك ممكنًا. ولكننى لا أستطيع أن أفعل شيئًا فيما يقولـــه الآخرون."

كانت نغمة صوتها تنم عن اكتئاب وغم شديدين حتى أن سايمون يشعر بشفقة طاغية نحوها. ويشعر بدافع لأن يأخذها بين ذراعيه ويهـــدئ من روعها ويمسد شعرها.

يقول برقة: "حسنًا يا جريس، أرى أنك متعبة. سوف نمضى مـــع قصتك غدًا."

"نعم يا سيدى. أرجو أن تكون لدىّ القوة."

"سوف نصل إلى أعماقها إن عاجلاً أو آجلاً."

تقول بوهن: "أتمنى ذلك يا سيدى، سوف يكون فى ذلك الكثير من الراحة لى، وسوف أشعر بانفراج نفسى عندما أعلم الحقيقة كاملة أخيرًا."

تتخذ أوراق الأشجار مظهرها الخاص فى أغسطس ـ متربة، ومنهكة، وفاقدة للحيوية ــ لكن أغسطس لم يأت بعد. يسير سايمون متمهلاً فى طريق العودة وقد بدأت حرارة اليوم تضعف فى فترة بعد الظهر. يحمل معه الشمعدان الفضى؛ فلم يفكر فى استخدامه. يشعر به يثقل على ذراعه؛ وفى الواقع يحمل ذراعاه كلاهما توترًا غريبًا، وكأنما كان يجر حبلاً ثقيلاً بجهد كبير. ماذا كان يتوقع؟ الذاكرة الضائعة، بالطبع، الساعات القليلة الحاسمة. طيِّب، لم يحصل على ما أراد.

ويجد نفسه يتذكر ذات مساء منذ زمن بعيد، عندما كان لا يزال طالبًا فى هارفارد. كان قد ذهب إلى نيويورك فى نزهة مع والده، الذى كان لا يزال فى ذلك الوقت حيًّا وغنيًّا؛ وذهبا لزيارة الأوبرا. كان العرض هو أوبرا بيلينى "سونامبولا": "أمينا"، فتاة قروية بسيطة وطاهرة، وجدت نائمة فى غرفة نوم الكونت، التى دخلتها دون أن تعى فى حالة مشى أثناء النوم؛ وساءت سمعتها فى القرية وتخلى عنها خطيبها، رغم اعتراضات الكونت، التى كانت تقوم على معرفته العلمية المتقدمة؛ لكن عندما شوهدت أمينا تسير فى نومها عبر جسر محفوف بالمخاطر، والذى ينهار تحتها

فوق مياه النهر المندفعة، تظهر براءتها فوق الشكوك وتستيقظ من نومها لتستعيد السعادة الضائعة.

وكما أشار أستاذ اللغة اللاتينية، فهو مثال ذو مغزى أخلاقي يغذى الروح، جامع مانع، فاسم "أمينا" جناس ناقص مع "توم"(*) ولكن لماذا؟ سأل سايمون نفسه، هل يمكن وصف الروح بأنها غير واعية؟ ومما يثير المزيد من الحيرة أنه، عندما نامت أمينا، من الذى كان يسير؟ إنه سؤال يحمل الآن بالنسبة له مضامين أكثر إلحاحًا بكثير.

هل كانت جريس "غير واعية" فى الوقت الذى ادعت أنها كانت كذلك؟ أم أنها كانت فى تمام تيقظها كما شهد چيمى وولش؟ ما المدى الذى يسمح لنفسه بتصديقه من قصتها؟ هل يحتاج لإضافة ذرة ملح؟ أو ذرتين؟ أم ثلاثة؟ هل هى حقًا حالة من حالات فقدان الذاكرة؟ من نوع السير أثناء النوم؟ أم أنه ضحية دجالة ماكرة؟ ويحذر نفسه من التعميم المطلق: لماذا يتوقع منها ألا تقدم إلا الحقيقة الخالصة، الكاملة التى لا تشوبها شائبة؟ أى شخص فى وضعها سوف يختار ويعيد الترتيب ليعطى انطباعًا إيجابيًا. ومما يتفق مع صالحها أن معظم ما أخبرته به يتناغم مع اعترافها المطبوع؛ ولكن هل هذا لصالحها حقًا؟ من المحتمل أن يكون متناغمًا أكثر من اللازم. ويسائل نفسه فى عجب إن كانت تذاكر من نفس النص الذى كان يستخدمه هو نفسه، لتتمكن من إقناعه بشكل أفضل.

والصعوبة الحقيقية أنه يريد أن يقتنع. إنه يريدها أن تكون "أمينا". إنه يريدها أن تكون بريئة.

(*) فى الأصل الإنجليزى، الفتاة اسمها Amina، والجناس بين اسمها وبين anima الاسم اللاتينى لـ amnesia (فقدان الذاكرة).

ويقول لنفسه، لابد من الاحتراس. يجب التراجع. فإذا نظر إلى الأمر بموضوعية، فإن ما كان يجرى بينهما، رغم جزعها الواضح فيما يخص جريمتى القتل، وإذعانها الظاهرى، كان صراع رغبات. وهى لم ترفض أن تتكلم، على العكس تمامًا، لقد أخبرته بقدر كبير من الرواية، لكنها أخبرته فقط بما اختارت أن تخبره به. أما ما يريده فهو ما ترفض أن تخبره به؛ ما تختاره ربما ليس حتى أن تعرف. معرفة الذنب، أو على العكس، معرفة البراءة: كلاهما يمكن إخفاؤه. لكنه سوف ينتزع الحقيقة منها فى النهاية. فالسنارة الآن فى فمها، ولكن هل يستطيع أن يشد الخيط ليخرجها .. من الهاوية، من الظلمات إلى النور. ليخرجها من البحر العميق المعتم.

ويتعجب من نفسه، لماذا يفكر بهذه الطريقة المتطرفة. يقول لنفسه إنه يشعر بالمودة تجاهها، ويفكر فى الأمر كعملية إنقاذ، بكل تأكيد.

ولكن هل هى تفكر كذلك؟ إذا كان لديها أى شيء يحتاج للإخفاء، ربما سوف تريد أن تبقى فى المياه، فى الظلام، فى محيطها الملائم لها. ربما تخشى ألا تستطيع أن تتنفس إذا خرجت من المياه.

يقول سايمون لنفسه أنه يجب أن يتوقف عن أن يكون بهذا التطرف والتكلف. ربما يكون الأمر هو أن جريس فى حالة فقدان ذاكرة حقيقية. أو العكس التام، أو مذنبة تمامًا.

ويمكن بالطبع أن تكون مجنونة، ولكن لها تلك المعقولية الظاهرية المخادعة المدهشة للمجنون المحنك. بعض ذكرياتها، خاصة ذكريات يوم ارتكاب الجريمتين، توحى بنوع من الهوس أشبه بالهوس الدينى. ولكن نفس هذه الذكريات يمكن بلا ريب تفسيرها بأنها مخاوف

وأوهام الروح الساذجة. إن ما يريده هو التأكد، بطريقة أو بأخرى؛ وهــذا هو بالضبط ما تكبحه وتمنعه عنه.

ربما يكمن الخطأ فى الطرائق التى يتبعها. ومن المؤكد أن تقنيــة الإيحاء التى اتبعها لم تكن مثمرة: فالثمار كانت فشلاً ذريعًا. ربمــا هــو تجريبى ومتردد أكثر من اللازم، أو لطيف ولين العريكة أكثر من اللازم؛ ربما يجب استخدام شىء أكثر عنفًا. ربما يجب أن يشجع چيروم دو پونت فى تجربة التنويم العصبى هذه، ويعد لمشاهدتها بنفسه، وربما حتى يختار الأسئلة. إنه لا يثق بهذه الطريقة، ولكن، قد يظهر شىء جديد؛ قد يُكتشــف أمر ما لا يزال غير قادر على اكتشافه بنفسه حتــى الآن. ربمــا الأمــر يستحق المحاولة على الأقل.

يصل إلى البيت، ويتحسس جيبه بحثًا عن المفتاح، لكن دورا تفتح له الباب. ينظر إليها باشمئزاز: مثل هذه المرأة الخنزيرة، والتى تتصــاعد منها رائحة عرق نتنة فى هذا الجو الحار، لا يجب أن يُسمح لها بالظهور فى مكان عام. إنها تعتبر تشهيرًا بجنس النساء جميعًا. لقد ساعد هو نفســه فى إعادتها للعمل هنا ــ والواقع أنه قدم لهــا رشوة لتعــود ــ ولكن ذلك لا يعنى أنها أصبحت أفضل لديه مما فى السابق. ولا هو أيضًا بالنسبة لها، إذا حكمنا من النظرة المليئة بالحقد التى ترشقه بها من عينيها الصــغيرتين الحمراوين.

تقول: "إنها تريد أن تراك"، وهى تشــير برأســها نحــو خلفيــة المنزل. سلوكياتها شديدة الديمقراطية دائمًا وأبدًا.

كانت مسز همفرى تعارض عودة دورا بشــدة، ولا يمكنهــا أن تتحمل البقاء فى غرفة واحدة معها، وهذا أمر مبرر تمامًا ولا يثير الدهشة.

ورغم ذلك، فقد أشار سايمون إلى أنه لا يمكن أن يتوقع منه أن يعيش دون عناية وترتيب، وأن شخصًا ما لابد أن يؤدى أعمال البيت، وحيث لا يوجد أى أحد آخر فى الوقت الحالى، فسوف تفى دورا بالغرض. وقال أنه طالما تتلقى دورا أجرها، فسوف تكون طيِّعة بالقدر الكافى، أما الأدب والتهذيب فهو أكثر مما يمكن توقعه؛ وقد ثبت أن هذا هو الحال.

يسأل سايمون: "أين هى؟". ويراجع نفسه، لم يكن يجدر به أن يقول "هى"، فهى كلمة شديدة الحميمية. كان الأفضل أن يقول "مسز همفرى".

تقول دورا بازدراء: "ترقد على الأريكة على ما أعتقد،" وتضيف: "كعادتها دائمًا".

ولكن عندما يدخل سايمون إلى الردهة – التى لا تزال خالية من الأثاث فى معظمها، رغم أن بعض القطع الأصلية عادت إلى الظهور بشكل غامض – يجد مسز همفرى واقفة أمام المدفأة، وقد تهدل أحد ذراعيها برقة وتدلت اليد مستندة برشاقة على رف المدفأة الأبيض. اليد ذات المنديل الموشى بالدانتيلا. يشم رائحة بنفسج.

تقطع وقفتها الصامتة قائلة: "دكتور جوردان، لقد فكرت أنك قد تتفضل بتناول العشاء معى الليلة، كنوع من الرد البسيط على كل المجهودات التى بذلتها من أجلى. أنا لا أحب أن أكون متهاونة فى الاعتراف بالفضل. وقد أعدت دورا دجاجة صغيرة باردة". تلفظ كل كلمة بحرص وكأنما هى خطبة حفظتها عن ظهر قلب.

يرفض سايمون، بأقصى أدب يقدر عليه. يشكرها غاية الشكر، فهو هذا المساء لديه ارتباطات. وليس هذا بعيدًا عن الحقيقة: فقد وجهت له

مس ليديا دعوة لحضور نزهة تجديف فى الميناء الداخلى مع مجموعة من الشباب.

تقبل مسز همفرى رفضه بابتسامة فاتنة، وتقول أنهما سوف يفعلان ذلك فى وقت آخر. هناك شيء ما فى الطريقة التى تمسك نفسها بها ــ وكذلك فى الطريقة البطيئة المتعمدة لكلامها ــ يفاجئه بغرابته. هل كانت المرأة تشرب؟ عيناها لهما تحديقة معينة ويداها ترتعشان رعشة خفيفة.

وما أن يصعد إلى شقته، يبادر بفتح حقيبته الجلدية. كل شيء يبدو كما هو. الزجاجات الثلاث من اللودانوم موجودة، وليس منها واحدة تبدو أقل مما كان. ينزع سداداتها، ويتذوق المحتويات: واحدة منها عبارة عن ماء خالص. إذن، كانت تغير على مؤونته الدوائية، ولا يعلم إلا الله منذ متى. الآن، فقط، يرى معنى مختلفًا لنوبات الصداع المسائية التى تعانى منها. كان يجب أن يعرف: مع زوج مثل ذلك الذى كانت تعيش معه، فهى معرضة للبحث عن سند ما يساعدها على الاحتمال. ولابد أنها كانت تشترى عندما كان لديها نقود، ولكن، وقد أصبحت النقود نادرة، وأصبح هو أقل حذرًا ... كان يجب أن يغلق غرفته بالمفتاح، ولكن، الوقت الآن تأخر كثيرًا على أن يبدأ بفعل ذلك.

وبالطبع، ليس ثمة طريقة يمكن بها أن يذكر الأمر لها. فهى امرأة شديدة الحساسية. واتهامها بالسرقة لن يكون فقط قاسيًا، بل أيضًا مبتذلاً ورديئًا. ولكن، لقد خُدع رغم كل شيء.

يذهب سايمون إلى رحلة التجديف. كان الليل دافئًا وهادئًا، وثمة ضوء قمر. يشرب قليلاً من الشمبانيا ــ لم يكن ثمة إلا القليل ــ ويجلس

فى نفس قارب التجديف الذى تجلس فيه ليديا، ويلاطفها بطريقـــة يشـــوبها بعض الفتور. فهى على الأقل شخصية طبيعية وصحية، وجميلـــة أيضـًــا. ربما يجب أن يتقدم لها. وهو يظن أنها قد تقبل. ويشـــحنها إلـــى موطنـــه لاسترضاء أمه، يسلمها لها، ويتركهما تعملان معًا على رفاهيته.

سوف يكون هذا نوعًا من تقرير المصير، أو إضفاء الاســتقرار على ما هو فيه من تشوش وفوضى؛ أو إخراج نفسه مـــن طريـــق الأذى. ولكنه لن يفعل؛ فهو ليس بهذا الكسل، ولم يصل بعد إلى هذه الدرجة مـــن التعب، ليس بعد.

الفصل العاشر

سيدة البحيرة

ثم بدأنا نحزم الأشياء الثمينة التى يمكن أن نجدها؛ ونزلنا نحن الاثنين إلى القبو؛ كان مستر كينير راقدًا على ظهره فى مخزن النبيذ؛ حملت الشمعة؛ وأخذ مكدرمِوت المفاتيح وبعض النقود من جيوبه؛ ولم نقل شيئًا عن نانسى؛ لم أرها، لكننى عرفت أنها كانت فى القبو، وفى حوالى الحادية عشرة، أسرج مكدرموت الحصان؛ ووضعنا الصناديق فى العربة وبدأنا متجهين إلى تورنتو؛ قال إننا سوف نذهب إلى الولايات وأنه سوف يتزوجنى. وافقت على الذهاب؛ ووصلنا إلى تورنتو، إلى فندق المدينة، حوالى الساعة الخامسة؛ وأيقظنا الناس؛ وتناولنا إفطارنا هناك؛ وفتحت صندوق نانسى واستخدمت بعض أشيائها، وغادرنا بالمركب فى الساعة الثامنة، ووصلنا إلى لويستون فى حوالى الثالثة؛ ذهبنا إلى الخان، وفى المساء تعشينا على المائدة العامة، وذهبت للنوم فى غرفة منفصلة ومكدرموت فى غرفة أخرى؛ وقبل أن أذهب إلى النوم، قلت لمكدرموت أننى سوف أتوقف فى لويستون، ولن أواصل بعد ذلك؛ فقال أنه سوف يجعلنى أذهب معه، وفى حوالى الخامسة فى الصباح، جاء مستر كينجسميل، مساعد الشريف، وقبض علينا، وأعادنا إلى تورنتو.

اعتراف جريس ماركس

Star and Transcript، تورنتو، نوفمبر ١٨٤٣

يلتقى، بمصادفة قدرية واضحة،
بالفتاة المقدرة له؛ ثمة يد مخبأة
ترفع الحجب عن هذا الجمال ...
الذى لا يستطيع الآخرون فهمه.
تنمو مشاعره بفضل حضورها،
ليلتقى، ويكون جديرًا، بالوعد الـــذى فـــى
عينيها،
وحول الخطوات السعيدة لقدميها .. تهب
رياح الجنة الحقيقية...

كوفنترى باتمور،

The Angel in the House, 1854.

ـ ٣٨ ـ

ما أخبرنى به مكدرموت فيما بعد هو أنه بعد أن أطلق البندقية علىّ، ووقعت على الأرض فى إغماءة شديدة، أنه ملأ دلوًا بماء بارد من الطلمبة، ورماه فوقى، وأعطانى بعض الماء بالنعناع لأشـــربه، وأننـــى استعدت وعيى فورًا، وكنت فى حالة جيدة تمامًا وفـــى غايـــة المـــرح، وحميت النار فى الموقد وطبخت عشاء له، وكان مـــن لحـــم الخنزيـــر والبيض، وشاى بعد ذلك، وجرعة من الويسكى لتهدئنا؛ وأكلنا هذا العشاء سويًّا بشهية مفتوحة، ودق كل منا كأس الآخر بكأسه، وشربنا نخب نجاح مغامرتنا. لكنى لا أذكر أيًّا من ذلك على الإطلاق. ولا يمكن أن أكون قد تصرفت هكذا وكأنى بلا قلب، ومستر كينير يرقد ميتًا فى القبو، فضـــلاً عن نانسى، التى لابد أنها ميتة أيضًا، رغم أننى لم أكن أعرف على وجه اليقين ماذا حدث لها. لكن مكدرموت كان كذّابًا كبيرًا.

لابد أننى ظللت غائبة عن الوعى لفترة طويلة، لأننـــى حـــين تنبهت كان ضوء النهار يخبو. كنت راقدة على ظهرى فوق السرير فـــى غرفة نومى؛ وقد خُلعت قلنسوتى عنى، وكان شعرى كله منعكشًا ومسدلاً على كتفى، كما كان مبللاً، وكذلك الجزء الأعلى من ثوبى، ولابد أن هذا

حدث بسبب الماء الذى سكبه فوقى چيمس؛ ومن ثم فإن هذا الجزء على الأقل من روايته كان حقيقيًّا. رقدت هناك على السرير، محاولة أن أتذكر ماذا حدث، حيث أننى لم أستطع أن أتذكر كيف جئت إلى الغرفة. لابد أن چيمس حملنى إلى هنا، لأن الباب كان مفتوحًا على آخره، وإذا كنت دخلت بنفسى لكنت أغلقته جيدًا.

أردت أن أقوم وأغلق الباب، لكنى شعرت بألم فى رأسى، وكانت الغرفة شديدة الحرارة ولا هواء بها؛ فاستغرقت فى النوم مرة أخرى، ولابد أننى تحركت فى نومى بقلق شديد، لأننى عندما استيقظت كانت الملاءة والأغطية فى حالة مروعة وقد وقع الغطاء على الأرض. هذه المرة استيقظت فجأة وقمت جالسة مباشرة، ورغم الحرارة كان العرق البارد يغمرنى. والسبب أنه كان هناك رجل واقف فى الغرفة وقد انحنى ينظر إلى. كان چيمس مكدرموت، وظننت أنه قد جاء ليخنقنى فى نومى بعد أن قتل الآخرين. اختنق صوتى فى حلقى من الرعب، ولم أستطع أن أنطق بكلمة.

لكنه سألنى بعطف شديد، هل أشعر بأننى أفضل الآن بعد أن أخذت قسطًا من الراحة؛ واستطعت أن أنطق مرة أخرى، وقلت نعم. كنت أعرف أنه من الخطأ إظهار الخوف الشديد، وأن أفقد السيطرة على نفسى؛ لأنه فى هذه الحالة سيظن أنه لا يستطيع الثقة بى أو الاعتماد على قدرتى على التحكم فى أعصابى، وربما يخشى أن أنهار وأبدأ فى البكاء أو الصراخ عندما نكون وسط آخرين، وأكشف كل شىء؛ وهو السبب الذى جعله يطلق البندقية علىّ؛ وإذا كان قد فكر فى ذلك،

فلربما يتخلص منى بأسرع من طرفة عين، فهذا أفضل مــن أن يكــون هناك أى شاهد.

ثم جلس على جانب الفراش، وقال إن الوقت قد حــان للوفــاء بوعدى؛ وقلت أى وعد، فقال إننى أعرف جيدًا، لأننى وعدته بأن أهبــه نفسى مقابل قتل نانسى.

لم أستطع أن أتذكر قول أى شىء من هذا القبيل؛ لكنى كنت فى تلك اللحظة على قناعة تامة بأنه شخص مجــنون، وفكرت أنه قد فســر أى شىء قلته بالفعل بهذه الطريقة، كلمات بريئة، أو مجرد ما قد يقولــه أى شخص؛ مثل قولى يا ليتها تموت، وأننى سوف أعطــى أى شــىء مقابل ذلك. وقد كانت نانسى شديدة الخشونة والقسوة معى، مــن وقــت لآخر، ولكن هذا هو ما يقوله الخدم دائمًا، بعيدًا عن أســماع أســيادهم؛ فعندما تكون غير قادر على الرد علــيهم مباشــرة، فلابــد أن تعطــى مشاعرك متنفسًا بطريقة أو أخرى.

لكن مكدرموت قلب المعنى لشىء لم أقصده أبدًا، والآن يريد أن يلزمنى بأداء ثمن مساومة لم أكن طرفًا فيها. وكان جــادًّا للغايــة، فقــد وضع يدًا على كتفى، وكان يدفعنى للخلف على السرير. وراح يجــذب تنورتى باليد الأخرى؛ وفهمت من رائحته أنه كان يشرب مــن ويســكى مستر كينير، وبكمية كبيرة أيضًا.

عرفت أن الطريقة الوحيدة هى أن أجاريه. قلت: أوه، لا، وأنا أضحك، ليس فى هذا السرير، إنه ضيق للغاية وليس مريحًا لشخصــين على الإطلاق. هيا نذهب إلى أى سرير آخر.

وأدهشني أنه وجد ذلك فكرة جيدة، وقال سيكون من دواعي سروره أن ينام في سرير مستر كينير، حيث لعبت نانسي كثيرًا دور العاهرة؛ وفكرت أنني بمجرد أن أستسلم له، سوف يعتبرني عاهرة بالمثل، وسوف يعتبر حياتي رخيصة للغاية، والاحتمال الأغلب أن يقتلني بالفأس ويرميني في القبو، لقد كان يقول دائمًا أنه لا فائدة للعاهرات إلا مسح حذائك القذر وأنت تركلهن في كل مكان من أجسادهن القذرة. ومن ثم فكرت في خطة لتأخير الأمر، وتعطيله لأطول فترة ممكنة.

جذبني حتى قمت واقفة، وأوقدنا الشمعة التي كانت في المطبخ، وصعدنا فوق السلالم؛ ودخلنا إلى غرفة مستر كينير، التي كانت مرتبة والفراش نظيفًا ومجهزًا، فقد فعلت ذلك بنفسي في ذلك الصباح؛ ورمى مكدرموت الأغطية إلى الخلف، وجذبني إلى جواره على السرير. وقال: لا قش للحشو، لا شيء في الحشايا إلا ريش الإوز، لا عجب أن نانسي كانت تحب قضاء وقت طويل في هذا السرير؛ وللحظة بدا عليه الخوف، ليس بما فعل، وإنما بحجم السرير الكبير. ولكنه حينئذ بدأ يقبلني، وقال: الآن يا فتاتي، آن الأوان، وبدأ يفك أزرار ردائي؛ وتذكرت أن أجرة الخطيئة هي الموت، وشعرت بأنني سيغمى علي. ولكني كنت أعرف أنه لو أغمي علي لكنت في حكم الميتة، معه وهو في حالته هذه.

انفجرت في البكاء، وقلت لا، لا أستطيع، ليس هنا في سرير رجل ميت، هذا خطأ، وهو في القبو جسده متخشب ومتصلب؛ وبدأت أنهنه وأبكي.

تضايق مكدرموت للغاية، وقال أننى يجب أن أتوقف فى الحال، وإلا فسوف يصفعنى على وجهى؛ ولكنه لم يفعل. فما قلته جعل رغبتـــه تفتر، كما يقولون فى الكتب؛ أو كما قد تقول مارى هويتنى، أنـــه ألقـــى بالورقة الخاسرة. ففى تلك اللحظة كان مستر كينير، رغم أنه ميت، هـــو الرجل الأقوى منه.

شدنى من فوق السرير، وجرنى من ذراعى إلى الصالة، وكنت لا أزال أنوح وأبكى بكل طاقتى. قال: إذا لم يعجبك هذا السرير، ســـوف أفعل ذلك فى سرير نانسى، لأنك عاهرة كبيرة مثلما كانت هى. ورأيـــت وفهمت إلى أين تسير الأمور، وفكرت أن ساعتى الأخيرة قـــد حانـــت، وتوقعت أن يرمينى فى أية لحظة إلى الأسفل ويجرنى من شعرى.

دفع باب الغرفة بعنف، وجرنى إلى الداخل، وكانت الغرفة فى حالة فوضى، تمامًا كما تركتـــها نانسى، لأننى لم أكن قد رتبتـــها، حيث لا حاجة ولا وقت هناك لفعل ذلك. لكن عندما جـــذب الغطـــاء، كانـــت الملاءة كلها مبقعة بدم قاتم، وكان هناك كتاب على السرير، مغطى بالدم أيضًا. ما أن رأيته حتى ندت عنى صرخة رعب؛ لكن مكدرموت توقف، ونظر إليه، وقال، لقد نسيت هذا.

سألته ما هذا بحق السماء، وماذا يفعل هناك. قال أنها المجلـــة التى كان يقرأها مستر كينير، وأنه حملها معه إلى المطبخ، حيث أطلـــق النار عليه؛ وأثناء سقوطه ضم يديه إلى صدره، وهو لا يزال يحملهـــا؛ ولهذا استقبلت أول دفقة من الدماء. وقد رماها مكدرموت فـــى ســـرير نانسى لإبعادها عن الأنظار، وأيضًا لأن مكانها هناك، لأنه أحضرها من

المدينة من أجلها، وكذلك لأن دم كينير كان فوق رأس نانسى، لأنها لو لم تكن مثل هذه العاهرة الملعونة سليطة اللسان، لاختلف كل شيء، وما كان مستر كينير ليموت. فهى علامة. وعند ذلك رسم الصليب على صدره، وهى المرة الوحيدة التى رأيته فيها يفعل شيئًا يدل على أنه كاثوليكى.

حسنًا، فكرت أنه مجنون مثل ثور فى الأيام شديدة الحرارة، كما اعتادت مارى هويتنى أن تقول؛ لكن مرأى الكتاب جعله يفتر تمامًا، واختفت من رأسه أية أفكار عما كان بسببيله أن يفعل. وظللت ممسكة بالشمعة قريبًا، وقلبت الكتاب بطرفى السبابة والإبهام، وكان هو مجلة جودى للسيدات التى كان مستر كينير يستمتع بقراءتها قبل ذلك فى نفس اليوم. وعندما تذكرت ذلك كدت أنفجر فى البكاء بحق.

ولكن كم ستبقى هذه الحالة التى يشعر بها مكدرموت الآن، لا أحد يستطيع أن يقول. ومن ثم فقد قلت، إن هذا سوف يشوشهم؛ عندما يجدونه لن يكون بإمكانهم أن يعرفوا كيف جاء هنا. فقال نعم، سوف يعطيهم هذا لغزًا يشغل أمخاخهم؛ وضحك بطريقة جوفاء.

ثم قلت: الأفضل أن نسرع، وإلا قد يأتى أحد ونحن هنا؛ لابد أن نشد رحالنا بسرعة ونحزم الأشياء. فعلينا أن نسافر فى الليل، وإلا رآنا أحد على الطريق ومعنا عربة مستر كينير وأشياؤه، وسوف يعرف أن هناك أمرًا غير طبيعى. وقلت: سوف نأخذ وقتًا طويلاً حتى نصل تورنتو، فى الظلام، كما أن الحصان تشارلى سوف يكون متعبًا، فقد قام بنفس الرحلة اليوم أيضًا.

ووافق مكدرموت، كما لو كان نصف نائم؛ وشرعنا نبحث في أرجاء المنزل، ونحزم الأشياء. لم أكن أريد أن آخذ أشياء كثيرة، فقط الأشياء الخفيفة والثمينة، مثل صندوق السعوط الذهبي الخاص بمستر كينير، والتلسكوب وبوصلة الجيب، وريشة القلم الذهبية، وأي نقود يمكن أن نجدها؛ لكن مكدرموت قال القليل مثل الكثير، وأنه ربما يشنق من أجل عنز مثلما يمكن أن يشنق من أجل كبش؛ وفي النهاية كنا قد نهبنا كل ما يمكن نهبه من البيت، وأخذنا الطبق الفضي والشمعدانين، والملاعق والشوك وكل شيء، حتى تلك التي كان شعار العائلة عليها؛ لأن مكدرموت قال أنه يمكن إعادة سبكها بسهولة.

نظرت إلى صندوق نانسي، وإلى ثيابها؛ وفكرت، لا حاجة لأن تضيع هباء، فالمسكينة نانسي لن تحتاجها بعد ذلك. ومن ثم أخذت الصندوق وكل ما فيه، وأخذت ملابسها الشتوية أيضًا؛ ولكني تركت الثوب الذي كانت تخيطه، لأنه بدا لي شديد القرب منها، حيث أنه لم ينته بعد؛ وقد سمعت أن الموتى قد يعودون لإكمال ما تركوه دون أن يكتمل، ولم أرد أن تفتقده، وتتبعني من أجله. ففي هذا الوقت كنت متأكدة تقريبًا أنها قد ماتت.

قبل الرحيل، رتبت المنزل، وغسلت الأطباق، وأطباق العشاء وكل شيء؛ ورتبت فراش مستر كينير، وغطيت سرير نانسي بالغطاء، رغم أنني تركت الكتاب فيه، حيث لم أر أن ألمس دم مستر كينير؛ وأخليت نونية غرفتها، حيث فكرت أنه ليس من اللائق تركها، فذلك يعتبر نوعًا من الإهانة. وفي ذلك الوقت، كان مكدرموت يسرج تشارلي،

ويضع الصناديق والحقيبة المصنوعة من السجاد فى العربة؛ رغم أننى وجدته فى لحظة يجلس بالخارج على العتبة، ويحدق ببلاهة فى الفراغ أمامه. فقلت له أن يستجمع نفسه، ويكون رجلاً. فقد كان آخر ما أريده أن أظل هناك فى هذا البيت معه، خاصة وقد ذهب عقله تمامًا. وعندما قلت له أن يكون رجلاً، أثر فيه هذا القول، فقد شد نفسه، وقام واقفًا، وقال أن عندى حق.

آخر شيء فعلته هو أن خلعت الثياب التى كنت ألبسها فى ذلك اليوم؛ ولبست أحد أثواب نانسى، الثوب الفاتح اللون، الأبيض المطبوع بالزهور الصغيرة، وهو نفس الثوب الذى كانت تلبسه فى أول يوم جئت فيه إلى بيت مستر كينير. وارتديت تنورتها الداخلية الموشاة بالدانتيلا، وتنورتى الداخلية الوحيدة النظيفة، وحذاء نانسى الصيفى المصنوع من جلد ملون خفيف، والذى كنت أعجب به كثيرًا، رغم أنه لم يناسبنى تمامًا. وأيضًا وضعت قبعتها الجيدة المصنوعة من القش؛ وأخذت شالها الكشمير الخفيف، رغم أننى كنت أعرف أننى قد لا أحتاج إليه، فالليلة كانت دافئة. ووضعت بعض ماء الورد خلف أذنى وعلى رسغى، من الزجاجة الموجودة فى دولابها؛ وكانت رائحتها مريحة إلى حد ما.

ثم ارتديت مريلة نظيفة، وحركت النار فى موقد المطبخ الصيفى، والتى كانت لا تزال بها بعض الجمرات، وأحرقت ثيابى؛ فلم أكن أريد أن أفكر فى لبسها أبدًا ثانية، فقد كانت تذكرنى بأشياء أتمنى أن أنساها. ربما كان ذلك من صنع خيالى، ولكننى أحسست برائحة تتصاعد منها مثل رائحة لحم يشيط؛ وكأن ما يحترق هو جلدى القذر بعد أن خلعته عنى.

وبينما كنت أقوم بهذا، جاء مكدرموت، وقال أنه جاهز، ولماذا أضيع الوقت. قلت له أننى لا أستطيع أن أجد منديلى الأبيض الكبير، ذلك المنديل المطبوع عليه زهور زرقاء، وأننى أحتاجه لحماية رقبتى من الشمس، عندما نكون فى المعدية ونحن نعبر البحيرة فى اليوم التالى. وضحك على هذا بطريقة تحمل دهشة، وقال أنه أسفل فى القبو، يحمى رقبة نانسى من الشمس؛ وأنه كان يجب أن أتذكر ذلك، حيث أننى بنفسى جذبته بقوة وربطت العقدة. وقد صدمنى هذا الكلام؛ لكننى لم أرد أن أعارضه، فمن الخطر معارضة المجانين. ومن ثم قلت أننى نسيت.

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة ليلاً عندما تحركنا؛ كانت ليلة جميلة، نسيمها يكفى لإشعارنا ببعض البرودة، ولم يكن هناك الكثير من البعوض. كان هناك نصف قمر، ولم أستطع أن أتذكر هل هو فى طريقه إلى البدر أم إلى المحاق؛ وبينما كنا نمضى فى الممر بين أشجار الإسفندان وعبر البستان، نظرت خلفى، ورأيت المنزل يقف هناك فى سلام يغمره ضوء القمر، كما لو كان يتألق بضوء ناعم. وفكرت: من يمكنه أن يحدس من النظر إليه ما يرقد فيه. وتنهدت، وأعددت نفسى للرحلة الطويلة.

سرنا ببطء شديد، رغم أن تشارلى كان يعرف الطريق، لكنه كان يعرف أيضًا أن مكدرموت ليس هو سائقه الحقيقى، وأن هناك شيئًا غير طبيعى؛ فقد توقف عدة مرات، ورفض الاستمرار حتى يحثه بالكرباج. ولكن عندما قطعنا عدة أميال على الطريق، وعبرنا الأماكن التى كان يعرفها جيدًا، بدأ يهدأ ويستقر؛ وتابعنا طريقنا، عبر الحقول

الغارقة فى الصمت والضوء الفضى، وأسوار الأفاعى على الجانبين أشبه بضفيرة أغمق لونًا، والخفافيش تصفق فوق رءوسنا، وحولنا الغابات الممتدة الداكنة؛ ومرت بومة عابرة الطريق فوقنا، كانت شاحبة وناعمة كالفراشة.

فى البداية، كنت خائفة أن نلتقى بشخص نعرفه، فسوف يسألون إلى أين نذهب فى مثل هذه النزهة المتسترة؛ لكن لم يكن هناك حى يسعى. وأصبح چيمس أكثر جرأة وابتهاجًا، وبدأ يتكلم حول ما سوف نفعله عندما نصل إلى الولايات، وكيف سوف يبيع الأشياء، ويشترى مزرعة صغيرة، ثم نصبح مستقلين، وأننا إذا لم نحصل على نقود كافية فى البداية، فسوف نعمل كخدم ونوفر أجرنا. لم أقل نعم أو لا، حيث أننى لم أكن أنوى البقاء معه أكثر من ذلك دقيقة واحدة، بمجرد أن نكون آمنين عبر البحيرة وبين الناس.

لكنه ركن إلى الصمت بعد بعض الوقت، ولم يكن هناك إلا صوت حوافر تشارلى على الطريق، وحفيف ريح خفيفة. وفكرت أننى يمكن أن أقفز من العربة وأجرى إلى الغابات؛ لكنى كنت أعرف أننى لن أستطيع الابتعاد، وحتى لو فعلت، فسوف تأكلنى الدببة والذئاب. وفكرت أننى راكبة العربة عبر وادى ظل الموت، كما جاء فى المزامير(*)؛ وحاولت ألا أخاف أى شر، لكن هذا كان شديد الصعوبة، لأن الشر كان معى على العربة، كنوع من الضباب. فحاولت أن أفكر فى

(*) "أيضًا إذا سرتُ فى وادى ظل الموت لا أخاف شرًّا لأنك أنت معى"، مزامير ٢٣:٤.

شيء آخر. وتطلعت إلى السماء فوقي، والتى كانت صافية، لا سحابة فيها، ومليئة بالنجوم؛ وبدت قريبة للغاية حتى أننى يمكن أن ألمسها بيدى، ورقيقة للغاية حتى أننى يمكن أن أضع يدى بينهما، مثل شبكة عنكبوت مرصعة بقطرات الندى.

ولكن حينئذ، وأنا أنظر، بدأ جزء منها يتجعد، مثل قشرة على سطح اللبن الساخن ولكن أكثر صلابة وهشاشة، ومحببة مثل شاطئ مظلم، أو مثل الحرير الكريب الأسود؛ ثم أصبحت السماء مجرد سطح رقيق، مثل الورقة، ثم بدأت الورقة تنقشع وتتبدد. وخلفها كان الظلام الحالك البارد؛ ولم يكن ما أنظر إليه هو الجنة أو النار، فما كان هناك إلا الفراغ. وكان هذا أكثر إثارة للخوف من أى شيء آخر يمكن أن أفكر فيه، وأخذت أصلى بصمت إلى الرب أن يغفر لى آثامى؛ لكن ماذا لو لم يكن هناك رب ليسامحنى؟ ثم فكرت، وأنا أنتحب وتصطك أسنانى، أنه ربما يكون الظلام الخارجى هو المكان الذى لا يوجد فيه الرب. وبمجرد أن مر هذا الخاطر بعقلى، انغلقت السماء مرة أخرى، مثل مياه رميت فيها حجرًا؛ وعادت ناعمة وسليمة، وامتلأت بالنجوم مرة أخرى.

حينذاك كان القمر يختم رحلته، والعربة ما زالت تتحرك قُدُمًا وبالتدريج شعرت بأننى أنعس، وكان هواء الليل باردًا لطيفًا، فسحبت الشال الكشمير ولففت به نفسى؛ ولابد أننى غرقت فى النوم، وتركت رأسى تسقط مستندة على مكدرموت؛ لأن آخر ما أتذكره كان شعورى به وهو يرتب الشال برقة حول كتفى.

ولم أدر بعد ذلك إلا وأنا راقدة على ظهرى فوق الأرض، بين الأعشاب على جانب الطريق، وشعرت بوزن ثقيل فـوقى يمسـك بـى أسفله، وكانت هناك يد تتحسس تحت ثيابى الداخليـة؛ وبـدأت أقـاوم، وأصرخ. ثم يد تأتى فوق فمى، وصوت چيمس يقول بغضب ماذا أقصد إذ أصدر مثل هذا الزئير المرتفع، هل أريد أن نكتشف؟ هـدأت، وأبعـد يده، وقلت له أن ينزل عنى وأن يتركنى أقوم فى الحال.

وحينئذ غضب بشدة؛ فقد ادعى أننى طلبت منه أن يوقف العربة لأستطيع أن أنزل وأستريح إلى جانب الطريق؛ وعندما فعل، يقول أننـى بسطت شالى، منذ أقل من دقيقتين، ودعوته أن يلحق بى عليـه وكنـت أتصرف مثل بغى، وأقول له أننى الآن سوف أفى بوعدى.

وأعرف أننى لم أفعل أى شيء من ذلك، فقد كنت غارقة فـى النوم، وقلت ذلك. فقال أنه لن يسمح بأن أجعل منه مغفلاً، وأننى فاسـقة وشيطانة، وأن الجحيم أفضل كثيرًا مما أستحق، حيث أننى أنا التى قدته، وأغويته، وتسببت فى أن تصبح روحه ملعونة بالإضافة إلى ذلك؛ وبدأت أبكى، فقد شعرت أننى لا أستحق مثل هذه الكلمات القاسـية. فقـال أن دموع التماسيح لن تفيد هذه المرة، وأنه قد شبع منها؛ واسـتمر يحـاول نزع تنورتى، وهو يمسك رأسى لأسفل من شعرى. ومن ثم فقد عضضته بشدة فى أذنه.

صرخ بألم، وظننت أنه سوف يقتلنى فى التو والساعة. ولكنـه بدلاً من ذلك تركنى، ووقف، كما ساعدنى على صعود العربة؛ وقال أننى فتاة طيبة على أية حال، وأنه سوف ينتظر حتى يتزوجنى، فهذا أفضـل

على أية حال، وأليق، وأنه كان يختبرنى فقط. ثم قال أنه من المؤكـــد أن لى أسنانًا قويةً للغاية، حيث أننى تسببت فى خروج الدم؛ وهو الأمر الذى بدا أنه يسره.

وقد أدهشنى ذلك للغاية، لكنى لم أقل شيئًا، فقد كنـــت لا أزال وحدى تمامًا معه فى طريق خلاء، ولا يزال أمامنا أن نقطع أميالاً كثيرة.

ـ ٣٩ ـ

وهكذا مضينا طوال الليل، وأخيرًا أصبحت السماء أفتح لونًا؛ ووصلنا إلى تورنتو بعد الخامسة صباحًا بقليل. قال مكدرموت أننا سوف نذهب إلى فندق المدينة، ونوقظ الناس هناك ونجعلهم يصنعون لنا الإفطار، فهو يكاد يموت جوعًا. قلت أن هذه ليست خطة جيدة، وأننا يجب أن ننتظر حتى يكثر الناس فى المكان، فلو فعلنا كما يقول فسوف نكون ملحوظين، وسوف يتذكروننا. فقال لماذا يجب أن أناقشه دائمًا، وأنها طريقة كفيلة بجعل الرجل يخرج عن شعوره، وأن النقود التى فى جيبه بنفس كفاءة النقود فى جيب أى رجل آخر، وأنه ما دام يريد أن يفطر ومعه الثمن، فسوف يحصل عليه.

ومنذئذ وأنا أفكر أنه من المثير للملاحظة أن أى رجل، بمجرد أن يكون معه بعض النقود، ومهما كانت طريقة حصوله عليها، يفكر على الفور أنه جدير بها وبما يمكنها أن تشتريه، ويتخيل نفسه "أبو على".

فعلنا كما قال؛ ليس من أجل الإفطار فى الحقيقة، وأنا أعتقد الآن أن السبب هو أنه أراد أن يرينى من هو السيد. وتناولنا إفطارًا مكونًا من اللحم والبيض؛ وكان من العجيب أن تراه متبخترًا، مختالاً، متبجحًا، يأمر الخدم حوله، ويقول أن بيضته لم تكن جيدة الطهى. ولكنى

لم أستطع أن أتناول لقمتين؛ فقد كنت أرتعش خوفًا، لأنه كان يتصرف بكل طريقة تجذب الانتباه إليه.

ثم وجدنا أن المركب التالية لن ترحل إلى الولايات قبل الثامنة، وأننا سنضطر للبقاء فى تورنتو ساعتين أخريين أو ما يقارب ذلك. وشعرت أن هذا شديد الخطورة، فمن المؤكد أن يكون حصان مستر كينير وعربته معروفين لدى بعض أهالى المدينة، لأنه كثيرًا ما كان يأتى إليها. ومن ثم جعلت مكدرموت يترك العربة فى أكثر الأماكن بعدًا عن الأنظار استطعت أن أجدها فى شارع جانبى صغير، رغم أنه أراد أن يظل يتجول بها متخايلاً. ولكنى وجدت فيما بعد أنه رغم اتخاذى لهذه الاحتياطات، إلا أن العربة قد لوحظت.

وحتى أشرقت الشمس، لم أكن قد نظرت جيدًا إلى مكدرموت، فى ضوء ساطع، وحينذاك اكتشفت أنه يرتدى حذاء مستر كينير. وسألته هل أخذه من الجثة وهى راقدة فى القبو؛ فقال نعم، كما أن القميص أيضًا كان يخص مستر كينير، أخذه من على الأرفف فى غرفة ارتداء الثياب، لأنه قميص جيد، ومن نوعية أفضل من أى قميص آخر كان يمتلكه. وكان قد فكر أن يأخذ القميص الذى كان على الجثة أيضًا، لكنه كان مغطى بالدم، فرماه خلف الباب. انتابنى رعب، وسألته كيف استطاع أن يفعل هذا؛ فقال ماذا أعنى، حيث أننى كنت أرتدى ثوب نانسى وقبعتها أنا نفسى. فقلت أن هذا ليس نفس الشىء، فقال إنه نفس الشىء؛ فقلت أنا على الأقل لم آخذ الحذاء من جثة. وقال أنه لا فرق؛ وعلى أية حال، فهو لم يرد أن يترك الجثة عارية، ولهذا فقد ألبسها قميصه هو.

سألته أى قميص ذلك الذى ألبسه لمستر كينير، فقال أنــه أحــد القمصان التى أخذها من البائع. وقد أزعجنى ذلك، وقلت سوف يقع اللوم الآن على چيرميا، فلسوف يتم تتبع مصدر القميص؛ وســوف يحزننــى ذلك، فهو صديق لى.

قال مكدرموت أنه يراه صديقًا قريبًا للغاية، وقلت مــاذا يعنــى بذلك؟ فقال أن چيرميا كان ينظر لى بطريقة لم تعجبه، وأنه لن يســمح لزوجته برفع الكلفة مع أى بائع يهودى، وأن تتحدث معه عنــد البــاب الخلفى، ويغازلها بهذه الطريقة؛ وإذا فعلت شيئًا من ذلك، فلسوف يســود عيشتها، ويعدل لها رأسها بين كتفيها.

بدأ الغضب ينتابنى؛ وكنت على وشك أن أقول أن چيرميا ليس يهوديًّا، ولكن حتى لو كان، فالزواج من بائع يهودى أفضل كثيرًا بالنسبة لى من الزواج به؛ لكنى كنت أعرف أننا إذا تشاجرنا فلن يكون ذلك فى صالح أى منا، خاصة إذا وصلت إلى الصفعات والصــراخ. فأمســكت لسانى؛ لأن خطتى كانت الوصول بسلام إلى الولايات دون حادث، ثــم الإفلات من مكدرموت وتركه.

قلت له أن من الضرورى أن يغير ملابسه، وأننى سوف أفعــل بالمثل؛ فإذا جاء الناس يسألون عنا، فقد يضللهم ذلك. لم نكن نظــن أن ذلك يمكن أن يحدث قبل يوم الاثنين على الأقل، لأننا لم نكــن نعلــم أن مستر كينير قد دعا بعض الأصدقاء إلى الغداء يوم الأحد. وهكذا غيرت ثوبى، فى فندق المدينة، ولبس چيمس جاكيت مســتر كينيــر الصــيفى

الخفيف. وأخبرنى ببعض السخرية أننى أبدو فى غاية الأناقة، وسيدة بمعنى الكلمة، بمظلتى الوردية وكل شيء.

ثم ذهب ليحلق ذقنه؛ وكانت هذه اللحظة هى المناسبة التى يمكن أن أجرى وأطلب فيها المساعدة. لكنه أخبرنى مرات عديدة أننا إما أن نبقى معًا وإلا كان مصيرنا الشنق منفصلين؛ ورغم أننى كنت أشعر بأنى بريئة، فقد كنت أعرف أن المظاهر كانت ضدى. وحتى لو أنه شنق ولم أشنق أنا، وحتى لو كنت لا أريد صحبته، ورغم خوفى منه، إلا أننى لم أكن أريد أن أكون ضالعة فى خيانته. ثمة شيء حقير وجدير بالازدراء فى الخيانة؛ وأنا شعرت بقلبه يدق بجوار قلبى، رغم أن ذلك كان على غير رغبتى، إلا أنه كان قلب إنسان على أية حال؛ ولم أرد أن يكون لى شأن فى أن يتوقف هذا القلب إلى الأبد، إلا إذا كان ذلك رغمًا عنى. وفكرت أيضًا، أنه مكتوب فى الإنجيل: "لى الانتقام، أنا أجازى، يقول الرب"(*). لم أشعر أن لى أن أتخذ تصرفًا خطيرًا مثل الانتقام بيدى؛ وهكذا بقيت حيث أنا حتى عاد.

فى الساعة الثامنة، كنا على ظهر الباخرة ترانزيت، ومعنا العربة والحصان تشارلى، والصناديق وكل شيء، وكنا نخرج من الميناء؛ وشعرت براحة كبيرة. كان اليوم صافيًا، وله نسيم عليل، والشمس تلقى بضوئها على أمواج البحيرة الزرقاء؛ وفى هذا الوقت، كان

(*) الرسالة إلى العبرانيين، ١٠:٣٠.

چيمس فى روح معنوية عالية، وشديد الفخر بنفسه؛ وكنت أخشى أنه إذا غاب عن نظرى سوف يبدأ فى البغبغة والكلام والاختيال فى ثيابه الجديدة، وأن يتباهى بعرض أشياء مستر كينير الذهبية؛ ولكنه كان حريصًا بدوره على ألا يتركنى أغيب عن نظره، خشية أن أخبر أحدًا بما فعله، فظل لصيقًا بى كالعَلَقة.

كنا فى قاع الباخرة، بسبب تشارلى، حيث لم أشأ تركه وحده؛ فقد كان عصبيًّا، وكنت أشك أنه اعتلى ظهر باخرة من قبل؛ وأن ضوضاء الماكينة، وعجلة الدفة وهى تلف، لابد أن تكون مخيفة له. ومن ثم بقيت معه وأخذت أطعمه بالبسكويت الذى كان يحبه لطعمه المالح. وعادة ما يشد مشهد فتاة شابة وحصان انتباه الشباب المعجبين، والذين سوف يتظاهرون بأنهم مهتمون بالحصان؛ وسرعان ما حدث؛ ووجدت نفسى مضطرة للرد على تساؤلاتهم.

كان چيمس قد أخبرنى أن نقول أننا أخ وأخت، وأننا تركنا أهلنا بعد أن تشاجرنا معهم؛ ومن ثم اخترت أن يكون اسمى مارى هويتنى، وقلت أنه دافيد هويتنى، وأننا فى طريقنا إلى روشستر. ولم يجد الشباب أية أسباب تمنعهم من التلطف معى ومغازلتى، حيث أن چيمس ليس إلا أخى، ومن ثم فقد فعلوا؛ وفكرت من جانبى أن أرد على دعاباتهم بروح فكهة طيبة، رغم أن هذا استخدم ضدى فى المحاكمة؛ كما طالتنى بعض النظرات الحقودة من چيمس فى وقتها. ولكنى كنت فقط أحاول أن أبعد الريبة، منهم ومنه معًا؛ وتحت مظهر السعادة الذى بدا على كنت فى حالة حزن وكآبة عظيمين.

توقفنا فى نياجرا، لكن لم يكن المكان قريبًا من الشلالات بأية حال، فلم أستطع رؤيتها. نزل چيمس على الشاطئ وجعلنى آتى معه، وأكل شريحة لحم. ولم أتناول أنا أىٍ شيء، فقد كنت عصبية للغاية طوال الوقت الذى قضيناه هناك. ولكن شيئًا لم يحدث، وواصلنا طريقنا.

أشار أحد الشباب إلى باخرة أخرى تمر على بعد، وقال أنها "سيدة البحيرة"، السفينة التابعة للولايات المتحدة والتى كان من المعتقد حتى وقت قريب أنها أسرع مركب فى البحيرة؛ لكنها فقدت أخيرًا تقدمها أمام سفينة البريد الملكى، المسماة "الخسوف"، والتى سبقتها بأربع دقائق ونصف. وقلت ألا يجعله هذا يشعر بالفخر، فقال لا، لأنه راهن بدولار على "السيدة". وضحك جميع الحاضرين.

ثم اتضح لى بجلاء أمر كنت أتعجب له. هناك طراز أغطية يسمى "سيدة البحيرة"، والذى كنت أظن أنه سُمى على اسم القصيدة؛ لكنى لم أجد أية سيدة فى التصميم، ولا أية بحيرة. ولكنى فهمت الآن أن المركب سميت على اسم القصيدة، بينما جاء اسم الغطاء من المركب؛ لأنه كان مصممًا على شكل عجلة ذات دولاب والتى لابد أنها استوحيت من عجلة الدفة. وفكرت أن الأشياء تبدو معقولة، وأن لها منطقها الداخلى إذا فكرنا فيها وتأملناها فترة كافية. ومن ثم من المحتمل أن يكون الأمر كذلك مع الأحداث الأخيرة، والتى بدت لى فى تلك اللحظة غير معقولة على الإطلاق؛ وعندما فهمت سبب تسمية تصميم الغطاء كان ذلك درسًا بالنسبة لى، ليثبِّت إيمانى.

وهنا تذكرت مارى هويتنى وهى تقرأ معى تلك القصيدة، وكيف كنا نمر على أبيات الغزل المملة ونتنقل إلى الأجزاء المثيرة، والمعارك؛

ولكن الجزء الذى كنت أتذكره أكثر كان يدور حول المرأة المسكينة التى اختطفت من الكنيسة فى يوم زفافها، اختطفت من أجل متعة أحد النبلاء، وقد جنت لذلك، وأخذت تهيم شاردة تجمع الزهور البرية، وتغنى لنفسها. وفكرت أننى أيضًا يمكن اعتبارى مخطوفة على غرار شىء كهذا، وإن لم يكن فى يوم زفافى؛ وخشيت أن يكون مصيرى هو نفس المصير.

فى ذلك الوقت، كنا قد اقتربنا من لويستون. وكان چيمس قد حاول أن يبيع الحصان والعربة لبعض من كانوا على الباخرة، وكان هذا معارضًا لحكمى الذى كان صائبًا؛ لكنه طلب ثمنًا قليلاً جدًّا حتى أنه أثار الشكوك. ولأنه عرضهما للبيع، فقد وضع مكتب الجمارك فى لويستون رسومًا عليهما، واحتجزهما لأننا لم يكن معنا نقود لندفع الرسوم. ورغم أن چيمس كان غاضبًا فى البداية، إلا أنه سرعان ما ترك الأمر يمر باعتباره قليل الأهمية، وأخبرنى أننا سوف نبيع بعض الأشياء الأخرى، ونعود فى اليوم التالى لاستعادتهما. لكنى كنت شديدة القلق لهذا، فمعنى ذلك أننا سوف نضطر لقضاء الليلة هناك؛ ورغم أننا كنا فى الولايات المتحدة، ويجب أن نعتبر أنفسنا آمنين، فنحن الآن فى بلد أجنبى؛ إلا أن ذلك لم يجعل ملاك العبيد فى الولايات المتحدة يكفون لحظة عن الإمساك بالعبيد الهاربين الذين يقولون أنهم ملكهم؛ وكان كل ذلك يولد شعورًا أبعد ما يكون عن الشعور بالارتياح.

حاولت أن أجعله يعدنى بعدم بيع الحصان تشارلى، وليفعل ما يشاء بالعربة. لكنه قال اللعنة على الحصان؛ وأعتقد أنه كان يشعر بالغيرة من هذا الحصان المسكين، لأننى كنت مغرمة به للغاية.

كانت المناظر فى الولايات المتحدة شديدة الشبه بمثيلتهـــا فـــى الريف الذى جئنا منه للتو، لكن المكان كان مختلفًا بالفعل، فالأعلام كانت مختلفة. تذكرت أن چيرميا كلمنى عن الحـــدود، وكيـــف مـــن الســـهل عبورها. كان الوقت الذى قال فيه ذلك، فى المطبخ فـــى منـــزل الســـيد كينير، يبدو زمنًا موغلاً فى القدم، وفى حياة أخرى؛ لكن الواقع أنه كان منذ أسبوع واحد فقط.

ذهبنا إلى الخان القريب، والذى لم يكن فندقًا على الإطلاق كما قيل فى القصيدة الكبيرة التى نشرت فى الجرائد عنى، وإنما كان مجـــرد خان رخيص بجوار رصيف السفن. وهناك ابتلع چيمس كمية من البيرة والبراندى أكثر مما يجب؛ ثم تناولنا العشاء، وشرب المزيد على العشاء. وعندما جاء وقت الذهاب إلى غرفنا، كان يريد أن نتظـــاهر بأننـــا زوج وزوجة، وأن نأخذ غرفة واحدة؛ لأن هذا، حسبما قـــال، ســـوف يـــوفر نصف النفقة. لكنى كنت أفهم ما الذى يسعى إليه، وقلت أننا قد بدأنا على المركب أخًا وأختًا، ولا يمكن أن نغير ذلك الآن، فقد يتذكرنا أحـــد مـــن القارب. ومن ثم حصل على غرفة مع رجل آخر، وأنا أخـــذت غرفـــة لنفسى.

ولكنه حاول أن يجد طريقًا لدخول غرفتى، قائلاً أننـــا ســـوف نتزوج فى القريب العاجل على أية حال. وقلت له أننا لن نتزوج، وأننى أفضل الزواج من الشيطان نفسه على الزواج به؛ فقال أنه سوف يجعلنى أفى بوعدى على أية حال. فقلت أننى سوف أصرخ، مما سيكون أمـــرًا مختلفًا فى مكان ملىء بالناس قياسًا إلى مكان ليس به إلا جثتـــين. فقـــال

بحق الله أن أغلق فمى، ورمانى بأننى بغى فاسقة؛ وقلت أنه يجب أن يفكر فى بعض الكلمات الجديدة، لأننى تعبت تمامًا من هذه الكلمات. فترك الغرفة فى حالة غضب شديد.

استطعت أن أستيقظ مبكرًا للغاية، وأن ألبس ثيابى، وأن أتسلل. فلو أننى أرغمت بطريقة ما على الزواج به، لكنت ميتة ومدفونة فى أقل من غمضة عين؛ إنه إن كان يرتاب بى فى الوقت الحاضر، فلسوف تزداد ريبته فيما بعد. وما أن يضعنى فى منزل ريفى، فى منطقة غريبة ليس لنا فيها أصدقاء، فلن تساوى حياتى بنسين، وربما لن يزيد الأمر على خبطة على الرأس وستة أقدام من الحفر فى حديقة المطبخ، وسوف أكون أنا السماد الذى يجعل جذور البطاطس والجزر تنمو، ولسوف يكون ذلك أسرع كثيرًا مما يمكن أن أفكر فيه.

ولسعادتى، وجدت الباب بمزلاج، فأغلقت المزلاج، وخلعت ثيابى، كل ثيابى ما عدا قميصى الداخلى، وطويتها بعناية على ظهر المقعد، كما كنت أفعل فى الغرفة الصغيرة فى بيت مسز ألدرمان باركينسون حيث كنت أنام مع مارى. ثم أطفأت الشمعة ودخلت بين الأغطية، والتى كان من المدهش أنها نظيفة، تقريبًا، وأغلقت عينى.

وداخل جفنىّ كنت أرى المياه تتحرك، القمم الزرقاء للأمواج ونحن نأتى عبر البحيرة تتألق بالضوء؛ إلا أنها كانت أمواجًا أكبر كثيرًا، وأكثر قتامة، كتلال تتدحرج؛ وكانت هذه أمواج المحيط الذى عبرته منذ ثلاث سنوات؛ رغم أنها تبدو قرنًا من الزمان. وعجبت ماذا سوف يحدث لى، وحاولت أن أعزى نفسى بأنه بعد مائة عام سأكون ميتة وأرقد فى

سلام فى قبرى؛ وفكرت أنه يمكن أن تكون المـــتاعب أقل بشـــكل عـــام لو رقدث فى قبرى قبل ذلك بكثير.

لكن الأمواج استمرت فى الحركة، والخط الأبيض المتخلف عن سير السفينة يترك أثرًا عليها للحظة، ثم تتعم ملامحه وتضيع فى المياه، وكأنما هى خطواتى تتمحى من خلفى؛ الخطوات التى كنت أتركها طفلة على شواطئ وطرقات الأرض التى غادرتها، والخطوات التى تركتهـــا على هذا الجانب من المحيط منذ جئت هنا؛ كل آثـــار خطـــواتى، تـــنعم ملامحها وتتمحى وكأنما لم تكن من قبل، وكأنك تجلو الصدأ الأسود عن الفضة، أو وكأنك تسحب يدك على رمل جاف.

وعندما كنت على وشك النوم فكرت: إنه وكأنما لم أكن موجودة أبدًا، فلا أثر لى يبقى، لم أترك أية علامات. وبهذه الطريقة لا يمكن لأحد أن يتبعنى.

وهو تقريبًا ما يساوى أن أكون بريئة.

وهنا نمت.

ـ ٤٠ ـ

وهذا ما حلمت به، وأنا نائمة بين الملاءات النظيفة تقريبًا، في الخان في لويستون.

كنت أسير على الطريق المنحنى المؤدى إلى منزل مستر كينير، بين صفوف أشجار القيقب المزروعة على الصفين. وكنت أرى كل هذا لأول مرة، رغم أننى أعلم أيضًا أننى كنت هنا من قبل، كما هو الحال فى الأحلام. وفكرت: ترى من يعيش فى هذا البيت؟

ثم عرفت أننى لم أكن وحدى فى الطريق. كان مستر كينير يسير خلفي، من ناحية اليسار؛ كان هناك ليتأكد ألا يصيبنى أذى. ثم ظهر المصباح فى نافذة الردهة، وعرفت أن نانسى كانت هناك، تنتظر للترحيب بى بعد العودة من رحلتى؛ لأننى كنت فى رحلة، وكنت متأكدة من هذا، وكنت غائبة وقتًا طويلاً. إلا أنها لم تكن نانسى، وإنما مارى هويتنى هى التى كانت تنتظر؛ وشعرت بسعادة كبيرة، إذ علمت أننى سوف أراها مرة أخرى، وقد عادت إلى صحتها وضحكها، كما كانت من قبل.

ورأيت كم كان البيت جميلاً، أبيض كله، والأعمدة فى المقدمة، وزهور الفاوانيا البيضاء فى الفراندة تلمع فى ضوء الغسق، وضوء المصباح يتلألأ فى النافذة.

واشتقت أن أكون هناك، رغم أننى فى الحلم كنت هناك بالفعل؛ لكنى شعرت بشوق شديد لهذا البيت، فقد كان بيتى الحقيقى. وعندما شعرت بذلك، انطفأ المصباح وغرق البيت فى الظلام، ورأيت فراشات النار تطير فى الخارج متوهجة، وانتشرت رائحة براعم حشيشة اللبن من الحقول فى كل مكان حولى، وهب نسيم أمسية صيفية دافئ لطيف على وجنتى، نسيم معتدل وناعم جدًا. واندست يد فى يدى.

وفى هذه اللحظة، كان هناك طرق على الباب.

الفصل الحادى عشر

أشجار متهاوية

بدلاً من أن تظهر عليها أية علامات على عدم النوم والشعور بالذنب، تظهر الفتاة هادئة تمامًا، عيناها مفتوحتان تمامًا وصافيتان وكأنها نامت نومًا عميقًا بلا إزعاج - والقلق الوحيد الذى بدا عليها كان للحصول على بعض ملابسها وكذلك على صندوقها. وبالنسبة لملابسها، لم يكن لديها إلا أقل القليل - وهى ترتدى الآن رداء القتيلة، أما الصندوق الذى كانت تسأل عليه فقد كان ملكًا للقتيلة المسكينة.

Chronicle and Gazette، كينجستون
١٢ أغسطس ١٨٤٣

"ورغم أننى تبت من شرورى بدموع مريرة، فقد رضى الله بأن لا أعرف لحظة سلام أبدًا. لأننى ساعدت مكدرموت فى خنق نانسى مونتجومرى، إن وجهها المريع وعينيها الداميتين المفزعتين لم تتركانى أبدًا لحظة واحدة. تحدقان بى ليلاً ونهارًا. وعندما أغلق عينى يأسًا، أراهما تنظران داخل روحى - إن من المستحيل إغلاقهما. ... وفى الليل - فى صمت زنزانتى ووحدتى فيها، تشعل هاتان العينان المتوهجتان سجنى بضوء كالنهار. لا، ليس كالنهار - إن لهما بريقًا حارًا مروعًا، ليس له أى مثيل فى هذا العالم..."

جريس ماركس،

إلى كينيث ماكنزى، كما روته سوزانا مودى
Life in the Clearings, 1853

لم يكن الحب، رغم أن جمالها الباهر قد سبب جنونه؛ ولا الرعب، حتى عندما تخيل أن روحها مشربة بنفس الجوهر المهلك الذى بدا أنه يسود هيكلها المادى؛ فالحب والرعب أعقبا نسلاً متوحشاً كل منهما كان له أبًا، كان يثير الحرقة كأحدهما ويثير الرعشة كالآخر... بوركت كل المشاعر البسيطة، سواء كانت مظلمة أم مضيئة! إنه المزيج الرهيب من العاطفتين الذى ينتج اللهيب المشع لأنحاء الجحيم.

ناثانييل هاوثورن،
"Rappaccini's Daughter", 1844

- ٤١ -

إلى د. سايمون چوردان، عناية الميچــور س. د. همفرى، شارع لوار يونيون، كينجســتون، غــرب كندا، من مســز ويليــام ب. چــوردان، لابورنـــام هاوس، لوميســڤيل، ماساتشوســتس، الولايـــات المتحدة الأمريكية.

٣ أغسطس، ١٨٥٩

ابنى العزيز:

أنا فى أشد حالات القلق حيث لم أتلق منك رسالة لمدة طويلــة. ارسل لى كلمة واحدة على الأقل، لأعرف أنك لم تتعرض لكارثة. ففى هذه الأيام البشعة، التى تبدو فيها بوادر حرب فاجعة تقترب كل يوم من مكاننا، فإن أمل الأم الوحيد هو أن يكون أعزاؤها، الذين لم يبق منهم لى غيــرك، فى أمان وسلام. ربما يكون الأفضل لك أن تبقى فى ذلك البــلد، لتتفــادى ما لا يمكن تجنبه؛ ولكنه مجرد قلب الأم الضعــيف الذى يحركنى، حيــث لا أستطيع بضميرى كله أن أدافع عن الجبن، عندما تكون كل تلك الأمهات مستعدة لمواجهة أى مصير يخبئه القدر.

أشتاق كثيرًا لرؤية وجهك الحبيب يا بنى العزيز. الكحة الخفيفة، التى أتعبتنى منذ ميلادك، قد زادت فى الفترة الأخيرة، وتصبح عنيفة للغاية فى المساء؛ وأنا أعانى من أعصاب معذبة فى كل يوم تغيب فيه عنا، خشية أن أموت فجأة، ربما فى وسط الليل، دون أن تكون لدى الفرصة لأودعك الوداع الأخير، وأمنحك بركتى للمرة الأخيرة. فإذا كان يمكن تجنب الحرب، وهو ما يجب أن نأمل فيه جميعًا، فإننى أدعو أن أراك مستقرًّا فى بيتك الخاص، قبل أن يأتى اليوم المحتوم. ولكن لا تجعل مخاوفى وخيالاتى، الناتجة عن جهلى بحالك، تعطلك عن دراساتك وأبحاثك ومجانينك، أو أيًّا كان ما تفعله، وهو ما أثق أنه فى غاية الأهمية.

أرجو أن تكون حريصًا على تناول غذاء مفيد، لتحافظ على قوتك. فلا نعمة للإنسان أفضل من البنية الجسدية الصحيحة، وإذا لم يكن الإنسان قد ورثها، فيجب أن يكون أكثر حذرًا. تقول مسز كارترايت أنها سعيدة جدًّا لأن ابنتها لم تكن مريضة فى يوم من أيام حياتها أبدًا، وأنها قوية كالحصان. إن وراثة عقل سليم فى جسم سليم هو أفضل ميراث على الإطلاق يمكن أن يورثه الإنسان لأطفاله؛ وهو الميراث الذى لم تستطع أمك المسكينة أن تمد ابنها الغالى به، رغم أن ذلك لا يدل على افتقادها للأمومة. ولكننا يجب أن نرضى بنصيبنا فى الحياة، الذى ترى العناية الإلهية أننا أهل له.

المخلصتان مورين وسامانتا ترسلان احتراماتهما وحبهما لك، وترجوان أن تذكرهما. تقول سامانتا أن الفراولة المحفوظة التى تصنعها، والتى كنت تحبها كثيرًا عندما كنت صبيًّا، لا تزال رائعة كما كانت أبدًا، ويجب أن تسرع لتتذوقها قبل أن "تعبر النهر"، حسب تعبيرها؛ ومورين

المسكينة العزيزة، التى على وشك أن تصبح مقعدة مثل أمك، تقـول أنهـا لا تستطيع أن تضع فى فمها ملعقة دون أن تفكر فيك، وتتـذكر الأوقـات السعيدة؛ وهما مشتاقتان لنظرة مجددة لمحياك؛ ومثلهما ألف مرة

المحبة والمخلصة دائمًا

أمك

- ٤٢ -

سايمون فى الممر العلوى ثانيـــة، فـــى العلّيـــة، حيـــث تعـــيش الخادمات. يشعر أنهن ينتظرن خلف أبوابهن المغلقة، يســـتمعن، عيـــونهن تشرق فى الغرف نصف المظلمة؛ لكن لا يصدر عنهن صوت. خطواتـــه فى حذائه المدرسى تصدر رنينًا أجوف على ألواح الأرضية. من المؤكـــد أنه كان يجب أن يكون هناك نوع ما من السجاجيد هنا، أو الحصير، فلابد أن كل شخص فى البيت قادر على سماعه.

يفتح بابًا بشكل عشوائى، آملاً فى أن يجد ألـــيس، أو أن اســـمها إيفى؟ لكنه يجد نفسه مرة أخرى فى مستشفى جوى. إنه يشم رائحتها، يكاد يدرك طعمها ـــ تلك الرائحة الكثيفة للجدران الحجرية الرطبة، والصـــوف الرطب، رائحة كريهة للحم بشرى عفن. إنها رائحة المحاكمة والاستنكار: إنه بسبيله إلى الامتحان. أمامه منضدة مكسوة: يجب أن يجرى تشـــريحًا، رغم أنه مجرد طالب هنا، لم يتعلم بعد، ولا يعرف كيف يفعل ذلك. الغرفة فارغة، لكنه يعلم أنه مراقب، يراقبه أولئك الذين سوف يحكمون عليه.

إنها امرأة، تحت الغطاء: يمكنه أن يعرف ذلـــك مـــن الخطـــوط العامة للجسد. ويأمل ألا تكون عجوزة جدًا؛ فتلك تكون أصعب بشكل مـــا. امرأة مسكينة، ماتت بسبب مرض غير معروف. لا أحد يعرف كيف يأتون بالجثث؛ أو لا أحد يعرف بشكل مؤكد. تقول مزحة بـــين الطـــلاب "إنهـــم

ينبشون القبور فى ضوء القمر. لا، ليس فى ضوء القمر يا غبى، بل على أيدى ملائكة البعث".

خطوة بخطوة، يقترب من المنضدة. هل معه أدواته جاهزة؟ نعم، ها هو الشمعدان؛ ولكنه لا يرتدى حذاء، قدماه مبللتـــان. لابـــد أن يرفـــع الغطاء، ثم "يرفع" بشرتها، أيًّا ما تكون، أو أيًّا ما كانـــت، شـــريحة بعـــد شريحة. ويعرى لحمها المطاطى، يقشرها، ويفتح بطنها، ويخرج أحشاءها مثل السمكة. ويرتعش من الرعب. سوف تكون بـــاردة، متصـــلبة. فهـــم يحفظون هذه الجثث على الثلج.

ولكن .. تحت الغطاء كان هناك غطاء آخر، وتحت هذا غطـــاء ثالث. إنه يبدو مثل ستارة من الموسلين. ثم هناك وشاح أسود، ثم، ـــ هل هذا ممكن؟ ـــ رداء داخلى. لابد أن تكون المرأة تحت هذه الأشياء فى أى مكان؛ يفتش باهتياج. ولكن لا؛ فى آخر الطبـــقات توجـــد ملاءة ســـرير، ولا شىء تحتها إلا السرير. نعم، السرير، وهيكل شخص ما، من التى ترقد هنا. إنها لا تزال دافئة.

يفشل بلا أمل، ويرسب فى امتحانه، وعلى الملأ أيضًا؛ لكن الآن لا يهمه هذا. فكأنما تم إرجاء حكم الإعدام. الآن كل شىء ســـيكون علـــى ما يرام، سوف يجد العناية اللازمة. خارج الباب، نفس الباب الـــذى جـــاء منه، توجد مرجة خضراء، يجرى خلفها جدول ماء متدفق. وصوت المياه الجارية مريح للغاية. ثمة شخص يأخذ نفسًا سريعًا، ورائحـــة الفراولـــة، ويد تلمس كتفه.

يستيقظ، أو يحلم أنه يستيقظ. ويعلم أنه لابد أن يكون لا يزال نائمًا، لأن جريس ماركس تنحنى عليه فى الظلام الحالك، شعرها المنسدل يلمس وجهه. لا يشعر بالدهشة، ولا يسأل كيف استطاعت أن تأتى هنا من زنزانتها فى السجن. يجذبها إلى أسفل ــ ويجد أنها لا ترتدى إلا ثوب نوم ــ ويقع فوقها، ويدفع نفسه داخلها وهو يتأوه شهوة ولا يأبه بأية مقدمات، لأنه فى الأحلام كل شىء مسموح به. يهتز عموده الفقرى ويهزه بشدة كسمكة معلقة بالسنارة، ثم يتحرر. ويلهث رغبة فى التنفس.

هنا فقط يتبين أنه لا يحلم؛ أو لا يحلم بأن هناك امرأة. إنها هنا بالفعل، بلحمها، ترقد بلا حركة بجواره فى السرير الذى ساده السكون فجأة، ذراعاها إلى جانبيها مثل تمثال؛ لكنها ليست جريس ماركس. من المستحيل الآن أن يخطئ فى التعرف على هيكلها العظمى وصدرها الأشبه بقفص الطيور، ورائحة القماش المحترق والكافور والبنفسج. والطعم الأفيونى لفمها. إنها صاحبة البيت النحيلة، التى لا يعرف حتى اسمها الأول. عندما دخلها لم تصدر أى صوت، لا صوت اعتراض ولا بهجة. هل هى تتنفس؟

ولكى يتأكد يقبلها ثانية، وثانية: قبلات صغيرة. إنها طريقة بديلة لقياس النبض. يستمر حتى يجد وريدًا، الوريد الموجود فى رقبتها، كان ينبض. بشرتها دافئة، لزجة إلى حد ما، مثل الحساء؛ الشعر خلف أذنها تفوح منه رائحة شمع النحل.

ليست ميتة إذن.

أوه، لا، يفكر، ماذا بعد؟ ماذا فعلت بنفسى؟

- ٤٣ -

ذهب د. چوردان إلى تورنتـــو. لا أعرف كم ســـيغيب، أرجـــو ألا يغيب طويلاً، حيث أننى أصبحت معتادة على وجوده بشكل ما، وأخشى عندما يرحل، فلابد أنه سيرحل إن آجلاً أم عاجلاً، أخشى أن أجد فراغــًا حزينًا فى قلبى.

فما الذى سوف أخبره به عندما يعود؟ سوف يريد أن يعرف ماذا حدث عند القبض علينا، وأثناء المحاكمة، وماذا قيل. بعض ذلـــك مخـــتلط بغير نظام فى عقلى، لكنى أستطيع أن ألتقط هذا أو ذاك له، بعض قطع من قماش كامل كما يمكن أن تقول، مثلما يحدث عندما تفتح صرة الخرق بحثًا عن شىء يصلح لإضافة لمسة لونية.

أستطيع أن أقول هذا:

حســـنًا يا سيدى، لقـــد قبضـــوا علىّ أولاً، ثم على چيمس. كان لا يزال نائمًا فى سريره، وأول ما فعله عندما أيقظوه هو أن حاول أن يلقى باللوم على نانسى. قال إذا وجدتم نانسى سوف تعرفون كل شـــىء، إنـــه خطؤها. وفكرت أن هذا غباء شديد منه، فعلى الرغم من أنها لم تكن قـــد اكتشفت بعد، إلا أنهم كانوا سيكتشفونها إن عاجلاً أو آجلاً، حتى ولو عندما تتصاعد الرائحة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل، فى اليوم التالى مباشرة. كـــان

جيمس يحاول أن يتظاهر بأنه لم يكن يعرف أين كانت، أو حتى أنها كانت ميتة؛ لكنه كان يجب أن يمسك لسانه بشأنها.

كان الوقت لا يزال فى الصباح الباكر عندما قبضوا علينا. أخرجونا من فندق لويستون بسرعة عظيمة. وأعتقد أنهم كانوا يخشون احتمال أن يمنعهم الرجال، ويجتذبوا أنظار الناس، وينقذونا، كما كان يمكن أن يحدث لو فكر مكدرموت أن يصرخ بأنه ثورى أو جمهورى أو أى شىء من هذا القبيل، وأنه له حقوقه، ويسقط البريطانيون؛ لأن المشاعر كانت لا تزال فى عنفوانها حينذاك، فى جانب مستر ويليام ليون ماكنزى والتمرد، وكان هناك فى الولايات من يريدون غزو كندا. ثم إن الرجال الذين قبضوا علينا لم تكن لهم سلطة حقيقية. ولكن مكدرموت كان أجبن من أن يعترض، أو كان ينقصه حضور العقل؛ وعندما أحضرونا حتى الجمارك، لم يُسمح للمجموعة بالمرور إلا عندما قالوا أننا مطلوبان للارتياب فى ارتكابنا جريمة قتل، وعندئذ سُمح للمجموعة بالمرور، وأبحرت السفينة دون مزيد من اللغط.

كنت أشعر باكتئاب شديد لعودتى عبر البحيرة، رغم أن الجو كان رائقًا والأمواج لم تكن عالية؛ ولكنى حاولت أن أبهج نفسى، فقلت لنفسى أن العدالة لن تتركنى أشنق لشىء لم أرتكبه، وأننى سوف أقول القصة كما حدثت بالضبط، أو بقدر ما أستطيع أن أتذكر. أما بالنسبة لفرص مكدرموت، فلم أكن أعتبرها عالية؛ لكنه كان لا يزال ينكر كل شىء، ويقول أننا فقط سرقنا أشياء مستر كينير معنا لأن نانسى رفضت أن تدفع لنا رواتبنا التى نستحقها، ومن ثم فقد أخذناها لندفع لأنفسنا حقوقنا. قال أنه لو قتل أحد مستر كينير فالأغلب أن يكون لصًّا؛ وكان ثمة رجل مريب

للغاية يتجول حولنا، كان يقول أنه بائع متجول، وباع له قمصانًا؛ ولابد أنها مثل هذا القميص، ولم يكن رجلاً صادقًا مخلصًا مثله هو نفسه، والذى كانت جريمته الوحيدة هو الرغبة فى تحسين حظه فى الحياة من خلال العمل الجاد والهجرة. كان قادرًا على الكذب حقًا، ولكن ليس بشكل جيد أبدًا؛ ولم يصدقه أحد، وكان الأفضل له أن يغلق فمه؛ وفكرت أن هذا خطأ فيه يا سيدى، أنه كان يحاول أن يلقى تبعة الجريمة على صديقى القديم جيرميا، الذى لم يحدث فى حياته أن ألقى تبعة أفعاله على غيره، على حد علمى.

وضعونا فى السجن فى تورنتو، وأغلق علينا فى زنزانتين، مثل الحيوانات فى أقفاصها، لكننا لم نكن قريبين من بعضنا حتى نستطيع أن نتكلم؛ ومن ثم فقد استجوبوا كلاً منا على حدة. وسألونى أسئلة كثيرة جدًا؛ وكنت خائفة للغاية، ولم أكن متأكدة مما يجب أن أقوله. لم يكن لدى محام فى ذلك الوقت، إذ لم يدخل مستر ماكنزى فى الموضوع إلا بعد ذلك بكثير. سألت عن صندوقى،الذى صنعت الصحف جلبة شديدة حوله، وسخروا منى للإشارة إلى أنه صندوقى، وسخروا من أننى ليس لدى ملابس تذكر؛ ورغم أنه كان صحيحًا أن هذا الصندوق، وما فيه من الملابس، كانت يومًا ملكًا لنانسى، إلا أنها لم تعد ملكها، فالموتى لا يحتاجون إلى مثل هذه الأشياء.

وقد استخدموا ضدى أيضًا أننى كنت فى البداية هادئة وأتمتع بروح معنوية عالية، وأن عينى كانتا صافيتين ومفتوحتين، واعتبروا ذلك دلالة على القسوة، ولكن إذا كنت أبكى وأنوح لاعتبروا ذلك دليلاً على شعورى بالذنب؛ لأنهم قرروا بالفعل أننى مذنبة، وما أن يقرر الناس أنك

ارتكبت جريمة، فأى شىء تفعله يؤخذ دليلاً على ذلك؛ ولا أظن أننى كان يمكن أن أهرش أو أمسح أنفى دون أن يكتب ذلك فى الصحف ويضاف إليه تعليقات خبيثة فى عبارات رنانة. وحدث فى ذلك الوقت أنهم أطلقوا علىّ عشيقة مكدرموت، وشريكته فى الجريمة أيضًا؛ وكتبوا أيضًا أننى لابد أن أكون قد ساعدت فى خنق نانسى، حيث أن ذلك الفعل كان يحتاج شخصين. إن الصحفيين يحبون أن يصدقوا أسوأ الأشياء؛ وهذه هى الطريقة التى تمكنهم من بيع صحفهم، كما أخبرنى أحدهم بنفسه؛ لأنه حتى الناس المحترمون وذوو الأخلاق المستقيمة يحبون أن يقرأوا أشياء سيئة عن الآخرين.

كان الشىء التالى يا سيدى هو جلسة الاستجواب التى عقدت بسرعة بعد إعادتنا. وكانت لتحديد كيف ماتت نانسى ومستر كينير، هل بالمصادفة أم بناء على جريمة قتل، وكان يجب أن أحضر لسؤالى فى قاعة المحكمة. وفى هذا الوقت كان الرعب قد أخذ منى كل مأخذ، فقد رأيت أن مشاعر الآخرين كانت تجرى ضدى تمامًا؛ وكان السجانون فى تورنتو يقولون نكات قاسية عندما يُحضرون إلىّ الطعام، وقالوا أنهم يأملون عندما يشنقوننى أن تكون المشنقة عالية، فبهذه الطريقة سوف يلقون نظرة جيدة على كاحلى. وحاول واحد منهم أن يستغل الفرصة، وقال أننى يمكن أن أستمتع أيضًا عندما تكون لدى الفرصة، فأينما أذهب لن أجد حبيبًا أفضل منه بين ركبتىّ؛ لكنى قلت له أن يحتفظ بنفسه القذرة لنفسه؛ وأن الأمور يمكن أن تسير إلى أسوأ ما يمكن إلا أن يأتى مثل هذا السجان ويقول أننى لم أكن قد جربت الجنس بعد، وهو أمر قد يكون أقل إدانة بكثير؛ وإذا كان

أول رجل فى حياتى يتلخص فى مثل هذه الوظيفة التى يقوم بها فليبق بعيدًا عنى. وقد فعل ذلك فى الغالب.

سوف أخبر د. چورردان بهذا، فهو يحب أن يسمع مثل هذه الأشياء، ودائمًا يكتبها فى دفتره.

حسنًا يا سيدى، سوف أكمل — جاء يوم الاستجواب، وحرصت على أن أظهر نظيفة وبمظهر طيب، لأننى كنت أعرف أن المظاهر لها اعتبارها، كما يحدث عندما تتقدم لنيل وظيفة جديدة، ودائمًا ينظرون إلى معصمك وأطراف ثيابك، ليروا إذا ما كانت لديك عادات نظيفة؛ وقالوا فى الصحف أننى كنت لائقة الملبس.

أقيم الاستجواب فى قاعة المدينة، وحضره عدد من القضاة، كلهم عابسون ومبحلقون؛ وعدد ضخم من النظارة، ورجال الصحف، يدفعون ويحتشدون ويحتكون ويتصادمون، حتى يكونوا فى وضع أفضل للرؤية والسمع؛ وقد وجه إلي هؤلاء التأنيب من هيئة المحكمة عدة مرات لما أثاروه من فوضى. ولم أفهم كيف يمكن أن يدخلوا أى أشخاص آخرين إلى الغرفة التى كانت محشوة لدرجة أنها كادت تنفجر، لكن مزيدًا من الناس ظلوا يحاولون حشر أنفسهم إلى الداخل.

حاولت أن أتحكم فى ارتعاشى، وأن أواجه ما سوف يأتى بأكبر قدر أستطيع التمسك به من الشجاعة، وأصدقك القول يا سيدى، لم يكن لدى الكثير منها فى ذلك الوقت. كان مكدرموت هناك، يبدو واثقًا بنفسه كالعادة، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها منذ القبض علينا. قالت الصحف أنه *بدا عنيدًا ومتحديًا بشكل طائش ومتهور*، وكانت هذه طريقة

الصحف فى الوصف على ما أظن. لكنه لم يكن يختلف عن الشكل الذى كان يبدو به دائمًا على مائدة الإفطار.

ثم بدأوا فى استجوابى حول جريمتى القتل، ووجدت نفسى فى حالة ارتباك وحيرة شديدين. إذ أننى كما تعلم يا سيدى، لم أكن أستطيع أن أتذكر بشكل صحيح أحداث ذلك اليوم المرعب، ولم أكن أشعر أننى كنت موجودة أثناء حدوثها على الإطلاق، وكنت قد فقدت الوعى عدة مرات فى أجزاء عديدة من هذه الأحداث؛ ولكنى كنت على وعى تام بأننى لو قلت هذا فسوف أكون موضع ضحك واحتقار، حيث أن جيفرسون الجزار شهد بأنه رآنى وتحدث معى، وقال أننى أخبرته بأننا لا نريد أى لحم طازج؛ وهو الأمر الذى حولوه إلى نكتة فيما بعد، بسبب الأجساد التى كانت فى القبو، فى قصيدة منشورة على صحيفة واسعة الانتشار كانوا ينادون عليها فى وقت شنق مكدرموت؛ وفكرت أنه أمر شديد القسوة والابتذال، ويحمل عدم الاحترام لما يكابده إنسان أثناء الموت.

ومن ثم فقد قلت أن آخر مرة رأيت فيها نانسى كانت فى وقت الغداء، عندما نظرت من باب المطبخ ورأيتها تدخل البطات الصغيرات فى الحظيرة؛ وبعد ذلك قال مكدرموت أنها دخلت إلى البيت، وقلت أنها لم تكن هناك، فقال لى ألا أتدخل فيما لا يعنينى. ثم قال أنها ذهبت إلى بيت مسز رايت. قلت لهم أننى كنت مرتابة، وسألت مكدرموت عنها عدة مرات، عندما كنا مسافرين إلى الولايات، عندئذ قال أنها كانت بخير؛ لكننى لم أكن أعرف بموتها على وجه التأكيد حتى اكتشفوها فى صباح يوم الاثنين.

ثم أخبرتهم كيف أننى سمعت طلقة، ورأيت جسد مستر كينير على الأرض؛ وكيف صرخت واندفعت أجرى، وكيف أطلق مكدرموت

البندقية عليّ، وكيف أغمى عليّ ووقعت. لقد تذكرت هذا الجزء من الأحداث. والواقع أنهم وجدوا الطلقة التى انطلقت من البندقية فى خشب إطار باب المطبخ الصيفى، وهو ما أظهر أننى لم أكن أكذب.

وتم إيداعنا السجن من انتظارًا للمحاكمة، والتى كانت لن تجرى قبل نوفمبر؛ ومن ثم كان أمامى ثلاثة أشهر متعبة من الحبس فى سجن تورنتو، والذى كان أسوأ من وجودى هنا فى الإصلاحية، فقد كنت وحدى فى الزنزانة، والناس يأتون متظاهرين بالقيام بزيارة أو أخرى، لكن الحقيقة أنهم كانوا يريدون التحديق والبحلقة. وكنت فى حالة بائسة للغاية.

فى الخارج، تغيرت الفصول، لكن كل ما كنت أعرفه هو الاختلاف فى الضوء الذى يظهر من النافذة الصغيرة ذات القضبان والتى كانت مرتفعة فى الجدار حتى لا أستطيع أن أنظر منها إلى الخارج؛ والهواء الذى يمكن أن يدخل، حاملاً روائح ونسائم كل الأشياء التى كنت أفتقدها. فى أغسطس كانت رائحة التبن المحصود حديثًا، ثم روائح العنب والخوخ فى فترة نضج الثمار؛ وفى سبتمبر رائحة التفاح، وفى أكتوبر الأوراق المتساقطة، وأول برد ينذر بسقوط الثلج. وليس هناك ما يمكن أن أفعله، سوى أن أجلس فى زنزانتى، وأقلق حول ما سوف يحدث، وإذا كنت حقًا سوف أشنق، كما كان السجانون يقولون لى كل يوم، ولابد أن أقول أنهم كانوا يستمتعون بكل كلمة عن الموت والكارثة تخرج من أفواههم. ولا أعرف إذا كنت لاحظت ذلك يا سيدى، ولكن هناك بعض الناس الذين يستمتعون بمحن غيرهم من البشر، وبالأخص إذا كانوا يعتقدون أن هؤلاء البشر الآخرين قد ارتكبوا خطيئة، وهو ما يضيف نكهة ولذة زائدة. ولكن

من منا بلا خطيئة، كما يقول لنا الإنجيل؟ إننى سوف أشعر بالخجل من نفسى لو أحسست بمثل هذه البهجة لمعاناة الآخرين.

فى أكتوبر عُيِّن لى محام، وهو مستر ماكنزى. لم يكن رجلاً وسيمًا، وكانت له أنف أشبه بالزجاجة. وفكرت أنه كان شابًا صغيرًا وليست له تجارب، وأن تلك هى أول قضية له؛ وكان سلوكه يميل أحيانًا إلى ألفة زائدة، أكثر من اللازم بالنسبة لما أعرفه، وفيما يبدو أنه كان يتمنى أن يغلق عليه فى الزنزانة معى وحدنا، وكان يقول لى، بتربيتات كثيرة من يده، أنه يريد أن يريحنى؛ لكنى كنت سعيدة إذ أقابل أى إنسان، وأن يدافع عن قضيتى ويضع الأمور فى الضوء بأحسن طريقة ممكنة؛ ومن ثم فإننى لم أكن أعترض، لكنى كنت أبذل جهدى للابتسام والسلوك بشكل لائق. أراد منى أن أحكى قصتى بطريقة أسماها متماسكة، ولكنه كان دائمًا يتهمنى بالخروج عن الموضوع، وبدأ يتضايق منى؛ وفى النهاية قال أن الطريقة الصحيحة هى أن لا أحكى القصة كما أتذكرها بالفعل، والتى لا يمكن توقع أن يفهم منها أحد شيئًا، لكن أن أقص القصة التى يمكن أن تتسق مع بعضها، وهكذا يمكن أن تكون هناك فرصة لتصديقى. وكان علىّ أن أترك الأجزاء التى لا أستطيع تذكرها، وأن أترك بالأخص حقيقة أننى لا أستطيع تذكرها. ويجب أن أقول ما لابد أنه حدث، وفقًا لما هو جدير بالتصديق شكليًا، بدلاً مما يمكن أن أتذكره أنا نفسى من حقيقة. ومن ثم كان هذا هو ما حاولت أن أفعله.

كنت وحدى معظم الوقت، وقضيت ساعات طويلة أمعن النظر فى محنتى القادمة؛ وإن وصل الأمر بى إلى الشنق، فكيف سيكون ذلك؟ وإلى أى مدى سيكون طريق الموت طويلاً ومفعمًا بالوحدة، وهو الطريق

الذى يمكن جدًّا أن أرغم على الرحيل عبره؛ وما الذى سيكون بانتظارى فى نهايته. دعوت الله، ولكن لا إجابة؛ وعزيت نفسى بالتفكير بأن هذا الصمت هو مجرد وسيلة أخرى من وسائله الغامضة التى لا نفهمها. حاولت أن أعيد التفكير فى كل الأشياء التى أخطأت فيها حتى أستطيع التوبة عنها؛ مثل اختيارى للملاءة الأقل جودة لأمى، وعدم بقائى مستيقظة عندما كانت مارى هويتنى تموت. وعندما سيأتى الوقت الذى أدفن فيه أنا نفسى، ربما لن تكون هناك ملاءة على الإطلاق، وإنما سأقطع إربًا، قطعًا صغيرة متناثرة، كما يُقال أن الأطباء يفعلون بك إذا شنقت. وكان هذا أسوأ ما أخشاه.

ثم حاولت أن أبهج نفسى بتذكر الأيام الخوالى. تذكرت مارى هويتنى وكيف كانت تتمنى أن تتزوج وكيف خططت للبيت الريفى الذى تريد أن تعيش فيه، حتى ستائره اختارتها، وكل شىء، وكيف وصل هذا إلى لا شىء، وكيف ماتت فى عذاب أليم؛ ثم جاء آخر أيام شهر أكتوبر، وتذكرت الليلة التى قشرنا فيها التفاحات؛ وكيف قالت أننى سأعبر الماء ثلاث مرات، ثم أتزوج رجلاً يبدأ اسمه بحرف "چيه". كل هذا بدا لى الآن أقرب إلى الألعاب الطفولية، ولم أعد أعتقد فى أى منها. كنت أقول: آه يا مارى، كم أشتاق أن أعود إلى غرفة نومنا الصغيرة الباردة فى منزل مسز ألدرمان پاركينسون، مع الحوض المكسور والكرسى الوحيد، بدلاً من أن أكون هنا فى هذه الزنزانة المظلمة، وحياتى فى خطر. كان يبدو لى أحيانًا أن بعض الراحة كانت تغمرنى عندما أقول ذلك؛ وسمعتها ذات مرة تضحك. ولكن عندما تكون وحيدًا فترة طويلة كهذه، فلابد أنك ستتخيل أشياء كثيرة.

وكان هذا هو الوقت الذى بدأت فيه زهور الفاوانيا الحمراء تنمو.

آخر مرة رأيت فيها د. چوردان سألنى إن كنت أتذكر مسز سوزانا مودى عندما جاءت لزيارة الإصلاحية، تقريبًا منذ سبع سنوات، أى قبل أن يضعونى فى المصحة العقلية بقليل. قلت أننى أتذكرها. وسألنى ما رأيى فيها، فقلت أنها كانت تبدو مثل خنفساء.

قال د. چوردان: "خنفساء؟" ورأيت أننى أثرت دهشته.

قلت: "نعم، خنفساء يا سيدى. متكورة وبدينة وتلبس ثيابًا سوداء، وتسير بخطوات سريعة ومتلاحقة؛ ولها أيضًا عينان سوداوان لامعتان". وأضفت: "لا أقصد بذلك إهانة لها يا سيدى"، إذ أفلتت منه إحدى ضحكاته القصيرة تلك، قلت: "إنما هى الطريقة التى كانت تبدو بها فى رأيى."

"وهل تتذكرين الوقت الذى زارتك فيه، بعد وقت قصير من ذلك، فى مصحة المقاطعة؟"

قلت: "ليس جيدًا يا سيدى، فقد كان يأتينا هناك زائرون كثيرون."

"إنها تصفك بأنك كنت تصرخين وتجرين حولك بلا هدف. وأنك قد وضعت فى جناح المرضى المتسمين بالعنف."

قلت: "ربما يا سيدى. لا أتذكر أننى تصرفت بطريقة عنيفة تجاه الآخرين، إلا إذا بدأوا هم بالعنف معى."

قال د. چوردان: "والغناء، فيما أعتقد!"

قلت بجفاء، فأنا لم أكن أحب هذه الطريقة فى الاستجواب: "إننى أحب الغناء. إن ترنيمة طيبة أو أغنية جميلة ترفع من الروح المعنوية."

قال: "هل أخبرت كينيث ماكنزى أنك كنت ترين عينى نانسى مونتجومرى تتبعانك فى كل مكان؟"

قلت: "لقد قرأت ما كتبت مسز مودى عن هذا يا سيدى. ولا أحب أن أتهم أحدًا بالكذب. لكن مستر ماكنزى أضاف تفسيرًا يدل على سوء فهمه لما قلته له."

"وماذا كان ما قلت له؟"

"قلت له فى البداية 'بقع حمراء'، يا سيدى. وكان هذا حقيقيًّا، كانت تبدو كالبقع الحمراء."

"وبعد ذلك؟"

"وبعد ذلك، عندما ضغط على لتفسير ذلك، أخبرته بما أعتقده كتفسير لهذه البقع. ولكنى لم أقل 'عينان'."

قال د. چوردان، الذى كان يحاول التظاهر بالهدوء: "نعم؟ استمرى!"

كان ينحنى إلى الأمام، وكأنما ينتظر سماع سر عظيم. لكنه لم يكن سرًّا عظيمًا. ولو سألنى قبل ذلك لأخبرته فى الحال.

"لم أقل 'عينان' يا سيدى، ولكنى قلت 'فاوانيا'. لكن مستر ماكنزى كان دائمًا مغرمًا بالاستماع إلى صوته الخاص وليس لما يقوله الآخرون. وأعتقد أن المعتاد فى الغالب أن تشعر بعيون تتبعك فى كل مكان. فهذا هو الأقرب إلى المطلوب، فى تلك الظروف، إذا كنت تتابع ما أرمى إليه يا سيدى. وأظن أن هذا هو السبب فى أن مستر ماكنزى

أخطأ فى السمع، وأن مسز مودى كتبت ما قاله. فقد أرادا تأدية الأشياء على الوجه اللائق. ولكنها كانت 'فاوانيا'، رغم كل شيء. وذات لون أحمر. ليس هناك احتمال للخطأ فى هذا."

قال د. چوردان: "أرى ذلك". لكنه بدا بنفس الحيرة كما فى أى وقت.

والآن فإنه سوف يريد أن يعرف كل شيء عن المحاكمة. بدأت المحاكمة فى الثالث من نوفمبر، واندفع كثير من الناس إلى مبنى المحكمة حتى كادت الأرض أن تميد بهم. وعندما وضعونى فى قفص الاتهام، اضطررت فى البداية للوقوف، لكنهم بعد ذلك أحضروا لى مقعدًا. كان الهواء فاسدًا وخانقًا، وكانت الأصوات فى حالة أزيز مستمر، مثل سرب من النحل. وقف أناس مختلفون، بعضهم إلى جانبى، ليقولوا أننى لم أكن أبدًا أثير المشاكل من قبل، وأننى كنت عاملة مجتهدة، وأتميز بشخصية طيبة؛ وبعضهم تحدث ضدى؛ وكان هؤلاء أكثر. نظرت حول المكان باحثة عن چيرميا البائع المتجول، لكنه لم يكن هناك. فهو ربما يكون قد فهم شيئًا من محنتى، وربما حاول أن يساعدنى للخروج منها، لأنه قال أن هناك صلة بيننا. أو هذا ما كنت أعتقده.

ثم أحضروا چيمى وولش. كنت أتمنى أن يظهر منه أى تعبير عن التعاطف معى، لكنه وجه لى نظرة مليئة باللوم والحسرة والغضب، حتى أننى عرفت كيف كان تأثير الأمر عليه. فقد شعر بأنه تعرض لخيانة فى الحب، لأننى هربت مع مكدرموت؛ وتحولت نظرته لى من ملاك جديرة بالحب الواله حتى العبادة، تحولت فى نظره إلى شيطان، وسوف يفعل كل ما فى وسعه لتدميرى. وبهذا غاص قلبى فى أعماقى، لأنه من

بين كل الناس الذين عرفتهم فى ريتشموند هيل، كنت أعتمد عليه أن يقول كلمة طيبة فى حقى؛ كما أنه بدا صغيرًا جدًّا وساذجًا وعلى فطرته ومليئًا بالبراءة، حتى شعرت بكرباج ينزل على جسدى، لأننى كنت أقدر رأيه الطيب عنى، وكان من المثير للأسى والحزن أن أفقده.

قام ليدلى بشهادته، وأدى القسم؛ وكانت الطريقة التى أدى بها القسم على الإنجيل مفعمة بالوقار والمهابة، ولكن صوته كان يجيش بالغضب، ولم تدلنى على أى خير. أخبرهم عن حفلنا فى الليلة السابقة، ولعبه على الفلوت، وكيف رفض مكدرموت الرقص، وكيف سار معه نصف الطريق إلى البيت؛ وكيف كانت نانسى حية عندما تركنا، وكانت فى طريقها إلى فراشها فى الطابق الأعلى. ثم أخبرهم كيف أنه جاء بعد الظهر فى اليوم التالى، ورأى مكدرموت يحمل بندقية ذات ماسورتين فى يده، وادعى أنه يستخدمها لصيد الطيور. وقال أننى كنت واقفة عند الطلمبة ويداى مضمومتان، وكنت أرتدى الجورب الأبيض القطنى؛ وعندما سألنى أين نانسى، ضحكت بطريقة ساخرة، وقلت أنه كان دائمًا يريد أن يعرف أشياء؛ ولكن نانسى ذهبت إلى منزل آل رايت، حيث أن هناك شخصًا مريضًا، وقد جاء رجل لتوصيلها.

لم أكن أتذكر أيًّا من ذلك يا سيدى، ولكن چيمى وولش شهد بذلك بطريقة مباشرة كان من الصعب أن ترتاب فى صحتها.

لكن بعد ذلك غلبته مشاعره، وأشار لى، وقال: إنها ترتدى ثوب نانسى، والشرائط التى تربط بها قبعتها تخص نانسى، وكذلك اللفاع الفرو الذى تضعه، وأيضًا المظلة التى فى يدها."

وهنا امتلأت قاعة المحكمة بصراخ وضجيج شديدين، مثل اندفاع الأصوات فى يوم القيامة؛ وعرفت أنه حكم على بالموت.

عندما جاء دورى، قلت ما أخبرنى مستر مـــاكنزى أن أقولـــه، وكانت رأسى فى حالة اضطراب شديد، وأنا أحاول أن أتـــذكر الإجابـــات الصحيحة؛ وضغطوا على لأشرح كيف أننى لم أحذر نانسى ومستر كينير بمجرد أن علمت بنوايا چيمس مكدرموت. وقال مستر ماكنزى أن هذا كان خوفًا على حياتى، ورغم أنفه الكبير إلا أنه كان فصيحًا للغاية. وقال أننى كنت صغيرة وأقرب إلى طفلة، طفلة مسكينة بلا أم، وأننى أعتبـــر بكـــل المقاييس يتيمة أطلقت إلى العالم بلا أحد يعلمنى الصـــواب مـــن الخطـــأ، واضطررت للعمل الشاق لكسب العيش منذ سن صغيرة، وأننى كنت الكـــدّ نفسه؛ وكنت شديدة الجهل ولم أتعلم، وأمية، ولا أزيد عن البلهاء إلا قليلاً؛ وساذجة للغاية، ويمكن التغرير بى، ومن السهل المكر بى.

ورغم كل ما فعله يا سيدى، فقد سارت الأمـــور ضـــدى. قـــرر المحلفون أننى مذنبة بارتكاب جريمة القتل، كمحرضة قبل ارتكاب الجريمة ومساعدة بعدها، ونطق القاضى بحكم الموت. وكنت قد طلب منى الوقوف لسماع الحكم، لكنه عندما قال كلمة الموت أغمى على، ووقعت على السور الذى كان عبارة عن قضبان ذات قمم مدببة يحيط بقفـــص الاتهـــام كلـــه؛ ودخل أحد القضبان فى صدرى، إلى جوار القلب مباشرة.

يمكننى أن أريه الندبة.

- ٤٤ -

أخذ سايمون قطار الصباح من تورنتو. سافر بالدرجة الثانية؛ فقد كان ينفق الكثير من النقود فى الفترة الأخيرة، ويشعر بالحاجة إلى الاقتصاد فى الإنفاق.

وهو يتطلع إلى لقائه مع كينيث ماكنزى: فمن خلاله قد يتمكن من كشف تفصيل ما أو آخر، أى شىء تكون جريس قد أهملت الإشارة إليه، إما بسبب أنه قد يضعها فى ضوء سيئ، أو لأنها قد نسيته أصلاً. ويفكر متأملاً: إن العقل أشبه بالبيت ــ الأفكار التى لم يعد المالك راغبًا فى عرضها مرة أخرى، أو تلك التى تثير ذكريات مؤلمة، يتم إقصاؤها بعيدًا عن المشهد، ويعهد بها إلى علّية أو قبو، مثل تخزين الأثاث المكسور، فمن المؤكد أن هناك عنصرًا إراديًا يتدخل فى عملية النسيان.

وإرادة جريس هى من النوع السلبى الأنثوى ــ يمكنها أن تتنكر وترفض الكثير بسهولة أكثر مما يمكنها أن تؤكد أو تقبل. إنها تعرف فى مكان ما داخل نفسها ــ وقد رأى ذلك، حتى ولو للحظة، ذلك الوعى، حتى وجود نظرة ماكرة فى ركن عينها ــ إنها تعرف أنها تخفى شيئا عنه. وكما تخيط غرزة بغرزة فى شغلها، بهدوء خارجى مثل تمثال رخامى للعذراء، فهى تبذل طوال الوقت كل ما فى جهدها العنيد السلبى ضده.

فالسجن لا يغلق فقط على من فيه، وإنما يمنع أيضًا الآخرين ويبقيهم خارجه. وسجنها الأقوى هو ما بنته بنفسها حول نفسها.

في بعض الأيام، يرغب لو يصفعها على وجهها. أحيانًا يشعر بسطوة شديدة لهذا الإغراء. لكنها حينئذ تكون قد أوقعته في الشرك؛ حينئذ يكون لديها سبب لمقاومته. ربما سوف تقلب عليه تلك النظرة الشبيهة بنظرة الظبي الجريح، والتي تحتفظ بها كل النساء مختزنة لمثل هذه المناسبات. سوف تبكي.

إلا أنه لا يشعر أنها تكره محادثاتهما. على العكس، من الواضح أنها ترحب بهذه المحادثات، بل وتستمتع بها؛ كما يستمتع المرء بلعبة من أي نوع. متى يكسب أحدهما، يسأل نفسه مقطبًا. إن المشاعر التي تعبر عنها بوضوح تام تجاهه هي الامتنان المستكين.

لقد بدأ يكره مشاعر الامتنان لدى النساء. إنها أشبه بمن يجد أرنبًا يتملقه، أو أن يجد نفسه مغطى بالحساء: لا تستطيع أن تتخلص منها. فهي تبطئ من حركتك، وتأخذك على حين غرة. كل يوم تعبر بعض النساء عن عرفانها بفضله، فيشعر بأنه يأخذ دشًا باردًا. فهذا العرفان ليس حقيقيًا؛ إن المقصود به هو أنه يجب أن يكون ممتنًا لهن. وفي أعماقهن يحتقرنه. يتذكر ببعض الحرج، وبنوع من الاشمئزاز البغيض من الذات، كيف كان يبدو بمظهر المتنازل الغبي وهو يدفع النقود لإحدى فتيات الشوارع المنهكة المثيرة للرثاء ـ النظرة الضارعة في عينيها، وكيف شعر بنفسه كريمًا ومترفًا ومتعاطفًا، وكأنه هو الذي يسدي إليها المعروف، لا هي. فأي قدر من الازدراء أبقينه كلهن خفيًا في دواخلهن، تحت شكرهن وابتساماتهن!

تنطلق صافرة القطار؛ ويندفع الدخان الرمادى عابرًا النافذة. إلى اليسار، عبر الحقول الممتدة، توجد البحيرة المنبسطة، تمتلئ مياهها بغمازات مثل لوح من الرصاص والقصدير المطروق. يظهر هنا وهناك كوخ خشبى، حبل من الغسيل يرفرف فى الهواء، أم بدينة ولا شك أنها تلعن الدخان، زمرة من الأطفال المبحلقين. أشجار مقطوعة حديثًا، ثم بقايا الأشجار بعد قطعها؛ نار موقدة فى الهواء الطلق تطلق دخانها. بيت الشحاذ المؤقت، بعض الطوب الأحمر أو لوح من ألواح المراكب البيضاء. الموتور يصدر طرقات عنيفة، كدقات قلب حديدى، يتحرك القطار بلا توقف نحو الغرب.

بعيدًا عن كينجستون، بعيدًا عن مسز همفرى. راشيل، كما يناديها الآن بعد توسلات منها. كلما استطاع أن يضع أميالاً أكثر بينه وبين راشيل همفرى، كلما شعر بأنه أخف وزنًا، وأقل متاعب. لقد تورط معها أكثر كثيرًا مما يجب. يشعر بأنه يتعثر ويتخبط ــ تأتى إلى عقله صور الرمال المتحركة ــ لكنه لا يعرف كيف يخلِّص نفسه منها حتى الآن. إن وجود عشيقة فى حياته ــ لأن هذا هو ما يمكن وصفها به الآن، على ما يظن، ولم يأخذ الأمر وقتًا طويلاً! ــ هو أسوأ من وجود زوجة. فالمسئوليات الملقاة على عاتقه أكثر ثقلاً، وأشد إرباكًا.

المرة الأولى كانت حادثًا: نصبت له كمينًا وهو نائم. وحاجته الطبيعية غلبته، تسللت إليه وهو نائم مسحور، غير متحصن بدروع اليقظة اليومية؛ أحلامه انقلبت عليه. هذا هو نفس ما تدعيه راشيل عن نفسها، فهى تقول أنها كانت تسير وهى نائمة. كانت تظن نفسها بالخارج فى ضوء الشمس، تجمع الزهور، ولكن فجأة وجدت نفسها فى غرفته، فى الظلام،

وبين ذراعيه، وقد وصلت إلى نقطة لا يمكن الرجوع منها، لقد ضـــاعت. "ضـــاعت" هى الكلمـــة التى تســـتخدمها كثيرًا. أخبرته أنها كانت دائمًـــا ذات طبيعة حساسة، ومعرضة للمشى أثناء النوم حتى وهى طفلـــة. وقـــد اعتادوا أن يغلقوا عليها الباب بالمفتاح فى غرفتها ليلاً، لمنعها من التجول على غير هدى فى ضوء القمر. وهو لا يصدق أى شيء من هذه القصة، ولكن بالنسبة لامرأة مهذبة من طبقتها فإن المفترض أنها طريقة لحفظ ماء الوجه. أما ما كان فى عقلها بالفعل فى ذلك الوقت، وما تفكر فيه الآن، فهو لا يجرؤ على محاولة تخمينه.

وتقريبًا، فى كل ليلة منذ تلك الليلة، تأتى إلى غرفته فى ردائهـــا الليلى، وقد وضعت عليها رداء فضفاضًا أبيض مكشكشاً. الأشرطة عنـــد الرقبة محلولة، والأزرار مفتوحة. تحمل شمعة واحدة: وتبدو فى الضـــوء الكابى للشمعة أكثر شبابًا. عيناها الخضراوان تومضان، وشعرها الطويـــل الأشقر مسدل حول كتفيها مثل خمار لامع.

وإذا بقى بالخارج حتى وقت متأخر، يسير على ضفة النهر فـــى برودة الليل كما تزايدت عادته فى الفترة الأخيرة، ستكون هناك فى انتظاره عندما يعود. وأول رد فعل له نوع من الملل والاستياء: ثم رقصة طقســـية لابد من المرور بها، وهى رقصة مملة للغاية بالنســـبة لـــه. يبـــدأ اللقـــاء بالدموع، والارتعاش، والممانعة: تتنهد، وتلوم نفســـها، وتتصـــور نفســـها محطمة تتمرغ فى العار، روحًا آثمة. فهى لم تكن أبدًا عشيقة لأحـــد مـــن قبل، لم تنحدر أبدًا إلى هذا المستوى، ولم تتورط فى مثل هذا الانحطـــاط؛ إذا اكتشفهما زوجها، فماذا سوف يحدث لها؟ إن المرأة هى التى يقع عليها اللوم دائمًا.

يتركها سايمون تستمر بهذا الأسلوب لبعض الوقت؛ ثم يهدئ من روعها، ويؤكد لها بأقل الألفاظ تحديدًا وأكثرها إبهامًا أن كل شيء سيكون على ما يرام، ويقول أنه لا يفكر فيها أقل مما سبق لما حدث منها سهوًا بهذه الطريقة. ثم يضيف أنه لا حاجة لأن يعرف أحد شيئًا، بشرط أن يكونا حذرين. فلابد أن يأخذا حذرهما بشدة ألا يخون أحدهما الآخر بقول كلمة أو توجيه نظرة فى حضور الآخرين ــ خاصة دورا، لأن راشيل لابد أن تعرف كيف يثرثر الخدم ــ والحذر ليس فقط لحمايتها، وإنما لحمايته أيضًا. فيمكنه أن يتخيل ماذا يمكن أن يقول المبجل ڤرينجر؛ مثله مثل الآخرين.

تبكى أكثر عند التفكير فى الاكتشاف؛ فهى تتلوى ألمًا وخجلاً من خوف المهانة والخزى. ولا يظن أنها ما زالت تأخذ الأفيون، أو على الأقل ليس كثيرًا كما فى السابق، وإلا ما كانت مشاعرها تستثار بهذه الطريقة. وتستمر فى قولها أنها ما كان يمكن لها أن تصبح عرضة لكل هذا الاستهجان والاستنكار لو كانت أرملة. فلو كان الميجور ميتًا، فلن تكون خائنة لقسم الزواج؛ ولكن هذا هو الحال.. يقول لها أن الميجور قد عاملها بطريقة شنيعة، إنه نذل، وغد، كلب، ويستحق حتى أسوأ من ذلك منها. لقد اتخذ نوعًا من الحيطة، فلم يبذل أية وعود بالزواج العاجل إذا حدث أن الميجور فجأة وبالمصادفة ترنح فوق جرف وهوى وانكسرت رقبته. وهو فى داخله يتمنى له حياة مديدة وصحة جيدة.

يجفف لها عينيها بمنديلها الخاص ــ والذى هو دائمًا نظيف، مكوى جيدًا، تتصاعد منه رائحة البنفسج، وموضوع بعناية فى كمها. تلف ذراعيها حوله، وتحتضنه، ويشعر بثدييها يدفعانه، وبفخذيها، وبجسدها كله.

إن لها خصرًا نحيلاً بشكل يثير الدهشة. ويرطب فمها رقبته. ثم تنسحب للخلف مذهولة من نفسها، مع إيماءة توحى بالخفر والحياء لفتاة صغيرة، وتنطوى بعيدًا عنه وكأنها اتخذت موقف الهروب؛ ولكن فى هذا الوقت يكون الملل قد غادره وتغير الموقف.

وراشيل ليست كأى امرأة عرفها من قبل. ففى البداية هى امرأة محترمة، وهى أول امرأة محترمة يعرفها؛ والاحترام فى المرأة، كما اكتشف الآن، يجعل الأشياء معقدة للغاية. فالمرأة المحترمة هى بطبيعتها باردة جنسيًا، وليست لها الشهوات المنحرفة والرغبات العصبية المنهكة التى تدفع أخواتهن المنحلات إلى البغاء؛ أو هكذا تقول النظرية العلمية. أما اكتشافاته الخاصة فإنها توحى له بأن دافع البغايا ليس الفسوق فى الغالب وإنما الفقر، ورغم ذلك فإنهن يجب أن يظهرن بالمظهر الذى يحب زبائنهن أن يروهن عليه. فالبغى لابد أن تتصنع الرغبة ثم الاستمتاع، سواء كانت تشعر بذلك أم لا؛ ومثل هذا التظاهر هو ما يدفع لهن ثمنه. فالبغى الرخيصة رخيصة ليس لأنها قبيحة أو عجوز، ولكن لأنها ممثلة رديئة.

أما مع راشيل فإن الأشياء مقلوبة. فتظاهرها هو تظاهر بالنفور ـ دورها هو أن تمثل المقاومة، ودوره هو أن يمثل التغلب عليها. إنها تريد أن يتم إغواؤها، وقهرها، وأخذها رغم إرادتها. وفى لحظة الذروة ـ التى تحاول أن تتخفى فى مظهر الألم ـ دائمًا ما تقول "لا".

وبالإضافة إلى ذلك، فإنها تلمح إلى أنها فى هذه العملية من الإقبال والإدبار، وما تنطوى عليه من تضرع ذليل، تقدم له جسدها كمقابل، كنوع من دفع الثمن، كشىء تدين به له مقابل النقود التى أنفقها نيابة عنها، كما فى ميلودراما بالية تصور أصحاب البنوك الأشرار والبنات

الفاضلات الفقيرات. ولعبتها الأخرى هى أنها وقعت فى الشرك، وأنها تحت رحمته، كما فى الروايات الداعرة التى تباع فى أكشاك الكتب فى باريس، بما فيها من السلاطين ذوى الشوارب الضخمة المبرومة والجاريات المسكينات. ملابس من الجوخ المفضض، وكواحل مسلسلة. وأثداء مثل البطيخ، وعيون الغزلان. إن ما فى هذه الصور من ابتذال لا ينقص من قوتها.

أية حماقات نطق بها وهو منغمس فى تلك الملذات الليلية؟ لا يكاد يستطيع أن يتذكر. كلمات تعبر عن العاطفة والحب الملتهب، عن كيف أنه لا يستطيع مقاومتها، العبارات التي ــ وما أغرب أن يعترف بذلك ــ يعتقد هو نفسه أنه يقولها بصدق فى ذلك الوقت. أما أثناء النهار، فراشيل عبء ثقيل، عائق، ويتمنى التخلص منها؛ ولكنها فى الليل شخص آخر تمامًا، وكذلك هو. هو أيضًا يقول لا بينما يقصد نعم. يقصد أكثر، يقصد أقوى، يقصد أعمق. يتمنى لو يستطيع عمل شق فيها ــ شق صغير جدًّا فقط ــ ليتمكن من تذوق دمها، الأمر الذى يبدو له فى الظلام الظليل لغرفة النوم رغبة طبيعية للغاية. يسوقه شيء يبدو وكأنه رغبة لا يستطيع التحكم بها؛ ولكن إذا وضعنا هذا جانبًا، إذا وضع نفسه جانبًا، فى تلك الأوقات ــ عندما تتموج الملاءات مثل الأمواج، وهو يتلوى ويتمرغ ويلهث ــ هناك جانب آخر من نفسه يقف بذراعين معقودين، بكامل ملابسه، يقف متفرجًا، كل ما يشعر به هو الفضول إلى معرفة إلى أى مدى، بالضبط، سوف ينساق؟ إلى أى مدى.

يقف القطار فى محطة تورنتو، ويحاول سايمون أن ينحى هذه الأفكار جانبًا. فى المحطة يستأجر عربة خفيفة، ويوجه السائق إلى الفندق

الذى اختار النزول فيه؛ ليس أفضل الفنادق ــ فهو لا يريد تبديد النقود بلا ضرورة ــ ولكنه أيضًا ليس زريبة، فهو لا يريد أن يتعرض للسرقة ولسعات البق. وبينما تتحرك العربة فى الطرقات ــ الحارّة المتربة، المزدحمة بالعربات من كل الأصناف، عربات نقل الأخشاب، حافلات عامة، مركبات خاصة ــ ينظر حوله باهتمام واستمتاع. كل شيء جديد ورشيق، سريع ومشرق، مبتذل ولطيف، مع رائحة نقود طازجة وطلاء حديث. الثروات أصبحت تنمو هنا فى زمن قصير للغاية، والمزيد فى طريقه للنمو. هناك المحلات المعتادة، والمبانى التجارية، وعدد مدهش من البنوك. ولا يبدو أى محل من محلات الأطعمة مشجعًا. يبدو معظم الناس على الأرصفة فى حالة ازدهار إلى درجة لا بأس بها، وتخلو الأرصفة من جماعات الشحاذين المعوزين، وأسراب الأطفال الذين تبدو عليهم القذارة وضعف البنية، وشراذم العاهرات المتثاقلات أو المبهرجات اللاتى يشوهن الكثير من المدن الأوروبية؛ إلا أن مثل هذا الفساد والانحلال هو ما يجعله يود لو يكون فى لندن أو باريس. فهناك سيكون شخصًا غير معروف، ويمكن أن يكون معفيًّا من المسئوليات. لا روابط، لا علاقات. سوف يكون قادرًا على أن يفقد نفسه تمامًا.

الفصل الثانى عشر

معبد سليمان

"نظرت إليها فى دهشة. فكرت فى نفسى: 'يا إلهى الطيب! هل يمكن أن تكون هذه امرأة؟ امرأة جميلة، ناعمة البشرة أيضًا ــ ومجرد بنت! أى قلــب تحملـــه بــين جنباتهــا!' وشعرت بأمرين يتنازعاننى؛ رغبة شديدة تســتهوينى أن أخبرها أنها شيطانة، وأننى لا أريد أن يكون لى أى شــأن فى هذا العمل الرهيب؛ لكنها كانت تبدو شديدة الوســامة، حتى أننى بطريقة أو أخرى استسلمت للإغراء...."

چيمس مكدرموت

إلى كينيث ماكنزى، كما روته سوزانا مودى،

Life in the Clearings, 1853

... لأن هذا هو قدر امرأة

ظلت تعتصم بالصبر والصمت، طويلاً، ظلت تنتظر مثل شبح لا
يتكلم،

حتى جاء الصوت المستجوب ليذيب تعويذة الصمت.

ولهذا فإن الحياة الداخلية لنساء كثيرات معذبات،

مظلمة وصامتة وعميقة كالأنهار الجوفية،

تجرى فى ظلمات الأعماق ....

هنرى وادزوورث لونجفِللو

"The Courtship of Miles Standish," 1858.

- ٤٥ -

تقع مكاتب المحاماة الخاصة ببرادلى وبورتر وماكنزى فى بناية جديدة من الطوب الأحمر، ذات مظهر يوحى ببعض التكلف، فى شارع كينج الغربى. فى المكتب الخارجى شاب نحيل ذو شعر خال من اللون، يجلس على مكتب مرتفع، يكتب بقلم ذى سن من الصلب. عندما يدخل سايمون يقفز من مكانه ناثرًا قطرات الحبر، مثل كلب ينفض نفسه.

يقول: "مستر ماكنزى بانتظارك يا سيدى". ويضع قوسين من الاحترام والتبجيل فى نطقه لكلمة *"ماكنزى"*. يفكر سايمون: كم عمره يا ترى، لابد أن هذه أول وظيفة له. يقود سايمون عبر ممر مفروش بالسجاد، ويدق على باب سميك من البلوط.

يجلس كينيث ماكنزى فى قدسه الداخلى. وقد أحاط نفسه بأرفف كتب أنيقة، ومجلدات مهنية تبدو باهظة التكلفة، وثلاث لوحات لخيول السباق. على مكتبه حامل حبر فخم من الطراز البيزنطى. إنه ليس مثلما كان سايمون يتوقع بالضبط: ليس بطولى الشكل مثل برسيوس، ولا هو مثل فرسان الصليب الأحمر. إنه رجل قصير يأخذ شكل الكمثرى ـ كتفان ضيقان، وبطن صغيرة مستريحة منتفخة تحت الجاكيت التارتان ـ وله

أنف أنبوبى ضخم ملىء بالبثور، وخلف نظارته الفضية، عينان صغيرتان ولكنهما ثاقبتان. ينهض من مقعده، وقد مد يده بترحاب مبتسمًا؛ لديه سنتان أماميتان طويلتان مثل سنتى القندس. يحاول سايمون أن يتخيل ماذا كان شكله منذ ستة عشر عامًا، عندما كان شابًّا صغيرًا ـــ أصغر من سايمون الآن ـــ لكنه لا يستطيع التخيل. فلابد أن كينيث ماكنزى كان يبدو فى أواسط العمر حتى عندما كان سنه خمس سنوات.

هذا إذن هو الرجل الذى أنقذ حياة جريس ماركس ذات يوم، رغم الاحتمالات المضادة الكثيرة ـــ الدليل القاطع، الرأى العام الغاضب، وشهادتها المشوشة غير المعقولة. يشعر سايمون بفضول لمعرفة كيف استطاع ذلك بالضبط.

"د. چوردان. سعيد بمقابلتك".

يقول سايمون: "إنه لكرم منك أن تمنحنى بعض وقتك".

"على الإطلاق. إن لدى رسالة المبجل ڤرينجر؛ وهو يثنى عليك كثيرًا، وقد أخبرنى بعض ما قمت به. ويسعدنى أن أكون قادرًا على المساعدة فى صالح العلم؛ وكما وصل إلى سمعك بكل تأكيد فإننا نحن المحامين دائمًا نرحب بأية فرصة للفت الأنظار. ولكن قبل أن نبدأ ..." يقدم إليه إناء، سيجار.. الشيرى ممتاز: مستر ماكنزى يحسن الاستمتاع بحياته.

يسأل سايمون، كنوع من البداية: "أليست لك علاقة بالمتمرد الشهير؟"

"لا علاقة على الإطلاق، رغم أننى أفضل ادعاء القرابة عن إنكارها؛ فهذا الأمر لا يسبب ضررًا الآن كما كان ذات يوم، وقد تم العفو عن الفتى العجوز منذ وقت طويل، وأصبح ينظر إليه باعتباره الأب الروحى للإصلاحات. ولكن المشاعر المضادة له كانت مرتفعة فى تلك الأيام؛ وهذا وحده كان كفيلاً بوضع المشنقة حول رقبة جريس ماركس".

يقول سايمون: "وكيف ذلك؟"

"إذا كنت قرأت الجرائد القديمة، فلابد أنك لاحظت أن الصحف التى وقفت فى جانب السيد ماكنزى وقضيته كانت هى الصحف الوحيدة التى تقول كلمات طيبة لصالح جريس. أما الصحف الأخرى فقد كانت كلها تقف مطالبة بشنقها، وبشنق وليام ليون ماكنزى أيضًا، وأى شخص آخر يحمل مشاعر جمهورية".

"ولكن من المؤكد أن لا علاقة لهذا بذاك!"

"لا علاقة على الإطلاق. ولكن لا حاجة لوجود علاقة مباشرة فى مثل هذه الأمور. مستر كينير كان يميل إلى حزب "المحافظين"، بينما أخذ ويليام ليون ماكنزى جانب الاسكتلنديين والأيرلنديين المساكين، وجانب السكان المهاجرين بشكل عام. "الطيور على أشكالها"، ذلك ما كانوا يؤمنون به. لقد سال عرقى دمًا فى المحكمة، يمكن أن أؤكد لك هذا. كانت قضيتى الأولى، كما تعلم، أول قضية لى على الإطلاق؛ كنت قد قبلت لتوى فى هيئة المحاماة. وكنت أعرف أن هذه القضية سوف تصنعنى أو سوف تقضى على، وكما كشفت الأحداث، فقد أعطتنى دفعة قوية للأمام".

يسأل سايمون: "كيف حدث أن توليت القضية؟"

"يا عزيزى، لقد أعطوها لى. كانت قضية فاشلة. لا أحد يريدها. أخذتها الشركة كنوع من "الصدقة" ــ فلم يكن أىٌّ من المتهمين لديه أية نقود بالطبع ــ ولأننى كنت أصغر المحامين، انتهى الأمر بإسنادها لى، وفى الدقيقة الأخيرة أيضًا، ولم يكن هناك حتى شهر للإعداد. قال برادلى العجوز: "حسنًا يا بنىّ، ها هى القضية. الجميع يعرفون أنك ستخسر، لأنه لا شك فى أنهما مذنبين؛ لكنها ستكون الطراز الذى تكون خسارته ذات معنى. هناك خسارة غير مشرفة، وهناك خسارة مشرفة. دعنا نراك تخسر خسارة مشرفة بقدر الإمكان. سوف نكون جميعًا مشجعين لك". كان الفتى العجوز يعتقد أنه يسدينى معروفًا، وربما كان الأمر كذلك بالفعل."

يقول سايمون: "أعتقد أنك ترافعت عن الاثنين".

"نعم. وكان هذا خطأ، إذا أعدنا النظر إلى الأمر، حيث تأكد أن مصالحهما متعارضة. كان هناك الكثير من الأخطاء حول المحاكمة؛ ولكن ممارسة القضاء فى ذلك الوقت كان بها الكثير من الإهمال والتسيب".

يعبس ماكنزى وهو ينظر إلى سيجاره الذى انطفأ. ويرد على خاطر سايمون أن الرجل المسكين لا يستمتع بالتدخين فى الواقع، ولكنه يشعر أنه يجب أن يدخن لأن التدخين يتناسب مع وجود لوحات جياد السباق.

ويسأل ماكنزى: "إذن، فقد قابلت سيدتنا 'ذات الفجوات الصامتة'!"

"أهذا ما تدعوها به؟ نعم، لقد كنت أقضى وقتًا طويلاً معها مؤخرًا، محاولاً أن أقرر .."

"ما إذا كانت بريئة؟"

"ما إذا كانت سليمة العقل. أو كانت كذلك فى وقت ارتكاب الجريمتين. وهو ما أظن أنه يجعلها بريئة بشكل ما."

يقول ماكنزى: "أتمنى لك حظًّا سعيدًا. .. إنه شىء لم أستطع أبدًا أنا نفسى أن أتأكد منه."

"فحوى كلامها أنها لا تذكر أى شىء عن الجريمتين؛ أو على الأقل عن جريمة قتل الفتاة مونتجومرى."

يقول ماكنزى: "يا سيدى العزيز، سوف يدهشك أن تعلم مدى كثرة هذه الفجوات فى الذاكرة بين العناصر الإجرامية. قليل جدًّا منهم فقط يمكنه أن يتذكر أنه ارتكب أى خطأ. يمكن أن يضرب الواحد منهم الرجل حتى يغيب عن وعيه، ثم يقطعه إربًا، ثم يدّعى أنه لم يفعل أكثر من ضربة خفيفة بطرف زجاجة. النسيان، فى هذه الأحوال، هو الشىء الأكثر احتمالاً من التذكر."

يقول سايمون: "فقدان الذاكرة عند جريس يبدو أصيلاً بحق، أو هكذا أصبحت مقتنعًا، فى ضوء خبرتى الطبية السابقة. ومن ناحية أخرى، رغم أنه لا يبدو أنها تتذكر جريمة القتل، لديها ذاكرة دقيقة بالتفاصيل المحيطة بها ــ كل قطعة من الغسيل قامت بغسلها طوال

عمرها، على سبيل المثال؛ وأشياء مثل قارب السباق الذى رأته أثناء عبورها البحيرة. إنها حتى تتذكر أسماء القوارب."

يقول ماكنزى: "كيف استطعت أن تتأكد من صدقها؟ من الصحف، على ما أظن. هل خطر لك أنها ربما تكون قد استمدت هذه التفاصيل الأكيدة من نفس المصدر؟ إن المجرمين يقرأون ما يكتب عنهم بلا توقف، إذا توفرت لهم الفرصة. إن لديهم شعورًا بالزهو فى هذا الأمر مثل المؤلفين. عندما أكد مكدرموت أن جريس ساعدته فى عملية الخنق التى ارتكبها، ربما يكون قد استوحى هذه الفكرة من جريدة كرونيكل وجازيت التى تصدر فى كينجستون، والتى عرضت هذا وكأنه حقيقة، حتى قبل أن يحدث أى استجواب. قالت الصحيفة من الواضح أن العقدة حول رقبة المرأة كانت بحاجة إلى شخصين لربطها. كلام فارغ، لا يمكنك بمجرد رؤية مثل هذه العقدة أن تؤكد ما إذا كان ربطها لهذا الغرض يحتاج إلى شخص واحد أو اثنين أو عشرين. بالطبع أنا أفقدت هذه الفكرة أهميتها وأفسدتُها أثناء المحاكمة."

يقول سايمون: "ها أنت الآن قد تحولت، إنك تدافع عن الجانب الآخر من القضية".

"يجب على المرء دائمًا أن يضع الجانبين فى اعتباره؛ إنها الطريقة الوحيدة لكى تتصور حركة خصمك. ولا يعنى هذا أننى قمت بعمل شديد الصعوبة فى هذه القضية، ولكنى قمت بكل ما أستطيع؛ فالإنسان لا يملك إلا أن يفعل قدر استطاعته، كما قال والتر سكوت فى بعض كتاباته. كانت قاعة المحكمة شديدة الازدحام كما لو كنا فى جهنم،

ومثل جهنم فى الحرارة ـــ رغم أننا كنا فى نوفمبر، والهواء كان خانقًا. ومع ذلك، ظللت أستجوب بعض الشهود لما يزيد عن ثلاث ساعات. لابد أن ذلك قد استنفد قواى، لكنى كنت أكثر شبابًا حينئذ."

"أتذكر أنك بدأت بالدفع بعدم قانونية القبض عليهم فى حد ذاته."

"نعم. فقد تم القبض على ماركس ومكدرموت على أرض أمريكية، وبدون إذن رسمى. وقد أدليت بخطبة جيدة حول انتهاك الحدود الدولية، والحصانة الشخصية، وما إلى ذلك؛ لكن رئيس المحكمة روبنسون لم ينظر إلى أى شىء من ذلك.

"وحينئذ حاولت أن أظهر أن مستر كينير كان شخصًا شائنًا، متسيبًا أخلاقيًّا؛ وكان هذا صحيحًا بلا شك. كما أنه كان مصابًا بالوساوس المرضية أيضًا. ولا شىء من ذلك له علاقة بحقيقة أنه قتل، ولكنى فعلت كل ما فى طاقتى، خاصة بالنسبة للأخلاق؛ والواقع أن هؤلاء الأشخاص الأربعة ظلوا يتناوبون النوم، كل واحد منهم فى سرير الآخر، مثل مهزلة فرنسية، حتى أنه من الصعب أن تؤكد بشكل قاطع من كان ينام أين.

"ثم تقدمت لتدمير سمعة المرأة مونتجومرى التعسة. ولم أشعر بأى ذنب فى قذفها والتقول عليها، حيث كانت تلك المخلوقة المسكينة بالفعل كذلك. فقد كان لديها طفل من قبل، كما تعلم ـــ وقد مات كما أفترض نتيجة "رحمة القابلات" ـــ وعند التشريح وجد أنها كانت حامل. ومما لا شك فيه أن الأب كان هو كينير، لكنى فعلت كل ما أستطيع لإعطاء صورة الحبيب الذى خنق المرأة المسكينة بسبب الغيرة. لكن هذه اللعبة لم تنطل على القضاة مهما فعلت، لم يخرج الأرنب من القبعة."

يقول سايمون: "ربما لأنه لم يكن هناك أرنب".

"هذا صحيح تمامًا. كانت حيلتى التالية أن أحاول بعض ألعاب الحاوى مع القمصان. من كان يلبس قميص من، ومتى، ولماذا؟ فقد قبض على مكدرموت وهو يرتدى أحد قمصان كينير ـ فماذا إذن؟ استطعت أن أبنى على ذلك حقيقة أن نانسى اعتادت بيع بعض أشياء مخدومها القديمة إلى الخدم، بإذن أو بدون إذن من سيدها؛ ومن ثم يمكن أن يكون مكدرموت قد حصل على هذا القميص ماركة "تيساس" بطريق شريف. لكن، لسوء الحظ، كانت جثة كينير قد ألبست أحد قمصان مكدرموت بشكل فظ، وكانت تلك عقبة سيئة حقًا. حاولت قدر إمكانى أن أتجنبها، لكن الادعاء ضربنى بها ضربة شديدة ومؤلمة.

ثم أشرت بإصبع الشك إلى البائع الذى كان القميص الملوث بالدم الملقى خلف الباب يمكن أن يشير إليه، حيث أنه حاول أن يبيع نفس البضائع بالغش فى مكان آخر. لكن هذا لم ينفع أيضًا، فقد كانت هناك شهادة بأن البائع المتجول باع نفس القميص إلى مكدرموت ـ والواقع أنه باعه أربعة قمصان كاملة ـ ثم بمنتهى المكر اختفى فى الهواء. ولسبب ما لم يرد الظهور فى المحاكمة وتعريض نفسه لخطر أن تزج رقبته فى القضية."

يقول سايمون: "شخص جبان".

يقول ماكنزى ضاحكًا: "بالضبط. وعندما يأتى الأمر لجريس، لابد أن أقول أننى لم أتلق منها الكثير من المساعدة. فالفتاة الحمقاء لم يكن من الممكن إقناعها بالعدول عن أن تلبس الثياب الفاخرة للمرأة القتيلة، وهو

عمل تم استقباله باشمئزاز ورعب من قبل الصحافة والعامة؛ ولــو كانــت لدى سرعة البديهة والفطنة فى ذلك الوقت، لقدمت نفس هذه الحقيقة كدليل على براءتها وضميرها المرتاح، أو ما هو أفضل، كدليل علــى جنونهــا. لكنى لم أكن أمتلك تلك القدرة على المكر فى التفكير فى ذلك الوقت.

"وبالإضافة إلى ذلك، جعلت جريس الموقف كله سيئًا إلــى حــد كبير. فقد قالت فى وقت القبض عليها أنها لم تكن تعرف أين نانسى، ثم فى الاستجواب، قالت أنها كانت ترتاب فى أن نانسى ميتة وموجودة فى القبو، رغم أنها لم ترها وهى توضع هناك. ولكنها، فى المحاكمة، وفيما يفترض أنه اعترافها ـــ وقد نشر هذا الأمر الصغير فى جريدة "ستار"، وقد صنعوا منه شيئًا على قدر كبير من الترتيب ـــ ادعت أنها رأت مكدرموت يجــر نانسى من شعرها، ويلقيها من فوق السلم. ولكنها لم تصل أبدًا إلى درجــة الاعتراف بالخنق."

يقول سايمون: "لكنها اعترفت به لك، فيما بعد."

"هل فعلت؟ لا أذكر ذلك..."

يقول سايمون: "فى المصحة، أخبرتك أن عينى نانسى المغلقتــان بالدم كانتا تلاحقانها؛ أو هكذا قالت مسز مودى أنك قلت لها."

يهتز ماكنزى فى مقعده بطريقة تنم عن عدم الارتيــاح، وينظــر لأسفل. ويقول: "من المؤكد أن جريس كانت فى حالة اضــطراب عقلــى، مشوشة، ومكتئبة".

"والعينان؟"

يقول ماكنزى: "مسز مودى ـ التى أكن لها أكبر تقـدير ـ لهـا خيال يمكن أن تقول عنه أنه تقليدى بشكل ما، وميل للمبالغة. لقد وضـعت بعض الحوارات الرائعة على أفواه أبطالها، وهى حـوارات مـن غيـر المحتمل إطلاقًا أن يكونوا قد تفوهوا بها، فقد كان مكدرموت شخصًا بليـدًا بلادة مطلقة ـ حتى أننى، أنا الذى كنت أدافـع عنـه، وجـدت أن مـن الصعوبة بمكان أن أصوغ بضع كلمات طيبة من أجله ـ وكانت جـريس أقرب إلى الطفلة، وغير متعلمة. أما فيما يختص بالعينين، فإن الأمر يبدو أنه تصور ذهنى فى الغالب. إنك ترى هذا كل يوم على منصة الشهود."

"إذن لم تكن هناك عينان؟"

يهتز ماكنزى ثانية، ويقول: "لا أستطيع أن أقسـم يمينًـا علـى موضوع العينين، لم تقل جريس، بالضبط، شيئًا يمكن أن يُستند إليـه فـى قاعة المحكمة، شيئًا يمثل اعترافًا متكاملاً، رغم أنها قالت أنها آسفة علـى موت نانسى. ولكن أى شخص يمكن أن يقول هذا."

يقول سايمون: "حقًا". لكنه الآن يرتاب فى أن العينين لـم تكونـا اختراعًا من مسز مودى فى الأصل، ويعجب أية أجزاء أخرى من حكايتها كانت ترجع إلى الميل المسرف لماكنزى فى زخرفة ما يرويـه بالفكاهـة والتندر وبراعة القص. "ولكن لدينا أيضًا أقوال مكدرموت، والتى أدلى بها قبل شنقه مباشرة."

"نعم، نعم؛ التصريح على منصة الإعدام دائمًا ما يأخذ طريقه إلى الصحف."

"أعجب لماذا انتظر كل هذا الوقت؟"

"حتى اللحظة الأخيرة كان لديه أمل فى تخفيف العقوبة، لأن جريس منحت ذلك التخفيف. كان يعتبر أن ذنبهما متعادل، وفكر أن الأحكام لابد أن تتعادل أيضًا؛ ولم يكن يمكنه أن يتهمها دون أن يحكم العقدة بقوة على رقبته هو نفسه، فهو لابد أن يعترف بلعبة الفأس وما إلى ذلك."

يقول سايمون: "بينما كان يمكن أن تتهمه جريس بأنه يتهمها كمحاولة للإفلات من العقوبة".

يقول ماكنزى: "بالضبط، كما أنها لم تجفل عندما جاءت اللحظة. 'أنقذ من تستطيع إنقاذه!' تلك المرأة لها أعصاب من الصوان. وقد صنعت منى محاميًا جيدًا، بل رجلاً أيضًا."

يقول سايمون: "لكن مكدرموت لم يحصل على تخفيف!"

"بالطبع لا! وقد كان من الجنون أن يتوقع شيئًا من ذلك، ولكنه كان غاضبًا رغم ذلك. كان يعتبر أن ذلك أيضًا غلطة جريس ــ فهو يرى أنها احتكرت سوق الرأفة ــ ومن ثم أراد أن ينتقم، وقد رأيت ذلك فى عينيه."

"مفهوم إلى حد ما". يقول سايمون، ثم يضيف: "وكما أتذكر، ادعى أن جريس نزلت معه إلى القبو، وخنقت نانسى بمنديلها."

"حسنًا، لقد وجد المنديل بالفعل. لكن باقى الحكاية لا تعتبر دليلاً دامغًا. فقد قال الرجل عدة روايات، وكان مشهورًا بالكذب بالإضافة إلى ذلك."

يقول سايمون: "ومع ذلك، بغض النظر عن أى مجادلة أو نقاش، فإن كون الرجل معروفًا بالكذب لا يعنى أنه يكذب دائمًا".

يقول ماكنزى: "تمامًا"، ويضيف: "يبدو أن جريس الرائعة جرتك إلى مطاردة مرحة."

يقول سايمون: "ليست مرحة جدًا، لابد أن أعترف أننى تحيرت. إن ما تقوله له رنة الصدق؛ طريقتها مفعمة بالبراءة والصدق؛ ولكننى لا أستطيع أن أطرد الريبة فى أنها تكذب على، بشكل ما لا أستطيع أن أحدد ذلك."

يقول ماكنزى: "تكذب .. هذا تعبير قاسٍ بكل تأكيد. هل كانت تكذب عليك، أتسأل؟ دعنى أضع الأمر بهذه الطريقة – هل كانت شهرزاد تكذب؟ ليس فى نظر نفسها بكل تأكيد، صحيح أن القصص التى حكتها لا يجب أبدًا أن نخضعها للتصنيفات الحادة الخاصة بالصدق والزيف. إنما هى تنتمى إلى منطقة مختلفة تمامًا. وربما أن جريس ماركس لم تفعل سوى أن تقول لك ما هى بحاجة لأن تقوله، لكى تحقق النهاية المرغوبة."

يسأل سايمون: "وهى..؟"

يقول ماكنزى: "أن تستمر فى تسلية السلطان، وأن تمنع وقوع الضربة، وتؤجل رحيلك، وتجعلك تبقى فى الغرفة معها أطول وقت ممكن."

يقول سايمون: "وما الهدف من هذا بالله عليك؟ إن تسليتى لن تخرجها من السجن".

يقول ماكنزى: "لا أظن أنها تتوقع ذلك حقًّا، ولكن أليس الأمر واضحًا؟ فالمخلوقة المسكينة قد وقعت فى غرامك. رجل عازب، شاب إلى درجة معقولة، وليس مغرضًا، يظهر لفتاة طال حبسها، محرومة من الصحبة الذكورية. إنك بلا شك موضوع أحلام اليقظة اليومية لديها."

يقول سايمون وقد احمر وجهه رغمًا عنه: "لا بكل تأكيد". فإذا كانت جريس واقعة فى غرامه، فقد كتمت السر كتمانًا جيدًا جدًّا.

"ولكنى أقول أن هذا أكيد! أنا نفسى مررت بنفس التجربة، أو تجربة شديدة الشبه بها؛ لأننى كان لابد أن أقضى ساعات طويلة معها، فى زنزانة السجن فى تورنتو، حين أخذت تسرد لى أحداث قصتها الطويلة كخيط مغزل لا ينتهى. كانت حمقاء معى، ولم تكن تريد أن تتركنى أبتعد عن ناظريها. نظرات عاطفية للغاية ومسترخية! لو وضعت فقط يدى عليها لألقت نفسها بين ذراعى."

يشعر سايمون بالغثيان. يا له من قزم صغير مغرور، بهذا الصديرى الأنيق والأنف البصلى الشكل! "حقًّا؟" يقول ذلك محاولاً ألا يظهر غضبه.

يقول ماكنزى، "نعم، بالطبع. فقد كانت تظن أنها في سبيلها للشنق، كما تعلم. الخوف شقيق الحب؛ إننى أنصحك أن تجرب المسألة فى وقت ما. نحن المحامون نوضع غالبًا فى قالب دور سان جورج، على الأقل مؤقتًا: ابحث عن فتاة مربوطة فى صخرة وعلى وشك أن يفترسها وحش كاسر، انقذها، ثم خذها لنفسك. هذا هو الأمر المعتاد مع الفتيات، أليس كذلك؟ أنا لا أقول أننى لم أتعرض للإغراء. فقد كانت جريس صغيرة للغاية ورقيقة وعطوفة فى ذلك الوقت، لكن حياة السجن قد أكسبتها صلابة بلا شك."

يسعل سايمون لإخفاء غضبه. كيف لم يلاحظ أن الرجل له فم كفم فاسق عجوز ضال؟ شخص اعتاد ارتياد بيوت الدعارة الإقليمية. ماكر شهوانى. يقول سايمون: "لم يكن هناك أى شيء يوحى بذلك فى حالتى". لقد كان يعتبر أن أحلام اليقظة كانت كلها من جانبه، لكنه بدأ بالفعل يشك فى الأمر. بم تفكر جريس حقًا فيما يخصه، وهى جالسة تخيط وتطرز وتحكى؟

يقول ماكنزى: "لقد كنت محظوظًا للغاية، وكذلك جريس نفسها بالطبع، أن عرضت قضية قتل مستر كينير قبل الأخرى. لأنه من الواضح للجميع أنها لا يمكن أن تكون قد ساعدت فى إطلاق البندقية على كينير؛ أما بالنسبة لقتل نانسى ـ والواقع، أن ذلك بالنسبة للجريمتين معًا ـ فقد كان الدليل هو دليل ظرفى فقط. فلم تكن مدانة كفاعل أساسى، وإنما كمساعد، فكل ما يمكن إثباته ضدها هو أنها عرفت بنوايا مكدرموت مقدمًا، ولم تستطع الإبلاغ عنه؛ وأنها بالمثل أهملت الإبلاغ بحدوث

الجريمة. حتى أن رئيس المحكمة أوصى بالرأفة بها. وبمساعدة عدد من التماسات الرأفة لصالحها، تمكنت من إنقاذ حياتها. فى هذا الوقت كان الحكم قد صدر بإعدامهما كليهما، وأغلقت القضية حيث لم تكن ثمة حاجة للدخول فى تفاصيل القضية الثانية؛ ومن ثم فإن جريس لم تحاكم أبدًا على قتل نانسى مونتجومرى."

يسأل سايمون: "وإذا كانت قد حوكمت؟"

"لما تمكنت من إنقاذها. فقد كان الرأى العام فى الغالب أقوى مما أستطيع. كان يمكن أن تشنق."

يقول سايمون: "ولكن، فى رأيك أنها كانت بريئة."

يقول ماكنزى: "على العكس ..."، ويرشف من كأسه، ويمسح شفتيه بطرف لسانه باستمتاع، ويبتسم ابتسامة من يستعيد ذكريات الماضى الجميلة، ويكمل قائلاً: "لا. فى رأيى أنها مذنبة آثمة."

- ٤٦ -

ماذا يفعل د. چوردان، ومتى سيعود؟ إننى أظن أننى استطعت حدسه. إنه يتحدث مع الناس فى تورنتو، محاولاً أن يكتشف ما إذا كنت مذنبة؛ لكنه لن يكتشف شيئًا بهذه الطريقة. إنه لا يفهم بعد أن الذنب ليس ناتجًا عن الأشياء التى فعلتها، وإنما عن الأشياء التى فعلها الآخرون معك.

اسمه الأول هو سايمون. وأعجب لماذا أسمته أمه، أو ربما أبوه، بهذا الاسم. أبى لم يشغل نفسه أبدًا بتسميتنا، كان هذا متروكًا لأمى ولخالتى بولين. هناك الرسول سايمون بيتر(*). بالطبع، الذى جعله الرب صياد الناس. ولكن هناك أيضًا سايمون العبيط، الذى التقى ببائع فطائر ذاهب إلى السوق. وقال دعنى أتذوق بضاعتك، ولم يكن معه نقود. مكدرموت كان مثل هذا، ظن أنه يستطيع أن يأخذ أشياء دون أن يدفع ثمنها؛ وكذلك كان د. چوردان. ولا يعنى ذلك أننى لا أشعر بالأسف من أجله. فقد كان دائمًا نحيفًا، وأشعر أنه سيزداد نحافة. وأعتقد أنه فريسة لنوع من الأسى المؤلم.

أما لماذا سميت جريس، فربما يكون هذا الاسم قد جاء فى إحدى الترانيم. لم تقل أمى ذلك أبدًا، ولكن هناك فى الواقع أشياء كثيرة لم تقلها أبدًا.

(*) بطرس الرسول.

جريس الرائعة، ما أحلى هذا الاسم
الذى أنقذ شقيًّا مثلى!
لقد كنت ضائعًا، والآن قد وجدونى،
وكنت أعمى، والآن أرى.

أرجو أن أكون قد سُميت على هذه الترنيمة. فأنا أحب أن يجدونى، وأحب أن أرى، أو أن يرانى الآخرون. وأعجب ما إذا كان الأمران متساويين فى عين الرب. لأنه جاء فى الإنجيل: "فإننا ننظر الآن فى مرآة، فى لُغْز، لكن حينئذ وجها لوجه"(*).

إذا كان وجهًا لوجه، فلابد أن يكون الناظر اثنين.

اليوم يوم الحمام. يقول البعض أنهم سيجعلوننا نستحم عاريات، فى جماعات، بدلاً من كل اثنتين معًا فى قمصاننا الداخلية؛ يقولون إن هذا يوفر الوقت وأنه أكثر اقتصادًا، حيث يريدون تقليل كمية الماء المستخدم، ولكنى أظن أنها فكرة قليلة الحياء، وإذا حاولوا ذلك فسوف أشكو إلى السلطات. ولكن ربما لن أفعل، فهذه الأشياء تجرى لاختبارنا، ويجب أن أتحملها دون شكوى، كما أفعل فى باقى الأمور، فى معظم الوقت. الحمامات ليس فيها ما يسر كما هى الآن بالفعل، الأرضية من حجارة زلقة بسبب الصابون القذر المتراكم، مثل الجيلى، ودائمًا توجد سجانة تراقب؛ وربما يكون هذا أفضل، إذ بغير ذلك يمكن أن تحدث طرطشة كثيرة. فى

(*) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ١٣:١٢.

الشتاء يتجمد الإنسان حتى الموت. أما الآن فى حرارة الصيف، مع كل هذا العرق والقذارة، والذى يتضاعف بعد العمل فى المطابخ، لا أعبأ كثيرًا ببرودة الماء، فالماء البارد منعش.

بعد الانتهاء من الحمام، قضيت بعض الوقت فى الخياطة العادية. فالسجن بحاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة فى ملابس الرجال، والمجرمون الذين يتم إدخالهم فى ازدياد، خاصة فى أيام القيظ فى الصيف عندما تسوء الطباع وتكثر المشاحنات؛ ومن ثم فلابد لهم أن يستخدموا يدىّ. فلديهم أوامرهم والحصة التى يجب أن ينجزوها، بالضبط كما هو الحال فى المصانع.

كانت آنى ليتل تجلس بجوارى على الدكة، اقتربت منى ومالت على هامسة: جريس، جريس، هل هو وسيم، أعنى طبيبك الشاب؟ هل سيخرجك من السجن؟ هل وقعت فى غرامه؟ أعتقد أنك وقعت.

همست لها: لا تكونى سخيفة وتقولى مثل هذا الكلام الفارغ، أنا لم أقع فى حب أى رجل فى حياتى، ولا أنوى أن أفعل ذلك الآن. إننى محكوم على بالسجن طوال الحياة، ولا وقت لمثل هذا الأمر هنا، ولا مكان أيضًا إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد.

آنى فى الخامسة والثلاثين، وهى أكبر منى، ولكنها ليست دائمًا فى حالة عقلية سليمة، فهى لم تكبر أبدًا. وهذا يحدث فى المصحة العقلية، بعض من يدخلونها يظلون فى نفس عمرهم داخل أنفسهم؛ نفس العمر الذى دخلوا به المصحة.

قالت آنيَ: انزلي من عليائك، وضربتني بكوعها، ثم أضافت هامسة: إنك سوف ترحبين بممارسة الحب في ركن ضيق مغلق، وهذا لا يفشل أبدًا؛ وأنت ماكرة للغاية، سوف تجدين الوقت والمكان إذا أردت، وقد فعلت ذلك برثا فلاد مع حارس في سقيفة الأدوات، رغم أنهم أمسكوا بها، ولكن ذلك لن يحدث معك أبدًا، إن لك يدًا ثابتة، ويمكن أن تقتلي جدتك في فراشها دون أن تهتز لك شعرة. وضحكت ضحكة ماجنة.

أخشى أن تكون قد عاشت حياة شديدة التصدع.

قالت الحارسة النوبتجية: صمتاً هناك، وإلا كتبت اسميكما.

إنهم يعودون إلى الصرامة والتشدد مرة أخرى، فهناك رئيسة سجانات جديدة، وإذا كانت الدرجات السيئة كثيرة لديك، يقصون شعرك.

بعد وجبة الظهر، أرسلت إلى بيت المحافظ. كانت دورا هناك مرة أخرى، فقد اتفقت مع صاحبة بيت د. چوردان أنها ستأتي إلينا في أيام الغسيل الكبير؛ وكالعادة كانت تحمل في جعبتها الكثير من النميمة. قالت أنها لو قالت نصف ما تعرفه لأنزل ذلك شخصًا ما من عليائه وحط من شأنه، وهناك من تدعي القداسة والطهارة، وترتدي حريرًا أسود وتحمل مناديل مطرزة، وتعاني من نوبات صداع في المساء كما لو كانت محترمة بالفعل؛ وأخرى يمكن أن تفعل ما تشاء، ولكنها ليست من يمكن وضع الغمامة على عينيها. وقالت أنه منذ رحيل د. چوردان، تقضي سيدتها الساعات في قطع الأرض جيئة وذهابًا، والنظر من النافذة، أو الجلوس غارقة في حالة من الذهول؛ وهذا أمر لا يثير العجب، فلابد أنها تخشى أن

يهرب منها مثلما فعل الآخر. وحينئذ من سيدفع لها تكاليف نزواتها ويجيب طلباتها وحاجاتها؟

في الغالب تتجاهل كلارى ما تقوله دورا. فهى لا تهتم بالنميمة حول الطبقات الأعلى؛ فهى لا تفعل إلا أن تدخن غليونها، وتقول: همم. ولكنها اليوم قالت لماذا تهتم بما يفعله مثل هؤلاء؟ يمكنك بالمثل مراقبة الدجاجات والديكة وهى تتعارك فى الحظيرة، وأنها لا تعرف عن هؤلاء إلا أن الله يخلق أمثالهم على هذه الأرض ليوسخوا الغسيل، لأنها طوال حياتها لم تر لهم نفعًا إلا هذا. وقالت دورا: حسنًا، إنهما يؤديان عملاً جيدًا من هذه الناحية، لابد أن أقول أنهما يوسخان الغسيل أسرع مما أستطيع أن أغسله، ويوسخانه معًا إذا كنا نريد للحقيقة أن تظهر.

هنا شعرت ببرودة ثلجية تسرى فى جسدى كله، ولم أسألها أن توضح ما تريد قوله. فلم أرد منها أن تقول أى شيء سيئ عن د. چوردان، لأنه بشكل عام كان طيبًا جدًّا معى، كما أنه أحدث فى حياتى تحولاً كبيرًا عما كنت أعيش فيه من حياة رتيبة وعمل شاق.

عندما يعود د. چوردان، سأمر بتجربة التنويم المغناطيسى. فقد تقرر كل شيء؛ سيكون چيرميا، أو يجب أن أفكر فيه باسم د. دو پونت، لأن هذا هو الاسم الذى يجب أن أتذكر أن أدعوه به الآن، سيقوم بعملية التنويم، والآخرون سوف يراقبون ويسمعون. شرحت لى زوجة المحافظ كل شيء، وقالت أننى لا يجب أن أخشى شيئًا، حيث أننى سأكون بين أصدقاء يقصدون الخير لى، وكل ما يجب أن أفعله هو أن أجلس فى مقعد

وأنام عندما يطلب د. دو پونت ذلك منى. وعندما أنام سوف يسألوننى أسئلة. وبهذه الطريقة يأملون أن أستعيد ذاكرتى.

قلت لها أننى لست متأكدة من أننى أريد عودتها، رغم أننى بالطبع سوف أفعل ما يريدون. فقالت أنه يسعدها أن تجدنى بهذه الحالة العقلية المتعاونة، وأن لديها ثقة عظيمة بى، وأنها متأكدة من ظهور براءتى.

بعد وجبة المساء، أعطتنا السجانة بعض الأشياء التى تحتاج إلى رتق لنأخذها فى زنازيننا وننتهى منها فى أوقات الراحة، فقد كان هناك نقص فى الجوارب. وفى الصيف يظل ضوء النهار حتى وقت متأخر جدًّا، ولا حاجة لإضاءة مزيد من دهن القناديل علينا.

الآن، أنا أقوم بالرتق. وأنا سريعة جدًّا فى الرتق، أستطيع أن أؤديه دون النظر طالما أنها جوارب وليس شيئًا جميلاً ودقيقًا. وبينما أقوم بالرتق، أفكر: ماذا أحب أن أضع فى ألبوم تذكاراتى، إذا كان لى واحد؟ قطعة من حاشية مطرزة من شال أمى، ونسيلة من الصوف الأحمر، من الكفَّيْن اللذين صنعتهما لى مارى هويتنى. وفتلة حريرية من شال نانسى الجميل. وزرار من العظم من چيرميا. وأقحوانة من عقد الأقحوان الذى صنعه لى چيمى وولش.

لا شىء من مكدرموت، فلا أريد أن أتذكره.

لكن ماذا يجب أن يكون عليه ألبوم الذكريات؟ هل يجب أن يحتوى فقط الأشياء الجميلة فى الحياة، أم أنه يجب أن يحتوى كل شىء؟

كثيرون يضعون فى ألبوماتهم صور مناظر وأحداث لم يشهدوها أبدًا، مثل صور الدوقات، وشلالات نياجرا، وأنا أعتبر هذا نوعًا من الغـش. هـل سأفعل ذلك؟ أم سأكون صادقة فيما يخص حياتى؟

قطعة من القطن الخشن، من ثوب نومى فى الإصلاحية. مربـع من رداء داخلى ملطخ بالدم. شريحة من منديل أبيض مطبـوع بزهـور زرقاء. "الحب فى الضباب".

- ٤٧ -

في الصباح التالى، بمجرد شروق الشمس، يخرج سايمون متجهًا إلى ريتشموند هيل، على ظهر جواد استأجره من الإسطبل الخاص بتأجير العربات والخيل، والموجود خلف الفندق. الحصان عنيد حرون، مثل كل الجياد المعتادة على تتابع الغرباء على ركوبها، له فم قوى، ويحاول مرتين أن يحكه بالأسوار. بعد ذلك يهدأ، يسير ببطء وعناء فى خبب عنيد، ويغيّر سيره أحيانًا إلى مشية نشيطة ترجه وتهزه. ورغم أن الطريق مترب وغير مستوٍ فى بعض الأماكن، إلا أنه أفضل مما كان يتوقعه سايمون، وبعد توقف عدة مرات فى بعض الخانات للراحة والماء، يصل إلى ريتشموند هيل بعد الظهر بقليل.

من الصعب أن يعتبر المكان مدينة بالمعنى الصحيح. هناك محل عام، وحداد، وعدة بيوت متناثرة بشكل عشوائى. والفندق هو بلا شك نفس الخان الذى تتذكره جريس. يدخله، ويطلب لحم بقر مشويًا وبيرة، ويسأل عن موقع منزل مستر كينير سابقًا. صاحب الخان لا يبدى أية دهشة: فليس سايمون بأى حال أول من يسأل مثل هذا السؤال. والواقع أنهم تجمهروا واحتشدوا فى ذلك الوقت، يقول ذلك له، أيام ارتكاب الجريمتين، ومنذ

كان الراغبون فى المشاهدة يتقاطرون من حين لآخر. لقد تعب الأهالى من أن كل ما تُعرف به مدينتهم هو هذا الشيء وحده: فهو يرى أن الموتى يجب أن يتركوا لشأنهم. ولكن الناس يريدون الحملقة ببلاهة فى المأساة؛ هذا لا يليق. ربما تظن أنهم يجب أن يبتعدوا عن المشاكل ـ ولكن لا، إنهم يريدون أن يشاركوا فيها. بعضهم يصل إلى درجة حمل أشياء معهم ـ الحصباء من الممشى، الزهور من أحواض الزهور. والسيد الذى يملك البيت الآن لا يتضايق كثيرًا، حيث أن الذين يأتون الآن أقل. ومع ذلك فهو لا يريد الفضول الذى لا طائل منه.

يؤكد سايمون أن فضوله ليس لا طائل منه على الإطلاق: فهو طبيب، وهو يدرس حالة جريس. يقول صاحب الخان إنها مضيعة للوقت، لأن جريس مذنبة. "إنها امرأة جميلة"، يضيف هذا بنوع من الفخر لأنه كان يعرفها، ويكمل: "تتظاهر بالوداعة المتناهية. ما كان يمكن لك أن تتخيل أنها كانت تحيك مؤامرة خلف هذا الوجه البريء الناعم."

يقول سايمون: "لم تكن تزيد على الخامسة عشرة فى ذلك الوقت، على ما أعتقد".

"ولكنها كانت تعطى انطباعًا بأنها فى الثامنة عشرة. يا للعار، أن تصبح شريرة هكذا فى هذه السن الصغيرة". يقول أن كينير كان رجلاً محترمًا، رغم أنه كان يتسم بالتسيب الأخلاقى، وكان معظم الناس يحبون نانسى مونتجومرى رغم أنها كانت تعيش فى الرذيلة. وكان يعرف مكدرموت أيضًا؛ جسد رياضى من الدرجة الأولى، وكان يمكن أن يكون شخصًا جيدًا، لولا جريس. "إنها هى التى قادته إلى ذلك، وهى التى

وضعت الأنشوطة حول رقبته أيضًا". ويقول أن النساء دائمًا يستطعن الإفلات بسهولة.

يسأل سايمون عن چيمى وولش، لكن چيمى وولش قد رحل. يقول البعض إلى المدينة، ويقول البعض الآخر إلى الولايات. بعد بيع أملاك كينير، اضطر آل وولش إلى الرحيل. والواقع أن الكثيرين ممن كانوا فى المنطقة حينئذ قد غادروها، فمنذ ذلك الوقت كانت هناك حركة كبيرة في الشراء والبيع والمجيء والذهاب؛ فالحشائش دائمًا أكثر خضرة على الجانب الآخر من السياج.

يركب سايمون الحصان ويتجه شمالا، ويجد بعض الصعوبة فى النعرف على أملاك كينير. لم يكن يقصد أن يذهب إلى البيت مباشرة ــ إنما كان ينوى أن يلقى نظرة من بعيد ــ ولكن البستان الذى كانت أشجاره قصيرة فى أيام جريس، كبرت أشجاره الآن، حتى أصبحت تحجب المنظر إلى حد ما. ويجد نفسه فى منتصف الطريق عبر الممشى، وقبل أن ينتبه كان يعقل حصانه إلى السور بجوار المطبخين، ويقف لدى الباب الأمامى.

البيت أصغر مما تخيل، وكذا الأشجار حوله أكثر مما كان يظن. الرواق بأعمدته يبدو بحاجة إلى طبقة جديدة من الدهان، وشجيرات الورد نمت نموًا يدل على عدم العناية، ولا تظهر بها سوى قليل من الأزهار المصابة. ما الذى يعود عليه من النظر، يسأل سايمون نفسه؛ فضلاً عن رعدة كريهة، ورغبة مريضة فى التورط؟ إنها كزيارة موقع معركة: لا شيء يمكن رؤيته إلا ما فى العقل. مثل هذه المواجهات مع الشيء الحقيقى هى دائمًا مثيرة للإحباط.

ورغم ذلك، يدق الباب الأمامى، ثم يدق ثانية. لا أحـــد يجيـــب. يستدير ليبتعد فى اللحظة التى يفتح فيها الباب. امرأة تقف هناك، نحيفـــة، ذات وجه ملىء بالأسى، ليست عجوزًا ولكنها متقدمة فى العمر، ترتـــدى ثيابًا محتشمة، فى رداء قاتم مطبوع ومريلة. وتعطى لسايمون انطباعًا بأن هذه هى ما كانت ستصير إليه نانسى مونتجومرى لو عاشت.

تقول: "أنت هنا لرؤية البيت"، لم يكن ذلك فى صـــيغة اســـتفهام. "السيد ليس هنا، ولكن لدى تعليمات بأن أريك البيت."

يصاب سايمون بالدهشة: كيف علموا بأنه قادم؟ ربما يأتيهم عدد كبير من الزائرين، ولكن، رغم ما قاله صاحب الخان له؟ هل أصبح البيت متحفًا رهيبًا للرعب؟

مدبرة البيت ـــ لأنها لابد أن تكون مدبرة البيت ـــ تقـــف جانبًـــا لتفسح لسايمون ليدخل إلى الردهة الأمامية. تقول: "أظـــن أنـــك تريـــد أن تعرف حالة البئر، الجميع يريدون ذلك."

"البئر؟" يسأل سايمون، إنه لم يسمع شيئًا عن أى بئر. ربما تكون هذه الزيارة مثمرة رغم كل شىء، مع بعض التفاصيل الجديدة عن القضية لم تذكر أبدًا من قبل. "ماذا عن البئر؟"

تنظر المرأة إليه نظرة غريبة. "إنها بئر مغطاة يا ســـيدى، ولهـــا طلمبة جيدة. من المؤكد أنك تريد أن تعرف حالة البئر، حينما تكون بسبيلك لشراء مكان."

يقول سايمون مرتبكًا: "لكنى لا أريد الشراء، هل هو للبيع؟"

"ولماذا أريه لك إذن؟ طبعًا هو للبيع، وليس لأول مرة أيضًا. إن من يعيشون هنا لا يشعرون بالراحة أبدًا. وليس السبب هو وجود أي شيء، لا أشباح ولا أشياء من هذا القبيل، رغم أنك قد تظن أن هذا محتمل، وأنا لا أحب أبدًا أن أنزل إلى القبو. ولكن هذا البيت يجتذب هواة الفرجة المتعطلين."

وتحدق فيه بشدة: فإذا لم يكن مشتريًا، فماذا يفعل هنا؟ ولا يشاء سايمون أن تظنه من هواة الفرجة المتعطلين، فيقول: "أنا طبيب".

"آه!" تقول ذلك وهي تومئ إليه بفهم وفطنة، وكأن ذلك يشرح كل شيء. "إذن فأنت تريد أن ترى البيت. يأتينا هنا الكثير من الأطباء الذين يريدون رؤيته. أكثر من الآخرين، أكثر حتى من المحامين. حسنا، ما دمت هنا، يمكن أن ترى أيضًا. هنا الردهة، حيث كانوا يضعون البيانو، كما قيل لي، في أيام مستر كينير، البيانو الذي كانت تلعب عليه نانسي مونتجومري. كانت تغني مثل طائر الكناري، هكذا يقولون عنها. كانت موسيقية جدًّا". وتبتسم لسايمون، أول ابتسامة تنعم بها عليه.

نعم سايمون برحلة فاحصة. أرته المدبرة غرفة الطعام، المكتبة، المطبخ الشتوي، والمطبخ الصيفي، الإسطبل والعلية، "حيث كان ينام ذلك الوغد مكدرموت في الليل." غرف النوم في الطابق العلوي ـ "لا يعلم إلا الله ماذا كان يجري هنا في الأعلى" ـ وغرفة جريس الصغيرة. الأثاث مختلف كله، بالطبع. أكثر فقرًا، وأكثر رثاثة. يحاول سايمون أن يتخيل ما كان يبدو عليه في ذلك الوقت، لكنه يخفق.

بطريقة عرض رائعة ومثيرة، تحتفظ مدبرة المنزل بالقبو للنهاية. توقد شمعة، وتنزل أمامه، وهى تحذره من أن تزل قدمه. الضوء معتم، الأركان يملؤها نسيج العنكبوت. هناك رائحة رطبة، من الأرض والخضر المحفوظة. "لقد عثر عليه هنا"، تقول له بنوع من الاستمتاع، "أما هى فقد كانت مخبأة عند ذلك الجدار. ولا أعرف لماذا تجشموا مشقة إخفائها. فالجريمة لابد أن تظهر، وقد حدث ذلك بالفعل. من المؤسف أنهم لم يشنقوا جريس تلك، ولست وحدى التى أقول هذا."

يقول سايمون: "لست وحدك بالتأكيد". لقد رأى ما يكفى، ويريد أن يذهب من هنا. عند الباب الأمامى يعطيها قطعة نقد ــ يبدو أن هذا هو الصواب ــ تومئ وتضعها فى جيبها. وتقول: "يمكنك أن ترى القبرين أيضًا، فى باحة الكنيسة فى المدينة، ليس عليهما أسماء، ولكن لن تخطئهما، إنهما الشاهدان الوحيدان المحاطان بالأوتاد."

يشكرها سايمون. ويشعر أنه يجوس بلا هدف بحثًا عن نوع من "صندوق الدنيا" الذى لا يريك شيئًا حقيقيًّا. فأى نوع من مختلسى النظر أصبح هو؟ مختلس أنظار فاحصة، فيما يظهر، ويتجه مباشرة إلى الكنيسة المشيخية البروتستانتية؛ والوصول إليها سهل للغاية، فبها البرج الوحيد الظاهر فى المدينة.

المقبرة خلف الكنيسة، نظيفة وخضراء، فالموتى تحت التحكم الكامل. لا حشائش عشوائية هنا، ولا بقايا أكاليل الزهور المتناثرة، ولا فوضى أو إهمال؛ لا شىء يشبه المقابر المزدانة بالأزهار فى أوروبا. لا ملائكة، لا تماثيل للمسيح المصلوب، لا هراء من أى نوع. لابد أن

السماء بالنسبة لأعضاء الكنيسة المشيخية تشبه المؤسسات البنكيـــة، كــل روح عليها بطاقتها وسعرها، وموضوعة فى الخزانة المخصصة لصـــنفها ورتبتها.

القبران اللذان يبحث عنهما واضحان. كل منهما حوله سور مــن العيدان الخشبية، وهى الأسوار الوحيدة داخل المقبرة: لا شك أن الهــدف منها إبقاء المدفونين محبوسين فى مكانهما، حيث تنتشـــر عـــن المقتـــولين سمعة بأنهم يمشون. حتى المشايخ البروتســـتانتيون ليســـوا، فيمـــا يبـــدو، مستثنين من الإيمان بالخرافات.

سور العيدان الخشبية الخاص بتومـــاس كينيـــر مطلـــى بـــاللون الأبيض، وسور نانسى مونتجومرى أسود، ربما تكون إشارة لحكم المدينة عليها: سواء كانت ضحية جريمة قتل أم لا، فهى ليست أفضل مما يجـــب أن تكون. ولم يدفنوهما فى نفس القبر ــ لا داعى لمساندة الفضيحة. ومن الغريب أن قبر نانسى وضع عند قدمى كينير، وفى زاوية صحيحة بالنسبة له؛ مما يوحى بنوع من غطاء السرير. وهناك شجرة ورد تملأ تقريبًا كل المنطقة المسيجة فوق قبر نانسى ــ إذن، فقد كانت الأغنية القديمة موحية ــ ولكن لا يوجد عنب على قبر توماس كينير. يقطف سايمون وردة مـــن فوق قبر نانسى، مع فكرة غير متبلورة بأخذها إلى جريس، لكنه يتراجـــع عن تلك الفكرة.

يقضى سايمون الليلة فى خان غير مريح فى منتصـــف طريـــق العودة إلى تورنتو. زجاج النوافذ قذر لدرجة أنه بالكاد يرى خارج النافذة، والملاءات لها رائحة عفنة؛ وأسفل غرفته تماما، مجموعة من الســـكارى ذوى الصوت الأجش، والذين ظلوا يقصفون حتى ما بعد منتصف الليـــل.

هؤلاء هم المغامرون المغرمون بالسفر بين الأقاليم. يضع مقعدًا خلف الباب ليمنع أى تدخل غير مرغوب.

يستيقظ فى الصباح مبكرا، ويفحص الإصابات المختلفة من لسع الحشرات التى حازها أثناء الليل. يرش على رأسه ماء عند الحوض الصغير من الماء الفاتر الذى أحضرته له خادمة الغرفة، والتى تعمل أيضًا فى الأوفيس بالطابق الأسفل؛ ويشم فى الماء رائحة البصل.

وبعد الإفطار على شريحة من لحم الخنزير التى يبدو أنها لديهم منذ أيام الطوفان، وبيضة من عصر غير معروف بعد، يستكمل طريقه. قليلون آخرون على الطريق: تعبره عربة سفر، ورجل يقطع شجرة ميتة فى حقله، وعامل يتبول فى قناة ماء. ويرى هنا وهناك فوق الحقول خيوطًا خفيفة طافية من الضباب، يتشتت مثل الأحلام فى ضوء الشروق. الهواء غائم، الحشائش على جانب الطريق تتعلق بها قطرات الندى؛ والحصان يجذب ملء فمه منها وهو يعبر بجوارها. يشد سايمون الشكمة قليلا، ثم يرخيها تاركًا الحصان يسير متمهلاً. ويشعر بعدم الجدوى، والبعد عن كل الأهداف، وفشل كل الجهود.

قبل أن يأخذ قطار بعد الظهر، لديه مهمة أخيرة. فهو يريد زيارة قبر مارى هويتنى. يريد أن يتأكد من أنها موجودة حقًا.

الكنيسة الميثودية فى شارع آدلايد، هى الكنيسة التى ذكرتها جريس؛ وقد تأكد من ذلك من ملاحظاته. وفى باحة المقبرة، استخدم الجرانيت المصقول بدلاً من الرخام، وأبيات الشعر أصبحت قليلة: الأبهة فى الحجم والمتانة، وليس فى الزخارف. يحب الميثوديون صروحهم

صرحية؛ أشبه بالكتلة، لا تخطئها العينان مثل الخطوط السوداء الثقيلة التى كان والده يضعها تحت الحسابات المقفلة فى دفتره مع كلمة: "خالص".

يسير جيئة وذهابًا أمام صفوف القبور، يقرأ الأسماء ـ من ينتمون لعائلات بيج، وإستيوارت، وفلوك، وتشامبر، وكوكس، وراندولف، وإستالوورثى. فى النهاية يجدها، هناك فى ركن: حجر رمادى صغير، يبدو أقدم من السنوات التسع عشرة التى مرت. "مارى هويتنى"؛ الاسم، ولا شىء غيره. ولكن جريس قالت له أن الاسم كان كل ما استطاعت أن تدفع ثمنه.

مثل شرارة من لهب، تقفز إلى ذهنه قناعة ـ إن قصتها صحيحة إذن ـ ولكن الشرارة تنطفئ بنفس السرعة. ما هى قيمة مثل هذه الأمارات المادية؟ إن الساحر يظهر قطعة من العملة من قبعة، ولأنها عملة حقيقية، ولأن القبعة حقيقية، يصدق النظارة أن الوهم أيضًا حقيقة. لكن هذا الحجر لا يزيد عن أنه مجرد حجر. فلا تاريخ عليه، وربما أن مارى هويتنى المدفونة تحته ليس لها أية علاقة بجريس ماركس على الإطلاق. ربما تكون مجرد اسم، اسم على حجر، رأته جريس هنا يوما، واستخدمته وهى تغزل قصتها. ربما تكون امرأة عجوزًا، زوجة، طفلة صغيرة، أى أحد كان.

لا شىء أمكن إثباته. ولكن لا شىء أمكن نفيه أيضًا.

فى عودته إلى كينجستون، يسافر سايمون بالدرجة الأولى. فالقطار ملىء تقريبًا، فرأى أن الأمر يستحق التكلفة لكى يتفادى الازدحام. يحمله القطار نحو الشرق، وتتراجع خلفه تورنتو، كذلك ريتشموند هيل،

ومزارعه ومروجه، ويجد نفسه يتساءل كيف يكون طعم الحياة هناك، بين النباتات الكثيفة فى ذلك الريف الهادئ المسالم، فى بيت توماس كينير، مثلاً، مع جريس كمدبرة لمنزله. ليس فقط مدبرة منزله، بل أيضًا عشيقته السرية والمخبوءة. سوف يحتفظ بها خفية، تحت اسم مختلف.

سوف تكون حياة مرفهة كسولة، بكل ما فيها من مباهج خاصة هادئة. يتصورها جالسة على مقعد فى الشرفة، تخيط، يقع ضوء المصباح على جانب وجهها. ولكن لماذا عشيقته فقط؟ يخطر بباله أن جريس ماركس هى المرأة الوحيدة فى حياته التى يتمنى أن يتزوجها. إنها فكرة مفاجئة، ولكن ما أن تخطر له حتى يقلبها على وجوهها، ويفكر فيها، يفكر، فى نوع من السخرية اللاذعة، أنها ربما تكون أيضًا المرأة الوحيدة التى يمكن أن تفى بكل المتطلبات المتكررة لدى والدته، أو كلها تقريبًا: جريس، ليست غنية على سبيل المثال، ولكنها جميلة بلا رعونة، بارعة فى التدبير المنزلى بلا كآبة، وتتميز ببساطة السلوك والفطنة، والتيقظ، والحصافة. إنها أيضًا سيدة ممتازة فى أشغال الإبرة، ويمكنها بلا شك أن تلف الآنسة فيث كارترايت بالكروشيه. ولن يكون لدى أمه أى شكوى من هذه الناحية.

ثم هناك متطلباته الخاصة. هناك العاطفة، التى تخبئها جريس فى مكان ما، إنه متأكد من هذا، رغم أنها قد تحتاج إلى قليل من البحث عنها. وسوف تكون ممتنة له، رغم أنها قد تتبرم وتتقاعس قليلاً. الامتنان نفسه لا يأسر انتباهه، لكنه يحب فكرة التبرم والتقاعس.

ولكن، هناك جيمس مكدرموت. هل كانت تخبره بالحقيقة فيما يخصه؟ هل هى حقيقة تكره وتخاف الرجل بالدرجة التى ادعتها؟ لقد

لمسها، هذا مؤكد؛ ولكن إلى أى مدى، وإلى أى درجة من الموافقة من جانبها؟ مثل هذه الحلقات من القصة عند النظر إليها عن بعد من اللحظة الحاضرة، تبدو مختلفة عن حرارتها فى لحظة حدوثها، لا أحد يعرف ذلك أفضل منه، ولماذا يجب أن يكون هناك أى اختلاف فى طبيعة المرأة؟ الإنسان يراوغ، ويصطنع الأسباب لنفسه، ويخرج من الأمور بأفضل طريقة يستطيعها. ولكن ماذا لو حدث، فى أمسية من الأمسيات، تحت ضوء المصباح فى الردهة، وعنَّ لها أن تكشف أكثر مما يهتم بأن يعرف؟

لكنه يهتم بأن يعرف.

جنون، بالطبع؛ خيال ضال، أن يفكر بالزواج ممن تحيط بها شكوك ارتكاب جريمة قتل. ولكن ماذا لو كان قد التقى بها قبل الجريمتين؟ يفكر فى هذا، ثم يرفضه. لابد أن جريس قبل القتل كانت مختلفة تمامًا عن المرأة التى يعرفها الآن. فتاة صغيرة لم تتشكلْ بعد، فاترة، جاهلة، بلا طعم. منظر طبيعى منبسط خال من أى شىء.

قاتلة، قاتلة، يهمس لنفسه. إنها كلمة لها إغواء، ولها عبق، تقريبًا. مثل الجاردينيا فى بيت النباتات الدافئ، متوهجة، لكنها أيضًا مستترة وخفية. يتخيل نفسه يتنفس هذه الكلمة وهو يجذب جريس ناحيته، ويطبق فمه على فمها. *قاتلة*. يطبعها على عنقها كعلامة تجارية، كبطاقة الصنف.

الفصل الثالث عشر

صندوق باندورا

كان زوجى قد استنبط نوعًا بارعًا من "الكشاف الروحى"[(١)] ... وقد كنت دائمًا أرفض أن أضع يدى على لوحة هذا الكشاف، والتى تتحرك للناس تحت فيض من قوة خفية، وتكتب حرفًا بحرف رسائل وأسماء. ولكنى وجدت نفسى وحدى ذات مرة، فوضعت يدى على اللوحة، وسألتها: "هل رفعت يدى بفعل روح من الأرواح؟" ولفت اللوحة وكتبت حروف كلمة "نعم" ...

قد تظن، كما ظننت أنا دائمًا، أن كل ما فى الأمر هو عملية ناتجة عن عقلى لا غير، لكن عقلى لابد أن يكون أكثر ذكاء منى بكثير، أنا صاحبته، أن تكون لدى أية فكرة عما يمكن أن يكتب حرفًا بحرف، صفحات كاملة من أمور ذات علاقة ببعضها، وغالبًا مبهمة، دون أن أعلم كلمة واحدة عنها،

---

(١) الكشاف الروحى spiritoscope: أحد مخترعات الكيميائى الأمريكى روبرت هير (١٧٨١-١٨٥٨)، اخترعه فى محاولة لإثبات دجل المشعوذين الروحانيين الذين كانوا يجعلون المناضد تتمايل، وكان رأيه أن ذلك يحدث بمجهود عضلى منهم. ولكنه أثناء اختباره للجهاز تحول إلى الروحانية. والجهاز عبارة عن آلة ذات عجلة وأسلاك حساسة ولها لوحة توضع عليها اليد فتنتقل الذبذبات إلى قلم متصل بالسلك فيتحرك القلم نتيجة الذبذبات ويكتب على لوحة أخرى خطوطًا تفسر بأنها حروف. واعتبر هذا الجهاز مخصصًا لاكتشاف تجليات الروح، وما إذا كانت أصيلة أم دجلاً.

أو حول ما يمكن أن تكون حتى يقرأها لى مستر مودى، وبعد أن يتوقف الاتصال يمكن أن أعرف عن أى شىء كان يدور. وأختى، مسز تريل، وسيط قوى للغاية فى هذه الاتصالات، والتى تأتيها بلغات أجنبية. لكن الأرواح التى تأتيها كثيرًا ما تشتم، وتصفها بكلمات شديدة البذاءة ... والآن، لا تظن أننى مجنونة أو أن أرواحًا شريرة تتلبسنى. وأتمنى لكم جميعًا أن يتملككم مثل هذا الجنون الرائع.

سوزانا مودى

رسالة إلى رينتشارك بنتلى، ١٨٥٨

أمامى .. يخفق ظل
ليس ظلك، لكنه أشبه بك
آه، يا إلهى، أكان من الممكن
لساعة واحدة قصيرة، أن نرى
الأرواح التى أحببناها، وأن يمكن أن يخبرونا
ماذا حدث، وأين يسكنون!

ألفريد، لورد تنيسون

Maud, 1855

شعرت بصدع فى عقلى
كما لو كان رأسى ينشق
حاولت أن أعيد جمعه إلى بعضه، قطعة بقطعة،
لكن لم أستطع أن أجعل أجزاءه تتناسب معًا.

إميلى ديكنسون، حوالى ١٨٦٠

ينتظرون فى غرفة المكتبة بمنزل مسز كوينل، كل يجلس فى مقعد ذى ظهر مستقيم، كل يلتفت، ليس بشكل شديد الوضوح، نحو الباب، المفتوح جزئيًا. ستائر مسدلة تغلق المكان تمامًا، من القطيفة الحمراء الداكنة المقلمة بالأسود، وكذا شراريب سوداء، إنها تذكِّر سايمون بالجنازات البروتستانتية، وأضيء مصباح كروى الشكل، فى مركز المنضدة البلوط المستطيلة؛ وهم يجلسون جميعًا حولها صامتين، فى حالة توقع، واحتشام، وتوجس، كهيئة محكمة قبل انعقاد المحاكمة.

ولكن مسز كوينل فى حالة استرخاء، يداها مضمومتان بهدوء فى حجرها؛ فهى تتوقع العجائب، ولكن مما لا شك فيه أنها لن تشعر بدهشة لهذه العجائب، مهما كانت. وهى توحى بحالة أشبه بالمرشدين الذين أصبحت مشاهدة شلالات نياجرا، على سبيل المثال، بالنسبة لهم أمرًا مألوفًا لا يشعرهم بنشوة، ولكنهم يريدون الاستمتاع بمشاهدة الزائرين المبتدئين. وعلى وجه زوجة المحافظ تعبير التقوى والشفقة الذى يخفف منه حالة من الإذعان. أما المبجل ڤرينجر ففى وسعه أن يبدو كريمًا ورقيقًا، وغير موافق فى نفس الوقت، ثمة وميض يتألق حول عينيه وكأنه يضع نظارة، رغم أنه لم يكن. ليديا، التى تجلس إلى يسار سايمون، ترتدى رداء من نوع لامع غائم بشكل ما، لون بنفسجى فاتح يداخله الأبيض، وقد قصت

فتحة الرقبة بحيث تكشف عن ترقوتيها؛ ويفوح منها عبيـر نـدى لزنبـق الوادى. وهى تلوى منديلها بعصبية؛ لكنها، عندما تلتقـى عينيهـا بعينـى سايمون، تبتسم.

أما بالنسبة لسايمون، فهو يشعر أن وجهه مضبوط على نوع من الشك والسخرية، ولكنه وجه مزيف، فتحت هذا الوجه يشعر بلهفة كلهفـة صبى المدرسة فى يوم مهرجان. إنه لا يؤمن بشـىء، ويتوقـع الخـدع، ويتوق لاكتشاف كيف تم أداؤها، ولكنه فى نفس الوقت يتمنى أن يشـاهد ما يدهشه. وهو يعلم أن هذه حالة من حالات العقل الخطرة، وأنه لابـد أن يحافظ على موضوعيته.

ثمة دق على الباب، وينفتح الباب قليلاً، ويـدخل د. جيـروم دو بونت، وهو يقود جريس من يدها. لم تكن ترتدى قبعة، وشعرها المعقوص يلمع بلون محمر فى ضوء المصباح. وتضع قلادة صغيرة مـن شـريط أبيض حول رقبتها، وهو شىء لم يره عليها من قبل؛ وتبدو صغيرة السـن بشكل مدهش. تسير بخطوات مترددة، كما لو كانت عمياء، لكـن عينيهـا مفتوحتان على آخرهما، ومركزتان على دى بونت بذلك المظهـر الـذى يوحى بالهيبة والارتعاش والشحوب والصمت، المظهر الـذى ــ يكتشـف سايمون الآن ــ كان يتمنى أن يراها عليه دون جدوى.

يقول د. دو بونت: "أرى أنكم مجتمعون، واهتمـامكم يسـعدنى، وأتمنى، لو سمحتم لى، أن أنال ثقتكم أيضًا. يجب إبعاد المصباح من على المائدة، هل تسمحين لى يا مسز كوينل أن أثقل عليـك؟ ويجـب تخفيـف إضاءته أيضًا من فضلك. ويجب إغلاق الباب."

تنهض مسز كوينل، وتنقل المصباح بصمت إلى منضدة صغيرة فى الركن، ويغلق المبجل فرينجر الباب جيدًا.

يقول د. دو پونت: "سوف تجلس جريس هنا". يجلسها وظهرها للستائر. "هل أنت مرتاحة تمامًا؟ حسنا. لا تخشى شيئًا، لا أحد هنا يتمنى أن ينالك بأذى. لقد شرحت لها أن كل ما يجب أن تفعله هو أن تستمع إلى، ثم تنام. هل تفهمين، يا جريس؟"

تومئ جريس. إنها جالسة بتصلب شديد، شفتاها مزمومتان بقوة، حدقتا عينيها تبدوان كبيرتين فى الضوء الخافت. يداها تقبضان على ذراعى المقعد. لقد رأى سايمون مواقف كهذه فى أجنحة المستشفيات — الذين يعانون من الألم، أو فى انتظار إجراء عملية جراحية. الخوف الغريزى.

يقول د. دو پونت: "هذا إجراء علمى تمامًا". يوجه الحديث إلى المجتمعين، لا إلى جريس. "أرجو أن تبعدوا عن أذهانكم أية أفكار تعرفونها عن التنويم المغناطيسى، ومثل هذه الأشياء الاحتيالية. تعتبر منظومة الضفائر العصبية منظومة منطقية وصحيحة تمامًا، وقد تم إثباتها وتجريبها على يد الخبراء الأوروبيين إلى درجة تتخطى أى ظل للشك. وهى تختص بالاسترخاء المتعمد ثم إعادة وضع الأعصاب فى أماكنها، حتى يحدث التنويم العصبى. ونفس الشىء يمكن أن نراه فى الأسماك، عندما تضرب على طول الزعنفة الظهرية، وحتى فى القطط؛ رغم أن النتائج تكون فى الكائنات الأعلى أكثر تعقيدًا بالطبع. إننى أرجوكم أن تتجنبوا أية حركات مفاجئة أو أصوات عالية، حيث يمكن أن يسبب أى شىء من ذلك صدمة عصبية، وقد يكون تأثيره على المريضة مدمرًا.

أرجو أن تلتزموا بالصمت التام حتى تنام جريس، بعد ذلك يمكنكم أن تتحدثوا بأصوات خفيضة."

تحدق جريس فى الباب المغلق كما لو كانت تفكر فى الهرب. إنها فى حالة توتر عالية حتى يمكن لسايمون أن يشعر بذبذباتها، مثل حبل مشدود. لم يرها من قبل فى هذه الحالة من الرعب. ماذا قال دو پونت أو فعل لها قبل أن يدخلها هنا؟ يبدو الأمر وكأنه كان يهددها، تقريبًا، ولكن عندما يتحدث إليها ترفع عينيها إليه بنظرة ثقة. فأيًّا كان ما تخشاه، فهو ليس دو پونت.

يخفف دو پونت ضوء المصباح. ويبدو الهواء فى الغرفة مثقلاً بدخان يكاد يظهر للعين. ملامح جريس الآن فى الظل، ليس فيها شىء واضح إلا وميض عينيها.

يبدأ دو پونت إجراءه. فى البداية يوحى بثقل، بنعاس؛ ثم يقول لجريس أن أوصالها تطفو، تعوم، وأنها تغوص أعمق، أعمق، أعمق، وكأنما فى المياه. صوته له رتابة مسكنة. يسقط جفنا جريس؛ وتتنفس بعمق وانتظام.

يسألها دو پونت: "هل أنت نائمة، يا جريس؟"

تقول: "نعم"، بصوت بطيء وفاتر، لكنه مسموع بوضوح.

"يمكنك أن تسمعينى."

"نعم"

"لا يمكنك أن تسمعى غيرى؟ حسنا. عندما تستيقظين، لن تتذكرى أى شىء حدث هنا. والآن، غوصى أكثر". ويتوقف قليلاً. "من فضلك ارفعى ذراعك اليمنى."

ببطء يرتفع الذراع كما لو كان مشدودًا بحبل، حتى يتوقف مستقيمًا فى الهواء. يقول دو پونت: "إن ذراعك قضيب حديدى. لا أحد يستطيع ثنيه". ويلتفت إليهم، "هل يحب أحد أن يجرب؟" يشعر سايمون بإغراء، لكنه يقرر عدم المخاطرة؛ فهو عند هذه النقطة لا يريد أن يقتنع، ولا أن يشعر بخيبة أمل. يسأل دو پونت: "لا؟" ثم يقول: "إذن اسمحوا لى". ويضع يديه على ذراع جريس الممدود، وينحنى، قائلا: "إننى أستخدم كل قوتى". الذراع لا ينثنى. "حسنا، يمكنك خفض ذراعك."

"إن عينيها مفتوحتان"، تقول ذلك ليديا، محذرة؛ وأكيد، كان هناك نصفا دائرتين بيضاوين يظهران تحت الجفنين.

يقول دو پونت: "هذا طبيعى، ولكن لا أهمية له. فى هذه الحالة يبدو النائم قادرًا على تبين أشياء معينة، حتى مع إغلاق العينين. إنها من خصائص النظام العصبى التى لابد تتعلق بعضو حس لم يستطع الإنسان بعد اكتشافه أو قياس قدراته الكاملة. ولكن دعونا نستمر."

يميل فوق جريس وكأنما يستمع إلى قلبها. ثم يخرج من جيب خفى مربعًا من النسيج ــ إيشارب حريمى عادى، بلون رمادى فاتح ــ ويلقيه برقة فوق رأسها، فينزل متموجًا ثم يستقر. والآن ليس أمامهم إلا رأس، ولا يظهر من خلف الإيشارب إلا أقل خطوط لملامح الوجه. ولا يمكن تجنب الإيحاء بالكفن.

يفكر سايمون أن الأمر يبدو مسرحيًا زيادة عن اللازم، بهرجة زائدة توحى بقاعات المحاضرات فى المدن الصغيرة منذ خمسة عشر عامًا، بجمهورها الساذج من بائعى الدكاكين، والفلاحين الذين لا يتكلمون إلا قليلا، وزوجاتهم الكئيبات، والدجالين الذين يستدرجون الفقراء بكلام فارغ مبهم ويدجلون عليهم بنصائح طبية كطريقة لسلب جيوبهم. يجاهد سايمون ليشعر بنوع من السخرية، ومع ذلك، يشعر بخدر يتسلل إلى قفاه.

تهمس ليديا: "إنها تبدو ... غريبة .. غريبة جدًّا"

يقول المبجل ڤرينجر بصوته الاقتباسى: "أى أمل فى الحصول على إجابة أو خلاص؟ خلف الخمار، خلف الخمار". لا يعرف سايمون ما إذا كان يريد أن يمزح.

تقول زوجة المحافظ: "معذرة؟، آه، نعم ــ مستر تنيسون العزيز".

يقول د. دو پونت بصوت خافت: "إنه يساعد على التركيز، فالمشهد الداخلى يكون أكثر حدة وقوة عندما يتم إخفاؤه عن المشهد الخارجى. والآن يا د. چوردان، يمكن أن نسافر إلى الماضى بسلام. ماذا تود أن أسألها؟"

يتحير سايمون من أين يبدأ. "اسألها عن منزل كينير،"

يسأل دو پونت: "أى مكان فيه؟ لابد من التحديد".

يقول سايمون: "الفراندة"، فهو يؤمن ببداية هادئة.

يقول دو پونت: "جريس، أنت الآن فى الفراندة، فى منزل مستر كينير. ماذا ترين هناك؟"

تقول جريس: "أرى ورودًا". صوتها ثقيل، ويبدو رطبًا بشكل ما. "إنه غروب الشمس، أنا سعيدة للغاية. وأريد البقاء هنا."

يقول سايمون: "اسألها أن تقوم الآن وتسير إلى داخل البيت. قل لها أن تذهب نحو الباب المسحور فى الصالة الأمامية، المؤدى إلى القبو."

يقول دى پونت: "جريس، عليك أن ..."

فجأة يسمعون طرقة عالية واحدة، وكأن هناك انفجار صغير. جاء الصوت من المنضدة، أم كانت من الباب؟ تند عن ليديا صرخة خافتة، وتتشبث بيد سايمون؛ ربما يكون من الغلطة أن يسحب يده، ولذا فهو لا يفعل، خاصة وهى ترتعش كورقة شجر.

تقول مسز كوينل: "هش!"، بصوت هامس وحاد، "إن لدينا زائرًا!"

تصرخ زوجة المحافظ بنعومة: "ويليام! أعرف أنه عزيزى! صغيرى الحبيب!"

يقول دو پونت متوترًا: "أرجوك، هذه ليست جلسة تحضير أرواح!"

تحت الخمار، تتحرك جريس بشكل قلق. وتتمخط زوجة المحافظ فى منديلها. ويختلس سايمون نظرة إلى المبجل ڤرينجر. فى هذه العتمة من الصعب أن تتعرف على تعبيراته؛ ويبدو أن على وجهه ابتسامة متألمة، مثل طفل يعانى من وجود غازات فى بطنه.

تقول ليديا: "إننى خائفة، ارفعوا ضوء المصباح!"

يهمس سايمون: "ليس بعد"، ويربت على يدها.

ثمة ثلاث خبطات حادة أخرى، كما لو كان شخص يدق على الباب بإلحاح طالبًا الدخول. يقول دو يونت: "هذا غير معقول، من فضلك اطلبي منهم الذهاب."

تقول مسز كوينل: "سأحاول، ولكن اليوم هو الخميس. وهم معتادون على المجيء في أيام الخميس". تحني رأسها وتصفق بيديها. بعد لحظة يسمعون ضربات قوية متقطعة، كما لو كانت ملء يد من الحصوات تتدحرج مصلصلة من مزراب. تقول: "ها هو، أظن أن هذا كان كفيلاً بالأمر."

يفكر سايمون أنه لابد أن يكون هناك تحالف ما ـ شريك أو أدوات مجهزة خارج الباب، وربما تحت المائدة. إنه منزل مسز كوينل على أية حال. من يعلم كيف جهزته بما يلزم؟ ولكن لا شيء تحت المائدة إلا أقدامهم. كيف يتم كل هذا؟ بمجرد جلوسه هنا يشعر بالسخف، مراهن جاهل، ساذج. ولكن لا يمكنه التراجع الآن.

"أشكرك". يقول دو يونت، ثم يلتفت إلى سايمون: "دكتور، أرجو المعذرة لهذه المقاطعة، ودعنا نستكمل."

يزداد إحساس سايمون بيد ليديا في يده. إنها يد صغيرة، ودافئة للغاية. في الواقع أن الغرفة كلها مغلقة أكثر من اللازم ولا تبعث على الراحة. ويود لو انتزع نفسه، لكن ليديا تتشبث به بقبضة من حديد. ويأمل ألا يراهما أحد. يشعر بتنميل في ذراعه؛ ويعقد قدميه. ويمر بذهنه فجأة طيف لساقي راشيل همفري؛ عاريتان إلا من الجورب، ويداه فوقهما، تمسكان بها لتهدأ وهي تقاوم. تقاوم عامدة، وهي تراقبه من خلال رموش عينيها شبه المغلقتين لترى تأثيرها عليه. تتلوى مثل سمك الأنقليس الماكر.

تترجى كالأسيرة. بشرة زلقة من العرق، بشــرتها أو بشــرته، خصــلات شعرها المبللة على وجهها، تزعجه وهو يقبلها، كـل ليلــة. ســجينة، إن بشرتها حيث لعقها تلمع مثل الساتان، لا يمكن أن يستمر هذا.

يقول: "اسألها، إذا ما كان لها أية علاقة مع چيمس مكــدرموت". لم يكن ينوى أن يضع هذا السؤال؛ بالتأكيد ليس فى البداية، ولم يقصد أبدًا أن يسأله بهذا الوضوح والمباشرة. ولكن أليس هذا ـ كما يتبــين الآن ـ هو أشد ما يرغب فى معرفته؟

يكرر دو پونت السؤال على جريس فى صوت ثابت. ثمة وقفــة؛ ثم تضحك جريس. أو يضحك شخص ما؛ لا يبدو الصوت صوت جريس. "علاقة، يا دكتور؟ ماذا تقصد؟" الصوت حاد، متذبذب، مائى؛ ولكنه واضح وحاضر، ومتيقظ تمامًا. "الواقع يا دكتور، أنك منافق كبير! تريد أن تعرف إذا ما كنت قبلته، إذا كنت نمت معه. إذا كنت عشيقته! أهذا هو ما تريد؟"

"نعم"، يقول سايمون ذلك وقد شعر بصــدمة، ولكنــه يجــب أن يحاول عدم إظهار ذلك. لقد كان ينتظر سلسلة من كلمات أحادية المقاطع، مجرد نعم أو لا، تنتزع منها، وهى فى سباتها وغيبوبتهــا؛ سلســلة مــن الاستجابات المفروضة تحت النعاس الإجبارى على طلبات محــددة منــه. وليس مثل هذه السخرية الفجة. هذا الصوت لا يمكن أن يكــون صــوت جريس، إلا أنه إذا لم يكن صوتها، فصوت من إذن؟

"لو أنى فعلت مثلما تود أن تفعل مع هذه العاهرة الصغيرة التــى تقبض على يدك؟" ثمة ضحكة خافتة جافة.

تشهق ليديا، وتسحب يدها كما لو كانت ملسوعة. تضحك جريس ثانية. "أتحب أن تعرف هذا، إذن فسأخبرك. نعم، كنت ألقاه فى الخــارج،

فى الفناء، بثوب النوم، فى ضوء القمر. كنت أتمسح به، وأتركه يقبلنى، ويلمسنى أيضًا، فى كل مكان يا دكتور، فى نفس الأماكن التى تود أن تلمسنى فيها، لأننى أعرف دائمًا، أعرف فيم تفكر عندما تجلس فى تلك الغرفة الصغيرة المزدحمة بلوازم الخياطة معى. ولكن هذا هو كل شىء، يا دكتور. هذا كل ما سمحت له به. لقد جعلته طوع إرادتى، وكذلك مستر كينير أيضًا. جعلت الاثنين يرقصان على أنغامى!"

يسأل سايمون: "اسألها لماذا". إنه لا يستطيع أن يفهم ماذا يحدث، لكنها يمكن أن تكون آخر فرصة للفهم. لابد أن يحتفظ بوضوح تفكيره، ويستمر فى خط استجواب مباشر منتظم. ويصل صوته إلى سمعه كنقيق خشن.

تقول جريس: "يمكن أن أشهق هكذا"، وتنطق بشهقة جنسية شبقة. "ويمكن أن أتلوى وأتمعج. وبعد ذلك سوف يقول أنه سيفعل أى شىء". وتضحك ضحكة مجلجلة. "ولكن لماذا؟ آه يا دكتور، دائمًا تسأل لماذا. وتدس أنفك فى كل شىء، وليس فقط أنفك. إنك رجل شديد الفضول! الفضول قتل القط، كما تعلم يا دكتور. يجب أن تحترس من أجل هذا الفأر الصغير الجالس بجوارك؛ ومن أجل أعضائها الرقيقة الخفية أيضًا!"

ولدهشة سايمون، يضحك المبجل ڤرينجر ضحكة خافتة، أو ربما هو يسعل.

تقول زوجة المأمور: "هذه إساءة بالغة، لن أجلس هنا لأستمع إلى مثل هذه البذاءة! ليديا، تعالى معى!" وتهم بالقيام، وتخشخش تنورتها.

يقول دو پونت: "أرجوك، تحملى معى. لابد أن يكون التواضع فى المرتبة الثانية بعد مصلحة العلم."

ويرى سايمون أن الموضوع كله يخرج عن السيطرة. ويجب أن يتمسك بقدرته على المبادرة، أو على الأقل يحاول أن يفعل ذلك؛ يجب أن يمنع جريس من قراءة ما فى عقله. لقد سبق أن سمع عن القوى الاستشفافية لمن هم تحت التنويم المغناطيسى، ولكنه لم يصدق أيًّا من ذلك أبدًا. "اسألها ..." يقول بصرامة "... إذا كانت فى قبو منزل مستر كينير، يوم السبت، ٢٣ يوليو ١٨٤٣".

يقول دو پونت: "القبو، لابد أنك تذكرين القبو يا جريس، عودى فى الزمن، انزلى فى المكان ..."

تقول جريس بنفس صوتها الجديد الرفيع: "نعم، عن طريق الصالة، أرفع الباب السحرى، أنزل على سلالم القبو. البراميل، الويسكى، الخضر فى الصناديق مليئة بالرمل. هناك على الأرض. نعم، أنا فى القبو."

"اسألها إذا كانت رأت نانسى هناك."

"أوه، نعم، رأيتها". صمت.. "كما أستطيع أن أراك يا دكتور. من وراء الخمار. وأستطيع أن أسمعك أيضًا."

تبدو الدهشة على دو پونت. "هذا غير طبيعى، ولكن ليس غير معروف."

يسأل سايمون: "هل كانت حية؟ أكانت لا تزال حية عندما رأيتها؟"

يصدر الصوت ضحكة مكتومة: "كانت نصف حية، أو نصف ميتة ... كانت بحاجة ..." ــ ضحكة خافتة مضطربة ــ "لإنهاء تعاستها."

يصدر صوت شهيق عميق حاد من المبجل ڤرينجر. ويشعر سايمون بدقات قلبه كالمطرقة. يقول: "هل ساعدت فى خنقها؟"

"كان منديلى هو الذى خنقها". ضحكة مرحة ومجلجلة. "المطبوع بذلك الرسم الجميل!"

يتمتم ڤرينجر: "يا للعار!" لابد أنه يفكر فى كل الصلوات التى أنفقها عليها وكل الحبر والورق أيضًا. والالتماسات والعرائض التى كتبها، الإيمان الذى كان يملؤه من ناحيتها.

"كان عارًا أن أفقد هذا المنديل؛ كان معى وقتًا طويلاً. كان منديل أمى. وكان يجب أن آخذه من رقبة نانسى. لكن چيمس لم يدعنى آخذه، ولا قرطها الذهبى أيضًا. فقد كان هناك دم عليه، ولكن كان يمكن غسله."

"أنت قتلتها"، تقول ليديا لاهثة.. "كنت أظن ذلك دائمًا". صوتها ــ إن دل على شىء ــ كان يدل على الإعجاب.

"المنديل قتلها. الأيدى التى أمسكت به". يقول الصوت.. "كان يجب أن تموت. لأن أجرة الخطيئة هى موت. وهذه المرة يموت السيد أيضًا، على سبيل التغيير. من يشارك فى الإثم يشارك فى العقاب!"

تزوم زوجة المحافظ: "آه يا جريس، كنت أظنك أفضل من ذلك! كل هذه السنوات كنت تخدعيننا!"

ويرد الصوت جذلان: "توقفى عن هذا الهراء، أنتم خدعتم أنفسكم! أنا لست جريس! جريس لا تعلم شيئًا عن ذلك!"

لا ينبس أحد فى الغرفة ببنت شفة. الصوت يهمهم الآن، بنغمة عالية حادة، مثل طنين النحل: "يا صخر الدهر، افتح لى شقًا بداخلك، دعنى أخبئ نفسى فيك؛ دع الماء والدم، ..."

يقول سايمون: "أنت لست جريس". رغم دفء الغرفة، يشعر بالبرد يسرى فى كيانه كله. "إذا لم تكونى جريس، فمن تكونين؟"

" افتح لى شقًا بداخلك، ... دعنى أخبئ نفسى فيك ..."

يقول دو بونت: "يجب أن تجيبى، إننى آمرك!"

تصدر سلسلة أخرى من الطرقات، ثقيلة، موقعة، كما لو كان شخص يرتدى قبقابًا ويرقص على المنضدة. ثم همس: "لا يمكنك أن تأمر. يجب أن تخمن!"

تقول مسز كوينل: "أنا أعرف أنك روح، إن الأرواح قادرة على الكلام من خلال الآخرين فى جلسات تحضير الأرواح. إنها تستخدم أعضاءنا المادية. هذه الروح تتكلم من خلال جريس. ولكن الأرواح تكذب أحيانًا، كما تعلمون."

يقول الصوت: "أنا لا أكذب! أنا فوق الكذب! أنا لم أعد بحاجة إلى الكذب!"

تقول مسز كوينل: "لا يمكن أن تصدقوهم دائمًا"، وكأنها تتحدث عن طفل أو خادم. "ربما يكون چيمس مكدرموت، جاء هنا ليشهر بسمعة جريس. ليلصق التهمة بها. كان هذا هو آخر ما فعله فى حياته، والذين يموتون ورغبة الانتقام فى قلوبهم غالبًا ما يحبسون فى المستوى الأرضى."

يقول د. دو بونت: "من فضلك يا مسز كوينل، إنها ليست روحًا. إن ما نشهده هنا لابد أن يكون ظاهرة طبيعية". ويبدو فى صوته بعض اليأس.

يقول الصوت: "ليس چيمس، أيتها العجوز المدلسة!"

تقول مسز كوينل: إذن، نانسى!"، تقول هذا ولا يبدو عليها أنها تأثرت بالإهانة على الإطلاق. "إنهم غالبًا يتصفون بالوقاحة، ويشتمون ويتلفظون بالبذاءات. بعضهم غاضب ــ تلك الأرواح حبيسة الأرض، أرواح الذين لا يستطيعون احتمال كونهم أمواتًا."

"ليس نانسى، أيتها الحمقاء الغبية! نانسى لا تستطيع أن تقول شيئًا، لا تستطيع أن تقول كلمة واحدة، ليس ورقبتها فى هذه الحالة. يا لها من رقبة جميلة .. كانت يومًا! ولكن نانسى لم تعد غاضبة، إنها لا تهتم، وهى صديقتى. إنها تفهم الآن، وتريد أن تشارك فى أشياء. هيا يا دكتور"، يقول الصوت، بنوع من التملّق الآن. "إنك تحب الألغاز. أنت تعرف الإجابة. قلت لك إنه كان 'منديلى'، المنديل الذى تركته لجريس، عندما، عندما ...." ثم تبدأ تغنى ثانية: *أوه لا، إنها الحقيقة التى كانت تشرق دائمًا فى عينيها، ولهذا أحببت مارى...*"

"ليس مّارى"، يقول سايمون.. "ليس مارى هويتنى."

هناك تصفيق حاد، يبدو قادمًا من السقف. "أنا قلت لچيمس أن يفعل ذلك. أنا شجعته. أنا كنت هناك طوال الوقت!"

يسأل دو بونت: "هناك .. أين؟"

"هنا، مع جريس، حيث أنا الآن. لقد كان المكان باردًا جدًّا، وأنا راقدة على الأرض، وكنت أشعر بوحدة شديدة؛ وبحاجة لأن أشعر بالدفء. لكن جريس لا تعرف، إنها لم تعرف أبدًا!". ولم يعد الصوت يمزح. "كادوا يشنقونها، ولو حدث ذلك لكان خطأً. إنها لا تعرف شيئًا! أنا فقط استعرت ملبسها لبعض الوقت."

يقول سايمون: "ملبسها؟"

"ملبسها الأرضى .. أو قشرتها الأرضية. رداءها اللحمى. لقد نسيت أن تفتح النافذة، فلم أستطع الخروج! ولكنى ما كنت لأوذيها. لا يجب أن تخبرها!" والصوت الرفيع الآن فى حالة توسل.

يسأل سايمون: "ولم لا؟"

"أنت تعرف لم لا يا دكتور چوردان. هل تريد أن تراها وقد عادت إلى المصحة العقلية؟ كنت أحب المكان هناك فى البداية، يمكننى أن أتحدث بصوت عال هناك. أستطيع أن أضحك. وأستطيع أن أقول ما حدث. ولكن لم يستمع لى أحد". وصوت تنهد خفيف، رفيع. "لم يسمعنى أحد."

يقول سايمون: "جريس، كفى خداعًا!"

يقول الصوت، بشكل أكثر ترددا: "أنا لست جريس."

يسأل سايمون: "أهو أنت حقًّا؟، هل تقولين الحقيقة؟ لا تخشى شيئًا."

ينتحب الصوت: "أترى، أنت مثلهم، لا تستمع لى، لا تصدقنى، إنكم تريدون الأمور على طريقتكم، إنكم لن تسمعوا..." ويتخافت الصوت حتى يختفى، ويسود الصمت.

تقول مسز كوينل: "لقد ذهبت، يمكنك أن تعرف دائمًا متى يعودون إلى دنياهم. يمكن أن تشعر به فى الهواء، إنها الذبذبات الكهربائية."

تمضى لحظة طويلة دون أن يقول أحد شيئًا. ثم يتحرك د. دو پونت. ينحنى على جريس قائلا: "جريس، ... جريس ماركس، هل يمكنك سماعى؟" ويضع يده على كتفها.

ثمة لحظة صمت طويلة أخرى، يرتفع خلالها صوت تنفس جريس حتى يصبح مسموعًا لهم جميعًا، وهو الآن غير منتظم، وكأنما هو تنفس فى نوم مزعج. أخيرًا تقول: "نعم". إنه الآن صوتها العادى.

يقول دو پونت: "سوف أوقظك الآن"، يرفع الخمار برقة من فوق رأسها، ويضعه جانبًا. وجهها ساكن وهادئ. "إنك تطفين لأعلى، أعلى، أعلى، تخرجين من الأعماق. لن تتذكرى شيئًا مما حدث هنا. عندما أفرقع أصابعى، سوف تستيقظين". يذهب إلى المصباح، ويزيد الإضاءة، ثم يعود ويضع يده قريبًا من رأس جريس. ويفرقع بإصبعيه.

تتحرك جريس، تفتح عينيها، تنظر حواليها مندهشة، تبتسم لهم. ابتسامة هادئة، لم تعد متوترة وخائفة. ابتسامة طفل مطيع أدى واجباته. تقول: "لابد أننى كنت نائمة."

يسأل د. دو پونت بلهفة: "هل تتذكرين أى شيء؟ أى شيء مما حدث قبل لحظة؟"

تقول جريس: "لا، كنت نائمة. ولكن لابد أننى كنت أحلم. لقد حلمت بأمى. كانت تطفو فى البحر. وكانت فى حالة سلام."

يشعر سايمون بأنه تحرر من عبء؛ كذلك دو پونت، كما يبدو من منظره، يأخذ يدها، ويساعدها للقيام من على المقعد. "ربما تشعرين ببعض الإعياء أو الدوخة" يقول لها ذلك برقة، "هذا كثيرًا ما يحدث. مسز كوينل. هل يمكنك أن تأمرى بأن توضع فى غرفة نوم حيث يمكن أن ترقد؟"

تترك مسز كوينل الغرفة مع جريس، وهى تحيطها بذراعها، كما لو كانت عاجزة عن السير بمفردها. لكنها تسير بخفة كافية الآن، والظاهر أنها سعيدة.

يظل الرجال فى المكتبة. ويشعر سايمون بالسعادة لأنه جالس؛ لا شيء يتمناه فى هذه اللحظة سوى كأس مملوءة من البراندى القوى، ليثبت أعصابه، ولكن نظرًا للصحبة الحاضرة، فليس لديه أمل كبير فى ذلك. يشعر بأن رأسه خفيف، ويشك فى أن الحمى تعاوده.

يبدأ دو بونت قائلا: "أيها السادة، إننى فى حيرة شديدة. ولم يحدث أبدًا أن التقيت بمثل هذه التجربة من قبل. النتائج غير متوقعة على الإطلاق. فالقاعدة العامة أن الشخص المنوَّم يظل تحت سيطرة الممارس". يبدو أنه مصدوم للغاية.

يقول المبجل ڤرينجر: "لو حدث ذلك منذ مائتى عام لما شعروا بأى حيرة، وإنما كانوا سيعرفون أنها حالة واضحة من التلبس. فلربما وجدوا أن مارى هويتنى قد سكنت جسد جريس ماركس، وبهذا تكون هى المسئولة عن التحريض على ارتكاب الجريمة، وعن المساعدة فى خنق نانسى مونتجومرى. وربما يتخذون إجراءاتهم لطرد الروح الشريرة."

يقول سايمون: "ولكننا فى القرن التاسع عشر، ومن الممكن أن تكون حالة تخص الأمراض العصبية". كان يريد أن يقول "لابد أنها"، ولكنه لا يريد أن يناقض المبجل ڤرينجر بشكل شديد الفظاظة. كما أنه لا يزال يشعر بربكة شديدة، وغير متأكد من المرجعيات العلمية التى يستند إليها.

يقول دو بونت: "كانت هناك حالات من هذا النوع، ومنها حالة ترجع إلى ١٨١٦، وهى حالة مارى رينولدز، من نيويورك، التى وصف د. ميتشيل من نيويورك تناوب الحالات الغريبة عليها؛ هل تعرف هذه الحالة يا د. چورذان؟ لا؟ منذ ذلك الوقت، كتب واكلى، الصحفى بجريدة لانسيت، عن الظاهرة كثيرًا؛ وهو يسميها "الوعى المزدوج"، رغم أنه يرفض على نحو قاطع إمكانية ما يسمى بالشخصية الثانوية من خلال التنويم العصبى، فهناك فرصة كبيرة للتأثير على الشخص الواقع تحت التنويم من قبل الممارس. وقد كان دائمًا خصمًا لدودًا للتنويم المغناطيسى والوسائل ذات الصلة، فهو محافظ من هذه الناحية."

يقول سايمون: "يصف بويسجير شيئًا من هذا القبيل، على ما أذكر. ربما تكون حالة مما يعرف بالازواجية ـ والمريض، عندما يكون فى نوبة المشى أثناء النوم، يظهر شخصية مختلفة تمامًا عنه وهو مستيقظ، والشخصيتان لا تعلم إحداهما عن الأخرى شيئًا."

يقول ڤرينجر: "يا سادة، إنه لمن الصعب أن نصدق كل هذا، ولكن أشياء أكثر غرابة من ذلك حدثت بالفعل."

يقول دو بونت: "أحيانًا تنتج الطبيعة رأسين فى جسد واحد، فلماذا لا تنتج شخصين، بنفس الطريقة، فى عقل واحد؟ ربما تكون هناك أمثلة، ليس بالنسبة لحالات من الوعى المتبادل، كما ادعى بويسجير، ولكن لشخصيتين متمايزتين قد تتعايشان معًا فى نفس الجسد ولكن لكل منهما سلسلة من الذكريات مختلفة تمامًا، فيصبحان، من كل النواحى العملية، فردين منفصلين. فإذا كنتم تقبلون ذلك ـ كنقطة نقاش ـ فنحن ما نتذكر."

يقول سايمون: "وربما أيضًا ـ على الأرجح ـ نحن ما ننسى."

يقول المبجل "ڤرينجر: فإذا كنت على حق، فماذا يحدث للــروح؟ لا يمكن أن نكون مجرد قطع متلاصقة! هذه فكرة مروعة، ولــو كانــت صحيحة فسوف تجعل من كل أفكار المســئولية الأخلاقيــة أمــرًا مثيــرًا للسخرية، والواقع من فكرة الأخلاق نفسها، بالشكل الذى نحددها به الآن."

يقول سايمون: "الصوت الآخر، أيًّا كان تصنيفه، كان واضحًا أنه يدل على العنف."

يقول المبجل ڤرينجر بجفاف: "لكن ليس بــدون منطــق معــين، وقدرة على الرؤية فى الظلام."

يتذكر سايمون يد ليديا الدافئة، ويحمر وجهه رغمًا عنه. وفى هذه اللحظة يتمنى أن يكون ڤرينجر فى قاع البحر.

يستمر دو پونت: "إذا كانتا شخصيتين، فلماذا لا نقول روحــين؟ أعنى إذا كان لابد أن نتكلم عن الروح فى هذا الموضوع. أو ثلاثــة أروح وأشخاص. فيما يتعلق بهذا الأمر، فكروا إذن فى الثلاثة المقدسة."

يقــول المبــجل ڤرينــجر، متجاهلاً هــذا التحــدى العقائــدى، "د. چوردان، ماذا ستقول عن هذا، فى تقريرك؟ من المؤكد أن إجــراءات هذه الأمسية لا يمكن وصفها بأنها قويمة من وجهة نظر طبية."

يقول سايمون: "لابد أن أحاول أن أفكر فى وضــعى بــاحتراس شديد، رغم أنك ترى أنه إذا كانت فرضية د. دو پونت مقبولة، فإن جريس ماركس تكون بريئة بالفعل."

يقول المبجل ڤرينجر: "إن التسليم بمثل هــذه الإمكانيــة ســوف تتطلب خطوة إيمانية قوية، وهى خطوة أنا نفسى سوف أصلى لكى تكــون

لدى القوة لاتخاذها، فقد كنت دائمًا أعتقد أن جريس بريئة؛ أو كنت أتمنى ذلك على الأصح، رغم أننى يجب أن أعترف بأننى صُدمت إلى حد ما. ولكن إذا كان ما شهدناه هنا هو ظاهرة طبيعية، فمن يمكننا أن نسأله عنها؟ إن الظواهر الطبيعية كلها فى الأساس ترجع إلى الله، ولابد أن له حكمته وأسبابه، مهما كانت هذه الحكمة والأسباب تبدو خفية وغامضة فى عيون البشر الفانين."

يسير سايمون عائدًا إلى البيت وحده. الليلة صافية ودافئة، وينيرها قمر يكاد يكتمل، ولكنه محبوس خلف سحابة من الضباب؛ وينتشر فى الهواء رائحة حشائش الحصاد والسماد الحيوانى، سماد الجياد، مع رائحة خفيفة من الكلاب.

طوال الأمسية احتفظ بقدر معقول ظاهريًا من التحكم فى النفس، لكنه الآن يشعر بعقله مثل أبو فروة المشوى، أو مثل حيوان على النار. عواء صامت يتردد فى داخله؛ عاطفة مشوشة ومحمومة، تعثر، اندفاع للأمام والخلف. ماذا حدث فى غرفة المكتبة؟ هل كانت جريس حقًا فى نوبة نوم، أم كانت تلعب وتمثل وتضحك فى كمها؟ إنه يعرف ما رآه وما سمعه، ولكن ربما عُرض عليه وهم لا يستطيع أن يثبت أنه وهم.

إذا وصف ما شهده فى تقريره، وإذا وجد التقرير طريقًا إلى أى لجنة موكولة بالنظر فى التماس من أجل جريس، فهو يعلم أن مثل هذا التقرير سوف يسحق أية فرص للنجاح. فممثلو العدالة فى هذه اللجنة، ومن على شاكلتهم ممن يقرأون مثل هذه الالتماسات؛ لديهم رأس صعبة المراس، رجال عمليون، يطلبون أدلة مادية. وإذا كان لمثل هذا التقرير أن يعرض على الرأى العام وكنوع من التسجيل، وتم تداوله على نطاق

واسع، سوف يصبح مصدر ضحك فورى، خاصة بين الأعضاء الراسخين فى مهنة الطب. وسوف تكون هذه هى نهاية خططه لبناء مصحة عقلية، فمن سوف يساهم فى مثل هذه المؤسسة، وهو يعلم أنها ستدار على يد شخص مهتز العقل مؤمن بالأصوات الروحية الغامضة؟

لا يمكن بأى حال أن يكتب التقرير الذى يريده ڤرينجر دون أن يحنث بقسمه الطبى. إن أسلم الطرق ستكون أن لا يكتب شيئًا على الإطلاق، ولكن ڤرينجر لن يتركه بهذه السهولة. ومع ذلك، فالحقيقة هى أنه لا يستطيع أن يقرر أى شىء بثقة مع قول الحقيقة فى نفس الوقت، لأن الحقيقة تغويه. أو الحق أن جريس نفسها هى التى تغويه. إنها تنزلق أمامه، على بعد قبضة منه، تدير رأسها لترى ما إذا كان لا يزال يتابع السير خلفها.

يصرفها عن رأسه بفظاظة، ويتحول للتفكير فى راشيل. فهى على الأقل شىء يمكن أن يجده، يمكن أن يمسكه. لن تنزلق من بين أصابعه.

البيت غارق فى الظلام؛ لابد أن راشيل نائمة. وهو لا يرغب فى رؤيتها، ولا يشعر برغبة فيها هذا المساء ــ على العكس تمامًا؛ التفكير فيها، فى توترها وجسدها بلون العظام، رائحة الكافور والبنفسج الذاوى التى تضعها، يملؤه ببعض الغثيان؛ لكنه يعلم أن ذلك كله سوف يتغير بمجرد أن يخطو على العتبة. يبدأ فى صعود السلالم على أطراف أصابعه، بنية تجنبها. ثم يستدير إلى الخلف، متجهًا إلى غرفتها، يهزها بخشونة ليوقظها. الليلة سوف يضربها، كما توسلت إليه أن يفعل؛ إنه لم يفعل ذلك أبدًا من قبل، إنه شىء جديد عليه. إنه يريد أن يعاقبها على إدمانه لها.

يريد أن يجعلها تبكى؛ ولكن ليس بصوت عال جدًا، وإلا فستسمعهما دورا، وتذيع الفضيحة. من العجيب أنها لم تسمعهما من قبل؛ فقد أصبحا أقل حذرًا بشكل متزايد.

يعلم أنه يصل إلى نهاية العرض المسرحى؛ نهاية ما يمكن أن تقدمه راشيل؛ نهايتها. ولكن ما الذى سوف يحدث قبل النهاية؟ والنهاية نفسها – أى شكل ستتخذه؟ لابد أن يكون هناك نوع من الخاتمة، نهاية ما. لا يستطيع أن يفكر. ربما، الليلة، يجب أن يمتنع.

يفتح الباب بمفتاحه، يفتحه بهدوء بقدر ما يستطيع. إنها هناك؛ بالداخل مباشرة؛ تنتظره فى الصالة، فى الظلام، فى ثوبها الفضفاض، الذى يومض قليلاً فى ضوء القمر. تلوح بذراعيها وتلقيهما حوله وتجذبه إلى الداخل، وهى تحتضنه. جسدها يرتعش. ينتابه شعور ملح بالرغبة فى دفعها بعيدًا عنه، كما لو كانت شبكة عنكبوت على وجهه، أو خيوطًا منثورة متشابكة من الجيلى. لكنه بدلاً من كل هذا يقبلها. وجهها مبلل؛ لقد كانت تبكى. إنها تبكى الآن.

يهمهم: "هش،" وهو يربت على شعرها. "كفى، يا راشيل". هذا هو ما كان يتمنى أن تفعله جريس – هذا الارتعاش والالتصاق، لقد تصور هذا كثيرًا جدًا، على الرغم من أن تصوراته – هذا ما يكتشفه الآن – كانت تتسم بطريقة مسرحية مريبة. هذه المشاهد كانت دائمًا واضحة بمهارة، الإيماءات – لقد ضمنها – تواقة ورائعة، مع نوع من الارتعاش المترف، كما فى مشاهد الموت فى الباليه. هذا الأسى الذائب أقل جاذبية بكثير إذ يجد نفسه الآن فى الواقع مضطرًا لمجاهدته عن قرب وبلحمه

وشحمه. مسح العينين الشبيهتين بعينى الظبى شىء، ومسح الأنف الشبيه بأنف الظبى شىء آخر تمامًا. يبحث عن منديل جيبه.

"إنه عائد"، تقول راشيل ذلك فى همس يقطع القلب. "لقد وصلتنى رسالة منه". وللحظة يجد سايمون أن ليس لديه أية فكرة عمن تتحدث. ولكن بالطبع إنه الميجور. لقد شحنه سايمون، فى خياله، إلى أغوار بيت من بيوت الفساد أو ما شابه، ثم نسيه.

تتنهد قائلة: "أوه، ماذا سيحدث لنا؟" ولا تقلل ميلودرامية التعبير مما يحمله من عاطفة، على الأقل بالنسبة لها.

يهمس سايمون: "متى؟"

تنشج: "لقد كتب لى رسالة، يقول أننى لابد أن أسامحه. يقول أنه قد انصلح حاله ـ ويريد أن نبدأ حياة جديدة ـ هذا ما يقوله دائمًا. والآن سأفقدك ـ هذا ما لا أحتمله!" يهتز كتفاها، ويزداد تشنج ذراعيها وإحكامهما حوله.

يسأل سايمون مرة أخرى: "متى سيأتى؟" هذا المشهد اعتاد أن يتخيله، بوخز خوف ممتع ـ هو فى حالة جنس مع راشيل ـ والميجور يظهر عند الباب، وهو مملوء بالغضب وسيفه مجرد ـ يعود بحيوية جديدة.

تقول راشيل بصوت مخنوق: "بعد يومين، بعد الغد.. مساء، بالقطار."

يقول سايمون: "تعالى"، ويقودها عبر الصالة إلى غرفة نومها. والآن وهو يعلم أن هربه منها ليس فقط ممكنًا، بل ضرورى، يشعر برغبة

قوية فيها. تشعل شمعة؛ إنها تعرف ذوقه. الساعات الباقية لهما قليلة؛ الاكتشاف يلوح من بعيد؛ يقال إن الخوف والهلع يسرعان ضربات القلب ويجعلان الرغبة أكثر قوة. يضع لنفسه ملحوظة عقلية ـ هذا صحيح ـ فهو ربما لآخر مرة يدفعها إلى الخلف على الفراش، ويقع عليها بثقله، وينقب بين طبقات القماش.

تهمهم: "لا تتركنى، لا تتركنى وحدى معه! إنك لا تعرف ما سيفعله بى!" إن شعورها بالألم حقيقى هذه المرة. "إننى أكرهه! يا ليته يموت!"

يهمس سايمون: "هش، دورا قد تسمع." وتقريبًا يأمل أن تسمع دورا، فهو يشعر فى هذه اللحظة أنه فى أشد الحاجة إلى جمهور. يرسم حول السرير جمعًا وهميًا من المشاهدين؛ ليس فقط الميجور، ولكن أيضًا المبجل ڤرينجر، وجيروم دو يونت، وليديا، وفوق كل هؤلاء، جريس ماركس. إنه يريدها أن تشعر بالغيرة.

تتوقف راشيل عن الحركة. عيناها الخضراوان مفتوحتان، وتنظر مباشرة فى عينى سايمون. تقول: "ليس من الضرورى أن يعود". حدقتا عينيها كبيرتان، والبؤبؤان فيهما مجرد ثقبى دبوس؛ هل كانت تتناول الأفيون ثانية؟ "يمكن أن تحدث له حادثة. إذا لم يره أحد. يمكن أن تحدث له حادثة، فى البيت؛ ويمكنك أن تدفنه فى الحديقة". ليس هذا الكلام مرتجلا وليد اللحظة، لابد أنها كانت ترسم خطة. "ولا يمكن أن نبقى هنا، فقد يجدونه. يمكننا أن نعبر إلى الولايات. فى القطار! سنكون معًا. ولن يجدونا أبدًا!"

يضع سايمون فمه على فمها، ليسكتها. وتظن أن هذا معناه موافقته. تتنهد: "أوه، يا سايمون، كنت أعرف أنك لن تتركنى أبدًا! إننى أحبك أكثر من حياتى!" تملأ وجهه بالقبلات؛ وتصير حركاتها شديدة العصبية.

هذا سيناريو آخر من سيناريوهاتها لاستدرار العطف، لنفسها فوق كل شيء. يحاول سايمون وهو يستريح إلى جوارها بعد ذلك أن يتصور ما لابد أنها كانت تتخيل. شيء أشبه بالروايات المروعة من الدرجة الثالثة، آينزوورث، أو بولويرليتون في أقصى ما يكتبانه من تعطش للدماء والابتذال: يترنح الميجور ثملاً عند الدرجات الأمامية، وحده، فى الغسق، ثم يدخل الصالة الأمامية، راشيل هناك، يضربها، ثم ينشب أظافره فى هيكلها المرتعد بلهفة بلهاء من الثمالة. تصرخ وتتوسل طالبةً الرحمة، يضحك هو ضحكة شيطانية. لكن الإنقاذ جاهز: ضربة حادة بالجاروف، تنزل على رأسه من الخلف. يقع محدثًا صوتًا مكتومًا على الأرضية الخشبية، ثم يُجر من كعبيه إلى المطبخ عبر الطرقة، حيث تنتظر حقيبة سايمون الجلدية. قطع حاد فى الوريد الودجى بالعنق بسكين جراحية؛ ويقرقر الدم متدفقًا في جردل فضلات؛ وينتهى كل شيء. بعض الحفر فى ضوء القمر، ثم يرقد فى حوض الكرنب، وراشيل واقفة ترتدى شالاً جذابًا وتمسك بمصباح خافت الضوء، وتقسم أنها سوف تكون له إلى الأبد بعد أن خاض كل هذا من أجلها.

ولكن ها هى دورا، ترقب من باب المطبخ. لا يمكن تركها تهرب، يطاردها سايمون فى أنحاء البيت، ويحاصرها فى الأوفيس، ويقطعها مثل الخنزير، وراشيل ترتعد ويغمى عليها، ولكن تعود لتتماسك

مثل بطلة حقيقية وتسرع إلى مساعدته. ودورا بحاجة إلى مزيد من الحفر، حفرة أعمق، يتلوها مشهد طقسى عربيد على أرض المطبخ.

هذا كثير على مهزلة منتصف الليـل. ثم ماذا؟ سـيكون قـاتلاً، ولا شاهد إلا راشيل. سيتزوجها، ويصبح سجينها الأبدى، وهو ما تريـده. لن يكون حرًا أبدًا. ولكن ها هو الجزء الذى لم تستطع أن تتخيله: مـا أن يصبحا فى الولايات، سوف تتخفى باسم مستعار. ستكون بلا اسم. ستكون امرأة مجهولة، من نوع كثيرًا ما يجدونه طافيًا فى القنوات أو غيرها مـن المجارى المائية: *العثور على امرأة مجهولة طافية فى قناة*. من يمكـن أن يرتاب فيه؟

ما الطريقة التى سوف يستخدمها؟ فى الفراش، فى لحظة النشوة، يلتف شعرها حول رقبتها، لا يحتاج إلا ضغطة خفيفة، لها رعشة أكيـدة، وتتناسب مع جنس المرأة.

لابد أنها ستنسى كل هذا فى الصباح. يتحول إليها مـرة ثانيـة، ويعدلها. ويربت على رقبتها.

يوقظه ضوء الشمس؛ إنه لا يزال بجوارها، فى سـريرها. لقـد نسى أن يرجع إلى غرفته فى الليلة الماضية، ولا عجب، فقد كان مجهدًا. ويسمع دورا من المطبخ، تقعقع وتخبط خبطات مكتومة. ترقد راشيل على جنبها، مستندة على ذراع واحد، تراقبه؛ عارية، ولكن تلف نفسها بالملاءة. هناك كدمة أعلى ذراعها لا يذكر أنه تسبب فيها.

يقوم جالسًا. يهمس: "لابد أن أذهب، سوف تسمعنا دورا."

تقول: "لا يهمنى!"

"ولكن سمعتك ..."

تقول: "لا تهم، فلن نبقى هنا إلا يومين آخرين". نغمة صوتها عملية، تنظر للأمر وكأنه قد تم الاتفاق، مثل عقد من عقود البيزنس. ويطرأ له ـ ولماذا لأول مرة؟ ـ أنها يمكن أن تكون مجنونة، أو على وشك الجنون؛ أو مجردة من الأخلاق على أقل تقدير.

يزحف سايمون صاعدًا السلم، حاملاً حذاءه وجاكتته، مثل تلميذ شقى عائد من حفلة صاخبة. يشعر ببرودة ثلجية. إن ما رآه نوعًا من التمثيل، تأخذه هى على أنه واقع حقيقى. أتظن حقًّا أنه، هو سايمون، سوف يقوم بقتل زوجها، وبسبب حبه لها؟ ماذا ستفعل إذا رفض؟ إن رأسه تدور كالدوامة؛ والأرض تبدو تحت قدميه غير حقيقية، كما لو كانت على وشك أن تتلاشى.

قبل الإفطار يبحث عنها. يجدها فى الردهة الأمامية، جالسة على أريكة؛ تقوم وتحييه بقبلة حارة. ينتزع سايمون نفسه، ويخبرها بأنه مريض؛ لقد عاودته حمى الملاريا، والتى سبق أن أصيب بها فى باريس. وإذا كان لهما أن يحققا ما ينويان ـ يضع الأمر بهذه الطريقة لينزع عنها دروعها ـ فيجب أن يتناول الدواء المناسب لها، فى الحال، وإلا فهو لا يستطيع أن يحسب العواقب.

تتحسس جبهته، وهو الأمر الذى احتاط له بترطيب جبهته بإسفنجة قبل نزوله. وتشعر بجدية المسألة، إلا أن هناك نغمة تحمل بعض الابتهاج أيضًا: فهى تستعد لتمريضه، لتوريط نفسها فى دور جديد. ويمكنه أن يرى ما فى عقلها: سوف تصنع له طعامًا مغذيًّا وأنواعًا من الجيلى، سوف تلفه فى البطانيات والمستردة، سوف تضمد أى جزء منه يبدو

خارجًا أو يحتمل منه ذلك. فسوف يكون ضـعيفًا، سـوف يكـون واهنـا وبحاجة إلى المساعدة، سوف يكون ملكًا كاملاً لها: هذا هو هدفها. يجـب أن ينقذ نفسه منها، لا يزال هناك وقت.

يقبل أطراف أصابعها. يقول برقة أنها يجب أن تساعده. فحياتـه تتوقف عليها. يضع فى يدها ورقة تحوى ملحوظة، موجهة إلـى زوجـة المحافظ، يطلب فيها اسم طبيب، حيث لا يعرف أحدًا فى المنطقة. فمـا أن تحصل على الاسم، يجب أن تسرع إلى هذا الطبيب، وتجلب الدواء منـه. وقد كتب الوصفة الطبية، بخط صعب غير مقروء؛ يعطيها النقود اللازمة. ويقول لها إن دورا لا يمكن لها أن تقوم بذلك، فلا يمكن الوثوق بسـرعة حركتها. الوقت عامل جوهرى: فهذا العلاج يجب أن يبدأ فـورًا. تـومئ برأسها، فهى تفهم: تقول له بحماس طاغ أنها سوف تفعل أى شيء.

تضع قبعتها على رأسها وتسرع، بيضاء الوجه وترتعـد، ولكـن شفتيها مزمومتان بإصرار. وبمجرد أن تغيب عن ناظريه، يجفف سايمون وجهه ويبدأ فى حزم أمتعته. يرسل دورا لتأجير عربة، بعـد أن يرشـوها ببقشيش سخى. وفى انتظار عودتها يكتب رسالة لراشيل، يودعهـا فيهـا وداعًا مهذبًا، متعللاً بصحة والدته. ولا يخاطبها باسم راشـيل. ويضـمن الرسالة مبلغًا من النقود، ولا يضمنها أية ألفاظ تدل على المحبة. إنه رجل محنك، ولا يمكن إيقاعه فى الفـخ بهذه الطريقـة، ولا ابتزازه أيضًا: فهو لم يبذل لها وعدًا يمكن أن يقيده فى حالة موت زوجها. ربما تقتل الميجور بنفسها، فهى قادرة على ذلك وأكثر.

يفكر فى كتابة مذكرة لليديا أيضًا، لكنه يعدل عن ذلك. من حسن الحظ أنه لم يتقدم إليها بشكل رسمى.

تصل العربة ــ التى كانت أكثر شبهًا بالكاريتة ــ ويقذف بحقيبتى سفره إليها. ويقول: "إلى محطة القطار". بمجرد أن يبتعد بشكل آمن، سوف يكتب إلى ڤرينجر، ويعده بتقرير من نوع ما، طالبًا مهلة. وربما رغم كل شىء يستطيع أن يدبج شيئًا، شيئًا لا يفقده مصداقيته العلمية بالكامل. ولكن أهم من كل شىء أنه لابد أن يضع هذا الفصل الإضافى من وجوده فى كينجستون وراء ظهره. بعد زيارة سريعة لوالدته، وإعادة ترتيب اقتصادياته، سوف يذهب إلى أوروبا. وإذا استطاعت أمه أن تتدبر أمرها بدخل أقل ــ وسوف تستطيع ــ يمكن أن يدبر نفقات الرحلة.

ولا يبدأ سايمون فى الشعور بالأمان حتى يجد نفسه فى عربة القطار، والأبواب مغلقة جيدًا. ويشعر عند ظهور سائق القطار، فى زيه الرسمى، بمزيد من الثقة، وبأن النظام يعود إلى تأكيد نفسه بشكل ما.

ما أن يكون فى أوروبا، سوف يستكمل أبحاثه. سوف يدرس مدارس الفكر العديدة المنتشرة، ولكنه لن يتمكن من الإضافة إليها؛ ليس بعد. لقد ذهب إلى عتبة اللاوعى، ونظر عبرها؛ أو الأصح أنه نظر لأسفل. كان يمكن أن يقع. كان يمكن أن يقع فيها. كان يمكن أن يغرق.

ربما يكون من الأفضل ترك النظريات، والتركيز على الطرق والوسائل. عندما يعود إلى أمريكا سوف يحث نفسه على العمل. سوف يعطى محاضرات، سوف يجتذب مشاركين. سوف يبنى مصحة نموذجية، أرضياتها منفذة بشكل جيد، وبأحسن وسائل الوقاية الصحية والصرف. إن ما يفضله الأمريكيون قبل كل شىء هو مظاهر الراحة، فى أى نوع من المؤسسات على الإطلاق. إن مصحة ذات غرفات واسعة مريحة، ووسائل العلاج المائى، وأدوات ميكانيكية كثيرة وجيدة، يمكن أن تؤدى الغرض

بشكل ممتاز. وينبغي أن يكون ثمة عجلات صغيرة تلف محدثة طنينًا، ولابد أن يكون هناك علاج بالحجامة. وأسلاك لتوصيلها بالرأس. وأجهزة قياس. سوف يدخل كلمة "كهربى" فى نشرة المشروع. فالأمر الرئيسى يجب أن يكون الحفاظ على نظافة المرضى وسهولة انقيادهم ـ يمكن أن تساعد الأدوية فى ذلك ـ كما يجب الحفاظ على إعجاب ورضا أقاربهم. وكما فى مدارس الأطفال، ليس المطلوب هو التأثير على النزلاء، وإنما على من يدفعون الفواتير.

سيكون كل ذلك حلاً وسطًا. ولكنه الآن، ويبدو ذلك له فجأة، قد وصل إلى السن المناسب لذلك.

يتحرك القطار خارجًا من المحطة. ثمة سحابة من الدخان الأسود، ثم عويل كئيب مطول، يتبعه مثل شبح مرتبك يجد فى أثره ولا يصل إليه على طول القضبان.

ولا يسمح لنفسه بالتفكير فى جريس حتى يكون فى منتصف الطريق إلى كورنوول. هل ستظن أنه تخلى عنها؟ ربما فقد الثقة بها؟ إذا كانت حقيقة تجهل أحداث المساء الماضى فسوف يكون تفكيرها بهذه الطريقة مبررًا. سوف تكون مسحورة به، كما كان مسحورًا بها.

لا يمكن أن تكون قد عرفت بعد أنه غادر المدينة. يتصورها جالسة فى مقعدها المعتاد، تخيط فى غطائها؛ ربما تغنى؛ تنتظر صوت خطواته عند الباب.

بالخارج بدأت السماء تمطر رذاذًا. بعد قليل تهدهده حركة القطار حتى ينام؛ يسقط مستندًا على الجدار. والآن يرى جريس قادمة تجاهه عبر مرجة خضراء واسعة يغمرها ضوء الشمس، فى رداء أبيض، على

ذراعها باقة كبيرة من الورود الحمراء، ورود واضحة للغاية حتى أنه يمكن أن يرى قطرات الندى عليها. شعرها مرسل، قدماها عاريتان؛ وتبتسم. ثم يرى أنها تسير، لا على الحشائش، وإنما على ماء؛ وعندما يحاول أن يمد ذراعيه ليحتضنها، تختفي مثل الضباب.

يستيقظ؛ لا يزال في القطار، والدخان الرمادي يهب عبر النافذة. يضغط فمه على الزجاج.

الفصل الرابع عشر

الحرف المجهول

أول أبريل، ١٨٦٣. كانت المذنبة جريس مــاركس مدانـــة بارتكاب جريمة قتل مزدوجـــة، أو، هــل يمكــن أن أقــول (جريمة قتل قدرية). وكانت جرأتها وصفاقتها دلـيلاً علـــى أنها ليست شخصًا حساسًا كما أن عدم إظهارهــا الامتنــان يعتبر دليلاً مقنعًا على ميولها المؤسفة.

أول أغسطس، ١٨٦٣. هذه المرأة التعسة أصبحت مخلوقًا خطرًا، وأخشى أشد الخشية أنها سوف تظهر المزيــد مـــن التصرفات الخطيرة. ولسوء الحظ، أن لديها من يساعدونها ويؤيدونها. ولكنها ما كانت لتجرؤ على الكــذب كما تفعــل إلا لأنها تلقى مثل هؤلاء المساندين بالقرب منها.

الدفتر اليومى لمأمور الإصلاحية الإقليمية ، كينجستون . غرب كندا، ١٨٦٣

... إن سلوكها النموذجى طوال ثلاثين عامًا من وجودهـــا فى الإصلاحية، والذى قضت القسم الأخير منه موضع ثقة كعاملة فى منزل المحافظ، وحقيقة أن عددًا كبيــرًا جـــدًا

من السادة ذوى النفوذ فـــى كينجســتون يعتقــدون أنـهــا تستحق، عن جدارة، الحصول على عفو، كل ذلـــك يؤكـــد وجود شكوك فى غاية القوة فيما يتعلق بوصـــفها بأنـهــا تجسيد أنثوى شيطانى بشع، وهو ما حاول مكـــدرموت أن يجعل العامة يصدقون أنـها كذلك،

ويليام هاريسون،

"Recollections of Kinnear Tragedy,"

كتبت لصحيفة *New Market Era*، ١٩٠٨

رسائلى، أوراق ميتة، صامتة، وبيضاء!

إلا أنـها تبدو حية حتى لتكاد ترتعش

تحت يدى المرتعدتين اللتين تفكان عنـها الخيط ...

إليزابيث باريت براوننج

Sonnets from the Portguese, 1850

- ٥٠ -

إلى مسز س. د. همفرى؛ من د. سايمون

چوردان، كينجستون، غرب كندا.

١٥ أغسطس ١٨٥٩:

عزيزتى مسز همفرى،

أكتب إليك فى عجلة، حيث استدعيت للعودة على عجل بسبب أمر عائلى ملح ولا مفر من أن أستجيب له فى الحال. فوالدتى العزيزة تعانى من انهيار لا يعلم عاقبته إلا الله، فى صحتها المعتلة باستمرار، وهى الآن على أبواب الموت. إننى أدعو أن يكون لدى الوقت الكافى للوصول إليها فى لحظاتها الأخيرة.

وأعتذر إليك إذ لم أستطع أن أودعك بنفسى، وأشكرك على عنايتك الكريمة بى فى الوقت الذى قضيته مستأجرًا فى بيتك؛ ولكنى أثق أنك، بما تحملينه من حساسية المرأة وطيبة قلبها، سوف تقدرين بسرعة ضرورة رحيلى العاجل. ولا أعرف كم من الوقت سوف أتغيب، أو فى الواقع إذا كان يمكن لى العودة إلى كينجستون فى يوم من الأيام. فإذا

توفيت أمي، سوف يحتاجون لي للعناية بشئون العائلة؛ وإذا أبقاها الله لنا إلى حين، فإن مكاني سوف يكون إلى جوارها. فهي التي ضحت كثيرًا من أجل ابنها، ولابد أنها تستحق بعض التضحية منه في المقابل.

إن عودتي إلى مدينتك في المستقبل هي أمر غير محتمل في الغالب الأعم، ولكني سوف أحتفظ دائمًا بذكرى أيامي في كينجستون ـ وهي ذكريات تمثلين فيها جزءًا له اعتباره. إنك تعلمين كم أعجب بشجاعتك في وجه المحن، وكم أحترمك؛ وأرجو أن تجدي في قلبك نفس المشاعر نحو،

المخلص،

سايمون چوردان.

ملحوظة: في الظرف المرفق تركت لك قدرًا من النقود أظن أنه سوف يكفي لتغطية أية حسابات صغيرة باقية بيننا.

ملحوظة أخرى: أثق أن زوجك سوف يعود إليك في القريب العاجل.

من مسز ويليام ب. چوردان، لابورنام هاوس، لوميسڤيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية؛ إلى مسز س. د. همفري، شارع لوار يونيون، كينجستون، غرب كندا.

٢٩ سبتمبر، ١٨٥٩

عزيزتى مسز همفرى

إننى أعطى لنفسى حرية التصرف بإعادة الرسائل السبع المرسلة منك والموجهة إلى ابنى العزيز، والتى تراكمت هنا فى غيابه؛ وقد فتحت الرسائل خطأ من قبل خادمتى، وهو ما يوضح سبب وجود خاتمى عليها، بدلاً من خاتمك.

ابنى فى الوقت الحاضر يقوم بجولة فى المصحات والعيادات العقلية الخاصة فى أوروبا، وهو بحث هام وضرورى للعمل الذى يرتبط به ــ وهو عمل فى غاية الأهمية، سوف يخفف من معاناة البشر، ولا يجب أن يقاطع لأى اعتبار أقل أهمية، مهما كانت هذه الاعتبارات تبدو ملحة فى عيون الآخرين، الذين لا يفهمون أهمية رسالته. ولأنه يسافر باستمرار، فلم يكن من الممكن أن أوجه رسائلك إليه؛ وأنا أعيدها إليك الآن، بفرض أنك قد ترغبين فى معرفة أسباب عدم الرد؛ رغم أننى أرجو أن تعتبرى أن عدم الرد فى حد ذاته هو رد.

لقد أشار ابنى إلى أنك ربما تحاولين القيام بمحاولة لاستعادة علاقتك به؛ ورغم أنه لم يفصح بشكلٍ واضح، إلا أننى لست شخصية جاهلة، ولا منقطعة عن العالم حتى لا أفهم ما بين السطور. فإذا أردت نصيحة صريحة وخالصة النيّة من سيدة عجوز، اسمحى لى أن أعلق بأنه بالنسبة للرباط الأبدى بين الجنسين، فإن التناقضات فى العمر والاعتبارات المادية لابد أن تكون حاسمة؛ ولكن يمكن أن نعرف أيضًا مدى أهمية وحسم التناقضات فى النظرة الأخلاقية. إن السلوكيات المتسمة بالاندفاع والطيش يمكن فهمها من امرأة فى ظروف مثل

ظروفك ـ إننى أفهم تمامًا مدى كراهة أن تكون المرأة جاهلة بمكان وجود زوجها؛ ولكن يجب أن تكونى على علم بأنه فى حالة وفاة مثل هذا الزوج، فلن يكون هناك رجل يتمسك بالمبادئ يرضى بأن يتزوج من امرأة تطلعت إلى مثل هذا الزواج قبل الأوان. فالرجال بطبيعتهم، وبما وضعته فيهم العناية الإلهية من مشاعر، لديهم ميل ما لبعض التحرر فى تصرفاتهم؛ ولكن الإخلاص لقسم الزواج هو بكل تأكيد المطلب الرئيسى فى أى امرأة.

فى الفترة الأولى بعد وفاة زوجى، وجدت أن القراءة اليومية فى الإنجيل أمر مريح ومهدئ للعقل؛ وبعض أشغال الإبرة الخفيفة أيضًا تساعد فى شغل البال. بالإضافة إلى هذين النوعين من العلاجات، ربما يكون لديك صديقة محترمة، يمكن أن تريحك فى حالة الاكتئاب والأسى دون أن ترغب فى معرفة الأسباب. إن ما يتردد من كلام الناس ليس دائمًا معادلاً للواقع؛ ولكن بالنسبة لسمعة المرأة، ترتفع أهميته إلى هذه الدرجة. ومن المستحسن فعل كل ما من شأنه الحفاظ على هذه السمعة، وذلك بعدم إشاعة مدى تعاسة المرأة بالخارج حيث يمكن أن تتحول إلى موضوع للنميمة المغرضة؛ ولإنجاز هذه الغاية، من الحكمة تجنب التعبير عن مشاعر المرء فى الرسائل التى يتناولها رجال البريد، وربما تقع فى أيدى أشخاص يشعرون بإغراء قراءتها بدون علم المرسل.

مسز همفرى، أرجو أن تتقبلى المشاعر التى عبرت عنها بروح رغبة صادقة فى خير مستقبلك، والتى قدمتها لك،

المخلصة

(مسز) كونستانس چوردان

من جريس ماركس، الإصلاحية المحلية،

كينجستون، غرب كندا؛ إلى د. سايمون چوردان

١٩ ديسمبر ١٨٥٩

عزيزى د. چوردان

أكتب إليك بمساعدة كلارى، التى كانت دائمًا صديقة لى، وأحضرت لى هذه الورقة، وسوف ترسلها بالبريد عندما يحين الوقت مقابل مزيد من المساعدة فى أعمال الدانتيلا والصباغة. المشكلة هى أننى لا أعرف أين أرسلها، إذ أننى أجهل أين ذهبت. ولكنى إذا عرفت، فسوف أرسل هذه الرسالة. أرجو أن تتمكن من قراءة خطى، حيث أننى غير معتادة على الكتابة، ولا أستطيع أن أجد إلا القليل من الوقت لأكتب كل يوم.

عندما سمعت برحيلك المفاجئ السريع، ودون إرسال أية كلمة لى، شعرت بحزن كبير، لأننى ظننت أنك لابد أن تكون مريضًا. ولم أفهم السبب فى أن ترحل دون توديع، بعد كل الكلام الذى كنا نقوله معًا؛ وقد وقعت مغمى على تمامًا فى الصالة فى الطابق الأعلى، وأصيبت خادمة الغرف بحالة ذعر، وقذفتنى بفازة مليئة بالزهور، الماء والفازة وكل شيء، وقد أعادنى ذلك إلى حواسى بسرعة، رغم كسر الفازة. لقد ظننت أننى سوف تعود لى النوبات، وسوف أعود إلى الجنون مرة أخرى؛ ولكن لم تكن هذه هى الحالة، وقد تمكنت من الاحتفاظ

برباطة جأشى جيدًا، إنما كانت صدمة سماع الأمر بهذه الطريقة المفاجئة، وخفقان القلب بسرعة وهو الأمر الذى طالما عانيت منه. وقد أصبت بجرح بليغ فى رأسى بسبب الفازة، ومن المدهش أن تتدفق كل هذه الكمية الكبيرة من الدم من جرح فى الرأس، حتى لو كان جرحًا سطحيًّا.

شعرت بتعاسة لذهابك، فقد كنت أستمتع بجلسات الحديث بيننا؛ ولكنهم قالوا أيضًا أنك كنت بسبيلك لأن تكتب رسالة إلى الحكومة حول حالتى، لكى يفرج عنى، وخشيت أنك لن تفعل ذلك أبدًا. فلا شىء يصيب باليأس مثل خلق الإحساس بالأمل ثم قطعه مرة أخرى، إن هذا أسوأ تقريبًا من أن تكون الآمال غير موجودة بالأساس.

إننى آمل كثيرًا أن تكون قادرًا على كتابة هذه الرسالة من أجلى، وسوف أكون شاكرة جدًّا على ذلك، وأرجو أن تكون بخير حال،

من،

جريس ماركس

من د. سايمون ب. چوردان، عناية د.

بينسوانجر، بيليف، كروتسلينجر، سويسرا، إلى

د. إدوارد مورتشى، دورشتستر، ماساتشوستس،

الولايات المتحدة الأمريكية.

١٢ يناير ١٨٦٠

عزيزى إد

سامحنى لأننى أخذت كل هذا الوقت لأكتب إليك، ولأعرفك بتغيير عنوانى. والواقع أن أشياء كثيرة كانت فى حالة تشوش بطريقة ما، وقد أخذت وقتًا طويلاً لأستعيد نفسى. وكما قال بيرنز: "سواء كنت رجلاً أو فأرًا، فإن أفضل الخطط التى تضعها تنتهى إلى الفشل"، وقد اضطررت للإسراع بالهروب من كينجستون حيث وجدت نفسى فى ظروف معقدة كان يمكن أن تكون بسرعة تحطيمًا تامًا، لى ولمستقبلى. وفى يوم من الأيام، سوف أحكى لك القصة بالكامل ونحن جالسان نحتسى كأسًا من الشيرى؛ رغم أنها لا تبدو لى الآن قصة، وإنما حلمًا مزعجًا.

ومن بين عناصر هذه القصة حقيقة أن دراستى لجريس ماركس قد اتخذت منعطفًا غريبًا فى النهاية، حتى أننى من الصعب أن أقرر إذا ما كنت أنا نفسى مستيقظًا أم نائمًا. عندما أفكر بالآمال العالية التى وضعتها على هذه المهمة ـ عازمًا، أؤكد لك، على كشوف عظيمة يمكن أن تدهش العالم، فالآن لدى كل أسباب اليأس. ولكن، هل كانت حقًا آمالاً عظيمة، وليست مجرد طموح للبحث عن الذات؟ إننى من موقفى هنا، وأنا أنظر إلى الأمر ككل، لا أستطيع أن أشعر بثقة من أى شىء؛ ولكن إذا كان الأمر هو مجرد طموح ذاتى، فربما أكون قد حصلت بالفعل على مقابل جيد، لأننى فى الموضوع كله، ربما أكون قد شُغلت بما يشبه مطاردة الإوز البرى، أو الجرى خلف الأشباح بلا طائل، وقد كدت أن

أصل إلى إفساد عقلى نفسه، فى محاولاتى المثابرة لفتح انغلاق عقل آخر. ومثل سميى، سايمون الرسول، فقد ألقيت بشباكى فى مياه عميقة؛ إلا أن الفرق بينى وبينه هو أننى سحبت شباكى لأجد فيها حورية بحر، لا من السمك، ولا من البشر، وإنما من الاثنين معًا، ولها أغنية رائعة ولكنها خطرة.

لا أعرف إذا كان لى أن أرى نفسى ضحية خديعة من حيث لا أدرى، أو ما هو أسوأ، أننى خدعت نفسى؛ ولكن حتى هذه الشكوك قد تكون أوهامًا، وربما كنت طوال الوقت أتعامل مع امرأة بها براءة شفافة متناهية لدرجة لم أستطع أن أجد الشجاعة على الاعتراف بها. لابد أن أعترف ــ ولكن لك وحدك ــ أننى أصبحت على حافة الإنهاك العصبى بسبب هذا الموضوع. لا أعرف ــ هل أستجيب إلى التلميحات والنذر، أو أنتبه للتنويهات، والهمسات المغوية بإدراك ما لا يمكن إدراكه ــ إنه أمر أسوأ من أن تلاحقك الأشباح. أحيانًا فى الليل يتراءى لى وجهها فى الظلمة مثل سراب جميل ولكنه غامض وملغز.

ولكن اعذرنى على استطرادات عقلى المريض. لا يزال لدى ما يلمح إلى كشف ما، كشف كبير. ولكن إذا استطعت أن أرى طريقى واضحًا، رغم أننى حتى الآن لا أزال أتجول فى العتمة، لا يقودنى إلا ضوء باهت.

وإليك بعض الأشياء الأكثر إيجابية: العيادة هنا تدار بطرق شديدة النظافة والكفاءة، ونقوم باستكشاف طرائق متعددة ومختلفة للعلاج،

ومن ضمنها العلاج بالماء؛ وربما تصبح نموذجًا لمشروعى الخاص، إذا كان لهذا المشروع أن يثمر فى يوم من الأيام. وقد تلقانى د. بينسوانجر بكرم ضيافة بالغ، ومكننى من التعامل مع بعض الحالات المثيرة للاهتمام هنا. وما يجعلنى أشعر براحة كبيرة، أنه لا يوجد قاتلات مشهورات بينهم، ولكن فقط ما يصفه د. ووركمان القدير، من تورنتو، بقوله "المجنون البرىء"، وكذلك الناس العاديين الذين يعانون من المتاعب العصبية، ومدمنى الخمر، ومرضى الزهرى؛ رغم أنه بالطبع لا يجد المرء نفس الإصابات بين الموسرين كما بين الفقراء.

أسعدنى للغاية ما سمعته من أنك سوف تسعد العالم بنسخة مصغرة منك، من خلال مكتب الخدمة الكريم لزوجتك المحترمة، أرجو أن تبلغها خالص تقديرى. لابد أنه من المريح للغاية أن يكون لديك حياة عائلية مستقرة، مع امرأة جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد على قدرتها فى توفير هذه الحياة! والواقع أن الهدوء والاستقرار فى الحياة أمر لا يحظى بالتقدير الكافى بين الرجال، إلا عند هؤلاء الذين يفتقدونه. ولذا فإننى أحسدك!

أما بالنسبة لى، فإننى أخشى أنه قدر على أن أتجول على وجه الأرض وحدى، مثل إحدى شخصيات بايرون الطريدة الحزينة المكتئبة، رغم أن روحى المعنوية سوف ترتفع كثيرًا يا صديقى العزيز، إذا تمكنت مرة أخرى من لقائك ومصافحة يدك الصديقة الحقيقية. وقد تأتى هذه الفرصة قريبًا، فقد فهمت أن الآمال تتناقص أمام توقعات التوصل إلى

حل سلمى للخلافات بين الشمال والجنوب، وأن الولايات الجنوبية تتحدث بجدية عن الانفصال. وفى حالة نشوب القتال، فسيكون واجبى نحو بلادى واضحًا. وكما يقول تنيسون بطريقته التى يستعير فيها من النبات ومشتقاته: لقد آن الأوان لاقتلاع "زهرة الحرب الحمراء الدموية". ونظرًا لحالتى الحاضرة من الإجهاد والصخب العقلى، فسوف يكون من المريح لى أن أجد أمامى واجبًا ملحًّا من نوع ما، مهما كان فى أسبابه يدعو للحزن والرثاء.

صديقك المحب، صاحب العقل المتورم المتعب،

سايمون

من جريس ماركس، الإصلاحية المحلية،
كينجستون، إلى سنيور جيرالدو بونتى، سيد
التنويم العصبى، والقادر على الكلام من الباطن،
وقارئ العقول البارع؛ عناية مسرح أمير ويلز،
شارع كوين، تورنتو، غرب كندا.

٢٥ سبتمبر ١٨٦١

عزيزى چيرميا

كان عرضك موجودًا على ورقة إعلان، وأحضرت دورا واحدة وعلقتها على جدار المغسلة لتبعث فيها بعض الحياة؛ وقد عرفت على الفور أنه أنت، رغم أنك اتخذت اسمًا آخر وأرسلت لحيتك حتى أصبحت طويلة وكثيفة جدًّا. وقد رأى أحد الرجال المحترمين الذين يهتمون بالآنسة ماريان العرض عندما كان فى كينجستون، وقال إن التنبؤ بالمستقبل فى حروف من نار كان عرضًا من الدرجة الأولى، ويستحق الثمن الذى دفع لمشاهدته، وأن سيدتين أغمى عليهما؛ وقال إن لحيتك كانت حمراء مشرقة. ومن ثم فإننى أظن أنك قد صبغتها، إلا إذا كانت لحية مستعارة.

لم أحاول أن أتصل بك حينما كنت فى كينجستون، لأن ذلك قد ينتج عنه مشاكل إذا اكتشف. ولكنى رأيت أين سيكون العرض التالى، ولهذا أرسل هذه الرسالة إلى مسرح تورنتو، آملة أن تصل إليك. ولابد أنه مسرح جديد، حيث لم يكن ثمة شىء بهذا الاسم عندما كنت هناك لآخر مرة؛ ولكن ذلك كان منذ عشرين عامًا، رغم أنها تبدو لى مائة عام.

كم أتمنى أن أراك ثانية، وأن نتكلم حول الأيام الخوالى، فى المطبخ عند مسز ألدرمان پاركينسون، عندما كنا نقضى وقتًا ممتعًا جدًّا، قبل أن تموت مارى هويتنى ويتولانى النحس وسوء الحظ! ولكن لكى تعبر من بين كل هؤلاء الحرس هنا، يجب أن تتنكر أكثر من ذلك، فاللحية الحمراء لن تكون كافية عن قرب. وإذا تعرفوا عليك، سوف

يظنون أنك كنت تخدعهم، حيث أن ما يجرى على خشبة المسرح لن يكون مقبولاً بنفس القدر إذا تم فى مكتبة؛ كما أنهم سوف يودون معرفة لماذا لم تعد د. چيروم دى پونت. ولكنى أظن أن العمل الآخر دخله أفضل.

منذ جلسة التنويم، والناس هنا فيما يبدو يعاملوننى بشكل أفضل، مع مزيد من التقدير، رغم أنهم ربما يكونون أكثر خوفًا منى؛ أحيانًا من الصعب أن نعرف الفرق. وهم لا يتحدثون عما قيل فى تلك المناسبة، فهم يرون أن الحديث عنها ربما يتسبب فى اضطرابى عقليًّا؛ وهو أمر أشك أنه سيحدث. ولكن رغم أننى لى حرية الحركة فى البيت مرة أخرى، وأقوم بتوضيب الغرف وتقديم الشاى كما فى السابق، فإن هذا لم يكن له أى أثر على إطلاق سراحى.

وقد تساءلت كثيرًا حول أسباب رحيل د. چوردان بشكل مفاجئ هكذا، بعد ذلك مباشرة، ولكن لأنك أنت نفسك رحلت بسرعة أيضًا، فأنا أتوقع أنك لا تعرف الإجابة. تأثرت مس ليديا بشدة برحيل د. چوردان، وقضت أسبوعًا ترفض النزول إلى الغداء، وإنما تطلب أن يؤخذ إليها فى صينية؛ وكانت ترقد فى فراشها كما لو كانت مريضة، وهو ما جعل العناية بغرفتها صعبة جدًّا، ووجهها بهذا الشحوب وحول عينيها هالات سوداء، وقامت بدور ملكة المأساة. ولكن السيدات الصغيرات مسموح لهن بالتصرف بهذه الطريقة.

بعد ذلك، بدأت تخرج إلى حفلات أكثر من المعتاد مع شباب أكثر من ذى قبل، وخاصة أحد القباطنة الذى لم يأت أى شىء من

ناحيته؛ واشتهر عنها أنها فتاة لعوب بين العسكريين؛ ثم حدثت مشادات بينها وبين أمها، وبعد شهر آخر تم إعلان خطبتها إلى المبجل ڤرينجر، وهذا الأمر كان مفاجأة، حيث أنها كانت دائمًا تسخر منه من وراء ظهره، وتقول أنه يبدو مثل الضفدع.

وقد حدد موعد الزواج في وقت يعتبر مبكر عن المعتاد، وانشغلت كثيرًا بالخياطة من الصباح حتى المساء. وكان فستان السفر لميس ليديا من الحرير الأزرق، مع أزرار مكسوة من نفس القماش، وطبقتين للتنورة؛ وكدت أصاب بالعمى أثناء ثني كل هذا الذيل. وقضيا شهر العسل في شلالات نياجرا، التي يقولون أنها تجربة يجب عدم تفويتها، أنا لم أر هذه الشلالات، ولكني رأيت فقط صورًا لها؛ وعندما عادوا كانت شخصًا مختلفًا تمامًا، شاحبة ومستكينة، ولم تعد روحها المعنوية عالية كما في السابق. ليس من الجيد الزواج من رجل لا تحبه، ولكن الكثير يفعلون ذلك ثم يعتادونه بمرور الوقت. وكثيرون يتزوجون عن حب ويندمون على أوقات الفراغ والراحة، كما يقولون.

كنت أظن لفترة أنها كانت معجبة بالدكتور چوردان؛ لكنها ما كانت لتسعد معه، ولا هو معها، فما كانت لتفهم اهتمامه بالمجانين، ولا فضوله، والأسئلة الغريبة التي اعتاد أن يسألها عن الخضر. ومن ثم كان ذلك أفضل لهما.

أما بالنسبة للمساعدة التي وعدني بها د. چوردان، فلم أسمع شيئًا عنها، ولا شيئًا عنه، إلا أنه ذهب إلى الحرب الجنوبية، وهي الأخبار التي وصلتني من المبجل ڤرينجر؛ ولكني لا أعرف إذا ما كان

حيًا أو ميتا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك الكثير من الإشاعات حوله، هو وصاحبة البيت، التى كانت أشبه بالأرملة؛ وبعد رحيله، كان يمكن مشاهدتها تسير بلا هدى بطريقة تنم عن الجنون على شاطئ البحيرة فى ثوب أسود ومعطف وخمار أسود يرفرف فى الريح، وقال البعض أنها كانت تنوى أن تلقى بنفسها فى البحيرة. كان الكلام كثيرًا عن ذلك، خاصة فى المطبخ والغسيل؛ وكلنا امتلأت آذاننا من دورا، التى كانت تخدم هناك. وما قالته لا يمكن أن تصدقه عن اثنين من الناس محترمين فى مظهرهما مثلهما، أشياء مثل صرخات وأنات وأشياء مهولة أثناء الليل، كما لو كان البيت مسكونًا، وملاءة السرير فى حالة مروعة كل صباح، وفى حالة تجعلها تخجل من النظر إليها. وقالت دورا إنه من العجيب أنه لم يقتل هذه السيدة ويدفن الجسد فى الفناء بالخارج، حيث أنها رأت الجاروف معدًا لذلك، وقبرًا قد حُفر بالفعل، وهو ما جمد الدم فى عروقها من الخوف؛ فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذى يقيم علاقة مع امرأة بعد أخرى ثم يتعب منها، ويقتلهن فقط للتخلص منهن، وكل مرة كان ينظر فيها إلى السيدة الأرملة كانت نظرته مخيفة ومرعبة كعيون النمر، كما لو كان على وشك أن ينقض عليها وينشب أسنانه فيها. وأنه كان بنفس الطريقة مع دورا نفسها، ومن يدرى، فقد كان من الممكن أن تكون هى الضحية التالية التى تقع فى براثنه الشرهة المسعورة؟ كان لديها جمهور راغب فى الاستماع فى المطبخ، حيث أن هناك كثيرين يحبون الاستماع إلى القصص التى تهزهم وتصدمهم، ولابد أن أقول أنها صنعت قصة جيدة من الموضوع. ولكنى أظن أنها انجرفت مع قصتها بعيدًا.

وفى نفس الوقت، طلبتنى زوجة المحافظ إلى الردهة، وسألتنى بجدية شديدة إذا ما كان د. چوردان قد تصرف معى فى يوم من الأيـــام بأى طريقة غير لائقة؛ قلت أنه لم يفعل، وأنه على أية حال كـــان بـــاب غرفة الخياطة دائمًا مفتوحًا. ثم قالت أنها قد خُدعت فى شخصيته، وأنها كانت تستقبل أفعى فى وسط عائلتها؛ ثم قالت أنه قد نـــال مـــن السـيدة المسكينة التى ترتدى السواد، إذ كانت وحدها فى بيتها بعــد أن ذهبــت الخادمة، رغم أننى لا يجب أن أتحدث عن ذلك، حيث أن ذلك قد يسبب الأذى؛ ورغم أن هذه السيدة متزوجة، وزوجها كان رديئًا فى تصـــرفاته معها، وما كان الأمر ليصبح بهذا السوء لو كانت فتاة صغيرة، ومع ذلك فإن د. چوردان قد تصرف بطريقة لا تليق إطلاقًا، وكان من رحمـــة الله أن مس ليديا لم تصل بها الأمور إلى خطوبة معه.

ولا أظن أنه كانت هناك أية فكرة بهذا، فى فكـــر د. چــوردان على الإطلاق؛ كما لا أصدق كل ما قيل عنه، فأنا أعلم معنـــى أن تقـــال الأكاذيب عن الإنسان، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه. والأرامـــل دائمًـــا يلجأن إلى الحيل، حتى يصبحن عجائز غير قادرات عليها.

ولكن هذا مجرد إشاعات مغرضة. أما ما أريد أن أسألك عنــه بشكل خاص فهو: هل حقًا ترى المستقبل، عندما نظرت فى كـــف يـــدى وقلت خمسة للحظ، وهو ما فكرت أن معناه أن كل شىء سيصبح علـــى خير حال فى النهاية؟ أم أنك كنت فقط تحاول أن تريحنى؟ إننى أتمنى أن أعرف ذلك جدًا، فأحيانًا يتمدد الوقت ويصبح طويلاً جدًا، حتـــى أشــعر بأننى غير قادرة على احتماله. وأخشى أن أقع فى يأس مريـــر، بســـبب

حياتى الضائعة، ولا أزال غير متأكدة كيف حدث ذلك. والمبجل ڤرينجر كثيرًا ما يصلى معى، أو الواقع إنه يصلى وأنا أستمع؛ ولكن هذا لا يفيد كثيرًا، ولا يفيد إلا فى أن أصبح متعبة. يقول إنه سوف يقدم التماسًا آخر، لكنى أخشى أنه لن يكون له أية فائدة مثل غيره من الالتماسات، والأفضل ألا يضيع الورق هباء.

والشىء الآخر الذى أريد أن أعرفه هو لماذا كنت تريد مساعدتى؟ هل كان ذلك نوعًا من التحدى، ولإظهار تفوقك على الآخرين، كما فى حالة التهريب الذى كنت تقوم به؛ أم أن ذلك كان انطلاقًا من العاطفة والشعور بى كرفيقة وصديقة؟ لقد قلت مرة أننا من نفس النوع، وقد تفكرت كثيرًا فى هذا القول.

أرجو أن تصلك هذه الرسالة، فإذا حدث، لا أعرف كيف يمكن أن ترد علىّ، فأى رسالة تصلنى لابد أن يفتحوها. ولكنى أظن أنك أرسلت لى رسالة بالفعل، فمنذ عدة أشهر تسلمت زرارًا من العظم، مرسلاً إلىّ بدون توقيع، وقالت السجانة، جريس، لماذا يمكن لأى أحد أن يرسل إليك زرارًا وحيدًا؟ وقلت أننى لا أعرف. لكن حيث أن الزرار كان من نفس نموذج الزرار الذى أعطيته لى فى المطبخ فى منزل مسز ألدرمان پاركينسون، شعرت أنه لابد كان منك، لتجعلنى أعرف أنك لم تنسنى تمامًا. وربما كانت هناك رسالة أخرى فيه أيضًا، فالزرار هو لإبقاء الأشياء مغلقة، أو لفتحها؛ وربما كنت تقول لى أن أحتفظ بالصمت، حول أشياء معينة نعرفها معًا. كان د. چوردان يعتقد أنه حتى الأشياء العادية والتى لا يُلقى إليها الاعتبار يمكن أن يكون لها معنى، أو على

الأصح تستعيد إلى الذاكرة شيئًا منسيًا؛ وربما أنك أردت فقط أن تذكرنى بنفسك، وهو أمر لم تكن بحاجة إليه فى الواقع، حيث أننى لم أنسك أبـدًا ولا نسيت معاملتك الطيبة لى، ولن أنسى ما حييت.

أرجو أن تكون فى صحة جيدة يا چيرميا العزيـز، وأن يلقـى عرضك السحرى نجاحًا عظيمًا،

من صديقتك القديمة، جريس ماركس

من مسز ويليام ب. چوردان، لابورنام هاوس،
لوميسڤيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة
الأمريكية، إلى مسز س. د. همفرى، شارع لوار
يونيون، كينجستون، غرب كندا.

١٥ مايو، ١٨٦٢

عزيزتى مسز همفرى

وصلت رسالتك الموجهة لإبنى العزيز هذا الصباح. وأنا أفتح كل بريده هذه الأيام، لسبب سوف أشرحه بعد قليل. ولكن أولا اسمحى لى أن أعلق أننى قد أرجو منك أن تعبرى عن نفسك بطريقة أقل تهورًا. أما التهديد بإيذاء نفسك، بالقفز من فوق جسر أو من موقع آخر مرتفع، فإن ذلك قد يمثل ثقلا على شاب سريع التأثر وطيب القلب، لكن ذلك لا يؤثر فى والدته الأكثر خبرة بتجارب الحياة.

على أية حال، إن أملك فى لقاء معه لابد أن يخيب. ففى بداية اندلاع الحرب المؤلمة الجارية فى بلدنا، التحق ابنى بالجيش الاتحادى للحرب من أجل بلده فى وظيفة طبيب عسكرى، وأرسل فى الحال إلى إحدى المستشفيات الميدانية بالقرب من الجبهة. وقد انقطعت الخدمات البريدية بكل أسف، والقوات تتحرك من مكان لآخر بسرعة نتيجة وجود خطوط السكك الحديدية، ولم تصلنى كلمة منه طوال عدة أشهر، وهو ما ليس من طبيعته، حيث أنه كان دائمًا شديد الانتظام والإخلاص فى مراسلاته؛ وخشيت أمرا سيئا للغاية.

وفى نفس الوقت فعلت ما أستطيع فى النطاق المحدود المحيط بى. فهذه الحرب التعسة قد قتلت وأصابت الكثيرين، وكنا نرى آثارها يوميًّا، فقد كان المزيد من الرجال والشباب يتم إحضارهم إلى مستشفياتنا المحسنة، وقد أصيبوا ببتر أو عمى، أو خرجوا عن عقولهم بسبب أنواع من الحمى المعدية؛ وكل منهم هو ابن حبيب عزيز. وقد ظلت سيدات مدينتنا مشغولات بشدة فى زيارتهم وإعداد أى شىء يشعرهم بأنهم فى

بيوتهم بقدر ما نجد لدينا القدرة على تقديمه؛ وأنا نفسى ساعدتهم بأفضل ما استطعت، رغم حالتى الصحية المعتلة؛ حيث أن كل ما بوسعى هو أن آمل أن يكون ابنى العزيز مريضا فى مكان ما، وأن أما أخرى تفعل نفس الشيء له.

وأخيرًا، أخبرنى أحد الجنود الناقهين من هذه المدينة أنه سمع إشاعة بأن ابنى قد أصيب فى رأسه بشظية طائرة، وأن آخر ما سمعه عنه كان أنه بين عالمنا والعالم الآخر. وبالطبع كاد القلق يقتلنى، وتحركت فى كل مكان لأكتشف مكان وجوده؛ حتى كان لسعادتى الطاغية أن أعيد إلينا. إنه لا يزال حيًا، ولكنه بكل أسف ضعيف جسديًّا وروحيًّا معًا. فنتيجة لهذه الإصابة فقد جزءًا من ذاكرته؛ ورغم أنه استطاع أن يتذكر والديه العزيزين، وأحداث طفولته، إلا أن تجارب حياته الأحدث قد مُحيت تمامًا من ذاكرته، ومن ضمن ذلك اهتمامه بالمصحات العقلية، والفترة التى قضاها فى مدينة كينجستون؛ ومن ضمنها أية علاقات من أى نوع يمكن أن يكون قد أقامها أو لم يقمها مع حضرتك.

أخبرك هذا لكى تنظرى إلى الأشياء من منظور أوسع - واسمحى لى أن أضيف، من منظور أقل أنانية. إن أفعال المرء الشخصية تبدو صغيرة بالفعل، عندما تواجه بالمهمات الضخمة للتاريخ، والتى لا يمكن إلا أن نثق بأنها للصالح الأعظم.

وفى نفس الوقت، ينبغى أن أهنئك على حقيقة أنك قد عرفت مكان زوجك أخيرًا، رغم أننى يجب أيضًا أن أواسيك على الظروف

السيئة. إن اكتشاف أن زوجك قد توفى بسبب التسمم طويل المدى وما نتج عنه من هذيان الحمى، كل هذا لابد أنه كان أمرًا محزنًا. ويسرنى أنه لم يستنفد كل أمواله بالكامل، وأقترح عليك، كنصيحة عملية، أن تتلقى منه دخلاً سنويًّا، أو ــ إن ما أفادنى جيدًا أثناء محاولاتى الشخصية ــ استثمار متواضع فى أسهم السكك الحديدية، إذا كان ذلك من خلال شركة ذات وضع مضمون، أو فى ماكينات الخياطة، والتى من المؤكد أن يحدث فيها تقدم كبير فى المستقبل.

وعلى كل حال، فإن المسار الذى تتقدمين به لابنى هو مسار غير مرغوب فيه، كما أنه غير ملائم، حتى لو كان فى حالة تمكنه من الاستفادة به. فابنى لم يكن مرتبطًا بخطبة معك، وليس لديه أية التزامات تجاهك. إن ما قد تكونين قد فهمته أنت نفسك لا يشكل فهمًا. ومن واجبى أيضًا أن أعلمك أن ابنى قبل رحيله قد وصل إلى ما يقرب من الارتباط بخطبة الآنسة فيث كارترايت، وهى سيدة شابة من عائلة محترمة وذات شخصية معصومة من العيوب الأخلاقية، والعقبة الوحيدة القائمة، هى عقبة تمسكه بالشرف والواجب الوطنى، وهى العقبة التى منعته من طلب أن تربط مس كارترايت حياتها برجل حياته معرضة للخطر؛ ورغم حالته السيئة والحرجة أحيانًا إلا أنها ظلت تحترم رغبات العائلتين، وكذا ما يتمناه قلبها، وهى فى الوقت الحاضر تعاوننى فى تمريضه بإخلاص ووفاء عظيمين.

وهو لا يتذكرها بعد فى شخصيتها الحقيقية، لكنه يصر على الاعتقاد بأن اسمها جريس ــ وهو تشوش مفهوم، لأن فيث اسم قريب

جدًّا من جريس فى المعنى؛ لكننا نواصل مجهوداتنا بدأب، ونريه يوميًّا أشياء بيتية صغيرة كانت يومًا عزيزة لديه، ونأخذه للسير فى الأماكن المحلية التى تتمتع بجمال الطبيعة، ولدينا آمال متزايدة أنه سوف يستعيد ذاكرته بالكامل فى القريب العاجل، أو على الأقل القدر الضرورى منها، وإنه سوف يكون سريعًا فى صحة جيدة لاستكمال إجراءات الزواج. وإنه لمن أشد اهتمامات مس كارترايت كما يجب أن يكون الأمر مع كل من يحبون ابنى حبًّا خاليًا من الغرض، أن تدعو له ليستعيد صحته وقدرته الكاملة على استعمال قواه العقلية.

وفى النهاية، اسمحى لى أن أضيف أننى أثق بأن حياتك المستقبلية سوف تكون مثار سعادة، أكثر مما كان فى الماضى القريب؛ وأن أمسيات حياتك سوف تجلب معها صفاء وسكينة، إذ أن عواطف الشباب العاصفة والعقيمة كثيرًا ما تنتهى نهاية تعسة إن لم تنته بكارثة.

المخلصة

(مسز) كونستانس ب. چوردان.

ملحوظة: أية مراسلات أخرى منك، سوف يتم تدميرها دون قراءة.

من المبجل إينوتش ڤرينجر، رئيس اللجنة المشكلة للعفو عن جريس ماركس، شارع سيدنهام، الكنيسة الميثودية، كينجستون،

أونتاريو، دولة كندا؛ إلى دكتور طبيب صمويل

باترلينج، المابلس، فرونت ستريت، تورنتو،

أونتاريو، دولة كندا

كينجستون، ١٥ أكتوبر ١٨٦٧

عزيزى د. باترلينج

أتجرأ على الكتابة إليك يا سيدى، فى موضوع يتعلق باللجنة التى أرأسها، حول مهمة جديرة بالاهتمام ولابد أنك على دراية بها. فقد كنت المعالج الطبى السابق لجريس ماركس، عندما كانت فى المصحة العقلية بتورنتو منذ حوالى خمسة عشر عامًا، أعرف أن ممثلى لجان سابقة عديدة قد تقدموا إليك عند قيامهم بتقديم التماسات إلى الحكومة، نيابة عن هذه المرأة التعسة سيئة الحظ والتى يرى البعض أنها قد أدينت خطأ، فى أمل أن تضيف اسمك إلى الالتماسات المذكورة ـ وهى إضافة أعتقد أنك على علم بأنها لها وزنها الكبير بالنسبة للسلطات الحكومية، فهذه السلطات تميل لاحترام الرأى الطبى المثقف مثل رأيكم.

تتكون لجنتنا من عدد من السيدات، ومن ضمنهم زوجتى العزيزة، ومن عدد من الرجال المحترمين ذوى المكانة، ورجال دين ينتمون لثلاثة من الطوائف المختلفة، ومن ضمنهم قسيس السجن، والذين ستجد أسماءهم مضافة. مثل هذه الالتماسات لم تكن ناجحة فى الماضى،

لكن اللجنة تتوقع، كما أنها تأمل، أنه مع التغيرات السياسية الأخيرة، والتي تتميز بمجيء برلمان كامل من الممثلين النيابيين تحت قيادة جون أ. ماكدونالد، فإن هذا الالتماس سوف يلقى ترحابًا لم يكن متاحًا للالتماسات السابقة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن العلم الحديث فى صالحنا، فالتقدم الحادث فى دراسات الأمراض العصبية والاضطرابات العقلية ــ هى إنجازات من المؤكد أنها فى صالح جريس ماركس. ومنذ سنوات عديدة استقدمت لجنتنا متخصصًا فى الأمراض العصبية، وهو د. سايمون چوردان، الذى جاء بتوصيات عالية جدًّا. وقد قضى عدة أشهر فى هذه المدينة يفحص جريس ماركس فحصًا مفصّلاً، مع اهتمام خاص بالفجوات فى التذكر الخاصة بارتكاب الجريمتين. وفى محاولة لاستعادة ذاكرتها، عرضها لجلسة تنويم عصبى، على يد أحد الممارسين المهرة فى هذا العلم، وهو العلم الذى يبدو أنه، بعد غياب طويل، يعود إلى الأضواء كوسيلة تشخيصية وكذلك كطريقة علاجية، وقد حظى بالتشجيع فى فرنسا أكثر مما فى هذا النصف من الكرة الأرضية.

ونتيجة لهذه الجلسة، والكشف المدهش الذى نتج عنها، قدم د. چوردان رأيه بأن فقدان الذاكرة لدى جريس ماركس كان أصيلاً، وليس مزيفًا ــ وأنه فى اليوم البشع كانت تعانى من آثار الحالة الهيستيرية التى تملكتها بسبب الرعب، والذى نتج عنه شكل من النوم العصبى الذاتى، والذى لم يتم دراسته بشكل كاف منذ خمس وعشرين سنة، ولكن تم توثيقه جيدًا فى هذه الأثناء؛ وأن هذه الحقيقة تفسر حالة

فقدان الذاكرة التى أعقبت ذلك. وفى أثناء القيام بجلسة التنويم العصبى، والتى شهدها عدد من أعضاء لجنتنا، أظهرت جريس، ليس فقط استعادة كاملة لذاكرتها بهذه الأحداث الماضية، ولكن أيضًا أظهرت الدليل على وجود "وعى مزدوج" متصل بحالة مشى أثناء النوم، مع شخصية ثانوية منفصلة، قادرة على التصرف دون معرفة الشخصية الأولى. وكانت النتيجة التى توصل إليها د. چوردان، فى ضوء هذا الدليل، أن السيدة المعروفة لنا باسم "جريس ماركس" لم تكن واعية فى وقت ارتكاب جريمة قتل نانسى مونتجومرى، ولا هى مسئولة عن أفعالها فى نفس الوقت ـ وذكريات هذه الأفعال تحفظها شخصيتها الثانوية والخفية. وقد أضاف د. چوردان رأيًا آخر أن هذه النفس الأخرى قد أعطت تجليات قوية لوجودها المستمر أثناء الوقت الذى عانت فيه من الخبل العقلى فى ١٨٥٢، إذا كان للتقارير العيانية لمسز مودى وغيرها أى دلالة.

وقد كنت أرجو أن يكون لدى تقرير مكتوب لأضعه أمامك، وقد أخرت لجنتنا تقديم التماسها من عام لآخر، انتظارًا لهذا التقرير. وقد كان د. چوردان خالص النية فى إعداد مثل هذا التقرير؛ لكنه استدعى فجأة بسبب مرض عائلى، وتبعه عمل ملح وعاجل فى القارة الأوروبية؛ وبعده انفجرت الحرب الأهلية التى خدم فيها فى وظيفة طبيب عسكرى، مما كان سببًا فى إحباط مجهوداته. ووصلنى أنه أصيب فى الحرب، ورغم أن صحته تتقدم الآن بشكل طيب، إلا أنه لم يستعد القوة الكافية لكى يكون قادرًا على استكمال مهمته. وليس لدى شك أنه لولا ذلك لأضاف رسالته المخلصة والأمينة إلى رسالتنا.

لقد حضرت بنفسى جلسة التنويم العصبى المشار إليهـا، كمـا حضرتها أيضًا زوجتى العزيزة، وقد تأثر كل منا تأثرًا عميقًا بما شاهدناه وسمعناه. إن التفكير فى كيف أخطئ تقدير وفهم هذه المـرأة المسـكينة بسبب تأخر الفهم العلمى، يبعث على الشعور بالأسى الذى يحركنى حتى تدمع عينى. فالروح الإنسانية لغز عميق مكتنف بالأسرار، ولم يبدأ سبر أعماق هذه الروح إلا الآن فقط. وما أجمل ما قاله بولس الرسول: "*فإننا ننظر الآن فى مرآة، فى لُغْز، لكن حينئذ وجهًا لوجـه*"(*). ولا يسـتطيع الإنسان إلا أن يتأمل فى حكمة الخالق فى طبع الإنسانية بهـذه الطبيعـة المعقدة عويصة الفهم.

ولكن أيًا كان رأيك فى وجهة نظر د. چوردان المهنية ـ وأنـا على تمام العلم بأن استنتاجاته ربما يكون من الصعب تصديقها، بالنسـبة لشخص ليس على ألفة بالتنويم العصبى، ولم يكن حاضرًا للأحداث التى ألمح إليها ـ فمن المؤكد أن جريس ماركس قد قضت بالسجن سـنوات طويلة وكثيرة جدًا، أكثر مما يكفى كعقاب على ما ارتكبته. وقد عانـت من آلام عقلية لا يمكن وصفها، وآلام جسدية بالمثل؛ وقد تابـت توبـة نصوحًا عن أى فعل تكون قد قامت به فى تلك الجريمة الكبيرة، سـواء كانت واعية بالقيام به أم لا. ولم تعد بأية حال امرأة شابة، كما أنها فـى حالة صحية متدنية. فإذا تم منحها الحرية، فمن المؤكد أن ذلك سـيعود بشكل طيب على حالتها الصحية والروحية على السواء، وربمـا يكـون لديها فرصة التأمل فى الماضى، وفى إعداد نفسها لحياة مستقبلة.

(*) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ١٣:١٢.

فهل يمكن ــ باسم الإنسانية ــ أن تظل مصرًا علــى رفــض إلحاق اسمك بالتماس للإفراج عنها، مما قد يؤدى إلى إغلاق أبواب الجنة فى وجه مذنب تائب؟ من المؤكد لا!

إننى أدعوك ــ أتوسل إليك مرة أخرى ــ أن تساعدنا فى هــذا المسعى الكريم.

المخلص بحق،

إينوتش ڤرينجر،

درجة الماجستير فى اللاهوت

من دكتور طبيب صمويل باترلينج، المابلس،
فرونت ستريت، تورنتو؛ إلى المبجل إينوتش
ڤرينجر، الكنيسة المنهجية بشارع سيدنهام،
كينجستون، أونتاريو

١ نوفمبر، ١٨٦٧

سيدى العزيز:

أبلغك باستلامى رسالتك المؤرخة فى العاشــر مــن أكتــوبر، ومحتوياتها الخاصة بسلوكياتك الصبيانية تجاه جريس ماركس. والواقــع أنى شعرت بخيبة أمل فى د. چوردان؛ فقد سبق أن كانت بينــى وبينــه بعض المراسلات، والتى حذرته فيها بوضوح من هذه المــرأة اللئيمــة.

يقولون ليس أغبى من غبى عجوز، ولكنى أقول ليس أغبى من غبى شاب؛ ويدهشنى أن شخصًا ممن حصل على درجة علمية يمكن أن يسمح لنفسه أن يكون ضحية خديعة مثل هذا الشيء المتسم بالدجل والشعوذة والمنافى للعقل والطبيعة، وضحية الحماقة، أى ذلك الشيء المسمى "جلسة التنويم العصبى"، والتى لا تعتبر إلا مرحلة ثانية من البلاهة المسماة بتحضير الأرواح، والضراعة الشاملة، وما أشبه من ألوان التخريف. ومهما كان هذا "التنويم العصبى" مدعومًا بالمصطلحات العلمية الجديدة، فهو لا يزيد عن صورة جديدة من التنويم المغناطيسى أو المغناطيسية الحيوانية، وقد كشف كذب هذا الهراء المرضى منذ زمن طويل، وفقد مصداقيته بصفته مجرد نوع من التضليل ذى النغمة الدينية والذى يقوم به رجال مشكوك فى أصولهم، وذوى طبيعة داعرة تمكنهم من التأثير على سيدات شابات لهن نفس الصفات، ويسألونهن أسئلة وقحة وكريهة، ويأمرونهن بأداء أفعال وقحة، دون أن تبدو عليهن الموافقة على هذا.

ومن ثم فإننى أخشى أن صديقك د. چوردان إما شخص ساذج إلى درجة البلاهة، أو أنه نفسه وغد كبير؛ وأنه إذا كان قد دبج "تقريره" الشخصى، فإن ذلك التقرير لن يساوى الورق الذى كتب عليه. ويراودنى الشك فى أن الجرح الذى تتحدث عنه قد حدث له ليس أثناء الحرب، وإنما قبلها؛ وأنه نتج عن ضربة حادة فى الرأس، وهى الشيء الوحيد

الذى يفسر مثل هذا البله. وإذا استمر د. چوردان يتابع هذا المسار الفكرى المتمرد، فسرعان ما سوف ينتهى به الحال إلى المصحة الخاصة بالمجانين التى، إذا كنت أذكر جيدًا، كان عازمًا فى يوم من الأيام على تأسيسها.

لقد قرأت ما تطلقون عليه "شهادة" مسز مودى، وكذلك بعضًا من تفاهاتها الأخرى، والتى أودعتها جميعًا النار، فهى المكان الأولى بها ـ حيث يمكن لهذه الأوراق أن تحدث بعض الضوء، وهى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تضىء بها. ومسز مودى، مثل باقى أفراد أسرتها، معرضة للإصابة بالاهتياج العصبى، والإسراف فى التعبير عن العاطفة، كما أنها تميل إلى تلفيق القصص الخيالية المقنعة؛ وإذا كنا نريد الوصول إلى الحقيقة، فيمكن للمرء أن يعتمد أيضًا على "تقرير شاهد عيان" من طيور الإوز.

أما بالنسبة لبوابات الفردوس التى تشير إليها، فليس لى أية سيطرة عليها، وإذا كانت جريس ماركس تستحق دخولها فلسوف يسمح لها بالدخول دون تدخل من جانبى. ولكن من المؤكد أن بوابات الإصلاحية لن تفتح لها أبدًا بناء على أى تصرف منى. لقد درست حالتها جيدًا، وأعرف شخصيتها ونزعاتها أفضل مما يمكنك أن تعرف. إنها مخلوق مجرد من الاستعداد الأخلاقى الطبيعى، وميلها إلى القتل قد تطور بقوة. وليس من الأمان أن تُترك لتستمتع بالمزايا الطبيعية الآمنة

للمجتمع. وإذا أعيدت إليها حريتها، فإن ما يمكن أن يحدث هو التضحية، إن عاجلاً أو آجلاً، بحياة أشخاص آخرين.

وختامًا، يا سيدى، اسمح لى أن أعلق بأنه لا يليق بك، كرجل من رجال الدين، أن تتبل رسائلك المطولة بتلميحات إلى "العلم الحديث". إن المعرفة الضحلة أمر خطير، وأعتقد أن هذا كان تعليق البابا ذات مرة. اشغل نفسك بالعناية بالضمائر الإنسانية، وبإقامة الشعائر التى تصلح النفوس من أجل تحسين الحياة والأخلاق فى العام والخاص، وهو أمر يعلم الله أن هذا البلد بحاجة إليه، ودعك من أمخاخ المرضى المنحرفين واتركها إلى الجهات المتخصصة فيها. وفوق كل شىء، أرجو أن تتفضل، فى المستقبل، بالكف عن إزعاجى بهذه الطلبات السخيفة والمزعجة ...

خادمك المطيع والمتواضع للغاية،

دكتور طبيب / صامويل بانرلينج

الفصل الخامس عشر

شجرة الفردوس

لكن الإصرار أتى بثماره فى النهايـــة. قــدمت الالتماســـات واحدًا بعد الآخر إلى الحكومة، ولا شك أنه تم تسخير جهود أخرى مؤثرة. وحصلت هذه المجرمة الفريدة علـــى عفــو، ونقلــت إلى نيــويورك، حيث غيرت اســمها، ثم سرعان ما تزوجت. وكل ما يعرفه كاتب هذه السطور بخلاف ذلــك هو أنها لا تزال حية. وليس معروفًا إذا ما كانــت شــهوة القتل لديها قد تأكدت بقوة فى خـــلال هــذه الفتـــرة، فمـــن الممكن أن تكون حريصة على الاحتراس وصون هويتهـــا باتخاذ أكثر من اسم.

مؤلف مجهول

History of Toronto and the Country of York, Ontario, 1885

الجمعة، ٢ أغسطس، ١٨٧٢. زرت المدينة من ١٢ إلى ٢ لرؤية وزير العدل بخصوص جريس ماركس التى تســلمت العفو عنها هذا الصباح. وكان طلب جون أن أصحب هــذه المرأة بنفسى مع إحدى بناتى إلى منــزل معـد لهـــا فـــى نيويورك.

الثلاثاء، ٧ أغسطس، ١٨٧٢. تم استجواب جريس ماركس وصرفها، بناء على العفو الصادر عنها بعد أن قضت ٢٨ سنة وعشرة أشهر سجينة فى هذه الإصلاحية. وتحركت معها أنا وابنتى فى الساعة الواحدة مساء، متجهين إلى نيويورك، بأمر من وزير العدل...

ملاحظات من دفتر يوميات مأمور السجن
الإصلاحية المحلية، كينجستون، أونتاريو، دولة كندا،

وهكذا فليكن، مع هذه الجنة الأرضية،
إذا قرأت بشكل صحيح، وسامحتنى
أنا الذى أتشوف لبناء جزيرة ظليلة من النعيم
وسط تلاطم هذا البحر الفولاذى العنيف،
حيث تتقاذف أمواجه قلوب الناس جميعًا

ويليام موريس،
The Erthly Paradise, 1868

عدم الاكتمال هو جنتنا ...

ويليام ستفينز
"The Poems of Our Climate," 1938

- ٥١ -

كثيرًا ما أفكر أن أكتب إليك وأعرفك بالحظ الطيب الذى لاقيتـــه، وقد كتبت لك رسائل كثيرة فى رأسي؛ وعنـــدما أتوصـــل إلـــى الطريقـــة الصحيحة لقول الأشياء، فسوف أضع القلم على الورق، وهكذا سوف تكون لديك أخبارى، إذا كنت لا تزال فى أرض الأحياء. أما إذا لم تكن، فلابـــد أنك تعلم كل شىء على أية حال.

ربما سمعت عن العفو عنى، ولكنك ربما لم تسمع. فلم أر الخبر فى أية صحيفة، وليس هذا بغريب، حيث أنه بمرور الوقت وحتـــى حـــين الإفراج عنى، كانت القصة قد أصبحت قديمة وبالية، ولا أحد يريد أن يقرأ عنها. لكن مما لا شك فيه أن هذا كان أفضل. عندما سمعت عـــن العفـــو، كنت واثقة أنك لابد قد أرسلت الرسالة أخيرًا إلى الحكومـــة، لأنهـــا أتـــت بثمارها فى النهاية، مع كل الالتماسات جنبًا إلى جنب؛ رغم أننى يجب أن أقول إنهم أخذوا وقتًا طويلاً فى الوصول إلى هذا القرار، ولم يقولوا شـــيئًا عن رسالتك، ولكن فقط قالوا أنه عفو عام.

أول ما سمعت عن العفو كان من ابنة مـــأمور الســـجن، والتـــى اسمها چانيت. وهذا المأمور ليس هو الذى رأيته من قبل، يا سيدى، فقـــد حدثت تغييرات كثيرة منذ رحيلك، ومجيء مأمور جديد هـــو أحـــد هـــذه

التغييرات، وقد كان هناك اثنان أو ثلاثة محـافظين أيضًـا، وكثيـر مـن الحراس الجدد، والغفر، والسجانات، ومن الصعب للغاية أن أتمكـن مـن تذكر كل هذه التغييرات. كنت أجلس فى غرفة الخياطة، حيث كنا أنت وأنا نقضى الأمسيات نتحدث، كنت أصلح الجوارب ــ فقد استمرت خدمتى بين خدم البيت عند كل مأمور جديد، كما كنت من قبـل ــ وعنـدها دخلـت چانيت. وقد كانت دائمًا طيبة معى، ودائمًا تمنحنى ابتسامة، علـى عكـس آخرين. ورغم أنها ليست جميلة على الإطلاق، إلا أنها تمكنـت مـن أن تخطب لشاب محترم من المزارعين، وهو الأمر الذى أغدقت عليها مـن أجله كل أمنياتى القلبية بالتوفيق. هناك بعض الرجال، خاصة من النـوع الأكثر بساطة، يفضلون الزوجة غير الجميلة، فهذا النوع يعمل بهمة، وأقل شكوى، وليس ثمة فرصة كبيرة لهروبها مع رجل آخر، فمن هو الرجـل الذى يمكن أن يتجشم مشقة خطفها؟

فى هذا اليوم، دخلت چانيت إلى الغرفة مهرولة، وبدا أنهـا فـى غاية الانفعال. قالت: جريس، إن لدى أنباء مدهشة للغاية.

لم أتوقف حتى عن الخياطة، فعندما كان الناس يقولـون لـى إن لديهم أنباء مدهشة، كانت دائمًا تخص أحدًا غيرى. وكنت علـى اسـتعداد للاستماع بالطـبع، ولكن لم أكن مسـتعدة لتضييع غرزة لذلك، إذا فهمت ما أعنى يا سيدى. قلت: حقًا؟

قالت: لقد صدر العفو عنك. من سير جون ماكدونالـد ووزيـر العدل، فى أوتاوا. أليس هذا رائعًا؟ وشبكت يديها، وفى هذه اللحظة كانـت تبدو مثل طفل، وإن كان طفلاً كبيرًا وقبيحًا، يتطلع إلى هدية رائعة. كانت

أحد هؤلاء الذين لم يصدقوا أبدًا أننى مذنبة، حيث أنها ذات قلب رقيق وطبيعة عاطفية.

عند سماع هذه الأخبار وضعت ما بيدى من خياطة. وشعرت ببرودة فجائية تسرى فى جسدى كله، كما لو كنت على وشك أن يغشى على، وهو أمر لم يحدث لى منذ وقت طويل، منذ رحيلك يا سيدى. قلت: هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ وإذا كان شخص آخر هو الذى يخبرنى بذلك لظننت أنها تمزح معى مزاحًا ثقيلاً، لكن چانيت لم تكن تمزح بأى شكل.

قالت: نعم، هذا صحيح بالفعل. لقد تم العفو عنك! أنا سعيدة جدًّا من أجلك!

وكنت أرى أن الدموع تترقرق فى عينيها، أما أنا فقد انهمرت دموعى.

فى تلك الليلة، ورغم أن والدها مأمور السجن لم يكن قد حصل بعد على الورقة فى يده، وإنما وصلته فقط رسالة تخبره بالأمر، فما كان ليرضى إلا بأن أنقل من زنزانتى فى السجن إلى غرفة النوم الإضافية فى بيت المأمور. وكان هذا من فعل چانيت، ذات الروح الطيبة، لكن أمها ساندتها، فقد كان العفو عنى بالفعل حدثًا غير عادى فى الروتين الكئيب للسجن، والناس يحبون أن تكون لهم علاقة بأحداث من هذا النوع، وبذا يمكنهم أن يتحدثوا عنها إلى أصدقائهم فيما بعد؛ ومن ثم فقد أصبحت موضع الاهتمام.

بعد أن أطفأت شمعتى، رقدت فى أفضل فراش، مرتدية قميص نوم چانيت من القطن الفاخر، بدلاً من الرداء الخشن المصفر الخاص بالسجن، وأنظر إلى السقف الداكن. كنت ألف وأتقلب فى الفراش، ولم أشعر بالراحة بشكل ما، أعتقد أن الراحة هى ما تعود المرء عليه، وفى هذا الوقت كنت قد تعودت جدًّا على سريرى الضيق بالسجن، وليس على غرفة النوم الإضافية ذات الملاءات النظيفة. وكانت الغرفة كبيرة جدًّا لدرجة أنها كانت مخيفة بالنسبة لى، وجذبت الملاءة فوق رأسى لأجعلها أكثر إظلامًا، وهنا شعرت وكأن وجهى يذوب ويتحول إلى وجه شخص آخر، وتذكرت أمى المسكينة فى كفنها وهم يلقونها إلى البحر، وكيف أننى فكرت أنها تغيرت داخل الملاءة، وأصبحت امرأة أخرى، والآن يحدث نفس الشيء لى. بالطبع لم أكن أموت، ولكن حالتى كانت تشبه ذلك بشكل ما.

فى اليوم التالى على الإفطار، كان أفراد عائلة المأمور كلهم يحدقون إلىّ بعيون دامعة، وكأنى شيء عزيز ونادر، مثل طفل أخرج من نهر؛ وقال المأمور إننا يجب أن نشكر الله من أجل الحمل الضائع الذى تم إنقاذه، وقالوا كلهم بحماس: آمين.

فكرت أن هذا هو الأمر. لقد أنقذت، والآن يجب أن أمثل دور شخص تم إنقاذه. وهكذا حاولت القيام بهذا الدور. وكان من الغريب أن أعرف أننى لن أعود القاتلة الشهيرة بعد ذلك، ولكن ربما ينظر إلى كامرأة بريئة اتهمت خطأ، وسجنت ظلمًا، أو على الأقل سجنت لوقت طويل جدًّا،

وأصبحت موضع شفقة بدلاً من مصدر خوف ورعب. وقد استغرق الأمر مني بضعة أيام لأتعود على الفكرة؛ والواقع أنني لست معتادة عليها تمامًا بعد. إنها تحتاج إعدادًا مختلفًا لتعبيرات الوجه؛ ولكني أظن أنها ستصبح أسهل بمرور الوقت.

بالطبع بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعرفون قصتي لن يكون لشخصي معنى بشكل خاص.

بعد الإفطار في ذلك اليوم أصبت باكتئاب غريب. ولاحظت چانيت ذلك وسألتني عن السبب، فقلت لها: لقد كنت في هذا السجن الآن حوالي تسعة وعشرين عامًا، ليس لي أصدقاء أو عائلة خارجه، فأين أذهب، وماذا أفعل؟ ليس لي نقود، ولا أي وسيلة لكسب أية نقود، وليس عندي ملابس لائقة، ومن غير المحتمل أن أحصل على وظيفة في أي مكان في المنطقة، فقصتي معروفة جيدًا ـ لأنه بالرغم من العفو، وهو أمر جيد جدًا، فلا أظن أن سيدة في أي عائلة تفكر تفكيرًا سليمًا تقبل بي في البيت، إذ أنها سوف تخشى على سلامة من تحبهم، ولو كنت أنا نفسي في مكانها، لفعلت نفس الشيء.

لم أقل لها أنني قد تخطيت أيضًا السن الذي يمكنني من الذهاب إلى المدينة، فلم أكن أريد أن أصدمها، فهي قد تربت تربية طيبة، كما أنها تنتمي إلى المذهب الميثودي. رغم أنني ينبغي أن أخبرك يا سيدي، أن هذه الفكرة عبرت ذهني بالفعل. لكن لا يمكن أن تكون هناك أية فرصة، في مثل سني، وفي وجود كل هذه المنافسة، ربما يكون نصيبي بنسًا واحدًا في

كل مرة مع أسوأ البحارة السكرانين فى أى حارة فى مكان مــا، ولســوف أصاب بمرض يقضى علىّ فى خلال عام، وهذا جعل قلبى يسقط بمجــرد التفكير فيه.

ومن ثم، فبدلاً من أن يظهر على الفرح بحصولى علــى جــواز خروج إلى الحرية، بدا لى العفو كأنه حكم بالإعدام. فلسوف أطــرد إلــى الشوارع، وحدى، بلا أصدقاء، لأموت جوعًا وبردًا فى ركن بارد، لا شىء لدى إلا الملابس التى ألبسها، وهى الملابس التى دخلت السجن بها؛ وربما ليس حتى هذه الملابس، حيث أنى لم يكن لدى فكرة عما صارت إليه هذه الملابس؛ فقد كان كل ما أعرفه أنها بيعت أو تم التخلص منها منذ زمــن بعيد.

قــالت چانيت: لا يا جــريس العزيزة، كل ذلك تم التفكير فيــه. لم أكن أريد أن أخبرك بكل شىء مرة واحدة، فقد خشينا أن تكون صــدمة السعادة التى تأتى فجأة بعد كل هذا الشقاء شديدة عليك، فأحيانًا يكون لهــا هذا التأثير. لكن تم توفير منزل طيب لك، فى الولايات المتحدة، وبمجــرد أن تذهبى هناك سوف تتركى الماضى الحزين وراءك، فــلا أحــد هنــاك يعرف عنه شيئًا. سوف تبدئين حياة جديدة.

لم تستخدم چانيت هذه الكلمات بالدقة، ولكن كان هذا هو جــوهر كلماتها.

قلت، ولا يزال اليأس يتملكنى: ولكن ماذا ألبس؟ ربما كنت حقًّــا غير سليمة العقل، فأى شخصية سليمة العقل ربما سألت أولاً عن المنــزل الطيب الذى سوف يتم توفيره، وأين هو، وماذا سوف أفعل هنــاك. وقــد

فكرت فيما بعد فى الطريقة التى تحدثت بها عنه، تم توفير منزل طيب، إنها الطريقة التى تتحدث بها عن كلب أو حصان عجوز لم يعد قادرًا على العمل، ولم تعد أنت نفسك قادرًا على الاحتفاظ به أو القضاء عليه.

قالت چانيت: لقد فكرت فى هذا أيضًا. لقد كانت حقًّا مخلوقة قادرة على تقديم المساعدة. وقالت: لقد نظرت فى المخازن، وبمعجزة وجدت أن الصندوق الذى أتيت به معك لا يزال هناك واسمك على الورقة الملصقة، وأعتقد أن ذلك بسبب كل الالتماسات التى كانت تقدم من أجلك بعد المحاكمة. ربما احتفظوا بأشيائك فى البداية لأنهم فكروا إنك سرعان ما سيتم الإفراج عنك، ولكن بعد ذلك لابد أنهم نسوا كل شىء عنه. سوف آمر بإحضاره إلى غرفتك ثم نفتحه، ما رأيك؟

شعرت ببعض الراحة، رغم بعض الارتياب والهواجس. وكنت على حق فى هواجسى، لأننا عندما فتحنا الصندوق وجدنا أن العثة قد دخلته وأكلت الأصواف، ومن بينها شال أمى الشتوى الثقيل، وبعض الأشياء الأخرى بهتت ألوانها، وأصبحت رائحتها عفنة من الإغلاق عليها طوال هذه الفترة فى مكان رطب؛ الخيوط فى بعضها كانت تقريبًا متعفنة تمامًا، حتى يمكن أن تدخل يدك من خلالها. إن أى قطعة من القماش تحتاج إلى تهوية جيدة من حين لآخر، وهذه لم تحصل على أى تهوية.

أخرجنا كل شىء وبعثرناه فى الغرفة، لنرى ما يمكن إنقاذه. كان هناك فساتين نانسى، التى كانت جميلة جدًّا وهى جديدة، والآن معظمها قد ناله التدمير، والأشياء التى تركتها لى مارى هويتنى، والتى قدرتها كثيرًا فى وقتها، والآن أصبحت شيئًا رديئًا وقديمًا. وكان هناك الثوب الذى

صنعته فى منزل مسز ألدرمان باركينسون، والذى به أزرار من العظم أخذتها من چيرميا، ولكن لا شيء يمكن إنقاذه من هذا الثوب سوى الأزرار. ووجدت خصلة شعر مارى، مربوطة بخيط وملفوفة فى منديل كما تركتها، لكن العثة وصلت إليها أيضًا، فهذه الحشرات يمكن أن تأكل الشعر إذا لم تجد شيئًا أفضل، ولم تكن مخزنة فى خشب أرز.

كانت المشاعر التى اجتاحتنى قوية ومؤلمة. بدا لى أن الغرفة تظلم وأننى أكاد أرى نانسى ومارى تتجسدان داخل ثيابهما مرة أخرى، إلا أن هذه الفكرة لم تكن مدعاة للسرور، فالآن لابد أنهما هما نفسهما فى نفس هذه الحالة الخربة التى أجدها على الثياب. وشعرت بدوار شديد، واضطررت أن أجلس وأطلب كوبًا من الماء وفتح النافذة.

چانيت نفسها فوجئت؛ كانت صغيرة جدًّا حتى يصعب أن تعرف ما هو أثر تسع وعشرين سنة من الانغلاق فى صندوق، رغم أنها حاولت أن ترى الناحية الأفضل فى الموضوع بما يتوافق مع طبيعتها. قالت أنه على أية حال يستحيل أن تتماشى الأثواب مع الموضة هذه الأيام، وأنه من غير الممكن أن يجعلونى أذهب لحياتى الجديدة وأنا أبدو مثل خيال المآتة، ولكن بعض الأشياء يمكن استخدامها رغم كل شيء، مثل اللباس الداخلى من الفانلة الحمراء، وبعض الملابس الداخلية البيضاء، والتى يمكن غسلها بالخل للتخلص من الرائحة العفنة ثم تبييضها فى الشمس، وأنها يمكن أن تعود بيضاء تمامًا. ولم يكن هذا هو الحال بالضبط، فبعد أن فعلنا ذلك أصبحت الأشياء أفتح لونًا، ولكن ليست باللون الذى يمكن أن تسميه أبيض.

قالت: أما الأشياء الأخرى، فسوف نبحث حولنا. وقالت إننى سوف أحتاج إلى خزانة ثياب. ولا أعرف كيف تم الأمر ـ وأشك أنها استجدت من أمها وأخذت تدور بين معارفها وجمعت بعض الأشياء الأخرى، وأعتقد أن المحافظ ساهم بالنقود لشراء الجوارب والأحذية ـ ولكن فى النهاية جمعت لى مخزناً من الثياب. ووجدت الألوان زاهية أكثر من اللازم، مثل اللون الأخضر المطبوع، والقماش العريض المقلم بلون فوشيا على أرضية سماوية اللون؛ إنها الصبغات الكيماوية الجديدة التى تستخدم الآن. ولم تكن هذه الألوان تناسبنى تمامًا؛ لكن الشحاذين لا يمكنهم الاختيار، وقد تعلمت ذلك فى مناسبات عديدة.

جلسنا سويًّا نحن الاثنتين وبدأنا نصلح الثياب لتناسبنى. كنا مثل أم وابنتها نعد جهاز عروس، بروح طيبة جدًّا وحميمية، وبعد بعض الوقت أصبحت فى غاية الانشراح. والشيء الوحيد الذى أسفت عليه كان هو الكرينولين، الذى كانت تصنع منه التنورات التحتية المدعومة بهيكل من السلك، لقد أصبح غير مناسب للعصر على الإطلاق، وأصبح كل الموجود الآن هو الأرداف المستعارة وحزم كبيرة من القماش تربط على الظهر مع الكشكشة والشراريب، وكنت أرى أنها أقرب إلى الأريكة؛ وهكذا لن تتاح لى الفرصة أبدًا للبس الكرينولين. ولكن لا يمكن أن نحصل على كل شيء فى هذه الحياة.

البونيهات انتهت موضتها أيضًا. واليوم لا توجد إلا قبعات من النوع الذى يربط تحت الذقن ومسطحة وتميل إلى الأمام، مثل سفينة تبحر على قمة رأسك، ولها خمار يهفهف خلفها مثل الأثر الذى تخلفه السفينة فى

المياه. أحضرت لى چانيت واحدة، وشعرت شعورًا غريبًا فـــى أول مـــرة أضعها على رأسى، ونظرت فى المرآة. لم تكن تغطى أطــراف شــعرى الرمادى، رغم أن چانيت قالت أننى أبدو أصغر عشر سنوات عن ســنى الحقيقى، وأننى أبدو فتاة فى الواقع؛ والحقيقة أننى حافظــت علـــى شــكل جسدى ومعظم أسنانى. قالت أننى أبدو سيدة حقيقية، وهذا ممكن، فــالفرق الآن فى الملبس بين الخادمة والسيدة أقل مما كان عليه الحال، والموضات يسهل نقلها. قضينا وقتًا مرحًا جدًّا ونحن نضع على أطراف القبعة زهورًا حريرية وأقواسًا، رغم أننى انفجرت فى الدموع عدة مرات بسبب الانفعال الزائد. إن التغيير فى حظ الإنسان دائمًا له هذا التأثير، من الســيئ إلـــى الطيب وبالمثل عندما يحدث العــكس، ولابد أنك لاحظت ذلك فى الحيــاة، يا سيدى.

وعندما كنا نحزم ونلف الأمتعة، قصصت بعض القطع من الثياب المختلفة التى كان يمكن أن أبليها منذ زمن طويل، والتى نصـــيبها الآن أن تلقى فى المهملات؛ وسألت إذا كان يمكن أن أحتفظ بثوب نوم مـــن ثيـــاب السجن من النوع الذى اعتدت النوم فيه، كنوع من التذكار. قالت چانيت إنه تذكار غريب فى رأيها، لكنها طلبت لى واحدًا ومنحونى إياه. وكما تـــرى، كنت بحاجة لشيء يخصنى لآخذه معى.

عندما انتهت كل الاستعدادات، شكرت چانيت بامتنـــان عميـــق. وكنت لا أزال أشعر بالخوف مما سيأتى، لكننى على الأقل سوف أبدو مثل شخصية عادية ولن يحدق بى أحد، وهذا يستحق الكثير. أعطتنى چانيـــت زوجًا من القفازات الصيفـــية، جديدة تقريبًا، ولا أعرف من أين أتت بها.

ثم بدأت تبكى، وعندما سألتها لماذا تبكى، قالت لأننى أستحق نهاية سعيدة، وأن الأمر يبدو كما لو كان قصة فى كتاب؛ وسألت نفسى ترى أى الكتـــب تقرؤها.

- ٥٢ -

كان ٧ أغسطس ١٨٧٢ هو يوم رحيـــلى، ولن أنسى هذا اليـــوم ما عشت.

بعد الإفطار مع عائلة المأمور، والذى لم أستطع أن أتناول منـــه شيئًا تقريبًا لأننى كنت عصبية جدًّا، ارتديت الثوب الـــذى سأســـافر بـــه، الأخضر، والقبعة القش وقد زينت أطرافها لتتناسب مع القفاز الذى أعطته لى چانيت. وضع صندوقى فى العربة؛ ولم يكن هو صندوق نانسى، حيث أن هذا كانت رائحة العفونة فيه زائدة، لكنه كان صندوقًا آخر قدمتـــه لـــى الإصلاحية، من الجلد، وليس باليًا جدًّا. وربما كان يخص روحًا مســـكينة ماتت هناك، لكنى كنت قد تخطيت كثيرًا مرحلة انتقاد الهدية أو البحث عن عيب فيها.

أخذونى لأرى المأمور، كان هذا إجراء رسميًّا، ولم يكـــن لديـــه الكثير ليقوله إلا أن يهنئنى على إطلاق سراحى؛ وإنه على أية حال سوف يصحبنى هو وجانيت إلى البيت الذى تم توفيره، بطلب خاص مـــن ســـير جون ماكدونالد نفسه، حيث كانت النية تتجه لأن أصل إلى هناك بســـلام، وكانوا على علم تام بأننى غير معتادة على طرق السفر الجديدة، بعد غيابى عن الحياة طوال هذه المدة؛ وأيضًا كان ينتشر كثير مـــن الرجـــال الـــذين

يتسمون بالخشونة، جنود مسرحون من الحرب الأهليـــة، بعضــــهم مقعــد وبعضهم ليس لديه وسائل معيشة، وأننى قد أتعرض لخطر مـــن أحــدهم. ومن ثم كنت سعيدة للغاية بالصحبة.

عبرت من بوابات الإصلاحية لآخر مرة والساعة تــدق الثانيـــة عشرة ظهرًا، ورنت الدقات برأسى وكأنها أصوات ألف جرس. حتى تلك اللحظة لم أكن على تمام الثقة بأننى فى وعيى؛ وبينما كنت أرتدى ثيــابى استعدادًا للرحلة شعرت كأننى فاقدة للحس، وبدت الأشياء حولى مســطحة وبلا لون، ولكن الآن، إذا بكل شىء تبعث فيه الحياة فجأة. الشمس مشرقة، وكل حجر من الجدار متألق كالمرآة ومضيئ وكأنه مصباح، كان الأمــر أشبه بعبور بوابات الجحيم والدخول إلى الفردوس، إننى أعتقد أن الجحــيم والفردوس فى موضعين أكثر تقاربًا مما يعتقد معظم الناس.

خارج البوابات كانت هناك شجرة كستناء، كل ورقة من أوراقها بدت محاطة بإطار من النار؛ وفوق الشجرة جلست ثلاث حمامات بيضاء، يلمع ريشها فتبدو أشبه بملائكة عيد الحصاد، وفى تلك اللحظة عرفت أننى بالفعل أصبحت حرة. وكنت فى مثل هذه اللحظات التى يزداد فيها الإشراق أو الإظلام أكثر من المعتاد أتعرض للإغماء، لكنى فى هذا اليوم طلبت من چانيت أملاح النشادر فاستطعت أن أحتفظ بحواسى الكاملة، رغم أننى كنت أستند إلى ذراعها؛ وقالت أن هذا طبيعى، لأننى لو بقيت غير متأثرة فـــى مثل هذه المناسبة الهائلة ما كان ذلك شيئًا طبيعيًّا.

كنت أتمنى أن ألتفت وأنظر خلفى، لكنى تــذكرت امــرأة لــوط وعمود الملح، فأحجمت عن ذلك. والنظر إلى الخلف يمكن أيضًا أن يعنى

أننى آسفة على رحيلى وأتمنى أن أعود، ومن المؤكد أن الأمر لم يكن كذلك، كما يمكن أن تتخيل يا سيدى؛ لكنك سوف تدهش عندما تسمعنى أقول إننى فى الواقع كنت أشعر بنوع من الأسف. فرغم أن الإصلاحية لم تكن مكانًا مريحًا كالبيت، إلا أنها كانت البيت الوحيد الذى عرفته لمدة تقرب من ثلاثين عاما؛ وهو وقت طويل، أطول من الوقت الذى يقضيه كثير من الناس فى هذه الدنيا، ورغم أنه مكان حبس وأسى وعقاب، فإننى على الأقل أعرف طرقاته وطرق المعيشة فيه. ومغادرة مكان تألفه، مهما كنت لا تحبه، إلى المجهول، هو دائمًا أمر يكتنفه بعض الخوف، وأظن أن هذا هو السبب فى أن كثيرًا من الناس يخشون الموت.

بعد هذه اللحظة، عدت مرة أخرى إلى ضوء اليوم العادى، رغم أننى كنت أشعر برأسى خفيفة. كان يومًا حارًا ورطبًا، طقسه أشبه بالطقس على شطآن البحيرات فى أغسطس، لكن كان هناك بعض النسيم القادم عبر المياه، مما جعل الطقس أقل وطأة؛ كان فى السماء بعض السحب، لكنها السحب البيضاء التى لا تنذر بمطر أو رعد. وكان مع چانيت مظلة، رفعتها فوقنا نحن الاثنين ونحن نتقدم فى طريقنا. المظلة كانت هى الشىء الوحيد الذى ينقصنى، فمظلة نانسى الحريرية الوردية كانت قد تعفنت تمامًا.

ذهبنا إلى محطة القطار فى عربة خفيفة يقودها خادم المأمور. ولم يكن القطار ليتحرك قبل موعده فى الواحدة والنصف، لكنى كنت شديدة القلق خشية التأخير، وما أن وصلت هناك لم أستطع الجلوس بهدوء فى استراحة السيدات، ولكن أخذت أسير ذهابًا وإيابًا على الرصيف بالخارج،

حيث كنت شديدة الاضطراب. وأخيرًا وصل القطار، وحش حديدى كبيـــر لامع يقذف بالدخان. ولم أكن قد رأيت فى حياتى قطارًا عن قرب هكـــذا، ورغم أن چانيت أكدت لى إنه لم يكن خطيرًا، إلا أننى لم أســـتطع لشـــدة خوفى صعود الدرجات دون مساعدة.

أخذنا القطار حتى كورنوول، ولكن على الرغم من أنهـــا كانـــت رحلة قصيرة، فقد شعرت أننى لن أحيا إلى نهايتها. كانت الضجة شـــديدة الارتفاع، والحركة سريعة للغاية حتى أننى ظننت أننى سوف أفقد سمعى، وكان هناك قدر كبير للغاية من الدخان الأسود؛ وفاجأنى صـــفير القطـــار حتى كدت يغمى على، رغم أننى تماسكت ولم أصرخ.

شعرت أننى أفضل عندما نزلنا فى محطة كورنوول، وذهبنا من هناك إلى المراسى فى مركبة صغيرة يجرها حصان واحد، وأخذنا مركبًا عبر البحيرة، وكان السفر بالمركب أكثر ألفة بالنســـبة لـــى وأمكننـــى أن أستنشق بعض الهواء المنعش. وكانت حركة الشمس على الأمـــواج فـــى البداية تجعلنى أشعر ببعض الدوار، لكن هذا التأثير انتهى عنـــدما توقفـــت عن النظر إليها. وقدمت إلينا المرطبات، التى أحضرها معه المأمور فـــى سلة، واستطعت أن آكل قليلاً من الدجاج البارد وأشرب قليلاً من الشـــاى الفاتر. وشغلت نفسى بالنظر إلى أزياء السيدات على المركب، والتى كانت متنوعة وذات ألوان زاهية. وقد عانيت بعض المتاعب فى القيام والجلوس مع هذه الكومة من القماش فى أسفل الظهر، حيث أن التعود علـــى هـــذا الشىء يحتاج إلى تمرين، وأخشى أننى لم أكن شديدة الرشاقة، فقـــد كـــان الأمر وكأنما قد ربطت أرداف أخرى على أردافـــك الحقيقيـــة، وكلاهمـــا

يتبعانك في كل مكان مثل دلـــو من الصفيح مربوط لخنزير، لكننى بالطبع لم أقل شيئًا بهذه الفظاظة لجانيت.

على الجانب الآخر من البحيرة، مررنا من خلال مبنى الرســـوم الخاص بالولايات المتحدة، وقال المأمور أنه ليس لدينا ما يستحق رسومًا. ثم أخذنا قطارًا آخر، وكنت سعيدة لأن المأمور كان معنا، وإلا مـــا كنــت لأعرف ماذا أفعل فى الأمتعة وكيف أتصرف مع الحمالين. وبينمـــا كنـــا نجلس فى هذا القطار الجديد، الذى كان أقل ضجيجًا من القطار الســـابق، سألت چانيت عن مصيرى. كنا ذاهبين إلى إيثاكا، نيـــويورك ـــ هذا كـــل ما أخبرونى به ـــ ولكن ماذا سيحدث لى بعد ذلك؟ كيف ســـيكون شـــكل البيت المتوفر، وهل سوف أكون خادمة فيه؛ وإذا كان الأمر كذلك، مـــاذا قيل لأهل البيت هناك عنى؟ فكما ترى يا سيدى، لم أكن أرغـــب فـــى أن أوضع فى مكانة زائفة، أو أن يكون متوقعًا منى إخفاء الحقيقة حول ماضى حياتى.

قالت چانيت أن هناك مفاجأة بانتظارى، وبما أنها سر، لذا لـــيس بإمكانها أن تخبرنى بما هى؛ لكنها مفاجأة طيبة أو هكذا تتمنى أن تكـــون. وقد أخبرتنى بقدر من المفاجأة وهى أن الأمر فيه رجل، قالت إنـــه مـــن السادة؛ لكن لأنها كانت معتادة على إطلاق هذه الكلمة على أى شيء لـــه بنطلون ويزيد على مستوى الجرسون، فلم أفهم شيئًا من ذلك.

عندما قلت أى رجل، قالت أنها لا تستطيع أن تخبرنـــى؛ ولكنـــه كان صديقًا قديمًا لى، أو هكذا قيل لها. وتظاهرت بالحياء، فلم أســـتطع أن أعرف كلمة أخرى منها.

وعدت بفكرى إلى كل الرجال الذين يمكن أن يكون منهم. لم أكن أعرف كثيرًا من الرجال، يمكن أن تقول أن الفرصة لم تتح لى؛ والشخصان اللذان عرفتهما جيدًا، رغم أن معرفتى بهما لم تطل، كانا ميتين، وأعنى مستر كينير وچيمس مكدرموت. كان هناك چيرميا البائع المتجول، ولكنى لم أكن أظن أنه يمكن أن يقوم بعمل يختص بتوفير بيوت، فلم يبد عليه أبدًا أنه من النوع الذى يحب الحياة المنزلية. هناك أيضًا الذين عملت معهم من قبل، مثل مستر كوتس ومستر هراغى، ولكن من المؤكد أنهما إما ماتا أو عجوزان للغاية. والشخص الوحيد الذى كان يمكن أن أفكر فيه أيضًا يا سيدى هو أنت نفسك. ولابد أن أعترف أن الفكرة عبرت ذهنى.

وأخيرًا نزلت فى محطة إيثاكا، وأنا مليئة بالقلق، ولكن أيضًا بالأمل. تدفق ناس كثيرون لملاقاة القطار، والجميع يتكلمون فى وقت واحد؛ وضجة الحمالين، والكثير من الأحمال والصناديق التى تحمل وتدفع على العربات، كل ذلك جعل الوقوف هناك ينطوى على مخاطرة. أمسكت بجانيت بشدة بينما أشرف المأمور على حمل الأمتعة، ثم قادنا إلى الناحية الأخرى من مبنى المحطة، وهى الناحية البعيدة عن القطارات، حيث بدأ ينظر حوله. وهمهم لعدم وجود ما توقع، ونظر إلى ساعته، وإلى ساعة المحطة؛ ثم نظر فى رسالة أخرجها من جيبه، وبدأ قلبى يغوص فى صدرى. ولكنه عاد ونظر أمامه وابتسم، وقال، ها هو رجلنا، وبالفعل كان هناك رجل يسرع نحونا.

كان رجلاً ضخم الجثة وأطول من المعدل العادى، لكنه كان هزيلاً فى نفس الوقت، أى أن ذراعيه وساقيه كانا طويلين، لكن وسطه كان أكثر قوة واستدارة. كان له شعر أحمر ولحية حمراء كبيرة، وكان يرتدى بدلة سوداء من أفضل الأنواع التى تلبس فى أيام الآحاد والتى يلبسها معظم الرجال الآن، إذا كانوا يشعرون بأى راحة على الإطلاق فى الثياب المنتشرة اليوم، وقميصًا أبيض، ولفاعًا داكنًا، وقبعة طويلة كان يحملها فى يديه، ويمسك بها أمامه وكأنها درع، وهو الأمر الذى جعلنى أرى أنه هو أيضًا كان يشعر بالقلق. لم يكن رجلاً رأيته من قبل فى حياتى، ولكن عندما وصل إلينا نظر إلى بنظرة متسائلة ثم وقع على ركبتيه أمام قدمى. وأمسك يدى، بالقفاز وكل شىء، وقال: جريس، جريس، هل يمكن أن تسامحينى أبدًا؟ والواقع أنه تقريبًا قال ذلك فيما يشبه الصياح، وكأنما كان يتمرن عليها وقتًا طويلاً.

جاهدت لأشد يدى منه، معتقدة أنه رجل مجنون، ولكن عندما التفت إلى جانيت لتنقذنى وجدتها مغرورقة فى فيض من دموع التأثر، وكان المأمور ينظر بعيدًا وكأنما لم يكن لديه أمل فيما هو أفضل؛ ورأيت أننى وحدى التى كنت فى حالة ذهول ولا أفهم شيئًا.

ترك الرجل يدى ووقف. قال بحزن: إنها لا تعرفني. جريس، ألا تعرفينني؟ أنا ما كنت أخطئك فى أى مكان.

ونظرت إليه. كان فيه بالفعل بعض الألفة بشكل ما، ولكنى لم أستطع أن أفهم سببها. ثم قال: أنا چيمى وولش. وهنا تبينت أنه هو بالفعل.

ثم ذهبنا إلى فندق جديد قريب من محطة القطـــار، حيـــث أعـــد المأمور غرفًا لنا، وتناولنـــا بعــض المرطبـــات. وكمـــا يمكن أن تتخيل يا سيدى، كان مطلوبًا الكثير من الشرح، لأن آخر مرة رأيت فيها چيمـــى وولش كانت فى محاكمتى بتهمة القتل، عندما كانت شـــهادته التـــى أدارت رؤوس القاضى والمحلفين كثيرًا ضدى لأننى ألبس ملابس القتيلة.

مستر وولش ـ لأننى سوف أدعوه هكذا الآن ـ بدأ يخبرنى أنه فى ذلك الوقت كان يظن أننى مذنبة، رغم أنه لم يكن يتمنى ذلك، لأنه كان معجبًا بى دائمًا، وكان هذا صحيحًا بالفعل؛ لكن عندما مرت السنوات وتقدم فى العمر وأعاد التفكير فى الأمر، وصل إلى قناعة مضادة، وغلبه الشعور بالذنب بسبب الدور الذى لعبه فى إدانتى؛ رغم أنه لم يكن إلا فتى صغيرًا فى ذلك الوقت، ولا يضارع المحامين، الذين قادوه إلى قول أشياء لم يفهم عواقبها إلا فيما بعد. وكنت أعزيه وقلت أنه شىء يمكـــن أن يحـــدث لأى شخص.

بعد موت مستر كينير، أجبر هو وأبوه علـــى تـــرك المزرعـــة، فالملاك الجدد لم يكونوا بحاجة إليهم؛ ثم حصل على وظيفة فى تورنتـــو، والتى استطاع الحصول عليها بناء على الانطباع الطيب الذى أحدثه كفتى لامع وواعد، فى المحاكمة، وهو ما كتب عنه فى الصحف. وهكذا يمكـــن أن تقول أنه بدأ حياته المهنية على حسابى. وظل يـــوفر نقـــوده لســـنوات عديدة، ثم ذهب إلى الولايات، فقد كان رأيه أن الفرصة هناك أكبر ليكون رجلاً عصاميًا ــ فأنت ما تكونه، وليس ما كان عليه أصلك، وسألت بعض الأسئلة. عمل فى السكك الحديدية، كمـــا ذهب إلى الغرب، وظل يوفر كل

ما يستطيع طوال الوقت، والآن هو يملك مزرعته الخاصـــة، وحصـــانين. وقد اهتم بذكر الحصانين، حيث كان يعرف كم كنت أحب تشارلى.

وقد تزوج، لكنه الآن أرمل، وليس لديه أطفال؛ ولم يتوقف أبـــدًا عن تعذيب نفسه بما حدث لى بسببه، وكتب مرات عديدة إلى الإصـــلاحية ليرى كيف تسير أحوالى، لكنه لم يكتب لى مباشرة، حيث إنه لم يكن يريد أن يضايقنى. وبهذه الطريقة سمع عن العفو عنى، ورتـــب المســـألة مـــع المأمور.

وكانت الذروة أنه توسل إلى أن أعفو عنه، وهو أمر كنـــت قـــد فعلته دون طلب منه. فلم أكن أشعر أنه يمكننى أن أحمل ضغينة، وقلت له إننى بلا شك كنت سأسجن على أية حال، حتى لو لم يذكر ملابس نانسى. وعندما انتهينا من الحديث فى كل هذا، وكان يمسك بيدى ويضغط عليهـــا طوال الوقت، طلب منى أن أتزوجه. قال رغم أنه ليس مليونيرًا، إلا أنـــه يمكن بكل تأكيد أن يقدم لى بيتًا طيبًا، بكل ما يمكن أن يكون مطلوبًا، فلديه بعض النقود المحفوظة فى البنك.

وقد أبديت جانبًا من التردد، رغم أن الحقيقة كانت أننى ليست لى أية فرصة أخرى، وسوف يكون من العقوق أن أقول لا، بعـــد كـــل هـــذه المتاعب التى تجشمها. قلت أننى لا أريده أن يتزوجنى بدافع من الواجـــب والشعور بالذنب، وأنكر أن هذه هى دوافعه، وادعى أنه كان دائمًا يحمـــل لى مشاعر دافئة، وأننى لم أتغير إطلاقًا عما كنت عليه فى شبابى ـــ وأننى ما أزال ذات طلعة بهية، هذا ما قاله. وتذكرت زهور الأقحوان فى بستان مستر كينير، وعرفت أنه يفكر فى نفس الشىء.

أصعب شيء بالنسبة لى كان أن أنظر إليه كرجل كامل النضج، فلم أعرفه إلا كصبى الجوكى الذى كان يلعب على الفلوت فى الليلة السابقة على موت نانسى، وكان يجلس على السور فى اليوم الأول الذى جئت فيه إلى بيت مستر كينير.

وأخيرًا، قلت نعم. وكان معه خاتم جاهز، فى صندوق فى جيب جاكتته، وغلبته عاطفته بشدة حتى أنه سقط من يده مرتين على مفرش المنضدة قبل أن يضعه فى إصبعى، وكنت قد خلعت قفازى لذلك.

أعدت ترتيبات الزفاف بأسرع ما يمكن، وبقينا فى الفندق فى هذه الأثناء، وكانت المياه الساخنة تحضر إلى الغرفة كل صباح، وبقيت چانيت معى فى غرفتى حيث أن ذلك أكثر لياقة. وقد دفع مستر وولش التكاليف كلها. وأقمنا مراسم بسيطة بحضور قاضى الصلح، وتذكرت خالتى بولين وهى تقول منذ سنوات كثيرة أننى سوف أتزوج بلا شك ممن هو أقل منى، وتعجبت ماذا يمكن أن تفكر الآن، وقد قامت چانيت بدور وصيفة العروس، وبكت.

وكانت لحية مستر وولش كبيرة جدًا وحمراء، لكننى أكدت لنفسى أنه يمكن تغييرها بمرور الوقت.

- ٥٣ -

ثلاثون عامًا مرت، منذ كنت أقل من ستة عشر عامًا من العمر، وسرت لأول مرة في الممشى المؤدى إلى بيت مستر كينير. كان ذلك أيضًا في شهر يونيو. أما الآن فأنا أجلس في الفراندة في بيتي الخاص، وعلى مقعدى الهزاز؛ والوقت قرب المغرب، والمشهد أمامى شديد السلام حتى ليمكن أن تظنه صورة. شجيرات الورد في مقدمة المنزل في قمة إزهارها ـــ وهى من نوع ليدى هاميلتون، وجميلة جدًّا، رغم أنها معرضة لبعض الآفات. وأحسن شيء، كما يقولون، هو أن تعفرها ببعض الزرنيخ، لكنى لا أحب أن يكون شيء كهذا موجودًا في بيتي.

وتزهر الآن الزهور الأخيرة من الفاوانيا، وهى تنويعة من الأبيض والوردى وذات بتلات كثيفة. لا أعرف اسم هذا النوع، كما لم أكن أنا التى زرعتها؛ ويذكرنى عبيرها بصابون الحلاقة الذى كان يستعمله مستر كينير. وتواجه مقدمة البيت الجنوب الغربى، حيث تأتى شمس دافئة وذهبية، رغم أننى لا أجلس في الشمس مباشرة، فهى ضارة بالبشرة. وفى مثل هذه الأيام، أفكر أن هذا أشبه بالفردوس. رغم أننى في المعتاد لا أفكر في نفسى كذاهبة إلى الفردوس.

مضى على زواجي من مستر وولش حوالى السنة، ورغم أنه ليس ما تتخيله معظم الفتيات فى شبابهن، إلا أنه ربما أفضل، فعلى الأقل كلانا يعرف نوع المساومة التى نخوضها. عندما يتزوج الناس فى شبابهم غالبًا ما يتغيرون وهم يكبرون، ولكن لأننا قد كبرنا بالفعل نحن الاثنان فلن تكون هناك فرص لخيبة الأمل. فالرجل الأكبر له شخصية قد تشكلت بالفعل، وليس من المحتمل أن يدخل فى عادات جديدة مثل الشرب أو ما شابه، لأنه لو كان سيلجأ إلى مثل هذا فلابد أن يكون قد فعل من قبل، أو هذا رأيى، وأرجو أن يثبت الوقت صحة ذلك. وقد حاولت أن أجعل مستر وولش يشذب لحيته بشكل ما، وأن يدخن البايب خارج البيت فقط، وربما فى الوقت المناسب سوف يختفى هذان الشيئان، اللحية والبايب معًا، ولكن الضغط على الرجل ليس مفيدًا، فهو لا يزيدهم إلا عنادًا. ومستر وولش لا يمضغ التوباكو ولا يبصق كما يفعل البعض، وكما كنت دائمًا فأنا أشكر الله على رحمته فى هذه الأمور الصغيرة.

بيتنا هو بيت مزرعة عادى، أبيض اللون، مصاريعه مطلية بالأخضر، ولكنه واسع بما يكفى لنا. فيه صالة أمامية بها صف من الخطاطيف لتعليق المعاطف فى الشتاء، رغم أننا فى الغالب نستخدم باب المطبخ، وسلمًا له درابزين بسيط. وعند رأس السلالم يوجد صندوق من خشب الأرز لتخزين البطاطين والملاءات. ويوجد فى الطابق العلوى أربعة غرف ـ واحدة صغيرة معدة لنوم طفل، ثم غرفة النوم الرئيسية، وواحدة أخرى فى حالة وجود ضيوف، رغم أننا لا نتوقع ولا نريد ضيوفا؛ وغرفة رابعة فارغة فى الوقت الحالى. والغرفتان المفروشتان حاليًا لكل منهما

حامل للحوض، وكل منهما له كليم بيضاوى من الصوف المجدول؛ فلست أبغي سجاجيد ثقيلة؛ حيث أن جرها أسفل السلالم وضربها لتنظيفها مســألة صعبة للغاية، وسوف تكون أصعب مع تقدم العمر بى.

توجد صورة مشغولة بغرزة الصليب فوق كل سرير، وقد قمــت بعمل هذه الصور بنفسى، زهور فى فازة فى غرفة الضيوف، وفاكهة فى طبق فى غرفتنا. والغطاء فى غرفة الضيوف مصنوع على نموذج "عجلة الأسرار"، أما فى غرفتنا فالغطاء هو "الكوخ الخشبى"؛ وقد اشتريتهما فــى بيع مخفض السعر، من أناس فشلوا فى الكسب هنا وكانوا ينتقلــون إلــى الغرب؛ ولكنى شعرت بالأسف من أجل المرأة، ومن ثم دفعت أكثــر مــن المطلوب. وكانت هناك أشياء كثيرة بحاجة للعناية ليصبح كل شىء مريحًا ومتسمًا بالحميمية، ذلك أن مستر وولش كان قد بدأ يعتاد حياة العزوبية بعد وفاة زوجته الأولى، وأصبحت بعض الأشياء غير مستساغة. كانت كميــة كبيرة من نسيج العنكبوت ولفافات الأُتربة الناعمة يجب مسحها من تحــت الأسرة، كما كان ينبغى دعك الأرضيات من القذارة والنفايات المتراكمة.

والستائر الصيفية فى غرفتى النوم كلتاهما بيضاء. إننــى أحــب الستائر البيضاء.

تحت، لدينا ردهة أمامية بها مدفأة، ومطبخ ملحق به خزانة للمؤن وأدوات المائدة، ومكان لغسيل الأطباق وحفظها، كل شىء كامل، والطلمبة موجودة داخل البيت، وهذه ميزة كبرى فى الشتاء. وهناك غرفــة طعــام، لكننا لا نستقبل ضيوفًا فى الغالب لنستخدمها. ففى معظم الوقت نأكل على

مائدة المطبخ؛ ولدينا مصباحا كيروسين، والمكان مريح ودافئ ويشعر بالحميمية والألفة. وأستخدم مائدة غرفة الطعام للخياطة، وهى مفيدة جدًّا ومريحة فى قص النماذج. ولدى الآن ماكينة خياطة، تعمل بعجلة تدار باليد، وهى مثل السحر، ومن المؤكد أننى سعيدة بها جدًّا، فهى توفر كثيرًا من الجهد، خاصة فى الخياطة البسيطة مثل عمل الستائر وثنى أطراف الملاءات. ولا أزال أفضل الخياطة اليدوية الأجمل، رغم أن عينى ليستا كما كانتا فى السابق.

وبالإضافة إلى ما وصفته، لدينا المعتاد: حديقة مطبخ، فيها أعشاب وكرنب والخضر الجذرية، وبسلة فى الربيع؛ ودجاج وبط، بقرة وحظيرة، وعربة خفيفة وحصانان، تشارلى ونيل، وهما مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لى، وصحبة طيبة عندما يكون مستر وولش غير موجود؛ لكن تشارلى يعمل كثيرًا جدًّا، فهو حصان الحرث. ويقولون أنه فى القريب العاجل ستكون هناك ماكينات تؤدي كل هذه الأعمال، وإذا كان الأمر كذلك فيمكن أن نحول تشارلى المسكين إلى الرعى. فلن أتركه أبدًا يباع ليتحول إلى طعام للكلاب ولاستخراج الصمغ، كما يفعل البعض.

وهناك رجل أجير يساعد فى المزرعة، لكنه لا يعيش فى المكان، وقد أراد مستر وولش أن يوظف فتاة أيضًا، لكنى قلت أننى أفضل أداء أعمال البيت بنفسى. فلا أريد خادمة تعيش فى البيت، حيث أنهن يتطفلن كثيرًا، ويستمعن من وراء الأبواب، كما أنه من الأسهل كثيرًا بالنسبة لى أن أقوم بالمهمة بشكل صحيح بنفسى من أول مرة، من أن أترك غيرى يؤديها بشكل خاطئ ثم يعيد أداءها.

لدينا قطة اسمها تابى؛ وهى باللون الذى يمكن أن تخمنه، وقديرة فى صيد الفئران، وكلب اسمه ركس، وهو كلب صيد وليس بارعًا، رغم أنه طيب، وهو باللون الجميل جدًّا البنى المحمر، مثل ثمرة بندق لامعة. وهذه ليست أسماء جديدة ومبتكرة، لكننا لا نريد أن تنتشر عنا سمعة فى المنطقة بأننا شديدى التجديد. ونحن نذهب إلى الكنيسة الميثودية المحلية، والواعظ فيها شخص شديد الحيوية ومغرم ببعض نيران جهنم فى أيام الآحاد؛ ومع ذلك فأنا لا أعتقد أن لديه أى فكرة عما هى جهنم فى الواقع، ليس أكثر مما لدى المجتمعين أنفسهم؛ وهم أرواح جديرة، رغم أنها ضيقة الأفق. ولكننا فكرنا أنه من الأفضل ألا نكشف كثيرًا من الماضى، لهم أو لأى شخص، فلن يؤدى ذلك إلا إلى الفضول والنميمة، ثم إلى الإشاعات الكاذبة. وقد أشعنا أن مستر وولش هو حبيبى منذ الطفولة، وأننى تزوجت شخصًا آخر، لكننى ترملت، وبما أن زوجة مستر وولش توفيت، فقد دبرنا للقاء ثانية، وللزواج. وهى قصة كان من السهل قبولها، ولها ميزة أنها رومانسية، ولا تسبب ألمًا لأحد.

كنيستنا الصغيرة محلية للغاية، وقديمة الطراز؛ لكن فى إيثاكا نفسها طرازات أحدث، كما أن لديهم عددًا من الروحيين هناك، وبعض الوسطاء المشهورين يأتون ويمكثون فى أفضل البيوتات. وأنا لا أذهب إلى أى من هذا، فلا تعرف أبدًا ماذا يمكن أن يأتى منها؛ وإذا كنت أريد الاتصال بالموتى فيمكننى أن أفعل ذلك بطريقتى؛ وبالإضافة إلى ذلك، أخشى أن يكون هناك الكثير من الغش والخداع.

رأيت فى أبريل أحد الإعلانات عن أحد الوسطاء المشاهير، مع صورة له؛ ورغم أن الصورة كانت شديدة القتامة، إلا أننى فكرت فى أن هذا لابد أن يكون چيرميا البائع المتجول؛ وقد كان هو بالفعل، حيث كان لدينا أنا ومستر وولش فرصة للذهاب إلى المدينة لبعض المهمات والمشتريات، ومررت به فى الطريق. كان يرتدى ثيابًا أكثر أناقة من أى وقت من قبل، وعاد شعره أسود مرة أخرى ولحيته مهذبة بالطريقة العسكرية، والتى لابد أنها توحى بالثقة، واسمه الآن مستر چيرالد بريدچز. كان يقوم بتقليد جيد جدًّا لرجل متميز، ومعروف على مستوى العالم كله، ولكن عقله يرى الحقائق العليا؛ وقد رآنى أيضًا، وعرفنى، ولمس قبعته فى تحية احترام لى، ولكن بحركة خفيفة جدًّا حتى لا يلاحظها أحد؛ وغمزة عين خفيفة أيضًا؛ وقد لوحت له بيدى، بخفة، وهى لا تزال داخل القفاز، فأنا ألبس القفاز دائمًا وأنا ذاهبة إلى المدينة. ولحسن الحظ لم يلحظ مستر وولش أيًّا من هذه الإيماءات، وإلا لكانت مصدر ضيق بالنسبة له.

إننى لا أتمنى أن يعرف أحد هنا اسمى الحقيقى؛ لكنى أعرف أن أسرارى فى أمان مع چيرميا، كما أن أسراره في أمان معى. وتذكرت الوقت الذى كان يمكن فيه أن أهرب معه، وأصبح غجرية، أو وسيطة تستبصر الغيب، فقد كان الإغراء بأن أقوم بذلك قويًّا حقًّا؛ وفى تلك الحالة كان مصيرى سوف يتغير تمامًا. لكن لا يعلم إلا الله ما إذا كان سيصبح أفضل أم أسوأ؛ وقد فعلت الآن كل الهروب الذى يتسع له الوقت فى هذه الحياة.

وبشكل عام، نتفق أنا ومستر وولش، وتسير الأمور بيننا على خير ما يرام. ولكن هناك أمر أقلقني يا سيدى، وبما أننى ليست لى صديقة يمكن أن أثق بها، فأنا أخبرك أنت عن هذا الأمر، وأعلم أنك ستحفظ السر.

من حين لآخر يشعر مستر وولش بحزن شديد، ويمسك بيدى ويتأملنى والدموع فى عينيه، ويقول دعينى أفكر فى المعاناة التى سببتها لك.

أقول له أنه لم يكن سببًا فى أية معاناة ـ إنما هم آخرون الذين سببوا هذه المعاناة، وكذلك سوء حظ ومحاكمة غير عادلة ـ ولكنه يحب أن يفكر إنه هو السبب فى كل هذا، وأعتقد أنه يمكن أن يدعى أنه السبب فى موت أمى أيضًا إذا أمكنه أن يتوصل إلى ذلك. كما أنه يحب تصور المعاناة أيضًا، ولا شيء ينفع معه إلا أن أقص عليه بعض الأحداث حول حياتى فى الإصلاحية، أو المصحة العقلية فى تورنتو. وكلما وصفت مدى سوء الحساء الذى كان يقدم لنا، وفساد الجبن، وكلما زدت من قدر مضايقات الحراس وكلماتهم الغليظة كلما أحب الحكاية أكثر. إنه يستمع إلى كل ذلك مثل طفل يستمع إلى قصة خيالية، كما لو كانت شيئًا رائعًا، ثم يتوسل إلى أن أخبره بالمزيد. وإذا أضفت من وصف البرد القارس والرعشة التى كانت تنتابنى أثناء الليل تحت البطانية الخفيفة، والضرب بالسوط إذا اشتكيت، يشعر بالابتهاج؛ وإذا أضفت التصرفات غير اللائقة التى كان يتصرفها د. بانرلينج معى، والحمامات الباردة عاريات وملفوفات فى ملاءة، والصدرية المسطحة فى الغرفة المظلمة، يبدو وكأنه وصل إلى النشوة التامة؛ ولكن أحب جزء من القصة إليه عندما كان المسكين چيمس

مكدرموت يشدنى فى أنحاء بيت مستر كينير، باحثًا عـن سـرير لتنفيـذ أغراضه الشريرة، ونانسى ومستر كينير راقدان ميتان فى القبو، وأنا أكاد أغيب عن الوعى من الرعب؛ ويلوم نفسه أنه لم يكن هناك لينقذنى.

أنـا نفـسى أفضـل أن أنسى هـذا الجزء من حيـاتى بأسرع ما أستطيع، بدلا من التحويم حوله بهذه الطريقة الجنائزية. حقيقـة أننـى أحببت الوقت الذى فيه كنت أنت يا سيدى فى الإصلاحية، لأنه كسر رتابة أيامى، التى كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتغير. والآن وأنا أفكر فـى ذلك الوقت، أرى أنك كنت بنفس توق مستر وولش لسماع كل شىء عـن معاناتى ومتاعبى فى الحياة؛ وليس هذا فقط، بل إنك كنت تكتب ذلك أيضًا. وكان يمكننى أن أعرف متى كان اهتمامك يفتر، فنظرتك تشـرد؛ ولكنـى كنت أشعر بالسرور عندما أستطيع أن آتى بشيء يثير اهتمامـك. كانـت وجنتاك تحمران، وتبتسم مثل الشمس فى ساعة الردهة فى بيت مسز ألدار پاركينسون، وإذا كانت لديك أذنان مثل أذنى الكلب، فلابد أنهما كانتا سوف تنفران إلى الأمام، مع لمعان عينيك وتدلى لسانك كما لـو كنـت وجـدت دجاجة برية وسط الشجيرات. كان هذا يشعرنى بأن لى فائـدة فـى هـذا العالم، رغم أننى لم أفهم أبدًا على وجه التحديد ما الذى كنت ترمى إليـه بكل هذا.

أما مستر وولش، فبعد أن أخبره ببعض قصص التعذيب والبؤس، يأخذنى بين ذراعيه ويربت على شعرى، ويبدأ فى فك أزرار ثياب نومى، فهذه المشـاهد تحـدث دائمًا فى الليل؛ ويقول، هل يمكن أن تغفرى لـى ذات يوم؟

في البداية كان ذلك يضايقنى كثيرًا، رغم أننى لم أكن أقول ذلك. والواقع أنه لا يفهم حقيقة التسامح إلا قليلون جدًّا. وليس المجرمون هم الذين يجب أن نغفر لهم؛ بل الضحايا، لأنهم كانوا هم الذين تسببوا فى كل هذه المتاعب. فإذا كانوا أقل ضعفًا وإهمالاً، وأكثر حكمة فى تقدير العواقب، وإذا توقفوا عن التورط فى المتاعب، فكم من المآسى يمكن للعالم أن يتجنبها فى هذه الحالة!

كان قلبى مليئًا بالغضب سنوات كثيرة، بالغضب على مارى هويتنى، وبخاصة على نانسى مونتجومرى؛ بالغضب عليهما معًا، لأنهما قادتا نفسيهما إلى الموت بهذه الطريقة التى حدثت، وتركتانى أعانى من كل هذا الحمل الثقيل الناتج عما حدث لهما. ولم أجد فى نفسى لفترة طويلة قدرة على الغفران لهما. وكان الأفضل كثيرًا لو يغفر مستر وولش لى، بدلاً من أن يكون بهذا العناد ويريد الأمر بالعكس؛ ولكن ربما سوف يأتى الوقت الذى يرى الأمور على وجهها الصحيح.

عندما بدأ ذلك فى البداية، قلت ليس هناك ما أغفره له، وإنه لا يجب أن يقلق على ذلك؛ ولكن لم تكن تلك هى الإجابة التى يريدها. وأصر على أن أغفر له، وبدا أنه لا يستطيع أن يشعر بالراحة بغير ذلك، ومن أنا لكى أرفض أن أمنحه مثل هذا الشىء البسيط؟

وهكذا، فى كل مرة يحدث ذلك الآن، أقول له أنى أغفر له. أضع يدى على رأسه كما لو كان فى كتاب، وأنظر إلى أعلى بنظرة جليلة مهيبة، ثم أقبله وأبكى قليلا؛ ثم بعد أن أمنحه الغفران، يعود إلى حالته

العادية فى اليوم التالى، يلعب على الفلوت كما لو كان قد عاد صبيًّا مرة أخرى وأنا فى الخامسة عشرة ونحن بالخارج فى البستان نصنع عقود الأقحوان فى منزل مستر كينير.

ولكنى لا أشعر بأن ذلك عدل، وأنا أغفر له بهذه الطريقة، لأننى أدرك أننى بهذا أكذب. رغم أنى أظن أنها أول كذبة صدرت عنى؛ ولكن كما كانت مارى هويتنى تقول إن كذبة بيضاء صغيرة، مثل الكلام عن الملائكة، هى ثمن صغير ندفعه للحصول على السلام والهدوء.

أفكر فى مارى هويتنى كثيرًا هذه الأيام، وعندما ألقينا بقشر التفاح من فوق كتفينا؛ وقد حدث كل ذلك بالفعل. كما قالت لى تمامًا، تزوجت من رجل يبدأ اسمه بحرف "چ"؛ وكما قالت أيضًا، كان يجب أن أعبر الماء ثلاث مرات، حيث أننى عبرت الماء مرتين فى المعدية إلى لويستون، ذهابًا وإيابًا، ثم مرة ثالثة فى طريقى إلى هنا.

وأحلم أحيانًا بأننى فى غرفتى الصغيرة فى منزل مستر كينير، قبل كل الرعب والمأساة؛ وأشعر بالأمان هناك، حيث لا أعرف ماذا سيأتى. وأحيانًا أحلم بأننى لا أزال فى الإصلاحية؛ وأننى سوف أستيقظ لأجد نفسى محبوسة مرة أخرى فى زنزانتى، أرتعش على الحشية القش فى صباح شتوى بارد، والحراس يضحكون فى الفناء بالخارج.

ولكننى هنا بالفعل، فى بيتى الخاص، فى مقعدى الخاص، أجلس فى الفرانده. أفتح عينى وأغلقهما، وأقرص نفسى، لكنها تظل هى الحقيقة.

والآن هناك شىء آخر لم أخبر به أحدًا.

لقد مر عيد ميلادى الخامس والأربعون عندما خرجت من الإصلاحية، وسوف أبلغ السادسة والأربعين فى أقل من شهر، وقد فكرت أننى قد تخطيت فترة القدرة على حمل طفل. لكن إذا لم أكن مخطئة، فإننى حامل الآن فى شهرى الثالث؛ إما أنه ذلك، أو هو التغير الطبيعى الذى يحدث للمرأة. من الصعب أن أصدق، ولكن كانت هناك معجزة فى حياتى بالفعل، فلماذا يدهشنى أن تكون هناك معجزة أخرى؟ مثل هذه الأشياء حكى عنها الإنجيل؛ وربما كان الله يخبئ بعض العوض عن كل ما عانيته فى سن أصغر. ولكن من الممكن أيضًا أن يكون ورمًا خبيثًا، مثل ذلك الذى قتل أمى المسكينة فى النهاية؛ فرغم أننى أشعر بثقل ما؛ فأنا لم أعان من الغثيان فى الصباح. من الغريب أن تعرف أنك تحمل داخلك إما حياة وإما موتًا، ولكن لا تعرف أيهما. ورغم أن كل هذا يمكن حله باستشارة طبيب، فإننى شديدة التردد فى اتخاذ مثل هذه الخطوة؛ ومن ثم أظن أن كل شىء سيظهر بمرور الوقت.

بينما أجلس بالخارج فى الفراندة فى العصارى؛ أقوم بالخياطة والتطريز فى الغطاء الذى أصنعه. ورغم أننى صنعت كثيرًا من الأغطية فى شبابى، فإن هذا الغطاء هو أول غطاء أصنعه لنفسى. والغطاء على نموذج شجرة الفردوس؛ لكنى غيرت التصميم قليلاً ليناسب أفكارى.

لقد فكرت كثيرًا فيك وفى تفاحتك يا سيدى، واللغز الذى قدمته لى ذات مرة، أول مرة التقينا فيها. لم أفهمك فى ذلك الوقت، لكن لابد أنك كنت تحاول أن تعلمنى شيئًا، وربما لم أستطع حدسه إلا الآن. فالطريقة التى أفهم بها الأشياء، مثل أن الإنجيل ربما هو فكر الله فى الأصل، لكنه

كتب بأيدى الناس. ومثل كل شيء يكتبه الناس، كالصحف مثلاً، يضعون القصة الأساسية بالطريقة الصحيحة، لكن بعض التفاصيل تكون خطأ.

فنموذج الغطاء اسمه "شجرة الفردوس"، ومن وضعت هذا الاسم لذلك النموذج وضعت اسمًا لا تعرف معناه، فالإنجيل لا يقول "أشجار". إنما يقول كانت هناك شجرتان مختلفتان، شجرة الحياة، وشجرة المعرفة؛ ولكنى أعتقد أن هناك شجرة واحدة، وأن ثمرة الحياة وثمرة الخير والشر كلها نفس الشيء. وإذا أنت أكلت من هذه الثمرة سوف تموت، وإذا لم تأكل منها فسوف تموت أيضًا؛ ولكن إذا أكلت منها فلسوف تكون أقل جهلاً عندما يأتى أوان موتك.

ومثل ذلك الترتيب يبدو أكثر شبهًا بالحياة فى الواقع.

وأنا لا أقول هذا لأى أحد إلا لك، لأننى أعرف أنها ليست القراءة المتفق عليها.

وفى شجرة فردوسى، أنوى أن أضع إطارًا من الأفاعى المجدولة ببعضها؛ سوف تبدو فى عيون الآخرين مثل أفرع العنب أو مجرد نموذج لإطار، فأنا أنوى أن أجعل العيون صغيرة جدًّا، ولكنى سأعرف أنها أفاعٍ؛ فبدون وجود أفعى أو اثنتين، سيضيع الجزء الأساسى من القصة. إن بعض من يستخدمون هذا النموذج يصنعون أشجارًا عديدة، أربع أشجار أو أكثر فى مربع أو دائرة، لكننى سوف أصنع شجرة كبيرة واحدة، على خلفية بيضاء. الشجرة نفسها مكونة من مثلثات، بلونين، لون غامق للأوراق، ولون أفتح للثمار؛ وأستخدم اللون القرمزى للأوراق، والأحمر للثمار.

وهناك ألوان كثيرة مشرقة، بالصبغات الكيماوية التى انتشرت الآن، وأعتقد أنه سوف يكون جميلاً جدًّا.

ولكن ثلاثة من المثلثات فى شجرتى ستكون مختلفة. أحدها سيكون أبيض، من التنورة الداخلية التى لا تزال عندى من ملابس مارى هويتنى؛ والآخر سيكون مصفرًّا باهتًا، من قميص النوم الذى كنت أستخدمه فى السجن والذى رجوت أن أحتفظ به كتذكار عندما غادرت السجن. والثالث سيكون من القطن الفاتح، به وردات بيضاء ووردية، أقصوصة من فستان نانسى الذى كانت ترتديه فى أول يوم ذهبت فيه إلى بيت مستر كينير، والذى ارتديته فى المركب فى طريقى إلى لويستون عندما كنت أهرب.

وسوف أطرز حول كل قطعة من هذه الثلاث بغرزة الريشة، وبخيط أحمر، لأميزها كجزء من النموذج.

وهكذا سوف نبقى جميعًا معًا.

كلمة أخيرة

المذنبة عمل روائى، رغم أنه قائم على أحداث جرت فى الواقع. الشخصية الرئيسية فيه، جريس ماركس، كانت من أشهر نساء كندا فى أربعينيات القرن التاسع عشر، حيث أدينت بارتكاب جريمة القتل وهى بعد فى السادسة عشرة من عمرها.

حدثت جريمة قتل كينير ومونتجومرى فى ٢٣ يوليو ١٨٤٣، وانتشرت أخبارها ليس فقط فى الصحف الكندية، ولكن أيضًا فى صحف الولايات المتحدة وبريطانيا. والتفاصيل شديدة الإثارة: فجريس ماركس كانت فتاة جميلة إلى درجة غير عادية، كما كانت صغيرة جدًّا؛ ومدبرة منزل كينير، نانسى مونتجومرى، سبق لها أن وضعت طفلاً غير شرعى، وكانت عشيقة توماس كينير؛ وعن

د تشريحها وجد أنها حامل. هربت جريس ماركس وزميلها الخادم مكدرموت إلى الولايات المتحدة سويًّا، واعتبرتهما الصحف حبيبين. وكان اجتماع الجنس والعنف، والتمرد البائس للطبقات الدنيا شديد الجاذبية بالنسبة للصحفيين فى ذلك العصر.

عقدت المحاكمة فى أوائل نوفمبر. ولم يحكم إلا فى قضية قتل كينير: فالمتهمان كلاهما حكم عليهما بالإعدام، مما جعل المحكمة تعتبر أن

نظر قضية نانسى مونتجومرى غير ضرورى. وشنق مكدرموت أمام جمع غفير فى ٢١ نوفمبر؛ لكن الرأى حول جريس كان منقسمًا منذ البداية، ونتيجة مجهودات محاميها، كينيث ماكنزى، ومجموعة من مقدمى الالتماسات من الرجال من علية القوم ــ والذين ترافعوا دفاعًا عن شبابها الغض، وضعف جنسها، وما يفترض فيها من سذاجة ــ تم تخفيف الحكم عليها إلى السجن مدى الحياة، ودخلت الإصلاحية المحلية فى كينجستون فى ١٩ نوفمبر ١٨٤٣.

واستمرت الكتابة عن جريس تظهر فى الصحف طوال القرن، واستمرت تستقطب الرأى حولها. وأظهرت المواقف التى اتخذت حيالها نوعًا من الغموض وعدم الفهم حول طبيعة المرأة: هل كانت جريس شيطانة ومغوية، وهى التى حثت على ارتكاب الجريمة، وبذلك تكون هى القاتل الحقيقى لنانسى مونتجومرى، أم أنها كانت ضحية رغم إرادتها، أجبرت على الصمت بسبب تهديدات مكدرموت وخوفها على حياتها؟ ومما زاد الطين بلة أنها هى نفسها روت ثلاث روايات مختلفة حول قتل مونتجومرى، بينما روى مكدرموت روايتين.

تعرفت على قصة جريس ماركس لأول مرة من خلال كتاب سوزانا مودى **Life in the Clearings (1853)**. وكانت سوزانا مودى معروفة بكتابها ***Roughing It in the Bush***، وهى رواية غير مشجعة عن حياة الرواد الأوائل فيما كان معروفًا فى ذلك الوقت بكندا العليا، وهى أونتاريو اليوم. وكان الجزء الثانى بعنوان **Life in the Clearings**، مقصودًا به عرض الجانب الأكثر تحضرًا من "غرب كندا"، كما كانت

تعرف فى ذلك الوقت، وتضمن الكتاب وصفًا يدل على الإعجاب لكل من الإصلاحية المحلية فى كينجستون، والمصحة العقلية فى تورنتو. وكانت مثل هذه المؤسسات العامة تحظى بزيارة الناس كما لو كانت حديقة حيوان. وفى المكانين كليهما، طلبت مودى رؤية النجم الجذاب، جريس ماركس.

وكانت رواية مودى للجريمة هى رواية المتداول الثالث. وفيها تصف جريس بأنها المحرض الرئيسى، منساقة بحبها لتوماس كينير وغيرتها من نانسى، وباستخدام وعد بمنح نفسها لمكدرموت لتحثه على ارتكاب الجريمة. وتم تصوير مكدرموت بأنه مسلوب العقل بسببها، ومن السهل السيطرة عليه. ولا تستطيع مودى مقاومة إغراء الميلودراما الأدبية، ولم يكن تقطيع جسد نانسى إلى أربعة أرباع اختراعها الخالص، وإنما هو تقليد خالص لهاريسون آينزوورث. وكان تأثير رواية ديكنز *أوليفر تويست* ــ التى كانت مفضلة لدى مودى ــ واضحًا للغاية بالنسبة لما روته عن العيون التى يغلقها الدم والتى قالت أنها تلاحق جريس ماركس.

وبعد مشاهدتها لجريس ماركس فى الإصلاحية بقليل، صادفتها فى المصحة العقلية فى تورنتو، حيث كانت قد أودعت فى جناح مرضى العنف. ورواية مودى الأصيلة عن مشاهداتها هى جديرة بالتصديق بشكل عام، ومن ثم فإن روايتها عن جريس وهى تصرخ أو تثب مرحًا لابد أن تكون صحيحة. ولكن بمجرد نشر كتاب مودى ــ وبعد قليل من تعيين جوزيف وركمان الطبيب الإنسان كمشرف طبى على المصحة ــ اعتبرت جريس عاقلة بما يكفى لإعادتها إلى الإصلاحية؛ حيث ترينا السجلات أنها

كانت محل شك فى أن تكون قد أصبحت حاملاً فى فترة غيابها. وكانت تلك أعراض كاذبة، لكن من فى المصحة كان يمكن أن يكون هو الفاعل المفترض؟ كانت أجنحة المصحة معزولة؛ والرجال الوحيدون الذين كان يسهل اتصالهم بالمرضى من النساء كانوا هم الأطباء.

وخلال العقدين التاليين، تظهر جريس فى سجلات الإصلاحية من حين لآخر. من المؤكد أنها كانت قادرة على القراءة والكتابة، حيث تصفها مذكرات المأمور بأنها تكتب رسائل. وقد أثرت فى عدد كبير من الأشخاص المحترمين ـ ومنهم رجال دين ـ حتى عملوا بكل جهدهم بالنيابة عنها، وقدموا العديد من الالتماسات التى تهدف إلى الإفراج عنها، وسعوا إلى الحصول على الرأى الطبى ليدعم قضيتهم. ويقرر اثنان من الكتاب أنها كانت خادمة موثوقًا بها لسنوات عديدة فى بيت "المحافظ" - ربما محافظ الإصلاحية ـ رغم أن سجلات السجن غير الكاملة لا تشير إلى ذلك. ولكن، كان من المعتاد فى ذلك الوقت فى أمريكا الشمالية تأجير المساجين للعمل اليومى.

وفى ١٨٧٢، منحت جريس ماركس العفو أخيرا؛ وترينا السجلات أنها ذهبت إلى ولاية نيويورك، مصحوبة بالمأمور وابنته، إلى "منزل مقدم لها". ويدعى الكُتّاب فيما بعد أنها تزوجت هناك، رغم أن الدليل على ذلك ليس موجودًا، وبعد هذا التاريخ، اختفى كل أثر لها. ولا نعرف بوضوح هل كانت حقًا شريكة فى قتل نانسى مونتجومرى وعشيقة جيمس مكدرموت، ولا نعرف أيضًا إذا ما كانت "مجنونة" حقًا

ام أنها مثلت الجنون ــ كما كان يفعل كثيرون ــ لتضمن ظروفًا أفضل لنفسها. إن الشخصية الحقيقية لجريس ماركس تبقى لغزًا غامضًا.

ويبدو أن توماس كينير جاء من عائلة اسكتلندية من كينلوتش، بالقرب من كوبار، فى "فيفى"، وأنه كان توأم وريث أملاك العائلة؛ الذى كان يكبره بسويعات قليلة. ورغم ذلك، من الغريب أن طبعة من كتاب **Burke's Peerage** تذكر أنه توفى فى نفس الوقت تقريبًا الذى ظهر فيه فى غرب كندا. وقد ظل منزل كينير فى ريتشموند هيل قائمًا حتى أواخر القرن، وكان موضع اهتمام المرتادين للمنطقة لرؤيته. وقد أسست زيارة سايمون جوردان لهذا البيت على رواية أحد هؤلاء. أما مقبرتى توماس كينير ونانسى مونتجومرى فهما لا تزالان فى الكنيسة المشيخية البروتستانتية فى ريتشموند هيل، رغم عدم وجود شاهد عليهما. وقد كتب ويليام هاريسون فى ١٩٠٨ قائلاً أن سور العيدان الخشبية المحيط بهما قد أزيل، فى وقت تم فيه إزالة كل الأسوار المشابهة حول المقابر. وكذلك اختفت شجرة الورد التى كانت فوق مقبرة نانسى.

ملاحظات أخرى: تفاصيل حياة السجن والمصحة العقلية مستمدة من السجلات المتاحة. معظم الكلمات فى رسالة د. وركمان هى كلماته بالفعل. "د. بانرلينج" يعبر عن الآراء التى نسبت إلى د. ووركمان بعد وفاته، والتى لا يمكن أن تكون هى آراءه نفسه.

تصميم منزل باركينسون شديد الشبه بقلعة دوندورن فى هاميلتون، أونتاريو. وكان شارع لوت فى تورنتو هو اسم جزء من شارع كوين. والتاريخ الاقتصادى للوميسفيل، وطريقة معاملة بنات المصانع، هو

نفس تاريخ لوويل، ماساتشوستس، مع بعض التصرف الحر. مصير مارى هويتنى له ما يوازيه فى السجلات الطبية لدكتور لانجستاف فى ريتشموند هيل. صورتى البورتريه لكل من جريس ماركس وجيمس مكدرموت فـــى بداية الكتاب جاءت مـــن اعترافيهمـــا، المنشـــور فـــى جريـــدة ***Star and Transcript***، التى كانت تصدر فى تورنتو.

جنون الروحانيين فى شمال أمريكا بدأ فى ولاية نيويـــوزك فـــى أربعينيات القرن التاسع عشر، مع "مقارع" أخوات فوكس، واللاتى جـــئن أصلاً من بيلفيل ــ حيث كانت سوزانا مودى تقيم فى ذلك الوقت، وحيـــث تحولت إلى "الروحانية". ورغم أنها سرعان ما اجتذبت عددًا من الـــدجالين والمشعوذين، فإن الحركة انتشرت سريعًا ووصـــلت إلـــى ذروتهـــا فـــى خمسينيات القرن التاسع عشر، وكانت قوية بشـــكل خـــاص فـــى ولايـــة نيويورك ومنطقة كينجستون ــ بيلفيل. وكانت الروحانية نشاطًا شبه دينـــى للعصور التى سمح فيها للنساء ببعض مظاهر السلطة المشكوك فيها، حيث أن النساء أنفسهن كان يفترض أنهن مجرد قنوات ناقلة لإرادة الروح.

التنويم المغناطيسى (المسمرية) كان قد أدين كإجراء علمى سيئ السمعة فى بدايات القرن التاسع عشر، ولكنه كان يمارس على نطاق واسع عن طريق رجال العروض العامة المشبوهة فى أربعينيات القرن. وبظهور "التنويم العصبى" لجيمس بريد، والذى أطاح بفكرة "التدفق المغناطيســـى"، بدأ الاحترام يعود إلى التنويم المغناطيسى، وفى الخمسينيات كان التنـــويم المغناطيسى قد اكتســـب بعض الأتباع من ضمن الأطبـــاء الأوروبيـــين،

رغم أنه لم يكن بعد قد بلغ القبول الواسع الانتشار كتقنية نفسية والذى سوف يصل إليه فى أواخر ذلك القرن.

وكان التوالد السريع للنظريات الجديدة حول الأمراض العقلية أحد مميزات أواسط القرن التاسع عشر، كما انتشرت العيادات والمصحات النفسية، العامة والخاصة. وكان هناك الكثير من الإثارة والفضول بين الأطباء والعلماء والكُتاب على السواء، حول ظواهر مثل الذاكرة وفقدان الذاكرة، والمشى أثناء النوم، والهستريا، ونوبات النوم، والأمراض العصبية، ودلالات الأحلام. وقد انتشر الاهتمام الطبى بالأحلام بشدة حتى أن طبيبًا ريفيًا مثل د. چيمس لانجستاف كان يسجل أحلام مرضاه. وقد تم وصف "ازدواج الشخصية"، فى بدايات القرن؛ وقد تمت مناقشته مناقشة جادة فى أربعينيات القرن التاسع عشر، رغم أنه حصل على اهتمام أكثر بكثير فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن. وقد حاولت أن أؤسس آراء د. سايمون جوردان على الأفكار المعاصرة التى ربما كانت متاحة له.

وبالطبع أضفت من خيالى أحداثًا تاريخية (كما فعل الكثير من المعلقين على هذه القضية، رغم ادعائهم بأنهم يكتبون التاريخ). ولكنى لم أغير أيًا من الحقائق المعروفة، رغم أن الروايات المكتوبة شديدة التناقض، حتى أن الحقائق التى تعتبر "معروفة" بشكل لا لبس فيه، قليلة للغاية. هل كانت جريس تحلب البقرة، أو تجمع بعض الثوم، عندما ضُربت نانسى بالفأس؟ لماذا كان قميص مكدرموت على جثة كينير، ومن أين حصل مكدرموت على القميص ــ من بائع، أم من صديق بالجيش؟ كيف وصل الكتاب أو المجلة المغطاة بالدم إلى فراش نانسى؟ أى واحد من المحامين

المحتملين ممن يحملون اسم كينيث ماكنزى كان هو القائم بالــدفاع؟ وقــد حاولت فى حالات الشك أن أختار أكثر الاحتمالات معقولية، مع وضع كل الاحتمالات الأخرى فى اعتبارى. وفى الأماكن التى ظهرت فيهــا مجــرد تلميحات أو فجوات واضحة فى السجلات، سمحت لنفسى بالإبداع بحرية.

شكر وتقدير

أريد أن أشكر بشدة موظفي السجلات والمكتبات، الذين ساعدوا على إيجاد بعض الأجزاء الناقصة، والذين بدون خبرتهم المهنية ما كان يمكن لهذه الرواية أن تكتمل، وهم:

ستيف أونج Dave St. Onge، أمين وثائق إدارة التصحيح بمتحف كندا، كنجستون، أونتاريو؛ مارى لويد Mary Lloyd، أمينة مكتبة لقسم التاريخ المحلى وعلم الأنساب، مكتبة ريتشموند هيل العامة، ريتشموند هيل، أونتاريو؛ كارين بيرجستاينسون Karen Bergsteinsson، أمينة وثائق المراجع بدار وثائق أونتاريو، تورنتو؛ هيثر ماكميلان Heather J. Macmillan، أمين وثائق، قسم الوثائق الحكومية، دار الوثائق القومية الكندية، أوتاوا؛ بتى مور Betty Jo Moore، أمينة وثائق، فى دار وثائق تاريخ الصحة النفسية والعقلية، مركز كوين إستريت للصحة العقلية، Queen Street Mental Health Centre، تورنتو؛ آن ـ مارى لانجلويس Ann-Marie Langlois، وجابرييل إيرنشو Gabrielle Earnshaw، أمينا وثائق الجمعية القانونية لوثائق كندا العليا، أوسجود هول، تورنتو؛ كارين تيبل Karen Teeple، مدير دار وثائق مدينة تورنتو، وجليندا ويليامز

Glenda Williams، استعلامات هذه الدار؛ كين ويلسون Ken Wilson، من أرشيفات الكنيسة المتحدة، جامعة فيكتوريا، تورنتو؛ و.. نيل سـمبل Neil Semple، الذى يقوم بكتابة تاريخ المذهب الميثودى فى كندا.

أحب أيضًا أن أشكر آيلين كريستيانسون Aileen Christianson، من جامعة إدينبره، إسكتلنده، وعلى لومسدين Ali Lumsden، اللذين ساعدا على تتبع أصول توماس كينير.

وبالإضافة إلى المواد الأرشيفية المذكورة بعاليـه، لجـأت إلـى صحف العصر، وأهم هذه الصحف:

Star and Transcript (Toronto);

Chronicle and Gazette (Kingston);

The Caledonian Mercury (Edinburgh, Scotland);

The Times (London, England);

British Colonist (Toronto);

The Examiner (Toronto);

Toronto Mirror;

The Rochester Democrat.

وقد وجدت الكثير من الكتب مفيدة، ولكن بشكل خاص:

Susanna Moodie, *Life in the Clearings* (1853, reprinted by Macmillan, 1959);

------ *Letters of a Lifetime,* edited by Ballstadt, Hopkins, and Peterman, University of Toronto Press, 1985;

Chapter IV, Anonymous, in *History of Toronto and County of York, Ontario,* Volume 1, Toronto: C. Blackett Robinson, 1885;

Beeton's Book of Household Management, 1859-61, reprinted by Chancellor Press in 1994;

Jacalyn Duffin, *Langstaff: A Nineteenth-Century Medical Life,* University of Toronto Press, 1993;

Ruth McKendry, *Quilts and Other Bed Coverings in the Canadian Tradition,* Key Porter Books, 1979;

Mary Con-way, *300 Years of Canadian Quilts,* Griffin House, 1976;

Marilyn L. Walker, *Ontario's Heritage Quilts,* Stoddart, 1992;

Osborne and Swainson, *Kingston: Building on the Past,* Butternut Press, 1988;

K. B. Brett, *Women's Costume in Early Ontario,* Royal Ontario Museum, University of Toronto, 1966;

Essays in the History of Canadian Medicine, edited by Mitchinson and McGinnis, McClelland & Stewart, 1988;

Jeanne Minhinnick, *At Home in Upper Canada,* Clarke, Irwin, 1970;

Marion Macrae and Anthony Adamson, *The Ancestral Roof,* Clarke, Irwin, 1963;

The City and the Asylum, Museum of Mental Health Services, Toronto, 1993;

Henri F. Ellenberger, *The Discovery of the Unconscious,* Harper Collins, 1970;

Ian Hacking, *Rewriting the Soul,* Princeton University Press, 1995;

Adam Crabtree, *From Mesmer to Freud: Magnetic Sleep and the Roots of Psychological Healing,* Yale University Press, 1993;

and Ruth Brandon, *The Passion for the Occult in the Nineteenth and Twentieth Centuries,* Knopf, 1983.

قصة جريمتى كينير تم استخدامها من قبل مرتين: الأولى رواية كتبها رونالد هاملتون بعنوان *A Master Killing*، (١٩٧٨)، وهى تهتم فقط بمطاردة المشتبه فيهما؛ والثانية كتبتها مارجريت أتوود للتليفزيون، بعنوان *The Servant Girl, 1974* (أخرجها جورج جوناس)، وقد اعتمدت بشدة على رواية سوزانا مودى ولا يمكن أن تعتبر الآن نهائية.

وأخيرًا، أود أن أشكر الباحثة الأساسية التى ساعدتنى، روث أتوود Ruth Atwood، وإريكا هيرون Erica Heron، التى نقلت نماذج الأغطية؛ ومساعدتى ذات القيمة العالية، سارة كوبر Sarah Cooper؛ وكذلك رامساى كوك، وإليانور كوك، وروسالى أبيلا Ramsay Cook, Eleanor Cook, and Rosalie Abella، الذين قرأوا المخطوطة واقترحوا اقتراحات بالغة القيمة، ووكلائى: فويبى لارمور وفيفيان شوستر Phoebe Larmore and Vivienne Schuster، والمحررين Ellen Seligman, Nan

Marly Rusoff, Becky وكذلك كــل مــن ،A. Talese, and Liz Calder;
؛Shaw, Jeanette Kong, Tania Charzewski, and Heather Sangster
وجاى ماكفرسون وجيــروم بــاكلى Jay Macpherson and Jerome H.
Buckley، الذى علمنى تقدير أدب القرن التاسع عشــر والإعجــاب بــه؛
وأيضًا كــل مــن Michael Bradley, Alison Parker, Arthur Gelgoot,
Gene Goldberg, and Bob Clark; Dr. George Poulakakis, John and
Christiane O'Keeffe, Joseph Wetmore, Black Creek Pioneer
Village, and Annex Books; and Rose Tomato.

المؤلفة فى سطور

مارجريت أتوود

- ولدت فى ١٨ نوفمبر ١٩٣٩، أوتاوا، أونتاريو، كندا.
- تلقت تعليمها فى جامعة تورنتو، ١٩٦١، كما التحقت بجامعة هارفارد بكمبريدج، ٦٢-١٩٦٣، ٦٥-١٩٦٧.
- تنقلت فى عدة مدن بكندا، والولايات المتحدة، وإنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وهى حاليًا تعيش فى تورنتو منذ ١٩٩٢.
- عملت محاضرة للغة الإنجليزية فى عدد من الجامعات داخل كندا وخارجها، واستضافتها بعض الجامعات ككاتبة مثل جامعة تورنتو، جامعة ألاباما، جامعة نيويورك، جامعة ماكوارى بأستراليا، جامعة سان أنطونيو، بتكساس.
- رئيسة اتحاد كتاب كندا من مايو ١٩٨١ إلى مايو ١٩٨٢، وأيضًا رئيسة المركز الكندى لنادى القلم الدولى، فى الفترة من ١٩٨٤-١٩٨٦.
- متزوجة من الكاتب الكندى جرايم جيبسون، Graeme Gibson، ولديهما ثلاثة أبناء.

- بالإضافة إلى حصول عدد من كتبها على المركز الأول فى أفضل الكتب مبيعًا، فقد حصلت على العديد من الجوائز الأدبية، ومنها جائزة بوكر عام ٢٠٠٠، عن روايتها ***The Blind Assassin***، جائزة جيللر عام ١٩٩٦، عن المذنبة ***Alias Grace***، جائزة رواية العام من مؤسسة المؤلفين الكنديين عام ١٩٩٣ عن روايتها ***The Robber Bride***، وغير ذلك من الجوائز، بالإضافة إلى درجات الشرف من عدد من الجامعات الكندية والأمريكية.

- كتبت مارجريت أتوود العديد من الكتب والمقالات، ولها دواوين شعرية، وروايات، وقصص، وكتب ومقالات فى النقد الأدبى، وأعمال للأطفال، وأعمال للتليفزيون.

- من أشهر أعمالها: ***The Blind Assassin***، رواية؛ ***The Journals of Susanna Moodie***، شعر؛ ***Alias Grace***، رواية (وهى التى بين يديك الآن بعنوان "المذنبة")، ***Morning in the Burned House***، قصائد جديدة، ***Strange Things***، عن الأدب الكندى.

المترجمة فى سطور

سحر توفيق

- أديبة ومترجمة
- ولدت في القاهرة، ١٩٥١.
- تخرجت من جامعة الأزهر، ١٩٧٤.
- عملت بالتدريس في وزارة التربية والتعليم ١٩٧٥-٢٠٠٢.
- ١٩٩٤، حصلت على جائزة أركنساس عن الترجمة الإنجليزية عن مجموعة قصصية بعنوان "الجهات الأربع".
- ٢٠٠٣ـ٢٠٠٤ باحثة بالمدرسة العربية للسينما والتليفزيون على شبكة الإنترنت.
- تعيش الآن في القاهرة مع ولديها إسلام ومحمد عادل الشرقاوي.
- ومن مؤلفاتها: أن تنحدر الشمس (مجموعة قصصية)، طعم الزيتون (رواية)، رحلة السمان (رواية)
- وترجمت أيضًا: فلاحو الباشا، قصص برازيلية (بالاشتراك مع خليل كلفت)، أرض الحبايب بعيدة (بيرم التونسى)، امرأة محاربة.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩- الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣- مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا (مج١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديڤيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز – رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وأخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميوتوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٢٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٢٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٢١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٢١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٢١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٢١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل برونديتو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٢١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٢٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامى صلاح
٢٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٢٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدعورن وأخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونالدو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونالدو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مجـ٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن ڤان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومی بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسی	سير رويرت های	يوسف الشارونی
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانی المعاصر	إيميليا دی ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فی زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتی	جمال الجزيری
٥٧٤- مصر القديمة فی عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعی
٥٧٥- الاقتصاد السياسی للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشری محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودی	محمد قدری عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومی ميزوكوشی	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكی	جون ماهر وچودی جرونز	محيی الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحی عبدالهادی
٥٨١- الحمقی يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا علی الذات (رواية)	هوشنك كلشيری	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادی	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيری	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروی آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينی	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدی
٥٨٨- أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتی
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدی عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	علی عبدالتواب علی وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبری السوربونی	مجدی عبدالحافظ وعلی كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليری	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانی فوزی
٥٩٥- الحكم والسياسة فی أفريقيا (جـ٢)	إكواددو بانولی	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فی العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومی علی قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوی
٦٠٠- الإسلام فی التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلی
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافی	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسی
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق علی منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكی (الصغير)	مصطفی إبراهيم فهمی
٦٠٦- قصة البردی اليونانی فی مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنی

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وربن	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنَّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جي دي موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح أنبستاوي
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبري التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبري التهامي
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبري التهامي
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعي
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي	ألفن جولدنر	علي ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشي	ليلى الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلي
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطي
٦٧١-	قل لي كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	علي عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوي
٦٧٤-	ديوان الإمام الخميني	آية الله العظمى الخميني	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٨-	تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق علي منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستانلي فش	أحمد الشيمي
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكري	صبري محمد حسن

٦٨٣- سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤- الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥- الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦- امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧- محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨- الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩- الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠- محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١- ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢- أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣- أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤- أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥- أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦- أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧- أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨- أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩- أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠- الكاتب وواقعه	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن
٧٠١- الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢- الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤- فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥- فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦- الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧- أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨- فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩- معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠- الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجوموران إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١- درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢- ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣- ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤- ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥- جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦- جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧- جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨- جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩- جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠- جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى

٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافي أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمني	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثاليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات القوة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنًا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديبل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد
٧٥٩-	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود

٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة ( )	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقًا	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة في مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)	خواجة الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تيرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	جون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جلال عبد المقصود
٧٨٣- العدالة والرعاية الإنسانية	فيك جورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٧٠٨ / ٢٠٠٥

مجلة الابتسامة

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر إبريل 2017 **
WWW.IBTESAMA.COM

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

تأخذنا مارجريت أتوود فى رحلة عبر الزمن، لندخل إلى دهاليز حياة واحدة من أشهر نساء القرن التاسع عشر فى القارة الأمريكية. جريمة قتل بشعة، شغلت الصحف والرأى العام طويلاً فى كندا والولايات المتحدة، بل وطارت أخبارها والنقاش حولها إلى أوروبا، خاصة بريطانيا، وظلت الصحف تكتب عنها حتى نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ فالفتاة التى شاركت فى ارتكاب الجريمة كانت صغيرة جدا، مما أثار نقاشًا طويلاً وانقسامًا كبيرًا فى الرأى حول دورها الحقيقى فى الجريمة، هل كانت شريكًا فعليا فى الجريمة؟ هل كانت هى المجرم الحقيقى المحرض على ارتكاب الجريمة؟ وما دلالات ذلك على أنها شيطانة فى صورة آدمية؟ وما الدلالات الأخرى الخاصة بجنس المرأة بشكل عام؟ ثم هناك الرأى الآخر الذى رأى أنها كانت مجرد شخصية ساذجة استطاع الخادم القاتل أن يثير فيها الرعب إلى درجة أنها أطاعت أوامره خوفًا على حياتها.

الغلاف/ نسرين كشك

الهامية "رواية" 35
9030100997